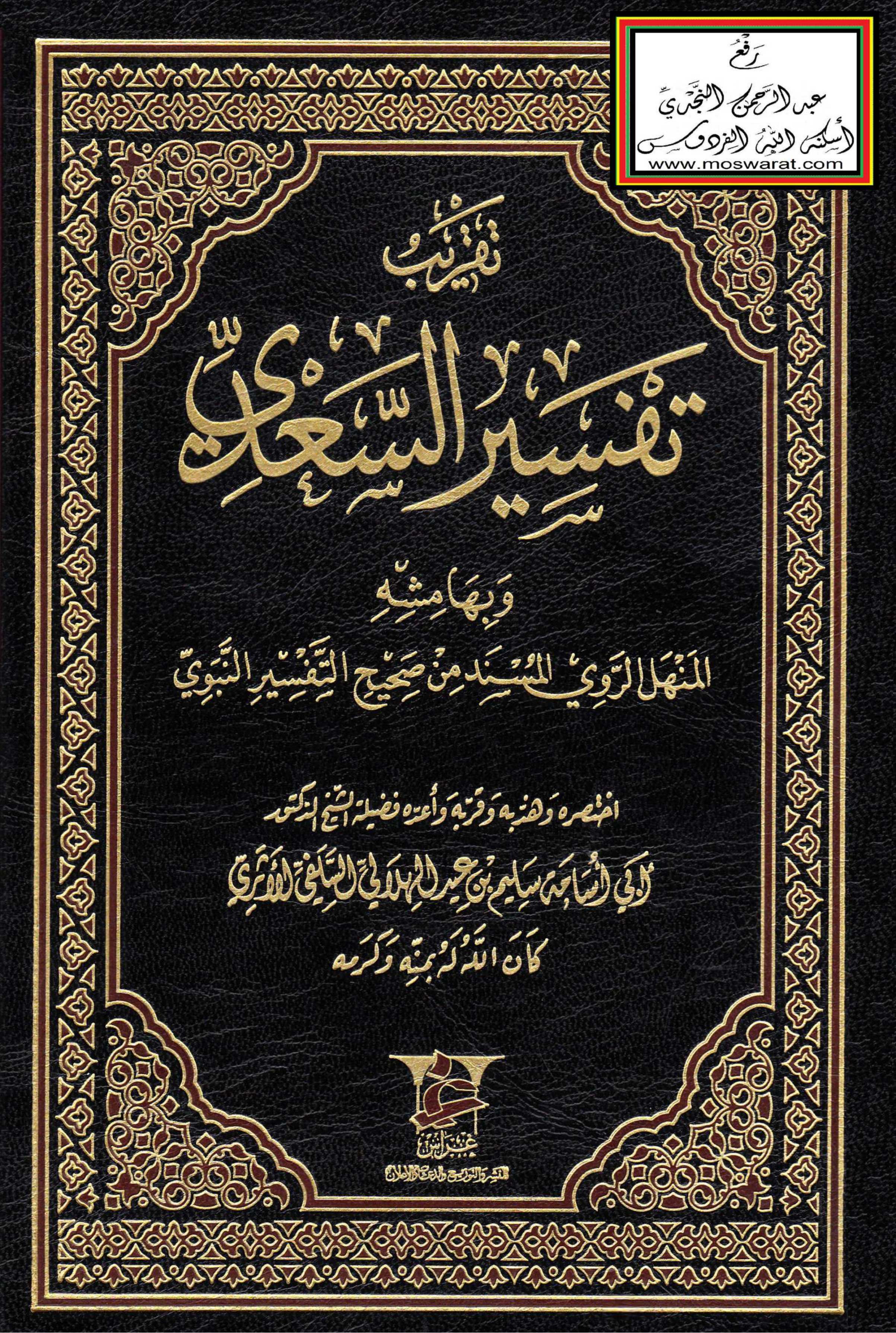

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
تقريب
تفسير السعدي
وبهامشه
المنهل الروي المسند من صحيح التفسير النبوي
اختصره وهذبه وقربه وأعده فضيلة الشيخ الدكتور
أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري
كان الله له بمنه وكرمه


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقريب
تفسير السعدي



الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية
هاتف: ٢٤٨١٩٠٣٧ - ٢٤٨٤٤٧٤٣ - فاكس: ٢٤٨٣٨٤٩٥
الكويت - الخالدية - ص. ب: ١٧٠١٢ - الرمز البريدي: ٧٢٤٥١

فرع القاهرة: الأزهر - شارع البيطار - خلف الجامع الأزهر
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٤٩٩٨٣٥٦ - ٠٠٢٠١٢٦٣٠٤٠٧٥

E-Mail info@ gheras.com | Website www.gheras.com
twitter @gheras1

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تقريب

تفسير السعدي

وبهامشه

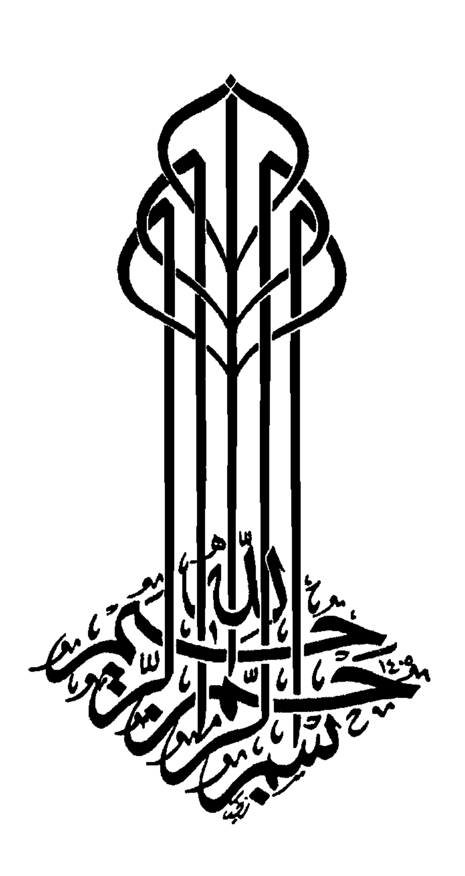
المنهل الروي المسند من صحيح التفسير النبوي

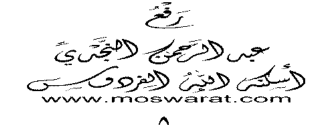
اختصره وهذبه وقربه وأعده فضيلة الشيخ الدكتور

أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري

كان الله له بمنه وكرمه







بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن علم التفسير علم يتوصل به العبد إلى معرفة مراد اللّه ﷻ، ويعين على تدبر كتاب اللّه وفهمه، واستنباط ما فيه من خيرات وعظات وأحكام وحكم، ولذلك؛ فهو علم يقوم عليه منهج الحياة؛ لأن القرآن الكريم والسنة النبوية منهج حياة.

ولذلك قال الإمام الطبري رحمه الله: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن، ولم يعلم تأويله كيف يتلذذ بقراءته».

ولقد تكاثرت تفاسير أهل العلم لكتاب الله ﷻ، وتنوعت طرائقها، واختلفت مناهجها؛ فكان من أحسنها فائدة، وأكثرها عائدة: «**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**» المشهور بـ: «تفسير السعدي» نسبة إلى الشيخ الإمام العلامة العلم عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة (١٣٧٦هـ) رحمه الله.

حيث كان لهذا التفسير الميسر خصائص كثيرة؛ منها:

١- سهولة العبارة، ووضوح الإشارة؛ حيث يفهمها الراسخ في العلم، ويستوعبها مَن دونه في الفهم.

٢- تجنب الحشو والتطويل؛ فهو: يعتني بتوضيح المقصود من الآية بكلام مختصر

مفيد، مستوعب لمقاصد الآية، ومعناها الإجمالي.

٣- الابتعاد عن مسائل الخلاف؛ إلا ما دعت الحاجة إلى ذكره، وهذا يعين على تثبيت المعنى الصحيح المراد في ذهن المتعلم.

٤- اهتم بترسيخ العقيدة السلفية؛ حيث سار على منهج السلف الصالح، وبخاصة في آيات الصفات خلافاً لمن يؤولها تأويلًا باطلًا، ويخالف مراد اللَّه ورسوله وطريقة السلف الصالح.

٥- دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والعبر، والأحكام والحكم.

٦- اعتمد على كتب التفسير السلفية الموثوقة اعتماداً كبيراً، وصاغها بأسلوب العصر الذي يناسب جميع طبقات الناس: المتعلم وغير المتعلم، والمتخصص في العلوم الشرعية وغيرها، حتى المرأة في قعر بيتها تستفيد منه؛ فهو كتاب تفسير، وعقيدة، وتربية.

وقد كتب اللَّه لهذا التفسير القبول؛ فهو من أوسع التفاسير الميسرة انتشاراً، وأكثرها نفعاً للأمة الإسلامية.

ولكن الجهد البشري لا بدَّ أن يعتريه شيء من النقص والخطأ والوهم؛ ولذلك لم يخل هذا التفسير من ذلك، ومن ذلك:

١- اختصار بعض الآيات اختصاراً مخلًّا.

٢- طوى ذكر بعض الآيات؛ فلم يفسرها، أو يشر إليها.

٣- تفسير الآيات تفسيراً إجماليًّا؛ فيجمع أكثر من آية في موضع واحد، ولذلك تغيب معاني بعض الآيات ومقاصدها في زحمة الجمع.

٤- خلا من الأحاديث الصحيحة - إلا القليل - التي فسر بها رسول اللَّه ﷺ كثيرًا من الآيات، وكذلك غابت عنه آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين نزل بين ظهرانيهم الكتاب؛ فهم أعلم بتأويله؛ لأنهم نقلته، وحملته، وشهوده.

٥- وقع الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض الأخطاء؛ كذكر بعض الروايات الضعيفة بل الموضوعة، وأشار إلى معان مأخوذة من روايات إسرائيلية، وخالف أحياناً ما اتفق عليه المفسرون من علماء أهل السنة والجماعة المحققين.

من أجل ذلك؛ فقد شرح اللَّه صدري بعد استخارة اللَّه مولاي الحق، واستشارة إخوان كرام من أهل العلم وطلابه؛ فقمت باستدراك جميع ذلك، وتصفية هذا التفسير السلفي مما عكر صفوه، وشاب جماله.

وقد سلكت المنهج الآتي:

١- الآيات التي لم يذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولم يفسرها؛ فسرتها من «تفسير الطبري»، و«تفسير ابن كثير»، و«تفسير البغوي»، وهذه أمّات التفاسير السلفية النقية.

٢- الآيات التي اختصرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصاراً مخلًا؛ أصلحت تفسيرها من التفاسير المتقدمة.

٣- جعلت التفسير زبدة؛ فجعلت كل معنى ومقصد مرتبط بلفظه في الآية؛ ليسهل على المبتدئ فهمه واستيعاب المراد منه.

٤- حذفت كل ما أخطأ فيه الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ووضعت مكانه الصحيح المتفق عليه بين أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

٥- زينته بحاشية من الأحاديث النبوية الصحيحة والآثار السلفية الصريحة التي لها ارتباط وثيق بالآية، سواء أكان في تفسيرها، أو سبب نزولها، أو بيان فضلها.

وبذلك أكون بحمد اللَّه وتوفيقه ومنته قد حققت رغبة مشروعة لكثير من المسلمين، وأمنية لجمع من العلماء الربانيين، وهو ما أشار إليه شيخنا فقيه الزمان محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث قال في «لقاء الباب المفتوح» (شريط ٣٢/ ب).

«أنا أرى أن خير التفاسير تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، على ما

فيه من بعض الآيات التي يختصر فيها اختصاراً مخلًّا، أو ربما يطويها ولا يتكلم عليها، لكن هذا قليل، إنما فيه فوائد ما تكاد تجدها في غيره؛ فهو صالح لطالب العلم، والنقص الذي فيه يمكن للإنسان أن يتلافاه بمراجعة «تفسير ابن كثير» أو غيره؛ كـ«فتح القدير» للشوكاني، وإن كان فيه ما فيه لكنه طيب».

وسميته: «تقريب تفسير السعدي»؛ فإن أصبت ووفقت؛ فذلك فضل من الله ومنّته، وإن أخطأت وقصرت؛ فمن نفسي والشيطان، وأسأل اللّه عز وجل أن يتقبل مني جهد المقل بقبول حسن، وأن يدخر لي ثوابه إلى يوم لقائه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، واللّه الهادي.

وكتبه

حامداً لربه ومصلياً ومسلماً على رسول الله

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ضحى يوم السبت (١٠/ ٥/ ١٤٣١هـ)

الموافق (٢٤/ ٤/ ٢٠١٠م)

في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن في بلاد الشام المحروسة.

تقريب

تفسير السعدي

وبهامشه

المنهل الروي المسند من صحيح التفسير النبوي

اختصره وهذبه وقربه وأعده فضيلة الشيخ الدكتور

أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري

كان الله له بمنه وكرمه



سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

(١) ﴿بِسْمِ﴾: أبتدئ بكل اسم لله تعالى؛ لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى. ﴿ٱللَّهِ﴾؛ هو: المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

(٢) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ هو: الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل. ﴿رَبِّ﴾ الرب؛ هو: المربي جميع العالمين، المدبر لجميع شؤون حياتهم الدنيوية، وهو المنعم عليهم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة، وخاصة؟. فالعامة هي: خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم. والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هم جميع ما خلق الله.

فدل قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

﴿مَٰلِكِ﴾ المالك؛ هو: من اتصف بصفة الملك، التي من آثارها أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: يوم القيامة، يوم

---

(١) في «سنن أبي داود» بإسناد صحيح، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ لا يعرف ختم السورة، حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»». أخرج الدارقطني والبيهقي بإسناد صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرءوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فإنها أم القرآن، والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها».

(٢) في «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «يقول الله - تعالى -: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾. قال: «هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

يدان الناس فيه بأعمالهم؛ خيرها وشرها، وأضاف الملك ليوم الدين - مع أن غيرها من الأيام كلها ملكه -؛ لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق، تمام الظهور، كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: نخصك وحدك بالعبادة. و«**العبادة**»: اسم جامع لما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة، والعبادة لا تكون عبادة إلا إذا كانت مأخوذة عن رسول اللَّه ﷺ، مقصودًا بها وجه اللَّه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «**الاستعانة**»؛ هي: الاعتماد على اللَّه - تعالى - في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها؛ اهتمامًا بتقديم حقه - تعالى - على حق عباده، وبيان احتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة باللَّه - تعالى -، فالتوفيق كله بيد اللَّه وحده.

(٦) ﴿ٱهْدِنَا﴾؛ أي: دلنا وأرشدنا ووفقنا إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: الطريق الواضح الموصل إلى اللَّه وإلى جنته، وهو: معرفة الحق والعمل به، وهذا يتضمن طلب الهداية إلى لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا، فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد.

(٧) ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: الذين عرفوا الحق وتركوه؛ وهم اليهود ﴿وَلَا﴾ صراط ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: الذين تركوا الحق على جهل وضلال؛ وهم النصارى.

سورة البقرة

(١) ﴿الٓمٓ﴾: الحروف المقطعة في أوائل السور؛ الأسلم فيها: السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن اللَّه - تعالى - لم ينزلها عبثًا، بل لحكمة لا نعلمها.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: هذا الكتاب العظيم، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿هُدًى﴾: ما تحصل به الهداية من الضلالة

(٧) أخرج أحمد والترمذي بإسناد صحيح، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «المغضوب عليهم: اليهود، وإن الضالين: النصارى».

والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية.

(٣) ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؛ حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح؛ فإننا نؤمن بشيء لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر اللَّه وخبر رسوله ﷺ فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر اللَّه به، أو أخبر به رسوله؛ سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه.

ويدخل في الإيمان بالغيب: الإيمان بجميع ما أخبر اللَّه به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله، وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات اللَّه ووجودها، ويتيقنونها؛ وإن لم يفهموا كيفيتها ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: إقامتها ظاهرًا؛ بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها. وإقامتها باطنًا؛ بإقامة روحها، وهو: حضور القلب فيها، وتدبر ما يقول ويفعله منها. ويدخل في الصلاة فرائضها، ونوافلها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة؛ كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه؛ لكثرة أسبابه، وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قربة إلى الله، وأتى بـ: «من» الدالة على التبعيض؛ لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءًا يسيرًا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم. وفي قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق اللَّه الذي خوَّلكم، وأنعم عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده؛ فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيرًا ما يجمع الله بين الصلاة والزكاة في القرين؛ لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين، فلا إخلاص ولا إحسان.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ هو: القرآن والسنة ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسل، وبما اشتملت عليه، خصوصًا التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصة بالمؤمنين؛ يؤمنون بالكتب الإلهية كلها، وبجميع الرسل، فلا يفرقون بين أحد منهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾: اسم لما يكون بعد الموت، وخصّه بالذكر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل ﴿يُوقِنُونَ﴾ اليقين؛ هو: العلم التام، الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل.

(٥) ﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات

---

(٤) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته؛ فأحسن تأديبها، ، ثم أعتقها وتزوجها».

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ
أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ
وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ
وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ
أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا
مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ
فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾

الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ على هدى عظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة، والأعمال المستقيمة؟ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفلاح؛ هو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اتصفوا بالكفر، وانصبغوا به، وصار وصفًا لهم لازمًا، لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيه وعظ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إنهم مستمرون على كفرهم؛ فسواء عليهم أأنذرتهم، أم لم تنذرهم؛ لا يؤمنون، فهؤلاء الكفار لا تفيدهم الدعوة؛ إلا إقامة الحجة عليهم.

(٧) ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها؛ فلا يعون ما ينفعهم ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾: ولا يسمعون ما يفيدهم ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾: غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذا عقاب عاجل، ثم ذكر العقاب الآجل؛ فقال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾: وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ يعني: المنافقين، فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فأكذبهم اللَّه بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان والأركان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

(٩) ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئًا، ويبطن خلافه، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع اللَّه وعباده هذا المسلك، ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ فعاد خداعهم على أنفسهم، كأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن اللَّه - تعالى - لا يتضرر بخداعهم شيئًا، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئًا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان؛ فسلمت بذلك أموالهم، وحقنت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع؛ بسبب كذبهم، وكفرهم، وفجورهم، ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: أنهم لجهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك.

(١٠) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾: مرض الشك، والشبهات، والنفاق. وذلك أن القلب يعرض له

مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر، والنفاق، والشكوك، والبدع؛ كلها من مرض الشبهات. والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها؛ من مرض الشهوات ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوبتها، فعقوبة المعصية: المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة: الحسنة بعدها.

(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا نُهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو: العمل بالكفر والمعاصي، ومنه: إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم، وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح؛ قلبًا للحقائق، وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًّا.

(١٢) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم فسادًا ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل اللَّه، وخادع اللَّه وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟! ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون علمًا ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علمًا تقوم به عليهم حجة الله.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ للمنافقين ﴿ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ كإيمان الصحابة -رضي اللَّه عنهم- وهو: الإيمان بالقلب واللسان والأركان ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ يعنون -قبحهم الله-: الصحابة - رضي اللَّه عنهم -؛ لزعمهم: أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وتَرْك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك؛ فنسبوهم إلى السفه. وفي ضمن ذلك: أنهم هم العقلاء، أرباب الحجا والنهى!! ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فرد اللَّه ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة؛ لأن حقيقة السفه: جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم، وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجا: معرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه، وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين، وصادقة عليهم؛ فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة، والأقوال الفارغة.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾ أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين؛ أظهروا أنهم على طريقتهم. وأنهم معهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ رؤسائهم وكبرائهم بالشر ﴿قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في الحقيقة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بالمؤمنين بإظهارنا لهم أنا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

(١٥) ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ﴾ وهذا جزاؤهم على استهزائهم بعباده: أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: يزيدهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: فجورهم وكفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾: حائرون مترددون.

(١٦) ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، وهذا من أحسن الأمثلة؛ فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ (ع)
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى؛ رغبة عنه بالضلالة؛ رغبة فيها ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ لم يحصل لهم من الهداية شيء.

(١٧) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: مثلهم المطابق لما كانوا عليه؛ كالذي استوقد نارًا في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة، فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ زال عنه النور، وذهب معه السرور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: بقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكذلك هؤلاء المنافقون: استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين - ولم تكن صفة لهم -، فاستضاءوا بها مؤقتًا وانتفعوا؛ فحقنت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم كذلك؛ إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي، على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار.

(١٨) ﴿صُمٌّۢ﴾ عن سماع الخير ﴿بُكْمٌ﴾ عن النطق به ﴿عُمْىٌ﴾ عن رؤية الحق ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه.

(١٩) ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: كصاحب المطر الذي ينزل بكثرة ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾: الصوت الذي يسمع من السحاب ﴿وَبَرْقٌ﴾: الضوء اللامع المشاهد من السحاب ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ فهكذا حالة المنافقين إذا سمعوا القرآن، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده؛ جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده، وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصَّيِّب، الذي يسمع الرعد،

فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو تعالى محيط بهم قدرة وعلمًا، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

(٢٠) ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾؛ أي: وقفوا. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾: الحسية، ففيه تخويف لهم، وتحذير من العقوبة الدنيوية؛ ليحذروا؛ فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته: أنه إذا شاء شيئًا فعله من غير ممانع ولا معارض.

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ العبادة الجامعة لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتصديق خبره ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ بعد العدم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وخلق الذين من قبلكم من الأمم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بعبادتكم اللّه وحده، واتقائكم سخطه وعذابه.

(٢٢) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من وجوه الانتفاع بها ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: جعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والسماء: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كالحبوب، والثمار؛ من نخيل، وفواكه، وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ به ترتزقون، وتقوتون، وتعيشون، وتفكهون.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: نظراء وأشباهًا من المخلوقين؛ فتعبدونهم كما تعبدون اللّه، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن اللّه ليس له شريك ولا نظير؛ لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في الألوهية والكمال. فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟!

(٢٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ يا معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه ﴿فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ في شك واشتباه، مما نزلنا على عبدنا ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ استعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهدائكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصًا وأنتم من أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم.

(٢٤) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز؛ ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا على وجه الإنصاف

---

(٢٢) أخرج ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده».

(٢٣) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

الجزء الأول — سورة البقرة

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦) ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

٥

والتنزل معكم؛ فهذا آية كبرى، ودليل واضح جلي على صدقه، وصدق ما جاء به؛ فيتعين عليكم اتباعه ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة، أن كان وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي تتقد بالحطب، ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله، فاحذروا الكفر برسوله بعد ما تبين لكم أنه رسول الله. وهذه الآية ونحوها يسمونها: آية التحدي؛ وهو: تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ﴾ أيها الرسول، ومن قام مقامك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: بساتين جامعة للأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، والأغصان والأفنان، وبذلك صارت جنة، يجتن بها داخِلُها، وينعم فيها ساكنها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتسقى منها تلك الأشجار؛ فتنبت أصناف الثمار ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ هذا من جنسه وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائمًا متلذذون بأكلها.

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾: يشبه بعضه بعضًا في الحسن واللذة والفكاهة ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ يشمل جميع أنواع التطهير؛ فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخَلْق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار. فأخلاقهن؛ أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلْقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخَلْق أيضًا بكمال الجمال، فليس فيهن عيب ولا دمامة خَلْق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح.

(٢٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾:

(٢٦) أخرج الترمذي بإسناد صحيح من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء».

أيّ مثل كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ لاشتمال الأمثال على الحكمة وإيضاح الحق، واللَّه لا يستحي من الحق، وكأن في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على اللَّه في ذلك، فليس في ذلك اعتراض؛ بل هو من تعليم اللَّه لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: فيفهمونها ويتفكرون فيها، فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل؛ ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها؛ لعلمهم بأن اللَّه لم يضربها عبثًا، بل لحكمة بالغة، ونعمة سابغة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾: فيعترضون ويتحيرون؛ فيزدادوا كفرًا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: الخارجين عن طاعة الله، المعاندين لرسل الله، فاقتضت حكمته تعالى إضلالهم؛ لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

(٢٧) ثم وصف الفاسقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبين ربهم، والذي بينهم وبين الخلق؛ الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق؛ بل ينقضونها، ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾؛ هذا يدخل فيه أشياء كثيرة: فإن اللَّه أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه؛ بالإيمان به، والقيام بعبوديته. وما بيننا وبين رسوله؛ بالإيمان به، ومحبته، وتعزيره، والقيام بحقوقه. وما بيننا وبين الوالدين، والأقارب، والأصحاب وسائر الخلق؛ بالقيام بحقوقهم التي أمر اللَّه أن نصلها.

فأما المؤمنون؛ فوصلوا ما أمر اللَّه به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون؛ فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم، معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي؛ وهو الإفساد في الأرض ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: من هذه صفته ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له؛ لا عمل له، وهذا الخسار؛ هو: خسار الكفر.

(٢٨) ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾: كيف يحصل منكم الكفر بالله ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد البعث والنشور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم الجزاء الأوفى؟! فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وتحت أوامره الدينية، وبعد ذلك تحت جزائه؛ أفيليق بكم أن تكفروا به؟! وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير؛ بل الذي يليق بكم أن تتقوه، وتشكروه، وتؤمنوا به، وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

(٢٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: خلق لكم جميع ما على الأرض؛ للانتفاع، والاستمتاع، والاعتبار. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة؛ لأنها سيقت في معرض الامتنان، فتخرج بذلك الخبائث؛ لما فيها من ضرر.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ لما خلق تعالى الأرض؛ ارتفع إلى السماء ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فيعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، ويعلم السر وأخفى. فخلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

(٣٠) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله، وأن اللّه - تعالى - حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن اللّه مستخلفه في الأرض. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وهذا تخصيص بعد تعميم؛ لبيان شدة مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة اللّه على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾؛ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ونقدس لك أنفسنا، ونطهرها بالأخلاق الجميلة؛ كمحبة اللّه وخشيته وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة ﴿قَالَ﴾ اللّه - تعالى - للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر.

(٣١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾؛ أي: أسماء الأشياء، وما هو مسمى بها، فعلّمه الاسم والمسمى؛ أي: الألفاظ والمعاني، حتى المصغر

---

(٣٠) في «صحيح مسلم»، عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أي: الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده».

(٣١) في «الصحيحين»، من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء ...» الحديث.

من الأسماء والمكبر؛ كالقصعة، والقصيعة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ أي: عرض المسميات ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾؛ امتحانًا لهم، هل يعرفونها أم لا؟ ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم وظنكم: أنكم أفضل من هذا الخليفة.

(٣٢) ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾؛ أي: ننزهك من الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه، فضلاً منك وجودًا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمًا بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿الْحَكِيمُ﴾: من له الحكمة التامة، التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور. فما خلق شيئًا إلَّا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به.

(٣٣) ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾: أسماء المسميات التي عرضها اللَّه على الملائكة؛ فعجزوا عنها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ وهو: ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالمًا بالغيب؛ فالشهادة من باب أولى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾؛ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: تخفون.

(٣٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾: ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم؛ إكرامًا له وتعظيمًا، وعبودية لله - تعالى -؛ ﴿فَسَجَدُوا﴾ فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾: امتنع عن السجود، ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن أمر اللَّه وعلى آدم، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطو عليه؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات؛ إثبات الكلام لله - تعالى -، وأنه لم يزل متكلمًا؛ يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم.

وفيه: أن العبد إذا خفيت عليه حكمة اللَّه في بعض المخلوقات والمأمورات؛ فالواجب عليه التسليم واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة.

وفيه: اعتناء اللَّه بشأن الملائكة، وإحسانه بهم؛ بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه.

وفيه فضيلة العلم من وجوه؛ منها: أن اللَّه تعرف لملائكته بعلمه وحكمته.

ومنها: أن اللَّه عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ومنها: أن اللَّه أمرهم بالسجود لآدم؛ إكرامًا له، لما بان فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان آدم، وأفضال اللَّه عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

(٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾: لما خلق اللَّه آدم وفضَّله، أتَمَّ نعمته عليه بأن خلق منه زوجة؛ ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: واسعًا هنيئًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: من أصناف الثمار والفواكه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾:

الجزء الأول — سورة البقرة

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

ع ٤ — نصف الحزب ١ — ع ٥

٧

نوع من أنواع شجر الجنة، اللَّه أعلم بها. وإنما نهاهما عنها؛ امتحانًا وابتلاء، أو لحكمة غير معلومة لنا ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دل على أن النهي للتحريم؛ لأنه رتب الظلم عليه.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؛ أي: حملهما على الزلل بتزيينه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والرغد، وأُهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي: آدم وذريته أعداء إبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجدُّ ويجتهد في ضرر عدوه، وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا تحذير بني آدم من الشيطان ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: مسكن وقرار ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتم لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكنًا حقيقيًا، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾: تلقف وتلقن، ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ وألهمه اللَّه ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ فاعترف بذنبه وسأل اللَّه مغفرته ﴿فَتَابَ﴾ اللَّه ﴿عَلَيْهِ﴾ ورحمه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب إليه وأناب، وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانيًا ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده، ومن رحمته بهم: أن وفقهم للتوبة، وعفا عنهم وصفح.

(٣٨) ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر الإهباط؛ ليرتب عليه ما ذكر، وهو قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾؛ أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من رضائي ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ منكم؛ بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر، والاجتناب للنهي؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما؛ وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه؛ حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف،

والحزن، والضلال والشقاء، فحصل المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينصرون.

(٤٠) ثم شرع تعالى يُذَكِّر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ هو: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فِرَقِ بني إسرائيل الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من أتى بعدهم ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾: أمرهم بأمر عام، وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد: ذكرها بالقلب اعترافًا، وباللسان ثناء، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضاه﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾: وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسله، وإقامة شرعه؛ ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾: وهو المجازاة على ذلك. ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده؛ وهو: الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده؛ فإن مَن خشيه؛ أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتناب نهيه.

(٤١) ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾؛ وهو: القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مُصَدِّقٗا﴾: موافقًا ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ من الكتب، لا مخالفًا ولا مناقضًا، وأيضًا؛ فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا؛ عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم؛ لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم. وأيضًا؛ فإن في الكتب التي بأيدكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به؛ كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه؛ فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر بالرسول؛ فقد كذب الرسل جميعهم، فلما أمرهم بالإيمان به نهاهم وحذرهم عن ضده؛ وهو: الكفر؛ فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾؛ أي: بالرسول والقرآن. وقوله ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ أبلغ من قوله: (ولا تكفروا به)؛ لأنهم إذا كانوا أول كافر به كان فيه مبادرتهم إلى الكفر، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾: وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا باللّه ورسوله، فاشتروها بآيات اللّه واستحبوها وآثروها ﴿وَإِيَّٰيَ﴾؛ أي: لا غيري ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فإنكم إذا اتقيتم اللّه وحده؛ أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل؛ فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ﴾: تخلطوا ﴿ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ

(٤١) أخرج أبو داود وابن حبان وأحمد حديث أبي هريرة الصحيح؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلَّا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يَرَح رائحة الجنة يوم القيامة».

﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ فنهاهم عن شيئين: عن خلط الحق بالباطل، وكتمان بيان الحق ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ومَن لبس الحق بالباطل فلم يميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأُمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مستحقيها ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل اللَّه وآيات الله؛ فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فيه: الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه: أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

(٤٤) ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾؛ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سمى العقل: عقلاً؛ لأنه يعقل ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه؛ دل على عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا؛ فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فتَرْك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر؛ فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر؛ فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير. وأيضًا؛ فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

(٤٥) ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أمرهم اللَّه - تعالى - أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه؛ وهو: الصبر على طاعة اللَّه حتى يؤديها، والصبر عن معصية اللَّه حتى يتركها، والصبر على أقدار اللَّه المؤلمة؛ فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر اللَّه بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره اللَّه ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وَإِنَّهَا﴾؛

(٤٤) أخرج أحمد حديث أنس الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «مررت ليلة أسري بي على قوم شفاهم تقرض بمقاريض من نار». قال: «قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا، ممن كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون».

وأخرج الطبراني، والخطيب في «الاقتضاء»، والأصفهاني في «الترغيب» حديث جندب بن عبد الله الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير، ولا يعمل به؛ كمثل السراج، يضيء للناس، ويحرق نفسه».

أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية اللَّه ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحًا صدره؛ لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك؛ فإنه لا داعي له يدعوه إليه، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه، والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله - تعالى -، وانكساره بين يديه؛ ذلاً وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه.

(٤٦) ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونَفَّسَ عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العالية، وأما من لم يؤمن بلقاء ربه؛ كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه.

(٤٧) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته؛ وعظًا لهم، وتحذيرًا وحثًّا ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على سائر الأمم من أهل زمانهم.

(٤٨) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ خوفهم بيوم القيامة الذي ﴿لَا تَجْزِي﴾: لا تغني ﴿نَفْسٌ﴾ ولو كانت من الأنفس الكريمة؛ كالأنبياء، والصالحين ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ ولو كانت من العشيرة الأقربين ﴿شَيْئًا﴾ لا كبيرًا ولا صغيرًا، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾؛ أي: النفس ﴿شَفَاعَةٌ﴾ لأحد بدون إذن اللَّه، ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى من العمل إلا ما أريد به وجهه، وكان على السبيل والسنة ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: فداء

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

٨

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: يدفع عنهم المكروه، فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه.

فقوله: ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ هذا في تحصيل المنافع ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقبل به النافع وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض كالعدل، أو بغيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين؛ لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يُعلِّقه باللَّه الذي يجلب المنافع ويدفع المضار؛ فيعبده وحده لا شريك له، ويستعينه على عبادته.

(٤٩) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أشده؛ بأن كانوا

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ خشية نموكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: فلا يقتلونهن، فأنتم بين قتيل ومُذَلَّل بالأعمال الشاقة، مستحيَى على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه، فهذا غاية الإهانة، فَمَنَّ اللَّه عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون؛ لتقر أعينهم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء ﴿بَلَآءٌ﴾: إحسان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

(٥٠) ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ لما خرج موسى ببني إسرائيل إلى البحر أوحى اللَّه إلى موسى: أن اضرب البحر بعصاك. فضربه؛ فانفلق، فكان كل قسم كالجبل العظيم، ثم سار موسى ومن معه ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وأتبعهم فرعون وقومه في طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه؛ أطبقه اللَّه على آل فرعون وأغرقهم، ونجَّا اللَّه موسى وأتباعه، وموسى ينظر هو وبنو إسرائيل إلى آل فرعون يغرقون.

(٥١) ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: ثم ذكر منَّته عليهم بوعده لموسى أربعين ليلة؛ لينزل عليهم التوراة المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: ذهابه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ عالمون بظلمكم، قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم جرمًا، وأكبر إثمًا.

(٥٢) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى؛ بأن يقتل بعضكم بعضًا، فعفا اللَّه عنكم بسبب ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله.

(٥٣) ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ يعني: التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلالة ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ لكي تهتدوا من الضلالة.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ بعبادتكم العجل واتخاذه إلهًا من دون اللَّه ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ فتوبوا إلى خالقكم ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: وتوبتهم تتحقق بأن يقتل بعضهم بعضًا ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾فتاب على القاتل والمقتول، فللحي توبة، وللميت شهادة.

(٥٥) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾: لن نصدقك في أن الكلام الذي نسمعه هو كلام اللَّه ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ أي: علانية، وهذا غاية الجرأة على اللَّه وعلى رسوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ إما الموت، أو الغشية العظيمة ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وقوع ذلك، كلٌّ ينظر إلى صاحبه.

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ ثم أحياكم اللَّه بعد موتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لعلكم تذكروا نعمته عليكم، وتشكروه على ما منَّ به عليكم.

(٥٧) ثم ذكر نعمته عليهم في التِّيهِ والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾؛ وهو: اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب. ومنه: الزنجبيل، والكمأة، والخبز، وغير ذلك ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: طائر

(٥٧) في «الصحيحين» من حديث سعيد بن زيد ﷺ، قال: قال ﷺ: «الكمأة من المَنِّ، وماؤها شفاء للعين».

صغير، يُقال له: السماني، طيب اللحم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: رزقًا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفهين، فلم يشكروا هذه النعمة، واستمروا على قساوة القلوب، وكثرة الذنوب ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ يعني: بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعات الطائعين ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيعود ضرره عليهم.

(٥٨) ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: أمرهم بدخول قرية تكون لهم عزًّا، ووطنًا، ومسكنًا، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ أي: يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل؛ وهو دخول باب القرية سجدًا؛ أي: خاضعين ذليلين، وبالقول؛ وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم؛ أي: جزاءً عاجلًا وآجلًا.

(٥٩) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم، ولم يقل: فبدلوا؛ لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل حِطة: حبة في حنطة؛ استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته؛ فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى﴾: ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم؛ قال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

٩

منهم ﴿رِجْزًا﴾: عذابًا؛ وهو: الطاعون ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ بسبب فسقهم وبغيهم.

(٦٠) ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾؛ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ منهم ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضًا، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ الذي آتاكم من غير

---

(٥٩) في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا. وقالوا: حطة حبة في شعرة».

في «صحيح مسلم» من حديث سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز، عذاب عذب به من كان قبلكم».

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

سعي ولا تعب ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: تخربوا على وجه الإفساد.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾: واذكروا إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله، والاحتقار لها: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾؛ أي: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعًا؛ لكنها لا تتغير ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: وهو الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾؛ أي: ثومها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ والعدس والبصل معروف. قال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو الأطعمة المذكورة ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾: وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم؛ فإن هذه الأطعمة التي طلبتموها ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أيّ مصرٍ هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي من اللّه به عليكم؛ فهو خير الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟!

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم، واحتقارهم لأوامر اللّه ونعمه؛ جازاهم من جنس عملهم، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبئس الغنيمة غنيمتهم، وبئس الحالة حالتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالات على الحق، الموضحة لهم ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة شناعة، وإلا؛ فمن المعلوم أن قتل النبيين لا يكون بحق، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم و﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ بأن ارتكبوا معاصي اللّه ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ على عباد الله؛ فإن المعاصي يجر بعضها بعضًا.

(٦٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: قال تعالى هذا الكلام حاكمًا بين الفرق الكتابية، وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة؛ لأن الصابئين ـ الصحيح أنهم ـ من جملة فرق النصارى، فأخبر اللّه أن المؤمنين من هذه الأمة واليهود والنصارى والصابئين من آمن باللّه واليوم الآخر، وصدقوا رسلهم؛ فإن لهم الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر؛ فهو بضد هذه الحالة، فعليه الخوف والحزن.
والصحيح: أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن: إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام؛ فلابد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، وذلك أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمَّهم وذكر معاصيهم وقبائحهم؛ ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان ذكر بني إسرائيل خاصة يوهم الاختصاص بهم؛ ذكر - تعالى - حكمًا عامًّا يشمل الطوائف كلها؛ ليتضح الحق، ويزول التوهم والإشكال.

(٦٣) ﴿وَ﴾؛ أي: واذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾: وهو العهد الثقيل ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: أكد هذا العهد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم، وقيل لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم﴾ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجد واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾: ما في كتابكم، بأن تتلوه وتتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى.

(٦٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: أعرضتم بعد هذا الميثاق العظيم والتأكيد البليغ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوبته عليكم، وإرساله النبيين والمرسلين إليكم؛ ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾: ولقد تقرر عندكم حالة ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في «سورة الأعراف»، في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ الآيات.
﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟﴾، فأوجب لهم هذا الذنب العظيم؛ أن غضب الله عليهم وجعلهم ﴿قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾: حقيرين ذليلين.

(٦٦) ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا﴾: وجعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: لمن حضرها من الأمم وبلغه خبرها ممن هو في وقتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: من بعدهم فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه؛ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وأما من عداهم؛ فلا ينتفعون بالآيات.

(٦٧) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾؛ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى حين قتلتم قتيلًا، وادارأتم فيه؛ أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله؛ حتى تفاقم الأمر بينكم، وكاد - لولا تبيين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبيين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه؛ ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فـ﴿قَالُوٓا۟﴾ المعترضون: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟ فـ﴿قَالَ﴾ نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾؛ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل؛ فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي مثله، فلما قال لهم موسى ذلك؛ علموا أن ذلك صدق.

الجزء الأول — سورة البقرة

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

١١

(٦٨) فـ﴿قَالُوا۟﴾: بعد قيام الحجة عليهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؛ أي: ما سنها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾؛ أي: كبيرة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾؛ أي: صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: متوسطة بين السنين، المذكورين سابقًا: وهما الصغر والكبر ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ واتركوا التشديد والتعنت.

(٦٩) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ أي: شديد ﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ من حسنها.

(٧٠) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ فلم نهتد إلى ما تريد ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾؛ أي: إذا بينتها لنا إنا لمهتدون إليها، ولو لم يقولوا: إن شاء الله؛ لم يهتدوا إليها.

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾: مذللة بالعمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ بالحراثة ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾: ليست بسانية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ بريئة من العيوب، أو معفاة من العمل ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالبيان الواضح! وهذا من جهلهم، وإلا؛ فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة؛ فشدد اللّٰه عليهم ﴿فَذَبَحُوهَا﴾؛ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

(٧٢) ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم واختصمتم فيها، فقال بعضكم لبعض: أنتم قتلتموها، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموها ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: تغيبون.

(٧٣) ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا القتيل ببعضها؛ أي: بعضوٍ منها؛ إما بعضو معين، أو أيّ عضو منها، فضربوه ببعضها، فأحياه الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء اللّٰه الموتى ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تنزجرون عن ما يضركم.

(٧٤) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: اشتدت وغلظت، فلم تؤثّر فيها الموعظة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد ما

(٦٨) أخرج الطبري، وابن أبي حاتم بإسناد صحيح، عن ابن عباس ﵄ قال: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شددوا؛ فشدد الله عليهم».

أنعم اللَّه عليكم بالنعم العظيمة، وأراكم الآيات (فهي) ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد؛ لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب، بخلاف الأحجار، وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؛ أي: إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليست (أَوْ) بمعنى بل.

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فَضَلَتْ قلوبكم.

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها، حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٧٥) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ أي: فلا تطمعوا في إيمانهم، وأخلاقهم لا تقتضي الطمع فيهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم كانوا يحرفون كلام اللَّه من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله؛ ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾؛ ذكر حال منافقي أهل الكتاب: أنهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان قولاً بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: فيكون ذلك حجة

الجزء الأول — سورة البقرة

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

ع ٩

١٢

لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقل فتتركون ما هو حجة عليكم؟! هذا يقوله بعضهم لبعض.

(٧٧) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا: أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين؛ فإن هذا غلط منهم وجهل كبير؛ فإن اللَّه يعلم سرهم وعلنهم، فيظهر لعباده ما هم عليه.

(٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ﴾: عوام، وليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾: ليس لهم حظ من كتاب اللَّه إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما

عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم. فذكر في هذه الآيات علماءهم وعوامهم ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم؛ فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم في الطائفتين.

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ توعد تعالى المحرفين للكتاب الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق؛ بل بأبطل باطل؛ ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال. والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

(٨٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: ذكر تعالى أفعالهم القبيحة، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة؛ أي: قليلة تعد بالأصابع! فجمعوا بين الإساءة والأمن، ولما كان هذا مجرد دعوى؛ رد اللّه - تعالى - عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد اتخذوا عند اللّه عهدًا؛ فتكون دعواهم صحيحة، وإما أن يكونوا متقولين عليه؛ فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند اللّه عهدًا؛ لتكذيبهم كثيرًا من الأنبياء حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله، ونقضهم المواثيق؛ فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم؛ من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات.

(٨١) ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتم؛ فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾

(٨٠) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان من اليهود ها هنا». فقال لهم: «من أبوكم؟» فقالوا: فلان. قال: «كذبتم، بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم! وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهلُ النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقي عن شيء إذا سألتكم عنه؟» قالوا: نعم، يا أبا القاسم! فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟ «فقالوا: نعم. قال: «فما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك.

والمراد به: هنا الشرك؛ بدليل قوله: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذًا؛ وهذا لا يكون إلا الشرك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: هالكون فيها أبدًا.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعًا بها سنة رسوله ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فحاصل هاتين الآيتين: أن أهل النجاة والفوز؛ هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار؛ هم المشركون بالله، الكافرون به.

(٨٣) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ هذا من قسوتهم، أن كل أمر أمروا به استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة، والعهود الموثقة ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: هذا أمر بعبادة اللَّه وحده، ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق اللَّه - تعالى - على عباده ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾؛ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يعم كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة؛ لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده. وللإحسان ضدان: الإساءة؛ وهي أعظم جرمًا وترك الإحسان بدون إساءة؛ وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول (وذي القربى واليتامى والمساكين)وكذا يقال في

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾

١٣

صلة الأقارب واليتامى والمساكين.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عمومًا، فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾؛ ومن القول الحسن: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ثم أمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد(*) ﴿ثُمَّ﴾؛ أي: بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل؛ عرف أن من إحسان اللَّه على عباده أن أمرهم بها وتفضل بها عليهم، وأخذ المواثيق عليكم ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا

(*) تقدم في أول سورة البقرة (آية: ٣، ص: ١٢).

مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ على وجه الإعراض؛ لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر لأنه قد ذكر ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ آنفًا أما هذا فاستئناف، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ هذا استثناء؛ لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلًا منهم عصمهم اللّه وثبتهم.

(٨٤) - (٨٥) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ هذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة؛ وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل بعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود - بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع -، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين يعينونهم الفرقة الأخرى من اليهود؛ فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين؛ فدى بعضهم بعضًا.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم: ففرض عليهم ألّا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، وإذا وجدوا أسيرًا منهم وجب عليهم فداؤه.

فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر اللّه عليهم ذلك، فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾: وهو فداء الأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾: وهو القتل والإخراج؟ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد وقع ذلك؛ فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾: أعظمه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

(٨٦) ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار؟ فاختاروا النار على العار؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾، بل: هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يدفع عنهم مكروه.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل لهم كليمه موسى، وآتاه التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ ثم تابع بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: قواه اللّه بروح القدس. قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ ثم مع هذه النعم التي لا يُقدَّر قَدْرُها، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ربع الحزب ٢

لا يخفى.

(٨٨) ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه يا أيها الرسول بأن قلوبهم غلف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول. يعني: فيكون لهم بزعمهم عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أنهم مطرودون ملعونون؛ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: بسبب كفرهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

(٨٩) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولما جاءهم كتاب من اللَّه على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقد علموا به وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب؛ استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾: فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بغيًا وحسدًا أن ينزل اللَّه من فضله على من يشاء من عباده ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلعنهم الله، وغضب عليهم؛ لكثرة كفرهم، وتوالي شكهم وشركهم.

(٩٠) ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: بئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان باللَّه وكتبه ورسله الكفر به وبرسله، مع

(٨٩) أخرج الإمام أحمد في «المسند» بإسناد حسن عن سلمة بن سلامة بن وقش - وكان من أصحاب بدر - قال: كان لنا جارٌ من يهود في بني عد الأشهل-، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أَحْدَثُ من فيه سِنًّا، علي بُرْدةٌ مضطجعاً فيها بِفِنَاء أهلي-، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان!، ترى هذا كائناً أنَّ الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جَنَّةٌ ونار، يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يُحْلَفُ به لودَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تَنُّورٍ في الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك، وما آية ذلك ؟ قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قال فنظر إلي وأنا من أحدثهم سنًّا، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغيًا، وحسداً، فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، وليس به.

علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾؛ أي: فعلوا ذلك كله بغيًا وحسدًا أن ينزل اللَّه من فضله على من يشاء من عباده؛ فلعنهم الله، وغضب عليهم غضبًا بعد غضب ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: مؤلم موجع؛ وهو صلي الجحيم وفوت النعم المقيم، فبئس الحال حالهم.

(٩١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل اللَّه على رسوله، وهو القرآن، استكبروا وعتوا، و﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل اللَّه مطلقًا، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع: الإيمان بما أنزل اللَّه على جميع رسله، وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض؛ فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه؛ ولهذا ردَّ عليهم تبارك وتعالى ردًّا شافيًا، وألزمهم إلزامًا لا محيد لهم عنه، فرد عليهم كفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم؛ فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾: موافقًا له في كل ما دل عليه من الحق، ومهيمنًا عليه، فلِمَ تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بنظيره؟! هل هذا إلا تعصب، واتباع الهوى لا الهدى؟

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين بدعواكم الإيمان بما أنزل إليكم؛ فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها، وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم؟ فقتلتموهم بغيًا وعنادًا واستكبارًا على رسل الله.

(٩٢) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ عبدتم العجل بعد مجيئه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في ذلك، ليس لكم عذر.

(٩٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه، ثم خالفوه! ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ﴾: سماع قبول وطاعة واستجابة ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم وتشربها، ﴿بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ بسبب كفرهم ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أنتم تدَّعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهًا من دون اللَّه لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتم بالقول، ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتم؟ وما هذا الدين؟! فإن كان هذا إيمانًا على زعمكم؛ فبئس الإيمانُ الداعي صاحبَه إلى الطغيان والكفر برسل الله، وكثرة العصيان.

الجزء الأول — سورة البقرة

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١٥

(٩٤) ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾؛ يعني: الجنة ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم: أنه لن يدخل الجنة إلَّا من كان هودًا أو نصارى، وأن النار لن تمسكم إلَّا أيامًا معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى؛ ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ؛ إما أن يؤمنوا باللَّه ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو: تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا عن ذلك.

(٩٥) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي؛ لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شيء لهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أنهم في غاية المعاندة والمحادّة لله ورسوله، مع علمهم بذلك. ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾؛ أي: علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك.

(٩٦) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: هم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس؛ حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المحالات ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور؛ لم يغن عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم من العذاب شيئًا ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

(٩٧) ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة اللَّه لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على اللَّه ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ

(٩٤) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به؛ فإن كان لابدّ متمنيًا؛ فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي».

(٩٧) في «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفًا». قال: جبريل؟! قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقرأ هذه الآية «﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾...» الحديث.

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

١٢

١٦

قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره وأرسله بذلك، فهو رسول محض، مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مصدقًا لما تقدمه من الكتب، غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به.

(٩٨) ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته وعداوة لله ولرسله وملائكته؛ فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله، فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

(٩٩) يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغًا عظيمًا ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

(١٠٠) ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم وعدم صبرهم على الوفاء بها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والسبب: أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود.

(١٠١) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي أنزل إليهم؛ أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا أبلغ في الإعراض، كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به.

(١٠٢) ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ

(١٠٢) في «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول: كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله. قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت».

سُلَيۡمَٰنَۖ﴾: ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به ولم ينتفع؛ ابتلي بالاشتغال بما يضره، فكذلك هؤلاء اليهود، لما نبذوا كتاب اللَّه اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان، حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا: أن سليمان عَلَيۡهِ السَّلَامُ كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم! وهم كذبة في ذلك؛ فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قيله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ بتعلم السحر، فلم يتعلمه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ في ذلك ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾؛ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحانًا وابتلاءً من اللَّه لعباده، فيعلمانهم السحر ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾؛ أي: لا تتعلم السحر؛ فإنه كفر؛ فينهيانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته.

فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى سليمان عَلَيۡهِ السَّلَامُ، وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحهما؛ لئلا يكون لهم حجة، فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾: ثم ذكر الحق - تبارك وتعالى - مفاسد السحر، وأنه يفرق بين الرجل وزوجته، مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، فيتعلمون من الأفاعيل ما فيه ضرر وتفريق بينهما، وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، وأن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير؛ فإنها تابعة للقضاء والقدر.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾؛ أي: أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة؛ لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، فهذا السحر مضرة محضة؛ فليس له داع أصلاً ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ﴾ اليهود ﴿لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾: نصيب، بل هو موجب للعقوبة ﴿وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ علمًا يثمر العمل؛ ما فعلوه.

(١٠٣) ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾: لو أنهم آمنوا باللَّه ورسوله، واتقوا المحارم؛ لكان مثوبة اللَّه على ذلك خيرًا لهم مما استماروا لأنفسهم ورضوا به.

(١٠٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾: كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول ﷺ عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رَٰعِنَا﴾؛ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحًا، وكان اليهود يريدون بها معنًى

---

(١٠٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنۡهُمَا قال: رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

الجزء الأول — سورة البقرة

نصف الحزب ٢

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

٦٣

١٧

فاسدًا، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى اللَّه المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سدًّا لهذا الباب، ففيه: النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه: الأدب واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة أو التي فيها تشويش واحتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور ﴿وَاسْمَعُوا﴾ لم يذكر المسموع؛ ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة، لفظًا ومعنى واستجابة، ففيه: الأدب والطاعة ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع.

(١٠٥) ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾: أخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ لا قليلًا ولا كثيرًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ حسدًا منهم، وبغضًا لكم أن يختصكم بفضله، فإنه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ومن فضله عليكم: إنزال الكتاب على رسولكم؛ ليزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

(١٠٦) ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ: نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر - أو إلى إسقاطه -، وكان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز! مع أنه مذكور عندهم في التوراة؛ فإنكارهم له كفر، وهوىً محض ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ ننسها العبادَ، فنزيلها من قلوبهم ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ وأنفع لكم ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾؛ فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول؛ لأن فضله تعالى يزداد، خصوصًا على هذه الأمة التي سهل عليها دينها غاية التسهيل، وأخبر أن من قدح في النسخ؛ فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١٠٧) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فإذا كان مالكًا لكم، متصرفًا فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه؛ فكذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام، فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟! ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: فهو ولي عباده ونصيرهم؛ فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن

ولايته لهم: أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

(١٠٨) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ﴾: ينهى اللَّه المؤمنين - أو اليهود - بأن يسألوا رسولهم ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أسئلة التعنت والاعتراض، فهذه ونحوها هي المنهي عنها، وأما سؤال الاسترشاد والتعليم؛ فهذا محمود قد أمر اللَّه به، ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر؛ قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

(١٠٩) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ وسعوا في ذلك، وعملوا المكايد ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾: فأمرهم اللَّه بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: وقد كان ذلك، فقد أتى أمر اللَّه إياهم بالجهاد، فشفى اللَّه أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأَجلوا من أجلوا.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: ثم أمرهم اللَّه بالاشتغال بالوقت الحاضر؛ بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير؛ فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدونه عنده وافرًا موفرًا قد حفظه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١١١) ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؛ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلاَّ من كان نصارى. فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: وهذا الادعاء مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، فالبرهان: هو الذي يصدق الدعوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان؛ علم كذبهم بتلك الدعوى.

(١١٢) ثم ذكر اللَّه البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: ليس بأمانيكم ودعاويكم، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: أخلص لله أعماله، متوجهًا إليه بقلبه ﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه؛ فأولئك هم أهل الجنة وحدهم ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فحصل

---

(١٠٨) أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

(١٠٩) أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» بإسناد صحيح - وأصله في «الصحيحين» - عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش.

الجزء الأول — سورة البقرة

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

١٨

لهم المرغوب، ونجو من المرهوب.

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضًا، وكفر بعضهم بعضًا ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين، بحكمه العدل الذي أخبر به عباده.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: لا أحد أظلم وأشد جرمًا ممن منع مساجد اللّه عن ذكر اللّه فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات ﴿وَسَعَىٰ﴾: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِى خَرَابِهَآ﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها، وتخريبها، وتقذيرها. والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم اللّه فيها، ونشر البدع والضلالات، وإماتة السُّنة فيها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ فجازاهم اللّه بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلّا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله؛ أخافهم الله. واستدل العلماء بالآية الكريمة على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾: فضيحة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمات بيوت الله.

(١١٥) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما محل الآيات العظيمة في مطالع الأنوار ومغاربها، فإذا كان مالكًا لها؛ كان مالكًا لكل الجهات ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ وجوهكم من الجهات إذا كان توليكم إياها بأمره: إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها؛ فإن القبلة حيثما توجه العبد، أو تشتبه القبلة؛ فيتحرى الصلاة إليها ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورًا بصلب. أو مرض، ونحو ذلك.؛ فهذه الأمور إما أن يكون العبد فيها

(١١٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن بسر بن أرطأة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة».

(١١٥) أخرج الترمذي وابن ماجه، حديث أبي هريرة الصحيح لغيره، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

معذورًا أو مأمورًا، وبكل حال؛ فما استقبل جهة من الجهات خارجة عن ملك ربه ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: فيه إثبات الوجه لله - تعالى - على الوجه اللائق به - تعالى -، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو تعالى واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسرائركم ونياتكم.

(١١٦) ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾؛ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأساءوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم، وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومع رده لقولهم أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده مفتقرين إليه، وهو غني عنهم؛ فكيف يكون منهم أحد يكون له ولدًا؟!

والقنوت نوعان: قنوت عام؛ وهو: قنوت الخلق كلهم تحت تدبير الخالق. وقنوت خاص؛ وهو: قنوت العبادة.

(١١٧) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يستعصي عليه، ولا يمتنع منه.

(١١٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلَّا يكلمنا اللّه كما كلَّم الرسل؟! ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة التي تجرؤوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ فهذا دأبهم مع رسلهم؛ يطلبون آيات التعنت لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبيين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات بما يؤمن على مثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ فكل موقن فقد عرف من آيات اللّه الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

(١١٩) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾: فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور: الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة، فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ والثالث في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾. قوله ﴿بَشِيرٗا﴾؛ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿وَنَذِيرٗاۖ﴾ لمن عصاك

(١١٦) أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس ﵄، عن النبي ﷺ قال: «قال الله - تعالى -: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي؛ فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان. وأما شتمه إياي؛ فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا».

الجزء الأول — سورة البقرة

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا
لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ
فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ
لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

١٩

بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾: لست مسئولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

(١٢٠) ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ يخبر - تعالى - رسوله: أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم؛ لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى! فقل لهم: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلت به ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، وأما ما أنتم عليه؛ فهو الهوى، وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم بما يختص به دينهم. والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ؛ فإن أمته داخلة في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب.

(١٢١) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يخبر - تعالى - أن الذين آتاهم الكتاب ومنَّ عليهم به منّة مطلقة، أنهم ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع؛ فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب؛ الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾، فهؤلاء هم المؤمنون حقًّا؛ لا من قال منهم: نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه. ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

(١٢٢) (١٢٣) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾. قد تقدم نظير هذه الأية في صدر السورة(*)، وذكرت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول ا لنبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته، فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيدة عن موافقته، صلوات

(*) تقدم نظير هاتين الآيتين برقم (٤٧ و ٤٨).

الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين.

(١٢٤) ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: يخبر - تعالى - عن عبده وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن اللَّه ابتلاه وامتحنه بكلمات؛ أي: بأوامر ونواه؛ كما هي عادة اللَّه في ابتلائه لعباده؛ ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان من الصادق، الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، ويخلص ذهبه، وكان من أجلهم في هذا المقام: الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأتم ما ابتلاه اللَّه به وأكمله ووفاه، فشكر اللَّه له ذلك، ولم يزل اللَّه شكورًا، فـ﴿قَالَ﴾ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الثناء الدائم، والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد، وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمَّر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾؟ فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا؛ طلب ذلك لذريته؛ لتعلو درجته، ودرجة ذريته، وهذا - أيضًا - من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية، والمقامات السامية! فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وحط قدرها؛ لمنافاة الظلم لهذا المقام.

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: مرجعًا يثوبون إليه؛ لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه، ولا يقضون منه وطرًا، ﴿وَ﴾ جعله ﴿أَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد؛ حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ المراد بذلك: المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا: ركعتا الطواف، فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾؛ أي: معبدًا، فاقتدوا به في شعائر الحج ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾: أوحينا إليهما وأمرناهما بتطهير بيت اللَّه من الشرك والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقذار؛ ليكون ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فيه ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ

---

(١٢٥) أخرج البيهقي بإسناد صحيح عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة».

﴿ٱلسُّجُودِ﴾؛ أي: المصلين، قدَّم الطواف؛ لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقًا، ثم الصلاة.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت أن يجعله اللّه بلدًا آمنًا، ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ويرزق أهله من أنواع الثمرات ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ثم قيد عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الدعاء للمؤمنين؛ تأدبًا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدًا بغير الظالم؛ فلما دعا لهم بالرزق وقيّده بالمؤمنين، وكان رزق اللّه شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع؛ قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: أرزقهم كلهم مسلمهم وكافرهم: أما المسلم؛ فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة. وأما الكافر؛ فيتمتع فيها قليلاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: ألجئه وأخرجه مكرهًا ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(١٢٧)﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت - الأساس -، واستمرارهما على هذا العمل العظيم ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء؛ حتى إنهما مع هذا العمل دعوا اللّه أن يتقبل منهما عملهما، حتى يجعل فيه النفع العميم.

(١٢٨) ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾: ودعوا لأنفسهما وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته: خضوع القلب وانقياده لربه، المتضمن لانقياد الجوارح ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة؛ ليكون أبلغ. والمراد بالمناسك: أعمال الحج كلها؛ كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون ما هو أعم من ذلك، وهو الدين كله، والعبادات كلها؛ كما يدل عليه عموم اللفظ، تغليبًا عرفيًّا، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، ولما كان العبد مهما كان لابد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة؛ قال: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٢٩) ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾؛ أي: في ذريتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتهما، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ لفظًا، وحفظًا، وتحفيظًا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبري من الأعمال الردية؛ التي لا تزكو النفس معها ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها.

(١٣٠) ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾؛ أي: ما يرغب ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بعد ما عرف من فضله ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ جهلها وامتهنها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون، كما أنه لا أرشد وأكمل

---

(١٢٦) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لها، وحرمتُ المدينة؛ كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدِّها وصاعها، مثل ما دعا إبراهيم لمكة».

(١٢٩) أخرج الإمام أحمد وابن حبان والطبري والطبراني وغيرهم حديث العرباض بن سارية الصحيح لغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين».

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

ع ١٦

ممن رغب في ملة إبراهيم ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾: اخترناه ووفقناه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم أعلى الدرجات.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ امتثالاً لربه ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: إخلاصًا، وتوحيدًا، ومحبة، وإنابة؛ فكان التوحيد لله نعته.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ ثم ورثه في ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب؛ فوصى بها بنيه: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾: اختاره وتخيره لكم؛ رحمة بكم، وإحسانًا إليكم، فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه؛ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ حتى تستمروا على ذلك، فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه؛ لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

(١٣٣) ولما كان اليهود يزعمون: أنهم على ملة إبراهيم ومن بعده يعقوب؛ قال - تعالى - منكرًا عليهم: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ أي: حضورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾؛ أي: مقدماته وأسبابه، فقال لبنيه، على وجه الاختبار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟ فأجابوه بما قرت به عينه، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ فلا نشرك به شيئًا، ولا نعدل به ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾؛ فجمعوا بين التوحيد والعمل. ومن المعلوم أن اليهود لم يحضروا يعقوب؛ لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا؛ فقد أخبر اللّه عنه أنه وصى بنيه بالحنيفية، لا باليهودية.

(١٣٤) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾: كل له عمله، وكل سيجازى بما فعله ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه؛ فاشتغالكم بهم، وادعاؤكم: أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول؛ أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها؛ هل تصلح للنجاة أم لا؟

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى

(١٣٣) أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «الأنبياء إخوة لِعَلّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

(١٣٤) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

الدخول في دينهم؛ زاعمين: أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال! ﴿قُلْ﴾ لهم مجيبًا جوابًا شافيًا: ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلاً على الله، معرضًا عما سواه، قائمًا بالتوحيد ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تاركًا للشرك والتنديد، فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

(١٣٦) ﴿قُولُوٓاْ﴾ بألسنتكم، متواطئة عليها قلوبكم، وفيه إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها؛ إذ هي أصل الدين وأساسه ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ بأنه واجب الوجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾: يشمل القرآن والسنة، فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب اللّه وسنة رسوله؛ من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية، وغير ذلك ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فيه الإيمان بجميع الكتب: المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا وخصوصًا، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفصلاً.

﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾: أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع، وفيها: دلالة على أن الأنبياء مبلغون عن اللّه ووسائط بين اللّه وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ إشارة إلى أنه تعالى من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل عليهم الكتب ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة.

(١٣٧) ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل؛ ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، والهدى هو العلم بالحق والعمل به ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾: فإن أعرضوا عن هذا الإيمان؛ فهم في ضلال، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق واللّه ورسوله في شق، ويلزم من المشاقة المحادة

---

(١٣٦) أخرج البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا».

(١٣٧) أخرج ابن نصر في «السنة» بإسناد صحيح لغيره عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم» قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: «بل منكم».

والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فلهذا وعد اللّٰه رسوله أن يكفيه إياهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما بين أيديهم وما خلفهم بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الزموا صبغة الله؛ وهو دينه، وقوموا به قيامًا تامًّا بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات؛ حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم؛ أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعًا واختيارًا ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ أي: لا أحسن صبغة من صبغته ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾: بيان لهذه الصبغة؛ وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص، والمتابعة؛ لأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه اللّٰه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها اللّٰه على لسان رسوله.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ المحاجة؛ هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور؛ كانت مماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت.

فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى باللّٰه من المسلمين! وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، فإذا كان رب الجميع واحدًا ليس ربًّا لكم دوننا ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ وكل منا ومنكم له عمله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ فاستوينا نحن وأنتم بذلك؛ فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى باللّٰه من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى باللّٰه من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بالأوصاف الحقيقية التي يسلم لها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلاَّ كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين والفَرْقِ بين المختلفين.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ هذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله؛ زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين ﴿قُلْ﴾ فرد اللّٰه عليهم بقوله: ﴿ءَأَنتُمْ

---

(١٣٨) أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصبغ ربك؟ قال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى، سألوك: هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم؛ أصبغ الألوان: الأحمر، والأبيض، والأسود، والألوان كلها في صفتي. فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

الجزء الثاني — سورة البقرة

سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٥)

٢٢

﴿أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟! فاللَّه يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهم يقولون: بل كان يهوديًا أو نصرانيًا؛ فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون اللَّه - تعالى - هو الصادق العالم بذلك؟ فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم وهو في غاية الوضوح والبيان؛ حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول: بل اللَّه أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك؛ لانجلائه لكل أحد. كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك، وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة؛ فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فهي شهادة عندهم مودعة من اللَّه، لا من الخلق؛ فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها! جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه!! أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدها، وادخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم.

وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها؛ فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد - أيضًا - ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام: أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: تقدم تفسيرها(*)، وذكرها هاهنا؛ لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان؛ لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي

(*) عند الآية (١٣٤) من هذه السورة.

(١٤٢) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قِبلَ البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

(١٤٢) ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس - وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن؛ وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام اللّه وشرائعه- ويقولون: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾: وهي استقبال بيت المقدس؛ أي: أيُّ شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم اللّه وشرعه، وفضله وإحسانه، فسلَّاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه؛ قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم؛ إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفيه، ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام اللّه إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل؛ فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم ﴿قُل﴾ لهم مجيبًا: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكًا لله، ليس جهة من الجهات خارجة من ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي ملة أبيكم إبراهيم، فلأي شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلة تحت ملك الله؟! فأنتم لم تستقبلوا جهة ليست ملكًا له، فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل اللّه عليكم وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل اللّه حسدًا لكم وبغيًا.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مطلقًا، والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة اللّه وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[المائدة: ١٦]؛ ذكر السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقًا بجميع أنواع الهداية، ومنة اللّه عليها، فقال:

(١٤٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: عدلاً خيارًا، وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل اللّه هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدين: وسطًا في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى وبين من جفاهم كاليهود؛ بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك؛ ووسطًا في الشريعة؛ لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم اللّه من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم؛ فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: كاملين معتدلين؛ ليكونوا ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب

(١٤٣) وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى بمحمد وأمته. فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاء نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾».

عدالتهم وحكمهم بالقسط يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة؛ فيقبل قولها، فإن شك شاك في فضلها وطلب مزكِّيًا لها؛ فهو أكمل الخلق نبيهم ﷺ؛ فلهذا قال: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم: أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل اللَّه المرسلين عن تبليغهم والأممَ المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم؛ استشهد الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها، وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ؛ لإطلاق قوله: ﴿وَسَطٗا﴾، فلو قدر اتفاقهم على الخطأ؛ لم يكونوا وسطًا إلا في بعض الأمور، وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾: وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾ علمًا يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا؛ فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها، والمعنى: شرعنا تلك القبلة؛ لنعلم ونمتحن ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، فالمنصف الذي مقصوده الحق مما يزيده ذلك إيمانًا وطاعة للرسول ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه؛ فإنه يزداد كفرًا إلى كفره، وحَيرة إلى حَيرته ﴿وَإِن كَانَتۡ﴾؛ أي: صرفك عنها ﴿لَكَبِيرَةً﴾؛ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ فعرفوا بذلك نعمة اللَّه عليهم وشكروا وأقروا له بالإحسان، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل القبلة، فإن اللَّه لا يضيع إيمانهم؛ لكونهم امتثلوا أمر اللَّه وطاعة رسوله في كل وقت؛ بحسب ذلك.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾: شديد الرحمة بهم عظيمها، ومن رأفته ورحمته بهم: أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحانًا زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت وأجلها.

(١٤٤) ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾؛ أي: كثرة تردده في جميع جهاته؛ شوقًا وانتظارًا لنزول الوحي باستقبال الكعبة. وقال: ﴿وَجۡهِكَ﴾ ولم يقل: بصرك؛ لزيادة اهتمامه؛ ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: نوجهك؛ لولايتنا إياك ﴿قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾: تحبها؛ وهي: الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ؛ حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها؛ فقال: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ﴾: من بر وبحر، وشرق

وغرب، جنوب وشمال ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها - فرضها ونفلها -، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا؛ فيكفي شطرها وجهتها. وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ثم ذكر أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق واضح؛ لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عنادًا وبغيًا، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك؛ فإن الإنسان إنما يغمُّه اعتراض من اعترض عليه إذا كان الأمر مشتبهًا، وكان ممكنًا أن يكون معه صواب، فأما إذا تيقن أن الصواب والحق معه، وأن المعترض معاند عارف ببطلان قوله؛ فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها. وفيها وعيد للمعترضين وتسلية للمؤمنين.

(١٤٥) ولما كان من الكفار مَن تمرد عن أمر اللّه، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمدًا وعدوانًا - منهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل -، أخبره اللّه تعالى، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك ويبين ما تدعو إليه ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾؛ أي: ما تبعوك؛ لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك؛ لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، والآيات إنما تفيد وينتفع بها من يتطلب الحق وهو

الجزء الثاني — سورة البقرة

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

٢٣

مشتبه عليه، وأما من جزم بعدم اتباع الحق؛ فلا حيلة فيه، ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم؛ فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهوائهم، في جميع أحواله، وما كان متوجهًا إلى بيت المقدس لأنها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أبلغ من قوله: «ولا تتبع»؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: ولو أُتوا بكل آية؛ لأنهم لا دليل لهم على قولهم، وكذلك إذا تبين الحق بأدلته اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه؛ لأنه لا حدَّ لها.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب ألاّ يتبعوا قبلتك يا

محمد، وهم الأعداء حقيقة الحسدة ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ إنما قال: ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ ولم يقل: دينهم؛ لأن ما هو عليه مجرد أهوية نفس ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل؛ ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾: إن اتبعتهم ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأيُّ ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق؟

(١٤٦) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾: يخبر تعالى: أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ وصلت إلى حد لا يشكّون فيه ولا يمترون، ولكن فريقًا منهم وهم أكثرهم الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

(١٤٧) ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقًّا من كل شيء؛ لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس، وحثها على تحصيل مصالحها، ودفع مفاسدها؛ لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة؛ فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال ويدخلها النسخ، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة اللّه والتقرب إليه، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾: الأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات؛ فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات؛ فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل؛ من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وعمرة، وجهاد، ونفع متعد وقاصر.

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة، من الصيام، والحج والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فلله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ما رتب اللّه عليها من الثواب؛ قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله.

(١٤٩) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: جهته. ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أكده؛ لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة،

ولئلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم؛ فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(١٥٠) ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ أعاده الله - تعالى - لتأكيد النسخ ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ وهذا خطاب للأمة عموماً ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾؛ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة؛ لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلاً لبيت المقدس لتوجهت عليه الحجة؛ فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركين يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته وقد ترك استقبال قبلته؟! فباستقبال القبلة قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم؛ فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾؛ لأن حجتهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه. وهذا بخلاف صاحب الحق؛ فإن للحق صولة وعزًّا يوجب خشية من هو معه.

﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾: أمر تعالى بخشيته التي هي رأس كل خير، فمن لم يخش الله؛ لم ينكفَّ عن معصيته، ولم يمتثل أمره. ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة؛ قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ فأصل النعمة: الهداية لدينه بإرسال رسوله، وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث اللَّه رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه اللَّه من الأحوال والنعم وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم وأنزل الله عليه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم . . . دينا﴾ فلله الحمد على على فضله، الذي لا نبلغ له عدًا، فضلا عن القيام بشكره ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾؛ أي: تعلمون الحق وتعملون به. فاللَّه - تبارك وتعالى - من رحمته بالعباد قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين، فلله الحمد على ذلك.

(١٥١) ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾؛ أي: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة ليس ذلك ببدع من إحساننا ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها؛ إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾: وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد اللَّه وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع

ما أخبر به من المعاد والغيوب؛ حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: يطهر أخلاقكم ونفوسكم بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن؛ ألفاظه ومعانيه ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي السنة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان. فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، وهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر اللَّه عليها والقيام بها، ولهذا قال:

(١٥٢) ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾: فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء؛ وهو ذكره لمن ذكره، وذكر اللَّه تعالى أفضله: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة اللَّه ومحبته، وكثرة ثوابه ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾؛ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب: إقرارًا بالنعم واعترافًا. وباللسان: ذكرًا وثناءً. وبالجوارح: طاعة لله، وانقيادًا لأمره، واجتنابًا لنهيه ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ المراد بالكفر هنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، وعدم القيام بها.

(١٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ﴾ أمر اللَّه تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾؛ فالصبر هو: حبس النفس وكفها عما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة اللَّه حتى تؤديها، وعن معصية اللَّه حتى تتركها، وعلى أقدار اللَّه المؤلمة فلا تتسخطها ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة؛ لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين وربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعًا فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبُّها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرًا لكل ما يقوله ويفعله، مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه؛ لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور يوجب للعبد في قلبه وصفًا وداعيًا يدعوه إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفة وملكة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله؛ لكفى بها فضلاً وشرفًا، وأما المعية العامة؛ فهي معية العلم والقدرة، وهي عامة للخلق.

---

(١٥٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

(١٥٣) في «صحيح مسلم» من حديث صهيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له».

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾: لما ذكر -تبارك وتعالى- الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال؛ ذكر نموذجًا مما يستعان بالصبر عليه؛ وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس؛ لمشقته في نفسه، ولكونه مؤديًا للقتل وعدم الحياة، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله بأن قاتل في سبيل اللَّه لتكون كلمة اللَّه هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض؛ فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب اللَّه وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا؛ حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

(١٥٥) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾: أخبر تعالى أنه لابد أن يبتلي عباده بالمحن؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده، وحكمة اللَّه تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر، هذه فائدة المحن ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾؛ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع؛ لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾: وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال؛ من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطع الطريق، وغير ذلك ﴿وَالْأَنفُسِ﴾؛ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد أو بدن من يحبه ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾؛ أي: الحبوب وثمار النخيل والأشجار كلها والخضر بِبَرْدٍ أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية من جراد ونحوه ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب.

---

(١٥٤) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطِّلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا. قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة، . فيقول الرب عز وجل: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون».

(١٥٦) فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾: وهي كل ما يؤلم القلب، أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها؛ فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن اللّه والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ﴿و﴾ مع أننا مملوكون لله؛ فـ ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفرًا عنده، وإن جزعنا وسخطنا؛ لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجعًا إليه؛ من أقوى أسباب الصبر.

(١٥٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم: أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾: الذين عرفوا الحق وهو في هذا الموضع: علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به؛ وهو هنا: صبرهم لله. ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر؛ فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابرين من أجر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة اللّه التي قد خلت ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، وبيان أنواع المصائب.

(١٥٨) ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾ وهما معروفان ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبَّد اللّه بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله؛ فقد أمر اللّه بتعظيم شعائره، فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢]، فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب، والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما

(١٥٦) في «صحيح مسلم» من حديث أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها؛ إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها».

(١٥٨) في «الصحيحين»، عن عروة، قال: سألت عائشة فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح ألَّا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا بن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألَّا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل، فكان من أهلَّ يتحرج أن يطوّف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا عن ذلك رسول اللهﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوّف بالصفا المروة في الجاهلية، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ قالت عائشة: وقد سن رسول اللهﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.

فرض لازم للحج والعمرة. ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: هذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن الطواف بينهما؛ لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه - أي: الطواف - غير لازم، ودلَّ تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة: أنه لا يتطوع بالسعي مفردًا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت. وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾؛ أي: فعل طاعة مخلصًا بها لله تعالى، ﴿خَيْرًا﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم، وغير ذلك؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فدل هذا: على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله؛ ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه، ودلَّ تقييد التطوع بالخير: أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها اللَّه ولا رسوله؛ أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرًّا له؛ إن كان متعمدًا عالمًا بعدم مشروعية العمل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾: الشاكر والشكور من أسماء اللَّه تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتثل طاعته؛ أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الثواب الكامل بحسب نيته، وإيمانه، وتقواه ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته؛ فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل اللَّه ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على الحق، المظهرات له ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾: وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم؛ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ (لخصناه) ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ (التوراة) فإن اللَّه أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما منَّ اللَّه به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله؛ فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾: وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة؛ لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجُوزوا من جنس عملهم.

(١٦٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾؛ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب؛ ندمًا وإقلاعًا، وعزمًا على عدم المعاودة ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي من أحدهم ترك القبيح حتى يفعل الحسن ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ ويبين ما كتمه، ويبدي ضد ما أخفى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فهذا يتوب اللَّه عليه؛ لأن توبة اللَّه غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة؛ تاب اللَّه عليه؛ لأنه ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: الرجاع على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: الذي اتصف بالرحمة العظيمة، التي وسعت كل شيء، ومن رحمته: أن وفقهم

الجزء الثاني — سورة البقرة

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

٢٥

للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وكرمًا، هذا حكم التائب من الذنب.

(١٦١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه، ولم يتب عن قريب؛ فـ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ لأنه لما صار كفرهم وصفًا ثابتًا: صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول؛ لأن الحكم يدور مع علته، وجودًا وعدما.

(١٦٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: في اللعنة، أو في العذاب؛ وهما متلازمان، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: يمهلون؛ لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

(١٦٣) ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له، ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه؛ لأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك: وهو إثبات رحمته؛ التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

ثم ذكر الأدلة التفصيلية؛ فقال:

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها، وإتقانها، وما جعل اللَّه فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد ﴿وَ﴾ في خلق ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مهادًا للخلق، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد اللَّه تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم، وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله

---

(١٦٣) روى أصحاب السنن عدا النسائي حديثَ أسماء بنت يزيد بن السكن الحسنَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ و: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾».

واستحقاقه أن يفرد بالعبادة؛ لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشؤون عباده. ﴿وَ﴾ في ﴿ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت؛ كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تنبهر له العقول؛ ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته؛ مما يوجب أن يؤله ويعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، ﴿وَ﴾ في ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾: وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم اللَّه عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنتظم معايشهم ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ﴾: وهو المطر النازل من السحاب ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾: فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النباتات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها، أليس ذلك دليلًا على قدرة من أنزله، ورحمته ولطفه بعباده! وقيامه بمصالحهم وشدة افتقارهم إليه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾؛ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته وسلطانه العظيم ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باردة وحارة، وجنوبًا وشمالاً، وشرقًا ودبورًا، وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقحه، وتارة تدره، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب، فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه، وسخرها ليعيش فيها جميع الكائنات؛ إلا العزيز الحكيم، الرحيم اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإنابة وعبادة؟! ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطفته يحمل الماء الكثير، فيسوقه اللَّه إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوِهَاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه؛ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾: لمن لهم عقول يُعْمِلُونها فيما خلقت له.

والحاصل: أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمّله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة؛ علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات على ما أخبر به اللَّه عن نفسه ووحدانيته، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات؛ فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

(١٦٥) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ لما بيّن تعالى وحدانيته وأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة، الموصلة إلى

علم اليقين، المزيلة لكل شك؛ ذكر أن ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من المخلوقين ﴿أَندَادًا﴾؛ أي: نظراء ومثلاء ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يساويهم في اللَّه بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة، ومن كان بهذه الحالة بعد إقامة الحجة وبيان التوحيد؛ عُلم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل حقت عليه كلمة العذاب.

فالمخلوق ليس ندًّا لله؛ لأن اللَّه هو الخالق والرب الرازق ومن عداه مخلوق مرزوق، واللَّه هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، واللَّه هو النافع الضار والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء؛ فعلم علمًا يقينا، بطلان قول من اتخذ من دون اللَّه آلهة وأندادًا سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو صالحًا، أو صنمًا، أو غير ذلك، وأن اللَّه هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح اللَّه المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من أهل الأنداد لأندادهم؛ لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها؛ ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد، وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة عيانًا بأبصارهم ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لعلموا علمًا جازمًا: أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئًا وأنها تقربهم وتوصلهم إليه؛ فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئًا ولم تغن عنهم مثقال ذرة.

(١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؛ أي: تبرأ المتبعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾: يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا؛ فيتبرؤوا من متبوعهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله! وهيهات؛ فات الأمر وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة؛ فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأماني يتمنونها ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبدًا، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل وعملوا العمل الباطل، ورجوا غير مرجوٍّ، وتعلقوا بغير متعلق؛ فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضرتهم غاية الضرر.

وهذا بخلاف من تعلق باللَّه وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه؛ فهذا قد وضع الحق موضعه، فكانت أعماله حقًّا لتعلقها بالحق.

(١٦٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: هذا

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

٢٦

خطاب للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم فامتنَّ عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض: من حبوب، وثمار، وفواكه، وحيوانات؛ حالة كونها ﴿حَلَالًا﴾: محللاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة، أو على وجه محرم، أو معينًا على محرم ﴿طَيِّبًا﴾: ليس بخبيث؛ كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟﴾ ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به، إذ هو عين صلاحهم؛ نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي: من كفر، وفسوق، وظلم. ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا تناول المأكولات المحرمة ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته حتى أخبرنا -وهو أصدق القائلين- بعداوته الداعية للحذر منه.

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: بالشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: ما تناهى قبحه مما يستفحشه من له عقل ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على اللَّه بلا علم في شرعه وقدره، فمن وصف اللَّه بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه؛ فقد قال على اللَّه بلا علم، ومن زعم أن لله ندًا وأوثانًا تقرب مَنْ عبدها مِنَ الله؛ فقد قال على اللَّه تعالى بلا علم، ومن قال: إن اللَّه أحلّ كذا، أو حرَّم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة؛ فقد قال على اللَّه بلا علم، ومن قال: إن اللَّه خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلة الفلانية، بلا برهان له بذلك؛ فقد قال على اللَّه بلا علم.

ومن أعظم القول على اللَّه بلا علم: أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معاني اصطلح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن اللَّه أرادها! فالقول على اللَّه بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها.

(١٧٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل اللَّه على رسوله مما تقدم وصفها، رغبوا عن ذلك، و﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾

فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا؛ فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم؛ لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده ووازن بينه وبين غيره؛ تبين له الحق قطعًا واتبعه إن كان منصفًا.

(١٧١) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾: لما بيَّن تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردَّهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له؛ أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهًا ينفعهم؛ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلهذا كانوا صمًّا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميًا لا ينظرون نظر اعتبار، بكمًا فلا ينطقون بما فيه خير لهم، والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

(١٧٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾: هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه؛ باستعمالها بطاعته، والتقوّي بها على ما يوصل إليه، فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح وهنا لم يقل «حلالا»؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر اللّه لم يعبده وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة.

(١٧٣) ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾؛ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية؛ لأن الميتة خبيثة مضرة لرداءتها في نفسها، واستثنى الشارع من هذا العموم: ميتة الجراد، وسمك البحر، فإنه حلال طيب، ﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح؛ كما قُيِّد في الآية الأخرى ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذبح لغير الله؛ كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار والقبور ونحوها ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾: ألجئ إلى المحرم؛ بجوع، وعدم، أو إكراه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه ﴿وَلَا عَادٍ﴾: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطرارًا؛ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: جناح وذنب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١٧٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، أنى يستجاب له».

﴿غَفُورٌ﴾: أخبر أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال؛ خصوصًا وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة ﴿رَّحِيمٌ﴾: إذ أحل له الحرام في الاضطرار.

(١٧٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل اللَّه على رسله من العلم الذي أخذ اللَّه الميثاق على أهله أن يبينوه للناس ولا يكتموه، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله؛ فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه إنما حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرزيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم؛ لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية، التي أعظم أسبابها العمل بكتاب اللَّه والاهتداء به والدعوة إليه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجع مفجع.

(١٧٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾: فهؤلاء نبذوا كتاب اللَّه وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة؛ فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: فكيف يصبرون عليها؟ وأنى لهم الجلد عليها؟! توجّع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها.

(١٧٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور؛ وهو: مجازاته

الجزء الثاني — سورة البقرة — نصف الحزب ٣

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

٢٧

بالعدل، ومنعه أسباب الهداية ممن أباها واختار سواها ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده؛ فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة، ومن الحق: مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب؛ فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾: محادة ﴿بَعِيدٍ﴾ من الحق؛ لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق، الموجب للاتفاق وعدم التناقض؛ فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، فتضمن ذلك أن كل من خالفه؛ فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخاصمة، واللَّه أعلم.

(١٧٧) ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: وهو كل ما أخبر اللّه به في كتابه، أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: الذين وصفهم اللّه لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: جنس الكتب التي أنزلها اللّه على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾: عمومًا؛ خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾: وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيرًا. أي: أعطى المال ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: حب المال، بين به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد، فمن أخرجه مع حُبّه له تقربًا إلى اللّه تعالى؛ كان هذا برهانًا لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه: أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى ويخشى الفقر.

ثم ذكر المنفَق عليهم، وهم أولى الناس ببرِّك وإحسانك؛ من ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فمن أحسن البر وأوفقه: تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأَسرى عند الكفار أو عند الظلمة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد تقدم مرارًا أن اللّه تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة؛ لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ العهد: هو الالتزام بإلزام الله، أو إلزام العبد لنفسه؛ فدخل في ذلك حقوق اللّه كلها وحقوق العباد التي أوجبها اللّه عليهم، والحقوق التي التزمها العبد؛ كالأيمان والنذور، ونحو ذلك. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾؛ أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة؛ لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ أي: المرض على اختلاف أنواعه، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصًا مع تطاول ذلك ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال والأخلاق ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانهم؛ لأن أعمالهم صدقت

(١٧٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر».

إيمانهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور.

(١٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول؛ إقامة للعدل والقسط بين العباد، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين؛ فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص كما عليه عادة الجاهلية ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى، والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدمًا على مفهوم قوله: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ مع دلالة السنة على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد؛ لورود السُّنة بذلك، وخرج من العموم أيضا الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وليس من العدل أن يقتل ولي اللَّه بعدوه ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ ذكرًا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه؛ ﴿فَٱتِّبَاعٌ﴾ وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يحرجه. ﴿وَ﴾ على القاتل ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ من غير مطل ولا نقص، ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء؟

وفي قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر؛ لأن المراد بالأخوة هناك أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد العفو ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة؛ لأنه بعد عفو أولياء المقتول احتقن دم القاتل، وصار معصومًا منهم ومن غيرهم.

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾؛ أي: تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء؛ لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولاً انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل؛ لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار.

ونكر «الحياة»؛ لإفادة التعظيم والتكثير ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة؛ خصهم بالخطاب دون غيرهم: وهذا يدل على أن اللَّه تعالى يحب من عباده أن يُعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة؛ أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها؛ فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾؛ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب الهلاك ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: وهو المال الكثير عرفًا ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله؛ من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ دل على وجوب ذلك؛ لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى؛ لكن الوصية للوالدين والورثة منسوخ بالسُّنة، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**لا وصية لوارث**»، وقال هذا في حجة الوداع، فلا وجه لمن تعلق بهذه الآية على جواز الوصية للوالدين والأقربين.

(١٨١) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: الإيصاء للمذكورين، أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾: بعد ما عقله، وعرف طرقه وتنفيذه؛ ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، وإلا؛ فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وألّا يجور في وصيته ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته، وعليم بعمل الموصى إليه، وفيه التحذير للموصَى إليه من التبديل؛ فإن الله عليم به مطلع على ما فعله، فليحذر من الله.

(١٨٢) ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم ينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهاه عن الجور والجنف، وهو: الميل بها عن خطأ من غير تعمد. والإثم وهو: التعمد لذلك، فإن لم يفعل ذلك؛ فينبغي له أن يصلح بين الموصَى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس

(١٨٠) في «السنن» من حديث عمرو بن خارجة الصحيح، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب، وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

وفي «الصحيحين»: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير».

عليه إثم كما على مبدل الوصية، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه ومنه: مغفرته لمن غض من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، غفور لميتهم الجائر في وصيته إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضًا لأجل براءة ذمته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده؛ حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون.

(١٨٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يخبر تعالى بما منَّ اللَّه به على عباده بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارعة إلى صالح الخصال ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثالَ أمر اللَّه واجتناب نهيه، فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم اللَّه عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه متقربًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها ثوابه.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة اللَّه تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه؛ لعلمه باطلاع اللَّه عليه.

ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان؛ فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام تقل منه المعاصي.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع؛ أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

(١٨٤) ﴿أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ﴾؛ أي: قليلة في غاية السهولة، ثم سهل تسهيلاً آخر، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ وذلك للمشقة في الغالب رخص اللَّه لهما في الفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾؛ أي: يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصًا إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾؛ أي: يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير ﴿فِدۡيَةٌ﴾ عن كل يوم ﴿طَعَامُ مِسۡكِينٍ﴾ نصف صاع على كل مسكين ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرًا﴾ من زاد على مسكين واحد فأطعم مقدار كل يوم مسكينين. ﴿فَهُوَ خَيۡرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ بعد أن خيّر المطيق للصوم بين الإطعام والصوم بيَّن إن الصوم أفضل ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فضل الصوم وأهميته وثماره الطيبة في كل المجالات.

---

(١٨٣) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة، فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء».

وفي «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فصلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر».

(١٨٥) أخرج أحمد والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم بإسناد حسن من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشر خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان».

وأخرج النسائي في «الكبرى» وابن جرير وغيرهما بإسناد صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل القرآن في شهر رمضان في =

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من اللَّه الفضل العظيم؛ وهو القرآن الكريم: المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان اللَّه عليكم به، أن يكون موسمًا للعبادة مفروضًا فيه الصيام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ أي: هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾؛ أي: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه؛ ﴿أَوْ﴾ كان ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: في حالة سفر؛ فله أن يفطر، فإذا أفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعليه عدة ما أفطر من الأيام ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: يريد اللَّه تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أبلغ تسهيل؛ ولهذا كان جميع ما أمر اللَّه به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله؛ سهله تسهيلاً آخر: إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾؛ لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: يُشكر اللَّه تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده وبالتكبير عند انقضائه.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا سألك يا محمد عبادي عني ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾؛ لأنه تعالى الرقيب الشهيد المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضًا من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام؛ فإن اللَّه قد وعده بالإجابة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾: الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ الإيمان الموجب للاستجابة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾؛ أي: يحصل لهم الرشد، الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة.

= ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، فجعل في بيت العزة، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء في عشرين سنة.

(١٨٦) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» - واللفظ له - عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا فعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً؛ إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا، منا فقال: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة في كنوز الجنة؛ لا حول ولا قوة إلا بالله».

(١٨٧) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين الأكل والشرب والجماع في الليل بعد النوم؛ فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف اللَّه تعالى عنهم ذلك وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم؛ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به ﴿فَتَابَ﴾ اللَّه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمرًا كان لولا توسعته موجبًا للإثم ﴿وَعَفَا عَنكُمْۖ﴾ ما سلف من التخون ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من اللَّه ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ وطئًا، وقبلة، ولمسًا، وغير ذلك ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾؛ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى اللَّه تعالى، والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية، وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح، ومما كتب اللَّه لكم: ليلة القدر الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها؛ فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾: هذا

الجزء الثاني — سورة البقرة

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَـٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

٢٩

غاية للأكل والشرب والجماع.

وفيه: أنه إذا أكل ونحوه شاكًا في طلوع الفجر؛ فلا بأس عليه، وفيه دليل على استحباب السَّحور، وأنه يستحب تأخيره. وفيه دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه؛ لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر أن يدركه الفجر وهو

(١٨٧) في «صحيح البخاري» عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر؛ لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار؛ أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلبُ لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته؛ قالت: خيبةً لك؛ فلما انتصف النهار؛ غشي عليه؛ فذكر ذلك للنبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾؛ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾
وفي «الصحيحين» عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: أنزلت ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾؛ فكان رجال إذا أرادوا الصوم؛ ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما؛ فأنزل الله تعالى بعد ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار.

جنب ﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾؛ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾: وهو غروب الشمس.

ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناه بقوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: وأنتم متصفون بذلك ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: المذكورات، وهو: تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه في الصيام، وتحريم الفطر لغير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي حدَّها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: «فلا تفعلوها»؛ لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: بيّن الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبيين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح؛ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته؛ لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سببًا للتقوى.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾؛ أي: ولا تأخذوا أموال غيركم، أضافه إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويحترم ماله كما يحترم ماله، وأن أكله لمال غيره يجرئ غيره على أكل ماله عند القدرة ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ ولما كان أكلها نوعين: نوعًا بحق، ونوعًا بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل؛ قيّده تعالى بذلك، ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا، ولا يحلل حرامًا، فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة وحكم له بذلك؛ فإنه لا يحل له، ويكون آكلًا لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك؛ فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله.

(١٨٩) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾: جمع هلال؛ أي: ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾: جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفًا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله ... وهكذا؛ ليعرف الناس بذلك مواقيت عبادتهم: من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج، ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتًا كثيرة؛ قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾، وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجارات، ومدة العِدَد

---

(١٨٨) في «الصحيحين» عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو يذرها».

(١٨٩) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه؛ قال: نزلت هذه الآية فينا، فكانت الأنصار إذا حجوا، فجاؤوا؛ لم يدخلوا من قِبل أبواب بيوتهم، ولكن في ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبل بابه، فكأنه عيّر بذلك؛ فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

والحمل ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾: وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها؛ تعبدًا بذلك، وظنًا أنه بر! فأخبر تعالى أنه ليس من البر؛ لأن اللَّه تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها اللَّه ولا رسوله؛ فهو متعبد ببدعة ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾: أمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها؛ لما فيه من السهولة عليهم، والتي هي قاعدة من قواعد الشرع ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: هذا هو البر الذي أمر اللَّه به، وهو: لزوم تقواه على الدوام؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فإنه سبب للفلاح: الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق اللَّه تعالى؛ لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، وفي تخصيص القتال ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون (من الرجال)؛ غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

٣٠

يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها؛ من قتل من لا يقاتل من النساء، والمجانين، والأطفال، والرهبان، ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين.

(١٩١) ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: هذا أمر بقتالهم وإخراجهم أينما وجدوا في كل وقت وفي كل زمان، قتال مدافعة وقتال مهاجمة ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ

---

(١٩٠) في «صحيح مسلم» عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا».

(١٩١) في «الصحيحين» من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض. فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لي إلا ساعة في نهار، وإنها من ساعتي هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم».

﴿حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ وذلك لأنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم؛ من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً، ﴿وَلَا تُقَتِلُوهُمْ﴾ ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتَلون جزاء لهم على اعتدائهم، فليس عليكم أيها المسلمون حرج في قتالهم وهذا مستمر في كل وقت.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾: ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام؛ أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه أشد من مفسدة القتل، ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

(١٩٢) ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: حتى ينتهوا عن كفرهم؛ فيسلموا، فإن اللّٰه يتوب عليهم.

(١٩٣) ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم؛ ولكن المقصود به أن يكون الدين لله ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى، فيظهر دين اللّٰه تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره؛ وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود؛ فلا قتل ولا قتال ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام؛ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم؛ فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

(١٩٤) ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ المعنى أنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج. وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾؛ من باب عطف العام على الخاص؛ أي: كل شيء يحترم، من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها، فإنه يقتص منه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي؛ أمر تعالى بلزوم تقواه؛ التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان اللّٰه معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى: تخلى عنه وليّه، وخذله فوكله إلى نفسه؛ فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

---

(١٩٤) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قال: هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل، وليس لهم سلطان يقهر المشركين، وكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى؛ فأمر الله والمسلمين من يجازي منهم أن يجازي بمثل ما أوتي إليه، أو يصبر، أو يعفو؛ فهو أمثل، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأعز الله سلطانه؛ أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، وأن لا يعدو بعضهم على بعض؛ كأهل الجاهلية.

(١٩٥) ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو: إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير؛ من صدقة على مسكين أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته، وأعظم ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله؛ فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، فالجهاد في سبيل اللَّه لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل اللَّه إبطال للجهاد وتسليط للأعداء وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة: فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه...

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة: الإقامة على معاصي الله واليأس من التوبة ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي في تركها هلاك للروح والدين، ولما كانت النفقة في سبيل اللَّه نوعًا من أنواع الإحسان أمر بالإحسان عمومًا، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان؛ لأنه لم يقيده بشيء دون شيء.

(١٩٦) يستدل بقوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ على أمور:

أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما، والأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

الثالث: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلاً.

الرابع: الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

الخامس: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما؛ إلَّا بما استثناه الله، وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما؛ بمرض، أو ضلالة، أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر الذي هو المنع؛ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾: فاذبحوا ما تيسَّر من الهدي؛ وهو سُبع بدنة، أو سُبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾: وهذا من محظورات الإحرام: إزالة الشعر بحلق أو غيره؛ لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفّه بإزالته، وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله، وهو يوم النحر.

---

(١٩٥) أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما، عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجيًا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر؛ كما تدل عليه الآية.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾: إذا حصل الضرر للمحرم بأن كان به أذى من مرض ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك؛ فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك ما يجزى في أضحية، فهو مخير؛ والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك، من تقليم الأظافر، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو الطيب فإنه يجوز عند الضرورة مع وجوب الفدية المذكورة؛ لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها؛ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾؛ أي: فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزي في أضحية وهذا دم نسك مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام اللّٰه عليه بحصول الانتفاع بالمتعة بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج.

ودلت الآية على جواز بل فضيلة المتعة، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي أو ثمنه؛ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾: أول جوازها من حين الإحرام بالحج، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ«منى» ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: فرغتم من أعمال الحج؛ فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ تأكيد أنها بتمامها وكمالها تجزئ عن الهدي ﴿ذَٰلِكَ﴾: المذكور من وجوب الهدي على المتمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام؛ فليس عليه هدي؛ لعدم الموجب لذلك ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: في جميع أموركم؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن ذلك: امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة في الآية.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى؛ فإن من خاف عقاب الله: انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى ثوابه. وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب؛ اقتحم المحارم، وتجرأ على ترك الواجبات.

---

(١٩٧) في «صحيح البخاري» عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: هي شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت؛ فلم يرفث، ولم يفسق؛ خرج من ذنوبه؛ كيوم ولدته أمه».

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون. فإذا قدموا مكة؛ سألوا الناس، فأنزل الله - تعالى -: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

(١٩٧) ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ يخبر تلك أن الحج واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بيَّن تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحجُّ؛ فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم، والمراد بالأشهر المعلومات: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالبًا ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾: أحرم به؛ لأن الشروع فيه يصيره فرضًا، ولو كان نفلًا، وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾؛ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث: وهو الجماع، ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصًا عند النساء بحضرتهن.

والفسوق: وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام.

والجدال: وهو المماراة والمنازعة والمخاصمة؛ لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة، والمقصود من الحج: الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبرورًا ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: فكل خير وقربة وعبادة داخل في ذلك؛ فإن اللَّه به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، خصوصًا في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها: من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي.

﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾: أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤالاً واستشرافًا، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين.

﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه؛ فهو زاد التقوى، الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائمًا أبدًا، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به، الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: يا أهل العقول الرزينة! اتقوا ربكم، الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

(١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أخبر تعالى أن ابتغاء فضل اللّه بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج؛ إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوبًا إلى فضل اللّه لا منسوبًا إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

وفي قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفًا أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

والثّاني: الأمر بذكر اللّه عند المشعر الحرام وهو المزدلفة.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة.

الرابع، والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس والسابع: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بـ﴿ٱلْحَرَامِ﴾، وعرفات في الحل؛ كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة.

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: اذكروا اللّه تعالى كما منَّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾: ثم أفيضوا من مزدلفة، من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفًا عندهم؛ وهو: رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي، والمبيت بمنى ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر؛ أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة.

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومنَّ بها على ربه،

(١٩٨) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو الجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

(١٩٩) في «صحيح مسلم» قالت عائشة: الحمس هم الذين أنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾؛ قالت: كان الناس يفيضون من عرفات، وكان الحمس يفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نفيض إلا من الحرم، فلما نزلت: ﴿أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾؛ رجعوا إلى عرفات.

(٢٠٠) أخرج الضياء المقدسي وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، يقول الرجل منهم: كان أبي يطعم، ويحمل الحملات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم؛ فأنزل الله ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾

وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد الفعل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم؛ ولكن مقاصدهم تختلف: فمنهم ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ وليس له في الآخرة من نصيب؛ لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا.

(٢٠١) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه فيقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد؛ من رزق هني واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح. ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وحسنة الآخرة هي: السلامة من العقوبات في القبر والموقف والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، والحث عليه.

(٢٠٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من

سورة البقرة — الجزء الثاني — الحزب ٤

وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

٣٢

كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماتهم ونياتهم، جزاءً دائرًا بين العدل والفضل.

(٢٠٣) ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾: يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي: أيام التشريق الثلاثة بعد العيد؛ لمزيتها وشرفها وكون بقية المناسك تفعل بها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها؛ بل إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾: خرج من منى، ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني؛ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ﴾: بأن بات ليلة الثالث،

---

(٢٠١) في «صحيح البخاري» من حديث أنس: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار».

(٢٠٣) أخرج أحمد والترمذي والنسائي بإسناد صحيح من حديث عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب».

ورمى من الغد؛ ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾؛ وهذا تخفيف من اللَّه تعالى على عباده في إباحة كلا الأمرين ولكن من المعلوم أنه إذا أبيح كلا الأمرين: فالتأخر أفضل؛ لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وغيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر؛ قيّده بقوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾؛ أي: اتقى اللَّه في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى اللَّه في كل شيء؛ حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء؛ كان الجزاء من جنس العمل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

(٢٠٤) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ﴿وَ﴾ يؤكد ما يقول بأنه: ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾: بأن يخبر أن اللَّه يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك؛ لأنه يخالف قوله فعله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾؛ أي: إذا خاصمته وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات.

(٢٠٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ - هذا الذي يعجبك قوله؛ إذا حضر عندك- ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾: يجتهد على أعمال المعاصي: التي هي إفساد في الأرض ﴿وَيُهۡلِكَ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تتلف وتنقص، وتقل بركتها بسبب العمل في المعاصي ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ فإذا كان لا يحب الفساد؛ فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسنًا.

(٢٠٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: هذا المفسد في الأرض بمعاصي اللَّه إذا أمر بتقوى اللَّه ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾: تكبر وأنف؛ فيجمع بين العمل بالمعاصي والتكبر على الناصحين ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ التي هي دار العاصين والمتكبرين ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾: المستقر والمسكن؛ عذاب دائم، وهمٌّ لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الثواب.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ﴾: هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها؛ ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ طلبًا لمرضاة الله، ورجاءً لثوابه، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي، الرءوف بالعباد الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك.

(٢٠٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ﴾ هذا أمر من اللَّه تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾؛ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئًا، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه؛ إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه يلتزمه وينويه فيدركه بنيته.

ولما كان الدخول في الإسلام كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان؛ قال: ﴿وَلَا

(٢٠٤) في «صحيح البخاري» عن عائشة ﷺ عن النبي ﷺ؛ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

﴿تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: في العمل بمعاصي اللَّه ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهر العداوة، والعدو المبين لا يأمر إلَّا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم.

(٢٠٩) ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل؛ قال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾؛ أي: أخطأتم ووقعتم في الذنوب ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: على علم ويقين ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفيه من الوعيد الشديد، والتخويف، ما يوجب ترك الزلل؛ فإن العزيز القاهر الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ هذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي حُشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيئ على المفسدين؟ وذلك أن اللَّه تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك وتعالى ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تأتي كذلك ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيضُّ وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله؛ فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم

سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السُّنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والنزول، والمجيء ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال اللَّه وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف؛ خلافًا للمعطلة من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ممن ينفي هذه الصفات ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل اللَّه عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان اللَّه وبيان رسوله، وهؤلاء ليس معهم دليل نقلي؛ بل ولا دليل عقلي.

فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه؛ قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات؛ فلله

صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

(٢١١) ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ تدل على الحق -يعني الآية البينة - وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها؛ بل كفروا بها، وبدلوا نعمة اللّٰه كفرًا؛ فلهذا استحقوا أن ينزل اللّٰه عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾: سمى اللّٰه تعالى كفر النعمة تبديلًا لها؛ لأن من أنعم اللّٰه عليه نعمة دينية أو دنيوية؛ فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقد توعد اللّٰه تعالى من فعل ذلك بأشد العقاب وأقوى العذاب.

(٢١٢) ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: يخبر تعالى أن الذين كفروا باللّٰه وبآياته ورسله ولم ينقادوا لشرعه، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها؛ فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها وأكبوا على تحصيلها، وعظّموها، واحتقروا المؤمنين واستهزؤوا بهم! وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر؛ فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء السرمدي الذي لا منتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين.

ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلَّا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة اللّٰه وخشيته ورجائه، ونحو ذلك؛ فلا يعطيها إلا من يحبه.

(٢١٣) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ كانوا مجتمعين على الهدى ، وذلك عشرة قرون بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فلما اختلفوا في الدين، فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الهدى وحصل النزاع؛ بعث اللّٰه الرُّسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم، فرحمهم اللّٰه تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع اللّٰه بثمرات الطاعات؛ من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة

(٢١٣) أخرج الطبري وابن أبي حاتم والحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلها على شريعة في الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه في الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى اللَّه بثمرات المعصية؛ من حرمان الرزق، والضعف والإهانة والحياة الضيقة.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع: أن يرد الاختلاف والتنازع إلى اللَّه وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع؛ لما أمر بالرد إليهما.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: لما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، وضلوا بذلك ضلالاً بعيدًا.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من هذه الأمة ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب وأخطؤوا فيه الحق والصواب؛ هدى اللَّه للحق فيه هذه الأمة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فَعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم؛ عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، وهدى - بفضله ورحمته، وإعانته ولطفه - من شاء من عباده؛ فهذا فضله وإحسانه، وذلك عدله وحكمته تبارك وتعالى.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾: يخبر -تبارك وتعالى- أنه لابد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل: أن من قام بدينه وشرعه لابد أن يبتليه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله؛ فهو الصادق، ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله: بأن صدته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده؛ فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه، فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر اللَّه عنهم: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾: الفقر، والأمراض في أبدانهم ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ بأنواع المخاوف؛ من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار ﴿حَتَّىٰ﴾ وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال إلى أن استبطؤوا نصر اللَّه، مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه: ﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾. فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن،

(٢١٤) في «صحيح البخاري» عن خباب بن الأرت ﷺ؛ قال: قلنا: يا رسول الله ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت؛ لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون».

الجزء الثاني — سورة البقرة

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)

٣٤

فإذا صابر وثابر؛ انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء.

(٢١٥) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال من المنفَق والمنفَق عليه، فأجابه عنهما فقال: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: مال قليل أو كثير ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم: أعظمهم حقًّا عليك؛ وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما: النفقة عليهما. ومن أعظم العقوق: ترك الإنفاق عليهما. ومن بعد الوالدين الأقربون، على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فوصى الله بهم العباد؛ رحمة منه بهم ولطفًا ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات، الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم؛ لدفع حاجاتهم وإغنائهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده. ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة؛ عمَّم تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم؛ كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ في هذه الآية أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس؛ لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف، ومع هذا فهو خير محض؛ لما فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء، وغير ذلك مما هو مُرْبٍ على ما فيه من الكراهة ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: وذلك مثل القعود عن الجهاد

---

(٢١٥) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث أبي رِمْثَة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يد المعطي العليا، أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك».

(٢١٦) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو؛ مات على شعبة من نفاق».

لطلب الراحة، فإنه شر؛ لأنه يعقب الخذلان وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان. وهذه الآية عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحبها النفوس - لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة- شر بلا شك، وعلى المرء أن يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

(٢١٧) ولما كان الأمر بالقتال لو لم يقيّد لشمل الأشهر الحرم وغيرها؛ استثنى تعالى القتال في الأشهر الحرم، فقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾؛ أي: يسأل المشركون -على وجه التعيير- عن القتال في الأشهر الحرم، وكانوا في تعييرهم ظالمين؛ إذ فيهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: صد المشركين من يريد الإيمان باللّه وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في ردهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾: أهل المسجد الحرام؛ وهم النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم أحق به من المشركين، وهم عُمّره على الحقيقة، فأخرجوهم ﴿مِنۡهُ﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه؛ فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعييرهم المؤمنين.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾: ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم، ويكونوا كفارًا بعد إيمانهم؛ حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك ساعون بما أمكنهم

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾: أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام بأن اختار عليه الكفر، واستمر على ذلك حتى مات كافرًا؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ لعدم وجود شرطها؛ وهو الإسلام ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(٢١٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة، وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الربح والخسران: فأما الإيمان؛ فلا تسأل عن فضيلته، وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه؛ لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل. وأما الهجرة؛ فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا اللّه تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله، وأهله وخلانه، تقربًا إلى اللّه ونصرة لدينه. وأما الجهاد؛ فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين اللّه وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾

ومشقتها؛ كان لغيرها أشد قيامًا به وتكميلاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾: فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله؛ لأنهم أتوْا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل وعدم القيام بالأسباب؛ فهذا عجز وتمنّ وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه ونقص عقله. وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ إشارة إلى أن العبد -ولو أتى من الأعمال بما أتى به- لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله، ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾؛ أي: لمن تاب توبة نصوحًا ﴿رَّحِيمٞ﴾: وسعت رحمته كل شيء، وعم جوده وإحسانه كل حي.

(٢١٩) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾: يسألك -يا أيها الرسول- المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال؛ فلهذا سألوا عن حكمهما؛ فأمر اللّه تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما؛ ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما، وتحتيم تركهما؛ فقال: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾: فأخبر أن إثمهما ومضارهما وما يصدر عنهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر اللّه وعن الصلاة، والعداوة والبغضاء أكبر مما يظنونه من نفعهما من كسب المال بالتجارة بالخمر، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجرًا للنفوس عنهما؛ لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة؛ قدم هذه الآية مقدمة للتحريم، وهذا من لطفه ورحمته وحكمته. فأما الخمر؛ فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه، من أي نوع كان. وأما الميسر، فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد والشطرنج وغيرها.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾: هذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر اللّه لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو: المتيسر من أموالهم، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ بسبب هذا البيان.

(٢٢٠) ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾: أخبر تعالى المسلمين أن المقصود إصلاح أموال اليتامى؛ بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ وأن خلطتهم إياها في طعام وغيره جائز، على وجه لا يضر باليتامى؛ لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل: فمن علم اللَّه من نيته أنه مصلح لليتيم وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد؛ لم يكن عليه بأس، ومن علم اللَّه من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها؛ فذلك الذي حُرِّج وأُثِّم، والوسائل لها أحكام المقاصد. وهذه الرخصة لطف من اللَّه تعالى وإحسان وتوسعة على المؤمنين، وإلا؛ فلو ﴿شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾: شق عليكم بعد الرخصة بذلك، فحُرِّجتم وشُقَّ عليكم وأثمتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء ﴿حَكِيمٞ﴾: لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فأفعاله وأحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئًا عبثًا؛ فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة -أو راجحة-، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة -أو راجحة-.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ النساء ﴿ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾؛ لأن المؤمنة -ولو بلغت من الدمامة ما بلغت -خير من المشركة- ولو بلغت من الحسن ما بلغت-، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، خصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب. ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾: وهذا عام لا تخصيص فيه، ودلَّ قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ على اعتبار الولي في النكاح ﴿وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ المؤمن ولو كان عبداً حبشيًا خير من المشرك ولو كان رئيساً سرياً.

ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم، أو المسلمة، لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية؛ إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع؛ لأنه إذا لم يجز التزوج مع أنه فيه مصالح كثيرة، فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصًا الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك على المسلم.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع

---

(٢٢٠) أخرج أبو داود والنسائي والترمذي بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً؛ فإنها تذهب المال والعقل. فنزلت: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ التي في سورة البقرة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام صلاة نادى: «أن لا يقربن الصلاة سكران»؛ فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة؛ فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا.

العقوبات ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بشرعه، وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتثال لما ضيعوه.

(٢٢٢) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾: يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض: هل تكون المرأة بحالها بعد الحيض كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقًا كما يفعله اليهود؟

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى؛ فمن الحكمة أن يمنع اللَّه تعالى عباده من الأذى وحده ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾؛ أي: مكان الحيض؛ وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا هو المحرم إجماعًا ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تجامعوهن، وأما الملامسة والمضاجعة فجائزة. وحدّ هذا الاعتزال وعدم القربان للحُيَّض ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسلن ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: في القبل لا في الدبر؛ لأنه محل الحرث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من ذنوبهم على الدوام ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: المتنزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة، والأفعال الخسيسة.

(٢٢٣) ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: مقبلة ومدبرة، غير أنه لا يكون إلّا في القبل؛ لكونه موضع الحرث، وهو الموضع الذي يكون منه الولد، وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر؛ لأن اللَّه لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ من التقرب إلى اللَّه بفعل الخيرات، ومن ذلك: أن يباشر الرجل امرأته ويجامعها على وجه القربة والاحتساب، وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع اللَّه بهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم، كونوا ملازمين لتقوى اللَّه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ مستعينين بذلك لعلكم ﴿أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر المبَشَّر به؛ ليدل على العموم، وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير

---

(٢٢١) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

(٢٢٢) في «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه: «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي النبيَّ ﷺ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئًا إلا خالفنا فيه!

(٢٢٣) في «الصحيحين»، عن جابر رضي الله عنهما قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول. فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

وأخرج الترمذي وأحمد بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: «ما الذي أهلكك؟» قال: حولت رحلي البارحة! قال: فلم يرد عليه شيئًا. قال: فأوحى الله إلى الرسول ﷺ هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: «أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة».

واندفاع كل ضير رُتِّب على الإيمان؛ فهو داخل في هذه البشارة.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾: كان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء؛ ولكن الله تعالى استثنى من ذلك إذا كان البر باليمين يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فنهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة مانعة وحائلة عن أن يبروا؛ أي: يفعلوا خيرًا، ويتقوا شرًا، أو ويصلحوا بين الناس ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

(٢٢٥) ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية، التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب؛ ولكنها جرت على لسانه، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب، وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال كما هي معتبرة في الأفعال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه ﴿حَلِيمٌ﴾؛ بمن عصاه؛ حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر وصفح مع قدرته عليه.

الجزء الثاني — سورة البقرة

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٣٦

(٢٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾: هذا من الأيمان الخاصة بالزوجة في أمر خاص؛ وهو حلف الرجل على ترك وطء زوجته مطلقًا، أو مقيدًا بأقلَّ من أربعة أشهر، أو أكثر. فمن آلى -حلف- من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر؛ فهذا مثل سائر الأيمان: إن حنث كفَّر، وإن أتم يمينه؛ فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل.

وإن كان أبدًا -أو مدة تزيد على أربعة أشهر-؛ ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة -وهو

(٢٢٤) في «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها».

(٢٢٥) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عطاء: في اللغو في اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته: كلا والله، وبلى والله».

الوطء-، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق. ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى اللَّه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِن فَآءُو﴾: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه -وهو الوطء-؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف بسبب رجوعهم ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ حيث يجعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم -أيضًا- حيث فاءوا إلى زوجاتهم وحنّوا عليهن ورحموهن.

(٢٢٧) ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾؛ أي: امتنعوا من الفيئة؛ فكان ذلك دليلًا على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهم، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

(٢٢٨) ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾: النساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي: حِيَض، أو أطهار؛ على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القرء: الحيض، والحكمة من هذه العدة: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء؛ علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ﴾؛ أي: يجب عليهن الإخبار عن ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ وحرم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض؛ لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفاسد كثيرة ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن باللَّه واليوم الآخر، وإلا؛ فلو آمنَّ باللَّه واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن؛ لم يصدر منهن شيء من ذلك، وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها -كالحمل والحيض، وغيرها-. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾: رغبة وألفة ومودة ﴿وَلَهُنَّ﴾: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ومرجع ذلك إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله، وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن والوطء الكل يرجع إلى المعروف ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء؛ ﴿حَكِيمٌ﴾ ولكنه -مع عزته- حكيم في تصرفه.

---

(٢٢٦) أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فإما يطلق، وإما أن يفيء.

(٢٢٨) في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألّا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

(٢٢٩) ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانِۖ﴾؛ ليتمكن الزوج -إن لم يرد المضارة- من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها؛ فليس محلاً لذلك؛ لأن من زاد على الثنتين فإما متجرئ على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾: أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾؛ أي: عِشْرَةٌ حسنة ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾: وإلا يسرحها ويفارقها ﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ ومن الإحسان: ألاَّ يأخذ على فراقه لها شيئًا من مالها؛ لأنه ظلم وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ أي: لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعْطيتموهن من الأَصدقة أو ببعضه ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾: وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخَلقه أو خُلقه أو نقص دينه، وخافت ألَّا تطيع اللَّه فيه، ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع إذا وجدت هذه الحكمة ﴿تِلۡكَ﴾؛ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ فلا تجاوزوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: وأيُّ ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟

(٢٣٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الطلقة الثالثة؛ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ نكاحًا صحيحًا ويطؤها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلاَّ صحيحًا، ويدخل فيه العقد والوطء؛ وهذا بالاتفاق.

ويتعين أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول؛ فليس بنكاح ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد؛ لأنه ليس بزوج ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ فإذا تزوجها الثاني - راغبًا ووطأها- ثم فارقها وانقضت عدتها؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾ على الزوج الأول والزوجة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾: يجددا عقدًا جديدًا بينهما، ﴿إِن ظَنَّآ﴾: يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾؛ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه؛ وذلك إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾: شرائعه التي حددها وبيّنها ووضّحها ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها، النافعون لغيرهم، وفي هذا من فضيلة أهل العلم، ما لا يخفى؛ لأن اللَّه تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصًا بهم وأنهم المقصودون بذلك، وأن اللَّه تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

---

(٢٢٩) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح، عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة».

(٢٣٠) في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ قال: «لا، حتى يذوق عسيلتها».

وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «لُعن المحلِّلُ والمحلَّلُ له».

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٣٧

(٢٣١) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ طلاقًا رجعيًا بواحدة أو اثنتين ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: قاربن انقضاء عدتهن؛ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: إما أن تراجعوهن ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار ولهذا قال: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾: مضارة بهن ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ في فعلكم هذا الحلال إلى الحرام، فالحلال الإمساك بالمعروف، والحرام المضارة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ فكون الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار، ويكون ظالمًا لنفسه بمخالفة أمر اللّه ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾: لما بيّن تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود: العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها لأنه تعالى لم ينزلها عبثًا، بل أنزلها بالحق والصدق- نهى عن اتخاذها هزوًا؛ أي: لعبًا بها؛ وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: عمومًا باللسان حمدًا وثناءً-، وبالقلب اعترافًا وإقرارًا، وبالأركان بصرفها في طاعة الله ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾: بما أنزل عليكم، يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك؛ فلهذا بيّن لكم هذه الأحكام بغاية الإتقان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان، فله الحمد والمنة.

(٢٣٢) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك؛ فلا يجوز لوليها - من أب وغيره- أن يعضلها؛ أي: يمنعها من التزوج به؛ حنقًا عليه وغضبًا واشمئزازًا لما فعل من الطلاق الأول، وذكر أن ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإيمانه يمنعه من العضل ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾: وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي واللائق وأنه يُقَابَل بطلاقه الأول بعدم

(٢٣٢) أخرج البخاري عن معقل بن يسار رضي الله عنه؛ قال: زوجت أختاً لي من رجل؛ فطلقها، حتى انقضت عدتها؛ جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك، فطلقتها، ثم جئت تخطبها! إلا والله لا تعود إليك أبداً. وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه؛ فأنزل هذه الآية ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾؛ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله. قال: «فزوِّجها إياه».

تزويجه، فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فالله ﴿يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مريد لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

وفي هذه الآية دليل عليأنه لا بد من الولي في النكاح؛ لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو تحت تدبيرهم، ولهم في الحق.

(٢٣٣) ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾: هذا خبر بمعنى الأمر، تنزيلا له منزلة المتقرر، الذي لا يحتاج إلى أمر، ولما كان الحول يطلق على الكامل وعلى معظم الحول؛ قال: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ فإذا تم للرضيع حولان؛ فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية؛ فلهذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر، ولا يُحرِّم. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب رزقها: نفقتها وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾: فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني، ولا من لم يجد شيئًا بالنفقة حتى يجد: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها؛ إما أن تُمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة، أو الأجرة، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾: بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر.

ودل قوله: ﴿مَوْلُودٌ لَّهُ﴾؛ أن الولد لأبيه؛ لأنه

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

٣٨

موهوب له، ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة. فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين على القريب الوارث الموسر.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ الأبوان ﴿فِصَالًا﴾: فطام الصبي قبل الحولين ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ بأن يكونا راضيين ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ فيما بينهما؛ هل هو مصلحة للصبي، أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيا؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في فطامه قبل الحولين.

(٢٣٣) أخرج الترمذي بإسناد صحيح من أم سلمة ﵂؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم في الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل العظام».

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾: تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ للمرضعات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

(٢٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبًا، والحكمة في ذلك ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهم بوضع الحمل، وكذلك الأمة، عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾: من مراجعتها للزينة والطيب ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: على وجه غير محرم ولا مكروه، وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها زوجها دون غيرها من المطلقات والمفارقات؛ وهو مجمع عليه بين العلماء ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: عالم بأعمالكم؛ ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، فمجازيكم عليها.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة في الحياة: فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وأما التعريض؛ فقد أسقط تعالى فيه الجناح، والفرق بينهما: أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم خوفًا عن استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها؛ رغبة في النكاح، وأما التعريض -وهو: الذي يحتمل النكاح وغيره-؛ فهو جائز للبائن، كأن يقول: إني أريد التزويج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز؛ لأنه ليس بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه، وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: يعرض لها بالقول المعروف، وهذا التفصيل كله في مقدمات العقد ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾: وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾: حتى تنقضي العدة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فانووا الخير، ولا تنووا الشر؛ خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب، فتاب منها ورجع إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

(٢٣٦) ﴿لَّا﴾: ليس عليكم يا معشر الأزواج ﴿جُنَاحَ﴾: إثم ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بأن تعطوهن شيئًا من المال جبرًا لخواطرهن ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ الغني ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾: المعسر (الفقير) ﴿قَدَرُهُۥ﴾ في حال السعة، وهو إمكانه وطاقته، وهذا يرجع إلى العرف وأنه يختلف باختلاف الأحوال ﴿مَتَٰعًا

(٢٣٤) في «الصحيحين» عن أم حبيبة وزينب بنت جحش ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث؛ إلا على زوج؛ أربعة أشهر وعشراً».

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فهذا حق واجب ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن، فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه؛ فعليهم في مقابلة ذلك المتعة، فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي وأدلَّه على حكمة شارعه ورحمته! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر، ثم ذكر حكم المفروض فقال:

(٢٣٧)﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾: إذا طلقتم النساء قبل المسيس وبعد فرض المهر؛ فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾: أن تعفو عن نصفها لزوجها؛ إذا كان يصح عفوها ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: هو الزوج، وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه؛ لكونه إحسانًا موجبًا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾: ولا ينسى الفضل، الذي هو: إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة التي هي أعلى درجات المعاملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: لا يخفى عليه

الجزء الثاني — سورة البقرة

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

٣٩

شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله.

(٢٣٨) ﴿حَٰفِظُواْ﴾: يأمر تعالى بالمحافظة ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ عمومًا ﴿وَ﴾ على ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾؛ وهي العصر خصوصًا؛ والمحافظة عليها: أداؤها لوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع مالها من واجب ومستحب ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾: ذليلين مخلصين خاشعين؛ فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

(٢٣٩) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾: حذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع وغيرها، والمعنى: إن

(٢٣٨) في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى: صلاة العصر؛ ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا».

وفي «الصحيحين» عن زيد بن أرقم رضي الله عنه؛ قال: كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة؛ حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾؛ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام.

خفتم بصلاتكم على تلك الصفة؛ فـ﴿رِجَالًا﴾: ماشين على أرجلكم ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وسائر المركوبات، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾: زال الخوف عنكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾: وهذا يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتمامها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: مثلما أنعم عليكم وهداكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر.

(٢٤٠) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾: الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجًا، فعليهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: وصية من الله لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولاً كاملاً، وأن يستوصوا بها ويمتعوها ولا يخرجوها؛ جبرًا لخاطرها، وبرًّا بميتهم. فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحبت الخروج فلا حرج عليها، ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾: أحبت الخروج من قِبَل نفسها؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التجمل واللباس ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾؛ بشرط أن يكون بالمعروف الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ختم الآية بهذين الاسمين العظيمين الدالين على كمال العزة وكمال الحكمة؛ لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته؛ حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها. وأكثر المفسرين على أن هذه الآية منسوخة بما قبلها وهي: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

(٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: إن كل مطلقة لها على زوجها أن يمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

(٢٤٢) ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: حدوده، وحلاله وحرامه، والأحكام النافعة لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ فإن القصد من بيانه لعباده أن يعقلوا عنه ما بيّنه، فيعقلونها حفظًا وفهمًا وعملاً بها؛ فإن ذلك من تمام عقلها.

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حلَّ الوباء بديارهم؛ فخرجوا

(٢٤٣) أخرج الشيخان وأحمد واللفظ له: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر - وهو في الشام- عن النبي ﷺ: «إن هذا السقم عذب به أمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فرجع عمر في الشام.

وأخرج الطبري ووكيع وابن مردويه والضياء والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس ﵄ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف؛ خرجوا فراراً من الطاعون، وقالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت. حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا؛ فماتوا، فمّر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم حى يعبدوه، فأحياهم.

بهذه الكثرة فرارًا من الموت، وقيل: خرجوا من ديارهم خوفًا من الأعداء، وجبنًا عن لقائهم، فلم ينجهم الفرار ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم اللَّه عن آخرهم، ثم تفضل عليهم؛ فأحياهم: إما بدعوة نبي، وإما بغير ذلك؛ ولكن ذلك بفضله وإحسانه، وهو لا يزال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم اللَّه بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك؛ فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

(٢٤٤) ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾: أمر اللَّه بالقتال في سبيله بالمال والبدن ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: حث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد لتكون كلمة الله هي العليا، فإن اللَّه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال، وإن خفيت ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها، وإذا علم المجاهد في سبيله أن اللَّه سميع عليم؛ هان عليه ذلك، وعلم أنه لابد أن يمدهم بعونه ولطفه.

(٢٤٥) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: هذا حث لطيف على النفقة، وإن المنفق قد أقرض اللَّه الملي الكريم قرضًا حسنًا، وهو: ما جمع أوصاف الحسن؛ من النية الصالحة، وسماحة النفس بالنفقة، ووقوعها في محلها، وألَّا يتبعها المنفق منًّا ولا أذى. ووعده المضاعفة الكثيرة ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾: ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق؛ أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر ولا يظن أنه ضائع ﴿وَإِلَيْهِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

تُرْجَعُونَ﴾: بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا أحوج ما يكونون إليه.

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾: أخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة ممن جاءوا بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقائل مقال ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ أي: لعلكم تطلبون شيئًا إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية؛ فلم يقبلوها واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فـ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ

﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾: أجابوا نبيهم بالعزم الحازم، وأنهم التزموا ذلك التزامًا تامًّا، وأن القتال متعيّن عليهم؛ حيث كان وسيلةً لاسترجاع ديارهم، ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ﴾: جبنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾؛ فعصمهم اللَّه وثبتهم وقوى قلوبهم، فالتزموا أمر اللَّه ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذين ظلموا أنفسهم، وتركوا أمر الله.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ﴾ مجيبًا لطلبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ فكان هذا تعيينًا من اللَّه لطالوت ملكًا، يقودهم في هذا الأمر الذي لابد له من قائد يحسن القيادة.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ استغربوا، وأبوْا إلا الاعتراض؛ كيف يكون ملكًا وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه، ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال؟! وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن المُلْك ونحوه مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فلهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾: آتاه اللَّه من قوّة العلم بالسياسة، وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة وحسن التدبير ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾: أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون؛ لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الفضل، كثير الكرم ﴿عَلِيمٞ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ ذكر لهم نبيهم أيضًا آية حسية يشاهدونها؛ وهي إتيان التابوت الذي قد استولت عليه الأعداء، وفقدوه زمانًا طويلاً، ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وفي ذلك التابوت سكينة تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم ﴿وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يعني موسى وهارون أنفسهما، كان فيه شيء من تركتهما، قيل: عصا موسى، ورضاض الألواح التي تكسرت، وقيل غير ذلك، ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانًا. فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين اللَّه له على لسان نبيهم حتى أيد ذلك بهذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ فحينئذ سلّموا وانقادوا.

---

(٢٤٨) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ قال: عصاه ورضاض الألواح.

(٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾: فلما ترأس فيهم طالوت، وجنّدهم ورتبهم وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ تمرون عليه وقت حاجة إلى الماء ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾؛ أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره ووفور جزعه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾: لم يشرب منه؛ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾: لصدقه وصبره ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾؛ فإنه مسامح فيها.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ﴾ فلما وصلوا إلى ذلك النهر، وكانوا محتاجين إلى الماء شربوا كلهم منه الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم، ونكصوا عن قتال عدوهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي النهر: ﴿هُوَ﴾ أي طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾: وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا قلتهم وكثرة أعدائهم ﴿قَالُواْ﴾ أي: قال كثير منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾: لكثرتهم وعَددهم وعُددهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبّتين لباقيهم، ومطمئنين لخواطرهم، وآمرين لهم بالصبر: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإرادته ومشيئته، فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم.

(٢٥٠) ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾: لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت عدوهم أصحاب جالوت وهم كثير ﴿قَالُواْ﴾ جميعهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: قوِّ قلوبنا، وأوزعنا الصبر ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عن التزلزل والفرار ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الجزء الثاني — سورة البقرة

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٤١

---

(٢٤٩) في «صحيح البخاري» عن البراء بن عازب؛ قال: «كنا - أصحاب محمد ﷺ - نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت: الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة».

الجزء الثالث — سورة البقرة

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

٤٢

(٢٥١) ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: غلبوهم بنصر الله، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ عليه السلام وكان مع جنود طالوت، ﴿جَالُوتَ﴾، باشر قتل ملك الكفار، وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾: آتى الله داود ﴿ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: مَنَّ عليه بتملكه على بني إسرائيل، مع الحكمة؛ وهي النبوة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾: من العلوم الشرعية والعلوم السياسية النافعة، فجمع الله له الملك والنبوة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار؛ لفسدت الأرض باستيلاء الكفار والفجار، وأهل الشر والفساد وإقامتهم شعائر الكفر، ومَنْعِهم من عبادة الله تعالى وإظهار دينه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ذو منّ عليهم ورحمة بهم؛ حيث لطف بالمؤمنين ودافع عنهم وعن دينهم بما شرعه وبما قدره.

(٢٥٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق الذي لا ريب فيها، المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها: هذه القصة؛ حيث أخبر بها وحيًا من الله مطابقًا للواقع.

(٢٥٣) ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾: يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة والتخصيصات الجميلة؛ بحسب ما منَّ الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل واليقين الراسخ، والأخلاق العالية والآداب السامية، والدعوة والتعليم والنفع العميم، فمنهم منن اتخذه خليلاً؛ ومنهم من كلمه تكليمًا، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على نبوته، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه

(٢٥٣) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث! وعلى محمد ﷺ؟! فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور، فلا تفضلوا بين أنبياء الله».

﴿وَأَيَّدْنَهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده الله به، وقواه على ما أمر به. وقيل: إن روح القدس جبريل عليه السلام، أيده الله بإعانته ومؤازرته ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَتُ﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان: ﴿وَلَكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضًا بعد ما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال ما اقتتلوا ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، فهو فعّال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

(٢٥٤) ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَكُم﴾: يحث الله المؤمنين على النفقات في جميع طرق الخير، ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم ونوّع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم؛ بل قال: ﴿مِّنَ﴾ الدالة على التبعيض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾: ومما يدعوهم أيضًا للإنفاق: إخبارهم أن هذه النفقات مدخرة عند الله في يوم لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه ولا التبرعات ولا الشفاعات، فتنقطع الأسباب كلها إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٧٣].

﴿وَٱلْكَفِرُونَ هُمُ ٱلظَّلِمُونَ﴾؛ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم؛ ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، واستعانوا بنعمة الله على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يُبقوا للعدل موضعًا؛ فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

(٢٥٥) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو ﴿ٱلْحَىُّ﴾: الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر والقدرة والإرادة ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات فأوجدها وأبقاها وأمدها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها. ومن كمال حياته وقيّوميّته أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾؛ أي: نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأن

(٢٥٥) في «صحيح مسلم» عن أُبي بن كعب: أن النبي ﷺ سأله: «أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم. فردّدها مرارًا. ثم قال أُبي: آية الكرسي. قال: «ليهنك العلم أبا المنذر». روى ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» وغيره حديث أبي ذر الصحيح لغيره عن رسول الله ﷺ قال: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات؛ فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

السِّنَةَ والنوم إنما يعرضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾: أخبر أنه مالك جميع ما في السموات والأرض، فكلهم عبيد لله مماليك لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ من تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم، والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا؛ فليس له في الشفاعة نصيب.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۖ﴾ من الأمور الماضية التي لا حدَّ لها، وأنها لا تخفى عليه خافية ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾: لا يحيط أحد من الخلق بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ منها؛ وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدًّا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ﴾: أخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه - وهو موضع القدمين - وسع السموات والأرض ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾؛ أي: لا يثقله حفظهما؛ لكمال عظمته واقتداره، وسعة حكمته ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي من أجلِّ المعاني يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، كما أخبر ﷺ ويحق لمن قرأها متدبرًا متفهمًا أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظًا بذلك من شرور الشيطان.

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾: هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد؛ لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه

(٢٥٦) في «الصحيحين» عن قيس بن عباد؛ قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت قبلُ المسجد قالوا كذا وكذا؟. قال: سبحان الله! ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لِمَ: إني رأيت رؤيا في عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه: رأيت كأني في روضة خضراء، وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض، وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة. فقيل لي: اصعد عليه. فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف فرفع ثيابي من خلفي فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت».

وآياته: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾: فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا ردَّهُ ولم يقبله، وهو إنما يفعل ذلك لعناده.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ هو: كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له؛ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾؛ أي: بالدين القويم، الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره؛ لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ لا انقطاع لها دون دخول الجنة، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أكنته الصدور وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه من نيته وعمله.

(٢٥٧) ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: هذه الآية مرتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة - ثمرة الإيمان -، فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافيه؛ أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ نور العلم واليقين، والإيمان والطاعة، والإقبال الكامل على ربهم، فينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾: وأما الذين كفروا؛ فإنهم لما تولوا غير وليهم: ولَّاهم الله ما تولوا لأنفسهم وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من ليس عنده نفع ولا ضر ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾

ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾؛ فأضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفرة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: صارت النار مثواهم خالدين فيها مخلدين (اللهم تولنا فيمن توليت).

(٢٥٨) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾: أخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ، حيث حاجّ هذا الملك الجبار المنكر لرب العالمين في أمر لا يقبل شكًا ولا إشكالاً ولا ريبًا؛ وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها، وما حمله على ذلك إلّا ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾: هذا الجبَّار الذي غرَّه ملكه وأطغاه؛ حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه - أي توحيد الله وربوبيته - ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ مناظرًا له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ

﴿وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة ﴿قَالَ﴾ ذلك الجبار مباهتًا: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾؛ أي: أنا أقتل من أردت قتله، وأستبقي من أردت استبقاءه! ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير عن المقصود؛ فإن المقصود: أن اللَّه تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بآجالها، بأسباب ربطها، وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموّهًا تمويهًا ربما راج على الهمج الرَّعاع ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ ملزمًا له بتصديق قوله إن كان كما يزعم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ أي: عيانًا، يُقرّ به كل أحد، حتى ذلك الكافر؛ ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي إذا كنت كما تزعم من أنك تحيي وتميت! ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: وقف وتحير، فلم يرجع إليه جوابًا، وانقطعت حجته واضمحلت شبهته.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم.

(٢٥٩) ثم ذكر تعالى دليلاً آخر على توحده بالخلق والتدبير والإماته والإحياء، فقال: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: هذا دليل عظيم محسوس في الدنيا قبل الآخرة على البعث والجزاء، أجراه اللَّه على يد رجل شاك «وقيل إنع عزير النبي عليه السلام، وقيل غير ذلك» في البعث، فهذا الرجل مرَّ على قرية قد دمرت تدميرًا وخوت على عروشها، قد مات أهلها، وخربت عمارتها، فقال على وجه الشك والاستبعاد: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ ذلك بعيد وهي في هذه الحال، فأراد اللَّه رحمته ورحمة الناس؛ حيث أماته اللَّه مائة عام، وكان معه حمار فأماته معه، ومعه طعام وشراب فأبقاهما اللَّه بحالهما كل هذه المدد الطويلة ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ فلما مضت الأعوام المائة بعثه اللَّه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك بحسب ما ظنه، ﴿قَالَ﴾ اللـه: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ﴾.

ومن تمام رحمة اللَّه به وبالناس أنه أراه الآية عيانًا؛ ليقتنع بها، فبعد ما عرف أنه ميت قد أحياه اللـه؛ قيل له: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾؛ أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله؛ فإن الطعام والشراب لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه اللَّه مائة عام، وقيل له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾؛ فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظامًا نخرة ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دليل على المعاد ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾؛ أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض بعدما تفرقت وتمزقت ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾ ثم نعيد فيه الحياة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ رَأْيَ عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه؛ ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاعترف بقدرة اللَّه على كل شيء وصار آية للناس؛ لأنهم قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى.

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: هذا برهان آخر على البعث والجزاء، فإن إبراهيم عليه السلام قال طالبًا من اللَّه أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال اللَّه له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿بَلَىٰ﴾ يا رب قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنك تحيي الموتى؛ ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: ولكن أُريد أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين. فأجاب اللَّه دعوته؛ كرامة له، ورحمة بالعباد ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾، ولم يبين أي الطيور هي؛ والآية حاصلة بأي نوع منها ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ضمهن واذبحهن ومزقهن ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾؛ ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه سريعات؛ لأن السعي السرعة، وليس المراد: أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخصّ الطيور بذلك؛ لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأزال في هذا كل وهم ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة ومزقهن جميعًا، وجعلهن على رءوس الجبال؛ ليكون ذلك ظاهرًا علنًا يشاهد من قرب ومن بعد، ونحاهن عنه كثيرًا؛ لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة اللَّه وحكمته ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ذو قوة عظيمة سخر بها

الجزء الثالث — سورة البقرة

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

٤٤

المخلوقات، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل شيئًا عبثًا.

(٢٦١) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته ومرضاته وطريقه الموصل إليه؛ فيدخل في هذا: إنفاقه في العلوم النافعة، والاستعداد للجهاد في سبيله، وتجهيز المجاهدين، وجميع المشاريع الخيرية النافعة، والإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾: فهذه النفقات مضاعفة هذه المضاعفة بسبعمائة، إلى أضعاف أكثر من ذلك، فهذا حث عظيم من اللَّه لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان

(٢٦٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم. إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾».

والإخلاص التام، وبحسب حال النفقة وثمرتها ونفعها ووقوعها موقعها ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾: فيعطيهم أجرهم بغير حساب ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها.

(٢٦٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: ذكر تعالى ثوابًا آخر للمنفقين أموالهم في سبيله نفقة صادرة مستوفية لشروطها منتفية موانعها ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾: فلا يتبعون المنفق عليه منًّا منهم عليه وتعدادًا للنعم، ﴿وَلَآ أَذًى﴾: ولا أذية له قولية أو فعلية؛ فهؤلاء ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: نفى عنهم المكروه الماضي بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب واندفع عنهم المكروه.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: هو الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل، وغير ذلك ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بقول أو فعل ﴿خَيْرٌ﴾ أفضل ﴿مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾؛ لأنه كدَّر إحسانه، وفعل خيرًا وشرًّا. وفي هذا تحذير عظيم لمن يؤذي من تصدق عليه؛ كما يفعله أهل اللؤم والحمق والجهل ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عباده ﴿حَلِيمٌ﴾ مع كمال غناه وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيهم ويرزقهم ويدرّ عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي!

(٢٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ ينهى تعالى عباده أشد النهي، - رحمة بهم ولطفًا - عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: كحال الذي يرائي الناس بنفقته، وليس معه إيمان بالله ولا احتساب لثوابه ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾: مثل قلب هذا المرائي ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة؛ ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر شديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾: فأذهب ما عليه من التراب.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع، فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها تؤسس عليه، ولا غاية لها تنتهي إليه، بل ما عمله فهو باطل ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾؛ لانعدام شرط قبول العمل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صرف قلوبهم عن الهداية، وحرمهم التوفيق.

---

(٢٦٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

الجزء الثالث سورة البقرة

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

٤٥

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾: قصدهم بذلك رضا ربهم والفوز بقربه، لصدوره عن الإيمان والإخلاص التام ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ينفقون وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾؛ وهو المكان المرتفع؛ لأنه يتبين للرياح والشمس ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾؛ وهو: المطر الغزير؛ ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي: تضاعفت ثمراتها ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا﴾ ذلك الـ﴿وَابِلٌ﴾ الغزير؛ ﴿فَطَلٌّ﴾: حاصل لها طل، أي: مطر قليل كاف؛ لطيب منبتها وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها، وهذه الجنة التي على هذا الوصف هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: يعلم عمل كل عامل.

(٢٦٦) ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ هذا مضروب لمن أنفق لله ثم أتبع نفقته منًّا وأذى، أو عمل عملاً فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثل صاحب هذه الجنة بما فيها من ثمار وخيرات وأنهار؛ لكن سُلِّط عليها ﴿إِعْصَارٌ﴾؛ وهو الريح الشديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾: أحرقت ثمار وأشجار تلك الجنة، وله ذرية ضعفاء وهو ضعيف قد أصابه الكبر، فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾؟ بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تَلَفَها دفعة واحدة بعد زهاء أشجارها وإيناع ثمارها مصيبة كبرى، ثم حصول هذه الفاجعة وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء لا مساعدة منهم له ومؤنتهم عليه فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل الذي عمل لله ثم أبطل عمله بمناف له يشبه حال صاحب هذه الجنة التي جرى عليها ما جرى حين اشتدت ضرورته إليها.

(٢٦٦) في «صحيح البخاري» عن ابن عباس؛ قال: قال عمر بن الخطاب يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا بن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ تعتبرون وتفهمون الأمثال، وتنزلونها على المراد منها.

(٢٦٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يحث الباري عباده المؤمنين على الإنفاق من طيبات ما يسر لهم من المكاسب في التجارات وغيره ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من الحبوب والثمار ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾: أمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾: ولو بذله لهم من لهم حق عليه لم يرتضوه ولم يقبلوه ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾: إلا على وجه المغاضاة والإغماض. فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، ومع كمال غناه وسعة عطاياه؛ فهو ﴿حَمِيدٌ﴾ في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف؛ لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات.

(٢٦٨) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾: لما حثهم على الإنفاق النافع؛ نهاهم عن الإمساك الضار، وأخبر أن الشيطان يحثهم على الإمساك، ويخوفهم إن أنفقوا أن يفتقروا ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخالق، فهو يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ إحسانًا وخيرًا وثوابًا عاجلًا وآجلًا، وإخلاف ما أنفقوا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع الفضل، كثير الهبات ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منكم من النفقات، قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه.

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾: لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم ومنَّ عليهم بالأموال؛ ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه.

والحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسدَّدة والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى،

---

(٢٦٧) أخرج الطبري وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ الآية. قال: نزلت في الأنصار، كان الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل، أخرجت من حيطانها أَقْناء البسر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحَشَف - الرديء من التمر -، فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

(٢٦٨ و٢٦٩) في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة؛ فهو يقضي بها ويعلمها».

ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال إلى إصابة الصواب فيها وحصول السداد، ولأنه كمّل نفسه بهذا الخير العظيم، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة ﴿و﴾ لكن ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ وهم أهل العقول الوافية والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

(٢٧٠) ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: يخبر تعالى أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر المنذرون؛ فإن الله يعلم ذلك، ومضمون الإخبار بعلمه يدل على الجزاء، وأن اللَّه لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنهم من نيات صالحة أو سيئة ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: الظالمون الذين يمنعون ما أوجب اللَّه عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم ليس لهم من دونه أنصار ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بدَّ أن تقع بهم العقوبات.

(٢٧١) ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: إن أبداها المتصدق وأظهرها؛ ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: فهي خير، ونعم الشيء هي؛ لحصول المقصود بها ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾: وإن أخفاها وأسرّها ﴿وَتُؤْتُوهَا

الجزء الثالث — سورة البقرة

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

نصف الحزب ٥ — ع — ٤٦

ٱلْفُقَرَآءَ﴾: وسلّمها للفقير؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: كان أفضل؛ لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وهو يدل على قوّة الإخلاص.

وفي هذه الآية فائدة لطيفة: وهي أن إخفاء الصدقة خير من إظهارها؛ لكن ربما كان الإظهار خيرًا؛ لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير. والمرجع في ذلك إلى قواعد الشرع التي تدل على مراعاة المصلحة. ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن

---

(٢٧١) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد بإسناد صحيح، عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالمجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

سَيِّئَاتِكُمْ﴾: في هذا أن الصدقات يجتمع فيها الأمران: حصول الخير وهو كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء بتكفير السيئات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ فيجازي كلًّا بعمله، بحسب حكمته.

(٢٧٢)﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ : يقول تعالى لنبيه ﷺ: ليس عليك هدى الخلق، وإنما عليك أيها الرسول البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية؛ فبيد اللّه تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير على أيِّ شخص كان، من مسلم وكافر؛ ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ : يخبر تعالى عن المؤمنين حقًّا أنهم لا ينفقون إلَّا لطلب مرضاة ربهم واحتساب ثوابه؛ لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، وهذا يتضمن التذكير لهم بالإخلاص ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم، وكرر علمه تعالى بنفقاتهم؛ لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: تنقصون من أعمالكم شيئًا، كما لا يزاد في سيئاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾؛ يعني: أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الذين حَبسوا أنفسهم في سبيل اللّه وعلى طاعته ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾: ليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾: إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء؛ لتعففهم وعدم سؤالهم، وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾: بالعلامة التي ذكرها اللّه في وصفهم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾: فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطرارًا لم يلحفوا في السؤال ولم يلحّوا ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويج خير وأجر وثواب عند الله، وهو يعلم ذلك كله ويعلم نياتكم ومقاصدكم، لا يخفى عليه شيء، فيجازيكم عليه.

(٢٧٤) ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم، وتخصيص ذلك بأنه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات.

---

(٢٧٣) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا».

(٢٧٤) وفي «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك».

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

(٢٧٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ لما ذكر اللَّه حالة المنفقين وما لهم من الله؛ ذكر الظالمين: أهل الربا، والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين؛ عوقبوا في البرزخ والقيامة أنهم: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: يصرعه الشيطان ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾؛ أي: من الجنون والصرع، وذلك عقوبة وخزي وفضيحة لهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾ وجزاء لهم على مراباتهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ فجمعوا -بجراءتهم- بين ما أحل اللَّه وبين ما حرم الله، واستباحوا الربا.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾: أباح وشرع اللَّه البيع ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ فإنه كسب خبيث، ثم عرض تعالى التوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أتاه وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا، على يد من قيّضه اللَّه لموعظته؛ رحمة من اللَّه بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه، وهذا بيان مقرون به بالوعد والوعيد ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عما كان يتعاطاه من الربا؛ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه، وهي ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة؛ جزاء لقبوله للنصيحة ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في مجازاته، وفيما يستقبل من زمانه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان اللَّه وتذكيره وتوعده لآكل الربا إلى تعاطي الربا، ولم تنفعه الموعظة؛ بل أصر على ذلك؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: فالربا موجب لدخول النار والخلود فيها؛ وذلك لشناعته.

(٢٧٦) ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: يذهب مكاسب المرابين، ويذهب بركتها، ذاتًا ووصفًا ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه، وينمي أجر صاحبها، عكس ما

---

(٢٧٥) في «صحيح البخاري» عن سمرة بن جندب رضي الله عنه في حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فغرفاه فألقمه حجرًا». ثم ذكر تفسيره: «وأما الرجل الذي أتينا عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا».

(٢٧٦) أخرج أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة».

الجزء الثالث — سورة البقرة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

٤٨

يتبادر لأذهان كثير من الخلق: أن الإنفاق ينقص المال، وأن الربا يزيده! فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من اللَّه تعالى، وما عند اللَّه لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾: كفر نعمة الله، وجحد منّة ربه ﴿أَثِيمٍ﴾ بإصراره على معاصيه.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أدخل اللَّه تعالى هذه الآية بين آيات الربا؛ لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم اللَّه من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصًا ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فإيتاء الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا الذي هو ظلم لهم وإساءة عليهم ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فهم يوم القيامة عن التبعات آمنون، وفي الجنات مطمئنون.

(٢٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: وجه تعالى الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه ويذروا ويتركوا ما بقي من معاملات الربا التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك.

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾: من لم ينزجر بموعظة الله، ولم يقبل نصيحته في ذلك؛ ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾: فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا؛ حيث جعل المصر عليه محاربًا لله ورسوله ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من المعاملات الربوية؛ ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾: انزلوا عليها ﴿لَا تَظۡلِمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ بنقص رؤوس أموالكم.

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ﴾ الذي عليه الدَّين ﴿ذُو عُسۡرَةٖ﴾: معسرًا لا يقدر على الوفاء؛ ﴿فَنَظِرَةٌ﴾: وجب على غريمه أن ينظره ويمهله ﴿إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ حتى يجد ما يوفي به، ويتيسر حاله ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾: إن تصدَّق غريمه بإسقاط الدَّين كله أو بعضه؛ فهو ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنكم راجعون إلى ربكم؛ فمجازيكم على أعمالكم وصدقاتكم.

(٢٨١) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن وتعني: أنه ينبغي على العبد أن يعلم أنه راجع إلى اللَّه فمجازيه على الجلي والخفي، وأن اللَّه لا يظلمه مثقال ذرة.

(٢٨٠) في «صحيح مسلم» عن أبي اليسر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «من أنظر معسرًا، أو وضع عنه، أظله الله في ظله».

(٢٨٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾؛ فيها جواز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وأنه لابد للسلم من أجل، وأنه لابد أن يكون معينًا معلومًا.

﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾: فيها الأمر بكتابة جميع عقود المداينات، إما وجوبًا، وإما استحبابًا؛ لشدة الحاجة إلى كتابتها ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾: أمر الكاتب أن يكتب ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾: بالقسط ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: لا يمتنع من منَّ اللَّه عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين، فكما أحسن اللَّه إليه بتعليمه؛ فليحسن إلى عباد اللَّه المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم.

﴿فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾: أمر الكاتب ألَّا يكتب إلا ما أملاه مَن عليه الحق، وأن الذي يملي من المتعاقدين مَن عليه الدين.

﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه، ولا يبخس منه شيئًا ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك؛ فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم مَن عليه الحق من العدل ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ أنه مأمور بالإشهاد على العقود ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ نصاب الشهادة في الأموال ونحوها: رجلان، أو رجل وامرأتان؛ ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾: إن نسيت واحدة منهما ﴿فَتُذَكِّرَ

(٢٨٢) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن حبان وغيرهم بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: لمّا خلق الله آدم ونفخ في الروح؛ عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربّه: يرحمك ربك يا آدم! اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملأ منهم جلوسٍ- فسلِّم عليهم. فقال: السلام عليكم. فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله. ثم رجع إلى ربه، فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم! وقال الله -جل وعلا- ويداه مقبوضتان-: اختر أيهما شئت. فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركةٌ. ثم بسطهما، فإذا فيهما آدم وذريته فقال: أي رب! ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذرّيتك، فإذا كل إنسان منهم مكتوبٌ عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجلٌ أضوؤهم -أو من أضوئهم-، لم يكتب له إلا أربعين سنة، قال: يا ربّ! ما هذه؟ قال: هذه ابنك داود، وقد كتب الله عمره أربعين سنةً، قال: أي ربّ! زده في عمره، قال: ذاك الذي كتبت له. قال: فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك، اسكن الجنة، فسكن الجنة ما شاء الله، ثم أُهبط منها، وكان آدم يعد لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلتَ، قد كتب لي ألف سنةٍ، قال: بلى؛ ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة، فجحد؛ فجحدت ذريته، ونسي؛ فنسيت ذريته، فيومئذٍ أمر بالكتاب والشهود».

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن، وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار». فقلت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟. قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن». قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل؛ فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل؛ فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان؛ فهذا نقصان الدين».

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن زيد بن خالد الجهني: أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها».

الجزء الثالث — سورة البقرة

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

٤٩

إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ أي: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة، وهو غير معذور؛ فإنه لا يجوز له أن يأبى.

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾: النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾: أقرب إلى عدم الريبة، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾: فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرًا بحاضر؛ لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، وكذلك النهي عن مضارة الشهيد أيضًا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه أو غير ذلك، هذا على جعل قوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ مبنيًا للمجهول، وأما على جعلها مبنيًا للفاعل؛ ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك، وأن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق؛ لقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾، ولم يقل: فأنتم فاسقون أو فُسّاق ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوه وراقبوه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾: يجعل الفرقان لكم، ويجعل لكم نورًا تستدلون به وتسترشدون ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: عالم بالحقائق كلها.

(٢٨٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق؛ ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ يقبضها صاحب الحق، وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾: فإن كان صاحب

---

(٢٨٣) أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم. فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلًا. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى؛ فخرج في البحر؛ فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه =

الحق آمنًا من غريمه، وأحب أن يعامله من دون رهن؛ فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه حقه كاملاً، غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في أداء الحق، ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾؛ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾: في حقه وحق من عليه الحق ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب في المعاملات السيئة.

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾: يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾: أحاط تعالى علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم واستقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف، وأنه سيحاسبهم به ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ وهو المنيب إلى ربه الأواب إليه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ وهو المصرُّ على المعاصي في باطنه وظاهره ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ فأخبر أنهم آمنوا بالله وبملائكته وجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض؛ كحالة المنحرفين المغضوب عليهم والضالين من أهل الأديان المنحرفة، وهذا يدل على عظم شرفهم ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾: هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسُّنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير في الواجبات، وما ارتكبنا من الذنوب والمحرمات ﴿وَإِلَيْكَ

= للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة، فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلًا فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضي بك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له، فلم أقدر، وإني أستودعكها. فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمال، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً».

(٢٨٤) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل».

(٢٨٥) في «الصحيحين» من حديث أبي مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».
وأخرج أحمد من حديث أبي ذر الصحيح عن رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي».

الجزء الثالث — سورة آل عمران

سورة آل عمران — مدنية — آياتها ٢٠٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

٥٠

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع لجميع الخلائق، فتجزيهم بما عملوا من خير وشر.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ ظاهر الآية قضاء الحاجة، وفيها إضمار السؤال، كأنه قال: وقالوا: لا تكلفنا إلا وسعنا. فاستجاب اللَّه تعالى دعاءهم، وفعل ذلك؛ فأخبر أنه لم يكلفهم أمرًا يشق عليهم، بل ضِمْنَ قدراتهم وطاقاتهم ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشر ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: سألوا الله تعالى أن يرفع عنهم المؤاخذة في الخطأ والنسيان ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾: وأن يسهل اللَّه عليهم شرعه غاية التسهيل، وألاَّ يحملهم من المشاق والآصار والأغلال ما حمله على من قبلهم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ وألاَّ يحملهم أمورًا فوق طاقتهم من التكاليف والمصائب والبلاء.

وقد فعل اللَّه تعالى ذلك كله، فإن اللَّه خفف عن هذه الأمة من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ تقصيرنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا وخطايانا ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾: ادفع المكاره والشرور، وأصلح الأمور ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: ربنا وإلهنا ومليكنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين كفروا بك وبرسلك، فانصرنا عليهم بالحجة

---

(٢٨٦) أخرج مسلم وأحمد – واللفظ له – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟. بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخره.

ورواه مسلم متفرداً ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: «نعم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: «نعم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: «نعم»، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قال: «نعم».

والبيان، والسيف والسنان.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

(١) ﴿الٓمٓ﴾؛ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا اللَّه.

(٢) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أنه الإله الذي لا معبود بحق سواه، الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلَّا لوجهه ﴿ٱلْحَىُّ﴾ كامل الحياة ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: القائم بنفسه؛ فاستغنى عن جميع خلقه، المقيم لأحوال خلقه؛ فافتقرت إليه جميع مخلوقاته.

(٣) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب المشتمل على الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة؛ أي: شهد بما شهدت به ووافقها، وصدق من جاء بها ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ على عيسى.

(٤) ﴿مِن قَبْلُ﴾ إنزال هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ فهدى اللَّه بها الخلق من الضلالات واستنقذهم بها من الجهالات، وفرق بها بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم وطريق الجحيم، ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾: الحجج والبينات والبراهين القاطعات. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جحدوا بها وأنكروها، وردوها بالباطل بعد ما بينها ووضحها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقدر قدره، ولا يُدرك وصفه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: قوي، لا يعجزه شيء ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن عصاه.

(٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾: من تمام قيّوميته تعالى أن علمه محيط بالخلائق كلها؛ جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، حتى ما في بطون الحوامل. يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير؛ فلهذا قال:

(٦) ﴿هُوَ﴾ فهو ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقبيح، وذكر وأنثى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، لا مشارك له في ذلك؛ فيتعيّن أنه لا يستحق العبادة إلَّا هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي قهر الخلائق بقوّته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بذم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه.

(٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد ولن يوجد له نظير، أو مقارب، في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾: يحتوي على المحكم الواضح المعاني، البيّن الذي لا يشتبه بغيره ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره ﴿وَ﴾ منه آيات ﴿أُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: تحتمل بعض المعاني ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها حتى تُضم إلى المحكم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال، وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة وآرائهم الزائفة ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: طلبًا للفتنة

---

(٧) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها؛ قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

الجزء الثالث — سورة آل عمران

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٖ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

الحزب ٦

٥١

وتحريفًا لكتابه، ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ﴾: تأويلاً وتحريفًا له على مشاربهم ومذاهبهم؛ ليَضلوا ويُضلوا ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾: معرفة عاقبة الأمور وما تنتهي وتئول إليه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: أهل العلم الراسخون فيه الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، يقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾؛ فيعلمون أن القرآن كله من عند اللَّه وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحَيرة فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكمًا ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأمور النافعة والعلوم الصائبة ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أهل العقول الرزينة.

(٨) ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعو اللَّه أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: لا تملها عن الحق إلى الباطل جهلاً وعنادًا منا؛ بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ﴾ تصلح بها أحوالنا وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾؛ أي: كثير الفضل والهبات.

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٖ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾: هذا من تتمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، ويستلزم موجبه من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإنا لإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات، فمجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ فلا بُدَّ أن يوقع ما وعد به.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾: لما ذكر يوم القيامة؛ ذكر تعالى أن جميع من كفر باللَّه وكذب رسله لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئًا من عذاب الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حطبها، الملازمون لها دائمًا أبدًا.

(١١) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات اللَّه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ وعجل

(٨) أخرج مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب! صرف قلوبنا على طاعتك».

لهم العقوبات الدنيوية ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فإياكم أن تَسْتَهْونوا بعقابه فيهون عليكم الكفر والتكذيب.

(١٢) ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ في هذه الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ مع ما يدخر لكم من العذاب في جهنم يوم القيامة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الذي مهدوه وقدموه لأنفسهم، فبئس الجزاء جزاؤهم. ففي هذه الآية بشارة للمؤنين بالنصر والغلبة، وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم منكتفار المشريكن واليهود و﴿النصاري﴾ سيفعل بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة.

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾: عبرة عظيمة ﴿فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾: وهذا يوم بدر ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطرًا وفخرًا ورئاء الناس ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليهم زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة.

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾: أخبر تعالى عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وأخبر أن الناس زُينت لهم هذه الأمور فرمَقُوْها بالأبصار

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: هذا متاع قليل مُنْقضٍ في مدة يسيرة، ومع ذلك جعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾: حسن المرجع والثواب.

(١٥) ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: هل أخبركم وأدلكم على خير من هذه اللذات ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾

(١٢) أخرج أبو داود والضياء المقدسي والطبري والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد حسن لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا». قالوا: يا محمدا! لا يغرنك في نفسك أنك قاتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا؛ لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

(١٤) في «الصحيحين» في حديث أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

أخبر بأن المتقين لله القائمين بعبوديته لهم أصناف الخيرات والنعيم المقيم في الجنات العالية والأنهار الجارية ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من كل آفة ونقص وعيب وقذر ودنس ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولهم رضوان اللَّه الذي هو أكبر من كل شيء، فلا يسخط عليهم أبدًا ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: يعطي كلًّا منهم بحسب ما يستحقه من العطاء.

(١٦) ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: هؤلاء الراسخون في العلم يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار. ثم وصفهم تعالى بأجمل الصفات:

(١٧) ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على طاعة اللَّه، وعن معاصيه وعلى أقداره المؤلمة، وأصل الصبر: هو حبس النفوس على ما يحبه الله؛ طلبًا لمرضاته ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالأقوال والأحوال، والإيمان القنوت: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾؛ هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ في سبل الخيرات وعلى الفقراء وأهل الحاجات ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾: لما بيّن صفاتهم الحميدة؛ ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقامًا، بل يرون أنفسهم مقصرين مذنبين، فيستغفرون ربهم، خصوصًا بالليل وقت السَّحَر.

(١٨) ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾: هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم ومن الملائكة وأهل العلم على أجلِّ مشهود عليه؛ وهو توحيد اللَّه وإفراده بالعبودية والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ فلم يزل متصفًا في أوامره ونواهيه وأحكامه وجزائه بالقسط والعدل؛ لا ظلم فيها ولا جور بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، وله جل ثناؤه الكمال المطلق في ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد على ما سبق ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يرام جنابه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن اللَّه خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لما قرر أنه الإله الحق المعبود؛ بين العبادة والدين الذي لا دين لله سواه ولا مقبول غيره هو ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؛ وهو: الانقياد لله وحده ظاهرًا وباطنًا بما شرعه على ألسنة رسله ثم ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: أخبر تعالى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا فانحرفوا عنه عنادًا وبغيًا وحسدا، وإلا؛ فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي. ثم بين سبب ذلك، فقال: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: أن الحسد والبغي والكفر بآيات اللَّه من قبل أنفسهم هي التي صدتهم عن اتباع الحق ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: من كفر

---

(١٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له...» الحديث.

(١٩) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار».

بالحق بعد ما تبين له ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: فلينتظر ذلك فإنه آت وسيجزيهم اللَّه بما كانوا يعملون.

(٢٠) ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: يا محمد، ! إن حاجك النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام؛ ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾: أمره اللَّه تعالى أن يقول ويعلن أنه قد أسلم وجهه ظاهره وباطنه لله ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾: ومن اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: من النصارى واليهود ﴿وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾: الذين ليس لهم كتاب، من مشركي العرب وغيرهم ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ لفظة استفهام ومعناه: أمر؛ أي: أسلموا. كما قال تعالى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي، انتهوا ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟﴾ بمثل ما أسلمتم عليه ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾؛ أي: فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإسلام، ورضوا بالأديان التي تخالفه؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ فحسابكم على الله، وأنا ليس عليَّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة.

(٢١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسله، والجناية العظيمة على أعظم الخلق وهم الرسل وأئمة الهدى الذين يأمرون الناس بالقسط والعدل الذي اتفقت عليه الأديان والعقول؛ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: مؤلم بالغ الشدة.

(٢٢) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: بطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: ليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الذين أنعم اللَّه عليهم بكتابه ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: إلى حكم اللَّه الذي يصدق ما أنزله على رسله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ بأبدانهم وقلوبهم عن اتباع الحق، فذكر لذلك سببين:

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: أمنهم وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودة! حدَّدوها بحسب أهوائهم الفاسدة، وكأن تدبير الملك جل ثناؤه راجع إليهم.

والسبب الثاني: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟

يَفۡتَرُونَ﴾: زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغتروا بذلك وتراءى لهم أنه الحق؛ عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق.

(٢٥) ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾: كيف يكون حالهم إذا جمعهم الله يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾: ووفَّى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله في عباده؟

(٢٦) يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة علوها وسفليها لك، والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ حصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بطاعتك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بمعصيتك، فليس الأمر بأماني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله والتدبير له ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾؛ أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر؛ فلا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلاً﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: فليس له معارض في تدبيره ولا معاون في تقديره.

(٢٧) ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾: كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس؛ فهو المتصرف بنفس الزمان: فيدخل الليل على النهار، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا ما ينقص من هذا؛ ليقيم بذلك مصالح خلقه ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ كالفرخ من البيضة، وكالمؤمن من الكافر ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾: كالبيضة من الطائر، وكالكافر من المؤمن.

﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: ترزق من تشاء رزقًا واسعًا من حيث لا يحتسب ولا يكتسب.

(٢٨) ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا نهي من الله تعالى وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين بالمحبة والنصرة، والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ التولي ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾: فهو بريء من الله، والله بريء منه، ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾: إلَّا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين، فلكم في هذه الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة ما تعصمون به دماءكم من التَّقِيَّة باللسان؛ لا في التولي الذي هو محبة القلب ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾؛ أي: فخافوه

---

(٢٦) أخرج الإمام أحمد والعراقي في «محجة القرب إلى محبة العرب» بإسناد حسن عن النعمان بن بشير قال: كنا قعوداً في المسجد – وكان بشير رجلًا يكف حديثه – فجاء أبو ثعلبة الخشني، فقال: يا بشير بن سعد، أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم يكون ملكاً عاضاً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبريًّا، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أني رفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»، ثم سكت.

(٢٨) أخرج البخاري تعليقاً ووصله أبو الشيخ في «طبقات المحدثين» وأبو نعيم في «حلية الأولياء» وابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طرق حسنة بمجموعها عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم».

سورة آل عمران — الجزء الثالث

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

٥٤

واخشوه وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجع الناس ومصيرهم إليه؛ فيجازي من قدم خوفه ورجاءه على غيره بالثواب، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب.

(٢٩) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾: يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور؛ سواء أخفاه العباد أو أبدوه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ ولما ذكر لهم من عظمته وسعة علمه ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم؛ ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو: أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم حينئذ منخير وشر محضرة فحينئذ يغتبط أهل الخير؛ بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضرا، يودون أن بينهم وبينه أمدًا بعيدا.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وأنه لابد أن يلاقيه ويلاقي سعيه؛ أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته وكمال عدله وشدة نكاله، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم، ومن رأفته ورحمته أنه خوَّف العباد وزجرهم عن الغي والفساد.

(٣١) ثم ذكر الله تعالى الميزان الذي يُعرف به من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾: إن ادعيتم محبة الله؛ ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾؛ علامة الصدق: اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فمن فعل ذلك أحبه الله؛ وجزاه جزاء المحبين، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه.

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾: حقيقة اتباع الرسول وصفتها؛ بامتثال الأمر، واجتناب النهي،

---

(٣١) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رد».

وتصديق الخبر ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن ذلك؛ فهذا هو الكفر، واللَّه ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾؛ بل يبغضهم ويمقتهم.

(٣٣) ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أخبر اللَّه أنه اصطفى آدم واختاره على سائر المخلوقات، واصطفى نوحًا فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه اللَّه بخلته، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده؛ لأنهم من ذريته، واصطفى اللَّه آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهذه البيوت الكبار التي ذكرها اللَّه وما احتوت عليه من كُمّل الرجال هي صفوته من العالمين.

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾: الفضل والخير تسلسل في ذراريهم، وحصل التناسب والتشابه بينهم، وشمل ذكورهم ونساءهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته.

(٣٥) ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة وذكر ما جرى لمريم وابنها عيسى صلى الله عليه وسلم وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف لطف الله بمريم بنت عمران في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ والدة مريم لما حملت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾: جعلت ما في بطني خالصًا لوجهك، محررًا لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ هذا العمل؛ أي: اجعله مؤسسًا على الإيمان والإخلاص ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: تسمع دعائي، وتعلم نيتي وقصدي.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ في كلامها نوع تضرع وانكسار نفس؛ فإنها تشوفت أن يكون نذرها ذكرًا ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ في القوة والعبادة وخدمة المسجد ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ كانت التسمية وقت الولادة ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: دعت لها ولذريتها أن يعيذها اللَّه من الشيطان الرجيم.

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: فجبر اللَّه قلبها وتقبل نذرها، مع أنها أنثى، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذَّكر ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: ربّيت تربية عجيبة دينية، أخلاقية، أدبية؛ كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: يسره اللَّه كافلاً لها؛ فهو زوج أختها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾: كلما دخل مصلاها وجد عندها رزقًا من غير كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها اللَّه به، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾: من أين لك هذا؟! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾: فضلاً وإحسانًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ

---

(٣٦) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسه إياه، إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

(٣٧) في «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حديث المعراج المشهور- عن النبي ﷺ: «فإذا بيحيى بن زكريا وعيسى وهما ابنا الخالة».

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

حِسَابٍ﴾: من غير حسبان من العبد ولا كسب.

(٣٨) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾: لما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من اللَّه بها؛ ذكَّره أن يسأل اللَّه تعالى حصول الولد على حين اليأس، فقال: فـ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ أي كثير الفضل والهبات.

(٣٩) ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾: بينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة: خاطبته الملائكة شفاها وهو قائم يصلي في محراب عبادته: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ اسمه - أي: الكلمة التي من الله- عيسى ابن مريم، فكانت البشارة بيحيى تتضمن البشارة بعيسى ابن مريم والتصديق له والشهادة له بالرسالة ﴿وَسَيِّدًا﴾ من فضلاء الرسل وكرامهم ﴿وَحَصُورًا﴾؛ أي: لا شهوة له في النساء ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية.

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: كل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد؛ فكيف وقد اجتمعا؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾: كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة؛ فإنه قد يخرق ذلك؛ لأنه الفعال لما يريد.

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾: علامة على وجود الولد؛ ليحصل السرور والاستبشار، قال: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: أمره اللَّه أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين ولسانه منطلق بذكر اللَّه وتسبيحه آية من آيات الله، فالقادر على فعل هذه الآية قادر على خلق الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر.

(٤٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يخبر اللَّه بما خاطبت به الملائكة مريم ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾: اختارك، ووهب لك الصفات الجليلة والأخلاق الجميلة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾: من الأخلاق الرذيلة ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: فضلك على

(٤٢) في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد».

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

نصف الحزب

سائر نساء العالمين.

(٤٣) ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾؛ أي: أكثري من الطاعة والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ خص السجود والركوع؛ لفضلهما، ودلالتهما على غاية الخضوع لله.

(٤٤) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾: لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس، إنما أنبأك الله بها، وهذه القصة من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ وصدق نبوته؛ حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس؛ تخاصموا واختلفوا؛ لأنها بنت إمامهم ومقدَّمهم، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصابت القرعة زكريا؛ رحمة من الله به وبها.

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ له الوجاهة والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق، وهو عند الله ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: الذين هم أقرب الخلائق إلى الله وأعلاهم درجة، وهو عليه السلام من سادات المقربين.

(٤٦) ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾: يكلم قومه في المهد؛ ليكون آية عظيمة وحجة على المعاندين، ﴿وَكَهْلًا﴾ وفي حال كهولته ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبّه، وألسنتهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته.

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: الولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها؛ لاشك في قدرة الله تعالى ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة؛ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه

---

(٤٤) أخرج أحمد (٤/ ٢٨٧) بإسناد صحيح من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤٦) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وبينما صبي يرضع من أمه...» الحديث.

قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه -: المراد بهؤلاء الثلاثة من بني إسرائيل؛ وإلا فالذين تكلموا في المهد أكثر من ذلك» والله أعلم.

لا ممانع لإرادته.

(٤٨) ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: جنس الكتب السابقة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحكم بين الناس ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ خُصَّصا بالذكر بعد ذكر الكتب؛ لشرفهما وفضلهما.

(٤٩) ﴿وَرَسُولًا﴾: ويعطيه النبوة، ويجعله رسولاً ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: الشعب الفاضل في زمانهم ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدلكم أني رسول اللَّه حقًّا ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾: أصوره على شكل الطير ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: طيرًا له روح تطير بإذن اللَّه ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾: الذي يولد أعمى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: الذي يصاب بجلده ببقع بيض ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: الذين فارقت أرواحهم أجسادهم ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾: أخبركم بما أكل أحدكم في بيته، وما هو مدخر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: آية عظيمة للمؤمنين.

(٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: مقرًّا ومثبتًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة، وما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ولأخفف عنكم بعض الآصار والأغلال ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: وأطيعوني، فإن طاعة الرسول طاعة لله.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾: أنا وأنتم سواء في العبودية له، والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَٰذَا﴾: عبادة اللَّه وتقواه، وطاعة رسوله

الجزء الثالث — سورة آل عمران

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

٥٧

﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى اللَّه وإلى جنته.

(٥٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾: لما رأى منهم عدم الانقياد له، والاتفاق على ردِّ دعوته وقالوا: هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: من يعاونني ويقوم بنصرة دين الله؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ وهم الأنصار: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ انتدبوا معه وقاموا بذلك ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: وهذا من منة اللَّه عليهم وعلى عيسى حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به والانقياد لطاعته والنصرة لرسوله.

(٥٣) ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾: هذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل اللَّه، ولطاعة رسوله ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة، ولدينك بالحق والصدق.

(٥٤) ﴿وَمَكَرُوا۟﴾: الكفار وهم جمهور بني

إسرائيل بإرادة قتل نبي اللّه ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم جزاء لهم على مكرهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: رد اللّه كيدهم في نحورهم فانقبلوا خاسرين.

(٥٥) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾: هو النوم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: فرفع اللّه عبده ورسوله عيسى إليه ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: الطائفة التي آمنت به ونصرهم اللّه على من انحرف عن دينه، فلم يزالوا قاهرين حتى بعث اللّه نبينا محمدًا ﷺ، فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم اللّه ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مصير الخلائق كلها ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كل يدعي أن الحق معه، وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان.

(٥٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ باللّه وآياته ورسله؛ ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: أما عذاب الدنيا؛ فهو ما أصابهم اللّه به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وأما عذاب الآخرة فهو عذاب النار، وغضب الجبار، وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: ينصرونهم من عذاب الله.

(٥٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ باللّه ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ القلبية والقولية والبدنية، وقصدوا بها رضا رب العالمين، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضرًا موفرًا، فيعطى منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه.

(٥٨) ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: ننبئك به يا محمد! من القرآن المحكم المفصل لأخبار الأنبياء، وما أجرى اللّه على أيديهم ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ البينات والمعجزات الباهرات ﴿وَٱلذِّكْرِ﴾؛ وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾:

---

(٥٥) أخرج النسائي في «الكبرى» وسعيد بن منصور والضياء وابن عساكر والطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء؛ خرج على أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلًا، ورأسه يقطر ماء، فقال: أيكم يُلقى شَبَهي عليه فيقتل مكاني، فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا، فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم الثالثة، فقال الشاب: أنا، فقال عيسى عليه السلام: نعم أنت. فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام، ثم رفع عيسى من روزنة -فتحة في السقف- كانت في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشاب للشبه، فقتلوه ثم صلبوه؛ فتفرقوا ثلاث فرق؛ فقالت فرقة: كان فينا الله عز وجل ما شاء، ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء: اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء: النسطورية. وقال طائفة (وفي رواية: فرقة): كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله؛ فهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمد ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ يعني: الطائفة التي كفرت في زمان عيسى عليه السلام، والطائفة التي آمنت في زمان عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾

المحكم صادق الأخبار، وحسن الأحكام.

(٥٩) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ مثل خلق عيسى من غير أب كآدم من غير أب ولا أم، وفي هذا حجة على النصارى الزاعمين بعيسى عليه السلام ابن اللَّه أو شريكًا لله في الربوبية، فآدم عليه السلام خلقه اللَّه من تراب لا من أب ولا أم، فإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسيح؛ فادعاؤها في آدم من باب أولى.

(٦٠) ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾: لا تكن من الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك.

(٦١) ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ جادلك في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بأنه عبد اللَّه ورسوله، وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم اللَّه عليه؛ ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: فأمر اللَّه نبيه أن ينتقل إلى مباهلته وملاعنته، فيدعون اللَّه ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء.

(٦٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: الذي قصه اللَّه على عباده ﴿لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾؛ أي: الذي لا ريب فيه ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾: فهو المألوه المعبود حقًّا، الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

(٦٣) ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: إن أعرضوا عن الحق؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وسيجازيهم على ذلك، فيعاقبهم أشد العقوبة، والمفسد: من عدل عن الحق إلى الباطل.

(٦٤) ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾: هلموا نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، مشتركة بيننا وبينكم: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾؛ فنفرد اللَّه بالعبادة، ونخصه بالحب

(٦٤) أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس عن أبي سفيان في قصة دخوله على قيصر، ثم ذكر كتاب رسول الله ﷺ إليه، فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت؛ فإن عليك إثم الأريسيين و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ الآية».

والخوف والرجاء، ولا نشرك به نبيًا ولا ملكًا ولا وليًا ولا صنمًا ولا وثنًا ولا حيوانًا ولا جمادًا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: وأن نعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئًا من خصائص الربوبية ولا من نعوت الألوهية ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: فإن تولوا؛ فهم معاندون، فأشهدوهم أنكم مسلمون.

(٦٥) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم؛ فكيف ينسبون إبراهيم إليهم، وهو قبلهم متقدم عليهم؟! فلهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: فلو عقلتم ما تقولون؛ لم تقولوا ذلك.

(٦٦) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: هب أنهم حاجوا فيما لهم به علم من أحكام التوراة والإنجيل، سواء أخطأوا أم أصابوا ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: فلم تحاجون في هذا الأمر -أي: جدالكم في إبراهيم-، الذي يعلم به كذبكم وافتراؤكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الأمور على حقائقها وجلياتها ﴿وَأَنتُمْ﴾: أيها اليهود والنصارى ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بريء من اليهود والنصارى والمشركين ومن ولايتهم ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾؛ لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ برأ اللَّه خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفًا مسلمًا.

(٦٨) ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أخبر الله تعالى أن أحق الناس بإبراهيم من آمنه به من أمته ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ يعني محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: واللَّه تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم.

(٦٩) ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾: يحذر تعالى عباده المؤمنين من مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، وأنها تسعى في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ سعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضرونكم شيئًا.

(٧٠) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات اللَّه مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بل تشهدون به ويُسِرُّ به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات؟

---

(٦٨) أخرج الترمذي والبزار والطبري والطحاوي في «مشكل معاني الآثار» بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل» ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

(٧١) ثم وبخهم على إضلالهم الخلق فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: وبخهم على لبس الحق بالباطل، ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ وعلى كتمان الحق، مع علمهم بالحق.

(٧٢) ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾: ادخلوا في دينهم - على وجه المكر والكيد أول النهار- فإذا كان آخر النهار؛ فاخرجوا منه، وارجعوا عنه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾: فإنهم إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم؛ استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم، ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا.

(٧٣) ﴿وَ﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم فردَّ الله عليهم فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾: اللَّه تعالى هو الذي يهدي من يشاء ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾؛ يعني أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغي وخشية الاحتجاج عليهم بما في أيديهم.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾: اللَّه هو الذي يحسن على عباده ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ ممن أتى بأسبابه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع الفضل، كثير الإحسان ﴿عَلِيمٞ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه.

(٧٤) ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ خص هذه الأمة رحمة منه عليها بما لم يخصَّ به غيرهم من نعمة الدين ومتمماته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: الذي لا يصفه الواصفون، ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه.

(٧٥) ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكتمهم الحق، فأخبر أن منهم ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾: أن منهم طائفة أمناء، بحيث لو أمنته على المال الكثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى ﴿وَمِنۡهُم﴾ طائفة خونة ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾ بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك ﴿ذَٰلِكَ﴾ والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ﴾ زعموا قائلين: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾: ليس علينا جناح وإثم إذا خُنّاهم واستبحنا أموالهم؛ لأنهم - أي: الأمِّيون،

الجزء الثالث — سورة آل عمران

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٦٠

ويعنون بهم: العرب- لا حرمة لهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾؛ كذبوا على الله في هذا الزعم، واختلقوا هذه المقالة وافتعلوها من قبل أنفسهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ليس كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً .

(٧٦) ﴿بَلَىٰ﴾؛ ليس الأمر كما تزعمون: أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم، ولكن ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾؛ أي: قام بحقوق الله وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي، والتقوى تكون في هذا الموضع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فمن كان كذلك؛ فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى .

(٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، ويختارون الحطام القليل من الدنيا، ويتوسّلون إليها بالأيمان الكاذبة والعهود المنكوثة؛ فهؤلاء ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: لا نصيب لهم من الخير ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ غضبًا عليهم وسخطًا ﴿ولا يزكيهم﴾: لا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ قد حق عليهم عقابه، وحرموا ثوابه ﴿أَلِيمٌ﴾: موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب جهنم.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾؛ أي: وإن من أهل الكتاب فريقًا محرّفون لكتاب الله ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾: يميلونه ويحرفونه عن المقصود، وهذا يشمل التحريف اللفظي والمعنوي ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: هم مع هذا التحريف الشنيع يوهمون أنه من الكتاب ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهم كذبة في ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾: هؤلاء يقولون على الله الكذب، فيجمعون بين نفي المعنى الحق وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ الدال على الحق

(٧٧) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن عدي بن عميرة الكندي؛ قال: خاصم رجل من كندة، يقال له: امرؤ القيس بن عابس رجلًا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقضي على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكنتة من اليمين يا رسول الله. ذهبت ورب الكعبة أرضي، فقال النبي ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان». وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقال امرؤ القيس: ماذا عن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهد أني قد تركتها له كلها.

(٧٨) أخرج البخاري تعليقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إنهم يحرِّفون ويزيدون».

على المعنى الفاسد، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حالهم وسوء مغبتهم.

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾؛ أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾: أن يمنَّ اللَّه عليه بالوحي والكتاب والنبوة ويعطيه الحكم الشرعي ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾: ثم يأمر الناس بعبادته من دون اللَّه ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين: علماء حكماء حلماء، معلمين للناس ومربيهم بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك.

(٨٠) ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم واتخاذهم أربابًا ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه؟ فكيف يأمر بضده؟! هذا من الممتنع والمحال.

(٨١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد، بسبب ما أعطاهم من كتاب اللَّه المنزل والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾: أنه إن بعث اللَّه رسولًا، وهذا الرسول ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾: بُعث بما بُعثوا به من التوحيد والحق والقسط، والأصول التي اتفقت عليهم الشرائع ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾: أنهم يؤمنون به وينصرونه ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾: عهدي ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾أي: قبلنا ما أمرتنا به على الرأس والعين ﴿قَالَ﴾ اللَّه لهم: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، قال: ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وشهد عليهم.

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: من تولى عن اتباع محمد ﷺ ممن يزعم أنه من أتباعهم بعد هذا العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من اللَّه ومن رسله؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله، المكذبون للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾: أيرغب الراغبون في غير دين الله؟ فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الخلق كلهم منقادون بتسخيره، مستسلمون له ﴿طَوْعًا﴾ اختيارًا، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، ﴿وَكَرْهًا﴾ لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾: وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بن الفضل والعدل.

---

(٧٩) أخرج البخاري معلقا عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كونوا ربانيين» حلماء، فقهاء، علماء. ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره».

(٨١) أخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والدارمي بإسناد حسن لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه - والله - لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني».

الجزء الثالث | سورة آل عمران

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

٦١

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة آية رقم (١٣٦).

(٨٥) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه اللّه لعباده؛ فعمله مردود، وليس له دين يعوّل عليه ﴿وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ لأنه لم يأت بسبب النجاة من عذاب اللّه والفوز بثوابه.

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يبعد كل البعد أن يهدي اللّه قومًا اختاروا الكفر والضلال بعدما عرفوا الإيماني ودخلوا فيه ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه؛ ظلمًا وبغيًا واتباعًا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية.

(٨٧) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يلعنهم اللّه ويلعنهم خلقه.

(٨٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة والعذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة؛ لا بإزالته، أو بإزالة بعض شدته، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: يمهلون.

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد كفرهم ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ حسن إسلامهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه ورأفته: أن من تاب تاب عليه ورحمه.

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ ثم ازداد كفرًا إلى كفره بإصراره وتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى؛ أنه ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: لا يوفقون لتوبة تقبل، بل يمدهم اللّه في طغيانهم يعمهون ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء.

(٨٦ - ٨٩) أخرج النسائي وأحمد وابن حبان بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس ﷺ؛ قال: كان رجل في الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه: سلوا رسول الله ﷺ. فقالوا: «إن فلاناً ندم، وإنه قد أمرنا أن نسألك: هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه؛ فأسلم.

(٩١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: هؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات؛ ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبًا ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بل لا يزالون في العذاب الأليم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لا شافع لهم ولا ناصر من عذاب الله.

(٩٢) ﴿لَن تَنَالُواْ﴾: تدركوا وتبلغوا ﴿ٱلْبِرَّ﴾؛ الذي هو اسم جامع للخيرات، الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أطيب أموالكم النفيسة وأزكاها، التي تحبها نفوسكم ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾: مهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة، من طيب أو غيره؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وسيجزي كل منفق بحسب عمله؛ سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

(٩٣) ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جميع أنواع الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

سورة آل عمران — الجزء الرابع — ٦٢

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾: إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل؛ وهو: يعقوب عليه السلام ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ ومنعها إياه؛ لمرض أصابه، من غير تحريم من الله تعالى ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾؛ أي: قبل

---

(٩١) أخرج الشيخان وأحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: «نعم» قال: «فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئًا، فأبيت إلا أن تشرك».

(٩٢) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالًا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء -وكانت مستقبلة المسجد- وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله وأرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى. فقال النبي ﷺ: «بخ! ذاك مال رابح، ذك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجلعها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

(٩٣) أخرج عبد الرزاق والطبري وابن أبي حاتم في «تفاسيرهم» والحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان إسرائيل أخذه عرق النَّسا، فكان يبيت له زقاء، فجعل لله عليه إن شفاه ألا يأكل العروق؛ فأنزل الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ قال سفيان: له زقاء: صياح.

نزول التوراة ﴿قُلۡ﴾ لهم إن أنكروا ذلك: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة؛ ﴿فَٱتۡلُوهَآ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم، وهذا من أبلغ الحجج؛ أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره.

(٩٤) ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾: بعد هذا البيان؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأيّ ظلم أعظم من ظلم من يُدعى إلى تحكيم كتابه؛ فيمتنع من ذلك عنادًا وتكبرًا وتجبرًا.

(٩٥) ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ في كل ما قاله وأخبر به وحكم ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾: أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ من توحيد اللّٰه وحده لا شريك له، وتصديق كل الرسل والكتب، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: كان معرضًا عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئًا من الشرك وأهله.

(٩٦) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول بيت وضعه اللّٰه في الأرض لعبادته وإقامة ذكره ﴿مُبَارَكٗا﴾: فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع الشيء الكثير الدينية والدنيوية ﴿وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل.

(٩٧) ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾: أدلة واضحات ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ المراد به: المقام المعروف؛ وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان والآية فيه: وقيل: أثر قدمي إبراهيم قد أثرت في الصخرة، وهذا من الخوارق، ويحتمل: أن المراد بمقام إبراهيم: أنه مفرد مضاف، يراد به: مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، والآية في ذلك: ما جعله اللّٰه في القلوب من تعظيمها واحترامها ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾: أن من دخله كان آمنًا شرعًا وقدرًا ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾: يجب على الناس الحج ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾: وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوده ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فلم يلتزم حج بيته - وهذا على سبيل التهديد والزجر-، أو جحد فريضة الحج؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم عظم الشأن، وأكد الوعيد بإخباره

---

(٩٦) أخرج الشيخان عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، أي مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد».

(٩٧) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿مَّقَامِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قال: «الحرم كله مقام إبراهيم».

أخرج مسلم وأحمد واللفظ له عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، قد فرض عليكم الحج؛ فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم؛ لوجبت، ولما استطعتم». وفي رواية لأحمد وأبي داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عباس مرفوعاً: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا ولم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة، فمن زاد؛ فهو تطوع».

أخرج البيهقي والإسماعيلي بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من أطاق الحج، فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً».

ما يستغنى به عنه.

(٩٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: وبّخ تعالى المعاندين من أهل الكتاب على كفرهم بآيات اللّه التي أنزلها اللّه على رسله ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾: يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٩٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بآيات الله وصدّ من آمن باللّه عنها، وتحريفها وتعويجها عما جعلت له ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾: شاهدون بذلك ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل محيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيئ.

(١٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾: حذر تعالى عباده المؤمنين عن الاغترار بأهل الكتاب، وبيّن لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضرارهم وردّهم إلى الكفر بعد الإيمان.

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: إن الكفر بعيد عنكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات اللّه تنزل على رسوله ليلاً ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾: رسول اللّه الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل له إلى غاية المرغوب.

(١٠٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: هذا أمر من اللّه لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك، ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، وتقوى اللّه حق تقواه كما قال ابن مسعود وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

(١٠٣) ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ ثم أمرهم تعالى بما يعينهم عن التقوى؛ وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين.

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

٦٣

(١٠٣) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم ثلاثًا: قيل وقال: وكثره السؤال، وإضاعة المال».

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن الرسول ﷺ خاطب الأنصار يوم حنين، فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟».

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾: ذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة؛ وهو أنهم كانوا أعداء متفرقين يقتل بعضكم بعضًا ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾؛ فجمعهم بهذا الدين، وألَّف بين قلوبهم ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾ بالإسلام ﴿إِخْوَٰنًا﴾ في الدين ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: قد استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى شكر اللَّه والتمسك بحبله.

(١٠٤) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ اللَّه عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعة وطائفة يحصل فيها الكفاية ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾؛ وهو الدين، أحكامه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾: نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الموجبة لقيامهم به واجتماعهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: استحقوا العقاب البليغ.

(١٠٦) يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾: وجوه أهل السعادة؛ الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه وهم أهل السنة والجماعة، ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعًا، وهم أهل الفرقة والبدعة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾؛ فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: كيف آثرتم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس يليق بكم إلا النار.

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: فيهنئون أكمل تهنئة، ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم

---

(١٠٤) أخرج الترمذي وأحمد - والسياق له - بإسناد صحيح لغيره عن حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونّ عن المكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً في عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم».

(١٠٥) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد حسن عن أبي عامر عبد الله بن لحيّ؛ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني: الأهواء - كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء؛ كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، ولا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله». والله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لَغيركم في الناس أحرى أن لا يقوم به».

(١٠٦ و١٠٧) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن أبي غالب؛ قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج دمشق، فقال أبو أمامة: «كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه»، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: «لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً حتى عدّ سبعاً ما حدثتكموه».

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

يبشرون بدخول الجنات ورضا ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء اللَّه وأعدائه ﴿نَتْلُوهَا﴾: نقصها ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ﴾: العدل الخالي من الظلم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: مقتضى عدله وحكمته أنه لم يظلم عباده ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحدًا بغير ذنبه، أو يحمّل عليه وِزْر غيره.

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: هو المالك لما في السموات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم، ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

(١١٠) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾: يمدح تعالى هذه الأمة، ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها اللَّه للناس؛ وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر اللَّه به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ المتضمن دعوة الخلق إلى اللَّه وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمثل ما آمنتم به؛ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ﴾؛ لاهتدوا، لكن ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: لم يؤمن منهم إلا القليل ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن طاعة اللَّه وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم.

(١١١) ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ﴾ غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية اللسان، الذي لا سبيل إلى السلامة منه من كل مُعاد ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾: فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار

---

(١١٠) أخرج البخاري عن أبي هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس للناس؛ تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن بهز بن حكيم عن أبي عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خير ما، وأنتم أكرم على الله عز وجل».

فرارًا، ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ في وقت من الأوقات.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾: أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فحيث ما حلّوا؛ فلا قرار لهم ولا اطمئنان ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾: إلا معاهدة وسبب يأمنون به ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ فيرضخون لأحكام الإسلام ويعترفون بالجزية، ﴿وَ﴾: أو ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ إذا كانوا تحت ولاية غيرهم، فهاهم في عصرنا هذا لم يتمكنوا من الملك المؤقت في فلسطين إلا بنصر الدول الكبرى وتمهيدهم لهم كل سبب، ﴿وَ﴾ قد ﴿وَبَآءُو﴾ مع ذلك ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ﴾ التي أنزلها اللّه على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغيًا وعنادًا ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يقابلون أنبياء اللّه الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة؛ وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والجناية شيء أعظم منها؟ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾: وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم.

(١١٣) ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ﴾: أخبر اللّه أنهم لا يستوون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، منهم﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾: مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها اللّه به من المأمورات ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم، وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له.

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ﴾ كإيمان المؤمنين، إيمانًا يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقرّبه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير ونهيهم عن كل شر ﴿وَ﴾ أنهم ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ﴾: يبادرون إلى فعل الخيرات وتكميلها بكل ما تتم به، فينتهزون الفرصة فيها ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ﴾: الذين يدخلهم اللّه في رحمته، ويتغمدهم بغفرانه، وينيلهم من فضله وإحسانه.

(١١٥) ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ﴾: يم بين تعالى أن كل ما فعلوه ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير؛ ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾؛ أي: لن ينكر ما عملوه ولن يهدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَ﴾: عليم بما يقوم بقلب صاحب الأعمال من الإيمان والتقوى، فيكون الثواب على قدره.

---

(١١٣) أخرج أحمد والنسائي في «التفسير» وأبو يعلى والبزار وابن حبان بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد؛ فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنه ليس من هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآيات اللَّه وكذبوا رسله ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾: لا ينقذهم من عذاب اللَّه منقذ ولا ينفعهم نافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدّونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئًا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بل تكون زادًا للخلود في نار جهنم بسبب كفرهم.

(١١٧) ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾: ضرب تعالى مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل اللَّه، ويستعينون بها على إطفاء نور اللَّه بأنها تبطل وتضمحل؛ كمن زرع زرعًا يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك؛ إذ أصابته ريح فيها برد شديد محرق، فأهلكت زرعه، ولم يحصل له إلاَّ التعب والعناء وزيادة الأسف؛ فكذلك هؤلاء الكفار ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإبطال أعمالهم ﴿وَلَٰكِنۡ﴾ كانوا ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم.

(١١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾: هذا تحذير من اللَّه للمؤمنين عن ولاية الكفار واتخاذهم بطانة أو خصيصة وأصدقاء يسرون إليهم ويفضون لهم بأسرار المؤمنين ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾؛ أي: حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾: ودوا عنتكم؛ أي: يتمنون لكم العنت والشر في دينكم وما يسوءكم ولا يسركم ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ من كلامهم وفلتات ألسنتهم ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ﴾ من البغضاء والعداوة ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾: قد وضح اللَّه لكم أمرهم ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾: إن كانت لكم فهوم وعقول.

(١١٩) ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾: أنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه؛ فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم؟! ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾: تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وهم يداهنونكم وينافقونكم، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يداهنونكم وينافقونكم ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ مع بني جنسهم ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ﴾: أطراف الأصابع

(١١٨) أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله».

الجزء الرابع — سورة آل عمران

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

٦٦

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾؛ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفار ما يسوءكم، وتموتون بغيظكم فلن تدركوا شفاء ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من البغض والحسد للمؤمنين.

(١٢٠) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: عز ونصر وعافية وخير ﴿تَسُؤْهُمْ﴾: تغمهم وتحزنهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من إدالة العدو، أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾؛ لشدة عداوتهم ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾: فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر وهي الصبر والتقوى؛ لم يضركم كيد أعدائكم شيئًا، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها.

(١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الغدو هاهنا: مطلق الخروج، ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؛ فنزلهم ﷺ منازلهم، ورتبهم في مقاعدهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا؛ يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في علوم السياسة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: لا يخفى عليه شيء من أموركم.

(١٢٢) ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾؛ هم: بنو سَلِمة، وبنو حارثة ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾؛ لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم وعصمهم من وقوع ما يضرهم.

(١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ هذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في قلة عَدَدِكم وعُدَدِكم مع كثرة عدد عدوكم وعُدَدهم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: قوموا بطاعة من أنعم عليكم بنصره.

(١٢٤) ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشرًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مثبتًا لجنانهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ تصبروا على مصابرة عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

(١٢٢) في «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فقال: نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل؛ لقول الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾: معلمين بعلامة الشجعان.

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾: إمداده لكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ما أنزل اللّه الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم، وتطمينًا لقلوبكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أما النصر الحقيقي الذي لا معارض له ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهو مشيئة اللّه لنصر من يشاء من عباده ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة.

(١٢٧) ثم يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: جانبًا منهم وركنًا من أركانهم؛ إما بقتل، أو أسر، فيقوى بذلك المؤمنون، ويذل الكافرون ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾: يردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: لما جرى يوم أحد ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ أنزل اللّه تعالى على رسوله هذه الآية نهيًا له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله؛ ليدل ذلك على كمال عدل اللّه وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها ولم يظلم عبده، بل العبد هو الذي ظلم نفسه.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السموات والأرض، والكل ملك لله، مخلوقون مدبرون، متصرف فيهم تصرف المماليك ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بأن يهديه للإسلام؛ فيغفر شركه، ويمن عليه بترك العصيان؛ فيغفر له ذنبه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر، فيعمل الشر ويعذبه على ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: عام المغفرة ﴿رَّحِيمٌ﴾: واسع الرحمة.

(١٣٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾:

---

(١٢٨) وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» ثم يقول وهو قائم: «اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، وأجعلها عليهم كسني يوسف، اللهم العن لحيان ورعلًا وذكوان وعصية؛ عصت الله ورسوله»، ثم بلغنا أنه ترك ذلك؛ لما أنزل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

وفي الباب عن أنس، وعبد بن عمر، والحسن مرسلًا.

(١٣٠) أخرج أبو داود والحاكم بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن عمرو بن أُقَيش كان له رِبًا في الجاهلية، أنكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد، قال: فأين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لأمته وركب فرسه، ثم توجه قِبلهم؛ فلما رآه المسلمون؟ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إني قد آمنت. فقاتل حتى جرح؛ فحمل إلى أهله جريحاً فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخته: سلية حمية لقومك، أو غضباً لهم، أم غضباً لله؟! فقال: بل غضباً لله ولرسوله. فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة.

الجزء الرابع — سورة آل عمران

نصف الحزب ٧

وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا
فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ
مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ
فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ
وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

٦٧

نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾: تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته: أن الله منع منه لما فيه من الظلم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: الفلاح متوقف على التقوى.

(١٣١) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي، على اختلاف درجاتها؛ لأن المعاصي كلها تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد اللّه النار لأهله.

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾: فطاعة اللّه وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة.

(١٣٣) ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته، ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ وإدراك جنته التي عرضها السموات والأرض فكيف بطولها؟ ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ التي أعدها اللّه للمتقين، فهم أهلها، وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

(١٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: في حال عسرهم ويسرهم ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وهو: امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم. ﴿وَٱلۡعَافِينَ

(١٣٣) أخرج البزار وابن حبان والحاكم وإسحاق بن راهويه في «المسند» بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فأين النار؟ قال: أرأيت الليل إذا جاء لبس على كل شيء فأين النهار؟». قال: حيث شاء الله. قال: «وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل».

(١٣٤) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

﴿عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ العفو: ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهو أبلغ من الكظم، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع اللَّه وعفا عن عباد اللَّه رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق وذلك بإيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم.

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: صدر منهم أعمال سيئة؛ كبيرة، أو ما دون ذلك؛ بادروا إلى التوبة والاستغفار و﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: ذكروا ربهم وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾: تابوا من المعصية ولم يستمروا عليها ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أن من تاب تاب اللَّه عليه.

(١٣٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾: لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيرًا.

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجادلة حتى جعل الله تعالى العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع اللَّه بالمكذبين.

﴿وَهُدًى﴾ إلى سبيل الرشاد، ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾

---

(١٣٥) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن رجلًا أذنب ذنباً، فقال: رب. إني أذنبت ذنباً؛ فاغفره لي. فقال الله: عبدي عمل ذنباً، فعلم أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً؛ فاغفره لي. فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً؛ فاغفره لي، فقال عز وجل: علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً؛ فاغفره، فقال عز وجل: عبدي علم أن له رباً؛ يغفر الذنب، ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي؛ فليعمل عبدي ما شاء».

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» والإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال، وهو على المنبر: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين، الذين يصرون على ما فعلواوهم يعلمون».

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

تزجرهم عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بالآيات فتهديهم إلى سبيل الرشاد وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾: لا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ في قلوبكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ في الإيمان، ورجاء نصر اللّه وثوابه، فالمؤمن المتيقن ما وعده اللّه من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٤٠) ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة منها؛ فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أنتم وإياهم قد تساويتم في القرح أي: الجراح والقتل؛ ولكنكم ترجون من اللّه ما لا يرجون ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: فيداول اللّه الأيام بين الناس؛ يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة؛ فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: يبتلي اللّه عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: وهذا أيضًا من بعض الحكم؛ لأن الشهادة عند اللّه من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا هم عن القتال في سبيله.

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: وهذا أيضًا من الحكم؛ أن اللّه يمحص المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، وهذا يدل على أن الشهادة والقتال في سبيل اللّه يكفر الذنوب ويزيل العيوب، وليميز اللّه أيضًا المؤمنين من غيرهم من المنافقين ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وليكون سببًا لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة.

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: هذا استفهام إنكاري؛ أي: لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل اللّه وابتغاء مرضاته.

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن

---

(١٤٣) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

﴿تَلْقَوْهُ﴾: وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، وذلك أن كثيرًا من الصحابة رضي اللَّه عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم اللَّه مشهدًا يبذلون فيه جهدهم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: رأيتم ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصًا لمن تمنى ذلك وحصل له ما تمنى.

(١٤٤) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾: ليس ببدع من الرسل؛ بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطًا في امتثال أوامر اللَّه ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾: بترك ما جاءكم من إيمان، أو جهاد، أو غير ذلك.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ إنما يضر نفسه، وإلا؛ فاللَّه تعالى غني عنه، وسيقيم دينه ويعز عباده المؤمنين ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية اللَّه تعالى في كل حال، والثبات مع رسوله عليه السلام.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾: أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بآجالها بإذن اللَّه وقدره وقضائه، فمن حتَّم عليه بالقدر أن يموت؛ مات ولو بغير سبب.

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إراداتهم، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

﴿وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ﴾: لم يذكر جزاءهم؛ ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر؛ قلة، وكثرة، وحسنًا.

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾: وكم من نبي ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: ذلوا لعدوهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ﴾: الذين صبروا وثبتوا، وشجعوا

(١٤٤) أخرج البخاري عن ابن سلمة، أن عائشة رضي الله عنها أخبرته؛ أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشي بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ﷺ، ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: «بأبي أنت وأمي، والله! لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كتب عليك؛ فقد متّها».

وعن ابن عباس؛ أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر. فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان يعبد محمداً؛ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإن الله حي لا يموت؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ قال: فوالله! لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها.

وعن سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها؛ فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

أنفسهم.

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر؛ بل اعتمدوا على الله وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم.

(١٤٨) ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكدات ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين.

(١٤٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ هذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

(١٥٠) ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.

(١٥١) ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب؛ وهو: الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾؛ وقد فعل تعالى ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج ﴿وَبِئْسَ

(١٥١) في «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

﴿مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: بسبب ظلمهم وعدوانهم، صارت النار مثواهم.

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر، فنصركم عليهم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾: طفقتم فيهم قتلًا بقدرة اللَّه وإذنه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ حصل منكم الفشل؛ وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر اللَّه بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم ﴿وَعَصَيْتُم﴾ فعصيتم الرسول، وتركتم أمره ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾: وهو انخذال أعدائكم.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾: وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: وهم الذين لزموا أمر رسول اللَّه ﷺ وثبتوا حيث أمروا.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: بعدما وجدت هذه الأمور منكم؛ صرف اللَّه وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ابتلاء من اللَّه وامتحانًا؛ ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر اللَّه عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهذا قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾: عفا عن المؤمنين سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيرًا ولا مصيبة إلا كان خيرًا لهم؛ إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا جازاهم جزاء الصابرين.

(١٥٣) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: تَجِدّون في الهرب ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾: لا يلوي أحد منكم على أحد ولا ينظر إليه؛ بل ليس لكم هَمٌّ إلا الفرار والنجاء عن القتال.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ يقول: «**إليَّ عباد الله**»، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾: جازاكم على فعلكم ﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾: غمًّا يتبعه غم؛ غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم؛ وهو: سماعكم: أن محمدًا ﷺ قد قتل!

(١٥٢، ١٥٣) أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه؛ قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلًا - عبد الله بن جبير، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير؛ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم». فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمةَ -أي قوم!- الغنيمةَ! ظهر أصحابكم؛ فما تنتظرون؟! فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟! قالوا: والله لنأتين الناس؛ فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم؛ صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين؛ فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلًا، فأصابوا منا سبعين. وكان النبي ﷺ وأصحابهُ أصاب من المشركين يوم بدر: أربعين ومائة؛ سبعين أسيراً وسبعين قتيلًا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات؟ فنهاهم النبي ﷺ أني يجيبوا. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه؛ فقال: أما هؤلاء؛ فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه؛ فقال: كذبت والله يا عدو الله! إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك. قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مَثْلَة: لم آمر بها، ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز: اعل هبل، اعل هبل. قال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟»، قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه!» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم».


الجزء الرابع — سورة آل عمران

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا
قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

٧٠

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل؛ هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كل هذا صادر عن كمال خبرته وعلمه بأعمالكم وظواهركم وبواطنكم.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابكم ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾: ولاشك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

وهذه الطائفة التي أنعم اللّه عليها بالنعاس، هم: المؤمنون الذين ليس لهم همّ إلا إقامة دين اللّه ورضا اللّه ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ فليس لهم همٌّ في غيرها؛ لنفاقهم، أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]

---

(١٥٤) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان.

وأخرج البخاري عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً؛ يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه.

وأخرج الترمذي والنسائي بإسناد صحيح عنه؛ قال: رفعت رأسي يوم أحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حَجَفَته من النعاس.

وأخرج الطبري وابن أبي حاتم والبزار وأبو نعيم والبيهقي في «دلائل النبوة» بإسناد حسن عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، فأرسل الله علينا النوم؛ فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره. قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، فحفظها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول معتب.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ﴾ وهذا استفهام إنكاري؛ ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - من شيء؟! فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن اللَّه لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي القاضية على الدين، قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾: الأمر يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء اللَّه وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

﴿يُخْفُونَ﴾؛ يعني: المنافقين ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة؛ ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول اللَّه ﷺ، ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ﴾ فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لابد أن يُمضي اللَّه ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ﴾: من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبآت الصدور وسرائر الأمور.

(١٥٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أحدٍ وما الذي أوجب لهم الفرار ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وأنه من تسويل الشيطان ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾: أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذة، وإلا؛ فلو آخذهم لاستأصلهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين، بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه.

(١٥٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص؛ وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر، ويقولون: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وهذا كذب منهم، ولكن هذا التكذيب لم يفدهم ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾: يجعل اللَّه هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ هو المتفرد بذلك، فلا يغني حذر عن قدر.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم، علمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

(١٥٧) ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه ليس فيه نقص ولا

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

٧١

محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون؛ لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة اللّه ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم.

(١٥٨) ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾: الخلق إذا ماتوا أو قتلوا، بأي حالة كانت؛ فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلًّا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله؟ وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟

(١٥٩) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾؛ أي: برحمة اللّه لك ولأصحابك، مَنَّ اللّه عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترفقت عليهم وحسنت لهم خلقك؛ فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾: قاسيه؛ ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أمره اللّه تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة؛ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: اعتمد على حول اللّه وقوته، متبرئًا من حولك وقوتك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، اللاجئين إليه.

(١٦٠) ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾: إن يمددكم اللّه بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾؛ لأن اللّه لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم؛ فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم؛ ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فلابد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: على اللّه توكلوا لا على غيره، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ الغلول؛ هو: الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان، وهو محرم إجماعًا، فأخبر اللّه تعالى

---

(١٥٩) أخرج الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلين لي قلبه».

(١٦١) أخرج أبو داود والترمذي بإسناد حسن لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ في قطيفة حمراء، فقدت يوم بدر؛ فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت.

أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل؛ لأن الغلول من أعظم الذنوب، وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين، فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم؛ لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك؛ ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم اللَّه لنبوته ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يأت به حامله على ظهره، حيوانًا كان أو متاعًا أو غير ذلك ليعذب به يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: لا يزاد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئًا من حسناتهم. وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة؛ لما ذكر عقوبة الغال وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان الاقتصار على الغال يوهم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون؛ أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم اللَّه وحكمة اللَّه وفي فِطَر عباد اللَّه.

(١٦٣) ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم، بحسب تفاوتهم في أعمالهم، واللَّه تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ.

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾: هذه المنة التي امتن اللَّه بها على عباده أكبر النعم، بل أصلها؛ وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم، الذي أنقذهم اللَّه به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة.

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: يعرفون نسبه وحاله ولسانه، من قومهم وقبيلتهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾: القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليهم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك، والمعاصي، والرذائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾: جنس الكتاب؛ و هو القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: السنة، التي هي شقيقة القرآن ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها.

(١٦٥) ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: هذا تسلية من اللَّه تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد وقتل منهم نحو سبعين ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ من المشركين ﴿مِّثْلَيْهَا﴾: يوم بدر؛ فقتلتم سبعين من كبارهم، وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم؛ ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم.

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

الحزب ٨ — ع ٨

(١٦٦) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين، وجمع المشركين، في أحد من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه.

(١٦٧) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾: ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذبًا عن دين الله، وحماية له، وطلبًا لمرضاة الله، ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة؛ ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فيبديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

(١٦٨) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء اللّه وقدره، قال اللّه ردًا عليهم: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟﴾: ادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه.

(١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فـي

---

(١٦٩) أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: أما إنا قد سألنا عن ذلك؛ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة؛ فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا؛ حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

وأخرج الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: لقيني رسول الله ﷺ؛ فقال لي: «يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟!»، قلت: يا رسول الله، استشهد أبي، قتل يوم أحد، وترك عيالاً وديناً. قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟»، قال: قلت: بلى يا رسول الله! قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً، فقال: يا عبدي، تمن عليّ؛ أعطك. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب - عزّ وجلّ -: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون»، قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾.

جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة اللَّه ﴿أَمْوَٰتًا﴾: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَآءٌ﴾ في دار كرامته ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.

(١٧٠) ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم؛ وذلك لحسنه وكثرته وعظمته ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: يبشر بعضهم بعضًا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم، المستلزم كمال السرور.

(١٧١) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: يهنئ بعضهم بعضًا بأعظم مهنأ به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

(١٧٢) ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة؛ ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «**حمراء الأسد**».

(١٧٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ وجاءهم من جاءهم، وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ وهموا باستئصالكم؛ ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ تخويفًا لهم وترهيبًا، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ فلم يزدهم ذلك إلا إيمانًا باللَّه واتكالاً عليه ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم.

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾: رجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

الجزء الرابع — سورة آل عمران

فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

٧٣

---

(١٧٢) أخرج الشيخان -واللفظ للبخاري- أن عائشة ﵂ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك؛ منهم: الزبير وأبو بكر، لمّا أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون؛ خاف أن يرجعوا، قال: «من يذهب في إثرهم؟»؛ فانتدب منهم سبعون رجلًا». قال: كان فيهم أبو بكر والزبير.

(١٧٣) أخرج البخاري عن ابن عباس ﵄ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

﴿وَفَضْلٍ﴾: رجع المؤمنون بنعمة من اللَّه وفضل، حيث مَنَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ومنَّ عليهم بعافية لم يلقوا عدوًا ﴿وَفَضْلٍ﴾ تجارة وربح، وهو ما أصابوا في السوق ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يصبهم أذى ولا مكروه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيته، ورضي عنهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا فضل اللَّه عليهم.

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: يعني: ذلك الذي قال لكم ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ من فعل الشيطان ألقى في أفواههم ليرهبوهم ويجبنوا عنهم، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: يخوفكم بأوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان؛ فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا اللَّه الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

(١٧٦) كان النبي ﷺ حريصًا على الخلق، مجتهدًا في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فاللَّه ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى؛ من هوانهم على اللَّه وسقوطهم من عينه، وإرادته ألاَّ يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه.

(١٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ورغبوا فيه رغبة من بذل ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لا يظن الذين كفروا بربهم ونابذوا دينه وحاربوا رسوله: أنَّ تركَنا إياهم في هذه الدنيا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خير لأنفسهم ومحبة منا لهم؛ كلا، ليس الأمر كما زعموا؛ ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ وإنما ذلك لشر يريده اللَّه بهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم.

(١٧٩) ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ما كان في حكمة اللَّه أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التميز؛ ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ولم يكن في حكمته أيضًا أن يُطْلِع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل اللَّه رسله، وأمر بطاعتهم والانقياد لهم، والإيمان بهم، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

ربع الحزب ٨

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: ولا يظن ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، يمنعون ما عندهم ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مما آتاهم الله ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من المال والجاه والعلم وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه، وضنوا به على عباد الله، ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ﴾ وظنوا أنه خير لهم؛ بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾: يجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم، يعذبون به يوم القيامة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر-؛ لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

(١٨١) ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة؛ وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ﴿وَنَقُولُ﴾ وأنه يُقال لهم بدل قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة.

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وأن عذابهم ليس ظلمًا من الله لهم؛ فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فهو منزه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

(١٨٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾؛ أي: تقدم إلينا وأوصى ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ

---

(١٨٠) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالًا، فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له شجاعًا أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلِهْزِمتيه، - يعني بشدقيه -، يقول: أنا مالك، أنا كنزك» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخر الآية.

(١٨٣) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع =

يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ فجمعوا بين الكذب على اللَّه وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لهم يأتيهم بقربان تأكله النار؛ فهم - في ذلك - مطيعون لربهم، ملتزمون عهده! ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾: بأن أتاكم بقربان تأكله النار؛ ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم الإيمان برسول يأتيكم بقربان تأكله النار؟!

فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم، وتناقضهم.

(١٨٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ هذه عادة الظالمين ودأبهم: الكفر بالله، وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسل اللَّه عن قصور ما أتوا به أو عدم تبين حجة؛ بل قد ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: الحجج العقلية، والبراهين النقلية ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضًا للأخبار الصادقة.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾: هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا؛ بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فَمَن زُحۡزِحَ﴾: أخرج ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم؛ التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾؛ أي منفعة ومتعة تزول ولا تبقى.

(١٨٦) ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض

= امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خَلِفَات -أي الحوامل من الإبل- وهو ينتظر ولادها. فغزا فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا. فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار، فاكلتها، ثم أحلّ ا الله لنا الغنائم؛ رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلها لنا».

(١٨٥) أخرج الترمذي وأحمد وغيرهما بإسناد حسن عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾».

(١٨٦) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه - وكان من أحد الثلاثة الذين تيب عليهم: أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو النبي ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان النبي ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط؛ منهم المسملون، ومنهم المشركون، ومنهم اليهود. فأراد النبي ﷺ أن يستصحلهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه ويؤذون أصحابه أشد الأذى؛ فأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ بالصبر على ذلك وفيهم أنزل الله: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية.

لإتلافها في سبيل الله ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس؛ كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يحب. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾: على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان، وعلى أذية الظالمين، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه؛ ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية.

(١٨٧) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب وعلمه العلم؛ أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ ولا يكتمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم؛ فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبئوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، وتجرؤوا على محارم الله، وتهاونوا بحقوق الله وحقوق الخلق ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: واشتروا بذلك الكتمان

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ — الجزء الرابع

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

٧٥

ثمنًا قليلاً؛ وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس؛ إلا لسوء حظهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له.

(١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾ من القبائح، والباطل القولي والفعلي ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن

---

(١٨٧) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه؛ ألجم بلجام من نار يوم القيامة».

(١٨٨) أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى =

﴿يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله والفرح بذلك، ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: موجع للقلوب والأبدان وهو عذاب جهنم.

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾: هو المالك للسموات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف الخلق ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: المتصرف فيهم بكمال القدرة وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

(١٩٠) يخبر تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأبهم قوله (آيات) إشارة لكثرتها وعمومها؛ وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه؛ فلا يمكن لمخلوق أن يحصره ويحيط ببعضه، وفي الجملة: فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة؛ يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته.

وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل؛ يدل على حكمة الله، ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه.

وما فيها من المنافع للخلق؛ يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره،

= الغزو؛ تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا؛ فنزلت

وأخرج الشيخان عن علقمة بن وقاص الليثي : أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا؛ لنعذبن أجمعون! فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء؛ فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم. ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كذلك حتى قوله ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾

(١٩٠) أخرج ابن حبان وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» بإسناد جيد عن عطاء بن أبي رباح؛ قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزور. فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زُر غُبًّا تَزْدَدْ حُبًّا. قال: فقالت: دعونا من بطالتكم هذه. قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ . قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي؛ قال: «يا عائشة، ذريني أتعبد لربي» قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي؛ حتى بل حجره، قالت: وكان جالسا فلم يزل يبكي ﷺ حتى بل لحيته. قالت: ثم بكى حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي؛ قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ ! قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزلت عليَّ الليلة آيةٌ؛ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية كلها.

ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ خص الله بالآيات أولي الألباب وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

(١٩١) ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم: ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب

﴿وَ﴾ أنهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها؛ عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾؛ لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذابه.

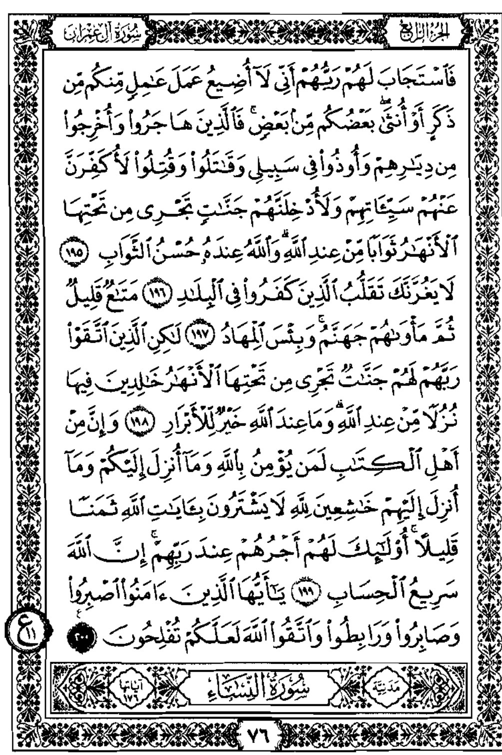
(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾: وهو محمد ﷺ؛ ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه ﴿فَـَٔامَنَّا﴾: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وَتَبَجُّحٌ بنعمته، وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي مَنَّ عليهم بالإيمان سيمنُّ عليهم بالأمان التام.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخيرات وترك الشر الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه والثبات إلى الممات.

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمنة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم موعدهم به على ألسنة رسلة من النصر، والظهر في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته فغي الآخرة «إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾» فإنه لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم وقَبِل تضرعهم ، فلهذا قال:

---

(١٩٣) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة؛ وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ، فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس».


الجزء الرابع — سورة آل عمران

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا
مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ — مدنية — آياتها ١٧٦

٧٦

(١٩٥) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أجاب الله دعاءهم: دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفرًا ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال؛ طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله؛ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل، ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١٩٦) ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: هذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات فإن هذا كله:

(١٩٧) ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

(١٩٨) ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وأما المتقون لربهم، المؤمنون به؛ فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس وشدة، وعناء ومشقة؛ لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم؛ والعيش السليم؛

---

(١٩٥) أخرج الترمذي وسعيد بن منصور في «سننه»، وعبد الرزاق، والطبري، والحميدي، والحاكم بإسناد صحيح لغيره عن أم سلمة، قالت: قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله - عز وجل - ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله هذه الآية، قال: قالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا.

(١٩٦، ١٩٧) أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جئت فإذا رسول الله ﷺ في مَشْرُبة وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظاً مصبوراً، وعند رأسه أُهُب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: «ما يبكيك»؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هم فيه وأنت رسول الله؟! فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة».

والسرور والحبور والبهجة؛ نزرًا يسيرًا، ومنحة في صورة محنة ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾: وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجرًا عظيمًا، وعطاءً جسيمًا، وفوزًا دائمًا.

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: طائفة موفقة للخير ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ ولهذا لما كان إيمانهم عامًّا حقيقيًّا صار نافعًا فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله، الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

ومن تمام خشيتهم لله، أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستبطئون ما وعدهم الله.

(٢٠٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾: ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو: لزوم الصبر؛ الذي هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

﴿وَصَابِرُوا۟﴾ والمصابرة: الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

﴿وَرَابِطُوا۟﴾ والمرابطة: هي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي، وتنجون من المكروه كذلك.

---

(١٩٩) أخرج النسائي في «التفسير» والطبراني في «الأوسط»، والضياء في «المختارة» والبزار والدارقطني في «الأفراد» بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه؛ قال: لما جاء نعي النجاشي؛ قال رسول الله ﷺ: «صلوا عليه»، قالوا: يا رسول الله، نصلي على عبد حبشي؟! فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

(٢٠٠) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

وأخرج مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان».

الجزء الرابع — سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

٧٧

تفسير سورة النساء
وهي مدنية

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه، والحث على عبادته والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك وأن الموجب لتقواه أنه ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ ورزقكم، وربّاكم بنعمه العظيمة، التي من جملتها خلقكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليناسبها؛ فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ وكذلك من الموجب الداعي لتقواه: تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم توسلتم لها بالسؤال بالله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: أخبر بأنه رقيب؛ أي: مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقبًا لهم فيها مما يوجب مراقبته وشدة الحياء منه بلزوم تقواه.

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض. وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها؛ ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصًا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به.

وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فصّل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها، فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم.

(٢) ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾: هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق؛ وهم اليتامى: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار ضعاف، فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملة موفرة ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾؛ أي: الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بِالطَّيِّبِ﴾: وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾؛ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرأ على هذه الحالة؛ فقد أتى ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾: إثمًا عظيمًا،

ووزرًا جسيمًا.
ومن استبدل الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس.
وفيه الولاية على اليتيم؛ لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوت ولاية المؤتى على ماله.
ومن الأمر بإصلاح مال اليتيم، وعدم تعريض للمخاوف والأخطار.
(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾: إن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم ألَّا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين كما قال النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها ولحسبها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يمينك»
ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء، فقال: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل، أو ثلاثًا فليفعل، أو أربعًا فليفعل، ولا يزيد عليها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فإن خاف على نفسه الجور والظلم، وعدم القيام بحقوقهن؛ فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القسم في ملك اليمين ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين ﴿أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾: تظلموا.
(٤) ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ﴾: أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾: مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾: فريضة؛ ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾: من الصداق ﴿نَفْسًا﴾ بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره، أو المعاوضة عنه؛ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة.
(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ السفهاء: جمع سفيه؛ وهو: من لا يحسن التصرف في المال؛ إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه، ونحوهما، وإما لعدم رشده كالصغير

(٣) أخرج الشيخان عن عائشة ﵂ أن رجلًا كانت له يتيمة؛ فنكحها، وكان لها عذق وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها في نفسه شيء؛ فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله.
أخرج أحمد وابن حبان وأبو يعلى بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر ﵄ أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً» فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك، ولعلك لا تلبث إلا قليلًا، وأيم الله لتراجعن نساءك، ولترجعن في مالك أو لأورثهن منك، ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال.
(٥) أخرج البيهقي والحاكم والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» بإسناد صحيح عن أبي موسى ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيهاً وقد قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه».
وروي موقوفاً، ولكن له حكم المرفوع، فمثله مما لا يقال بالرأي والقياس أبداً.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

وغير الرشيد؛ فنهى اللَّه الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم؛ خشية إفسادها وإتلافها، لأن الله جعل الأموال قيامًا لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾: فأمر الولي ألَّا يؤتيهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: وأن يقولوا لهم قولاً معروفًا؛ بأن يَعِدُوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبرًا لخواطرهم.

(٦) ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ الابتلاء؛ هو: الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئًا من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾: فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ كاملة موفرة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه اللَّه لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه اللَّه عليكم من أموالهم ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم ولا منعكم من أكلها؛ تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من كان في غنية فليستعفف عن مال اليتيم، ولا يأكل منه شيئًا، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ له أن يأكل أقل الأمرين: أجرة مثله، أو قدر حاجته ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ أي: بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فحينئذ سلّموا إليهم أموالهم فإذا دفعتموها إليهم ﴿فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ لئلا يقع جحود وإنكار لما قبضه وسلمه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾؛ أي: وكفى باللَّه محاسبًا وشاهدًا ورقيبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم.

(٧) ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾: قسط وحصة ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾: خلف ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾: الأب والأم ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: عموم بعد خصوص ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف

---

(٦) أخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يتيم؟ فقال: «كل من مال يتيمك؛ غير مسرف، ولا مبذر، ولا متأثّل مالًا، من غير أن تقي -أو قال تفدي- مالك بماله».

والعادة وأن يرضخوا لهم ما يشاءون، أو شيئًا مقدرًا؟ فقال تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: قد قدره العليم الحكيم وسيأتي - إن شاء الله تقدير ذلك..

وأيضًا فهاهنا تَوَهّم آخر: لعل أحدًا يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلاَّ من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾: قسمة المواريث ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الأقارب غير الوارثين ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ المستحقون من الفقراء ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب؛ فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم. ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ﴾ فإن لم يكن ذلك لكونه حق سفهاء، أو ثَم أهم من ذلك فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: يردوهم ردًا جميلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

(٩) ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ المراد بذلك: أولياء السفهاء من المجانين، والصغار، والضعاف؛ أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ولايتهم لغيرهم؛ أي: يعاملونهم بما فيه تقوى الله؛ من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى اللَّه ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: سدادًا موافقًا للقسط والمعروف.

(١٠) ولما أمرهم بما سبق؛ زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد العذاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾: بغير حق، فمن أكلها ظلمًا؛ فـ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوها في بطونهم ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾: نارًا محرقة متوقدة.

(١١) ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾؛ أي: أولادكم يا معشر الوالدين، عندكم ودائع، قد وصاكم اللَّه

---

(٩) في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من تذرهم عالة يتكففون الناس».

(١٠) أخرج ابن ماجه والنسائي في «الكبرى» وابن حبان والحاكم وأحمد بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «احرّج مال الضعيفين: المرأة واليتيم».

(١١) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتها من سعد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما؛ فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا ولهما مال، قال: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فهو لك».

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع.

الجزء الرابع — سورة النساء

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

٧٩

عليهم؛ لتقوموا بمصالحهم؛ فتعلمونهم، وتؤدبونهم، وتكفّونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة اللّه، وملازمة التقوى على الدوام ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾: الأولاد للصلب والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين؛ إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾: بنات صلب، أو بنات ابن؛ ثلاثًا فأكثر: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً﴾: بنتًا، أو بنت ابن؛ ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وهذا إجماع ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾: أبوه وأمه ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: ولد صلب، أو ولد ابن، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو متعددًا.

فأما الأم؛ فلا تزيد على السدس مع أحد الأولاد، وأما الأب؛ فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان الولد أنثى أو إناثًا ولم يبق بعد الفرض شيء كأبوين وابنتين؛ لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب السدس فرضًا، والباقي تعصيبًا.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم؛ فدل ذلك على أن الباقي للأب ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أشقاء، أو لأب أو لأم، ذكورًا أو إناثًا، وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد؛ ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ مما ترك ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة.

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾: لا تدرون؛ أيّ: الأولاد أو الوالدين أنفع لكم، وأقرب لحصول مقاصدكم الدينية والدنيوية، فلو ردَّ تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم؛ لحصل من الضرر ما اللّه به عليم.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: فرضها اللّه الذي قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحكم ما شرعه، وقدَّر ما قدره على أحسن تقدير؛ لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

(١٢) ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾: إذا متن من غير ولد ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه: ولد الصلب، أو ولد الابن

الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعًا.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ فإن كان لهن ولد؛ فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين، والدين مقدم على الوصية وهو أمر مجمع عليه ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجات الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ من أم، كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا: الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلالة؛ أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب ولا جد، ولا ابن ولا ابن ابن، ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلالة. ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾: من الأخ والأخت ﴿ٱلسُّدُسُۚ﴾، ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾: من واحد ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾: لا يزيدون على الثلث؛ ولو زادوا عن اثنين ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ لتكون وصيته على العدل، لا على الإضرار والإضرار في الوصية، هو: أن يُدخل الضرر على الورثة بمجاوزته الثلث فيها، والإضرار في الدين أن يوصي بدين ليس عليه ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ عهد من الله إليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح خلقة ومضارهم، ومن يستحق أن يُعطى من أقرباء من مات منكم وأنسبائه من ميراثه، ومن يحرم ذلك منهم، ومبلغ ما يستحق به كل من استحق منهم قسمًا، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم ﴿حَلِيمٞ﴾ ذو حلم على خلقه، وذو أناه في تركه معاجلتهم بالعقوبة على ظلم بعضهم بعضًا.

(١٣) ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾: تلك التفاصيل التي ذكرها في المواريث حدود الله؛ التي يجب الوقوف معها وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها. ثم ذكر طاعة اللَّه ورسوله ومعصيتهما عمومًا؛ ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض أو ترك ذلك، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمُه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾: فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي؛ فلابد له من دخول الجنة، والنجاة من النار ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

(١٤) ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾: ويدخل في اسم المعصية: الكفر فما دونه من المعاصي، فلا تكون فيها شبهة

الجزء الرابع — سورة النساء

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

٨٠

للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي؛ فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى اللَّه ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه؛ دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة؛ كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

(١٥) ﴿وَٱلَّٰتِي﴾: والنساء اللاتي ﴿يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: الزنا، ووصفها بالفاحشة؛ لشناعتها وقبحها ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾: من رجالكم المؤمنين العدول ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضًا فإن الحبس من جملة العقوبات ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ هذا منتهى الحبس ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾: طريقًا غير الحبس في البيوت، فكان هذا الأمر في أول الإسلام كذلك حتى جعل اللَّه لهن سبيلاً؛ وهو رجم المحصن، وجلد غير المحصن، وهذه الآية منسوخة وهو أمر متفق عليه.

(١٦) ﴿وَ﴾ كذلك ﴿ٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا﴾ أي: فاحشة اللواط - وقيل: والزنا - ﴿مِنكُمۡ﴾: من الرجال، -وقيل والنساء- ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾: بالقول، والتوبيخ، والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة.

فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذَون، والنساء يُحْبَسن ويؤذين.

فالحبس غايته إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابَا﴾: رجعا عن الذنب الذي فعلاه، وندما عليه، وعزما على ألَّا يعودا ﴿وَأَصۡلَحَا﴾: العمل الدال على صدق التوبة؛ ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾: عن أذاهما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، ﴿رَّحِيمًا﴾ عظيم الرحمة

(١٥) أخرج مسلم وأصحاب السنن وأحمد عن عبادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل الوحي عرف ذلك في وجهه، فلما أنزلت: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ وارتفع الوحي قال رسول الله ﷺ: «خذوا خذوا، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة».

(١٦) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

والإحسان، الذي من إحسانه وفقهم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

(١٧) ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾: توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا: أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمًا منه وجودًا ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ لمن عمل السوء، أي: المعاصي ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالمًا بالتحريم ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ قبل معاينة الموت؛ فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعًا ﴿مِن قَرِيبٖ﴾؛ أي: قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة، وما كان دون الموت وبلوغ الغرغرة فهو قريب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾؛ أي: من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأناب إلى الله وندم عليه؛ فإن الله يتوب عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾؛ فمن علمه: أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلًّا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته: أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه.

(١٨)﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: المعاصي فيما دون الكفر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار، فمن استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفاتٍ راسخةً؛ فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾: إن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا يقبل منه فدية، ولا بملء الأرض ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾: موجعًا شديدًا مقيمًا.

(١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم

---

(١٧) أخرج عبد الرزاق بإسناد صحيح عن قتادة؛ قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ؛ فرأوا أن كل شيء عصي الله به؛ فهو جهالة، عمداً كان أو غيره.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

(١٩) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾؛ قال: كانوا إذا مات الرجل؛ كان أولياؤه أحق بامرأته: إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوّجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها؛ فنزلت هذه الآية في ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان الرجل إذا مات وترك زوجه؛ ألقى عليها حميمه ثوبه؛ فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة؛ تزوجها، وإن كانت ذميمة؛ حبسها حتى تموت؛ فيرثها.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة؛ إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر».

الجزء الرابع — سورة النساء

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

٨١

عن زوجته، رأى قريبُه - كأخيه وابن عمه، ونحوهما - أنه أحق بزوجته من كل أحد، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت.

فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها؛ عضلها، فلا يزوجها إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئًا من ميراث قريبه، أو من صداقها، وكان الرجل أيضًا يعضل زوجته التي يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول كما يفهم من قوله: ﴿كرهـا﴾، و﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾؛ كالزنا، والكلام الفاحش، وأذيتها لزوجها: فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها؛ عقوبة لها على فعلها؛ لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف؛ من الصحبة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك: النفقة، والكسوة، ونحوهما.

فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: ينبغي لكم أيها الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن؛ فإن في ذلك خيرًا كثيرًا، من ذلك: امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة، وغيرها.

وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإن كان لا بد من الفراق، وليس للإمساك محل؛ فليس الإمساك بلازم.

(٢٠) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾: تطليق زوجة وتزوج أخرى، فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج ﴿وَ﴾ لكن إذا ﴿ءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾: المفارقة، أو التي تزوجها ﴿قِنطَارًا﴾: مالاً كثيرًا؛ ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ بل وفروه لهن، ولا تمطلوا بهن وفي هذه الآية دليل على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر.

(٢٠) وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما في تلاعنهما: «الله يعلم أن أحدكما كاذب؛ فهل منكما تائب» ثلاثاً. فقال الرجل: يا رسول الله مالي - يعني: ما أصدقها - قال: «لا مال لك؛ إن كنت صدقت عليها؛ فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها؛ فهو أبعد لك منها».

ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل؛ فإن إثمه واضح.

(٢١) وقد بين اللَّه تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: فكيف تأخذون الصداق من المرأة، وقد أفضيتَ إليها وأفضتْ إليك، وباشرْتَها المباشرة التي كانت حرامًا عليك قبل ذلك، والتي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: وكذلك أخذ اللَّه على الأزواج ميثاقًا غليظًا بالعقد والقيام بحقوقها.

(٢٢) ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم؛ أي: الأب وإن علا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾: أمرًا قبيحًا يفحش ويعظم قبحه ﴿وَمَقْتًا﴾ من اللَّه لكم ومن الخلق؛ بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه والأب ابنه، مع الأمر ببره ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: بئس الطريق طريقًا لمن سلكه؛ لأن هذا من عادات الجاهلية التي جاء الإسلام بالتنزه عنها والبراءة منها.

(٢٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ الآيتان: هاتان الآيتان الكريمتان مشتملتان على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحللات من النساء:

فأما المحرمات في النسب؛ فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم؛ يدخل فيها كل من لها عليك ولادة وإن بعدت.

ويدخل في البنت: كل من لك عليها ولادة.

والأخوات الشقيقات أو لأب، أو لأم.

والعمة: كل أخت لأبيك أو لجدك وإن علا.

والخالة: كل أخت لأمك أو جدتك وإن علت، وارثة أم لا.

وبنات الأخ، وبنات الأخت؛ وإن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء؛ كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وذلك كبنت العمة والعم، وبنت الخال والخالة.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وأما المحرمات بالرضاع؛ فقد ذكر اللَّه منهن الأم والأخت وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أبًا للمرتضع، فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما

---

(٢١) في «صحيح مسلم» عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن رسول الله ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

(٢٢) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله؛ إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

(٢٣) في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «إن الرضاعة تحرم ماتحرم الولادة»، وفي لفظ لمسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب».

وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

كأخوتهما وأصولهما وفروعهما. فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط؛ لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين؛ كما بينت السُّنة.

وأما المحرمات بالصهر؛ فهن أربع: حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين، وأمهات الزوجة وإن علون؛ فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد. والرابعة: الربيبة؛ وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر اللَّه الجمع بين الأختين وحرمه، وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم لو قدر إحداهما ذكرًا والأخرى أنثى حرمت عليه؛ فإنه يحرم الجمع بينهما؛ وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام من المحرمات في النكاح.

(٢٤) ﴿وَ﴾ من المحرمات في النكاح ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ذوات الأزواج، فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج حتى تطلق وتنقضي عدتها ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بالسبي، فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج؛ حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت؛ فإنه لا ينفسخ نكاحها؛ لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بَرِيْرَة حين خيَّرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: الزموه واهتدوا به؛ فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

(٢٤) أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس؛ فلقوا عدواً فقاتلوهم، فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين؛ فأنزل الله - عز وجل - في ذلك: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن.

أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه: أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء؛ فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً».

ودخل في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب؛ فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر؛ لطفًا من اللَّه ورحمة، وتيسيرًا للعباد.

﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم﴾: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم من اللاتي أباحهن اللَّه لكم حالة كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته؛ لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصنًا لزوجته ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: كما تستمتعون بهن ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: المهور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته تقرر عليه صداقها ﴿فَرِيضَةً﴾: إتيانكم إياهن أجورهن فرض فرضه اللَّه عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

(٢٥) ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العَنَت؛ أي: الزنا والمشقة الكثيرة؛ فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات، وهذا بحسب ما يظهر، وإلا؛ فاللَّه أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: المملوكات ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾: سيدهن، واحدًا، أو متعددًا ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ولو كن إماء؛ فإنه كما يجب المهر للحرة فكذلك يجب للأمة؛ ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾: عفيفات عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: زانيات علانية ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾: أخلاء في السر ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾: تزوجن، أو أسلمن ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾: الزنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: ما على الحرائر الأبكار إذا زنين، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: من حدّ الزنا؛ وهو خمسون جلدة، وأما الرجم: فليس على الإماء رجم؛ لأنه لا يتنصّف ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾؛ أي: إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك.

(٢٥) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه؛ فهو عاهر».

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس، أقيموا على أرقائكم الحد: من أحصن ومن لم يحصن؛ فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت؛ فأمرني أن أجلدها؛ فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسنت، اتركها حتى تَمَاثَل».

الجزء الخامس — سورة النساء

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن
تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا
وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ
وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ
نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

٨٣

﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومع هذا: فالصبر عن نكاحهن أفضل؛ لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب، وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن؛ وجب ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين؛ لكون هذه الأحكام رحمةً بالعباد وكرمًا وإحسانًا إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر اللّه بها ذنوب عباده.

(٢٦) ثم أخبر تعالى بمنته العظيمة ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه؛ فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين وأتباعهم؛ في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائلهم الكاملة، وتوفيقهم التام، فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم وبين بيانًا، كما بين لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: يلطف لكم في أحوالكم وما شرعه لكم؛ حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله، والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم بسبب ما يسر اللّه عليكم، فهذا من توبته على عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة: فمن علمه: أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود ومن حكمته: أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله من لا يصلح للتوبة.

(٢٧) ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم؛ من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون ﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾: أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان.

(٢٨) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم؛ كالميتة، والدم، ونحوهما للمضطر ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ من جميع الوجوه؛ ضعف

البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر؛ فناسب ذلك أن يخفف اللَّه عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل: أكلها بالغصوب والسرقات، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾: ثم إنه لما حرم أكلها بالباطل أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾: ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم وعصمها، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها وانتهاكها، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود.

(٣٠) ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾: من يتعاطى ما نهاه اللَّه عنه من أكل الأموال بالباطل وقتل النفس ﴿عُدۡوَٰنٗا﴾: متعديًا منه ﴿وَظُلۡمٗا﴾: ظالمًا في تعاطيه، لا جهلًا ونسيانًا؛ ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ﴾: ندخله في الآخرة ﴿نَارٗاۚ﴾ يَصْلى فيها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: هينًا.

(٣١) ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾: هذا من فضل اللَّه وإحسانه على عباده المؤمنين، وعَدَهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات؛ غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلًا كريمًا كثير الخير، وهو: الجنة.

وأحسن ما حُدَّت به الكبائر، أن الكبيرة: ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾: ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى

---

(٢٩) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال: أحتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح. قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب!» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله - عز وجل-: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾، فتيممت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ - ولم يقل شيئاً.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده، يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بِسُمٍّ، فسمه في يده، يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردَّى من جبل فقتل نفسه، فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدًا».

(٣١) أخرج النسائي وأحمد بإسناد صحيح لغيره عن سلمان الفارسي رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «أتدري ما يوم الجمعة» قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم قال: «لكن أدري ما يوم الجمعة، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجتنبت المقتلة».

(٣٢) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن أم سلمة رضي الله عنها؛ أنها قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ﴾، قال مجاهد: فأنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة.

الجزء الخامس — سورة النساء

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾

٨٤

بعضهم ما فضل اللَّه به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة؛ فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغني والكامل تمنيًا مجردًا ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ من أعمالهم المنتجة للمطلوب ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾: فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

(٣٣) ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الناس ﴿جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾: يتولونه ويتولاهم؛ بالتعزز، والنصرة، والمعاونة على الأمور ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾: وهذا يشمل سائر الأقارب من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالي من القرابة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾: آتوا الموالي نصيبهم الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة والمساعدة على غير معصية الله، والميراث للأقارب الأدنين من الموالي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾: مطلعًا على كل شيء؛ بعلمه لجميع الأمور، وبصره لحركات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

(٣٤) يخبر تعالى أن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى

---

(٣٣) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾؛ قال: ورثة ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ قال: كان المهاجرون لما قدموا على النبي ﷺ المدينة؛ ورث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه؛ للأخوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾؛ نُسخت، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ إلا النصر والرفادة والنصيحة - وقد ذهب الميراث - ويوصي له.

(٣٤) أخرج أحمد والنسائي والطبري وابن أبي حاتم والطيالسي والحاكم بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى آخرها.

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: أنه قال في حجة الوداع: «واتقوا الله في النساء؛ فإنهن عندكم عوان، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

ٱلنِّسَآءِ﴾: قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق اللَّه تعالى؛ من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن والكسوة والمسكن ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات؛ كالجهاد، والأعياد، والجُمَع، وبما خصهم اللَّه به من العقل، والرزانة، والصبر والجَلَد الذي ليس للنساء مثله ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات؛ بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾: مطيعات لله تعالى ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾: مطيعات لأزواجهن، حتى في الغيب تحفظ بعلها بنفسها وماله، ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ وذلك بحفظ اللَّه لهن وتوفيقه لهن؛ لا من أنفسهن.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو الفعل؛ فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل:

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾؛ ببيان حكم اللَّه في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب.

﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾: وإلا فيهجرها الزوج في المضجع؛ بأن لا يضاجعها ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود.

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ وإلا ضربها ضربًا غير مبرح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم؛ ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: فقد حصل لكم ما تحبون؛ فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾: له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات؛ علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ﴿كَبِيرًا﴾ الكبير الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق؛ ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾: فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلًّا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك؛ قنَّعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه، فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة

(٣٥) أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد صحيح عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها، مع كل واحد منهما فئام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً، فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما أن رأيتما أن تجمعا؛ جمعتما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعليّ، وقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال علي: كذبت، والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك.

ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح؛ فرقا بينهما.
﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ بسبب الرأي الميمون، والكلام الذي يجذب القلوب ويؤلف بين القرينين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾: عالمًا بجميع الظواهر والبواطن، مطلعًا على خفايا الأمور وأسرارها، فمن علمه وخبره: أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة، والشرائع الجميلة.
(٣٦) ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، والانقياد لأوامره ونواهيه؛ محبة، وذلًّا، وإخلاصًا له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾: وينهى عن الشرك به شيئًا؛ لا شركًا أصغر ولا أكبر، لا ملكًا ولا نبيًّا، ولا وليًّا ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، والفعل الجميل؛ بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما.
﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أيضًا إحسانًا، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا؛ بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وألَّا يقطع برحمه بقوله أو فعله ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم؛ بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون، فأمر اللَّه تعالى بالإحسان إليهم؛ بسد خلتهم، ودفع فاقتهم ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الجار القريب، الذي له حقان: حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا؛ كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة، واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: الصاحب مطلقًا، فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه؛ من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين؛ لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الآدميين والبهائم؛ بالقيام بكفايتهم، وعدم تحميلهم ما يشق عليهم، وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾: معجبًا بنفسه، متكبرًا على الخلق ﴿فَخُورًا﴾: يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله.

(٣٦) أخرج أحمد والطبراني في «الكبير» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن مطرف؛ قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر. بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة؟ قال: أجل، فلا أخالني أكذب على خليلي. ثلاثاً. قلت: مَن الثلاثة الذين يبغض؟ قال: المختال الفخور، أوَليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ . . . ».

(٣٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق؛ فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، ولذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: أهانهم بالعذاب الأليم، والخزي الدائم.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ ليروهم، ويمدحوهم، ويعظموهم ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: ليس إنفاقهم صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه، فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأَزِّهِم إليها؛ فلهذا قال: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾: بئس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه ويسعى فيه أشد السعي.

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ أَيْ: أيُّ شيء عليهم وأيّ حرج ومشقة تلحقهم لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو الإخلاص

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

ورجاء موعود الآخرة لمن أحسن عملاً ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾: ولما كان الإخلاص سرًّا بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلّا الله؛ أخبر تعالى بعلمه في جميع الأحوال، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ .

(٤٠) ثم أخبر تعالى عن كمال عدله وفضله،

---

(٣٧) أخرج أبو داود وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

(٤٠) في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله عز وجل: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان؛ فأخرجوه من النار» - وفي لفظ: «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار. فيخرجون خلقا كثيراً» ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾؛ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيدها في سيئاته ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك؛ بحسب حالها، ونفعها، وحال صاحبها؛ إخلاصًا، ومحبة، وكمالاً، ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال أخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

(٤١) ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾: كيف تكون تلك الأحوال؟ وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن مَنْ حَكَم به كاملُ العلم، كاملُ العدل، كاملُ الحكمة، بشهادة أزكى الخلق وهم الرسل على أممهم مع إقرار المحكوم عليه؟ فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

(٤٢) ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾: تبتلعهم ويكونون ترابًا وعدمًا ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾: إخبار عنهم بأنهم يعترفون ويقرّون بجميع ما فعلوه، ولا يكتمون منه شيئًا.

(٤٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ

---

(٤١) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﵁؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ قال: «حسبك الآن»؛ فإذا عيناه تذرفان.

(٤٢) أخرج البخاري معلقاً، ووصله ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن سعيد بن جبير، قال: أتى رجل ابن عباس، فقال: سمعت الله - عز وجل - يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا- ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنجحد. فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم﴿ فلا يكتمون الله حديثا ﴾ .

(٤٣) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن علي بن أبي طالب ﵁؛ قال: دعانا رجل من الأنصار قبل أن تحرم الخمر، فتقدم عبد الرحمن بن عوف وصلى بهم المغرب، فقرأ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١٠٩]؛ فالتبس عليه فيها؛ فنزلت: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾.

وفي رواية: أنه كان هو وعبد الرحمن بن عوف ورجل آخر يشربون الخمر، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف فقرأ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ فخلط فيها؛ فنزلت: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾.

أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء، فامسسه بشرتك؛ فإن ذلك خير».

أخرج البخاري عن أبي جهيم قال: أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جمل، فلقيه رجل فسلم عليه، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد السلام.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة ﵂: أنها استعارت من أسماء قلادة؛ فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجلًا فوجدها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله آية التيمم، فقال أسيد بن حضير =

﴿سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى؛ حتى يعلموا ما يقولون، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة؛ لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول.

وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً.

ويشتد تحريم شربها وقت حضور الصلاة؛ لتضمنه هذه المفسدة العظيمة بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو: الخشوع وحضور القلب.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جُنبًا؛ إلا في هذه الحال: وهو عابر السبيل ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ فإذا اغتسلتم؛ فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾: فأباح التيمم للمريض مطلقًا مع وجود الماء وعدمه، والعلة: المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر؛ فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقده المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه؛ جاز له التيمم. وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط، أو ملامسة النساء؛ فإنه يباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضرًا وسفرًا، كما يدل عليه عموما لآية.

والحاصل: أن اللّه تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء وهذا مطلقًا في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ هل المراد بذلك الجماع فتكون الآية نصاً في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد وُقيِّد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟ .

﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ هو كل ما صعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا؛ فيدخل فيه التراب، والرمل، والحجر.

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾: هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الرسغين، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين؛ بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله،

= لعائشة: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه؛ إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيراً.

وفي رواية: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا البيداء - أو بذات الجيش-؛ انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺعلى التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء؛ فأتى الناسُ إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺوالناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حَبَسْتِ رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكرٍ، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذي. فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء؛ فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

فيحرج بذلك، ومن عفوه ومغفرته: أن رحم هذه الأمة، بشرع طهارة التراب بدل الماء عند تعذر الاستعمال. ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾؛ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾: وهم اليهود، وهذا ذمٌّ لهم، وتحذير من الاغترار بهم، والوقوع في شركهم ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه؛ فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم؛ بيّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال:

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾؛ أي: هو يعلم بهم ويحذركم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾: يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.

(٤٦) ثم بين كيف ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق، فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾؛ أي: الكلام ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾؛ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعًا ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾؛ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره ﴿وَرَاعِنَا﴾؛ قصدهم بذلك: الرعونة بالعيب القبيح ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ ويظنون أن اللفظ لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلوون ألسنتهم إلى الطعن في الدين والعيب للرسول ويصرحون بذلك فيما بينهم؛ فلهذا قال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾؛ وذلك لما تضمنه هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد

لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا الذي ينبغي لهم سلوكه ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية؛ أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله بكفرهم وعناده، ولهذا قال:

(٤٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾: يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل اللَّه عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة التي قد صدقها؛ فإنها أخبرت به، فلما وقع المُخْبَرُ به كان تصديقًا لذلك الخبر.

وأيضًا: فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؛ فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب؛ لأن كتب اللَّه يصدق بعضها بعضًا، ويوافق بعضها بعضًا؛ فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة لا يمكن صدقها.

ولهذا توعدهم على عدم الإيمان، فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ وهذا جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق: فجعلوا الباطل حقًّا، والحق باطلًا؛ وجوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طَمَسوا الحق، وردِّها على أدبارها؛ بأن تجعل في أقفائهم، وهذا أشنع ما يكون ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ بأن يطردهم من رحمته، ويعاقبهم بجعلهم قردة؛ كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾: إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع.

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾: يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدًا من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك إذا اقتضت حكمتُه مغفرتَه ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾: افترى جرمًا كبيرًا، وأيُّ ظلم أعظم ممن سوى المخلوق من تراب - الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه، فضلًا عمن عبده، نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا- بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني عن جميع مخلوقاته!

(٤٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ هذا تعجب من اللَّه لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه، وهذا مجرد

---

(٤٨) أخرج أحمد والنسائي والحاكم بإسناد صحيح عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره؛ إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً».

أخرج أبو يعلى والبزار وابن عدي بإسناد جيد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر؛ حتى سمعنا رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾؛ وقال: «إني ادخرت شفاعة لأهل الكبائر من أمتي»، قال: فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، ثم نطقنا بعد ورجونا.

(٤٩) أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يثني على رجل، فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك» ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذلك، ولا أزكي على الله أحداً».

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

نصف الحزب — ع

دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ بالإيمان والعمل الصالح؛ بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتحلي بالصفات الجميلة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: لا يظلمون شيئًا، ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة، أو الذي يفتل من وسخ اليد وغيرها.

(٥٠) ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾؛ أي: بتزكيتهم أنفسهم، وهذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم: الإخبار بأن اللَّه جعل ما هم عليه حقًّا، وما عليه المؤمنون باطلًا!! وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾: ظاهرًا بينًا، موجبًا للعقوبة البليغة، والعذاب الأليم.

(٥١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾: وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين؛ أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان باللَّه ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت؛ وهو: الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: لأجلهم، تملقًا لهم ومداهنة، وبغضًا للإيمان: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾: طريقًا؛ فما أسمجهم، وأشد عنادهم، وأقلَّ عقولهم!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟! فهل يُفَضَّل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان والكفر باللَّه ورسله وكتبه، واستقام على تحريم الطيبات وإباحة الخبائث، وإقامة الظلم بين الخلق، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله، والكفر بما يعبد من دون الله، وعلى صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق، وإقامة العدل، والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث؟!

(٥٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: طردهم من رحمته، وأحل عليهم نقمته ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه من المكاره، وهذا غاية الخذلان.

(٥٣) ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ فيفضِّلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة؟ ﴿فَإِذًا﴾؛ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾: شيئًا ولا قليلًا، وهذا وصف لهم بشدة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره

عند كل أحد.

(٥٤) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أم الحامل لهم على ذلك الحسدُ للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم اللَّه من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله؛ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾: وذلك ما أنعم اللَّه به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه مَن أعطاه من أنبيائه، فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين.

(٥٥) ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾: بمحمد ﷺ؛ فنال بذلك السعادة الدنيوية، والفلاح الأخروي ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ عنادًا وبغيًا وحسدًا؛ فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: تُسَعَّر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ عظيمة الوقود شديدة الحرارة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ احترقت ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ، وكما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفًا لهم وسجية؛ كرر عليهم العذاب جزاء وِفاقًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: له العزة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وما أوجب الإيمانَ به ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أخبر عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يموتون ولا يزولون عنها ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الأخلاق الرذيلة، والخَلْق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ عميقًا كثيرًا غزيرًا طيبًا أنيقًا.

(٥٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ الأمانات: كل ما اؤتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام

---

(٥٦) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام».

(٥٨) أخرج أحمد بإسناد حسن عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

أخرج ابن إسحاق في «السيرة» بإسناد صحيح عن صفية بنت شيبة: أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس؛ خرج حتى جاء البيت؛ فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما فرغ من طوافه؛ دعا عثمان بن أبي طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة؛ ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده، ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف الناس له في المسجد. ثم قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه على بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن أبي طلحة؟»، فدعي له، فقال: « هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم وفاء وبر».

وأخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور، على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، هم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا».

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

٨٨

به، فأمر اللَّه عباده بأدائها؛ أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولاً بها ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾؛ أي: لا تدفع وتؤدى لغير المؤتمن، ووكيله بمنزلته، فلو دفعها لغير ربها؛ لم يكن مؤديًا لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبرّ والفاجر. والمراد بالعدل الذي أمر اللَّه بالحكم به: هو ما شرعه اللَّه على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ﴾ هذا مدح من اللَّه لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ لأفعالكم.

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر؛ وهم: الولاة على الناس: من الأمراء، والحكام، والمفتين؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم؛ طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أمور الدين إلى اللَّه وإلى الرسول؛ أي: إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ رد التنازع إليهما شرط في الإيمان؛ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع؛ فليس بمؤمن حقيقة؛ بل مؤمن بالطاغوت ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الرد إلى اللَّه

---

(٥٩) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ قال: نزلت في عبد الله ابن حذافة بن قيس بن عدي السهمي؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية.

وأخرج أحمد ومسلم- واللفظ لأحمد - عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار. قال: فلما خرجوا وَجَد عليهم في شيء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. فقال: اجمعوا حطباً. ثم دعا بنار فأضرمها فيه ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. . . .» الحديث، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف».

ورسوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ يعجّب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: كل من حكم بغير شرع الله؛ فهو طاغوت﴿وَ﴾. الحال أنهم ﴿قَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمَنْ زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق.

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾؛ أي: إذا دعوتهم إلى حكم الشرع أعرضوا عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١].

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي؛ ومنها: تحكيم الطاغوت؟!

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾معتذرين لما صدر منهم، ويحلفون بالله قائلين: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كَذَبة في ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله.

(٦٣) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والقصد السيئ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: لا تبال بهم، ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه ﴿وَعِظْهُمْ﴾: بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾: انصحهم سرًّا بينك وبينهم؛ فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عمَّا كانوا عليه.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾: يخبر تعالى خبرًا في ضمنه الأمر بطاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسلُ إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطيع للمطاع. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترف السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ معترفين بذنوبهم، باخعين بها ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾؛ لتاب عليهم بمغفرته ظلْمَهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها والثواب

---

(٦٠) أخرج الطبراني في «الكبير» والواحدي في «أسباب النزول» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان أبو بردة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه أناس من أسلم؛ فأنزل الله - تعالى - : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾.

الجزء الخامس — سورة النساء

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، وأما بعد موته؛ فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم؛ أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾: ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾: ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليمًا؛ بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾: يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس: من قتل النفوس، والخروج من الديار؛ لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾: لو فعلوا ما وُظّف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده؛ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ حصول التثبيت والثبات وزيادته، فيثبتهم اللَّه في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب؛ فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر، ويحصل لهم الثبات على الدين عند الموت وفي القبر.

(٦٧) ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت،

(٦٥) أخرج الشيخان عن عروة بن الزبير، عن عبد الله بن الزبير؛ أنه حدثه: أن رجلًا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرِّح الماء يمر. فأبى عليه. فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زُبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»؛ فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٦٨) ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ وأيضًا الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم؛ من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدِيَ إلى صراط مستقيم؛ فقد وُفِّقَ لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

(٦٩) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾: كل مَنْ أطاع اللَّه ورسوله على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأنثى وصغير وكبير؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: الذين فضلهم اللَّه بوحيه، واختصهم بتفضيله بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى اللَّه تعالى ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: الذين قاتلوا في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة اللَّه فقتلوا ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾: الذين صلح ظاهرهم وباطنهم فصلحت أعمالهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأُنْس بقربهم في جوار رب العالمين.

(٧٠) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ الذي نالوه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهو الذي وفقهم لذلك، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ يعلم أحوال عباده ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة.

(٧١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾؛ أي: متفرقين، بأن تنفر سرية أو الجيش ويقيم غيرهم ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية، والراحة للمسلمين في دينهم.

(٧٢) ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله؛ ضعفًا وخورًا وجبنًا ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: هزيمة وقتل، وظَفِرَ الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم؛ ﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾: رأى من ضعف عقله

(٦٩) أخرج الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، والضياء المقدسي في «صفة الجنة» وأبو نعيم في «الحلية»، والواحدي في «أسباب النزول» بإسناد حسن لغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليَّ من أهلي ومالي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت: فأذكرك فما أصبر حتى آتيك؛ فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك؛ عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة؛ خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وأخرج الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه الذي قبض فيه، فأخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فعلمت أنه خُيِّر.

الجزء الخامس — سورة النساء

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٩٠

وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة! ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة؛ التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من الخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب.

(٧٣) ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: نصر وغنيمة؛ ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بأن يضرب لي بسهم معهم وأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده.

(٧٤) ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: من لطف اللَّه بعباده ألاَّ يقطع عنهم رحمته؛ فكل من حصل منه غير ما يليق؛ أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلهذا أمره بالإخلاص والخروج في سبيله ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها.

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأن يكون جهادًا قد أمر اللَّه به ورسوله، ويكون العبد مخلصًا لله فيه قاصدًا وجه اللَّه ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: كل من قاتل في سبيل اللَّه سواء قتل، أو غلب؛ فله عند اللَّه مثوبة عظيمة وأجر جزيل: وهي ما تكفل اللَّه للمجاهدين في سبيله؛ إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة.

(٧٥) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هذا حث من اللَّه لعباده المؤمنين وتهييج لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾: يدعون اللَّه أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾: يدعون اللَّه أن يجعل لهم وليًّا ونصيرًا يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها.

---

(٧٤) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة».

(٧٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾: الذي هو الشيطان.

ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه، فقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾أيها المؤمنون ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾: حزبه وجنده، وهم الكفار ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مَكْرُهُ مهما بلغ؛ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

(٧٧) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: كان المسلمون إذ كانوا بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ومواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط؛ فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، وكان بعض المؤمنين يودُّون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام؛ كُتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ﴾: يخشون مشركي مكة ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾: أكثر خشية وخوفًا من الله ﴿وَقَالُواْ﴾ فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك؛ خوفًا من الناس وضعفًا وخورًا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾: الجهاد؟ وفي هذا تضجرهم واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال؛ التسليم لأمر الله والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾: هلاَّ أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر؟! وهذه الحال كثيرًا ما تعرض لمن استعجل الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحَمْلها.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾: والآخرة خير منها؛ في ذاتها، ولذاتها وزمانها ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: اتقى الشرك، وسائر المحرمات ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾: فسعيكم للدار الآخرة ستجدونه كاملاً موفرًا غير منقوص منه شيئًا.

(٧٨) ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾: أخبر أن القاعد عن القتال لا يدفع عنه قعوده شيئًا، فحيثما

---

(٧٧) أخرج النسائي والطبري وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبيَّ ﷺ بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا؛ صرنا أذلة، فقال: «إني أُمرتُ بالعفو؛ فلا تقاتلوا»، فلما حوّله الله إلى المدينة؛ أمر بالقتال؛ فكفوا؛ فأنزل الله - عزّ وجلّ -: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وأخرج مسلم في «صحيحه» من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع».

(٧٨) أخرج البزار بإسناد صحيح لغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر وعمر في قبيلتين من الناس، وقد ارتفعت أصواتهما، فجلس أبو بكر قريباً من رسول الله ﷺ؛ وجلس عمر قريباً من أبي بكر، فقال رسول =

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

كان فسيدركه الموت، في أيّ زمان وأيّ مكان ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾: قصور منيعة ومنازل رفيعة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾: أخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل أنهم إذا جاءتهم ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصب، وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَ﴾ أنهم ﴿إِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: جدب وفقر، ومرض وموت أولاد وأحباب؛ ﴿يَقُولُوا۟﴾ قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ بسبب ما جئتنا به يا محمد! تطيروا برسول اللَّه ﷺ كما تطير أمثالهم برسل الله، فلما تشابهت قلوبهم بالكفر؛ تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه؛ فهو داخل في هذا الذم الوخيم ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الحسنة والسيئة، والخير والشر ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بقضائه وقدره، وخلقه ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾؛ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾: لا يفهمون حديثًا بالكلية ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلاَّ فهمًا ضعيفًا.

(٧٩) ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ في الدين والدنيا؛ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾؛ هو الذي مَنَّ بها، ويسرها بتيسير أسبابها ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدنيا؛ ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾: بذنوبك وكسبك، وما يعفو اللَّه عنه أكثر ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول اللَّه حقًّا، بما أيدك بنصره والمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق.

(٨٠) ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾: كل مَنْ أطاع رسول اللَّه في أوامره ونواهيه؛ ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

= الله ﷺ: «لم ارتفعت أصواتكما»؟ فقال رجل: يا رسول الله، قال أبو بكر: الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا. فقال رسول الله ﷺ: «فما قلت يا عمر»؟ فقال: قلت: الحسنات والسيئات من الله - تعالى. فقال رسول الله ﷺ: «إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل، فقال ميكائيل مقالتك يا أبا بكر، وقال جبريل مقالتك يا عمر، فقال: نختلف فيختلف أهل السماء، وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض. فتحاكما إلى إسرافيل، فقضى بينهم إن الحسنات والسيئات من الله». ثم أقبل على أبي بكر وعمر وقال: «احفظا قضائي بينكما، لو أراد الله ألا يُعصى لم يخلق إبليس».

(٧٩) أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن همّ ولا حزن ولا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه».

(٨٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله؛ ومن عصاني فقد عصى الله، =

تعالى؛ لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر اللَّه وشرعه، ووحيه وتنزيله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعة اللَّه ورسوله؛ فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر اللَّه شيئًا ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغًا ومبينًا وناصحًا، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا.

(٨١) ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ﴾: خرجوا وخلوا في حالة لا يُطلع فيها عليهم؛ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾: بيتوا ودبروا غير طاعتك، ولا ثَمَّ إلا المعصية ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء؛ ففيه وعيد لهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: ثم أمر رسوله ﷺ بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف؛ فإنهم لا يضرونه شيئًا إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه وإقامة شرعه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: كفى به وليًا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه.

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه؛ وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك؛ فإن تدبر كتاب اللَّه مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه يعرّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه؛ ازداد علمًا وعملاً وبصيرة، لذلك: أمر اللَّه بذلك وحث عليه، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾: فلما كان من عند اللَّه لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

(٨٣) ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: هذا تأديب من اللَّه لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة، ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم؛ أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ

= ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني».

(٨٢) أخرج الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النَّعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حَجْرة -ناحية منفردين-، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلًا يا قوم! بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه، فردوه إلى عالمه».

(٨٣) أخرج مسلم في «مقدمة الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».

﴿مِنۡهُمۡ﴾: بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم: أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها؛ ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون؛ ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به؛ لطف به ربه، ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

(٨٤) ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ ليس لك قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم؛ من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أعد اللَّه للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضًا ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾: قوة وعزة ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ بالمذنب في نفسه، وتنكيلاً لغيره.

(٨٥) ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ المراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير، ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم؛ كان له نصيب من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومَنْ عاون غيره على أمر من الشر؛ كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾: شاهدًا حفيظًا حسيبًا على هذه الأعمال، فيجازي كُلاًّ ما يستحقه.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾: أمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حُيّوا بأي تحية كانت؛ أن يردوها بأحسن منها لفظًا وبشاشة، أو مثلها في ذلك.

والتحية: هي اللفظة الصادرة من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء.

ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسنها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

---

(٨٤) أخرج الإمام أحمد والحاكم وابن مردويه بإسناد صحيح عن أبي إسحاق؛ قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله بعث رسوله ﷺ، وقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ إنما ذلك في النفقة.

(٨٥) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء».

(٨٦) أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

(٨٧) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه بحق إلا هو؛ لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والملك والتدبير، وذلك يستلزم الأمر بعبادته؛ لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء؛ وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أولكم وآخركم في مقام واحد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لاشك ولا شبهة فيه بوجه من الوجوه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾: إخبار بأن حديثه تعالى وأخباره وأقواله كلها في أعلى مراتب الصدق، فلا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده.

(٨٨) ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ صرتم فيهم فرقتين، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا؛ بل أمرهم واضح غير مشكل: إنهم منافقون ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾: ردَّهم إلى الكفر ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ بأعمالهم غير الزاكية ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾: أن ترشدوا ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: أتقولون: إن هؤلاء مهتدون وقد أضلهم الله؟ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: من يضلله اللَّه عن الهدى؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: طريقًا إلى الحق.

(٨٩) ﴿وَدُّواْ﴾: تمنوا الذين رجعوا عن الدين ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: هذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة، ويستلزم -

الجزء الخامس — سورة النساء

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

٩٢

أيضًا - بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معكم، فإذا هاجروا؛ جرى عليهم ما جرى على المسلمين ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضوا عن التوحيد والهجرة؛ ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أسارى ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحلّ والحرم، في أيّ وقت وأي محل كان ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: لا توالوهم، ولا تستنصروا لهم على الذين لجئوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم.

(٩٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ...﴾ ثم إن اللَّه استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

---

(٨٨) أخرج البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه؛ قال: لما خرج النبي ﷺ إلى أحد؛ رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم. وقالت فرقة: لا نقتلهم. فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، وقال النبي ﷺ: «إنها تنفي الرجال كما تنفي النار خبث الحديد».

الجزء الخامس — سورة النساء

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٣

فرقتين أمر بتركهم وحتّم على ذلك:

إحداهما: ﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾: من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: بقوا لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين؛ فهؤلاء أيضًا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾؛ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم؛ وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين؛ وهو أهون الأمرين عليكم، واللّه قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ اعتزلوا قتالكم ﴿فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾ ومن اتصل بهم ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾؛ أي: الصلح، فانقادوا واستسلموا ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾؛ أي: فليس لكم أن تقتلوهم ما دامت حالهم كذلك.

(٩١) الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال اللّه فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ من هؤلاء المنافقين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ خوفًا منكم ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فإن لم يكفوا عن قتالكم ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ المسالمة والموادعة ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ ولم يقبضوا أيديهم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: وجدتموهم ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾: حجة بينة واضحة؛ لكونهم معتدين ظالمين لكم، تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل أخيه المؤمن - أي: متعمدًا - بوجه من الوجوه، وفي هذا: الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾: استثنى تعالى قتلَ الخطأ؛ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجرئ على محارم الله، ولما كان

القاتل قد فعل فعلاً شنيعًا قبيحًا، وإن لم يقصده؛ أمر تعالى بالكفّارة والدِّية، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾: سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى، حرًّا أو عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلاً أو مجنونًا؛ كما يفيده لفظ: ﴿مَن﴾ الدالة على العموم؛ فإن على القاتل ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ﴿وَدِيَةٌ﴾: أما الدية، فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾؛ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا: هم ورثته ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية؛ فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن اللَّه سماها صدقة، والصدقة مطلوبة مرغوب فيها.

﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وليس عليكم لأهله دية؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة؛ ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر؛ فإن العذر لا يقطع التتابع؛ كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر؛ انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم؛ ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذه الكفارات التي أوجبها اللَّه على القاتل توبة من اللَّه على عباده، ورحمة بهم وتكفيرًا لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: كامل العلم، كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء؛ بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة.

(٩٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ ذكر تعالى وعيد القاتل عمدًا وعيدًا ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه العقول؛ ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ألا وهو

---

(٩٣) أخرج البخاري - واللفظ له - ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما أنزلت التي في«الفرقان»: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ قال مشركو أهل مكة: قد قتلنا النفس التي حرم الله، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وقد أتينا الفواحش. فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [الفرقان: ٧٠]؛ فهذه لأولئك، وأما التي في «النساء»: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾؛ فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل؛ فجزاؤه جهنم. فذكرته لمجاهد فقال: إلا من ندم.

وأخرج الشيخان عنه رضي الله عنه قال: لقد نزلت في آخر ما نزلت، ما نسخها شيء.

أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنِقًا صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بَلَّح». وقوله« مُعْنِقاً»: مسرعاً في طاعته، منبسطاً في عمله، وقوله: « بَلَّح»: كَلَّ وانقطع، والمعنى: أنه يقع في الهلاك بإصابة الدم الحرام.

الجزء الخامس — سورة النساء

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

٩٤

الإخبار بأن جزاءه جهنم بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة؛ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيها من الفوائد الكثيرة، والكفّ لشرور عظيمة، ما به يُعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بداوتها قبل أن يتبين له حكمها؛ فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فلا تقولوا لمن سلم عليكم: لست مؤمنًا ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ غنائم ﴿كَثِيرَةٌ﴾ ثواب كثير جزيل باق لمن اتقى قتل المؤمن.

ثم قال تعالى مذكرًا لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم؛ فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا؛ فكذلك غيركم. فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه؛ ولهذا أعاد الأمر بالتبيين، فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾: أمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويتبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كُلًّا ما عمله ونواه؛ بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

(٩٥) ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: لا

---

(٩٤) في «الصحيحين» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل في غُنيمة، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم. فقتلوه، وأخذوا غُنيمته؛ فأنزل الله في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

(٩٥) أخرج البخاري عن البراء؛ قال: لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادع فلانًا» فجاء ومعه الدواة واللوح والكشف فقال: «اكتب: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضرير. فنزلت مكانها ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد والترغيب فيه، والترهيب من التكاسل والقعود عنه من غير عذر، وأما أهل الضرر كالمريض، والأعمى، والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به؛ فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾: تأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها؛ فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال. ﴿وَكُلًّا﴾: المجاهد، والقاعد، والمعذور ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الجنة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٩٦) ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: ثم انتقل إلى تفضيل المجاهدين بالدرجات والمغفرة والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير واندفاع كل شر، وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أحسن لفظًا وأوقع في النفس. ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرَيْن عن اسميه الكريمين الغفور الرحيم؛ ختم هذه الآية بهما، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

(٩٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ملك الموت ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالشرك في حال ظلمهم، وهذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم ﴿قَالُوا۟﴾ يقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: على أيّ حال كنتم؟ وبأيّ شيء تميزتم عن المشركين؟! بل كثَّرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة! وهم غير صادقين في ذلك؛ لأن الله وبخهم وتوعدهم، ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي الملائكة لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه؛ فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ﴾: منزلهم ﴿جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾: بئس المصير والمآل والمرجع.

(٩٨) ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾: استثنى تعالى المستضعفين على

---

(٩٦) في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

(٩٧) أخرج البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود؛ قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس: أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

(٩٨) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده» ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم نج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من =

الحقيقة من الرجال والنساء والولدان، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: لا يعرفون طريقًا للخروج.

(٩٩) فهؤلاء قال اللّه فيهم: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾: يتجاوز عنهم، و«عسى» من اللّه واجب وقوعها بمقتضى كرمه وإحسانه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين؛ بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيحرج بذلك.

(١٠٠) ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾: وعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته؛ أنه يجد مُراغمًا في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم والمراغمة: اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء اللّه من قول وفعل ﴿وَسَعَةً﴾ وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وهذا خلاف لما يتوهمه كثير من الناس: أن في الهجرة شتاتًا بعد الألفة، وفقرًا بعد الغنى، وذلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: قاصدًا ربه ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصرًا لدين الله؛ لا لغير ذلك من المقاصد ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ بقتل أو غيره؛ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان اللّه تعالى، وذلك؛ لأنه نوى وجزم وحصل منه ابتداء وشروع في العمل، فأعطاهم اللّه رحمة بهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل، وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها ؛ ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصًا التائبين المنيبين إلى ربهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم؛ حيث وفّقهم للإيمان، وعلّمهم، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح.

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في السفر، وظاهر الآية يقتضي الترخص في أيِّ سفر كان؛ غير سفر المعصية، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ دليل على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذلك لم يقل: أن تقصروا الصلاة، وقوله: ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعيض؛ ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات، لا جميعها ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: هذا

= المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنين يوسف».

(١٠٠) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وكان بمكة رجل يقال له: ضمرة من بني بكر، وكان مريضاً فقال لأهله: أخرجوني من مكة؛ فإني أجد الحر. فقالوا: أين نخرجك؟ فأشار بيده نحو المدينة؛ فمات فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخر الآية.

القيد وهو الخوف من الكفار أتى به؛ نظرًا لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد، وليس معنى الآية: أن القصر لا يجوز إلا بوجود الخوف مع السفر، وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى سأل فسأل رسولَ اللَّه ﷺ عن هذا الأمر، فقال: يا رسول اللَّه ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟! فقال: «**صدقة تصدق اللَّه بها عليكم؛ فاقبلوا صدقته**».

﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾؛ أي: ظاهرو العداوة، وهذا يستدعي الحذر منهم.

(١٠٢) ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صليت بهم صلاة تقيمها وتتم ما يجب فيها ويلزم؛ فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ﴾ وطائفة قائمة بإزاء العدو ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ الذين معك أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾: أمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة؛ فإن فيه مصلحة راجحة، وهي الجمع بين الصلاة والجهاد والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ

الجزء الخامس — سورة النساء

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾

٩٥

وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾: ثم إن اللَّه عذر من له عذر من مرض أو مطر أن يضع سلاحه؛ ولكن مع أخذ الحذر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾: ومن العذاب المهين ما أمر اللَّه به حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، ويأخذوهم ويحصروهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم؛ خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

(١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فإذا فرغتم من صلاتكم صلاة الخوف، وغيرها؛ ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾: فاذكروا اللَّه في جميع

أحوالكم وهيئاتكم ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾: إذا أمنتم من الخوف واطمأنت قلوبكم وأبدانكم؛ فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهرًا وباطنًا، بأركانها وشروطها وخشوعها وسائر مكملاتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾: مفروضًا في وقته، فدلّ ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتًا لا تصح إلا به.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، في جهادهم والمرابطة على ذلك؛ فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾: إن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك؛ فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾: ترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، فالمؤمنون لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة: من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾: كامل العلم، ﴿حَكِيمًا﴾ كامل الحكمة.

(١٠٥) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق؛ أي: محفوظًا في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملًا أيضًا

---

(١٠٥) في «الصحيحين» عن أم سلمة ﵂ أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو ما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها».

(١٠٥ - ١١٦) أخرج الترمذي وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» والطبراني في «الكبير» والطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» والحاكم بإسناد حسن لغيره، عن قتادة بن النعمان؛ قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق: بشر، وبشير، ومبشر، وكان بشير رجلًا منافقاً يقول الشعر؛ يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر؛ قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث- أو كما قال الرجل-، وقالوا: ابنُ الأبيرق قالها. قال: وكان أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافِطة من الشام من الدَّرمك؛ ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال؛ فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافِطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف، فَعُدِي عليه من تحت البيت؛ فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح؛ أتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي! إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه؛ فنقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحو نسأل في الدار-: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل؛ رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد؛ اخترط سيفه، وقال: أنا أسرق؟ فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنها أيها الرجل؛ فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه؛ فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام؛ فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: «سآمر في ذلك»، فلما سمع بنو أُبيرق؛ أتوا رجلًا منهم يقال =

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

على الحق، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس في مسائل النزاع والخلاف ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا بهواك؛ بل بما علمك الله وألهمك، وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾: لا تخاصم ولا تجادل عمن عرفت خيانته؛ من مدّع ما ليس له، أو منكر حقًّا عليه، سواء علم ذلك أو ظنه، وفي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

(١٠٦) ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ مما صدر منك إن صدر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأناب ﴿رَّحِيمًا﴾: واسع الرحمة.

(١٠٧) ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الاختيان والخيانة بمعنى الجناية والظلم والإثم،

له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله فكلمته، فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة»، قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ بني أبيرق: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لو استغفروا الله؛ لغفر لهم ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ - إلى قوله -: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قوله للبيد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فلما نزل القرآن، أتى رسول الله ﷺ بالسلاح، فرده إلى رفاعة. فقال قتادة: لمّا أتيتُ عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد عسى، أو عشى، في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيته بالسلاح؛ قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله. فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن؛ لَحِقَ بشيرٌ بالمشركين، فنزل على سُلافة بنت سعد؛ فأنزل الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٥، ١١٦]، فلما نزل على سُلافة؛ رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رحله فوضعته على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان؟! ما كنت تأتيني بخير.

وهذا يشمل النهي عن المجادلة عمَّن أذنب وتوجه عليه عقوبة من حدّ أو تعزير؛ فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب؛ ثبت ضده: وهو البُغْض، وهذا كالتعليل للنهي المتقدم.

(١٠٨) ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا اللَّه بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بالعلم في جميع أحوالهم، ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول؛ من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيتوه.

ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾: قد أحاط بذلك علمًا.

(١٠٩) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: هَبْكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالُكم بعض ما يحذرون من العار والفضيحة عند الخلق،﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل اللَّه عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾: أم من يدافع عنهم، ويتولى توجيه الحجة نيابة عنهم؟! لا أحد، بل إن اللَّه تعالى سيقيم عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار.

(١١٠) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾: من تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ ثم استغفر اللَّه استغفارًا تامًّا يستلزم: الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على ألاَّ يعود؛ ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب.

وقد يفسر عمل السوء هنا: بالظلم الذي يسوء الناس؛ وهو ظلمهم في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم.

(١١١) ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة؛ فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: له العلم الكامل والحكمة التامة، ومن علمه وحكمته: أنه يعلم الذنب، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب.

(١١٢) ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ ذنبًا كبيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾؛ أي: يتهم بذنبه ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ من ذلك الذنب، وإن كان مذنبًا؛ ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: فقد حمل فوق ظهره بهتًا للبريء وإثمًا ظاهرًا بينًا، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها؛ فإنه قد جمع عدة مفاسد، التي نسأل اللَّه العافية منها

ومن كل شر.

(١١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي فيه تبيان كل شيء وعلم الأولين والآخرين: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة، التي قد قال فيها بعض السلف: إن السُّنَّة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه اللَّه تعالى. ثم لم يزل يوحي اللَّه إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقامًا من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ففضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق.

(١١٤) ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون؛ إما لأنه لا فائدة فيه، وإما لأنه شر ومضرة محضة، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال، أو علم، أيّ نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة؛ كالتسبيح والتحميد ونحوه ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾: وهو الإحسان، والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حَسَنُه. ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن

الجزء الخامس — سورة النساء

نصف الحزب

لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

٤٠

٩٧

حصره؛ فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه اللَّه تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم.

(١١٥) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير؛ لكونه رأى الحق وعلمه وتركه ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾: نعذبه فيها عذابًا عظيمًا ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾: مرجعًا

له ومآلاً.
وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة.
(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا بمن هو مالك النفع والضر ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾: وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي؛ فهو تحت المشيئة، إن شاء اللَّه غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: من أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة للخالق، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء؛ بل ليس له إلا العدم والعجز والنقص.
(١١٧) ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾: ما يدعون هؤلاء المشركون من دون اللَّه إلا إناثًا؛ أي: أوثانًا وأصنامًا بأسماء الإناث؛ كالعزى، ومناة، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها أسماءَ مؤنثة ناقصة؛ دلَّ ذلك على نقص تلك المسميات، وفقدها لصفات الكمال ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾: ومع ذلك؛ فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوهم الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله.
(١١٨) ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وأبعده عن رحمته، فكما أبعده اللَّه من رحمته؛ فإنه يسعى في إبعاد العباد عن رحمة اللَّه ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: مقدرًا، علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد اللَّه المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه، وآثر طاعته على طاعة مولاه.
(١١٩) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الصراط المستقيم؛ ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل، ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم؛ حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم؛ حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة! وَاعْتَبِرْ ذلك باليهود والنصارى ونحوهم.
﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فنبه ببعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم اللَّه ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان، فغيّروا خلقة الرحمن، وذلك يتضمن التسخط من خلقته والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعونه بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره.
﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

(١١٩) في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ في كتاب الله. يعني: قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ربًا يطيعه؛ ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ وأي خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياه؟!! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدي.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم بما يوقع في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، والوعد يشمل حتى الوعيد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾فإنهم يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا ويمنيهم بألاَّ بعث، ولا جنة، ولا نار، يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾: باطلاً.

(١٢١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾: من انقاد للشيطان وصار من أتباعه وحزبه، وأعرض عن ربه؛ فإن مستقرهم النار ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾: مخلصًا ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

(١٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به علمًا وتصديقًا وإقرارًا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الناشئة عن الإيمان، وهذا يشمل الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يُصرِّفونها حيث شاءوا،

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

وأين أرادوا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾: لا زوال ولا انتقال ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ هذا وعد من الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ لا أحد أصدق منه قولاً؛ أي: خبرًا.

(١٢٣) ﴿لَّيۡسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ والأماني: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها؛ لكانت من جنسها، وهذا عام في كل أمر؛ فكيف بأمر الإيمان

(١٢٢) أخرج النسائي وابن خزيمة بإسناد صحيح من حديث جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

(١٢٣) أخرج أحمد بإسناد حسن لغيره: أن أبا بكر قال: يا رسول الله! كيف العلاج بعد هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر! ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟» قال: بلى. قال: «فهو ما تجزون به».

والسعادة الأبدية؟! ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾: فإن أماني أهل الكتاب قد أخبر بها أنهم قالوا: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف؛ فإن مجرد الانتساب إلى أيّ دين كان لا يفيد شيئًا إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ﴾: وهذا شامل لجميع العاملين؛ لأن السوء شامل لأي ذنب كان من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضًا لكل جزاء؛ قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله؛ فمستقل ومستكثر: فمن كان عمله كله سوءًا؛ لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبة؛ جوزي بالخلود في العذاب الأليم.

ومن كان عمله صالحًا وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم والأذى وبعض الآلام في بدنه أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك؛ فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله قيضها الله لطفاً بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله قد يكون له ولي أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يُحصّل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب؛ إلا ربه ومليكه.

(١٢٤) ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب إلا بالإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾: لا قليلاً ولا كثيرًا مما عملوه من الخير؛ بل يجدونه كاملاً موفرًا، مضاعفًا أضعافًا كثيرة.

(١٢٥) ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحۡسِنٞ﴾ متبع لشريعة اللّه التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقًا لخواص خلقه وأتباعهم، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: دينه وشرعه ﴿حَنِيفٗاۗ﴾ مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾: والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين: محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام؛ وأما المحبة من الله؛ فهي لعموم المؤمنين.

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾: يخبر تعالى عن

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

٤٦

إحاطته بجميع الأشياء، وأنه له ﴿مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون وهو المالك المتفرد بتدبيرهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم، فتولى اللَّه هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء؛ من القيام بحقوقهن، وترك ظلمهن عمومًا وخصوصًا.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى النِّسَآءِ﴾؛ أي: ويفتيكم أيضًا بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء ﴿الَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾: وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل بخسها حقها وظلمها؛ إما بأكل مالها أو بعضه، أو منعها من التزوج؛ لينتفع بمالها خوفًا من استخراجه من يده إن زوّجها، هذا إن كان راغبًا عنها، وقد يرغب فيها وهي ذات جمال ومال؛ لكن لا يقسط في مهرها، ويعطيها دون ما تستحق؛ فكل هذا ظلم.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَٰنِ﴾: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار؛ أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وألاَّ تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَٰمَىٰ بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل التام، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعديًا أو لازمًا؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير؛ قلة وكثرة، حسنًا وضده، فيجازي كلاًّ بحسب عمله.

(١٢٧) أخرج الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال في قوله تعالى: ﴿فِي يَتَٰمَى النِّسَآءِ الَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل بها ذلك، لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها؛ تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة؛ منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت؛ ورثها، فحرم الله ذلك، ونهى عنه.

(١٢٨) ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾: إذا خافت المرأة نشوز زوجها؛ أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها، وإعراضه عنها؛ فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحًا: بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها؛ إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم ، فتسقط حقها منه، وإما أن تهب يومها أو ليلتها لزوجها، أو لضرتها فإذا اتفقا على هذه الحالة؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾ ولا بأس عليهما فيها؛ أي: في هذه الحالة لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾،

ويؤخذ من هذا: أن الصلح بين مَن بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه؛ لما فيها من الإصلاح، وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء؛ إلا إذا أحل حرامًا، أو حرّم حلالاً؛ فإنه لا يكون صلحًا، وإنما يكون جورًا.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فذكر تعالى المقتضي للصلح وهو الخير ،ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ورغب فيه، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به، وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له، ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾: جبلت النفوس على الشح؛ وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعًا؛ أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده؛ وهو السماحة: وهو بذل الحق الذي عليك، والاقتناع ببعض الحق الذي لك. فمن وفّق لهذا الخلق؛ سهل عليه الصلح.

﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ﴾: تحسنوا في عبادة الخالق؛ بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان؛ من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾: قد أحاط به علمًا وخبرًا، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

(١٢٩) ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء؛ وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل

---

(١٢٨) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ أنزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد أن يطلقها ويتزوج غيرها، فتقول: لا تطلقني وأمسكني، وأنت في حل من النفقة والقسمة لي. فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾.

(١٢٩) أخرج أصحاب السنن وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط».

بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا اللَّه عما لا يستطاع ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾: لا تميلوا ميلاً كثيرًا بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة؛ بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تدخلوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها خلاف الحب والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج ، ولا ذات زوج يقوم بحقها، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس؛ احتسابًا وقيامًا بحق الزوجة ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ اللَّه بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ﴿رَّحِيمًا﴾ ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

(١٣٠) ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾: من فضله وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها؛ فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل اللَّه يرزقها زوجًا خيرًا منه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾: كثير الفضل واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه ﴿حَكِيمًا﴾: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة.

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير وتصرفه بأنواع التصريف قدرًا وشرعًا؛ فتصرفه الشرعي: أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾: بأن تتركوا تقوى الله، وتشركوا باللَّه ما لم ينزل به عليكم سلطانًا، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون اللَّه شيئًا ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره؛ ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾: له الجود الكامل والإحسان الشامل، الصادر من خزائن رحمته، ومن تمام غناه: أنه كامل الأوصاف، وأن العالم مفتقر في جميع شؤونهم وأحوالهم إليه، وأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولاشريكا في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً على شيء من تدابير ملكه.

﴿حَمِيدًا﴾ أما الحميد؛ فهو من أسماء اللَّه تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: كرر إحاطة ملكه لما في السموات وما في الأرض، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: أنه على كل

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

شيء وكيل عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة.

فإن قيل: فأي فائدة في تكرار قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ قيل: لكل واحد منها أوجه، أما الأول فمعناه لله ما في السماوات وما في الأرض وهو يوصيكم بالتقوى، فاقبلوا وصيته. وأما الثاني: فيقول: فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً، أي: هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون. والثالث: فيقول ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ولا يتوكلوا على غيره.

(١٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم فيذهبكم ويبدلكم ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾: غيركم هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم؛ فإن الله لا يعبأ بهم شيئًا إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملي ولا يهمل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ قادر على إذهابكم وتبديلكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾[محمد: ٣٨].

(١٣٤) ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ﴾: أخبر تعالى أن مَنْ كانت همته وإرادته دنية غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة؛ فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك؛ فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة فليطلبا منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته ولا تدرك الأمور الدينيةولا الدينوية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ بأقوالهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالهم.

(١٣٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ﴾: يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله: ألاَّ يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته.

والقسط في حقوق الآدميين: أن تؤديَ جميع الحقوق التي عليك كما تطلُبُ حقوقك.

ومن أعظم أنواع القسط: القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد

---

(١٣٥) أخرج مسلم عن زيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها».

المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ومن القسط: أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان؛ حتى على الأحباب، بل على النفس ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له؛ بل اشهدوا بالحق على من كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور الدالة على دين القائم به وورعه، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك: اتباع الهوى، ولذا قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل؛ فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه؛ حتى يرى الحق باطلاً، والباطل حقًا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾: لما بيَّن أن الواجب القيام والقسط؛ نهى عن ما يضاد ذلك، وهو: ليّ اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾: تتركوا القسط المنوط بكم؛ كترك الشاهد لشهادته، وترك الحاكم لحكمه الذي يجب عليه القيام به؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد.

(١٣٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أمر اللَّه تعالى عباده المؤمنين بالإيمان به وبرسله وبالقرآن وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنًا إلا به؛ إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما عُلم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به؛ فقد اهتدى وأنجح.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: وأيُّ ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها؛ لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

(١٣٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾؛ أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر، واستمر على كفره وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة؛ لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها.

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأقبح بشارة وأسوئها وهو العذاب الأليم، والبشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد كما في هذه الآية.

(١٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين، فأي شيء حملهم على ذلك؟! ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ساء

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

ظنهم باللَّه وضعف يقينهم بنصر اللَّه لعباده المؤمنين، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم، ويستنصرون ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة؛ فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين.

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد بيّن اللَّه لكم ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾: يستهان بها، والواجب على كل مكلف الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾: لا تحضروا مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر اللَّه ونواهيه، وتقتحم فيها حدوده التي حدّها لعباده، ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾: غير الكفر بآيات اللَّه والاستهزاء بها ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة، فلذلك يشاركونهم في الخلود في نار جنهم.

(١٤١) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جوابًا بحسب نفاقهم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾: النصر والتأييد ﴿مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ ليسلموا من القدح والطعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء ولينتصروا بهم ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾: لم يقل: فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح، بل غاية ما يكون لهم: نصيب غير مستقر؛ حكمة من اللَّه ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾: نستولي عليكم ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع في تفنيدهم وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: فيجازي المؤمنين ظاهرًا وباطنًا بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

سَبِيلًا﴾: تسلطًا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال اللَّه يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ودفع تسليط الكافرين ما هو مشهود بالعيان.

(١٤٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾: يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة اللَّه تعالى بما أظهروه من الإيمان وأبطنوه من الكفران؛ ظنوا أنه يروج على اللَّه ولا يعلمه ولا يبديه لعباده! والحال: أن اللَّه خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم ومشيهم عليها خداع لأنفسهم، وأي خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟ فلله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ﴾ -إن قاموا- ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾: متثاقلين لها متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا مِنْ فَقْدِ الرغبة من قلوبهم ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم: مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم ولا يخلصون لله؛ فلهذا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: لامتلاء قلوبهم من الرياء؛ فإن ذكر اللَّه تعالى وملازمته لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة اللَّه وعظمته.

(١٤٣) ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين؛ فلا هم من المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا من الكافرين ظاهرًا وباطنًا، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: لن تجد طريقًا لهدايته، ولا وسيلة لترك غوايته.

(١٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين ﴿أَتُرِيدُونَ أَن﴾: فإن ذلك موجب لأن ﴿تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: حجة واضحة على عقوبتكم؛ فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفاسد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب. وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه، وفيه التحذير من المعاصي، فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبينا.

(١٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعادة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكّن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يُحس ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾: ليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه.

---

(١٤٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين: صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً». وأخرج مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلًا».

الجزء السادس — سورة النساء

لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

١٠٢

(١٤٦) وهذا عام لكل منافق ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ إلا مَن مَنَّ اللَّه عليهم بالتوبة من النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: والتجئوا إليه في جلب منافعهم، ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾: فقصدوا وجه اللَّه بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلِمُوا من الرياء والنفاق؛ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١٤٧) ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾: إذا أنبتم ورجعتم بالتوبة إليه؛ فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفَّى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم؛ بل العاصي لا يضر إلا نفسه ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾؛ الشكر: هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور ﴿وَءَامَنتُمْ ۚ﴾ به، وهذا يستلزم عمل الجوارح بطاعته، وألاَّ يستعين بنعمه على معاصيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾: يعطي المتحمِّلين لأجله الدائبين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان ﴿عَلِيمًا﴾: يعلم ظاهركم وباطنكم وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق.

(١٤٨) ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: يخبر تعالى أنه يبغض الجهر بالسوء من القول ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن؛ كالشتم، والقذف، والسب، ونحو ذلك؛ فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه اللَّه ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ويشتكي منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به؛ من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير

(١٤٧) أخرج الشيخان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ قال: «كنت دريف النبي ﷺ على حمار؛ فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: «الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا» قلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا».

(١٤٨) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق» فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مرَّ به قال: مالك؟ قال: جاري يؤذيني. فيقول: اللهم العنه، اللهم اخزه! فقال الرجل: ارجع إلى منزلك. وقال: لا أوذيك أبداً.

ظالمه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾: فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم؛ فيعاقبكم على ذلك ﴿عَلِيمًا﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم.

(١٤٩) ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾: هذا يشمل كل خير قوليّ وفعليّ، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه؛فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة؛ فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

(١٥٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾؛ هم اليهود، وذلك أنهم آمنوا بموسى عليه السلام والتوراة، وكفروا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام والقرآن ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: فهؤلاء يريدون التفريق بين اللَّه وبين رسله! وهذا كفر وضلال؛ فإن من تولى اللَّه حقيقة: تولى جميع رسله، ومن عادى أحدًا من رسله: فقد عادى اللَّه وعادى جميع رسله ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾: يزعمون أنهم يؤمنون ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيهم من عذاب الله! تلك أمانيهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾؛ أي: دينًا بين اليهودية والإسلام.

(١٥١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾؛ أي: كفرهم محقق لا محالة، ولئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر، ووجه كونهم كافرين: أن كل دليل دلَّهم على الإيمان بما آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به، فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي لا يعجز عنها أحد ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: كما تكبروا عن الإيمان بالله؛ أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

(١٥٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: هذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر اللَّه به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم؛ فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ جزاء إيمانهم وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كُلٌّ على حسب حاله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: يغفر السيئات، ويتقبل الحسنات.

(١٥٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل؛ فإن الرسول بشر عبد مدبّر، ليس في يده من الأمر شيء؛ بل الأمر كله لله، وهذا السؤال مجرد

---

(١٤٩) أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا ومن تواضع لله رفعه».

الجزء السادس — سورة النساء

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

١٠٣

دعوى لا دليل عليها ولا مناسبة؛ بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقًا فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟! فلما ذكرهم اعتراضهم الفاسد؛ أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾: أعظم من ذلك الذي سألوا ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: سألوه رؤية اللَّه تعالى عيانًا؛ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾؛ أي: الموت أو الغشية الشديدة بطغيانهم وبغيهم وعتوهم وعنادهم ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: اتخذوا العجل إلهًا يعبدونه من بعد ما رأوا من الآيات الباهرات والأدلة القاهرة على يد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما لم يره غيرهم ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾: ومع ذلك عفونا عنهم، فتوبوا أنتم؛ حتى يعفوا عنكم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: حجة بينة من المعجزات، وهي الآيات التسع.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: وأيضًا: امتنعوا من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة حتى رفع جبل الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، ففعلوا ذلك على وجه الإغماض والضرورة ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾: ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجدًا مستغفرين، فخالفوا القول والفعل ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: ومن اعتداء من اعتدى منهم في الصيد يوم السبت، فعاقبهم اللَّه تلك العقوبة الشنيعة ﴿كُونُوا۟ خَٰسِـِٔينَ﴾.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، فنبذوه وراء ظهورهم.

(١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾: بسبب نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: حججه وبراهينه ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: بكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمًّا غفيرًا ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: لا تفقه ما تقول لهم، ولا تفهمه ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فهي مطبوع عليها بكفرهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن قلوبهم تمرَّنت على الكفر والطغيان.

(١٥٦) ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ حين رموها بالزنا كذبًا وزورًا.

(١٥٦ - ١٥٩) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم =

(١٥٧)﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ يعني بذلك من ادعى قَتْلَه من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحَيرة وضلال ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين.

(١٥٨) ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾يعني: بل رفع الله المسيح إليه، فهو عنده في السماء ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: منيعًا بالنقمة من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾: حكم باللعنة والغضب عليهم.

(١٥٩) ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ راجع إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والمعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار؛ فإنها تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر هذه الأمة، يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يكون عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾: يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟

وحينئذ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشريعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك؛ لِعِلْمِنا بكمال عدالة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق: أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

(١٦٠) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾: أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة؛ بسبب ظلمهم واعتدائهم، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى.

(١٦١)﴿وَ﴾ بـ ﴿أَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: أخذهم أموال غيرهم بغير حق ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: مؤلمًا وموجعًا.

فعاقبهم اللّه من جنس فعلهم فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة؛ فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

(١٦٢) لما ذكر معايب أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التام العام ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: سائر الكتب المنزلة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ

= حكماً عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

الجزء السادس — سورة النساء

إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

١٠٤

ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أثمرت لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللذين هما أفضل الأعمال؛ فقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: آمنوا بالله وباليوم الآخر؛ فخافوا الوعيد، ورجوا الوعد ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: وهي الجنة.

(١٦٣) ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير، فاستغراب رسالته لا وجه له.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم، من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه أن بعضهم يصدق بعضًا، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم التنويه بهم والثناء عليهم، وشرح أحوالهم؛ ليزداد المؤمن إيمانًا بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم وسنتهم، ومعرفة بحقوقهم.

ولما ذكر اشتراكهم بوحيه؛ ذكر تخصيص بعضهم فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾وهو: الكتاب المعروف المزبور المكتوب، الذي خصَّ الله تعالى به داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لشرفه وفضله.

(١٦٤) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ قصصنا عليك رسلاً وخلقًا آخرين لم يذكروا، وهذا يدل على كثرتهم ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾؛ أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة؛ حتى اشتهر بهذا عند العالمين

(١٦٥) ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله واتبع رسله بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فلم يبق للخلق على الله حجة؛ لإرساله الرسل تترى؛ يبينون للناس

(١٦٥) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين».

دينهم، ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار فمن كفر بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: هذا الإرسال من كمال عزّته وحكمته تعالى؛ أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطرار؛ فله الحمد والشكر.

(١٦٦) ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ لما ذكر أن اللَّه أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين؛ أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾؛ أي: صادرًا عن علمه، وفي هذا إشارة وتنبيه على وجه شهادته، والمعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن، وهو يعلم ذلك ويعلم حالة الذي أنزل عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدَّقه كان وليّه، ومن كذَّبه وعاداه كان عدوَّه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة إلا بعد القدح بعلم اللَّه وقدرته وحكمته.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾: وأخبر تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله؛ لكمال إيمانهم، ولجلالة هذا المشهود عليه، فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحده ﴿شَهِيدًا﴾.

(١٦٧) ثم توعد من كفر بهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدّهم الناس عن سبيل الله، وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وأيّ ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره؛ فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين، وفاتته الهدايتان.

(١٦٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ وهذا الظلم؛ هو زيادة على كفرهم، وإلا؛ فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا: أعمال الكفر، والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية، ولهذا قال: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ وإنما تعذّرت المغفرة لهم والهداية؛ لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرهم، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية؛ إلا طريقًا واحدًا، هو طريق جهنم عياذًا بالله، طريق الضلال والخسران.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾: لا يبالي اللَّه بهم ولا يعبأ؛ لأنهم لا يصلحون للخير، فلا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

(١٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾: يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ، وذكر السبب الموجب للإيمان به؛ وهو إخباره بأنه جاءهم بالحق، فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، ثم ذكر الفائدة من الإيمان، فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ والخير ضد الشر، فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، ثم ذكر مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فقال: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ به ﷺ؛ فإنكم لا تضرون إلا أنفسكم، واللَّه تعالى غني عنكم لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء، فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية، ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره، والحكمة: وضع الهداية والغواية موضعهما.

(١٧١) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين؛ وهو: مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾: نهى عن قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، وأمر بقول الحق في هذه الأمور.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات وأجلّ المثوبات ﴿و﴾ أنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ التي ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾: كلمة تكلم اللّه بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾؛ أي: من الأرواح التي خلقها وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل اللّه روحه جبريل عليه السلام فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن اللّه بعيسى عليه السلام.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾: لما بيّن حقيقة عيسى عليه السلام؛ أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا اللّه ثالث ثلاثة؛ أحدهم: عيسى، والثاني: مريم، فهذه مقالة النصارى قبّحهم الله، فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾: هو المنفرد بالألوهية،

(١٧١) أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله».

وأخرج البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: تنزَّه وتقدست نفسه عن الشريك والولد؛ لأن ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: فالكل مملوكون له مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد وهم تحت تدبيره وتصريفه وهو الوكيل على كل شيء.

(١٧٢) ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾: لما ذكر تعالى غلوَّ النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر أنه عبده ورسوله؛ ذكر أنه لا يستنكف عن عبادة ربه؛ أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها، وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله اللَّه فيها وترفعه عن العبادة كمالاً؛ بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾: فسيحشر الخلق كلهم إليه المستنكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

(١٧٣) ثم فصَّل حكمه فيهم، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: جمعوا بين الإيمان المأمور به وعمل الصالحات؛ من واجبات، ومستحبات، من حقوق اللَّه وحقوق عباده ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: الأجور التي رتبها على الأعمال، كُلٌّ بحسب إيمانه وعمله ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ امتنعوا من طاعة اللَّه وعبادته واستكبروا؛ ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ وهو سخط اللَّه وغضبه، والنار الموقدة ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: لا يجدون أحدًا من الخلق يتولاهم فيحصِّل لهم المطلوب، ولا مَن ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب.

(١٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: يمتنُّ تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾: وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره.

(١٧٥) ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به- قسمين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾: لجئوا إلى اللَّه واعتمدوا عليه، وتبرءوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم؛ ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾: فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة؛ فيوفقهم للخيرات ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات



الجزء السادس — سورة النساء، المائدة

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ المَائدَة — مدنية — آياتها ١٢٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

١٠٦

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: يوفقهم للعلم والعمل؛ معرفة الحق والعمل به.

والقسم الثاني: أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه؛ منعهم من رحمته وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبينا، عقوبة لهم على تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ في الكلالة بدليل قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾؛ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد ولهذا قال: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: لا ذكر ولا أنثى، ولا ولد صلب ولا ولد ابن، ولا والد ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ شقيقة أو لأب؛ لا لأم ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث وغير ذلك، وذلك من بعد الدَّين والوصية ﴿وَهُوَ﴾: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ولم يقدرْ له إرثًا؛ لأنه عاصب فيأخذ مالها كله؛ إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فَإِن كَانَتَا﴾ الأختان ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ فما فوق ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث؛ ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: فيسقط فرض الإناث ويعصبهن إخوتهن.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم فضلاً منه وإحسانًا؛ لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلة، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه؛ فيعلّمكم من علمه الذي ينفعكم، على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

(١٧٦) أخرج البزار بإسناد حسن عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: نزلت آية الكلالة على النبي ﷺ في مسير له، فوقف النبي ﷺ؛ فإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقة حذيفة عند مؤتزر النبي ﷺ، فلقاها إياه، فنظر حذيفة؛ فإذا عمر فلقاها إياه، فلما كان في خلافة عمر رضي الله عنه نظر عمر في الكلالة؛ فدعا حذيفة فسأله عنها، فقال حذيفة لقد لقانيها رسول الله ﷺ فلقيتك كما لقاني، والله إني لصادق، والله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبدًا.

تفسير سورة المائدة (*)
وهي مدنية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾: هذا أمر من اللَّه تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود؛ بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، والتي بينه وبين رسوله ﷺ، والتي بينه وبين الخلق.

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم﴾: لأجلكم؛ رحمة بكم ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحمر الوحش، ونحوها من الصيود ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ تحريمه منها ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير متجرئين على قتله في حال الإحرام؛ فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدًا كالظباء ونحوه، والصيد: هو الحيوان المأكول المتوحش ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾: فمهما أراده تعالى حكم به حكمًا موافقًا لحكمته.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: محرماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها، والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح، وعن اعتقاده ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾: ولا تحلوا الهدي الذي يهدى إلى بيت اللَّه في حج أو عمرة أو غيرهما من نعم وغيرها ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾: هذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يفتل له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقه ليعرف أنه هدي فيحترم ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾: قاصدين له ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾: من قصد هذا البيت الحرام، وقَصْدُه فضل اللَّه بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قَصْدُه رضوان اللَّه بحجه وعمرته والطواف به والصلاة وغيرها من أنواع العبادات؛ فلا تتعرضوا له بسوء ولا تهينوه، بل أكرموه، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم، ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم؛ حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم.

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن

(*) أخرج أحمد والنسائي بإسناد حسن عن جبير بن نفير، قال: دخلت على عائشة، فقالت لي: هل تقرأ سورة المائدة؟ قلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه وسألتها عن خلق رسول الله ﷺ؛ قالت: القرآن.

(١) في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا».
وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد؛ قال: قلنا يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه».

(٢) في «الصحيحين» عن أبي بكرة؛ أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

المسجد، على الاعتداء عليهم؛ طلبًا للاشتفاء منهم، بل احكموا بما أمركم اللَّه به من العدل في كل أحد، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨] ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾: ليُعِنْ بعضكم بعضًا على البر؛ وهو: اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، من حقوق اللَّه وحقوق الآدميين.

والتقوى: اسم جامع لترك كل ما يكرهه اللَّه ورسوله، من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾؛ وهو: التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها، ويُحَرَّج ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ وهو التعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد كفُّ نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والأمر بتقواه سبحانه؛ لأنه شديد العقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من عصاه وتجرأ على محارمه، فاحذروا المحارم؛ لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾: أخبر تعالى أنه حرم على عباده الميتة؛ وهي ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضر بآكلها، ويستثنى من ذلك: ميتة الجراد والسمك، فإنه حلال؛ كما ثبت بالسُّنة.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه.

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: ذكر عليه اسم غير اللَّه تعالى من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين.

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجه

(٣) أخرج ابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحل لنا ميتتان ودمان؛ فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال».
وروي موقوفاً، وهو في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بالرأي والقياس.
وأخرج الشيخان عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لا تخزنا ذلك اليوم عيداً! قال: أيّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾؛ قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ: وهو قائم بعرفة يوم جمعة.

حتى تموت.

﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾: الميتة بسبب الضرب بعصا أو حصى، أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾: الساقطة من علو؛ كجبل، أو جدار، أو سطح ونحوه، فتموت بذلك ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: وهي التي تنطحها غيرها فتموت ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ من ذئب، أو أسد، أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع؛ فإنها لا تحل.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾؛ راجع لهذه المسائل: من منخنقة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة، وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها؛ حَلَّتْ.

﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾؛ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، ومعنى الاستقسام: طلب ما يُقسم لكم ويُقدَّر بها، وهي: قداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها: «**افعل**» وعلى الثاني: «**لا تفعل**» والثالث: «**غُفل**» لا كتابة فيه، فحرَّم اللَّه عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾ إشارة لكل ما تقدم من المحرمات التي حرمها اللَّه صيانة لعباده، وأنها فسق؛ أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾؛ اليوم المشار إليه: يوم عرفة؛ إذ أتم اللَّه دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغًا، فلما رأوا عزّ الإسلام وانتصاره وظهوره؛ يئسوا كل اليأس من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم.

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾: فلا تخشوا المشركين، واخشوا اللَّه الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾: بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾: أنجزت وأكملت ﴿عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾: اخترته واصطفيته لكم دينًا، كما ارتضيتكم له ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾: مجاعة ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ﴾: مائل ﴿لِّإِثۡمٖ﴾ بألاَّ يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾. حيث أباح له الأكل في هذه الحال ﴿رَّحِيمٞ﴾ بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

(٤) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ من الأطعمة ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ وهي كلُّ ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: وأحل لكم ما علمتم من الجوارح، والمقصود بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾: لكن الصيد بالجوارح المذكورة مشروط بأن تكون معلَّمة بما يعد في العرف تعليمًا؛ بأن يسترسل إذا أرسل،

---

(٤) في «الصحيحين» عن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله؟ فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن، ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: فإني أرمي بالمِعراض الصيد فأصيب؟ قال: «إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، وإذا أصابه بعَرض؛ فإنه وقيذ، فلا تأكله».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾: أمسكن من الصيد لأجلكم، وأما ما أكل منه الجارح: فإنه لا يحل؛ فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسمِّ اللَّه متعمدًا؛ لم يبح ما قتل الجارح.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم حث تعالى على تقواه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب.

(٥) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾: أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات، وكرر تعالى إحلال الطيبات؛ لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى الإكثار من شكره وذكره ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم يا معشر المسلمين دون باقي الكفار؛ فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿وَ﴾ أحل لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾: الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: أبحنا لكم نكاحهن؛ إذا أعطيتموهن مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾؛ أي: حالة كونكم أيها الأزواج محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾: زانين مع كل أحد ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ وهو: الزنا مع العشيقات ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾: ومن كفر باللَّه تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع؛ فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: إذا أردتم القيام بالصلاة

---

(٥) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهوديًا دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالةٍ سَنْخَةٍ فأجابه.

(٦) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فبعث رسول الله ﷺ رجلًا فوجدها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى آية التيمم، فقال أسيد بن حضير لعائشة: جزاك الله خيراً؛ فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله ذلك لك والمسلمين فيه خيراً.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾: أمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾: وأمر بغسل اليدين، وأن حَدَّهما إلى المرفقين ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾: أمر بمسح الرأس، وأنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس، وقد ثبت ذلك بالسُّنة أيضًا، ولم يصحَّ عنه ﷺ في حديث واحد أنه مسح بعض رأسه ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾: وأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين؛ وهما العظمان الناتئان عن أسفل الساق، إن كانتا مكشوفتين، وهذا على قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنَّصب، وأما من قرأ: (وأرجلِكم) بالخفض؛ فالمقصود به: مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف، وأما مسحهما وهما مكشوفتان كما يفعل الروافض الشيعة؛ فهو مردود بقراءة النصب، وبفعل النبي ﷺ المنقول عنه بالتواتر، ونهيه ﷺ عن المسح على الرجلين وهما مكشوفتان، وقد تكاثرت الأحاديث بذلك.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾: أمر بالغسل من الجنابة، وأن الوضوء لا يكفي، والجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو منامًا، أو جامع ولو لم ينزل.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾: جواز التيمم لوجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: جواز التيمم لوجود السفر ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: جامعتم حليلاتكم ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾: جواز التيمم عند فقد الماء ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، وألاَّ يكون بتراب نجس ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾: أنه يُمسح في التيمم الوجه واليدان إلى الرسغين فقط.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾: إن اللَّه تعالى، فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله؛ ليزداد معرفة وعلمًا، ويزداد شكرًا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

(٧) ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم؛ فإن في استدامة ذكرها داعيًا لشكر اللَّه تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه ﴿وَمِيثَاقَهُ﴾: واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾: عهده الذي أخذه عليكم، والمراد: أنهم بإيمانهم باللَّه ورسوله قد التزموا طاعتهما، وليس المراد مجرد النطق واللفظ، ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب، وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: بما تنطوي عليه من الأفكار

الجزء السادس — سورة المائدة

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

١٠٩

والأسرار والخواطر.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا﴾ بما أُمِروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم؛ بأن تكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأن يكون ذلك القيام لله وحده؛ لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ﴾: لا يحملنكم بغض ﴿قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط؛ بل كما تشهدون لوليكم فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافرًا أو مبتدعًا، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به؛ كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل؛ كملت التقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

(٩) ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: المؤمنين به، وبكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من واجبات ومستحبات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ بالمغفرة لذنوبهم؛ بالعفو عنها وعن عواقبها، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق؛ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

(١١) أخرج الشيخان عن جابر؛ أن النبي ﷺ نزل منزلًا، وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها، وعلّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله» قال: الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؛ والنبي ﷺ يقول: «الله» قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه. وكان قتادة يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم كما يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة؛ فليعدوا - أيضًا - إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: ويعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ويتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا باللَّه تعالى في حصول ما يحبون، وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله.

(١٢) ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أخذ عليهم عهدهم المؤكد الغليظ ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ رئيسًا وعريفًا على من تحته، ليكون ناظرًا عليهم، حاثًا لهم على القيام بما أمروا به ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ بالعون والنصر؛ فإن المعونة بقدر المؤنة ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا؛ بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستحقيها ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ ﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾؛ أي: عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب؛ ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات ﴿فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالأيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه؛ ﴿مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الظالمون من حرمان الثواب، وحصول العقاب.

(١٣) ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات: ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد اللَّه معنى غير ما أراده اللَّه ورسوله ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾؛ فإنهم ذكِّروا بالتوراة وبما أنزل اللَّه على موسى، فنسوا نصيبًا منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم اللَّه إياه عقوبة منه لهم، وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ وهذه العقوبة الخامسة التي عاقبهم اللَّه بها؛ الخيانة المستمرة لله ولعباده المؤمنين، ومن أعظم الخيانة منهم: كتمهم عن من يعظمهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإبقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ فإنهم وفوا بما عاهدوا اللَّه عليه فوفقهم وهداهم للصراط المستقيم ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى، الذي يقتضي أن يعفى عنهم، ﴿وَٱصۡفَحۡۚ﴾؛ فإن ذلك من الإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

والإحسان: هو أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك. وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

(١٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان باللَّه ورسله وما جاءوا به، فنقضوا العهد ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ نسيانًا علميًّا ونسيانًا عمليًّا ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضي بغض بعضهم بعضًا، ومعاداة بعضهم بعضًا إلى يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ فيعاقبهم عليه في الآخرة.

(١٥) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أمر أهل الكتاب جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية دالة على صحة نبوته، وهي: أنه يبين لهم كثيرًا مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم، فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بيّن به ما كانوا يتكاتمونه بينهم - وهو أُمّي لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾: وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم.

(١٦) ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾؛ أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسنًا ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ التي يسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام؛ وهو العلم بالحق والعمل به إجمالاً وتفصيلاً ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ : ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ : إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: وهو الإسلام، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

(١٧) ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به، بل نقضوه؛ ذكر أقوالهم الشنيعة، فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم؛ بأن اللَّه هو المسيح ابن مريم، فرد اللَّه عليهم بأدلة عقلية واضحة: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد اللَّه أن يهلكهم، ولا قدرة لهم على ذلك؛ دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

﴿وَ﴾ ومن الأدلة: أن ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير إلهًا غنيًّا من كل وجه؟! هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب؛ فإن اللَّه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: إن شاء من أب وأم؛ كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم؛ كحواء، وإن شاء من أم بلا أب؛ كعيسى، وإن شاء من غير أب ولا أم؛ كآدم، فنوَّع خليقته تعالى بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الجزء السادس — سورة المائدة

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

ع ٧

١١١

(١٨) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ ومن مقالات اليهود والنصارى: أن كلًّا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكّون بها أنفسهم؛ بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، والابن في لغتهم: هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية؛ فإن هذا ليس من مذهبهم؛ إلا مذهب النصارى في المسيح.

فقال اللَّه ردًّا عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تجري

(١٨) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فخفضهم النبي ﷺ فقال: «لا، ولا يُلقي الله حبيبه في النار».

عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة، أو أسباب العذاب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: فأيُّ شيء خصكم بهذه الفضيلة؛ وأنتم من جملة المماليك، ومن جملة من يرجع إلى اللَّه في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم؟

(١٩) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب بسبب ما منَّ عليهم من كتابه أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا اللَّه تعالى الذي أرسله إليهم ﴿عَلَىٰ﴾ حين ﴿فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه، وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع اللَّه بذلك حجتهم؛ لئلا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها، وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: انقادت الأشياء طوعًا وإذعانًا لقدرته؛ فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته: أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم، ويعاقب من عصاهم.

(٢٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ لما امتن اللَّه على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم؛ ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم - وهي بيت المقدس وما حواليه -، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان اللَّه قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم، فوعظهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وذكَّرهم ليقدموا على الجهاد، فقال لهم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: تملكون أمركم؛ بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على اللَّه تعالى، وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

(٢١) ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: كتب اللَّه لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾: ترجعوا ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾: قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم، وآخرتكم بما فاتكم من الثواب.

(٢٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ﴾: قالوا له قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخَوَر نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر اللَّه ورسوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ شديدي القوة والشجاعة، فهذا من الموانع لنا من دخولها ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟

---

(١٩) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم؛ لأنه لا نبي بيني وبينه».

(٢٠) أخرج مسلم أن رجلًا قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم؛ لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه اللَّه بقوة من عنده؛ فإنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم؛ إذ وعدهم اللَّه بذلك وعدًا خاصًا.

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ اللَّه تعالى مشجعين لقومهم على قتال عدوهم ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم؛ فإنهم سينهزمون ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ فإن في التوكل على اللَّه ـ وخصوصًا في هذا الموطن ـ تيسيرًا للأمر، ونصرًا على الأعداء.

(٢٤) ﴿قَالُواْ﴾ فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾: فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم!!

(٢٥) فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: احكم بيننا وبينهم؛ بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ اللَّه مجيبًا لدعوة موسى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها اللَّه لهم مدة أربعين سنة، وتلك المدة - أيضًا - يتيهون في الأرض؛ لا يهتدون إلى طريق، ولا يبقون مطمئنين ولما علم اللَّه تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق ـ خصوصًا قومه ـ ، وأنه ربما رقَّ لهم واحتملته

---

(٢٤) أخرج أحمد والطبراني وابن مردويه بإسناد حسن عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «ألا تقاتلون؟» قالوا: نعم، ولا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

الشفقة والحزن عليهم في هذه العقوبة ـ أو الدعاء لهم بزوالها ـ ؛ قال له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: لا تأسف عليهم ولا تحزن؛ فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم، لا ظلمًا منا.

(٢٧) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابنيْ آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾: أخرج كل منهما شيئًا من ماله؛ لقصد التقرب إلى اللّه ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾: بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم: أن علامة تقبُّل اللّه للقربان أن تنزل نار من السماء فتحرقه ﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسدًا وبغيًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾!! فقال له الآخر ـ مترفقًا له في ذلك ـ : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: فأيُّ ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟! إلا أني اتقيت اللّه تعالى، الذي تقواه واجبة عليَّ وعليك، وقوله: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لله في ذلك العمل؛ بأن يكون عملهم خالصًا لوجه الله.

(٢٨) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾: أخبره أنه لا يريد أن يتعرض لقتله - لا ابتداء، ولا مدافعة -، ﴿إِنِّيٓ﴾ وليس ذلك جبنًا مني ولا عجزًا؛ وإنما ذلك لأني ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والخائف لله لا يقدم على الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار.

(٢٩) ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾: ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً، أو تقتلني؛ فإني أوثر أن تقتلني، فتبوء بالوزرين ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خَوَّفه بالنار؛ فلم ينته ولم ينزجر، ودلت الآية على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾: فحسَّنت وسوَّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السُّنة السيئة لكل قاتل؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

(٣١) لما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ فهو أول ميت من بني آدم ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ﴾ بدنه، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ لقلة النفع بقتله؛ فإنه أسخط والديه، وهكذا عاقبة المعاصي: الندامة والخسارة.

---

(٢٨) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها تكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: فقلت: يا رسول الله، أرأيت إن دخل على بيتي وبسط يده ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «كن كابن آدم» وتلا يزيد-وهو شيخ أبي داود -: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٣٠) أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً؛ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل».

(٣٢) ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾: الذي ذكرناه في قصة ابنيْ آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسَنّه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة، وخسارة في الدنيا والآخرة؛ ﴿كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾: بغير حق، وغير سبب من قصاص ﴿أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أو قتلها على وجه الإفساد في الأرض؛ ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعوه إلى القتل، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل؛ علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء، فتجرؤه على قتله؛ كأنه قتل الناس جميعًا ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾: وكذلك من أحيا نفسًا؛ أي: استبقى أحدًا، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف اللَّه تعالى من قتله؛ فهذا كأنه أحيا الناس جميعًا ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالحجج والدلائل الواضحة التي لا يبقى معها عذر لأحد ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم﴾: من الناس ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسۡرِفُونَ﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: الذين بارزوه بالعداوة ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾: وأفسدوا في الأرض؛ بالكفر، والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: فأخبر اللَّه أن جزاءهم ونكالهم ـ عند إقامة الحد عليهم ـ أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور على التخيير: إما القتل، أو الصلب، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ـ اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس ـ أو النفي، يفعل بهم الإمام ـ أو نائبه ـ ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة ﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال ﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: عذاب النار

الجزء السادس — سورة المائدة

مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾

١١٣

(٣٣) أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه؛ قال: قدم أناس من عُكْل أو عُرَينة، فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا، فلما صَحُّوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا النَّعَم، فجاء الخبر في أول النهار، فبعث في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم؛ فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، وسُمِرَتْ أعينهم، وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون. قال أبو قِلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله.

الجزء السادس — سورة المائدة

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)

ربع الحزب ١٢

١١٤

وسخط الجبار.

(٣٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ من هؤلاء المحاربين؛ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: يسقط عنه ما كان لله؛ من تحتم القتل، والصلب، والقطع، والنفي، ومن حق الآدمي أيضًا؛ إن كان المحارب كافرًا ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلمًا؛ فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه تمنع من إقامة الحد في الحرابة؛ فغيرها من الحدود - إذا تاب من فعلها قبل القدرة عليه - من باب أولى.

(٣٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾: هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان؛ من تقوى الله، والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد، ويبذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله؛ من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة، ويستعين بالله على تركها؛ لينجو بذلك من سخط الله وعذابه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه، واجتناب محارمه ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ الجهاد: هو بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك، والفلاح: هو الفوز بكل مطلوب، والنجاة من كل مرهوب.

(٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾، ولا أفاد؛ لأن محل الافتداء قد فات، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولم يبق إلا العذاب الأليم: الموجع الدائم.

(٣٧) ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم

---

(٣٥) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته؛ إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة».

(٣٦ - ٣٧) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع. فيقول: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟ قال: فيقول: نعم يا رب. فيقول: كذبت! قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل. فيؤمر به إلى النار».

﴿بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ الذي لا يخرجون منه أبدًا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ بل هم ماكثون فيه سرمدًا.

(٣٨) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه، والسرقة من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة؛ وهو قطع اليد، وقد بينت السُّنة المطهرة أن موضع القطع: الرسغ، والسرقة لابد أن تكون بلغت ربع دينار فصاعدًا ـ أو ما يعادلها ـ، ولابد أن تكون من حرز؛ كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة.

﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾؛ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنكيلاً وترهيبًا للسارق ولغيره؛ ليرتدع السراق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره ونهيه، وشرعه وقدره.

(٣٩) ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فيغفر لمن تاب؛ فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب.

(٤٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما بما يشاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة؛ بحسب ما اقتضته حكمته، ورحمته الواسعة، ومغفرته.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾: وهو المصرُّ على المعاصي في باطنه وظاهره ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: وهو المنيب إلى ربه، الأوّاب إليه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

(٤١) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده اللَّه تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء؛ فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير: إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم: من كان معدودًا من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهرًا وباطنًا، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا؛ فإن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبغ به بدلاً.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: اليهود ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب

---

(٣٨) أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة؛ فتقطع يده، ويسرق الحبل، فتقطع يده».

(٤١) أخرج مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: مُرَّ على النبي ﷺ يهودي مُحَمَّماً مجلوداً فدعاهم ﷺ؛ فقال: «هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى! أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا؛ فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع. فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» فأمر به؛ فرجم، فأنزل الله - عز وجل - ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ
وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ
بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ
قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن
لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

والضلال والغي، وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ بل أعرضوا عنك ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: يجلبون معاني للألفاظ ما أرادها اللّٰه ولا قصدها؛ لإضلال الخلق، ولدفع الحق، فهؤلاء المنقادون لدعاة الضلال لا عقول لهم، ولا همم، فلا تبال بهم ـ أيضًا ـ إذا لم يتبعوك؛ لأنهم في غاية السفه والنقص ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾: يقول بعضهم لبعض عند محاكمتهم إليك: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق هواكم؛ فاقبلوا حكمه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾: وإن لم يحكم لكم به؛ فاحذروا أن تتابعوه على ذلك.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾: كفره، وضلالته، وهلاكه ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: فلن تقدر على دفع أمر اللّٰه فيه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾: من كان مقصوده بالتحاكم إلى الشرع اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي وإن لم يحكم له سخط؛ فإن ذلك من عدم طهارة قلبه، فطهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد، لكن لما فسدت قلوب هؤلاء، واتبعوا أهواءهم؛ صدر منهم ما صدر، فـ ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ وهو: النار وسخط الجبار.

(٤٢) ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾؛ أي: من قلة دينهم وعقلهم أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب، والمراد بالسمع - هاهنا -: الاستجابة؛ كما في قول المصلي: «سمع اللّٰه لمن حمده»؛ أي: استجاب، ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾: المال الحرام؛ من رشوة ونحوها ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ خير اللّٰه تعالى رسوله عند تحاكم هذا الصنف إليه: بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم؛ لأنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي، إلا أن يكون موافقًا لأهوائهم ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾: فلا عليك ألا تحكم بينهم؛ فلن يقدروا لك على ضُرّ دين ولا دنيا ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة وأعداء؛ فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في الحكم بين الناس.

(٤٣) ثم قال متعجباً منهم: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾: أي: كيف يجعلونك حكماً بينهم فيرضون بحكمك ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾: مع أن ما يحكّمونه فيه هو موجود عندهم في التوراة ـ

كالرجم ونحوه ـ؟! ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ﴾؛ أي: من بعد تحكيمهم لك ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هذا صنيعهم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه؛ لم يعرضوا عن حكم الله.

(٤٤) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة ﴿وَنُورٌۚ﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ لله وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة اللّه من العباد ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ أي: بين الذين هادوا ـ وهم اليهود ـ في القضايا والفتاوى ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾: وكذلك يحكم بالتوراة بين اليهود أئمة الدين من الربانيين ـ العلماء العاملين، المعلمين ـ الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين، ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم، وذلك الحكم الصادر منهم، الموافق للحق ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بسبب أن اللّه استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ﴾: على كتاب اللّه ﴿شُهَدَآءَ﴾: رقباء يحمونه عن التغيير والتبديل، فهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه، فهم مطالبون أن يعلِّموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾: وهم رؤساء اليهود؛ ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾بل يخشون ربهم، وأن يكونوا خائفين من ربهم وحده، ولا يمنعهم خوفهم وخشيتهم من القيام بما هو لازم لهم ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾: فتكتموا الحق، وتظهرون الباطل؛ لأجل متاع الدنيا القليل.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه؛ لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل اللّه من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة؛ وذلك إذا اعتقد حِلَّه وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، وقد استحق من فعله العذاب الشديد.

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾: هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة أوجب اللّه عليهم فيها أن النفس ـ إذا قتلت ـ تقتل بالنفس؛ بشرط العمد والمكافأة، والعين تقلع بالعين، والأنف يجدع بالأنف، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن ينزع بالسن، وما أشبهها من

---

(٤٥) في «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر».

أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» والطبري بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح في جسده جراحة، فيتصدق بها؛ إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به».

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ والاقتصاص: أن يفعل به كما فعل؛ حدًّا، وموضعًا، وطولاً، وعرضًا، وعمقًا ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقصاص في النفس، وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا عمن جنى وثبت له الحق قبله؛ ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾؛ أي: كفارة للمتصدق ـ العافي ـ، يكفر الله عنه بها ذنوبه وزلاته ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ قال ابن عباس: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق؛ فهو ظلم أكبر عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا﴾؛ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾؛ يعني: أنبياء بني إسرائيل، الذين يحكمون بالتوراة ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: مؤمنًا بها، حاكمًا بما فيها، وموافقًا لها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾: الكتاب العظيم المتمم للتوراة ﴿فِيهِ هُدًى﴾: يهدي إلى الصراط المستقيم ويبين الحق من الباطل ﴿وَنُورٌ﴾ يستضاء به في إزالة الشبهات، وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: متبعًا لها، غير مخالف لما فيها؛ إلا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي به ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ أي: زاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: لمن اتقى اللّه وخاف وعيده وعقابه.

(٤٧) ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق.

(٤٨) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، ومشتملاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة ـ التوراة والإنجيل ـ، المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند اللّه على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به؛ مما زادها صدقًا عند حامليها الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾؛ أي: أمينًا، وشاهدًا، وحاكمًا على كل كتاب قبله، فجعل اللّه ﷻ هذا الكتاب

العظيم ـ الذي هو آخر الكتب وخاتمها ـ أشملها وأعظمها وأحكمها؛ حيث جمع محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾؛ أي: فاحكم يا محمد بين الناس ـ عربهم وعجمهم، أُمّيّهم وكتابيّهم ـ ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرّره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: آراءهم الفاسدة المعارضة للحق، التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل اللّه على رسوله ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك اللّه به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ﴾ أيها الأمم ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ سبيلاً وسنة ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ أي: لو شاء اللّه لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شيئًا منها؛ ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾؛ أي: أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة؛ ليختبر عباده فيما شرع لهم، فينظر كيف يعملون؟ فيثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾: سارعوا وبادروا إلى ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾؛ وهي طاعة اللّه واتباع شرعه.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾؛ أي: معادكم أيها الناس، ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين المكذبين بالحق، العادلين عنه.

(٤٩) ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: هذا تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾؛ أي: واحذر أعداءك اليهود أن يضلوك عنه ويصرفوك؛ بسبب أهوائهم التي يريدون منك أن تعمل بها، فلا تغترَّ بهم؛ فإنهم كذبة، كفرة، خونة، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل اللّه عليك، وخالفوا شرع الله؛ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾؛ أي: فاعلم أن ذلك كائن عند قدر اللّه وحكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى وقبول الحق؛ لما عليهم من الذنوب ـ وهو ذنب الإعراض عما جئت به، والتولي عنك ـ، التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق، ناؤون عنه، متمردون عن قبوله.

(٥٠) ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾؛ أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم اللّه يعدلون؟!، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: أيعرضون عن حكمك بما أنزل اللّه عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية - وهو ضلالات وجهالات

---

(٤٩) أخرج ابن أبي حاتم والطبراني في «الكبير» والحاكم والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان النبي ﷺ مخيراً: إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم؛ فنزلت: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

(٥٠) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق؛ ليريق دمه».

الجزء السادس — سورة المائدة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

وضعها الرجال بأهوائهم وآرائهم؛ بلا مستند من شريعة الله - ؟! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: ومن أعدل من اللّه في حكمه لمن عقل عن اللّه شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين؟! لا أحد أعدل منه سبحانه، ولا أحسن منه حكمًا.

(٥١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ ينهى اللّه تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، لاسيما بعد أن بين لهم أحوالهم السيئة، وصفاتهم غير الحسنة، والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء: أن يعاملوا معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة؛ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتناصرون ويتعاونون فيما بينهم، ويكونون يدًا على من سواهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ فيوافقهم ويعنهم؛ ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ فإنه من جُملتهم، وفي عِدادهم، وهذا فيه تهديد ووعيد لمن يتعاطى ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين وصْفُهم الظلم، وإليه يَرجعون، وعليه يعوِّلون؛ فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

(٥٢) ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك وريب ونفاق، وضعف إيمان، ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم ومعونتهم في الباطن والظاهر ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾؛ أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، وأن يكون لهم دولة، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يعز اللّه به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين - من اليهود وغيرهم - ؛ ﴿فَيُصْبِحُوا﴾؛ يعني: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسَرُّوا﴾: أضمروا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من موالاتهم ودسّ الأخبار إليهم ﴿نَادِمِينَ﴾ على ما كان منهم، وضرهم بلا نفع حصل لهم - مما لم يُجدِ عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم محذورًا - ؛ بل كان عين المفسدة: فإنهم فضحوا، وأظهر اللّه أمرهم في الدنيا لعباده

---

(٥١) أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين؛ قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين ـ لا يدرى حالهم ـ ؛ فندموا، وحصل لهم من الغم ما اللَّه به عليم؛ لبطلان الأسباب التي تخيَّلوها، وانكشاف خلافها.

(٥٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: حلفوا، وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة؟! فظهر ما أضمروه، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله باطلاً، فبطل كيدهم و﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بطل كل خير عملوه ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ خسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفوات الثواب.

(٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾: يخبر تعالى عن قدرته العظيمة، وأنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه ـ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل ـ ؛ فلن يضر اللَّه شيئًا، وإنما يضر نفسه؛ فإن لله عبادًا مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأقواهم نفوسًا، أجلُّ صفاتهم:

ـ أن اللَّه ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وإذا أحبَّ اللَّه عبدًا، يسَّر له الأسباب، وهوّن عليه الصعاب، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

ـ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ يعني: أرقاء، رحماء بهم، متواضعين لهم. ولم يرد به الهوان؛ بل أراد به أن جانبهم لين على المؤمنين.

ـ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أشدَّاء غلاظ على الكفار، يعادونهم ويغالبونهم.

ـ ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، وأقوالهم وأفعالهم.

ـ ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾؛ أي: لا يردهم عما هم فيه من طاعة اللَّه وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لومة لائم، ولا عذل عاذل.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ أي: من اتصف بهذه الصفات؛ فإنما هو من فضل اللَّه عليه، وتوفيقه له عليهم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: واسع الفضل والإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيعطيه، ممن يحرمه إياه.

(٥٥) لما نهى تعالى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين أخبر تعالى مَنْ يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: فولاية اللَّه تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمنًا تقيًا؛ كان لله وليًا، ومن كان وليًا لله؛ فهو ولي لرسوله، ومن تولى اللَّه ورسوله؛ كان تمام ذلك تولي من تولاه وهم المؤمنون ، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذين قاموا بالإيمان ظاهرًا

---

(٥٤) أخرج ابن أبي شيبة وابن سعد والطبراني في «الكبير» وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» بإسناد صحيح عن عياض الأشعري رضي الله عنه ؛ قال: لما نزلت: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا» وأشار إلى أبي موسى الأشعري.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِۦ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

وباطنهم، وأخلصوا للمعبود ومن صفاتهم أنهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ بشروطها، وفروضها، ومكمِّلاتها، وهي حق اللَّه وحده ـ لا شريك له ـ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ التي هي حق المخلوقين، ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ خاشعون خاضعون لله، متذللون له بالطاعة.

وقد توهّم بعض الناس أن هذه الجملة ـ ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ ـ في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: في حال ركوعهم!! ولو كان هذا كذلك؛ لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى.

وقد زعم بعضهم: أن هذه الآية نزلت خاصة في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل ادعى بعضهم ـ كذبًا ـ أنهم أجمعوا على أنها نزلت في علي!!! وهذا من أعظم الدعاوى الكاذبة؛ بل أجمع أهل العلم بالنقل على أنها لم تنزل في عليٍّ بخصوصه، وأن عليًّا لم يتصدق بخاتمه في الصلاة، وأجمع أهل العلم بالحديث على أن القصة المروية في ذلك من الكذب الموضوع.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ يعني: يتولى القيام بطاعة الله، ونصرة رسوله والمؤمنين ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ المنصورون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ﴾ ينهى اللَّه تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ أعداء الإسلام وأهله من أهل الكتاب- اليهود والنصارى - والمشركين أولياء: يحبونهم ويتولّونهم، ويبدون أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون؛ وهي شرائع الإسلام المطهرة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها ﴿هُزُوًا﴾: يستهزئون بها ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء، فالتزامكم بالتقوى ـ التي هي امتثال أوامره، واجتناب زواجره ـ مما يدعوكم إلى معاداتهم وترك موالاتهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرع اللَّه الذي اتخذه هؤلاء هزوًا و لعبًا.

(٥٨) ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ إذا أذّنتم داعين إلى الصلاة، التي هي أظهر شعائر المسلمين وأجل عباداتهم وأعمالهم ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ على وجه

الاستخفاف والاحتقار والاستصغار ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾: وذلك لعدم عقلهم، ولجهلهم العظيم بمعاني عبادة اللّه وشرائعه؛ فإن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش، وإلا؛ فلو كان لهم عقول؛ لخضعوا لها، ولعلموا أنها أفضل الأعمال.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون - حال الكفار، وشدة معاداتهم لكم ولدينكم؛ فمن لم يعادهم بعد هذا؛ دلَّ على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه، وأنه ليس عنده من المروءة والغيرة شيء؛ فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا، وسخر به وبأهله؟!! وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم.

(٥٩) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: قل يا أيها الرسول لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ هل تعيبون - أو تطعنون، أو تكرهون - منا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾أي: القرآن الكريم ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: كتب اللّه المنزلة على أنبيائه المتقدمين؟! فهل لكم علينا مطعن - أو عيب - إلا هذا؟! وهذا ليس بعيب ولا مذمّة ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون؛ أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون - السكوت.

(٦٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي نقمتم فيه علينا مما تظنونه بنا، مع التنزل معكم ﴿مَثُوبَةً﴾: جزاء ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة ؟! والجواب: هم أنتم - أيها اليهود - ، الذين هم متصفون بهذه الصفات ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: أبعده عن رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ غضبًا لا يرضى بعده أبدًا، وهم المشار إليهم بقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾؛ أي: مسخ بعضهم قردة - وهم أصحاب السبت - ، وبعضهم خنازير - وهم كفار مائدة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: وجعل منهم من عَبَدَ الطاغوت؛ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله: فهو طاغوت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وأبعد عن قصد طريق الحق.

(٦١) ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾؛ يعني: المنافقين منهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ أي: أظهروا الإسلام نفاقًا ومكرًا ﴿وَ﴾ هم ﴿قَد دَّخَلُواْ﴾ عندك يا محمد ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: خرجوا وهو كامن في قلوبهم، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منكم من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ بل خرجوا كما دخلوا ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾؛ أي: والله عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم؛ فإن اللّه أعلم بهم منهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

(٦٢) ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾: من اليهود ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى

---

(٦٠) أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله تعالى؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسخ قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك».

﴿ٱلْإِثْمِ﴾: يحرصون ويبادرون إلى تعاطي المآثم والمحارم ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: والاعتداء على الناس ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾: وأكل أموالهم بالباطل، والسحت: هو الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لبئس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم، وهذا في غاية الذم لهم، والقدح فيهم.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾؛ أي: هلاَّ ينهاهم الربانيون والأحبار عن المعاصي التي تصدر منهم، وعن تعاطي ذلك؛ ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة اللَّه عليهم؟! والربانيون: هم العلماء العاملون، أرباب الولايات عليهم، والأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾: هذا توبيخ لعلمائهم في تركهم لنهيهم، فوبَّخ سبحانه الخاصة منهم ـ وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصي، لذلك قال: ﴿يَصْنَعُونَ﴾.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: يخبر تعالى عن مقالة اليهود ـ عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة ـ الشنيعة، وعقيدتهم الفظيعة: بأنهم وصفوا اللَّه ﷻ - وتعالى - عن قولهم علوًّا كبيرًا ـ بأنه بخيل؛ كما وصفوه بأنه فقير، وهم أغنياء!! وعبَّروا عن البخل بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؛ أي: عن الخير، والإحسان والبر؛ فرد اللَّه ﷻ عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: هذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم؛ أي: أُمسكت أيديهم عن الخيرات ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾: أبعدوا من رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء، وعذِّبوا. فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقًا عليهم، وهكذا وقع لهم؛ فكانوا أبخل الناس، وأكثرهم حسدًا وجبنًا، وأقلهم إحسانًا، وأسوأهم ظنًّا بالله، وأبعدهم عن رحمته، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من اللَّه.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: يد اللَّه صفة من صفاته؛ كالسمع، والبصر، والوجه، وقال ـ جل ذكره ـ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقال النبي ﷺ: «**كلتا يديه يمين**». واللَّه أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السُّنة في هذه الصفات: «**أمرُّوها كما جاءت؛ بلا كيف**» ﴿يُنفِقُ﴾: يرزق ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: فلا حَجْر عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، فهو واسع الفضل، جزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾: وهذا من أعظم العقوبات على العبد: أن يكون الذِّكْر الذي أنزله اللَّه على رسوله ـ الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر مِنَّة امتن اللَّه بها على عباده ـ نقمة في حق أعدائه من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به

(٦٣) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن جرير بن عبد الله ﵁؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون أن يغيروا عليه، فلا يغيرون إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا».

(٦٤) أخرج الشيخان عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة سَحَّاءُ الليلَ والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه» قال: «وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى القبض: يرفع ويخفض».

المؤمنون تصديقًا وعملاً صالحًا وعلمًا نافعًا؛ يزداد به الكفرة الحاسدون ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾؛ وهو المبالغة، والمجاوزة للحد في الأشياء ﴿وَكُفۡرٗاۚ﴾؛ أي: تكذيبًا ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ﴾: بين اليهود ﴿ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فلا تجتمع قلوبهم، ولا يتآلفون، ولا يتناصرون، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم، والعداوة واقعة بين فرقهم دائمًا إلى يوم القيامة ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ﴾: كلما جمعوا للحرب جمعًا، وأعدوا لها عُدة، وعقدوا أسبابًا ليكيدوا بها الإسلام وأهله؛ ﴿أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾: أبطلها الله، وخذلهم وردّ كيدهم عليهم، وشتت جمعهم، وذهب بريحهم؛ فلم يظفروا بطائل، ولا عادوا بفائدة ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾: يجتهدون ويجِدُّون في فعل ما هو فساد في الأرض؛ بعمل المعاصي، والدعوة إلى دينهم الباطل، وإبطال الإسلام وكيد أهله، والتعويق عن الدخول فيه ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم على ذلك.

(٦٥) ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: لو أن المتمسكين بالكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ ﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الذي طلبه اللَّه منهم، ومن أهمه: الإيمان بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ المعاصي والمآثم، التي من أعظمها: ما هم عليه من الشرك والجحود لما جاء به رسول الله؛ ﴿لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ التي اقترفوها، ولو

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾

كانت ما كانت ﴿وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

(٦٦) ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾؛ أي: قاموا بأوامرهما ونواهيهما، وعملوا بما فيهما من الأحكام على ما هي عليه؛ من غير تحريف، ولا تغيير، ولا تبديل، ومن إقامتهما: الإيمان بما دعيا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، والأمر باتباعه، حتمًا لا محالة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ من سائر كتب الله، التي من جملتها القرآن؛ ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾: لأدر اللَّه عليهم الرزق،

(٦٦) أخرج أحمد وابن ماجه بإسناد صيحيح لغيره عن زياد بن لبيد رضي الله عنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً؛ فقال: «وذاك عند ذهاب العلم» قال: قلنا: يا رسول الله! وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أَوَليس هذه اليهود والنصارى: يقرؤون التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون بما فيها بشيء».

ولأمطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض ﴿مِّنْهُمْ﴾: من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾: عاملة بالتوراة والإنجيل عملاً معتدلاً؛ غير قوي، ولا نشيط، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: والمسيء منهم الكثير.

(٦٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ باسم الرسالة، وآمرًا له بأعظم الأوامر وأجلها: بلغ جميع ما أنزل اللّه إليك وأرسلك به. وقد امتثل ﷺ ذلك وقام به أتم القيام ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ ما أمرت به من تبليغ ما أنزل إليك من ربك؛ ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾: فما امتثلت أمره ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: يحفظك ويمنعك ويحميك من الناس، وينصرك ويؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم؛ فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم؛ فإن اللّه لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير، بسبب كفرهم.

(٦٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: قل يا محمد لأهل الكتاب، مناديًا على ضلالهم، ومعلنًا بباطلهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الأمور الدينية؛ فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق تمسكتم، ولا على أصل اعتمدتم ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾؛ أي: حتى تؤمنوا بجميع ما في التوراة والإنجيل، وتقيموا أحكامهما، وتعملوا بما يجب عليكم فيهما من أوامر اللّه ونواهيه، التي من جملتها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشرعه ﴿وَ﴾ تقيموا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم. فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة اللّه وعهده.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾؛ أي: مَنْ لم يُسْلم مِنهم ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ وهو القرآن الكريم ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾: كفرًا إلى كفرهم، وطغيانًا إلى طغيانهم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تحزن ولا تأسف عليهم؛ فإن ضرر ذلك راجع إليهم، ونازل بهم.

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ هم المسلمون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ اليهود، حملة التوراة ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾: طائفة بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين، وقيل: بين اليهود والنصارى. وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، والتقدير: والصابئون والنصارى كذلك، قال الخليل بن أحمد وسيبويه: الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ حملة الإنجيل ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بالقلب، وقيل: الذين آمنوا على حقيقة

(٦٧) أخرج الترمذي بإسناد حسن لغيره عن عائشة ﵂؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرس؛ فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «أيها الناس، انصرفوا، فقد عصمني الله من الناس».

الإيمان ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ وهو المعاد، والجزاء يوم الدين ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بجوارحه، ولا يكون صالحًا حتى يكون موافقًا للشريعة المحمدية، بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، بل لهم الأمن التام ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوا منها وراء ظهورهم.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: يذكر تعالى أنه أخذ العهود الثقيلة والمواثيق المؤكدة على بني إسرائيل على الإيمان بالله، والسمع والطاعة له ولرسوله، والقيام بواجباته ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد؛ ولكن ذلك لم ينجع فيهم، ولم يفد، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموها على الشرائع؛ فما وافقهم قبلوه، وما خالفهم ردّوه، ولهذا قال: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾ ولم يتعرضوا لهم بضرر ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخر منهم ﴿يَقْتُلُونَ﴾.

(٧١) ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: ظن هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابًا ولا عقوبة، وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فاستمروا على باطلهم وطغيانهم، فوقع خلاف ما ظنوه، وعاقبهم الله: ﴿فَعَمُوا۟﴾ عن الحق؛ فلم يبصروه، ﴿وَصَمُّوا۟﴾ عنه؛ فلم يسمعوه، ولم يهتدوا إليه ﴿ثُمَّ﴾ نعشهم و﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه وأنابوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة

وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

فـ﴿عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: مطلع عليهم، وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم، فيجازي كل عامل بعمله: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(٧٢) ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾: يقول تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى ـ من الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية ـ ممن قال منهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ـ تعالى الله عن قولهم، وتنزه وتقدس علوًّا كبيرًا ـ؛ وذلك بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن

قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله؛ بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمرًا لهم بعبادة اللَّه ربه وربهم، وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾: فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فيعبد معه أحدًا من المخلوقين؛ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: فقد أوجب اللَّه له النار، وحرم عليه الجنة؛ وذلك لأنه سوّى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه اللَّه له ـ وهو العبادة الخالصة ـ لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: من ناصرين ومعينين ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

(٧٣) ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا: أن اللَّه ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم!! تعالى اللَّه عن قولهم علوًّا كبيرًا، فقال سبحانه وتعالى رادًّا عليهم ـ وعلى أشباههم ـ هذه الدعوى الباطلة: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: ليس متعددًا؛ بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه؛ فكيف يجعل معه إله غيره؟!! تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من هذا الافتراء والكذب؛ ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة؛ من الأغلال، والنكال.

(٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾: هذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه؛ مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد اللَّه ورسوله، وعما كانوا يقولونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ عن ما صدر منهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

(٧٥) ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾: هذا غايته ومنتهى أمره، أنه عبد من عباد اللَّه المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به اللَّه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: قد مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾؛ فهو من جنس الرسل قبله ليس هو بإله، فلا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿وَأُمُّهُۥ﴾ مريم ﴿صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: مؤمنة، مصدقة له، وهذا غايتها وأعلى مقاماتها؛ فدل على أنها ليست بنبية؛ فضلاً أن تكون إلهًا معبودًا؛ بل كانت من الصديقين، الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء، وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾: دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان ـ كما يحتاج بنو آدم ـ إلى الطعام والشراب ـ التغذية ـ ، وإلى خروجه منهما، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء يقيم أبدانهما؛ فإن الإله هو الغني الحميد.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الموضحة المظهرة للحق، الكاشفة لليقين، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ

أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟ فهي لا تفيد فيهم شيئًا، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

(٧٦) ﴿قُلْ﴾يا محمد، لهؤلاء العابدين غير اللَّه - إلزامًا لهم، وقطعًا لشبهتهم - : ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا يقدر على دفع ضر عنكم، ولا إيصال نفع إليكم، ومن كان لا ينفع ولا يضر! فكيف تتخذونه إلها وتعبدونه، وأي سبب يقتضي ذلك؟ ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء؛ فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئًا، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا لغيره ولا لنفسه؟!

(٧٧) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لا تتجاوزوا وتتعدوا الحدّ في الحق إلى الباطل، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه؛ فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيّز النبوة إلى مقام الإلهية؛ كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهًا من دون الله!! ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾: هذا بيان لسبب غلوهم وتعديهم؛ أي: وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم - شيوخ الضلال - ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذي هم عليه ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: خرجوا عن

الجزء السادس — سورة المائدة

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

١٢١

طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر اللَّه منهم ومن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة.

(٧٨) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: طردوا وأبعدوا عن رحمة اللَّه ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾: بسبب عصيانهم لله ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ واعتدائهم على خلقه، وظلمهم لعباد الله.

(٧٩) ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضًا عن

(٧٩) أخرج أبو داود والطبراني بإسناد حسن عن العُرْس بن عميرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها».

ارتكاب المآثم والمحارم، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيم لربهم: لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ذمهم على ذلك - من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره - ؛ ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوا.

(٨٠) ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ بالمحبة والموالاة والنصرة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: المشركين من عبدة الأوثان.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: بئس ما قدموا من العمل - يعني: موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين - لمعادهم في الآخرة؛ فأوجب ذلك لهم ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: غضب الله عليهم ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ﴾ المهين الأليم يوم القيامة ﴿هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منه، ولا يُفتَّرُ عنهم.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾: القرآن، ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾؛ يعني: الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ من دون المؤمنين، ولما ارتكبوا ما ارتكبوه من معاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾؛ يعني: مشركي العرب، فهؤلاء الطائفتان - على الإطلاق - أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم؛ وذلك لشدة بغضهم لهم؛ بغيًا، وحسدًا، وعنادًا، وكفرًا ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾؛ أي: الذين من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودّة للإسلام وأهله في الجملة؛ وما ذاك إلا لما في قلوبهم - إذ كانوا على دين المسيح - من الرقة والرأفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، ولم يرد الله - تبارك وتعالى - جميع النصارى؛ لأنهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود، في قتلهم المسلمين، وأسرهم، وتخريب بلادهم، وهدم مساجدهم، وإحراق مصاحفهم؛ لا ولاء ولا كرامة لهم؛ بل الآية فيمن كان - كما تقدم - من أتباع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وعلى منهاج إنجيله أو فيمن أسلم منهم؛ كالنجاشي وأصحابه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾؛ أي: بسبب وجود القسيسين فيهم، وهم خطباؤهم وعلماؤهم ﴿وَرُهْبَانًا﴾: جمع راهب؛ وهم العُبّاد أصحاب الصوامع، مشتق من الرهبة؛ وهي الخوف. وقد تضمن وصفهم - هذا - بأن فيهم العلم والعبادة ﴿وَأَنَّهُمْ

(٨٢، ٨٣) أخرج الطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة صنعت طعاماً فجئت به النبي ﷺ فقال: «ما هذا يا سلمان؟» قلت: صدقة، فقال لأصحابه: «كلوا» ولم يأكل، ثم إني رجعت حتى جمعت طعاماً، فأتيته به فقال: «ما هذا يا سلمان؟» قلت: هدية؛ فضرب بيده فأكل، وقال لأصحابه: «كلوا» قلت: يا رسول الله، أخبرني عن النصارى؟ قال: «لا خير فيهم ولا فيمن أحبهم» فقمت وأنا مثقل؛ فأنزل الله ﷻ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ حتى بلغ: ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «يا سلمان، إن أصحابك هؤلاء الذين ذكر الله».

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للإيمان، والإذعان للحق؛ بل هم متواضعون.

(٨٣) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ؛ أثر ذلك في قلوبهم، وخشعوا له، ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾؛ بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقّنوه - مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ - ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد وبمن أنزلته عليه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ على الناس يوم القيامة من أمة محمد ﷺ، أو مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

(٨٤) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا اللّه الجنة مع القوم الصالحين؟!

(٨٥) ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ بما تفوهوا به من الإيمان، ونطقوا به من التصديق والاعتراف بالحق؛ مخلصين له، معتقدين لمضمونه ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يُصرِّفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: ساكنين فيها أبدًا؛ لا يحولون، ولا يزولون ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين المؤمنين، في اتباعهم الحق وانقيادهم له. وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا

الجزء السابع — سورة المائدة

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

١٢٢

بمحمد ﷺ، كالنجاشي وغيره فمن آمن منهم، وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

(٨٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هم أهلها والداخلون فيها، والجحيم: النار شديدة الإيقاد.

(٨٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾: ينهى اللّه عباده المؤمنين عن أن يحرِّموا على أنفسهم شيئًا من اللذات التي تشتهيها

---

(٨٧) أخرج الترمذي والطبراني والطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي فحرمت عليّ اللحم؛ فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

النفوس، مما أحل اللَّه لكم من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾؛ يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم، ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال؛ فلا تعتدوا في تناول الحلال؛ بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فَشَرْعُ اللَّه عدل بين الغالي فيه والجافي عنه؛ لا إفراط ولا تفريط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك.

(٨٨) ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم بما يسّره من الأسباب ؛ إذا كان ﴿حَلَٰلًا﴾: لا سرقة، ولا غصبًا، ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق وكان ايضاً ﴿طَيِّبًا﴾ وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم باللَّه يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه.

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ التي صدرت على وجه اللغو؛ وهو: الأيمان التي حلف بها المُقْسِمُ في كلامه من غير نية ولا قصد - يعني: غير معتقد لليمين؛ مثل قوله: لا والله، بلى والله - ، أو عقدها يظن صِدْقَ نفسه، فبان بخلاف ذلك.

وفي الآية دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ اللَّه الحالف بها، ولا تجب فيها الكفارة.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ بما عزمتم وصمّمتم عليه من الأيمان وقصدتموه بقلوبكم ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾: كفارة اليمين التي عقدتموها بقصدكم إذا حنثتم ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾؛ يعني: محاويج من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه، وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾: من أعدل ما تطعمون أهليكم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عتق رقبة مؤمنة، كما قيدت في غير هذا الموضع، فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث؛ أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل: فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقّى فيها من الأدنى إلى الأعلى.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾: فإن لم يقدر المكلف - الذي لزمته كفارة اليمين - على واحدة من هذه الخصال الثلاث، وعجز عنها؛ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم؛ فإنها تكفرها، وتمحوها، وتمنع من الإثم.

﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ عن الحنث بها؛ أي: إذا حلفتم فلا تحنثوا، إلا إذا كان الحنث خيرًا، أو عدم المسارعة إليها والإكثار منها، أو لا تتركوها بغير تكفير.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يوضح ويفسر المبينة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللَّه على ما أنعم به عليكم؛ حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبيّن لكم شرائع دينه، ووضح أحكامه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(٩٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: خطاب لجميع المؤمنين كلهم ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ﴾؛ وهو كل ما خامر العقل؛ أي: غطاه بسكر ﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾؛ وهو القمار، أو هو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين؛ كالمراهنة ونحوها ﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾ الأصنام والأوثان مما ينصب ويعبد من دون الله، أو حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ القداح التي كانوا يستقسمون بها ﴿رِجۡسٞ﴾ نجس خبث مستقذر، وإن لم تكن نجسة حسًّا، وقيل: سخط ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ من تزيينه ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ فاتركوه، والضمير عائد على الرجس ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾؛ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصًا هذه الفواحش المذكورة، وهذا ترغيب في تركها؛ لأن الفلاح مطلوب مرغوب به.

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر والمياسرة بالقداح، ويُحسِّنُ ذلك لكم؛ إرادة منه ﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾؛ أي: في شربكم الخمر ولعبكم بالميسر؛ ليعادي بعضكم بعضًا، ويبغض بعضكم إلى بعض، فَيُشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام، وقد أشار تعالى بهذا إلى المفاسد الدنيوية، ثم ذكر المفاسد الدينية لهما، فقال: ﴿وَيَصُدَّكُمۡ﴾: ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم، وباشتغالكم بهذا الميسر ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ اللذين خلق لهما العبد، وبهما صلاح دنياه وآخرته وسعادته، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ عن شرب هذه والمياسرة بهذا، وعاملون بما أمركم به ربكم من أداء ما فرض عليكم من الصلاة لأوقاتها، ولزوم ذكره؟! والمراد: انتهوا عن ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]؛ أي: اشكروا.

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في اجتنابكم ذلك واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم ﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾ من معصية الله ومعصية رسوله ـ مخالفتهما ـ؛ أي: اتقوا الله وراقبوه أن يراكم عند ما نهاكم عنه من هذه الأمور التي حرمها

(٩٠ ، ٩١) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها».

عليكم ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه؛ ﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾: فاعلموا أنه ليس على من أرسلناه إليكم بالنذارة إلا إبلاغكم الرسالة التي أرسل بها إليكم مبيّنةً لكم بيانًا يوضح لكم سبيل الحق والطريق الذي أمرتم أن تسلكوه، وأما العقاب على التولية؛ فعلى اللّه تعالى، فأنتم لم تضروا بالمخالفة إلا أنفسكم. وهذا من اللّه تعالى وعيد لمن تولى عن أمره ونهيه.

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منكم ﴿جُنَاحٌ﴾: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ الله، فخافوه وراقبوه في اجتنابهم ما حرم عليهم ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ باللّه إيمانًا صحيحًا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: واكتسبوا من الأعمال ما يرضاه اللّه في ذلك مما كلّفهم به واستمروا على عملها ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾: ثم خافوا اللّه وراقبوه؛ باجتنابهم محارمه بعد ذلك التكليف ـ أيضًا ـ، فثبتوا على اتقاء اللّه في ذلك والإيمان به، ولم يغيّروا ولم يبدّلوا ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾: ثم خافوا الله، فدعاهم خوفُهم اللهَ إلى الإحسان؛ وهو العمل بما لم يفرضه عليهم من الأعمال، ولكنه نوافل تقربوا بها إلى ربهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادته، المتقربين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاها.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: يقول سبحانه وتعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ ليختبرنكم الله، وفائدة البلوى: إظهار المطيع من العاصي ﴿بِشَيْءٍ﴾ غير كثير ﴿مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ وهو صيد البر خاصة، فتكون محنة يسيرة؛ تخفيفًا منه تعالى ولطفًا، إما ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾: إما باليد؛ كالبيض والفراخ ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾: وإما بإصابة النبل والرماح؛ كالحُمُر، والبقر، والظباء، ونحوها.

والمراد: أن ذلك الصيد الذي يبتليكم اللّه به تتمكنون من صيده؛ ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح؛ فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علمًا ظاهرًا للخلق، يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: يخاف اللّه ولم يره ولم يعاينه؛ فيتقي ما نهاه عنه ويجتنب محارمه؛ خوف عقابه، مع قدرته عليه وتمكنه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾: تجاوز حدّ اللّه الذي حدّه له ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان الذي قطع الحجج، فصاد بعد تحريمه عليه؛ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ﴾ من اللّه ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله؛ لمخالفته أمر اللّه وشرعه.

---

(٩٣) أخرج النسائي في «التفسير» والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - قال: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته، فيقول: قد فعل بي هذا أخي - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما فعل بي هذا! فوقعت في قلوبهم الضغائن؛ فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال ناس: هي رجس، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وفلان قتل يوم أحد! فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

(٩٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾: هذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد، ونهي عن تعاطيه ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾؛ أي: وأنتم محرمون بالحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل: النهي عن مقدمات القتل، والمشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، ومن تمام ذلك: أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله؛ كما ثبت ذلك بالسُّنة النبوية المطهرة، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾: قتل صيدًا عمدًا؛ أي: قاصدًا قتله مع علمه بالإحرام؛ عليه ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾؛ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبهه شيئًا من ذلك، فيجب عليه مثله ـ أي: الواجب على قاتله أن يجزي المقتول بمثله من النعم ـ، يذبحه ويتصدق به.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾؛ أي: يحكم بذلك الجزاء الذي هو مثل المقتول من الصيد من النعم ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: عدلان من المسلمين؛ يعني: فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل ﴿هَدْيًۢا﴾؛ أي: يهدي تلك الكفارة ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾؛ أي: واصلاً إلى الكعبة، والمراد: وصوله إلى الحرم؛ بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكين الحرم ﴿أَوْ﴾؛ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال؛ فـ﴿كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾؛ أي: يجعل مقابلة المثل من النعم طعام يطعم المساكين، قال كثير من العلماء: يقوّم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام؛ فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ، أو نصف صاع من غيره ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾؛ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا ﴿لِّيَذُوقَ﴾ بإيجاب الجزاء والكفارة المذكورة عليه ﴿وَبَالَ﴾: عقوبة ﴿أَمْرِهِۦ﴾: فعله وذنبه الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾؛ أي: عفا الله ـ أيها المؤمنون ـ عما سلف منكم في زمان الجاهلية؛ من قتلكم الصيد وأنتم حرم، لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، فلا يؤاخذكم بما كان منكم في ذلك قبل تحريمه، ولا يلزمكم له كفارة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾: مَنْ فعل ذلك منكم ـ أي: قتل الصيد وهو محرم ـ بعد تحريمه في الإسلام، وبلوغ الحكم الشرعي إليه؛ ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام

(٩٥) في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور».

منه - ولا من عقوبة من أراد عقوبته - مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون في حال إحرامكم ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾؛ وهو الحي من حيواناته ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾؛ وهو الميت منها، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾؛ أي: منفعة وقوتًا لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ رفقتكم الذين يسيرون معكم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾؛ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون فيجازيكم؛ هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

(٩٧) ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: يخبر تعالى أنه جعل ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾: سميت كعبة؛ لتربيعها، وقيل: لارتفاعها من الأرض ونتوئها وبروزها ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: سمي كذلك؛ لأن اللّه حرمه، وعظَّم حرمته ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ يقوم بالقيام بتعظيمه، دينُهم ودنياهم؛ فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتقحم - من أجله - الأهوال ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾: الأشهر الحرم؛ وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، أراد: أنه جعل الأشهر الحرم قيامًا للناس يأمنون فيها القتال؛ فإنهم كانوا لا يطلبون فيها دمًا، ولا يقاتلون بها عدوًّا، ولا يهتكون فيها حرمة.

﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: وكذلك جعل الهدي والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدي - قيامًا للناس، ينتفعون بهما ويثابون عليهما ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾: تفاصيل ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام؛ لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنها من جملة ما فيهما، فكل ما شرعه لكم؛ فهو جلب لمصالحكم، ودفع لما يضركم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: فلكمال علمه وعمومه؛ بين لكم ما به تنتفعون.

(٩٨) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين: تعلمون أن اللّه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه؛ فيثمر لكم هذا العلمُ: الخوفَ من عقابه، والرجاءَ لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾: التبليغ، وقد بلَّغ كما أُمِر، وقام بوظيفته، وما سوى ذلك؛ فليس له من الأمر شيء ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: يعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه، ونطق به بلسانه ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: ما تخفونه في أنفسكم من إيمان وكفر، أو يقين وشك ونفاق.

---

(٩٦) وفي «الصحيحين» من حديث الصعب بن جثامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء؛ فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه؛ قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنَّا حُرُم».

فمن كان كذلك ـ لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور، وظواهر أعمال النفوس ـ ؛ فحقيق أن يُتّقى، وأن يُطاع فلا يعصى.

(١٠٠) ﴿قُل﴾ يا محمد للناس محذرًا عن الشر، ومرغبًا في الخير: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾: لا يساوي، ولا يعتدل ﴿ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ من كل شيء؛ فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا الحرام والحلال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾: أسرَّك أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ فلا يستويان؛ فإنه لا ينفع صاحبه شيئًا؛ بل يضره في دينه ودنياه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بطاعته فيما أمركم ونهاكم، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان بإعجابكم كثرة الخبيث ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: يا أهل العقول الوافية والآراء الكاملة، الذين عقلوا عن اللّٰه آياته، وعرفوا مواقع حججه ـ وهم الذين يؤبه بهم، ويرجى أن يكون فيهم خير ـ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة اللّٰه في أمره ونهيه؛ فمن اتقاه: أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه: حصل له الخسران، وفاتته الأرباح.

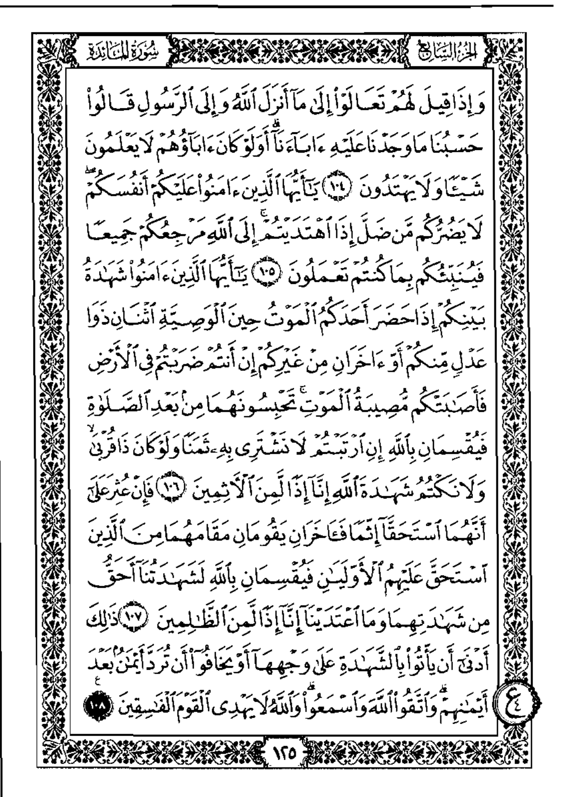
(١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾: هذا تأديب من اللّٰه تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا ﴿عَنْ أَشْيَآءَ﴾ مما لا فائدة ولا حاجة لكم في السؤال والتنقيب عنها، ولا هي مما تعنيكم في أمر دينكم؛ لأنها ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾: بينت وأظهرت لكم تلك الأمور ﴿تَسُؤْكُمْ﴾: ساءتكم وأحزنتكم، وشقَّ عليكم سماعها ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾: إذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن؛ فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء؛ ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾؛ أي: تبين لكم وتظهر ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾؛ أي: عما سلف من مسألتكم؛ فلا تعودوا إلى ذلك، أو: إن تلك الأشياء التي سألتم عنها هي مما سكت معافيًا لعباده منها، ولم يوجبها عليهم، فكل ما سكت اللّٰه عنه ولم يذكره في كتابه؛ فهو مما أباحه وعفا عنه، فاسكتوا أنتم عما سكت اللّٰه عنه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لم يزل بالمغفرة موصوفًا، وبالحلم والإحسان معروفًا، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾؛ أي: قد سأل هذه المسائل التي نهيتم عنها ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: عن جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد، على وجه الاستهزاء والعناد، فلما أُجيبوا عليها وبينت لهم وجاءتهم؛ لم يؤمنوا بها، ولم ينتفعوا بها، بل ﴿أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾:

---

(١٠٠) أخرج أحمد وابن حبان بإسناد صحيح عن أبي الدرداء ﷺ عن رسول الله ﷺ: «ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى».

(١٠١) في «الصحيحين» عن أنس بن مالك ﷺ؛ قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء، فخطب، فقال: «عرضت الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيراً» قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، قال: غطوا رؤوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيًا. قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: «أبوك فلان» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.



كاتمين لها، تاركين للعمل بها، فكان ذلك سببًا لكفرهم وضلالهم.

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: ما شرع الله، ولا أنزل ﴿مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾: الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، بحروا أذنها ـ أي: شقّوها ـ، وحرَّموا ركوبها ودرها، فلا يحلبها أحد من الناس ﴿وَلَا سَآئِبَةٍ﴾: الناقة كانوا يسيبونها لآلهتهم؛ لا تركب، ولا يحمل عليها شيء ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثنّ بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم؛ إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ﴿وَلَا حَامٍ﴾: فحل الإبل، يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه وَدَعوه ـ تركوه ـ للطواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه: الحامي؛ لأنه حمى ظهره عن أن يركب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: الذين بحروا البحائر، وسيبوا السوائب، ووصلوا الوصائل، وحموا الحوامي ممن سنوا لأهل الشرك السنن الرديئة، وغيَّروا دين اللّه ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ في قولهم: اللّه أمرنا بهذا، وهي عنده قربة. وجعلهم إياها محرمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على اللّه وكذب وإفك ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾: فلا نقل عندهم ولا عقل دلهم عليه، فما أَرَكَّ عقولهم! وما أضعفها! يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة ونفس الحمق.

(١٠٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾: وإذا قيل لهؤلاء الذين يَبْحرون البحائر ويسيّبون السوائب، الذين لا يعقلون أنهم بإضافتهم تحريم ذلك إلى اللّه تعالى يفترون على اللّه الكذب: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: تعالوا إلى تنزيل اللّه وآي كتابه وإلى رسوله؛ ليتبيّن لكم كذب قيلكم فيما تضيفونه إلى اللّه تعالى من تحريمكم هذه الأشياء ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا﴾: يكفينا ﴿مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون حقًّا ولا يعرفونه، فلو كان في آبائهم كفاية ومعرفة ودراية؛ لهان الأمر! ولكن آباءهم ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتبًّا لمن قلد

(١٠٣) أخرج البخاري ومسلم عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمرو بن لحي يجرّ قُصْبه، وهو أول من سَيَّب السوائب».

مَنْ لا علم عنده صحيح ولا عقل رجيح وترك إتباع ما أنزل الله، واتباع رسوله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً، وهدىً ويقيناً.

(١٠٥) يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾: أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم؛ فإنكم إذا صلحتم ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾: من كفر وسلك غير سبيل الحق، وخالف الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم؛ ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم، ولزمتم العمل بطاعة الله، وأدّيتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم اللّه به فيه من فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يديه إذا رام ظلمًا، فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غيّه وضلاله، وإنما يضر نفسه.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾؛ أي: مآلكم ومصيركم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي اللّه تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من خير وشر، ثم يجازيكم على أعمالكم.

(١٠٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ﴾: يخبر تعالى خبرًا متضمنًا للأمر بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدماتُ الموت وعلائمه، فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما ﴿مِّنكُمۡ﴾: من المسلمين ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ من غير المسلمين ـ من اليهود، أو النصارى؛ أهل الكتاب ـ، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سافرتم ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾: فنزل بكم الموت. فهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين: أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية. ولم يأمر بإشهادهما؛ إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾: تستوقفونهما ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾: فيحلفان باللّه أنهما صدقا، وما غيرا، ولا بدّلا، هذا ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: شككتم في شهادتهما، ووقعت لكم الريبة في قولهما وصدقهما، أي في قول اللذين ليسا من أهل ملتكم، فإن كانا مسلمين؛ فلا يمين عليهما، وكذا إن صدقتموهما؛ فلا حاجة إلى القسم بذلك ويقولان: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾ بأيماننا ﴿ثَمَنٗا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾؛ أي: ولو كان المشهود عليه قريبًا لنا؛ فلا نراعيه ولا نحابيه لأجل قربه

---

(١٠٥) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح أن أبا بكر ﷺ قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله - عز وجل - أن يعمهم بعقابه».

(١٠٦) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدّاء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوَّصًا من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجد الجام بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

نصف الحزب ١٣

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها، وإضافتهما إلى الله؛ تشريفًا لها، وتعظيمًا لأمرها ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إن فعلنا شيئًا من ذلك؛ من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كتمها بالكلية ﴿لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾.

(١٠٧) ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: اطلع منهما وظهر وتحقق، ووجد من القرائن ما يدل ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾؛ أي: الشاهدين ﴿ٱسْتَحَقَّآ﴾: استوجبا ﴿إِثْمًا﴾: بأن كذبا أو خانا، أو غيَّرا وبدَّلا وصيَّته؛ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ من أولياء الميت وورثته ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾: مقام الوصيين اللذين ذكر اللَّه أمرهما في هذه الآية بعد حلفهما باللَّه ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾: وجب وحق عليهم الإثم ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾: تثنية الأولى؛ وهو الأقرب، ومعنى الآية: أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما؛ فليقم اثنان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه ممن يرث ذلك المال.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾؛ أي: لَقولنا: إنهما كذبا، وغيّرا، وخانا؛ أصح، وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ في أيماننا، وما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إن كنا قد كذبنا عليهما وظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

(١٠٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قلت لكم في أمر الأوصياء إذا ارتبتم بأمرهم، واتهمتموهم بخيانة لمال من أوصى إليهم؛ من حبسهم بعد الصلاة، واستحلافكم إياهم على ما ادعى قِبَلهم أولياء الميت ﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أجدر، وأحرى، وأقرب لهم ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ حين تؤكد عليهم تلك التأكيدات؛ أي: هذا الفعل إذا فعلتم بهم أقرب لهم أن يصدقوا في أيمانهم ولا يكتموا، ويقروا بالحق ولا يخونوا ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾: أو يخاف هؤلاء الأوصياء إن عثر عليهم أنهم استحقوا إثمًا ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ﴾: أيمانهم على أولياء الميت ﴿بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ التي عثر عليها أنها كذب، فيستحقوا بها ما ادعوا قبلهم من حقوقهم؛ فيصدقوا - حينئذ - في أيمانهم وشهادتهم؛ مخافة الفضيحة على أنفسهم، وحذرًا أن يستحق عليهم ما خانوا فيه أولياء الميت وورثته ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: خافوا اللَّه أيها الناس، وراقبوه في أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة، وأن تذهبوا بها مالَ من يحرم عليكم ماله، وأن تخونوا من ائتمنكم ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾: اسمعوا ما يُقال لكم وما توعظون به، فاعملوا به وأطيعوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

(١٠٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾: يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن اللّه يجمع به جميع الرسل، ﴿فَيَقُولُ﴾ فيسألهم ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾: ماذا أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي والإقرار بي، والعمل بطاعتي والانتهاء عن معصيتي؟

فـ﴿قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾إلا علم أنت أعلم به منا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾: إنك لا يخفى عليك ما عندنا من علم ذلك ولا غيره، فأنت تعلم الأمور الغائبة والحاضرة. فهم نفوا أن يكون لهم بما سئلوا عنه من ذلك علم لا يعلمه هو سبحانه؛ لا أنهم نفوا أن يكونوا علموا ما شاهدوا.

(١١٠) ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرًا لربك، حيث أنعمت عليك نعمًا ما أنعمت بها على أحد غيرك؛ من خلقي إياك من أُمٍّ بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾: حيث جعلتك لها برهانًا على براءتها مما نسبه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾: قوّيتك وأعنتك ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بملازمته لك وتثبيتك في المواطن المشقة.

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ﴾؛ أي: وجعلتك نبيًّا تدعو الناس إلى اللّه في صغرك وكبرك، لا يتفاوت كلامك في الحالتين، مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتًا بيّنًا: فأنطقتك في المهد صغيرًا؛ فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادي، وضمن«تكلم» تدعو؛ لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الخط ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: العلم والفهم ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: الكتاب المنزل على موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾: الكتاب الذي أنزلته إليك.

﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ﴾: تجعل وتصوّر وتشكل ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾: على هيئة الطائر لا روح فيه ﴿بِإِذۡنِي﴾ لك في ذلك، وتسهيله عليك، وتيسيره لك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾: فتنفخ في تلك الصورة والهيئة التي شكلتها ﴿فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ﴾: فتكون طيرًا ذا روح بإذن اللّه وخلقه ﴿وَتُبۡرِئُ﴾: تشفي وتصحح ﴿ٱلۡأَكۡمَهَ﴾: الأعمى الذي لا بصر له ولا عين ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ﴾ البرص: مرض معروف؛ وهو بياض يظهر في الجلد ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾؛ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن اللّه وقدرته، وإرادته ومشيئته.

فهذه آيات بيّنات، ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم، وهي لا دواء لها، أيد اللّه - سبحانه - بها عيسى - عليه الصلاة والسلام - ، وقوّى بها دعوته.

﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: واذكر نعمتي عليك في كفي ومنعي إياهم ﴿عَنكَ﴾ حين سعوا في قتلك وصلبك؛ فنجيتك منهم، ورفعتك إليَّ، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من اللّه إليهم ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾: فقال الذين جحدوا نبوتك، وكذّبوك من بني إسرائيل: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾: ما هذا الذي جئت به إلا سحر

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ (١٢٠)

بين؛ أي: لما عظم ذلك في صدورهم وانبهروا منه؛ لم يقدروا على جحده بالكلية؛ بل نسبوه إلى السحر!

(١١١) ﴿وَإِذْ﴾؛ أي: واذكر نعمتي عليك إذ ﴿أَوْحَيْتُ﴾: ألهمت وقذفت في قلوبهم، أو: أوحيت إليهم بواسطتك وعلى لسانك ﴿إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: خواص أصحاب عيسى عليه السلام وأتباعه وأنصاره ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾: أمرتهم أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص، ويؤمنوا برسالة رسولي ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾؛ فأجابوا لذلك وانقادوا، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

(١١٢) ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: وهم أتباع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: هل يستجيب لك إن سألته ذلك، ويطيعك فيه؟ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المائدة: الخوان الذي عليه الطعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله واستطاعته على ذلك، وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيًا للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك؛ وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئًا.

(١١٣) فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ﴾؛ أي: إنما سألنا لأنا نريد ﴿أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾؛ أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَتَطْمَئِنَّ﴾: تسكن وتستقر ﴿قُلُوبُنَا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانية؛ حتى يكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾: نعلم صدق ما جئت به: أنه حق وصدق ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ أي: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به، فيحصل لنا زيادة برهان بذلك؛ فيكون مصلحة لمن بعدنا.

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: لما سمع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك، وعلم

مقصودهم؛ أجابهم إلى طلبهم عند ذلك، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ سأل الله نزولها ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: يكون وقت نزولها عيدًا وموسمًا للأحياء منا اليوم، ومن يجيء بعدنا منا، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتُحفظ ولا تُنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين؛ كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرًا لآياته، ومنبهًا على سنن المرسلين وطرقهم القويمة، وفضله وإحسانه عليهم ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾: علامة وحُجة ودليل منك يا رب تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك دعوتي؛ فيصدقوني فيما أبلِّغه عنك ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: اجعلها لنا رزقًا بلا كلفة ولا تعب.

(١١٥) ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى مجيبًا لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ﴾؛ يعني: المائدة ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ﴾؛ أي: فمن كذب بعد نزول المائدة من أمتك يا عيسى، وعاندها؛ ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾؛ أي: تعذيبًا ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾؛ أي: لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالمي زمانه.

(١١٦) ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾: هذا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ هذا - تهديد للنصارى - الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة! وتوبيخ وتقريع لهم على رؤوس الأشهاد. فيقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ متبرئًا منه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: تنزيهًا وتعظيمًا لك عن هذا الكلام القبيح؛ وعما لا يليق بك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾: هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل؛ لقنه الله إياه؛ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق، أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنه ليس أحد من المخلوقين - لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون - له حق ولا استحقاق لمقام الألوهية، وإنما الجميع عباد مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ﴾: إن كان صدر مني هذا؛ ﴿فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ يا رب؛ فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته، وأنت عالم أني لم أقل ذلك ولم آمرهم به، وهذا من كمال أدب المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطابه لربه، فلم يقل: لم أقل شيئًا من ذلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، ونزّه ربه عن ذلك أتم تنزيه ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ فلا يخفى عليك ما أضمرتْه نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي؛ أي: إنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به؛ فكيف بما قد نطقت به؟! ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾: ولا أعلم ما أخفيته عني في نفسك فلم تطلعني عليه ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾: العالم بخفيّات الأمور؛ التي لا يطلع عليها سواك، ولا يعلمها غيرك.

---

(١١٦) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: يُلقي عيسى حجته، ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: فلقاه الله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾؛ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به، وأمرتني بإبلاغه، فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة اللَّه وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم؛ فهو ربي ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾؛ أي: كنت أشهد على أعمالهم ومن قام بهذا الأمر ممن لم يقم به منهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾: رفعتني إليك ـ إلى السماء ـ ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾: المطلع على سرائرهم وضمائرهم، والحفيظ عليهم؛ تحفظ أعمالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: وأنت تشهد على كل شيء؛ لأنه لا يخفى عليك شيء، فأنت العليم الذي قد أحاط بالمعلومات، والسميع الذي قد أحاط بالمسموعات، والبصير الذي قد أحاط بالمبصرات.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾: إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة؛ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ مستسلمون لك، وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم متمردون؛ لم تعذبهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بهدايتك إياهم إلى التوبة فتستر عليهم؛ ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة وتوفيقه من وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب.

(١١٩) ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على اللَّه وعلى رسوله، ومن ردّ المشيئة فيهم إلى ربه، ومبينًا لحال عباده يوم القيامة، ومَن الفائز منهم ومَن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون: هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدْي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، ويرون نفعه ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: باقين في الجنات التي أعطاهموها أبدًا دائمًا، ماكثين فيها

(١١٧ ، ١١٨) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ حفاة عراة غُرْلًا، : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال؛ فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

(١١٩) أخرج ابن أبي حاتم والبزار والآجري في «الشريعة» والطبراني في «الأوسط» وأبو يعلى بإسناد صحيح بمجموع طرقه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثم يتجلى لهم الرب تعالى فيقول: سلوني سلوني أعطكم. قال فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي، فسلوني أعطكم. فيسألونه الرضا، قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم».

لا يحولون ولا يزولون ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بما عملوه من الطاعات الخالصة له ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه وبما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾: هذا هو الفوز والظفر الكبير، الذي لا أعظم منه.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾: له سلطان السموات والأرض، وهو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه، وتحت قهره وقدرته، وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة؛ فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾: فلا يعجزه شيء؛ بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ومسخرة بأمره.

تفسير سورة الأنعام
وهي مكية



الجزء السابع — سورة الأنعام

سُورَةُ الأَنْعَامِ — مكية — آياتها ١٦٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

١٢٨

(١) يقول تعالى مادحًا نفسه الكريمة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ الكامل ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾: الذي جعل منهما معايشكم وأقواتكم وأقوات أنعامكم التي بها حياتكم؛ فمن السماوات ينزل عليكم الغيث، وفيها تجري الشمس والقمر باعتقاب واختلاف لمصالحكم، ومن الأرض ينبت الحَبُّ الذي به غذاؤكم، والثمار التي فيها ملاذكم، مع غير ذلك من الأمور التي فيها مصالحكم ومنافعكم بها، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾: وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك؛ كالليل والنهار، والشمس والقمر، والمعنوي؛ كظلمات الجهل، والشك، والشرك، والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين، والطاعة.

وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة، وإخلاص الدين له ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع هذا البيان، وذكر الدليل ووضوح البرهان ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾: يشركون به سواه، ويجعلون معه شريكًا وعدلاً في عبادتهم إياه، يسوّونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساووا اللَّه في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي هو أصلكم، ومنه خرجتم ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾: ضرب لمدة

إقامتكم في هذه الدار أجلاً تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾أي: الدار الآخرة التي ينقل إليها العباد من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها ﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام، وقطع الحجة ﴿أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾: تشكون في وعد اللّه ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾: وهو المألوه المعبود في السموات وفي الأرض؛ أي: يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رغبًا ورهبًاإلا من كفر من الجن والإنس ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فلا يخفى عليه منكم شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: ويعلم ما تعملون وتجرحون، فيحصي ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه؛ فاحذروا معاصيه، وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدلون ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾: حجة، وعلامة، ودلالة، ومعجزة ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: من حجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته وصدق نبوّة رسوله؛ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعًا، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أدبارَهم.

(٥) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾: فقد كذّب هؤلاء العادلون باللّه ﴿بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ وهو محمد ﷺ، كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم والحق حقه: أن يُتبع، ويُشكر اللّه على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به؛ فاستحقوا العقاب الشديد.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: هذا تهديد لهم، ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق؛ أي: فسوف يرون أخبار ما استهزءوا به أنه الحق والصدق، ويبين اللّه للمكذبين كذبهم وافتراءهم.

(٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون نبوتك ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين قبلهم، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن﴾ لهؤلاء من الأموال والبنين والأعمار، والجاه العريض، والسَّعة والرفاهية ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾: المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾: غزيرًا متتابعًا في أوقات الحاجات ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾: أكثرنا عليهم أمطار السماء، وتفجّرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها، فغمطوا نعمة ربهم، وعصوا رسول خالقهم، وخالفوا أمر ربهم، وبغوا حتى حق عليهم قولي: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأخذناهم بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها، وعاقبناهم بما كسبت أيديهم ﴿وَأَنشَأْنَا﴾: خلقنا وابتدأنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: من بعد الذين أهلكناهم ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: جيلاً آخر؛ لنختبرهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعزّ على اللّه منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على اللّه من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم.

(٧) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا﴾؛ أي: لو أنزلت عليك يا محمد! الوحي الذي أنزلته عليك وهو القرآن ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾: مكتوبًا في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: عاينوه، ومسوه بأيديهم، وتيقنوه،

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

ونظروا إليه وقرءوا منه ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: لقال الذين يعدلون بي غيري، فيشركون في توحيدي سواي: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا الذي جئتنا به ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة ﴿مُّبِينٌ﴾: واضح ظاهر لمن تدبَّره وتأمله أنه سحر، لا حقيقة له، فأيُّ بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها؟! حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن مَن له أدنى مسكة من عقل دفعه!!

(٨) ﴿وَقَالُوا۟﴾ - أيضًا - تعنتًا مبنيًا على الجهل، وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾: هلا أنزل مع محمد ملك من السماء؛ ليكون معه نذيرًا، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة اللَّه لا تكون إلا على أيدي الملائكة؟!

قال اللَّه في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرًا منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانًا بالشهادة الذي لا ينفع شيئًا وحده هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا عوجلوا بالهلاك، لقوله تعالى: ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم. ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾: لا يؤجلون، ولا يؤخرون، ولا يمهلون.

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾؛ أي: ولو أنزلنا وأرسلنا مع الرسول البشري ملكًا؛ ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾: لجعلناه في صورة وهيئة رجل آدمي؛ وليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه؛ لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾: ولكان الأمر مختلطًا عليهم وملبوسًا، فلم يدروا أملك هو أم إنسي، فلم يوقنوا به أنه ملك ولم يصدقوا به؛ وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق.

(١٠) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: وهذه تسلية من اللَّه تعالى لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصر والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ أي: هوّن عليك يا محمد ما أنت لاق من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفين بحقك، وامض لما أمرتك به، فقد اسْتهزَأتْ أمم من قبلك برسل أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل فعل قومك بك ﴿فَحَاقَ﴾: نزل وأحل وأحاط ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة.

(١١) ﴿قُلْ﴾: يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثان، المكذبين المستهزئين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: سيروا بالأقدام وجولوا في بلاد المكذبين رسلهم، معتبرين ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾؛ أي: ثم فكّروا في أنفسكم، وانظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾: ما أحل اللَّه بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله وعاندوهم؛ من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة فلن تجدوا إلا قومًا مهلكين، وأممًا في المثلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعُدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل.

(١٢) لهؤلاء المشركين باللَّه مقررًا لهم وملزمًا بالتوحيد: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: مَن الخالق لذلك، المالك له، المتصرف فيه؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِلَّهِ﴾ الذي استعبد وقهر كل شيء بملكه وسلطانه؛ لا للأوثان والأنداد، ولا لما يعبدونه ويتخذونه إلهًا من الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعًا، ولا تدفع عنها ضُرًّا، وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد اللَّه بالملك والتدبير؛ أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾: قضى على نفسه المقدسة أنه بعباده رحيم؛ لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا من اللَّه تعالى استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة، فهو تعالى قد بسط على خلقه رحمته وإحسانه وفضله، وكتب على نفسه كتابًا: أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: أقسم سبحانه بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم؛ وهو يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها؛ بادعائهم لله الند والعديل، وأنكروا قدرة اللَّه على بعث الخلائق، وتجرؤوا على الكفر؛ فأوبقوها بإيجابهم سخط اللَّه وأليم عقابه في المعاد، فخسروا دنياهم وأخراهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فهم لا يوحّدون الله، ولا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم.

(١٣) ﴿وَلَهُ﴾: تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: وذلك هو المخلوقات كلها -من آدميها، وجنها، وملائكتها، وحيواناتها، وجماداتها-، فالكل خلق مدبرون وعبيد مسخّرون لربهم العظيم القاهر المالك، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره؛ فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المماليك الذي لا نفع عنده ولا ضُر، ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟! ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، لا

---

(١٢) أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

يخفى عليه شيء من ذلك.

(١٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾: أشيئًا غير اللَّه تعالى من هؤلاء المخلوقات العاجزة أتخذ ربًّا ومعبودًا أستنصره وأستعينه وأتولاه؟! فلا أتخذ وليًّا إلا اللَّه وحده لا شريك له؛ لأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومبدعهما ومبتدئهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ وليًّا غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للذين يدعونك إلى اتخاذ الآلهة أولياء من دون الله، ويحثونك على عبادتها: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من هذه الأمة لله بالتوحيد، وخضع له بالعبودية، وانقاد له بالطاعة؛ لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: ونهيت - أيضًا - عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم.

(١٥) ﴿قُلْ﴾ يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله: إن ربي نهاني عن عبادة شيء سواه، و﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ فعبدت غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ يعني: عذاب يوم القيامة، ووصفه بالعظم؛ لِعظم هوله، وفظاعة شأنه.

(١٦) ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ اللَّه ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: صَرْفُ اللَّه عنه العذاب يوم القيامة، ورحمته إياه ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: النجاة من الهلكة، والظفر بالطَّلِبة ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البيّن الواضح.

(١٧) ومن أدلة توحيده: أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسراء، وهو المالك لذلك وحده، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أو هم، أو نحوه؛ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾: فلا رافع له، ولا قادر على كشفه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾: وإن يصبك ﴿بِخَيْرٍ﴾: عافية ونعمة: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يريده ﴿قَدِيرٌ﴾؛ فلا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، فإذا كان وحده النافع الضار؛ فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية.

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: وهو الغالب المذلِّل المستعبد خَلْقه، العالي عليهم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت بين يديه، وتحت قهره وحكمه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقدر ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾؛ بمواضع الأشياء ومحالها، الذي لا

(١٤) أخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة» وابن السني في «عمل اليوم والليلة» وابن حبان والحاكم وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: دعا رجل من الأنصار النبي ﷺ، قال: فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه، قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يُطعِم، منَّ علينا فهداها، وأطعمنا وسقانا، وكلَّ بلاء حسنٍ أبلانا، الحمد لله غير مُوَدَّعٍ ولا مكافأ، ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد له الذي أطعم من الطعام وسقى من الشراب، وكسا من العري، وهدى من الضلالة، وبصرني العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلًا، الحمد لله رب العالمين».

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

ع ٨

يخفى عليه عواقب الأمور وبواديها؛ فلا يعطي إلا لمن يستحق، ولا يمنع إلا من يستحق.

(١٩) ﴿قُلْ﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؛ أي: مَنْ أعظمُ الأشياء شهادة على هذا الأصل العظيم؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أكبر شهادة، فهو ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: هو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي، فلا أعظم منه شهادة، ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبًا عليه؛ زاعمًا أن اللَّه أرسله ولم يرسله، وأن اللَّه أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، بل ويؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه؛ فأي شهادة أكبر من هذه الشهادة؟ ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾: وأوحى اللَّه إليَّ هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ أي: وهو نذير لكل من بلغه القرآن من سائر الناس غيركم إلى يوم القيامة؛ فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾: تشهدون أن معه معبوداتٍ غيرَه؛ من الأوثان والأصنام.

﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾؛ أي: إن شهدوا أن مع اللَّه آلهة أخرى؛ فلا تشهد معهم، بل قل: أَجْحَدُ ذلك وأُنْكِره، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ﴾: معبود ﴿وَٰحِدٌ﴾؛ أي: منفرد، لا يستحق العبودية والإلهية سواه؛ كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير، ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان، والأنداد، وكل ما أُشْرِكَ به مع الله.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ يعني: التوراة والإنجيل -أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى- ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ أي: يعرفون هذا الذي جئتهم به، لا يشتبهون بصحة رسالته، ولا يمترون بها؛ لما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء؛ فإن الرسل كلهم بشّروا بوجود محمد ﷺ، وببعثه، وصفته، وبلده، ومهاجره، وصفة أُمّته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾؛ أي: لاشك عندهم فيه بوجه؛ كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصًا البنين الملازمين في الغالب لآبائهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ كل الخسارة؛ أي: فوّتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، ونوّهت به

في قديم الزمان.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾: لا أعظم ظلمًا وعنادًا ممن كان فيه أحد الوصفين؛ فكيف لو اجتمعا: افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته وحججه وبراهينه ودلالاته التي جاءت بها المرسلون؟! ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح ولا ينجح أبدًا.

(٢٢) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ يوم القيامة، ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ فيُسألون عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه على وجه التوبيخ والتقريع، فيقال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم لكم آلهة من دون الله؛ افتراء وكذبًا، وتدعونهم من دونه أربابًا؟!، فأتوا بهم إن كنتم صادقين!

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾؛ أي: لم يكن جوابهم وحجتهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: إلا إنكارهم لشركهم، وحلفهم بالله أنهم ما كانوا مشركين.

(٢٤) ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد، متعجبًا منهم ومن أحوالهم ﴿كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: كيف كذب هؤلاء المشركون ـ العادلون بربهم الأوثان والأصنام ـ في الآخرة على أنفسهم بقيلهم: والله يا ربنا ما كنا مشركين، فاستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلّقون في الدنيا؛ من الكذب، والفرية ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: وفارقهم الشركاء والأنداد والأصنام الذين زعموهم مع الله، وتبرءوا منها، فسلكوا غير سبيلها؛ لأنها هلكت.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعضَ الأوقات بعضُ الدواعي إلى الاستماع إلى قراءتك وإلى ما تقول، ولا تجزي عنهم شيئًا؛ لأنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك؛ لعدم إرادتهم للخير، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فجعل الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: أغطية وأغشية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: جعلنا ﴿وَقْرًا﴾: صممًا؛ فلا يستمعون ما ينفعهم، ولا يفهمون ما تتلو عليهم ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: مهما رأوا من المعجزات والدلالات والآيات والحجج البينات ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾: لا ينقادون لها، ولا يصدقون بها؛ بل يجادلون بالباطل الحقَّ ليدحضوه؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾: يحاجونك ويناظرونك في الباطل ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله ولا عن رسله.

(٢٦) ﴿وَهُمْ﴾: المشركون بالله، المكذبون لرسوله، ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يجمعون بين الضلال والإضلال: ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ويبعدون بأنفسهم عنه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يهلكون بهذا الصنيع -بصدهم عن سبيل الله، وإعراضهم عن تنزيله، وكفرهم بربهم-، ولا يعود وباله إلا عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم لا يشعرون بذلك.

(٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد، هؤلاء المشركين بربهم ـ الذين وصفت لك ـ ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾: إذ حُبسوا ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: في النار - ليوبَّخوا ويقرَّعوا -؛ لرأيت أمرًا هائلًا، وحالاً مفظعة، ولرأيتهم كيف

الجزء السابع — سورة الأنعام

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

١٣١

اقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردون إلى الدنيا ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يتمنّون أن يردّوا إلى الدار الدنيا؛ ليعملوا عملاً صالحًا، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين.

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾: ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾: يسرون في أنفسهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب والمعاندة ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ إلى الدنيا؛ ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾: لرجعوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك؛ من جحود آيات الله، والكفر به، والعمل بما يسخط عليهم ربهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم؛ لأنهم قالوه خشية العذاب، لا إيمانًا بالله.

(٢٩) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ منكرين للبعث: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما حقيقة الحال والأمر، وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ فلا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الكافرين ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾: حُبسوا يوم القيامة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: بين يديه على حكمه وقضائه؛ لرأيتهم أمر عظيماً، وهولاً جسيماً، ﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ البعث والنشر بعد الممات ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وليس بباطل كما كنتم تظنون وتنكرون؟! ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فأقروا، واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي كنتم به في الدنيا تكذبون ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: بتكذيبكم به وجحودكموه الذي كان منكم في الدنيا.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: قد خاب وخسر وحرم الخير كله، من كذب وأنكر البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، والجنة والنار؛ فأوجب له هذا التكذيب الاجتراء على المحرمات، واقتراف الموبقات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة من غير علم وهم على أقبح حال وأسوئه، فأظهروا غاية الندم، و﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا﴾ يا ندامتنا ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾: ما ضيّعنا فيها من الطاعة، وتركنا في الدنيا من عمل الآخرة، وما سلف من قبيح الفعال وسوء الحال ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾: ذنوبهم وأثقالهم وآثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فإن وزرهم وزر يُثقلهم، ولا يقدرون على التلخص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

(٣٢) ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أيها الناس ﴿إِلَّا لَعِبٌ

﴿وَلَهْوٌ﴾: هذه حقيقة الدنيا؛ فإنها لعب ولهو: لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح؛ ولكنها ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين؛ الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون أيَّ الدارين أحق بالإيثار؟

(٣٣) ثم قال تعالى مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له، ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾؛ أي: قد أحطنا علمًا بتكذيب قومك لك، وحزنك وتأسفك عليهم، وما يسوؤك منهم ولا تظن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: ولكنهم يكذبون بآيات الله، ويعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، مع تصديقهم لك!

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذّبه من قومه وأمرٌ له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعدٌ له بالنصر كما نُصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: ولا مُغيّر لكلماته التي كتبها؛ وهي وعده بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين على من خالفهم وتولى عنهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ﴾ يا محمد ﴿مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم؛ فلك فيهم أسوة، وبهم قدوة.

(٣٥) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: شق وعظم عليك يا محمد إعراضهم عنك؛ من حرصك عليهم، ومحبتك لإيمانهم؛ ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: سربًا في الأرض فتذهب فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: فتصعد فيه ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾: بعلامة وبرهان على صحة قولك أفضل مما أتيتهم به؛ فافعل ذلك؛ فإنه لا يفيدهم شيئًا، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: لو شاء اللّه لجمعهم على استقامة من الدين، وصواب من محجة الإسلام؛ حتى تكون كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة؛ لجمعهم على ذلك، ولم يكن بعيدًا عليه؛ لأنه القادر على ذلك بلطفه، ولكنه لم يفعل لحكمة منه اقتضت ذلك، ولسابق علمه في خلقه ونافذ قضائه فيهم من قبل أن يخلقهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ممن لا يعلم أن اللّه لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه، وأن من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم اللّه فيه ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به اختيارًا لا اضطرارًا.

الحزب ١٤

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

ع ١٠

(٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك يا محمد، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: الذين يعون ويفهمون بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب.

﴿وَالْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: موتى القلوب؛ وهم الكفار، الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾؛ فيجزيهم بأعمالهم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

(٣٧) ﴿وَقَالُوا﴾ المكذبون بالرسول، تعنتًا وعنادًا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؛ أي: هلا نزل على محمد آية وعلامة خارقة من ربه، يعنون بذلك: آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة ﴿قُلْ﴾ يا محمد مجيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾: حجة على ما يريدون ويسألون، فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته، مذعنة لسلطانه؟!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فهم لجهلهم ـ وعدم علمهم ـ لا يدرون ما وجه ترك اللّه إنزال ذلك عليك، ويطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها؛ لعوجلوا بالعقاب ـ كما هي سنة اللّه التي لا تبديل لها ـ، فلو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك؛ لم يسألوك، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

(٣٨) ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبن اللّه غافلًا عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون، وكيف يغفل عن أعمالكم ـ أو يترك مجازاتكم عليها ـ وهو غير غافل عن عمل شيء دب على الأرض - صغير، أو كبير -، ولا عمل طائر يطير بجناحيه في الهواء؟! بل جعل ذلك كله أجناسًا مجنسة، وأصنافًا مصنفة، خلقها كما خلقكم، ورزقها كما رزقكم، وتعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سُخرت له كما تتصرفون.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئًا من الأشياء، بل جميع الأشياء ـ صغيرها وكبيرها ـ محفوظة ومثبتة في اللوح المحفوظ، على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: ثم إنه

تعالى مميتها، ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها. فالربُّ الذي لم يضيّع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في اللوح المحفوظ، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء؛ أحرى ألا يضيع أعمالكم، ولا يفرّط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس؛ حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله، المكذبين لرسله، أنهم ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق ﴿وَبُكۡمٌ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل، فقد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى؛ أي: مثلهم في جهلهم ـ وقلة علمهم ـ وعدم فهمهم؛ كمثل أصم أبكم، فهم ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِۗ﴾: وهم مع ذلك منغمسون في ظلمات الجهل، والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي؛ فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟! وهذا من إضلال اللّه إياهم، فـ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾؛ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته، فهو المتصرف في خلقه بما يشاء.

(٤٠) يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلۡ﴾ للمشركين بالله، العادلين به غيره: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ﴾: أخبروني إن جاءكم – أيها القوم –: ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ كالذي جاء مَن قبلكم مِن الأمم: هلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصاعقة ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف القيامة ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾: أغير اللّه هناك تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء والكرب؛ أو إلى غيره من آلهتكم وأصنامكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظم البلاء؟ ﴿إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ﴾: إن كنتم محقين في دعواكم وزعمكم أن آلهتكم التي تدعونها من دون اللّه تنفع أو تضر.

(٤١) ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾: فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تنسونهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضرًّا، ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، وتخلصون لله الدعاء؛ لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر؛ فما بالكم في الرخاء تشركون به وتجعلون له شركاء؟!

(٤٢) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾ من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا ﴿فَأَخَذۡنَـٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: فامتحناهم بالفقر، والمرض، والآفات، والمصائب؛ رحمة منا بهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلينا، ويلجئون عند الشدة إلينا؛ فيخلصوا لله العبادة، ويفردوا رغبتهم إليه؛ بالتذلل إليه بالطاعة، والاستكانة له بالإنابة.

(٤٣) ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾: فهلا إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلَها ـ الذين لم يتضرعوا عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ــ تضرعوا فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته؛ ﴿وَلَـٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾: استحجرت، فلا تلين للحق، وما رقَّت ولا خشعت ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾: حسَّن لهم الشيطان ﴿مَا كَانُواْ

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

ع ١١

١٣٣

﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، والمعاندة والمعاصي.

(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾: تركوا، العمل بما وعظوا به، وأعرضوا عنه، وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم العمل بما وعظوا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها، وسعة الرزق والعيش، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ فرح بطر ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من الأموال والأولاد والأرزاق؛ ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾: على غفلة، وفجأة آمنين ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير.

(٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: فاستؤصل القوم الذين عتوا على ربهم وكذبوا رسله وخالفوا أمره عن آخرهم، فلم يُترك منهم أحد إلا هلك ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: والثناء الكامل، والشكر التام لله رب العالمين على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، وإنعامه على رسله وأهل طاعته بإظهار حججهم ونصرهم، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

(٤٦) ﴿قُلْ﴾: يقول اللّه تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾: إن أصمّكم الله؛ فذهب بأسماعكم، وأعماكم؛ فذهب بأبصاركم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾: طبع عليها؛ حتى لا تفهموا شيئًا، ولا تفقهوا قولاً، ولا تبصروا حُجة ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾: أيُّ إله غير اللّه يرد عليكم ما سلبه منكم من الأسماع والأبصار والأفهام؟ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: انظر: كيف نتابع عليها الحجج ونتوعها، ونبينها ونوضحها، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ونأتي بها من كل فن لتنير الحق، وتبين سبيل المجرمين ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ مع هذا البيان التام ﴿يَصْدِفُونَ﴾: يعرضون عن آيات الله.

(٤٧) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين العادلين بربهم، المكذبين بأنك رسولي: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾: عقابه على ما تشركون به، وتكذيبكم إياي بعد الذي عاينتم من البرهان على حقيقة قولي ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة على

(٤٤، ٤٥) أخرج أحمد بن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بقوم بقاء - أو: نماء - رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو: فتح عليهم - باب خيانة» ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

غِرة لا تشعرون ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ معاينة ترونه عند نزوله، وتنظرون إليه؛ ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الذين صاروا سببًا لوقوع العذاب بهم؛ بظلمهم وعنادهم وشركهم بالله تعالى.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين؛ أنه البشارة، والنذارة: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ قلبه بما جاءوا به واليوم الآخر، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ إيمانه وأعماله ونيته باتباعهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى وتركوه وخلّفوه وراء ظهورهم.

(٤٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ينالهم، ويذوقونه، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بما خرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته.

(٥٠) ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ لست مالكها ولا أتصرف في مفاتيح رزقه ورحمته ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ لا أقول لكم أني أعلم الغيب، وإنما ذلك كله من علم الله، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ ولا أدعي أني ملك إنما بشر يوحى إلي، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك، لست أخرج عنه قِيْد شبر، ولا أدنى منه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه فلم ينقد له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان، فتُنزلون الأشياء منازلها وتختارون أولاها.

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ خوّف بهذا القرآن فإنه نذارة للخلق كلهم، ولكن إنماينتفع به ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدَعُون ما يضرهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ ليس لهم يومئذ من دون الله ﴿وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا قريب لهم يتولى أمرهم، ولا من يشفع لهم من عذابه إن أراده بهم. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ لا تطرد عنك، ومن مجالستك، أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة، في أول النهار وآخره ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وهم قاصدون بذلك وجه الله، فهم مخلصون في عبادتهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ كلٌّ له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

(٥١، ٥٢) أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: فيّ نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له تُدْني هؤلاء. وفي رواية: كنا مع النبي ﷺ في ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

١٣٤

وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين، صبَّر نفسه معهم، بل كانوا أكثر أهل مجلسه.

(٥٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ ابتلينا واختبرنا وامتحنا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أراد ابتلاء الغني بالفقير، والشريف بالوضيع ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ فإذا مَنَّ اللّه بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة للغني والشريف إذا لم يكن صادقًا في طلب الحق، وكانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق، وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال اللّه مجيبًا لاعتراضهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس بشاكر، فإن اللّه تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا جاءك المؤمنون، فحيِّهم، ورحِّب بهم، ولقِّهم منك تحية وسلامًا، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أوجب على نفسه الكريمة الرحمة تفضلاً وإحسانًا وامتنانًا ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ جهالته من حيث أنه آثر المعصية على الطاعة، والعاجل القليل على الآجل الكثير ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ رجع عن ذنبه وأقلع عن المعاصي ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله وأخلص توبته وعزم ألا يعود في المستقبل ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به.

(٥٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي من الرشاد، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ليظهر ويتضح ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ طريق المجرمين المخالفين للرسل.

(٥٦) ﴿قُلْ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: لهؤلاء

(٥٤) أخرج مسلم عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم، وتسع وتسعون ليوم القيامة».

المشركين الذين يدعون مع اللَّه آلهة أخرى: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان، التي لا تملك نفعًا ولا ضرًا ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ إن اتبعت أهواءكم ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير طريق الهدى.

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أنا على يقين مبين بصحته، وبطلان ما عداه ﴿وَ﴾ لكنكم أيها المشركون ﴿كَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ إن استعجلتم من العذاب فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ إنما يرجع أمر ذلك إلى الله؛ إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ يقول الحق - وفي قراءة صحيحة: (يقضي)؛ أي: يحكم بالحق - ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ هو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده.

(٥٨) ﴿قُل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعنادًا وظلمًا: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لو كان مرجع ذلك إلي لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يهملهم.

(٥٩) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يعلمها إلا الله، وقد فسَّرها النبي ﷺ؛ كما في حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري: أن النبي ﷺ

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله»: ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات بريِّها وبحريِّها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النوابت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح

المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها.

(٦٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يخبر تعالى أنه يتوفاهم بالليل: وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية، وهو تعالى يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا، يتصرف فيهم، حتى يستوفوا آجالهم ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فيقضى بهذا التدبير، أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا إلى غيره ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجزيكم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(٦١) ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وكبريائه وعظمته كل شيء، فينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئًا، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظةً من الملائكة يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: إذا احتضر وحان أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدره اللَّه وقضاه ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

(٦٢) ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوٓاْ﴾ أي: الملائكة، ويحتمل أن يكون الخلائق ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له، له القضاء دون خلقه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ إذا حاسب؛

---

(٦٢) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء، التي فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء. ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول».

فحسابه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يَدٍ.

(٦٣) ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، الداعين معه آلهة، ملزمًا لهم ما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ شدائدهما ومشقاتهما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ علانية وسرًّا ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الشدة التي وقعنا فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله، أي المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

(٦٤) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ من هذه الشدة الخاصة، ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ومن جميع الكروب العامة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ معه الأصنام التي قد علمتم أنها لا تضر ولا تنفع، ولا توفون لله بما قلتم، وتنسون نعمه عليكم.

(٦٥) ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الرجم والحصب ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ بالخسف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يخلطكم فرقًا، ويبث فيكم الأهواء المختلفة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ في الفتنة، وقتل بعضكم بعضًا ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ننوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة، وكلها دالة على الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية.

(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش: الذين جئتهم بالهدى والبيان ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ: أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبر من أخبار القرون ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر، وهذا تهديد، ووعيد أكيد، ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما توعدون به من العذاب.

(٦٨) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، والمراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره؛ فإذا كان في كلام غيره، زال النهي المذكور.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذا جلست معهم ناسيًا فقم من عندهم بعد ما تذكرت.

---

(٦٥) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾»، قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هذا أهون - أو قال: هذا أيسر».

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

ع ١٤

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك؛ فقد برئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم، ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ ولكن ليذكرهم، ويعظهم.

(٧٠) ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم؛ لأنهم إذا سمعوا آيات اللّه استهزؤوا بها، وتلاعبوا عند ذكرها ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ذكر بالقرآن، ما ينفع العباد، أمرًا، وتفصيلاً؛ لئلا تسلم للهلاك قبل اقتحام العبد للذنوب، وتجرئه على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المرهوب.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قبل أن تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون اللّه أحد، ولا يشفع لها شافع ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبًا ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ لا يقبل ولا يفيد.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ توعد اللّه الكافر بالعذاب المؤلم الموجع.

(٧١) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين باللّه، الداعين معه غيره: ﴿أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ وهذا وصف يدخل فيه كل مَن عُبِد مِن دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وننقلب بعد هداية اللّه لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه الموصل إلى مقصده، فبقي ﴿حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائرًا، وهذه حالة الناس كلهم؛ إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواع متعارضة، دواعي الرسالة، والعقل الصحيح، والفطرة السليمة، يدعونه إلى الهدى ودواعي الشيطان ومن سلك مسلكه ، والنفس الأمارة

بالسوء يدعونه إلى الضلال.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها اللَّه على لسان رسوله، وما عداه، فهو ضلال وردى وهلاك ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم اللَّه بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها، وسننها ومكملاتها. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها.

(٧٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل؛ فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما، خلقهما ليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ولا مثنوية، ولا يقول شيئًا عبثًا ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يوم القيامة، خصه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا اللَّه الواحد القهار ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه لا يغيب عن علمه شيء.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي له الحكمة التامة،

الجزء السابع — سورة الأنعام

نصف الحزب ١٤

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

١٣٧

والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

(٧٤) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثنيًا عليه ومعظمًا في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، وأنه وعظ أباه في عبادة الأصنام ونهاه عنها، فقال له: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ لا تنفع ولا تضر، وليس لها من الأمر شيء ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ السالكين معك. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾

(٧٣) أخرج الترمذي وأحمد وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن صاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ».

(٧٤) أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له أبوه: يا بني، اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب! ألم تعدني أنك لا تخزيني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك. فإذا هو بذِيْخ - ذكر الضبع - متلطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار».

تائهين لا يهتدون؛ حيث عبدتم من لا يستحق العبادة وتركتم عبادة خالقكم ورازقكم ومدبركم ﴿مُّبِينٍ﴾ بين واضح لكل ذي عقل صحيح.

(٧٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ليرى ببصيرته، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أظلم ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ نجمًا مضيئًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾؛ أي: هذا ربي على وجه التنزل مع الخصم، فهلم ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب ذلك الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ الذي يغيب ويختفي عمن عبده، علم أن ربه دائم لا يزول؛ لأن المعبود بحق لابد أن يكون قائمًا بمصالح من عبده ومدبرًا له في جميع شؤونه.

(٧٧) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعًا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ تنزلاً ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده اللَّه فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته، فلا معين له.

(٧٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أكبر من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ فلما غابت تقرر حينئذ الهدى، واضمحل الردى فـ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

(٧٩) ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه مخلصًا له ديني ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان.

وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته؛ فليس عليه دليل.

(٨٠) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ خاصمه وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشُبَه من القول، ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أتجادلوني في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرني، وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فأيّ فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ ومن الدليل على بطلان دينكم: أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها صنع فكيدوني بها جميعًا ولا تنظرون؛ بل عاجلوني بذلك.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ إن يشأ ربي شيئًا من سوء فيكن ما شاء، فلا يضر ولا ينفع إلا اللَّه ﷻ ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أحاط علمه بكل شيء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فيما بينته لكم، فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وحالها حال العجز، وعدم النفع ﴿وَلَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ إلا مجرد اتباع الهوى من غير حجة ولا برهان ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾ أي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد مَن بيده الضر والنفع، أو الذي عبد مَن لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب اللَّه يوم القيامة ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؟!

(٨٢) قال اللَّه تعالى فاصلاً بين الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾ لم يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً؛ لا بشرك ولا معاصي؛ حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة.

(٨٣) ولما حكم لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بما بيّن به من البراهين القاطعة، قال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ وجّهنا حجته عليهم. ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ علا بها عليهم وفلجهم بها، كما رفعنا درجات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله، ﴿عَلِيمٞ﴾ بمن يهديه ومن يضله، وإن قامت عليه الحجج والبراهين.

(٨٤) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ وهبنا لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد ﴿وَيَعۡقُوبَۚ﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله اللَّه على العالمين، ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿هَدَيۡنَاۚ﴾ عالمي زمانهم ﴿وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ من قبل إبراهيم، وهدايته من أنواع الهدايات الخاصة؛ لأنه أحد أولي العزم من الرسل ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي جملتهم يونس ولوطًا ولم يكونا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب ﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾ ابني عمران ﴿وَ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل؛ لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة، بحسب إحسانهم.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم

---

(٨٢) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله! أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون! ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ إنما هو الشرك».

﴿وَإِلۡيَاسَ﴾ ﴿كُلّٞ﴾ من هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

(٨٦) ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم: محمد ﷺ﴿وَيُونُسَ﴾ ابن متى ﴿وَلُوطٗاۚ﴾ بن هاران أخي إبراهيم ﴿وَكُلّٗا﴾من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم اللَّه في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك.

(٨٧) ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ﴾ وهدينا من آباء هؤلاء المذكورين وذرياتهم وإخوانهم ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ اخترناهم ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أرشدناهم.

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدى المذكور ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ دين الله، الذي لا هدى إلا هداه ﴿يَهۡدِي بِهِۦ﴾ يرشد به﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾.

﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ﴾ هؤلاء الذين سميناهم، على الفرض والتقدير ﴿لَحَبِطَ عَنۡهُم﴾ لبطل وذهب ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فإن الشرك محبط للعمل، موجب للخلود في النار، فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم- لحبطت أعمالهم فغيرهم أولى.

(٨٩) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هؤلاء الذين سميناهم من الأنبياء والرسل هم الذين ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الكتب المنزلة عليهم ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ العلم والفقه ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا﴾ فإن يكفر يا محمد بآيات كتابي الذي أنزلته إليك ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾المشركون العادلون بربهم من كفار قريش وغيرهم ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا﴾ المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يجحدون شيئًا منها، ولا يردون منها حرفًا واحدًا؛ بل يؤمنون بجميعها، محكمها ومتشابهها، جعلنا اللَّه منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

(٩٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ هداهم الله، فهم أهل الهداية لا غيرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ فبسنتهم وسيرتهم ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ اقتد واتبع.

وقد امتثل ﷺ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت له فضائل فاق بها جميع العالمين، وخصائص كان بها سيد المرسلين، وبهذا استدل الصحابة أن رسول اللَّه ﷺ أفضل الرسل كلهم، وإذا كان هذا أمرًا للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه لهم، ويأمرهم به.

﴿قُل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ لا أطلب منكم مغرمًا ومالاً، جزاء عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم؛ فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على اللَّه ﴿إِنۡ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ يتذكرون به ما

(٨٩) أخرج ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» وابن عدي في «الكامل» والعقيلي في الضعفاء عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري عن النبي ﷺ قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه- : هو مرسل، لكن له شواهد كثيرة، أكثرها شديد الضعف، لكن بعضها يسلم من الضعف الشديد؛ فهو بها حسن؛ كما فصلته في كتابي : «إرشاد الفحول إلى تحرير النقول في تصحيح حديث العدول».

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

ع ١٧

ينفعهم، فيفعلونه وما يضرهم فيذرونه، ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن اللَّه ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا فما قدَّر اللَّه حق قدره، ولا عظّمه حق عظمته؛ إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم.

﴿قُلْ﴾ لهم ملزمًا بفساد قولهم وقرِّرْهم بما به يقرون: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾ في ظلمات الجهل ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ من الضلالة، وهاديًا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملاً ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ تكتبون عنه دفاتر وكتبًا مقطعة ﴿تُبْدُونَهَا﴾ تبدون ما تحبون ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ من نعت محمد ﷺ.

﴿وَعُلِّمْتُم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ومن أنزل القرآن الذي علمكم اللَّه فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي، ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ﴿ثُمَّ﴾ إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

(٩٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ القرآن الذي ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾ وَصْفُه البركة، وذلك لكثرة خيراته، وسعة مَبَرَّاته ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق، وأنزلناه أيضاً ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي: مكة المكرمة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من ديار العرب، بل، ومن سائر البلدان ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ كل من آمن باللَّه واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها، ومكملاتها، جعلنا

(٩١) أخرج ابن أبي حاتم والطبري في «تفسيريهما» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾؛ يعني: في بني إسرائيل، قالت اليهود: يا محمد، أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: «نعم» قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً». قال: فأنزل الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ الآية، قال: «الله أنزله».

اللَّه منهم.

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلمًا، ولا أكبر جرمًا، ممن كذب على الله، بأن نسب إلى اللَّه قولاً أو حكمًا وهو تعالى بريء منه.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر اللَّه عليه، ويجاري اللَّه في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله.

ولما ذم الظالمين، ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ شدائده وأهواله الفظيعة، وكُرَبه الشنيعة؛ لرأيت أمرًا هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيها للخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تَرَفَّعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها.

وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه.

(٩٤) هذا خبر من الله تعالى أنه يقول للكفار يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ وحداناً، لا مال معكم، ولا زوج، ولا ولد، ولا خدم﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراة حفاة غرلاً.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ من النعم والأموال التي أعطيناكم، وأنعمنا عليكم في الدار الدنيا ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئًا ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾: تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد، والأصنام، والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَم معاد ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تُجْد شيئًا ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الربح، والأمن والسعادة، والنجاة، التي زينها لكم الشيطان، وحسنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم، واغتررتم بهذا الزعم الباطل، الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

---

(٩٤) أخرج مسلم من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت». وزاد من حديث أبي هريرة: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

(٩٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، وأنه هو الذي فلق الحَبَّ فيشق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار، من النخيل والفواكه، وغير ذلك.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيوانًا، ومن البيضة فرخًا، ومن الحب والنوى زرعًا وشجرًا ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح، ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضًا، ونحو ذلك.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿ٱللَّهُ﴾ ربُّكم الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربَّى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا؟!

(٩٦) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئًا فشيئًا، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم، ومعايشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

﴿وَجَعَلَ﴾ الله ﴿ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها،

سورة الأنعام — الجزء السابع

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

١٤٠

والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل اللَّه ذلك بالضياء، وهكذا أبدًا إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾ جعل تعالى ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي مِن عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فَجَرَتْ مذللة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده اللَّه لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

وكثيرًا ما إذا ذكر اللَّه تعالى خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ

ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧- ٣٨].

(٩٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ﴾ حين تشتبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل اللّٰه النجوم هداية للخلق إلى السبل التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله: أن اللّٰه جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

ودلت الآية: على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها، الذي يسمى: علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ بيّناها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات اللّٰه بادية ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب.

(٩٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنشأ اللّٰه منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ وجعل اللّٰه لهم مستقرًّا، منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار، التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار، هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأما هذه الدار، فإنها ﴿وَمُسْتَوْدَعٌۗ﴾مستودع وممر في الدنيا ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ عن اللّٰه آياته، ويفهمون عنه حججه وبيناته.

(٩٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وهذا من أعظم مننه العظيمة، التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعًا وقت حاجة الناس إليه، فأنبت اللّٰه به كل شيء، مما يأكل الناس والأنعام.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، وذكر الزرع والنخل؛ لكثرة نفعهما وكونهما قوتًا لأكثر الناس، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من ذلك النبات الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، من بُر، وشعير، وذرة، وغير ذلك من أصناف الزروع.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ أخرج اللّٰه ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ وهو الكُفُرَّى وهو الوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قِنْوَانٌ﴾ وهي عُذُوق الرُّطب﴿دَانِيَةٌ﴾قريبة سهلة التناول متدلية لمن أرادها ﴿وَ﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع.

﴿مُشْتَبِهًا﴾ مشتبهًا في شجره وورقه ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ في ثمره ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾، أي: النخل.

﴿إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه، عقلًا، وفطرةً، وشرعًا.

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ يخبر تعالى: -أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم، بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به، من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء، يدعونهم، ويعبدونهم، من الجن والملائكة ﴿وَ﴾ قد ﴿خَلَقَهُمْ﴾، فهم خلق من خلق الله، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ ائتفكوا، وافتروا من تلقاء أنفسهم ﴿لَهُۥ﴾ لله ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تقدس وتنزه عما يصفه الجهلة الضالون؛ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، وآفة وعيب.

(١٠١) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما، ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، والولد إنما يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي لله سبحانه صاحبة - أي: زوجة - فيكون له ولد، ﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله الذي خلق كل شيء لا يخفى عليه ما خلق ولا شيء منه.

وفي ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات وما اشتملت عليه في النظام التام والخلق الباهر.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق كل شيء وقدَّره تقديرًا ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربى جميع

الجزء السابع — سورة الأنعام

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

١٤١

الخلق بالنعم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ إذا استقر وثبت أنه اللّه الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ جميع الأشياء، تحت حفظ اللّه وتدبيره، خلقًا، وتدبيرًا، وتصريفًا.

(١٠٣) ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لعظمته، وجلاله، وكماله، لا تحيط به الأبصار، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا، والخبايا والبواطن.

وهذه الآية ليس فيها حجة لمذهب المعطلة الذين ينفون رؤية ربهم، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم؛ فإن نفي الإدراك الذي هو أخص أوصاف

الرؤية؛ دل على أن الرؤية ثابتة.

(١٠٤) لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لِما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ صادرة من الرب، الذي ربى خلقه، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها، تبيين الآيات، وتوضيح المشكلات.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بتلك الآيات، مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عمل، ونفعه له، فإن اللّه هو الغني الحميد ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بأن بُصّر فلم يتبصر، وزُجِر فلم ينزجر، وبين له الحق فما انقاد له ولا تواضع، فإنما عماه مضرته عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ أي الرسول ﴿عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام، وإنما عليَّ البلاغ المبين، وقد أديتُه.

(١٠٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نفصلها ونبينها في كل وجه ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾؛ أي: المشركون والكافرون والمكذبون ﴿دَرَسْتَ﴾ قرأت وتعلمت يا محمد ممن قبلك من أهل الكتاب ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه.

(١٠٦) ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ اقتد بالقرآن واقتف أثره واعمل به ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم، فلا تجادلهم حتى يفتح اللّه لك، وينصرك ويظفرك عليهم.

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ لو شاء اللّه لجعلهم مؤمنين، بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ حافظًا تحفظ أقوالهم وأعمالهم، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ موكل على أرزاقهم وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ينهى اللّه المؤمنين عن أمر كان جائزًا، بل مشروعًا في الأصل؛ وهو: سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثانًا وآلهة مع الله، التي يُتقرب إلى اللّه بإهانتها وسبها ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولكن لما كان هذا السب طريقًا إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة، وسب، وقدح؛ نهى اللّه عن سب آلهة المشركين، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ لأن كل أمة زين اللّه لهم عملهم فرأوه حسنًا، وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون اللّه رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولكن الخلق كلهم، مرجعهم ومآلهم، إلى اللّه يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية: دليل للقاعدة الشرعية: إن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قسمًا اجتهدوا فيه وأكدوه ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ معجزة،

تدل على صدق محمد ﷺ ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إليَّ توضيح ما جئتكم به، وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك، فليس معلومًا، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله، أنه لا يؤمن ولهذا قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في ضلالهم وكفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون.

(١١١) ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم مشاهدة، ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ اللَّه إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون.

وهذه الآية؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧].

(١١٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ يقول تعالى -مسليًا لرسوله محمد ﷺ -: وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا: أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة؛ ليغتر به السفهاء ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: وذلك كله بقدر اللَّه وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدوًّا من هؤلاء ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدعهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون؛ أي: دع أذاهم وتوكل على اللَّه في عداوتهم، فإن اللَّه كافيك وناصرك عليهم.

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾ ولتميل إلى ذلك الكلام

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

المزخرف ﴿أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ ونتيجة لرضاهم بالباطل أنهم يقترفون - أي يكسبون - من الأعمال والأقوال ما هم مكتسبون.

(١١٤) قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين باللّه غيره، الذين يعبدون غيره: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ بيني وبينكم أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه، فإن غير اللّه محكوم عليه لا حاكم.

﴿وَهُوَ﴾ اللّه وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ موضّحًا فيه الحلال والحرام، ومبينًا الأحكام الشرعية.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وأهل الكتب السابقة، من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ولهذا تواطأت الإخبارات ﴿فَلَا﴾ تشكَّنَّ في ذلك ، ولا ﴿تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ من الشاكين أنهم يعلمون ذلك.

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي، فلا أصدق من أخبار اللّه التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها، وليس أحد يعقب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده بسائر الأصوات، واختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل، ويجازي كل عامل بعمله.

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يخبر اللّه تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة، وأوهام باطلة.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وذلك كله قدر اللّه ومشيئته حيث يعلم الضالين وييسرهم للعسرى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي فييسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

(١١٨) ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين، بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم اللّه عليه: من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة،

(١١٨) أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله! فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية من تحريم كثير من الحلال، ابتداعًا من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر اللَّه أن علامة المؤمن مخالَفةُ أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله.

(١١٩) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أيّ شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم اللَّه عليه، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وقد فصل اللَّه لعباده ما حرم عليهم، وبينه، ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفًا من الوقوع في الحرام.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ ومع ذلك، فالحرام الذي قد فصله اللَّه وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة.

ثم حذر عن كثير من الناس؛ فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم﴾ بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا حجة، لأن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام، فهو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم.

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي، التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، فنهى اللَّه عباده عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب.

سورة الأنعام — الجزء الثامن

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٤٣

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ ثم أخبر تعالى، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلَّت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا؛ يعاقب العبد فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ نهى عن أكل الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: وإن أكل ما لم يذكر الله عليه من الميتة، وما أهل به لغير الله؛ لفسق. .

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾

---

(١٢٠) أخرج مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ من الإثم؟ فقال: «الإثم: ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه».

أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا؛ فإن المشركين حين سمعوا تحريم اللَّه ورسوله الميتةَ، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة ولا برهان-: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك الميتة.

وهذا رأي فاسد لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

فتبًّا لمن قدم هذه العقول على شرع اللَّه وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة: على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل بمجردها على أنها حق ولا تصدق حتى تعرض على كتاب اللَّه وسنة رسوله.

(١٢٢) ﴿أَوَ مَن كَانَ﴾ من قبل هداية اللَّه له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم، والإيمان، والطاعة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات: ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي؟ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقًّا.

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم، بالقول والفعل ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه كذلك، وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم مَن أضلوه إلا على أنفسهم.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ حجة قاطعة من الله تعالى على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ من عند

---

(١٢٢) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه النور اهتدى، ومن أخطأه ضل».

(١٢٤) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه».

الله وحقيقته ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة، وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعُجْبٌ بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجر على فضل اللَّه وإحسانه.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خُلُق جميل، ومتبرئ من كل خلق دنيء، أعطاه اللَّه منها ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعًا، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه، عند من لا يستأهله، ولا يزكو عنده.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾ إهانة وذل، كما تكبروا على الحق أذلهم اللَّه، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، لا ظلمًا منه تعالى.

(١٢٥) ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يخبر اللَّه تعالى أن من انشرح صدره للإسلام، اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذًا به غير مستثقل، فإن هذا علامة على أن اللَّه قد هداه، ومَنَّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ وأن علامة من يرد اللَّه أن يضله، أنه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أن يجعل صدره ضيقًا حرجًا أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء،

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾

١٤٤

الذي لا حيلة له فيه.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا سببه، عدم إيمانهم، وهو الذي أوجب أن يجعل اللَّه الرجس عليهم.

(١٢٦) ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الصراط المستقيم: القرآن، وهو الإسلام ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ معتدلاً موصلاً إلى الله، وإلى دار كرامته ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر، ولكن هذا التفصيل والبيان، ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد اللَّه لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل.

(١٢٧) فلهذا قال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة، دار السلام؛ لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾

الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم.

(١٢٨) يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخًا للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزُّوهم إلى المعاصي: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ من إضلالهم، وصدهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد اللّه عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ وأما أولياؤهم من الإنس، فأبدوا عذرًا غير مقبول، فقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ تمتع كل من الجني والإنسي بصاحبه، وانتفع به ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وقد وصلنا المحل الذي نجازى فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ خالدين في النار سوى ما شاء اللّه من أنواع العذاب، والاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم اللّه أنهم يسلمون؛ فيخرجون من النار.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها.

(١٢٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما ولَّيْنَا الجن المردة وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب كسبهم وسعيهم بذلك، كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه.

(١٣٠) ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جملتكم، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن؛ كما قد نص على ذلك غير واحد من الأئمة من السلف والخلف ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يقرؤون عليكم كتبي الواضحات البينات ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه، والفوز إنما هو بامتثال أوامر اللّه واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، فـ﴿قَالُوا۟﴾: بلى ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أنهم قد بلغوا. وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخرفها، ونعيمها فاطمأنوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد، حتى هم بأنفسهم، عدل اللّه فيهم.

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم؛ كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ

رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لم ينذروا حتى تبعث إليهم رسلاً ينذرونهم.

(١٣٢) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ منهم ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ لكل عامل من طاعة اللَّه أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه اللَّه إياها ويثيبه بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، بحسب أعمالهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

(١٣٣) يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ وهو مع ذلك رحيم رؤوف بهم، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك إذا خالفتم أمره ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ قومًا آخرين يعملون بطاعته ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ كما أوجد القرون الأولى وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

(١٣٤) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، فلا يستبعد المُعرِض سرعة الوصول إلى هذه الدار ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا تعجزون

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

اللَّه بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم ترابًا رفاتًا وعظامًا، هو قادر لا يعجزه شيء.

(١٣٥) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى اللَّه فامتنعوا من الانقياد لأمره: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ على أمر اللَّه ومتبع لمراضيه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، أي استمِرُّوا على طريقتكم فستعلمون ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ منا ومنكم، وعاقبة الدار هي الجنة. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته في الاضمحلال والتلف؛ إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ كان المشركون يجعلون لله

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

نصف الحزب ١٥

مما خلق وبرأ ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ من الزروع والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل، والبقر، والغنم ﴿نَصِيبًا﴾ جزاءًا وقسمًا ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ وفي هذا تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله به. ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ للأوثان. ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ﴾ والمعنى: أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءاً، وللوثن جزءاً؛ فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه، وقالوا: الله غني، والصنم فقير!. أو كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزؤوا لله وأكلوا منه، ووفروا ما جزؤوا لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئًا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس ما يصنعون.

(١٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي: وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار، ومعنى قوله ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ شياطينهم. ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ﴾ ليخلطوا عليهم ﴿دِينَهُمْ﴾ ليدخلوا عليهم الشك في دينهم، وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ﴾ لو شاء اللَّه لعصمهم حتى ما فعلوا ذلك من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا اللَّه شيئًا، وسيحكم اللَّه بينك وبينهم.

(١٣٨) ﴿وَقَالُواْ﴾: المشركون ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ محرم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف من عندنا وكل هذا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ لا مستند لهم، ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها: الحام، وأنعام لا يذكرون اسم اللَّه عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون اللَّه عليها، ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ﴾ وينسبون تلك الأفعال إلى الله،

وهم كذبة فُجَّار في ذلك، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

(١٣٩) ﴿وَقَالُوا۟﴾ ومن آرائهم السخيفة قولهم: إن بعض الأنعام - ويعينونها - محرم ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم حلال لهم لا يشاركهم فيها النساء، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ نسائنا، هذا إذا وجد حيًّا ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ وإن يكن ما في بطنها يولد ميتًا، فهم فيه شركاء، فهو حلال للذكور والإناث ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافيهم ويرزقهم ﷻ.

(١٤٠) ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي، والضلال، ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أَحَلِّ الحلال، وكل هذا ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ كذبًا يكذب به كل معاند كفَّار، ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ قد ضلوا ضلالاً بعيدًا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

(١٤١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ بعض تلك الجنات مجعول لها عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرش في الأرض ﴿وَ﴾ أنشأ تعالى ﴿ٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل. ﴿وَ﴾ أنشأ تعالى: ﴿ٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ في شجره ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في ثمره وطعمه ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ النخل والزرع ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلًا يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع، بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه.

وفي هذه الآية: دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها،

---

(١٤٠) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب؛ فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

(١٤١) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أمر من كل جادّ عشرةِ أوسقٍ من التمر، بِقِنْوٍ يعلق في المسجد للمساكين.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٧

وأنه لا تتكرر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة.

(١٤٢) ﴿وَ﴾ خلق وأنشأ ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ﴾ بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها، وهي الفرش ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ كلوا من الثمار والزروع والأنعام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ طرقه وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله ﴿إِنَّهُۥ﴾ إن الشيطان؛ أيها الناس ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة؛ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدي.

(١٤٣) ثم فصل الله تعالى هذه الأنعام التي امتن بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الغنم، ومنه ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ كذلك، فهذه أربعة كلها داخلة فيما أحل الله لا فرق بين شيء منها، فـ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكلفين الذين يحرمون منها شيئا دون شيء، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله، فلستم تقولون بذلك وتطردونه ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم، لا تحريم الذكور الخلص، ولا الإناث الخلص من الصنفين.

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى، أو على مجهول، فقال: ﴿ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾ أي: أم تحرمون ﴿ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، أي: أنثى الضأن وأنثى المعز، من غير فرق بين ذكر وأنثى، فلستم تقولون أيضًا بهذا القول، فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك فإلى أي شيء تذهبون؟! ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم ودعواكم.

(١٤٤) ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾ ثم ذكر الإبل ذكورها وإناثها والبقر كذلك، وأنه تعالى لم يحرم من ذلك، ولا شيئًا من أولادها ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ لم يبق عليكم إلا دعوى أن تقولوا: إن الله وصّانا بذلك، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لا أحد أظلم منه ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ مع كذبه وافترائه على الله، قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور، والافتراء على الله.

(١٤٥) ﴿قُل﴾ قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ لا أجد شيئًا مما حرمتم سوى هذه ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ والميتة: ما مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يحل ﴿أَوۡ دَمًا مَّسۡفُوحًا﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها؛ فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ خبث نجس مضر ﴿أَوۡ﴾ إلا أن يكون ﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي: مريدٍ لأكلها من غير اضطرار ﴿وَلَا عَادٖ﴾ ولا متعد، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فالله قد سامح من كان بهذه الحال.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾

ثلاثة أرباع الحزب ١٥

١٤٨

(١٤٦) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ وليس المحرم شحم الألية والثَّرْب،

---

(١٤٥) أخرج أبو داود والحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو. وتلا هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ إلى آخر الآية.

وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - قال: «فلولا أخذتم مَسْكَها؟»- يعني جلدها - قالت: نأخذ مَسْك شاة قد ماتت؟! فقال: رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه فتنتفعوا به». فأرسلت فسلخت مَسْكَها فدبغته، فاتخذت منه قِرْبة، حتى تخرقت عندها. وبنحوه عند البخاري.

(١٤٦) أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله! أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود، ويطلى بها السفن، ويستصبح بها؟ فقال: «لا، هو حرام» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لمّا حرم عليهم شحومها جملوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه».

ولهذا استثنى الشحم الحلال في ذلك ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ الشحم المخالط للأمعاء ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم على اليهود ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ ظلمهم وتعديهم في حقوق اللَّه وحقوق عباده ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به.

(١٤٧) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ فإن كذبك هؤلاء المشركون فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن اللَّه ذو رحمة وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة اللَّه ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ عامة شاملة للمخلوقات كلها. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ وهذا ترهيب لهم في مخالفتهم الرسول الخاتم ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كثر إجرامهم وذنوبهم.

(١٤٨) ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ هذا إخبار من اللَّه أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله، بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة اللَّه الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر اللَّه أنهم سيقولونه.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ فأخبر تعالى أن هذه الحجة، لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تُجْدِ فيهم شيئًا ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله، وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل اللَّه بهم العذاب؛ لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم ألداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه عُلم أنه لا علم لهم، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي الوهم والخيال. والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على اللَّه فيما ادعيتموه.

(١٤٩) يقول اللَّه تعالى لنبيه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هدى، وإضلال من ضل ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدره ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين؛ كما في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

(١٥٠) ﴿قُلْ﴾ قل لمن حرَّم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أحْضِروا شهداءكم الذين يشهدون أن اللَّه حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما ألاَّ يحضروا أحدًا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذًا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما أن يحضروا أحدًا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم، غير مقبول الشهادة ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبًا وزورًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوون به غيره من الأنداد والأوثان، فإذا كانوا كافرين بالآخرة، وأهويتهم مناسبة لعقيدتهم، فحريٌ بهوى هذا شأنه أن ينهى اللَّه خيار خلقه عن

اتباعه.

(١٥١) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمًا عامًّا شاملاً لكل أحد، محتويًا على سائر المحرمات ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ لا قليلاً ولا كثيرًا.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ من ذكور وإناث ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ النفس المسلمة، من ذكر وأنثى، صغير وكبير، بر وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالزاني المحصن، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

١٤٩

﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها.

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل، أو معاوضة، على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم، وينتفعون بها ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ حتى يبلغ ويرشد، ويعرف التصرف ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والوفاء التام، فإذا اجتهدتم في ذلك، فـ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بقدر ما تسعه، ولا تضيق عنه.

---

(١٥١) أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على ثلاث؟» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات: «فمن وفى؛ فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً؛ فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة، فأمره إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه» وأصله في «الصحيحين».

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ في قولكم، بمراعاة الصدق ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فيمن تحبون ومن تكرهون ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاقد به بين الخلق، فالجميع يجب الوفاء به.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما بينه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية اللّه لكم حق القيام، وتعرفون ما فيها، من الحِكَم والأحكام.

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه اللّه في كتابه، ووضحه لعباده، صراط اللّه الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الطرق المخالفة لهذا الطريق ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تضلكم عنه وتفرقكم يمينًا وشمالاً، فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم، فليس ثَم إلا طرق توصل إلى الجحيم ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه اللّه لكم علمًا وعملاً صرتم من المتقين.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ﴾ ليس المراد منها الترتيب الزماني ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالاً لإحسانه ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ من أمة موسى ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير ﴿لَعَلَّهُم﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال وما يوجب لهم الإيمان بلقاء ربهم والاستعداد له.

(١٥٥) ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فيه الخير الكثير والعلم الغزير ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهى ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ اللّه تعالى أن تخالفوا له أمرًا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فهو أكبر سبب لنيل رحمة الله.

(١٥٦) ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أنزلنا إليكم هذا الكتاب قطعًا لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين قبلنا أي اليهود والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ تقولون لم تنزل علينا كتابًا، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة.

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا بعدم كمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال:

---

(١٥٣) أخرج أحمد وغيره بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو له» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا اسم جنس، يدخل فيه كل ما يبين الحق ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ سعادة لكم في دينكم ودنياكم، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض ونأى بجانبه ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ لأنفسهم ولغيرهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة التي يُعلم بها قرب الساعة ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه إن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيرُه بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك.

﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فستعلمون أينا أحق بالأمن.

سورة الأنعام — الجزء الثامن

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

١٥٠

(١٥٩) ثم توعد الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ الذين فرقوا دينهم، وشتتوه وتفرقوا فيه فقال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ لست منهم وليسوا منك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ثم ذكر صفة الجزاء فقال:

(١٦٠) ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية،

---

(١٥٨) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾».

(١٦٠) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر؛ فذلك صيام الدهر» فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فاليوم بعشرة أيام.

أخرج أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغو؛ فهو منها، ورجل حضرها بدعاء؛ فهو رجل دعا الله؟ فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها، وزيادة ثلاثة أيام، وذلك؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(١٦١) ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائمًا ثابتًا، ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وهو الدين الحنيف، المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين.

(١٦٢) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله وذبحه على اسم الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ ما آتيه في حياتي، وما يقدر عليَّ في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٦٣) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الخلق والملك والتدبير، ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرًا حتمًا ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة.

(١٦٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ من المخلوقين ﴿أَبْغِى رَبًّا﴾ أتخذ غيره مربيًا ومدبرًا ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بل كلٌّ عليه وزر نفسه وإن كان أحد تسبب في ضلال غيره فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضًا ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في القوة والعافية والرزق والخلق

---

(١٦١) أخرج أحمد والدارمي والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين».

(١٦٢، ١٦٣) أخرج مسلم في «صحيحه» عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح، ثم قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، «اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك». ثم ذكر تمام الحديث فيما يقول في الركوع، والسجود، والتشهد.

(١٦٥) أخرجه مسلم عند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الله، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

والخُلق ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ فتفاوتت أعمالكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ لمن آمن به وعمل صالحًا وتاب من الموبقات.

سورة الأعراف
وهي مكية

(١) ﴿الٓمٓصٓ﴾ قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف، وبيان الأسلم في ذلك.

(٢) ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ كتاب جليل، حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ ضيق وشك واشتباه ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الخلق وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على الكافرين ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم.

(٣) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ الكتاب الذي أُريد إنزاله لأجلكم، وهو: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه، كملت تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾: تتولونهم، وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة، لما آثرتم الضار على النافع، والعدو على الوليّ.



(٤) ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ عذابنا الشديد ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلًا ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ أو وقت القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾ فما كان قولهم عند مجيء العذاب ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إلا أن اعترفوا بذنوبهم.

(٦) ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل اللَّه إليهم المرسلين، عما أجابتهم رسلهم ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أممهم.

(٧) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم﴾ على الخلق كلهم ما عملوا

(٦) أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده، ومسؤول عن رعيته». وعند ابن مردويه: وقرأ ابن طاووس: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

١٥٢

﴿بِعِلْمٍ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ في وقت من الأوقات.

(٨) ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ الوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب.

(٩) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم، ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فلم ينقادوا لها، كما يجب عليهم ذلك.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هيأناها لكم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النقم.

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ بخلق أصلكم ومادتكم التي منها خرجتم من أبيكم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في أحسن صورة، وأحسن تقويم ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ ثم أمر الملائكة الكرام، أن يسجدوا لآدم، إكرامًا له واحترامًا، وإظهارًا لفضله، فامتثلوا أمر ربهم ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كلهم أجمعون ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبى أن يسجد له؛ تكبرًا عليه، وإعجابًا بنفسه.

(١٢) فوبخه الله على ذلك، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ما ألزمك واضطرك ألاَّ تسجد إذ أمرتك؟! ﴿قَالَ﴾ إبليس معارضًا لربه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. وهذا القول من العذر الذي هو أكبر من الذنب، ويعني لعنه الله: فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وموجب هذا، أن المخلوق من نار، أفضل من المخلوق من طين؛ لعلو النار على الطين، وصعودها. وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ فهو في مقابلة أمر الله، والقياس إذا عارض النص فهو باطل. وكذب إبليس في ادعائه أنه خير من آدم، ففي مادة الطين الخشوع والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض، وأما النار؛ ففيها الخفة والطيش والإحراق.

(١٣) فقال الله له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ المهانين الأذلين.

(١٤) ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ سأل الله النَّظِرة والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من

إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ولما كانت حكمة اللَّه مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم؛ ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ومن يطيع عدوه، أجابه لما سأل.

(١٦) ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ كما أضللتني ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق وسبيله النجاة، ولأسعى غاية جهدي على صدِّ الناس عنه.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ موحدين.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ خروج صَغَار واحتقار ﴿مَذْءُومًا﴾ مذمومًا ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعدًا عن الله، وعن رحمته ﴿لَّأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهذا قسم من اللَّه تعالى: أن النار دار العصاة، لابد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

(١٩) ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ يذكر اللَّه تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء - التي أنعم اللَّه بها عليه ليسكن إليها - الجنة ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وأن يأكلا من الجنة من جميع ثمارها حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ إلا أنه عين لهما شجرة ونهاهما عن أكلها، واللَّه أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا، وحرم عليهما أكلها بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٢٠) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿وَقَالَ﴾ كذبًا وافتراء ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ من جنس الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ خالدين هاهنا، لو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما؛ كما في الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

(٢١) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما باللَّه ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ من جملة الناصحين، حيث قلت لكما ما قلت، فإني من قبلكما هاهنا، وأعلم بهذا المكان. فاغترا بذلك.

(٢٢) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أنزلهما عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي، إلى التلوث بأوضارها، فأقدما على أكلها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: ظهرت عورة كل منهما

(١٦، ١٧) أخرج أحمد والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح عن سبرة بن أبي الفاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟» قال: «فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جَهْدُ النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟» قال: «فعصاه فجاهد قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات؛ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة».

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

بعدما كانت مستورة ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة؛ ليستترا بذلك ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ وهما بتلك الحال موبخًا ومعاتبًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلِمَ اقترفتما المنهي وأطعتما عدوكما.

(٢٣) ﴿قَالَا﴾ فاعترفا بذنبهما وسألا من اللَّه مغفرته فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه، وأضررنا بأنفسنا، باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا؛ فغفر اللَّه لهما ذلك عليه.

وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه عز وجل.

(٢٤) ﴿قَالَ﴾ اللَّه لهما وللشيطان: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ جميعًا من الجنة إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ متعادين ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تتمتعون وتنتفعون ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاء آجالكم.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يخبر اللَّه تعالى أنه يجعل الأرض دارًا لبني آدم مدى الحياة الدنيا، فيها محياهم فلا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ففيها مماتهم وقبورهم ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ثم إذا استكملوا بعثهم اللَّه، وأخرجهم منها إلى الدار الحقيقية التي هي دار المقامة.

(٢٦) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ ثم امتن عليهم بما يسر لهم، من اللباس الضروري، واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء قد يسر اللَّه للعباد ضروريها، ومكمل ذلك، وبين لهم أن هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنما أنزله الله؛ ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي؛ فإن لباس التقوى، يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم، وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن.

(٢٧) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بأن يزين

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتنقادون له ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وأنزلهما من المحل العالي الذي أنزلا منه، فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ يراقبكم على الدوام من شياطين الجن ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ إن عدواً يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة، إلا من عصم الله ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فعدم الإيمان، هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان.

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ وهي: كل ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك: طوافهم بالبيت عراة ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ اتبعوا فيه أباءهم ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ يعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ لا يليق بكماله وحكمته، أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، فأي افتراء أعظم من هذا؟!

(٢٩) ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالعدل في العبادات والمعاملات ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ توجهوا إلى الله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصًا الصلاة، أقيموها ظاهرًا وباطنًا ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له، ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾ أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ للبعث.

(٣٠) ﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ﴾ الله؛ أي: وفقهم للهداية ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ﴾ وجبت عليهم الضلالة، بما تسببوا لأنفسهم، وعملوا بأسباب الغواية ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، ووُكِلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًا، والحق باطلًا.

(٣١) ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ استروا عوراتكم عند الصلاة كلها ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ مما رزقكم الله من الطيبات ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ في ذلك، والإسراف: إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، وإما أن تكون بزيادة الترفه والتَّنَوُّق

(٣١) أخرج مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تِطوافاً؟ تجعله على فرجها، وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، فما بدا منه؛ فلا أحله؛ فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

- التجوُّد والمبالغة - في المآكل والمشارب والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لا يحب المعتدين حدَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حرم.

(٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مَن هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم اللَّه على العباد من أنواع اللباس، على اختلاف أصنافه، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ من مأكل ومشرب، بجميع أنواعه؟! ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيه حذف، وتقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا، فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين، لا حظ للمشركين فيها. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الذنوب الكبار، التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، كالزنا ونحو ذلك ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر ونحو ذلك ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الذنوب التي تؤثم، وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس، في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجة، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: قرن وجيل ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

(٣٥) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ لما أخرج اللَّه بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب عليهم، يقصون عليهم آيات الله، ويبينون لهم أحكامه، ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ما حرم الله، من الشرك، والكبائر، والصغائر، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كما استهانوا بآياته ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك له، والنقص له، والتقول عليه ما لم يقل ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فهؤلاء، وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبًا لهم في اللوح المحفوظ؛ فليس ذلك بمغن عنهم شيئًا، يتمتعون قليلًا، ثم يعذبون طويلًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

(٣٣) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله؛ فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم في تلك الحالة توبيخًا وعتابًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو مضرة؟! ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ اضمحلوا وبطلوا، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ مستحقين للعذاب المهين الدائم.

(٣٨) ﴿قَالَ﴾ يقول الله مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ في جملة أمم من الجن والإنس من أمثالكم وعلى صفاتكم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ من الأمم السالفة الكافرة مضوا على ما مضيتم عليه، من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار، والخلود ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ من الأمم العاتية النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمع في النار جميع أهلها من الأولين والآخرين، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ متأخروهم المتبعون للرؤساء ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ لرؤسائهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ عذبهم عذابًا مضاعفًا؛ لأنهم أضلونا، ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ﴿ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

(٣٩) ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ الرؤساء قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قد اشتركنا جميعًا في الغي والضلال، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ

سُورَةُ الأَعْرَافِ — الجُزْءُ الثَّامِنُ

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١٥٥

بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم.

وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن

بها، واستكبر عنها، فلم ينقد لأحكامها، أنهم آيسون من كل خير ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنهم آيسون من كل خير؛ فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم، إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ خرق الإبرة، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال؛ أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات اللّه محال دخولهم الجنة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

(٤١) ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش من تحتهم

(٤١) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبرولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه؛ كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجئ ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان»، قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعني: بها - على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة. فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى»، قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولوان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي». قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب». قال: «فتفرق في جسده، فينتزعها كما يُنتزع السُّفُّودُ من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين؛ حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، «فيقول الله - عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحاً». ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. «فتعاد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولون له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه!! لا =

﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ظلل من العذاب تغشاهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم.

(٤٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلاً.

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من حسد وبغض، فيقلعه الله ويزيله، حتى يكونوا إخوانًا متحابين، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يفجرونها تفجيرًا، حيث شاءوا، وأين أرادوا ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ بأن منَّ علينا، وأوحى إلى قلوبنا، فآمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ليس في نفوسنا قابلية للهدى؛ لولا أنه تعالى منَّ علينا بهدايته واتباع رسله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين، ﴿وَنُودُوٓا۟﴾ تهنئة لهم، وإكرامًا وتحية واحتراماً ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ كنتم الوارثين لها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة، فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

١٥٦

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح، الجنةَ، فأدخلناها، ورأينا ما وصفه لنا ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ على الكفر والمعاصي؟ ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ قد وجدناه حقًّا ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال:

أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول هاه هاه!! لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه!! لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب! لا تُقم الساعة».

(٤٤) أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ نادى قتلى القليب يوم بدر: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة ابن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا» قال عمر: يا رسول الله، أتخاطب قوماً قد جيفوا؟! فقال: «والذي نفسي بيده، ماأنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا».

﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾، بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ فتح اللَّه لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها.

(٤٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يصدون الناس عن اتباع سبيل اللَّه وشرعه، وما جاءت به الأنبياء ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ منحرفة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، وهم بلقاء اللَّه في الدار الآخرة جاحدون مكذبون.

(٤٦) ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌۚ﴾ وبين أصحاب الجنة، وأصحاب النار، حاجز يقال له: «الأعراف» لا من الجنة، ولا من النار، يشرف على الدارين، وهو السور الذي قال اللَّه تعالى فيه: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ فإذا نظروا إلى أهل الجنة، نادوهم ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يحيونهم، ويسلمون عليهم ﴿لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ وهم لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها.

(٤٧) ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا منظرًا شنيعًا، وهولاً فظيعًا ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعوذوا باللَّه من منازلهم.

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ وهم من أهل النار، قالوا؛ أي: قال لهم أصحاب الأعراف حين رأوهم منفردين في العذاب: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ في الدنيا، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف وأموال وأولاد ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ وكذلك أيَّ شيء نفعكم استكباركم على الحق، وعلى من جاء به، وعلى من اتبعه؟!

(٤٩) ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين أدخلهم اللَّه الجنة ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ احتقارًا لهم، وإعجابًا بأنفسكم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ قيل لهؤلاء الضعفاء إكرامًا واحترامًا لأصحاب الأعراف.: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى.

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾مستغيثين بهم، فيقولون: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله.

(٥١) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ وعلى اتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه ﴿لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أنهم جعلوا بدل دينهم اللهوَ واللعبَ، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ بزينتها وزخرفها، وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها، ورضوا بها، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾؛ أي: نعاملهم معاملة من نسيهم فنتركهم في العذاب؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه؛ كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وإنما قال تعالى هذا في باب المقابلة؛ كما في قوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال هنا: ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عَرْض ولا جزاء ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

الله وبيناته، ولهذا قال:

(٥٢) ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بينا فيه جميع المطالب، التي يحتاج إليها الخلق، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

(٥٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ وقوع ما أخبر به من العذاب والنكال والجنة والنار ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الحياة الدنيا، متندمين متأسفين على ما مضى، متشفعين في مغفرة ذنوبهم، مقرين بما أخبرت به الرسل: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ أي: في خلاصنا مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مما تُمنيهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان.

(٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال تعالى مبينًا أنه الرب المعبود وحده لا شريك له: وما فيهما، على عظمتهما وسعتهما ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها: يوم الأحد، وآخرها: يوم الجمعة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى، ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: العظيم، الذي يسع السموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، واستوى؛ أي: علا وارتفع، وللناس في هذا المقام مقالات كثيرة، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو: إمرارها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما

قال الأئمة، ومنهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: «من شبه اللَّه بخلقه؛ فقد كفر، ومن جحد ما وصف اللَّه به نفسه، فقد كفر، وليس فيما وصف اللَّه نفسه، ولا رسوله تشبيه».

فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصريحة، على الوجه الذي يليق بجلال اللَّه تعالى، ونفى عن اللَّه تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾ المظلم ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ المضيء ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار؛ وكلما جاء النهار ذهب الليل ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بتسخيره وتدبيره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ المتضمن للشرائع والنبوات. فالخلق: يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر: يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثَم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عظم وتعالى، وكثر خيره وإحسانه.

(٥٥) ثم أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ والدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، ﴿تَضَرُّعًا﴾ إلحاحًا في المسألة ودؤوبًا في العبادة ﴿وَخُفْيَةً﴾ لا جهرًا ولا علانية يخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصًا لله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء: كون العبد يسأل اللَّه مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء.

(٥٦) ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالطاعات ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، طمعًا في قبولها، وخوفًا من ردها ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إن رحمته مُرْصَدَة للمحسنين الذين يتبعون أوامره، ويتركون زواجره.

(٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ الرياح المبشرات بالغيث ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ قد أثاره بعضها، وألَّفته ريح أخرى، وألقحه ريح أخرى ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة اللَّه ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ بذلك البلد الميت ﴿ٱلْمَآءَ﴾الغزير من ذلك السحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة اللَّه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم، بعد ما كانوا رفاتًا متمزقين، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وفي هذا الحث على التذكر والتفكر في آلاء الله.

---

(٥٥) في «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! أرْبَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعون سميع قريب».

وأخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح: أن عبد الله بن مغفل ﵁ سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة. وعُذْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطَّهور».

(٥٨) ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه المطر ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ الذي هو مستعد له، سريعًا حسنًا؛ كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بإرادة الله ومشيئته ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ من الأراضي كالسباخ ونحوها ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ إلا نباتًا خاسًا لا نفع فيه ولا بركة ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ننوعها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله.

(٥٩) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مُدَبَّر، ليس له من الأمر شيء، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به.

(٦٠) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ الجمهور والرؤساء والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ استكبروا عن الانقياد له ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبينًا، واضحًا لكل أحد، وهكذا حال الفجار إنما يرون

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

١٥٨

الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

(٦١) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾. أي: لست ضالاً ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ ولكن أنا رسول ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده، وأوامره، ونواهيه ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم ﴿وَأَعْلَمُ

---

(٥٩) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى؛ كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

(٦٢) أخرج مسلم من حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حجة النبي ﷺ، عن النبي ﷺ: «أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟». قالوا: نشهد أنك بلغت، وأديت، ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم، ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

﴿مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

(٦٣) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾. أي: كيف تعجبون أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟! ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ لينذركم العذاب الأليم، ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ نقمة الله، ولا تشركوا به شيئًا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تنزل رحمة اللّه الواسعة عليكم.

(٦٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي السفينة؛ كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم اللّه على يد نوح من الآيات البينات، ما به يؤمن أولوا الألباب، فسخروا منه، واستهتروا به، وكفروا.

(٦٥) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ الأولى: الذين كانوا في اليمن بالأحقاف وهي: جبال الرمل، وهم الذين ذكرهم اللّه وأنهم يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[الفجر: ٦ - ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم؛ كما قال اللّه تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لأنه الخالق الرازق الملك المدبر لجميع الأمور ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سخطه وعذابه إن أقمتم على ما أنتم عليه.

(٦٦) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ رادين لدعوته قادحين في رأيه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ ما نراك إلا سفيهًا غير رشيد، حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ويغلب على ظننا: أنك من جملة الكاذبين.

(٦٧) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ بوجه من الوجوه ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بل جئتكم بالحق من اللّه الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه.

(٦٨) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ، والنصح، والأمانة.

(٦٩) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ وهو أن اللَّه أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ يذكركم بما فيه مصالحكم. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واحمدوا ربكم، واشكروه إذ مكن لكم في الأرض وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة ﴿وَ﴾ اذكروا نعمة اللَّه عليكم التي خصكم بها، وهي أن ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ في القوة، وكبر الأجسام، وشدة البطش ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ نعمه الواسعة ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتموها بشكرها، وأداء حقها ﴿تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب.

(٧٠) ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من دعوته: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي قدَّموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام على ما دعت إليه الرسل من توحيد اللَّه وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم، وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم.

(٧١) ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد وجب عليكم بمقالتكم من ربكم؛ ﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾أي: لابد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه وحان وقت الهلاك سخط وغضب ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ كيف تحاجوني، في أصنام سميتموها آلهة، وهي لا شيء من الإلهة فيها ولا مثقال ذرة، و ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجة ودليلاً ﴿فَانتَظِرُوا﴾ ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ وفرق بين الانتظارين: انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من اللَّه النصر والثواب.

(٧٢) ولهذا فتح اللَّه بين الفريقين فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي: هودًا ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أنجاهم برحمته ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يُبق منهم أحدًا ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم: التكذيب والعناد. ونعتهم: الكبر والفساد.

(٧٣) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحِجْر وما حوله، من أرض الحجاز ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نبيًا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية، لا يقدر الناس عليها ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ هذه ناقة شريفة فاضلة؛ لإضافتها إلى اللَّه تعالى إضافة تشريف، ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ عظيمة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فلا عليكم من مئونتها شيء، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ بعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ
ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن
قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ
مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ
أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾

(٧٤) ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض تتمتعون بها، وتدركون مطالبكم ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مكّن لكم فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا﴾ من الأراضي السهلة التي ليست بجبال ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ كما هو مشاهد إلى الآن، من آثارهم التي في الجبال، من المساكن والحُجَر ونحوها ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نعمه وفضله الكثير ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ لا تخربوا في الأرض بالفساد والمعاصي.

(٧٥) ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ ولما كان المستضعفون، ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ أي: أهو صادق أم كاذب؟ فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ من توحيد الله، والخبر عنه، وأمره ونهيه.

(٧٦) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ حملهم الكبر على ألاَّ ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

(٧٧) ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ قتلوها ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ استكبروا عن أمره ﴿وَقَالُواْ﴾ متجرئين على الله: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إن كنت من الصادقين.

(٧٨) ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى.

(٧٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ صالح عليه السلام، حين أحل الله بهم العذاب ﴿وَقَالَ﴾ مخاطبًا لهم، توبيخًا وعتابًا بعد ما أهلكهم الله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به، وحرصت على هدايتكم، فلم تنتفعوا بذلك ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

(٨٠) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ﴿لُوطًا﴾ عليه الصلاة

(٧٨) أخرج أبو داود والبيهقي والمزي في «تهذيب الكمال» بإسناد حسن لغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع عنه، فلما خرج منه، أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك: أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه»؛ فابتدره الناس؛ فاستخرجوا منه الغصن.

والسلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الخصلة التي بلغت في العظم والشناعة إلى أن استغرقت أنواع الفحش ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، فلم يَنْزُ ذكر على ذكر حتى كان في قوم لوط.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ عدلتم عن النساء اللاتي خلقهن اللَّه لكم، وتقبلون على أدبار الرجال ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون لما حده الله، متجرئون على محارمه.

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ما أجابوا لوطًا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، وتعللوا في ذلك فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن فعل الفاحشة، فعابوهم بغير عيب.

(٨٣) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ الذين آمنوا به، ولم يؤمن سوى أهل بيته فقط، كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين المعذبين.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حجارة حارة شديدة من سجيل، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة من

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

١٦١

تجرأ على معاصي اللَّه وكذب رسله، بالهلاك والخزي الدائم.

(٨٥) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد أقام اللَّه الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ويأمرهم بإيفاء المكيل والميزان ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾؛ أي: لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على وجه البخس: وهو نقص المكيال والميزان خفية

(٨٤) أخرج أصحاب السنن إلا النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

الجزء التاسع — سورة الأعراف

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

١٦٢

وتدليسًا ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ لا تعثوا في الأرض مفسدين بالإكثار من عمل المعاصي ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن ترك المعاصي تقربًا لله خير للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟﴾ للناس ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ طريق من الطرق التي يكثر سلوكها ﴿تُوعِدُونَ﴾ تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من أراد الاهتداء به ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ تبغون سبيل اللَّه تكون معوجة، وتميلونها اتباعًا لأهوائكم ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ نعمة اللَّه عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات، والنسل، والصحة، ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم الماضية، والقرون الخالية، وما حل بهم من العذاب والنكال.

(٨٧) ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ وهم الجمهور منهم ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ فيفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فإنه المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

(٨٨) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وهم الأشراف والكبراء ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ توعدوهم

---

(٨٨) في «الصحيحين» في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العَدَد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجة فيتزودُ لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ . قال: « ما أنا بقارئ». قال: « فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة رضي الله عنها فقال: « زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلَّا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصلُ الرحم، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعينُ على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العبراني، فيكتبُ من الإنجيل =

بالنفي والإخراج عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. قال لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبًا من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها؛ لعلمنا ببطلانها؟!

(٨٩) ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا اللَّه منها أننا كاذبون مفترون على اللَّه الكذب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ يمتنع على مثلنا أن نعود فيها؛ فإن هذا من المحال ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته، التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ انصر المظلوم، وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ خير الحاكمين؛ فإنك العادل الذي لا يجور أبدًا.

(٩٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ محذرين عن اتباع شعيب: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم: أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى.

(٩١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجساد، فإذا هم صرعى ميتين.

(٩٢) ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأنهم ما أقاموا في ديارهم التي أرادوا إجلاء شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصحبه منها، ثم قال مقابلاً لقيلهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الخسار محصور فيهم؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(٩٣) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، ﴿وَقَالَ﴾ معاتبًا وموبخًا ومخاطبًا لهم بعد موتهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أوصلتها إليكم وبينتها ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قد أديت لكم ما أرسلت به فلم تقبلوا نصحي ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فكيف آسف عليكم وأحزن على قوم لا خير فيهم؟

(٩٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ ابتلاهم اللَّه ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالفقر، والمرض، وأنواع

= بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّلَ الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا!، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يُدركْني يومك أنصرْك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوفي، وَفَتَرَ الوحي».

(٩٤) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيرًا له».

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَاتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٦٣

البلايا ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، ويستكينون للحق.

(٩٥) ﴿ثُمَّ﴾ إذا لم يفد فيهم واستمر استكبارهم ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فأدرَّ عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلايا ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ كثروا، وكثرت أرزاقهم، ونسوا ما مر عليهم من البلايا ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ﴾ أي: هذه عادة جارية، لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء. وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والنكير ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين، ولا منتقلين عنه.

(٩٦) ثم أخبر تعالى عن قلة إيمان الذين أرسل إليهم الرسل، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ﴾ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم إيمانًا صادقًا ﴿وَاتَّقَوْا۟﴾ بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ فأرسلنا عليهم السماء مدرارًا، وأنبتنا لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأعز رزق ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فعاقبناهم بالهلاك والبلايا، وهي بعض جزاء أعمالهم.

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ﴾؛ أي: المكذبة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا الشديد ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾. أي: في غفلتهم وغرتهم وراحتهم.

(٩٨) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي شيء يؤمنهم من ذلك وهم قد فعلوا أسبابه ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ في حال غفلتهم وشغلهم.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ اللَّهِ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ﴾ فإن من أمن من عذاب الله؛ فهو لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك مَنْ قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم؟ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ونختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

ما ينفعهم موعظة وتذكير.

(١٠١) من ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ بسبب تكذيبهم، وردهم الحق أول مرة، ما كان يهديهم للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عقوبة منه.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد؛ أي: من ثبات والتزام، لوصية الله، التي أوصى بها جميع العالمين ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى الله.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بحججنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر في زمان موسى وقومه ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ استكبروا عنها، وجحدوا بها ظلمًا وعنادًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: انظر يا محمد كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة.

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعون

الجزء التاسع — سورة الأعراف

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

١٦٤

يدعوه إلى الإيمان: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إني رسول من مرسل عظيم، وهو: رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها: أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين.

(١٠٥) ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بحجة قاطعة من الله دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أطلقهم من أسرك

(١٠٢) في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «يقول الله لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع. فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم. فيقول: كذبت قد أردت منك أهون من ذلك، وأنت في صلب أبيك آدم، ألَّا تُشرك بي شيئًا، ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك، فيؤمر به إلى النار».

وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم.

(١٠٦) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمعطيك فيما طلبت، فإن كان معك حجة فأظهرها؛ لنراها إن كنت صادقًا فيما ادعيت.

(١٠٧) ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ تحولت حية عظيمة، فاتحة فاها تسعى وهم يشاهدونها.

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

(١٠٩) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا بها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ماهر في سحره.

(١١٠) ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يريد أن يجليكم عن أوطانكم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى.

(١١١) ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ احبسهما وأمهلهما ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي في الأقاليم ومعاملة ملكك ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي: من يحشرلك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم، وذلك قوله:

(١١٢) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يجيئون بالسحرة المهرة.

(١١٣) ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى: إن غلبوا ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلًا.

(١١٤) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده.

(١١٥) ﴿قَالُوا۟﴾ على وجه التألي وعدم المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ ما معك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ قبلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

(١١٦) ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلْقُوا۟﴾ أي: أنتم أولاً قبلي. لأجل أن يرى الناس ما معهم، وما مع موسى ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، وبذلك ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة في الخارج، ولم يكن مجرد صنعة وخيال، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ فرقوهم وأخافوهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجد له نظير في السحر.

(١١٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ حية تسعى ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يكذبون به ويموهون ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ تبين وظهر، واستعلن واستعلى ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ حقيرين.

(١٢٠) ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ فعرفت السحرة أن هذا أمرُ مَن في السماء، وليس بسحر، فخروا سجدًا،

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

(١٢١) ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ صدقنا بما جاء به موسى، وأن الذي علينا عبادته هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء، وغير لك، ويدبر ذلك كله..

(١٢٣) ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ متهددًا لهم على الإيمان: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ عليَّ. ثم موّه على قومه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ أي: تواطأتم أنتم وهو على أن تنغلبوا له، فيظهر، فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس، فتخرجوا منها أهلها. ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ما أحل بكم من العقوبة.

(١٢٤) ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ أي: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على الجذوع ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ جميعكم.

(١٢٥) فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون فلا نبالي بعقوبتك.

(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تعيب منا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾ فإن كان هذا ذنبًا يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا، ثم دعوا اللَّه أن يثبتهم ويصبرهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ﴾ أفض ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ عظيمًا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ منقادين لأمرك، متبعين لرسولك.

(١٢٧) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ وقد استكبروا هم وفرعون عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلوًّا فقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء به باطل وفاسد: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالدعوة إلى اللَّه التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ يدعك أنت وآلهتك، قال مجيبًا لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ الذكور من بني إسرائيل ﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ نستبقيهن فلا نقتلهن، ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة.

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ﴾ موصيًا لهم: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ الزموا الصبر على ما يحل بكم ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه، حتى يتحكموا فيها،

فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ﴿وَ﴾ لكن ﴿ٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(١٢٩) ﴿قَالُوٓاْ﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون وأذيته: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ فإنهم كانوا يسوموننا سوء العذاب: يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ كذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى مرجيًا لهم بالفرج، والخلاص من شرهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يمكنكم فيها ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم، وزوال النقم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالدهور والجدب ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كانت النخلة لا تحمل ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الخصب وإدرار الرزق ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ﴾ نحن مستحقون لها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قحط وجدب ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ﴾ يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بقضائه وقدرته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك قالوا ما قالوا.

(١٣٢) ﴿وَقَالُواْ﴾ لموسى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مهما جئت بآية، جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك.

(١٣٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الماء الكثير، الذي أغرق أشجارهم وزروعهم ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ القمل المعروف ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم وآذتهم أذية شديدة ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أن ماءهم الذي يشربون، انقلب دمًا، فكانوا لا يشربون إلا دمًا، ولا يطبخون إلاً دمًا ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أدلة وبينات، على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ لما رأوا الآيات ﴿وَكَانُواْ﴾ في سابق أمرهم ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فلذلك عاقبهم اللّه تعالى؛ بأن أبقاهم على الغي والضلال.

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب، الذي تقدم ذكره ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ﴾ تشفعوا بموسى بما عهد اللّه عنده من الوحي والشرع ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم في ذلك كذبة.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم

﴿بَٰلِغُوهُ﴾ إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون العهد الذي عاهدوا عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر الذي فرقه الله لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

(١٣٧) ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يخبر الله تعالى أنه أورث بني إسرائيل المستضعفين في الأرض ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بلاد الشام، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ حين قال لهم موسى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من الأبنية الهائلة، والمساكن المزخرفة ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ يبنون، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

١٦٧

(١٣٨) ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه ﴿فَأَتَوْا۟﴾ مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها ﴿قَالُوا۟﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم من الآيات ما أراهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ اشرع لنا أن نتخذ آلهة؛ كما اتخذها هؤلاء ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وأيُّ جهل أعظم من جهل الإنسان ربه وخالقه،

(١٣٨) أخرج الترمذي وأحمد من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة. فقلت: يا نبي الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون بسلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: إنكم تركبون سنن من قبلكم».

وأراد أن يسوي به غيره.

(١٣٩) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها.

(١٤٠) ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أطلب لكم إلهًا غير اللَّه المألوه، الكامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في زمانهم؛ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراد اللَّه وحده بالعبادة، والكفر بما يدعى من دونه.

(١٤١) ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يوجهون إليكم من العذاب أسوأه ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يذبحون الذكور ويبقون الإناث ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ النجاة من عذابهم ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة جليلة، ومنحة جزيلة.

(١٤٢) ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يقول اللَّه تعالى ممتنًا على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية: أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ ليستعد موسى ويتهيأ لوعد ربه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ موصيًا له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل ﴿وَأَصْلِحْ﴾ اتبع طريق الصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

(١٤٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حبًا لربه، واشتياقًا لرؤيته ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ لن تقدر في هذه الدار الدنيا على رؤيتي ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ إذا تجلى اللَّه له ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ الأصم الغليظ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ انهال مثل الرمل ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ حين رأى ما رأى ﴿صَعِقًا﴾ مغشيًا عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ تبين له حينئذ: أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية اللَّه؛ فموسى أولى ألاَّ يثبت لذلك، و﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك، وتعظيمًا عما لا يليق بجلالك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. جدد - عليه الصلاة والسلام - إيمانه؛ بما كمل اللَّه له مما كان

---

(١٤٣) أخرج الطبري من حديث أنس بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: هكذا بإصبعه، ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى في الخنصر، فساخ الجبل.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال له المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودي؛ فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكًا بجانب العرش؛ فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثناه الله عز وجل».

وفي حديث أبي سعيد الخدري، عند الشيخين: «... فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور».

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يجهله قبل ذلك.

(١٤٤) ﴿قَالَ﴾ الله مخاطبًا موسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتك واجتبيتك على عالمي زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها، إلا أفضل الخلق ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه مما اختص بها موسى عليه السلام على إخوانه من المرسلين ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ من النعم، وخذ ما آتيتك، من الأمر والنهي، والكلام والوحي، بانشراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله، على ما خصك وفضلك.

(١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد ﴿مَّوْعِظَةً﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد، والأخلاق، والآداب ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد على إقامتها، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها، ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ بعد ما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون. الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم فقال عنهم:

(١٤٦) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ أي: عن الاعتبار في آيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يتكبرون على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ لإعراضهم، واعتراضهم، ومحادتهم لله ورسوله ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ الهدى والاستقامة ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ لا يسلكوه ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ الغواية ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يتخذوه طريقًا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كذبت بها قلوبهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ لا يعلمون شيئًا مما فيها.

(١٤٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا ﴿وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ اضمحلت وبطلت ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وكما تدين تدان.

(١٤٨) ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ صاغه السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، وألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت البقرة؛ فعبدوه، واتخذوه إلهًا ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ﴾ وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم ﴿وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾، لا يدلهم طريقًا دينيًّا، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا باللَّه ما لم ينزل به سلطانًا.

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا﴾ رجع موسى إلى قومه فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من الهم والندم على فعلهم ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ فتنصلوا إلى اللَّه وتضرعوا، و﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ ممتلئًا غضبًا وغيظًا عليهم؛ لتمام غيرته، وكمال نصحه ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ بئس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم، ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ أستعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من اللَّه تعالى؟ ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ رماها من الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ خوفًا أن يكون قصر في نهيهم، كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤].

﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ هذا ترقيق لأخيه واستعطافًا؛ بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾: احتقروني، حين قلت لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾[طه: ٩٠] ﴿وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾ فلا تظن بي تقصيرًا ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ بنهرك لي، ومسكك إياي بسوء ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتعاملني معاملتهم.

(١٥١) فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام؛ فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما

(١٥٠) أخرج أحمد وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة، قال الله لموسى: إن قومك صنعوا كذا وكذا، فلم يباله فلم يلق الألواح، فلما عاين؛ ألقى الألواح».

وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

ظنه فيه من التقصير، وقال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ هارون ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾ في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أرحم بنا من كل راحم.

(١٥٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ إلهًا ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ وقد نالهم غضب الله؛ حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى عنهم إلا بذلك، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغارًا في الحياة الدنيا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ فكل مفتر على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيبًا من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا.

(١٥٣) ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من شرك، وكبائر، وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى، وأقلعوا عنه ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ بالله، وبما أوجب الله من الإيمان به ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَغَفُورٞ﴾ يغفر السيئات ويمحوها ﴿رَّحِيمٞ﴾ بقبول التوبة، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

(١٥٤) ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن ﴿عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ غضبه على قومه ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا﴾ وفيما نسخ فيها؛ أي: كتب فيها ﴿هُدٗى﴾ بيان للحق ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ من العذاب ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ يخافون منه ويخشونه.

(١٥٥) ﴿وَ﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم ﴿ٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ منهم ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم ﴿لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ ووعدهم الله ميقاتًا يحضرون فيه، فلما حضروه، قالوا: يا موسى، ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ فتجرؤوا على الله جراءة كبيرة وأساءوا الأدب معه ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ فصعقوا وهلكوا ف﴿قَالَ﴾موسى متضرعًا ومتبتلاً: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل مجيئنا إليك ﴿وَإِيَّٰيَۖ﴾أي: بمحضر بني إسرائيل حتى لا يتهموني ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾: اختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾: إن الحكم إلا لك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: المتولي أمرنا، وليس لنا من ولي سواك ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ والغفر هو: الستر وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألاّ يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ أنت خير من غفر، وأولى من رحم.

(١٥٦) ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهي ما أعد اللّٰه لأوليائه الصالحين من الثواب، ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ رجعنا مقرين بتقصيرنا، ﴿قَالَ﴾ اللّٰه تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ ممن كان شقيًا، متعرضًا لأسبابه ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ من العالم العلوي والسفلي، ولكن الرحمة الخاصة، المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد. ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحسانًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي؛ صغارها وكبارها، وهم أمة محمد ﷺ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة مستحقيها ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يصدقون.

(١٥٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ محمد بن عبد اللّٰه بن عبد المطلب ﷺ ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ باسمه وصفته ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطر ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناكح، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ من المطاعم، والمشارب، والمناكح، والأقوال، والأفعال ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: ومن وصفه: أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ عظموه وبجلوه ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة.

(١٥٨) ﴿قُلۡ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ عربيكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم وغيرهم، وأنه مبعوث إلى الناس كافة وهذا من شرفه وعظمته وأنه خاتم الأنبياء.

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة اللّٰه تعالى في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم، وهو المعبود بحق وحده لا شريك له. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ إيمانًا في القلب، متضمنًا لأعمال القلوب والجوارح، ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده، وأعماله، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾

(١٥٨) في «صحيح البخاري» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مغضبًا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: أبو الدرداء - ونحن عنده -، فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» - أي: غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقصَّ على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله، لأنا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي، إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعًا. فقلتم: كذبت. وقال: أبو بكر: صدقت».

في مصالحكم الدينية والدنيوية.

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهدون الناس في تعليمهم إياهم، وفتواهم لهم، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ويعدلون به في الحكم بينهم، في قضاياهم.

وكأن الإتيان بهذه الآية فيه نوع احتراز مما تقدم؛ فإنه تعالى ذكر فيها جملة من معايب بني إسرائيل المنافية للكمال، المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية.

(١٦٠) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ قسمناهم ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: اثنتي عشرة قبيلة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ طلبوا منه أن يدعو اللَّه تعالى: أن يسقيهم ما يشربون منه، فأوحى اللَّه لموسى؛ إجابة لطلبتهم ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس، يشمل أيّ حجر كان؛ فضربه ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ انفجرت من ذلك الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ جارية سارحة ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ جعل لكل منهم عينًا، فعلموها، واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ فكان يسترهم من حر الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾ وهو الحلوى ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهو لحم طير، من أحسن أنواع الطيور، وألذها، وقيل لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب اللَّه عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فوتوها كل خير، وعرضوها للشر والنقمة.

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾

سُورَةُ الأَعْرَافِ — الجزء التاسع

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

٦٠

١٧١

ادخلوها؛ لتكون وطنًا لكم ومسكنًا ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أمرهم اللَّه أن يأكلوا منها حيث شاءوا، ﴿وَقُولُوا۟﴾ حين تدخلون الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾ احطط عنا خطايانا ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ خاضعين لربكم، مستكينين لعزته، ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ وعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم، والثواب العاجل والآجل ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من خير الدنيا والآخرة.

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ عصوا اللَّه واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة وقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾: حبة في شعيرة. ودخلوا يزحفون على أستاههم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين خالفوا أمر اللَّه وعصوه ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا شديدًا، وما ظلمهم اللَّه بعقابه، وإنما كان ذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يخرجون من طاعة الله إلى معصيته.

(١٦٣) ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ اسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ على ساحله، في حال تعديهم وعقاب الله إياهم ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه، ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله، وامتحنهم؛ فكانت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ كثيرة طافية على وجه البحر ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ تذهب في البحر، فلا يرون منها شيئًا ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله.

(١٦٤) وانقسموا ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجرأوا، وأعلنوا بذلك، وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لابد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك، أو عذاب شديد ﴿قَالُوا﴾ الواعظون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لنعذر فيهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يتركون ما هم فيه من المعصية.

(١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ قسوا فلم يلينوا،

---

(١٦٥) قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له -: اختلف المفسرون في مصير الفرقة الثالثة، والراجح: أنهم كانوا من الناجين؛ للوجوه الآتية:

١- عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجو.

٣- أن هذه الفرقة ملحقة بالآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر؛ لأنهم أنكروا عليهم بقوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون ذلك في قلوبهم، وهو أضعف الإيمان.

ولا اعتطوا، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولاً قدريًا: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ فانقلبوا بإذن اللَّه قردة ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: ذليلين حقيرين مهانين.

(١٦٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أعلم إعلامًا صريحًا ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يهينهم ويذلهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب.

(١٦٨) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقناهم ومزقناهم في الأرض، بعد ما كانوا مجتمعين ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ القائمون بحقوق الله، وحقوق عباده ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما الظالمون لأنفسهم ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ على عادتنا وسنتنا ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ باليسر والعسر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فخلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم، وقد ﴿وَرِثُواْ﴾ بعدهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وصار المرجع فيه إليهم وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ويسوِّفون أنفسهم ويعِدُونها بالتوبة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مقرنين بأنه ذنب وانهم ظلمة ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفارًا وطلبًا للمغفرة على الحقيقة ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى ﴿يَأْخُذُوهُ﴾.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ يقول تعالى منكرًا عليهم في صنيعهم

سورة الأعراف — الجزء التاسع — الحزب ١٨

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

١٧٣

هذا ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿دَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ما حرم اللَّه عليهم، من المآكل التي تصاب وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه.

(١٧٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يتمسكون به علمًا وعملاً، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة، ظاهرًا وباطنًا، ولهذا خصها بالذكر ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم، ونياتهم، مصلحين لأنفسهم، ولغيرهم.

(١٧١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ رفعناه حين امتنعوا من قبول ما في التوراة ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ فصار فوقهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ وقيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ دراسة ومباحثة، واتصافًا بالعمل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أخرج من أصلابهم ذريتهم، ﴿وَ﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قررهم، بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم، وخالقهم، ومليكهم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أقررنا بذلك ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ تزعمون أن حجة اللَّه ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون، فاليوم قد انقطعت حجتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم.

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ أو تحتجون بحجة أخرى؛ فتقولون: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المكذبون.

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبينها ونوضحها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما عاهدوا اللَّه عليه، فيرتدعوا عن القبائح.

(١٧٥) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ علمناه كتاب الله؛ فصار العالم الكبير ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فترك هذا كتاب اللَّه وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ تسلط عليه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الهالكين الحائرين بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

(١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان؛ إذ ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مال إلى زينة الدنيا من الشهوات السفلية والمقاصد الدنية ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وترك طاعة مولاه ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ في شدة حرصه على الدنيا، وانقطاع قلبه إليها ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: لا

(١٧٢) قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه -: الصواب في تفسير هذه الآيات، هو: الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم عليه السلام حين استخرجهم من ظهره، وأشهدهم على أنفسهم؛ فشهدوا بذلك؛ فاحتج عليهم به.

وقد تواترت الأحاديث بذلك، ومن أوضحها حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عند أحمد وغيره بإسناد صحيح على شرط مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «أخذ الله - تبارك وتعالى - الميثاق من ظهر آدم بنَعمان - يعني: عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذَّر، ثم كلمهم قُبُلًا، قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾».

وأما الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فإنما هي أثر ذلك الميثاق، وقد أشار إلى ذلك الحسن البصري عن الأسود بن سريع مرفوعًا: «ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة» الحديث. قال الحسن: والله لقد قال الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية.

يزال لاهثًا في كل حال، وهذا لا يزال حريصًا، حرصًا قاطعًا قلبه، ولا يسد فاقته شيءٌ من الدنيا ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، وكذبوا بها ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا؛ علموا، وإذا علموا؛ عملوا.

(١٧٧) ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه، بأنواع المعاصي، فشبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا تحصيل أكلة أو شهوة ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الهدى.

(١٧٨) ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حقًا؛ لأنه آثر هدايته تعالى، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ فيخذله، ولا يوفقه للخير ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أنشأنا وخلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هيأناهم لها، وبعمل

سورة الأعراف — الجزء التاسع

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

١٧٤

أهلها يعملون ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ فقدوا منفعتها وفائدتها ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ سماعًا يصل معناه إلى قلوبهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البهائم ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم

(١٧٧) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، واللفظ للبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء: العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

(١٧٨) في «السنن» لأبي داود، والنسائي وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد صحيح لغيره قال: علمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة في النكاح وغيره: «إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له» الحديث.

(١٧٩) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

وفيه من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: دُعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله! طوبى له عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم».

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ حقيقة الإلحاد: الميل بها عما جعلت له؛ إما أن يسمى بها من لا يستحقها؛ كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنًى ما أراده اللّه ولا رسوله، وإما أن يشبه به غيرها ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ عقوبة وعذابًا على إلحادهم في أسمائه.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ومن جملة من خلقنا من الأمم ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أمة فاضلة، كاملة في نفسها مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم، إذا حكموا بينهم.

(١٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ والذين كذبوا بآيات الله، الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ، من الهدى، فردوها ولم يقبلوها، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن اللّه يدر لهم الأرزاق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أمهلهم وأطول لهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قوي شديد.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ هؤلاء المكذبون ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بل هو رسول الله، يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في ملك اللّه وسلطانه؛ فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال، ﴿وَ﴾كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم، تدل أعظم دلالة، على اللّه وقدرته، وحكمته، وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرده بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ لينظروا في خصوص حالهم، ولينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت، وهم في غفلة معرضون ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأيِّ حديث يؤمنون به؟!

(١٨٦) ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ من كتب عليه الضلالة؛ فإنه لا يهديه أحد ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويترددون.

---

(١٨٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

(١٨١) في «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق؛ لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك». وفي رواية: «وهم بالشام».

(١٨٧) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ المكذبون لك ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ متى وقتها الذي تجيء به؟ ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ إنه تعالى المختص بعلمها ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم به إلا هو، ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خفي علمها على أهل السماوات والأرض، ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ فجأة ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ كأنك عالم بها، من قولهم: أحفيت في المسألة، أي: بالغت فيها، معناه: كأنك بالغت في السؤال عنها حتى علمتها ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله حتى سألوا محمد ﷺ عنها.

(١٨٨) ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ فإني فقير مُدبَّر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ أنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك وأحذر منها ﴿وَبَشِيرٞ﴾ بالثواب العاجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه، والترغيب فيها ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون.

(١٨٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ أيها الرجال والنساء

الجزء التاسع — سورة الأعراف — ربع الحزب ١٨

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

١٧٥

المنتشرون في الأرض ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ وهو: آدم أبو البشر ﷺ ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ ليألفها ويسكن بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ تجلَّلها مجامعًا لها ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى ولا يثقلها، ﴿فَلَمَّآ﴾ استمرت و﴿أَثۡقَلَت﴾ به حين كبر في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا﴾ ولدًا ﴿صَٰلِحٗا﴾ صالح الخلقة تامها لا نقص فيه ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

(١٩٠) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ جعلا لله شركاء

---

(١٨٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية.

(١٨٩) أخرج ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عن الحسن؛ قال: هم اليهود والنصارى: رزقهم الله أولادًا؛ فهوَّدوا، ونصَّروا.

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

في ذلك الولد، الذي انفرد اللَّه بإيجاده، والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فعبَّداه لغير الله، وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام، في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام في الجنس، ولاشك أن هذا موجود في الذرية كثيرًا.

(١٩١) ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهم مخلوقون مصنوعون، كما قال الخليل ﷺ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

(١٩٢) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعابديها ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء.

(١٩٣) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام التي عبدتم من دون اللَّه ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ﴾؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تهدي ولا تُهدى.

(١٩٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾ لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد اللَّه مملكون؛ فإن كنتم كما تزعمون صادقين، في أنها تستحق من العبادة شيئًا ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ فإن استجابوا لكم، وحصلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على اللَّه أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلى تبيين فيه، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء.

(١٩٥) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾ فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان؛ فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها، فهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها، وأقوى على كثير من الأشياء، فلأيِّ شيء عبدتموها؟! ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ اجتمعوا أنتم وشركاؤكم، على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إمهال ولا إنظار؛ فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي.

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ الذي يتولاني، فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ﴾ الذي فيه الهدى والشفاء والنور ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم.

(١٩٧) ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ وهذا أيضًا

في بيان عدم استحقاق هذه الأنداد والأصنام والأوثان التي يعبدونها من دون اللَّه لشيء من العبادة؛ لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسها، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة.

(١٩٨) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ فلو دعوتها إلى الهدى لم يهتدوا؛ لأنهم لا يسمعون ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة إليك ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وهم جماد لا حراك بها، ولا حياة.

(١٩٩) ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾؛ أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، للقريب والبعيد ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أمر اللَّه تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله.

(٢٠٠) ﴿وَإِمَّا﴾ في أي وقت وأي حال ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر وإيعاز به ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ التجئ واعتصم باللَّه من نزغه، واحتم بحماه، ف ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لما تقول ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته، ويقيك من وسوسته.

(٢٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يخبر اللَّه عن المتقين من عباده أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أصابهم ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ غضب أو صرع أو أصابوا ذنبًا ﴿مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بنزغه أو مسه أو وسوسته ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ عقاب اللَّه وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ قد استقاموا، وصحوا مما كانوا فيه.

(٢٠٢) ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم؛ فإنهم إذا وقعوا في الذنوب لا يزالون ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ذنبًا بعد ذنب ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عن ذلك؛ فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء؛ لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سَلِسِي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اخترت الآية؛ فصارت الآية الفلانية، والمعجزة الفلانية؟ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء؛ لأني عبد متبع، مدبر، واللَّه تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها ﴿هَٰذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيانات، يستبصر به في جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الإنسانية ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الشقاء ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة.

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ هذا أمر عام في كل من سمع كتاب اللَّه يتلى،

---

(١٩٩) في صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزلها الله إلا في أخلاق الناس.

(٢٠٤) في «صحيح مسلم»، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر؛ فكبروا، وإذا قرأ؛ فأنصتوا».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، والطبري، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صحيح لغيره؛ قال: كانوا =

سورة الأنفال — مدنية — آياتها ٧٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له؛ فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما؛ فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له ولم ينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أنه يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه.

(٢٠٥) ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أي: مخلصًا خاليًا ﴿تَضَرُّعًا﴾ بلسانك، مكررًا لأنواع الذكر، ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفًا من الله، وَجِلَ القلب منه، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ كن متوسطًا، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلًا ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ آخره ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذين نسوا الله؛ فأنساهم أنفسهم.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين، وحملة العرش ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يذعنون لها، وينقادون لأوامر ربهم ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ الليل والنهار لا يفترون، ﴿وَلَهُۥ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام.

سورة الأنفال
وهي مدنية

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟ والأنفال؛ هي: الغنائم التي ينفلها الله

= يتكلمون في الصلاة، فنزلت ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية.

وأخرج الطبري بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ هذا في المكتوبة، وأما ما كان من قصص أو قراءة بعد ذلك؛ فإنما هي نافلة، إن نبي الله ﷺ قرأ في صلاة مكتوبة، وقرأ أصحابه وراءه؛ فخلطوا عليه، قال: فنزل القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية، فهذا في المكتوبة.

(٢٠٦) في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؛ يتمون الصفوف الأول فالأول، ويتراصون في الصف».

(١) في «صحيح البخاري»، عن ابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر.

لهذه الأمة، من أموال الكفار ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يضعانها حيث شاءا ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب والتواصل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في قسمه بينكم على ما أراده اللَّه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فإن الإيمان يدعو إلى طاعة اللَّه ورسوله، كما أن من لم يطع اللَّه ورسوله، فليس بمؤمن.

(٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت ورهبت، فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون في قلوبهم على ربهم، في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم الدينية والدنيوية.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور السلف الصالح، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة؛ كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد وغيرهم.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من فرائض، ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ النفقات الواجبة كالزكوات والنفقة على الزوجات والأقارب، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

(٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عالية بحسب علو أعمالهم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعد اللَّه لهم في دار كرامته.

(٥) ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ كذلك أخرج اللَّه رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في بدر ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يحبه اللَّه تعالى، وقد قدره وقضاه ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ لقاء عدوهم.

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ كراهية للقاء المشركين ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك اللَّه به ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

(٧) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وعد اللَّه المؤمنين، إحدى الطائفتين: إما أن يظفروا بالعير، أو بالنفير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات الشوكة، أي: لا حد لها ولا منعة، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ولكن اللَّه تعالى أحب لهم وأراد أمرًا أعلى مما أحبوا: أراد أن يظفروا بالنفير، الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فينصر أهله ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يستأصل أهل الباطل.

(٨) ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بما يظهر من الشواهد

(٤) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم مَن أسفل منهم؛ كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين».



والبراهين على صحته وصدقه، ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فلا يبالي الله بهم.

(٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ استغثتم بربكم وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأغاثكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ يردف بعضهم بعضًا.

(١٠) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إنزال الملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لتستبشر بذلك نفوسكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ تسكن ويذهب منها القلق والاضطراب ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد، ولا عُدَدٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة ومن العدد والآلات ما بلغوا ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها.

(١١) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ ومن نصره واستجابته لدعائكم: أن أنزل عليكم نعاسًا يذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾ لكم، وعلامة على النصر والطمأنينة

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطرًا؛ ليطهركم به من الحدث والخبث ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وليطهركم من وساوس الشيطان ورجزه، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يثبتها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾؛ فإن الأرض كانت سهلة دهسة، فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام.

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ألقوا في قلوبهم وألهموهم الجراءة على عدوهم،

---

(٩) في «صحيح مسلم» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة سوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة بالسوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.

وفي صحيح البخاري من حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من «أفضل المسلمين». قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة».

ورغبوهم في الجهاد وفضله، ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الخوف ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ على الرقاب ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ مفصل، وهذا خطاب: إما للملائكة الذين أوحى إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا، أو للمؤمنين يشجعهم الله ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم.

(١٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ حاربوهما، وبارزوهما بالعداوة ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه، وتقتيلهم.

(١٤) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب المذكور ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها المشاقون لله ورسوله عذابًا معجلاً ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة.

(١٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في صف القتال وتزاحف الرجال ﴿زَحْفًا﴾ تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ لا تفروا وتتركوا أصحابكم، بل اثبتوا.

(١٦) ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: يفر بين يدي عدوه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك، حتى ولو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة. فأما إن كان الفرار لا عن هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ مقره ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

(١٧) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بحولكم وقوتكم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على ذلك ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك حين رميت التراب أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا، ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرًا حسنًا، وثوابًا جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدّر على

---

(١٥) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

(١٦) أخرج البخاري في «تاريخه الكبير»، والنسائي في «الكبرى»، وابن أبي حاتم بإسناد حسن، عن نافع أنه سأل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قلت: إنا قوم لا نثبت عند لقاء عدونا، ولا ندري من الفئة؟ قال لي: الفئة رسول الله ﷺ. فقلت: إن الله يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾. قال: إنما نزلت هذه لأهل بدر، لا لقبلها ولا لبعدها.

وأخرج أبو داود والنسائي في «الكبرى» والحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلت في أهل بدر.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

العباد أقدارًا، موافقة لعلمه وحكمته، ومصلحة عباده، ويجزي كلًّا بحسب نيته وعمله.

(١٨) ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النصر من اللّه لكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مضعف كل مكر وكيد، يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محيقًا بهم.

(١٩) ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ أيها المشركون؛ أي: تطلبون من اللّه أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ حين أوقع اللّه بكم من عقابه ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه ربما أمهلكم، ولم يعجل لكم النقمة ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى الاستفتاح وقتال المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾ في نصرهم عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو جمعتم الجموع من أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون وتقاتلون معتمدين عليهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن كان اللّه معه؛ فهو المنصور، وإن كان ضعيفًا قليلًا عدده.

(٢٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله.

(٢١) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ المراد المشركون ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها؛ فليس الإيمان بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال.

(٢٢) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿ٱلصُّمُّ﴾ عن استماع الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن النطق به، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم.

(٢٣) ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ ولو فرض أن لهم فهمًا صحيحًا وقصدًا صحيحًا ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لأفهمهم، ولكن لا خير فيهم فلم يُفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

---

(١٩) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح على شرط مسلم، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر رضي الله عنه قال: كان المستفتح يوم بدر أبو جهل، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وآتى لما لا نعرف؛ فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

(٢٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ﴾ أجيبوا ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي: الانقياد لما أمرا به، والاجتناب لما نهيا عنه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم ويحيي قلوبكم وأرواحكم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فإن اللَّه يقلب القلوب كيف شاء، ويصرفها أنى شاء ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون ليوم لا ريب فيه.

(٢٥) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ احذروا ﴿فِتْنَةً﴾ اختبارًا ومحنة ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير؛ فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.

(٢٦) ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يأخذوكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فجعل لكم بلدًا تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللَّه على منته العظيمة، وإحسانه التام، بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا.

الجزء التاسع — سورة الأنفال

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

٤٧

١٨٠

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين: أن يؤدوا ما ائتمنهم اللَّه عليه، من أوامره، ونواهيه؛ فمن أدى الأمانة؛ استحق من اللَّه الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل

---

(٢٤) في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي، فمر بي رسول الله ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾». ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج». فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له، فقال: «هي ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ السبع المثاني».

في «صحيح مسلم»، في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك».

(٢٥) أخرج البخاري وأحمد من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقًا، فاستقينا منه، ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجو جميعًا».

خانها؛ استحق العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته.

(٢٨) ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ اختبار وامتحان من اللَّه لكم إذ أعطاكموها؛ ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد؛ فإنه قد يوجد منهم عدو، واللَّه سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ تقوى الله عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب اللَّه على التقوى من خير الدنيا والآخرة، شيئًا كثيرًا، فذكر هنا: أن من اتقى اللَّه حصل له أربعة أشياء كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو: العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

والثاني والثالث: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب في قوله تعالى ﴿ وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الأجر العظيم، والثواب الجزيل، لمن اتقاه، وآثر رضاه على هوى نفسه.

(٣٠) ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ﴾ يثبتوه عندهم بالحبس، ويوثقوه ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ يقتلوه فيستريحوا بزعمهم من دعوته ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ يجلوه من ديارهم، ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

(٣١) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به الرسول ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآۙ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله: أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعو من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم.

(٣٢) ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ الذي يدعو إليه محمد ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب، فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات، ما

---

(٣٠) أخرج الطبري بإسناد حسن، عن المطلب بن أبي وَدَاعَة: أن أبا طالب قال لرسول اللهﷺ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني ويقتلوني ويخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي». قال: نعم الرب ربك؛ فاستوص به خيرًا. فقال رسول اللهﷺ: «أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي خيرًا». فنزلت ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. الآية.

(٣٢) في «الصحيحين»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: هو أبو جهل بن هشام؛ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

ع ١٨

١٨١

أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه - قالوا لمن ناظرهم، وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك؛ فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

(٣٣) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده ﷺ أمنة لهم من العذاب، وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها؛ فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون اللَّه تعالى، فلهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

(٣٤) ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أيُّ شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو: صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصًا صدهم النبي ﷺ وأصحابه، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟﴾ أي: المشركون ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾؛ يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم، ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وهم الذين آمنوا باللَّه ورسوله، وأفردوا اللَّه بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمرًا غيرهم أولى به.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ صفيرًا وتصفيقًا ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ تكذبون وتجحدون.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليبطلوا الحق، وينصروا الباطل، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ فسيصدرون هذه النفقة، وتخف عليهم، لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندامة، وخزيًا، وذلاً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يجمعون إليها؛ ليذوقوا عذابها.

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ واللَّه تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحد على حدة، وفي دار تخصه، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص، ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾؛ أي: يجمعه كله ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.



(٣٨) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له، ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من الجرائم ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إلى كفرهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة.

(٣٩) ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك وصد عن سبيل الله ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ يكون التوحيد خالصًا لله ليس فيه شرك ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الطاعة واستمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

(٤١) ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أخذتم من مال الكفار قهرًا بحق ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وباقيه لكم، وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ سهم لله ولرسوله.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الخمس الثاني: هم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه اللّه إلى القرابة، دليلًا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الخمس الثالث: لليتامى الذين فقدت آباؤهم، وهم صغار.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الخمس الرابع: للمساكين أي: المحتاجين الفقراء، من صغار وكبار، ذكور وإناث.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الخمس الخامس: لابن السبيل

---

(٣٩) في «صحيح البخاري» عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلًا جاءه، فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩]. فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر في كتابه؟ فقال: يا بن أخي، أغترّ بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إليّ من أن أغترّ بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ إلى آخرها [النساء: ٩٣]. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا وكان الرجل يُفتن في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي؛ فابن عم رسول الله ﷺ وختَنُه.

الغريب المنقطع به في غير بلده.
وجعل الله أداء الخُمس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا، يعني: قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ والمراد القسمة ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾يوم بدر، الذي فرق اللَّه به بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع الكافرين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يغالب أحد إلا غلبه.

(٤٢) ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعدوة الوادي القريبة من المدينة، ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ جانبه البعيد من المدينة ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ عير قريش فيها أموالهم ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ﴾ لابد من تقدم أو تأخر، ﴿وَلَـٰكِن﴾ اللَّه جمعكم على هذه الحال ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدرًا في الأزل ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ ليكون حجة وبينة للمعاند، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ يزداد المؤمن بصيرة ويقينًا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لدعائكم وتضرعكم ﴿عَلِيمٌ﴾ عليم بكم وأنكم تستحقون النصر.

(٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ وكان اللَّه قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا قليلاً؛ فبشر بذلك أصحابه؛ فاطمأنت قلوبهم، وتثبتت أفئدتهم ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ فأخبرتَ بذلك أصحابك ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك، والتنازع مما يوجب الفشل ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ لطف بكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب.

(٤٤) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ أرى اللَّه المؤمنين عدوهم قليلاً في أعينهم ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فكل من الطائفتين، ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله.

(٤٥) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ طائفة من الكفار تقاتلكم ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ لقتالها ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر اللَّه ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم.

---

(٤٢) في «الصحيحين» من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد».

(٤٥) في «الصحيحين» عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

الجزء العاشر — سورة الأنفال

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ
وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ
إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ
ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ
وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾
وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ
وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾

١٨٣

(٤٦) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في استعمال ما أَمرا به ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ تنازعًا يوجب تشتيت القلوب وتفرقها ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾؛ أي: تجبنوا ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ تفرق قوتكم ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ نفوسكم على طاعة اللّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالعون والنصر والتأييد.

(٤٧) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ ينهى اللّه المؤمنين عن التشبه بالكافرين والمشركين في خروجهم ﴿بَطَرٗا﴾ دفعًا للحق ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ عالم بما جاءوا به وله.

(٤٨) ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ حسنها في قلوبهم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنكم في عَدَدٍ وعُدَدٍ وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ من أن يأتيكم أحد ممن تخشون غائلته، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ المسلمون والكافرون ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ ولى مدبرًا ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ أرى الملائكة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

(٤٩) ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وشبهة: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ أوردهم الدين الذي هم عليه، هذه الموارد، التي لا يدان لهم بها. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا تغالب قوته قوة ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما قضاه وأجراه.

(٥٠) ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ولو ترى الذين كفروا بآيات الله، حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم، وقد اشتد بهم القلق، وعظم كربهم ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أستاههم ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ العذاب الشديد المحرق.

(٥١) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ذلك العذاب حصل لكم بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ لا يظلم أحدًا من خلقه.

(٥٢) ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ كعادة قوم فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم المكذبة بالرسل ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ بالعقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لا يعجزه أحد، ولا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب.

(٥١) في «صحيح مسلم» عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إن الله - تعالى - يقول: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا».

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

(٥٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه اللَّه بالأمم المكذبة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من نعم الدين والدنيا ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الطاعة إلى المعصية، فكفروا نعمة الله، وبدلوها كفرًا، فنسلبهم إياها ونغيرها عليهم، كما غيروا ما بأنفسهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون ﴿عَلِيمٌ﴾ ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر.

(٥٤) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كعادة فرعون وقومه ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ حين جاءتهم ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كل بحسب جرمه ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ في البحر ﴿وَكُلٌّ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم.

(٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يخبر تعالى أن شر ما دب على الأرض هم الذين كفروا ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم شر من الحمير والكلاب؛ لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم.

(٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أخذت منهم العهد ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ لا يثبتون على عهد عاهدوه، أو قول قالوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون اللَّه تعالى في نقض العهد.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة، ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: مَن خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ صنيعهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم إن نكثوا عهدهم.

(٥٨) ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال، فخفت منهم نقضًا للعهود والمواثيق ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ ارم عليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ حتى ولو في حق الكافرين، بل يبغض الخائنين أشد البغض؛ فلابد

(٥٨) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن سليم بن عامر؛ قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم؛ فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدرًا، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء». قال فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عروة بن عبسة رضي الله عنه.

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

من أمر بيِّن، يبرئكم من الخيانة.

(٥٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون لنبيه أنهم ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ فاتوا اللّه فلا يقدر عليهم؛ بل هم تحت قهر قدرته، وفي قبضة مشيئته، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ فلا يعجزونه فاللّه لهم بالمرصاد.

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ لأعدائكم الكفار ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كل ما تقدرون عليه، من القوة العقلية والمدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلُّم الرمي، والشجاعة والتدبير، ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته، فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال، التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك؛ لأن (ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب).

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت، الذي يخاطبهم اللّه به ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار، ولهذا قال تعالى مرغبًا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيرًا ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفًا أضعافًا كثيرة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا.

(٦١) ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾؛ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ الصلح وترك القتال؛ ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(٦٢) ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ وإن كانوا يريدون

(٦٠) في «صحيح مسلم» من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول - وهو على المنبر -: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي».

بالصلح خديعة؛ ليتقووا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كافيك ما يؤذيك ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ أعانك بمعونة سماوية، وهو: النصر منه، الذي لا يقاومه شيء، ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

(٦٣) ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا إخوانًا بعد أن كانوا أعداءً ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ من ذهب وفضة وغيرهما؛ لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا اللَّه تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ ومن عزته: أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة ﴿حَكِيمٞ﴾ في أفعاله وأحكامه.

(٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من اللَّه لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

(٦٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ حثهم واستنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾؛ أي: الكفار ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ أي: لا علم بما أعد اللَّه للمجاهدين في سبيله.

(٦٦) ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ فلذلك اقتضت رحمته، وحكمته التخفيف ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بعونه وتأييده.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعون لإخماد دينه وألا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم؛ لأجل الفداء الذي يحصل منهم، ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ لا لمصلحة تعود إلى دينكم، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك،

---

(٦٣) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن زيد ﷺ أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي».

(٦٥) في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». فقال عمير بن الحُمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: بخ بخ! فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها». فتقدم الرجل؛ فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة! ثم تقدم؛ فقاتل حتى قتل.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ولو شاء أن ينتصر من الكفار، من دون قتال، لَفَعَلَ، ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ يبتلي بعضكم ببعض.

(٦٨) ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ به القضاء والقدر: أنه قد أحل لكم الغنائم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(٦٩) ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة: أن أحل لها الغنائم، ولم تحل لأمة قبلها، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ولازموها؛ شكرًا لنعم اللّه عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصي ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث أباح لكم الغنائم، وجعلها حلالاً طيبًا.

(٧٠) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من المال ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ويدخلكم الجنة، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في السعي لحربك ومنابذتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ بالأسرى يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وقد تكفل بكفايتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

(٧٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا﴾ هذا عقد موالاة ومحبة عقدها اللّه بين المهاجرين: الذين آمنوا، وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله، لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار: الذين آووا رسول اللّه ﷺ وأصحابه، وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فهؤلاء بعضهم أولياء بعض؛ لكمال إيمانهم، وتمام اتصال بعضهم ببعض، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾، فلما لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء، لكنهم ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لأجل قتال من قاتلهم من أجل الدين ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك، من المقاصد، فليس عليكم نصرهم

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: عهد بترك القتال فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، ؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

يعلم ما أنتم عليه، من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام، ما يليق بكم.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر؛ فبعضهم أولياء بعض، فلا يواليهم إلا كافر مثلهم، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾؛ أي: موالاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر: من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار؛ كالجهاد، والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين، التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ﴾؛ أي: من المهاجرين والأنصار، ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا من الهجرة والنصرة والموالاة للمؤمنين وجهاد الكافرين ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من اللّٰه تمحى بها سيئاتهم ﴿وَ﴾ لهم ﴿رِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ خير كثير من رب كريم في جنات النعيم.

(٧٥) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان، فآمن وهاجر وجاهد في سبيل اللّٰه ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكم الله، فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات، وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا فأقرب قراباته من ذوي الأرحام ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه وشرعه، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها.

الجزء العاشر — سورة التوبة

سورة التوبة — مدنية — آياتها ١٢٩

نصف الحزب ١٩

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ۞

١٨٧

سورة براءة (*)

(١) ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا تبرؤ من اللّٰه ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى جميع المشركين المعاهدين.

(٢) ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أن لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ ثم أنذر المعاهدين

(*) في «الصحيحين»: عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «آخر سورة نزلت: براءة».

في مدة عهدهم أنهم، وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله، ولن يفوتوه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأن من استمر على شركه؛ فإنه لا بد أن يخزيه.

(٣) ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ إعلام وإنذار من اللّه ورسوله إلى الناس ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل المناسك وأظهرها وأكثرها جمعًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: بريء منهم أيضًا.

ثم رغب المشركين بالتوبة ورهبهم من الاستمرار على الشرك، فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الشرك والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في العاجل والآجل ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ غير فائتيه، بل هو قادر، وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم مفظع؛ في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

(٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: هذه البراءة التامة وضرب التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق وليس بمؤقت، وأما من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ بشرط أن يستمروا على عهدهم، ولم يجرِ منهم نقض فلا نقصوكم شيئًا، ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ ولا عاونوا عليكم أحدًا، ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ قلَّتْ أو كثرتْ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الموفين بعهدهم، والذين أدوا ما أمروا به.

(٥) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان، وهذا مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ ضيقوا عليهم ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كل ثنية وموضع يمرون عليه ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدوها بحقوقها، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستحقيها ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من الذين أمرت

---

(٣) في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: «بعثني أبو بكر ﷺ في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

(٥) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة».

وفي «صحيح البخاري» عن أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا؛ فقد حرمت دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم».

بقتالهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر؛ لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأجبه إلى طلبه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ من القرآن ﴿ثُمَّ﴾ إن أسلم؛ فذاك، وإلا فـ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ المحل الذي يأمن فيه؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ والسبب في ذلك: أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله؛ ليعلم دين الله، وتنشر دعوته في عباده.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾؛ وهذا على وجه التعجب، ومعناه الجحد؛ أي: لا يكون لهم عهد ولا أمان عند الله، ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلا وعلا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ من المشركين ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ يعني: الحديبية ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

(٨) ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ بالقدرة والسلطة ﴿لَا يَرْقُبُوا۟﴾ لا يرحموا ﴿فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقًا، المبغضون لكم صدقًا،

سورة التوبة — الجزء العاشر

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٨٨

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لا ديانة لهم، ولا مروءة.

(٩) ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لآيات الله ﴿فَصَدُّوا۟﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ لا يراعون في المسلمين عهدًا ولا قرابة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن شركهم وتناسوا عداوتكم ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ نوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(١٢) ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾

الجزء العاشر — سورة التوبة

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

٤٨ — ثلاثة أرباع الحزب ١٩

١٨٩

نقضوها وحلوها، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ عابوه وسخروا منه ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ القادة فيه؛ ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ لا عهود ولا مواثيق يلازمون على الوفاء بها ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالك إياهم ﴿يَنتَهُونَ﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه.

(١٣) ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾ هذا تهييج وتحضيض على قتال المشركين الذين ﴿نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ نقضوا عهودهم ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حيث نقضوا العهد، وأعانوا عليكم، ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ في ترك قتالهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن كنتم مؤمنين فامتثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتتركوا أمر الله.

(١٤) ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ إذا نصركم عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم، ويحرص عليه ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم.

(١٥) ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم وهذا يدل على محبة الله لعباده، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه يجعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقهم للدخول في الإسلام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾ من دون ابتلاء وامتحان ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ علمًا يظهر ما في القوة إلى الخارج؛ ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله؛ لإعلاء كلمته ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ وليًّا من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم: خيرها وشرها.

(١٧) ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات؛ ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ والحال: أنهم شاهدون ومقرون على

أنفسهم بالكفر؛ بشهادة حالهم وفطرهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بطلت وضلت ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.

(١٨) ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: قصر خشيته على ربه؛ فكف عنه ما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ إن أولئك هم المفلحون، وعسى من الله واجبة.

(١٩) ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ سقيهم الماء من زمزم ﴿وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة؛ لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال، وأما الجهاد في سبيل الله؛ فهو ذروة سنام الدين، به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق، ويخذل الباطل، وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج؛ فهي، وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ في الأجر والغنيمة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين وصفهم الظلم، الذين لا

سُورَةُ التَّوۡبَةِ — الجزء العاشر

يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

١٩٠

يصلحون لقبول شيء من الخير.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ بالنفقة في الجهاد، وتجهيز الغزاة ﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾؛ لا يفوز بالمطلوب، ولا ينجو من المرهوب إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

(٢١) ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم﴾ جودًا منه، وكرمًا، وبرًّا بهم ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ أزال بها عنهم الشرور،

---

(١٩) أخرج الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» بإسناد جيد من حديث أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إن الله لينادي يوم القيامة: أين جيراني؟ أين جيراني؟ فتقول الملائكة: ربنا، ومن ينبغي أن يجاورك؟ فيقول: أين عمّار المساجد؟».

في «صحيح مسلم» عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وهو يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ ... الآية».

وأوصل إليهم بها كل خير ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منه تعالى عليهم ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ من كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا اللّه تعالى.

(٢٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حولاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عِظَمه وحسنه على من يقول للشيء: كن؛ فيكون.

(٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به، و﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنهم تجرءوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء اللّه أولياء.

(٢٤) ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ في النسب والعشيرة ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أي: قراباتكم عمومًا ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها، وتعبتم في تحصيلها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ رخصها ونقصها، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ من حسنها وزخرفتها، وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ فأنتم فسقة ظلمة ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ الذي لا مرد له ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة اللّه شيئًا من المذكورات.

(٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ لم تفدكم شيئًا قليلاً ولا كثيرًا، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهم والغم ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ على رحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ طمأنينته وثباته ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين معه ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعذبهم اللّه في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

---

(٢٤) في «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن - والله - أحب إليَّ من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر».

(٢٥) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟! فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب . . . أنا ابن عبد المطلب».

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الواقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة.

(٢٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نَجَسٞ﴾ خبثاء في عقائدهم وأعمالهم ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ إلا أن يكون عبدًا أو أحدًا من أهل الذمة، ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ أيها المسلمون ﴿عَيۡلَةٗ﴾ فقرًا وحاجة من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ فليس الرزق مقصورًا على باب واحد ومحل واحد من فضله، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم.

﴿إِن شَآءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة؛ لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ علمه واسع، يعلم من يليق به الغنى ومن لا يليق، ﴿حَكِيمٞ﴾ ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

(٢٩) ﴿قَٰتِلُواْ﴾ هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات

الجزء العاشر — سورة التوبة

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

١٩١

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ لا يدينون بالدين الصحيح ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وإن زعموا أنهم على دين الحق، فإنه دين غير الحق؛ لأنه ما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلاً، وإما دين منسوخ قد شرعه الله ثم غيره بشريعة محمد عليه السلام، وغيّى ذلك القتال ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ المال الذي يكون جزاءً لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام.

﴿عَن يَدٖ﴾، أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم، وعدم اقتدارهم، ويعطوها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادمًا، ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ ذليلون.

(٢٩) في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق؛ فاضطروه إلى أضيقه».

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٠) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهذه المقالة، وإن لم تكن مقالة لعامتهم، فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرءوا فيها على الله، وتنقصوا عظمته وجلاله ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ﴾ عيسى ابن مريم ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ فرد اللّه زعمهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا سوى الدعوى والافتراء ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ يشابهون في قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ قول المشركين الذين يقولون: الملائكة بنات الله. تشابهت أقوالهم في البطلان ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق الصَّرْف الواضح المبين إلى القول الباطل المبين.

(٣١) ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماؤهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ العُبَّاد المتجردين للعبادة ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يُحلُّون لهم ما حرم اللّه فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل اللّه فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل، فيتبعونهم عليها، ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهًا من دون الله، ﴿وَ﴾الحال أنهم خالفوا في ذلك رسله ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾أمر اللّه لهم على ألسنة رسله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر اللّه وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه وتقدس، وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم.

(٣٢) ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا الافتراء ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ونور الله: دينه الذي أرسل به محمدًا ﷺ وأنزل به الكتب، وسماه اللّه نورًا؛ لأنه يستنار به في ظلمات الجهل ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾؛ لأنه النور الباهر الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، وقد تكفل اللّه بحفظه من كل من يريده بسوء ولهذا قال: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا.

---

(٣١) أخرج الترمذي بإسناد حسن لغيره عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي، اطرَحْ عنك هذا الوثنَ». وسمعته يقرأ في سورة «براءة»: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه».

(٣٣) ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسِّنان ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعد اللّه لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

(٣٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تحذير للمؤمنين ﴿إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ من كثير من علماء وعباد أهل الكتاب ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ فهم يأكلون أموال الناس بغير حق ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل لمن اتبعهم من الجهلة، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ يمسكونها ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل اللّه إذا وجبت، ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

ثم فسره بقوله:

(٣٥) ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ على أموالهم من الذهب والفضة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾ في يوم القيامة، كلما أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنز.

(٣٦) ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قضاء اللّه وقدره ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه القدري ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها، فقسمها على هذه الشهور الاثنى عشر شهرًا ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرمًا؛ لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ هذا الدين المستقيم

---

(٣٣) وفي «صحيح مسلم» عن ثوبان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إن الله زَوَى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أمتي سيبلغُ ملكُها ما زُوِي لي منها، وأُعطيتُ الكنزين الأحمرَ والأبيضَ».

(٣٤) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم. فأَوضَع على بعير - أي حمله سرعة السير - فأدركه، وأنا في أَثَره، فقال: يا رسول الله، أيُّ المال نتخذ؟ قال: «ليتخِذَ أحدُكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة تعين أحدَكم على أمر الآخرة».

(٣٥) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِن رجلٍ لا يؤدي زكاة مالِه إلا جُعل يومَ القيامةِ صفائحُ مِن نارٍ فيكوى بها جنبُه وجبهتُه وظهرُه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، حتى يُقضى بين الناسِ، ثم يُرى سبيلُه إما إلى الجنةِ، وإما إلى النارِ».

(٣٦) في «الصحيحين» و«المسند» عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إنَّ الزمانَ استدار كهيئتِه يومَ خلَق اللهُ السمواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشَرَ شهرًا، منها أربعةٌ حُرُمٌ: ثلاثة متواليات: ذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمحرمُ، ورجبُ مُضَرَ الذي بين جُمادَى وشعبانَ».

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في الشهور كلها، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ لا تخصوا أحدًا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداءً، كما كانوا هم معكم كذلك، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بعونه، ونصره، وتأييده.

(٣٧) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ النسيء هو: ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة: أن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا، فهذا - كما أخبر الله عنهم - زيادة في كفرهم وضلالهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ليوافقوها في العدد ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة؛ بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

(٣٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا بداية العتاب لمن تخلف عن غزوة «**تبوك**»: ألا تعملون بمقتضى الإيمان، ودواعي اليقين، من المبادرة لأمر الله، والمسارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه لدينكم، ف﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ تكاسلتم فيها ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا، وسعى لها، ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كزاد الراكب.

(٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ لإقامة دينه ونصرة نبيه، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم عن الجهاد، فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهريًا.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد.

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾؛ أي: تنصروا رسوله ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ فإن الله ناصره ومؤيده ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من مكة؛ لما هموا بقتله ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ هو وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ غار ثور ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَـٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه ﴿لَا

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بعونه ونصره وتأييده ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم اللَّه حرسًا له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ الساقطة المخذولة ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ كلماته القدرية، وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

(٤١) ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجهاد في النفس والمال خير لكم من التقاعد عن ذلك؛ لأن فيه رضا اللَّه تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده.

(٤٢) ﴿لَوْ كَانَ﴾ خروجهم ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ منفعة دنيوية، سهلة التناول ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وكان السفر قريبًا سهلًا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لعدم المشقة الكبيرة ﴿وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تثاقلوا عنك ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ سيحلفون لتخلفهم عن الخروج أن لهم عذرًا، وأنهم لا يستطيعون ذلك ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالقعود والكذب، والإخبار بغير الواقع، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(٤٣) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ سامحك، وغفر لك ما أجريت. قال العلماء: وهذا من أحسن المعاتبة؛ بدأ بالعفو قبل المعاتبة. ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إبداء الأعذار ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ بأن تمتحنهم؛ ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر، ممن لا يستحق ذلك.

(٤٤) ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قرنوا الإيمان بالعمل ﴿أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأنهم يرون الجهاد قربة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه.

(٤١) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «تكفَّل اللهُ للمجاهدِ في سبيلِ اللهِ إن توفاه أن يدخلَه الجنةَ، أو يردَّه إلى منزلِه بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ».

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في القعود ممن لا عذر له ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ لا يرجون ثواب اللَّه في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكت في صحة ما جئتهم به، ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ لا يزالون في الشك والحيرة.

(٤٦) ثم قال تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، في الخروج ثم منعه مانع شرعي فهذا الذي يعذر، فقال تعالى: ﴿وَ﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ﴾ أبغض اللَّه ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو؛ ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أخرهم قدرًا وقضاءً وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ من النساء والمعذورين.

(٤٧) ثم ذكر الحكمة من ذلك فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ نقصًا؛ لأنهم جبناء مخذولون ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولسعوا في الفتنة والشر بينكم ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ هم حريصون على فتنتكم، وإلقاء العداوة بينكم، ولفرقوا جماعتكم المجتمعين ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ مستجيبون لدعوتهم، يغترون بهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيعلم عباده، كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

(٤٨) ثم ذكر أنهم قد سبق لهم سوابق في الشر، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ حين هاجرتم إلى المدينة، فبذلوا الجهد ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ من يستأذن، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾

(٤٩) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا جدُّ، هل لك في جِلَاد بني الأصفرِ؟» قال جد: أَوَ تأذن لي يا رسول الله؟ فإني رجل أحب النساء، وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتن. فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه: «قد أذنتُ لك». فعندئذٍ أنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ . . . الآية.

في الخروج، فإني إذا خرجت فرأيت نساء بني الأصفر، لا أصبر عنهن. قال تعالى مبيناً كذب هذا القول: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ بقولهم هذا، وتخلفهم عن رسول الله، ففيه -أي: التخلف- مفسدة عظيمة، أعظم من الفتنة التي يزعمونها، ولكنهم كذبة في هذا الإدعاء، فهذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ليس لهم عنها مقر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

(٥٠) ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تَسُؤْهُمْۖ﴾ تحزنهم وتغمهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يَقُولُواْ﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

(٥١) ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ ما قدره وأجراه في اللوح المحفوظ ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ﴾ متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، وليثقوا به في تحصيل مطلوبهم.

(٥٢) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ﴾ شهادة، أو ظفر بكم ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ ننتظر بكم ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ لا سبب لنا فيه ﴿أَوْ بِأَيْدِينَاۖ﴾ بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم، ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ بكم الشر.

(٥٣) يقول تعالى مبينًا بطلان نفقات المنافقين،

الجزء العاشر — سورة التوبة

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٞ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٖ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾

نصف الحزب ٢٠ — ع ١٢

١٩٦

وذاكرًا السبب في ذلك: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا﴾ من أنفسكم ﴿أَوْ كَرْهٗا﴾ على ذلك بغير اختياركم ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ﴾ شيء من أعمالكم؛ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمٗا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله.

(٥٤) ثم أخبر تعالى عن سبب عدم تقبل اللّٰه منهم صدقاتهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ لأنهم كفروا باللّٰه ورسوله، والأعمال الصالحة إنما تصح بالإيمان، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر، وثبات نفس.

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم؛ فإنه

لا غبطة فيها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهمِّ القلب فيها، وتعب البدن ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر؛ ليكون ذلك أشد لعذابهم.

(٥٦) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يمينًا مؤكدة ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون خوفًا شديدًا منكم، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تتبرءوا منهم، فيتخطفهم الناس من كل جانب.

(٥٧) ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصنًا يلجئون إليه عندما تنزل بهم الشدائد ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ وهي التي في الجبال يدخلونها، فيستقرون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وهو السرب والنفق يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون ويهرعون.

(٥٨) ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يعيب عليك ﴿فِى﴾ قسم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وليس انتقادهم لقصد صحيح، بل لحظ أنفسهم ﴿فَإِنْ﴾ ولهذا إن ﴿أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟﴾ لموافقة ما في نفوسهم ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ يغضبون لأنفسهم.

(٥٩) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أعطاهم من قليل وكثير ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا. وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا.

(٦٠) ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ الزكوات الواجبة لهؤلاء المذكورين، دون من عداهم؛ لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين؛ لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم ففسر الفقير بأن: الذي لا يجد شيئًا، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنيًّا.

فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون عليها وهم: كل من له عمل وشغل فيها، من حافظٍ لها، أو جابٍ لها، أو راعٍ، أو حاملٍ لها، أو كاتبٍ، أو نحو ذلك فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم، والمؤلف قلبه هو: السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره، أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين

طائفتين من الناس شر وفتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما يبذله لأحدهم، أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنيًا. والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يُوَفِّي به دَيْنَهُ.

والسابع: الغازي في سبيل اللّه، وهم الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم.

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة من يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بظواهر الأمور وبواطنها، وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به.

هذا ولو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدنيوية.

(٦١) ﴿وَمِنْهُمُ﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بالأقوال الردية، والعيب له ولدينه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾؛ أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب، ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: يقبل من قال له خيرًا وصدقًا، وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم، وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان

الجزء العاشر — سورة التوبة

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

١٩٧

كثيرًا ما يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ فإنهم به مهتدون، وبأخلاقه يقتدون، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بالقول والفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

(٦٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ فيتبرءوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ فغايتهم أن ترضوا عليهم ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن المؤمن لا يقدِّم شيئًا على رضا ربه، فدل هذا على انتفاء إيمانهم؛ حيث قدَّموا رضا غير اللّه ورسوله.

(٦٣) وهذا محادة للّه، ومشاقة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ ألم يتحققوا ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بأن يكون في حد وشق مبعد عن اللّه ورسوله بأن تهاون بأوامر

الله، وتجرأ على محارمه، ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾؛ أي: مهانًا معذبًا ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم.

(٦٤) ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ﴾ يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى اللَّه أن لا يفشي سرنا هذا! ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ وقد وفَّى اللَّه بوعده، فأنزل اللَّه هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم.

(٦٥)،(٦٦) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم كما قالت طائفة منهم في غزوة «**تبوك**»: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي ﷺ** وأصحابه - أرغب بطونًا، وأكذب ألسنة، وأجبن عند اللقاء»! ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاءوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ نتكلم بكلام، لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب، ﴿قُلۡ﴾ لهم: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ فإن الاستهزاء باللَّه ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم اللَّه وتعظيم دينه ورسله.

﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ منكم ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

(٦٧) ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾؛ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضًا، ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو: الكفر والفسوق والعصيان ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: الإيمان والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ عن الإنفاق في سبيل اللَّه وطرق الإحسان، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ عاملهم معاملة من نسيهم، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

(٦٨) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جمع المنافقين والكفار في نار جهنم؛ لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله، والكفر بآياته، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ أي: كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ دائم لا ينقطع.

(٦٥) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك يومًا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. والنبي ﷺ يقول: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾».

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ع١٥

(٦٩) ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إن حالكم أيها المنافقون كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالاً وأولادًا ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ استمتعوا بما قدر لهم من حظوظ الدنيا، وأعرضوا عن ذكر اللَّه وتقواه، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ وقد استمتعتم بما قدر لكم من ملاذ الدنيا كما استمتعوا ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ وخضتم فيما خاضوا فيه من المنكر والباطل، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بطلت أعمالهم، فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وأنتم مثلهم في سوء الحال والمآل، والعاقبة الوخيمة.

(٧٠) يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ أي: قرى قوم لوط، فكلهم ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحق الواضح الجلي المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرءوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

(٧١) ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو: اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ لا يزالون ملازمين لطاعة اللَّه ورسوله على الدوام، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قوي قاهر، ومع قوته فهو ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع كل شيء موضعه اللائق

---

(٧١) في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «مثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمِهم؛ كمَثل الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تدَاعى له سائرُ الجسدِ بالحمَّى والسهرِ».

الجزء العاشر — سورة التوبة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

١٩٩

به، الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

(٧٢) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وتَرَح، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهارُ الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا اللَّه تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولاً ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ قد زخرفت وحسنت، وأعدت لعباد اللَّه المتقين ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور.

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالغ في جهادهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم، وأما في الآخرة فإن ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مقرهم الذي لا يخرجون منه ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(٧٤) ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ إذا قالوا قولاً كقول من قال منهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون باللَّه ما قالوا ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر، ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول اللَّه ﷺ في غزوة «تبوك»، فقص اللَّه عليهم نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا نَقَمُوٓا۟﴾ وعابوا من رسول اللَّه ﷺ ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ عن التوبة والإنابة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة اللَّه

---

(٧٢) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتانِ من ذهبٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنتانِ مِن فضةٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بين القومِ وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهِهِ في جنةِ عدنٍ».

(٧٤) أخرج ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: سمع زيد بن أرقم رضي الله عنه رجلاً من المنافقين يقول – والنبي ﷺ يخطب –: إن كان هذا صادقًا لنحن أشر من الحمير. فقال زيد: هو والله صادق، ولأنت أشر من الحمار. فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فجحد القائل، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾... الآية. فكانت الآية في تصديق زيد.

لدينه وإعزاز نبيه ﷺ، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ في عذاب السعير ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ يدفع عنهم المكروه.

(٧٥) ﴿وَمِنۡهُم﴾ من هؤلاء المنافقين ﴿مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسعها ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

(٧٦) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ غير ملتفتين إلى الخير.

(٧٧) فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه عاقبهم ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ مستمرًا ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾؛ فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في «الصحيحين»: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف». فهذا المنافق الذي وعد الله، لئن أعطاه من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين؛

الجزء العاشر — سورة التوبة

ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

٢٠٠

حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف. ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله.

(٧٨) ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى.

(٧٩) ثم ذكر تعالى مخازٍ أخرى للمنافقين - قبحهم الله - فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾ يعيبون ويطعنون ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ فيقولون: مراءون، قصدهم الفخر والرياء ﴿وَ﴾ يلمزون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ فيخرجون ما

---

(٧٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذبَ، وإذا وعَد أخلَف، وإذا اؤتمن خان».

(٧٩) في «الصحيحين» عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل؛ أي: نَحْمِلُ على ظُهُورِنا بالأُجْرَة، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ الآية.

استطاعوا، ويقولون: اللَّه غني عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فقوبلوا على صنيعهم بأن ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدهم بالعذاب الشديد المؤلم.

(٨٠) ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أي: استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر اللَّه لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ على وجه المبالغة في اليأس عن طمع المغفرة ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] ثم ذكر السبب المانع لمغفرة اللَّه لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام مصرًا على كفره ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الذي صار الفسق لهم وصفًا، بحيث لا يختارون عليه سواه، ولا يبغون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم اللَّه تعالى؛ بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

(٨١) ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فرحوا بقعودهم بعد خروجه، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضًى بفعل المعصية، وتبجح به ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ المنافقون ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾؛ لأن النفير مشقة علينا بسبب الحر ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ لو أنهم يفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل اللَّه في الحر، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف.

(٨٢) ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾ فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها ﴿وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ فسيبكون كثيرًا في عذاب أليم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

(٨٣) ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ إن ردك اللَّه من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة ﴿فَقُل﴾ لهم؛ عقوبة: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ فسيغنيني اللَّه عنكم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في غزوة تبوك ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة.

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعة منه

---

(٨١) في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدم التي يوقدونها جزء من سبعين جزءًا من نارِ جهنمَ». فقالوا: يا رسول الله! إن كانت لكافية، قال: «إنها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستين جزءًا».

(٨٤) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما مات عبد الله ابن أبي ابن سلول، دعي إليه رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثَبْتُ إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبيٍّ، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا ـ أعدِّد عليه قوله ـ؟! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أَخِّرْ عني يا عمرُ». فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيرتُ فاخترتُ، لو أعلمُ أني إن زدتُ على السبعين يُغفرُ له لزدتُ عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا، حتى نزلت الآيتان من «براءة» ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، قال: فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذٍ، والله ورسوله أعلم.

لهم، ولا تنفع فيهم الشفاعة؛ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ومن كان كافرًا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم.

(٨٥) ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ لا تغتر بما أعطاهم اللَّه في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة.

(٨٦) ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أولي الغنى والأموال ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ وهو النساء الخوالف بعد خروج الجيش.

(٨٧) ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا لأنفسهم بالعار والقعود مع النساء المتخلفات عن الجهاد ﴿وَطُبِعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل اللَّه ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

(٨٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب، وأكمل الرغائب.

(٨٩) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ثوابًا على إيمانهم

سورة التوبة — الجزء العاشر

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

٢٠١

وجهادهم وإنفاقهم في سبيل اللَّه ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أدخلهم جنات عدن، وأورثهم الفردوس ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها ولا ينقطع النعيم عنها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ هذا النعيم المقيم هو الفوز العظيم.

(٩٠) ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ جاء الذين تهاونوا وقصروا منهم في الخروج؛ لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وأما الذين كذبوا اللَّه ورسوله منهم فتركوا الاعتذار بالكلية، ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أوعدهم بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

(٩١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ وهذا شامل لجميع أنواع

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

المرض الذي لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لا يجدون زادًا ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم ﴿حَرَجٌ﴾ فهؤلاء ليس عليهم حرج ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم بإحسانهم فيما عليهم من حقوق اللَّه وحقوق العباد أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

(٩٢) ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئًا ﴿قُلْتَ﴾ لهم معتذرًا: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ فإنهم عاجزون باذلون لأنفسهم وقد صدر منهم من الحزن والمشقة، ما ذكره اللَّه عنهم، فهؤلاء لا حرج عليهم.

(٩٣) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ يتوجه، واللوم يتأكد ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾قادرون على الخروج، ولا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رَضُوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم ﴿وَ﴾ إنما رضوا بهذه الحال؛ لأن اللَّه ﴿طَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها، فلا يدخلها خير، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

(٩٤) ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزاتكم ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ قد أعلمنا اللَّه أحوالكم، وهو الصادق في قيله، فلم يبق للاعتذار فائدة ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الدنيا؛ لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء من ذلك ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

(٩٥) ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ سيحلفون لكم معتذرين ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا

(٩٢) في «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم واديًا، ولا سَلكتم طريقًا، إلا شَرَكوكم في الأجرِ؛ حبَسهم المرضُ».

توبخوهم ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ احتقارًا لهم ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌ﴾ إنهم قذر خبثاء نجس؛ لخُبْث بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ تكفيهم عقوبة ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ من الآثام والخطايا.

(٩٦) ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ أي: ولهم المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، وهو أنهم يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئًا ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فلا ينبغي لكم أن ترضوا عن من لم يرضَ اللَّه عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

(٩٧) ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفۡرًا وَنِفَاقًا﴾ أعظم نفاقًا من أهل الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ أحرى ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من أصول الإيمان، وأحكام الأوامر والنواهي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل، والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته.

(٩٨) ﴿وَمِنَ﴾ ذلك أن ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ أحرص على الأموال وأشح فيها، فمنهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل اللَّه وغير ذلك ﴿مَغۡرَمًا﴾ يراها خسارة ونقصًا، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهًا ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾

٢٠٣

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ وهذا سينعكس عليهم، والسوء دائر عليهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ سميع لدعاء عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد وما صدرت منه الأعمال في الإخلاص وغيره.

(٩٩) ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ منهم ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه اللَّه تعالى، والقرب منه ﴿وَ﴾ يجعلها وسيلة إلى ﴿صَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبينًا لنفع صلوات الرسول: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡ﴾ تقربهم إلى الله، وتنمي أموالهم، وتحل فيها البركة ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ في جملة عباده

---

(٩٧) أخرج أبي داود والترمذي والنسائي وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَن سَكَن البادية جفَا، ومَن اتَّبع الصيدَ غفَل، ومن أتى السلطانَ افتتَن».

الصالحين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر السيئات العظيمة من تاب إليه، ويعم عباده برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها على الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

(١٠٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وهم: الذين سبقوا هذه الأمة وبدروها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. ﴿وَ﴾ من ﴿الأَنصارِ﴾وهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بما أنعم عليهم من جلائل النعم وعظائم المنن ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الفاخرة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يبغون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم، أو سبهم، أو أبغض، أو سب بعضهم!! ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم؛ أعني: الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه؛ فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم - عياذًا بالله من ذلك -، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؟! إذ يسبون من رضي الله عنهم!!

وأما أهل السنة؛ فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أيضًا منافقون ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ تمرنوا عليه، وازدادوا فيه طغيانًا ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بأعيانهم؛ فتعاقبهم أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم؛ لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في النار وبئس القرار.

(١٠٢) ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ ممن بالمدينة، ومن حولها،

---

(١٠٠) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيدِه، لو أنَّ أحدَكم أنفق مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه».

(١٠٢) في «صحيح البخاري» من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان؛ فابتعثاني، =

بل ومن سائر البلاد الإسلامية ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ أي: أقروا بها، وندموا عليها ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وتوبته على عبده نوعان: الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما.

(١٠٣) ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ وهي الزكاة المفروضة ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتنمي أموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ ادع لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته.

(١٠٤) ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أما علموا سعة رحمة الله، وعموم كرمه، وأنه ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ التائبين من أي ذنب كان ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ منهم؛ أي: يقبلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوبة على

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾

التائبين، فمن تاب إليه؛ تاب عليه، ولو تكررت منهم المعصية مرارًا ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته ويتبعون رسوله.

(١٠٥) ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾؛ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

= فانتهيا بي إلى مدينةٍ مبنيةٍ بلَبِنِ ذهبٍ ولَبِنِ فضةٍ، فتلقانا رجالٌ شَطْرٌ مِن خَلْقِهم كأحسنِ ما أنت راءٍ، وشَطْرٌ كأقبحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا؛ فقعوا في ذلك النهرِ. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسنِ صورةٍ، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالا: أما القومُ الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ وشَطْرٌ منهم قبيحٌ؛ فإنهم خَلَطوا عملاً صالحًا وآخرَ سيئًا، تجاوز اللهُ عنهم».

(١٠٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» معلقًا، ووصله في «خلق أفعال العباد» بإسناد صحيح عن عائشة ﵂ قالت: «إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾».

﴿تَعۡمَلُونَ﴾ من خير وشر.

(١٠٦) ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المخلفين ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ مؤخرون ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ لحكم الله عز وجل فيهم، وهم الثلاثة الذين خلفوا ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ عمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

(١٠٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وَكُفۡرٗا﴾ مقصدهم فيه الكفر ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ إعدادًا ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حرابهم، واشتدت عداوتهم ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ في بنائنا إياه ﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ الإحسان إلى الضعيف والعاجز والضرير، ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ لا تصلِّ في ذلك المسجد الذي بني ضرارًا أبدًا؛ ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء» وهو مسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين لله ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ تتعبد وتذكر الله تعالى ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ والنجاسات والأحداث ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك، والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية، كإزالة الأنجاس، ورفع الأحداث.

(١٠٩) ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضۡوَٰنٍ﴾ بأن كان موافقًا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة ﴿خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ على طرف ﴿جُرُفٍ﴾ هوة ﴿هَارٖ﴾ بالٍ وساقط، قد تداعى للانهدام ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ﴾؛ أي: سقط بالباني ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يصلح عمل المفسدين.

(١١٠) ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ شكًّا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو

(١٠٧) أخرج الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ هم: أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم فأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله فيه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾».

(١٠٨) أخرج الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن لغيره من حديث أسيد بن ظهير رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاةٌ في مسجدِ قباء كعمرةٍ». وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح لغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نزلتْ هذه الآيةِ في أهلِ قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماءِ».

اللَّه عنهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد وأعلنوه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به.

(١١١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ فهي المثمن والسلعة المبيعة ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ وصفة العقد والمبايعة بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه لإعلاء كلمته وإظهار دينه، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ التي هي أشرف الكتب وأكملها، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهدوا عليه من الله، فإنه لا يخلف الميعاد، ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم اللَّه ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ لتعزموا بذلك، وليبشر بعضكم بعضًا، ويحث بعضكم بعضًا، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل؛ لأنه يتضمن السعادة الأبدية والنعيم المقيم والرضا من اللَّه الذي هو أكبر من نعيم الجنات.

(١١٢) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات، ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته، من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لله في السراء والضراء، واليسر والعسر ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾؛ أي: الصائمون، وليس المراد بالسياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى اللَّه ورسوله عنه ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل اللَّه على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلًا

(١١٢) في «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مالِ الرجلِ غنمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بدينِه مِن الفتنِ».

وتركًا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشر لهم به؛ ليعم جميع ما رتب على الإيمان، من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

(١١٣) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ما يليق ولا يحسن بالنبي ﷺ والمؤمنين به ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ لمن كفر بالله، وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أصحاب النار، فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غير مفيد، ولن تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

(١١٤) ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ ولئن وجد الاستغفار من إبراهيم عليه السلام. لأبيه فإنه ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٧]، وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقة لربه وتأدبًا معه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ رجّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه.

(١١٥) ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يخبر الله عن نفسه أنه لا يضل قومًا إلا بعد بلاغ الرسالة إليهم وبعد أن يوضح لهم ما يتقون الله فيه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه، علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو المالك لذلك ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري، فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين؟! ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

(١١٧) ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تاب على النبي محمد ﷺ ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ خرجوا معه لقتال الأعداء في غزوة «**تبوك**» وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدد، مما يدعو إلى التخلف ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أن تنقلب قلوبهم عن الحق ويميلوا إلى الدعة والسكون، ويشكون في دين رسول الله ﷺ بما نالهم من المشقة والشدة، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ قبل توبتهم، فرزقهم الإنابة والثبات، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ من تاب عليه لا يعذبه أبدًا.

---

(١١٣) أخرج أحمد في «المسند» بإسناد صحيح - وأصله في «صحيح مسلم» - عن بريدة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفدّاه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألتُ ربي عز وجل في الاستغفارِ لأمي، فلم يأذن لي، فدمعتْ عيناي رحمةً لها من النارِ . . .» الحديث.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

نصف الحزب ٤١

(١١٨) ﴿وَ﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، وكلهم من الأنصار ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عن أمر المنافقين الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمر الثلاثة حتى قضى الله فيه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ على سعتها ورحبها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب من كل شيء ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ تيقنوا وعرفوا بحالهم أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ لتقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والنقصان ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين.

(١١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وبما أمر الله بالإيمان به ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ قوموا بما يقتضيه الإيمان وهو القيام بتقوى الله؛ باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

(١٢٠) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ﴾ في بقائها وراحتها وسكونها ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الكريمة الزكية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ المجاهدون في سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مجاعة ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم، والاستيلاء على أوطانهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه، وحق خلقه.

(١١٩) في «الصحيحين» و«المسند» - واللفظ له - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدقِ؛ فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنةِ، وما يزال الرجلُ يَصْدقُ ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكتبَ عند اللهِ صِدِّيقًا، وإياكم والكذبَ؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النارِ، وما يزالُ الرجلُ يَكذِبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند اللهِ كذابًا».

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ يُونُس — مكية — آياتها ١٠٩

٢٠٧

(١٢١) ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قليلاً ولا كثيرًا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ومن ذلك هذه الأعمال إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا فيها.

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ جميعًا لقتال عدوهم؛ فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود؛ لكان أولى ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ أي: القاعدون ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ فإذا رجعت السرايا، وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا: إن اللّه أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل اللّه على نبيهم بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يتعظون فيعملون به ولا يعملون بخلافه.

(١٢٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أمر اللّه المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وأمرهم بالغلظة عليهم والشدة في القتال والشجاعة والثبات ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وليكن لديكم علم أن المعونة من اللّه تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يعنكم وينصركم على عدوكم.

(١٢٤) ثم بين تعالى حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر والنهي والخبر عن نفسه الكريمة وعن الأمور الغائبة والحث على الجهاد ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ بالعلم بها وفهمها واعتقادها والعمل بها والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن

---

(١٢١) أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» ـ واللفظ له ـ وغيرهما بإسناد حسن، عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضَرَّ ابنَ عفانَ ما عمِل بعدَ اليومِ». يردِّدها مرارًا.

فعل الشر ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضًا، بما مَنَّ اللَّه عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها.

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ مرضًا إلى مرضهم وشكًا إلى شكهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وهذا عقوبة لهم؛ لأنهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

(١٢٦) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية، التي يراد بها اختبارهم ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

(١٢٧) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾؛ يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم إذا نزلت سورة وليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم اللَّه بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ صدها عن الحق وخذلها ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فقهًا ينفعهم، فإنهم لو فقهوا لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

(١٢٨) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم ومن جنسهم، يعرفون حاله ولسانه، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

(١٢٩) ﴿فَإِن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ اللَّه يكفيني جميع ما أهمني ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ووثقت به في جلب ما ينفع ودفع ما يضر ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات.

* * *

(١٢٨) في «المسند» بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الأديانِ إلى اللهِ تعالى الحنيفيةُ السمحةُ». وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنَّ هذا الدينَ يُسرٌ».

(١٢٩) أخرج أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قال في كل يوم حين يصبح وحين يمسي: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، كفاه الله عز وجل همه من أمر الدنيا والآخرة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

سورة يونس

(١) ﴿الٓر﴾ أما الحروف المقطعة في أوائل السور فتقدم الكلام عليها مستوفى في أوائل سورة «البقرة» ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وهو هذا القرآن المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: أكان إيحاؤنا إلى محمد عبدنا ورسولنا وهو رجل من قريش عجباً لأهل مكة يتعجبون منه؟! والموحي به هو: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إيمانًا صادقًا ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لهم جزاء موفور، وثواب مذخور عند ربهم، بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة، فلما أنذر وبشر ﷺ ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن السحر، لا يخفى على أحد.

(٣) ثم قال تعالى -مبينًا لربوبيته وإلهيته وعظمته-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ استواء يليق بعظمته ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أعظم المخلوقات وسقفها ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر الخلائق ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذا شأنه ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وعده صادق لا بد من إتمامه ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم من واجبات ومستحبات ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من سائر

أصناف العذاب ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم وظلمهم.

(٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً، وجعل شعاع القمر نورًا، هذا فن وهذا فن آخر؛ لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يعود إلى حالته الأولى في تمام شهر ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لم يخلقه عبثًا، بل له حكمة عظيمة في ذلك ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(٦) ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئًا ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الآيات الدالة على عظمته ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ عقابَ اللَّه وسخطَه وعذابَه.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يطمعون بلقاء الله ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلاً عن الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ ركنوا إليها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية.

(٨) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مَأْوَاهُمُ

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٢٠٩

النَّارُ﴾ مقرهم ومسكنهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك، وأنواع المعاصي.

(٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم اللَّه أعظم الثواب، وهو: الهداية؛ يهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها اللَّه إلى النعيم؛ لاشتمالها على النعيم التام.

(١٠) ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ عبادتهم فيها لله أولها: تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض،

---

(١٠) في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إن أهلَ الجنةِ يُلهمون التسبيحَ والتحميدَ كما يُلهمون النَّفَسَ».

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

٢١٠

وآخرها: تحميد لله ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور ﴿سَلَامٌ﴾ كلام سالم من اللغو والإثم، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ إذا فرغوا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١١) ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لمحقتهم العقوبة.

ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم.

وقوله ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ باطلهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرين، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ من مرض أو مصيبة ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، وألح في الدعاء؛ ليكشف الله عنه ضره ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ استمر في غفلته، معرضًا عن ربه، كأنه ما جاءه ضر، فكشفه الله عنه، فأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟! ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الأمم الماضية ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم وكفرهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم البينات على أيدي الرسل وتبين الحق ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

(١٤) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم من بعد القرون

---

(١١) في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْعوا على أنفسِكم، لا تَدْعوا على أولادِكم، لا تَدْعوا على أموالِكم؛ لا توافقوا من اللهِ ساعةً فيها إجابةٌ فيستجيبُ لكم».

(١٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ، وإن اللهَ مستخلفكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أولَ فتنةِ بني إسرائيل في النساءِ».

الماضية ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم، واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله نجوتم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم أحل بكم ما أحل بهم.

(١٥) ثم ذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا ـ جراءة منهم وظلمًا ـ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ رُدَّ هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر. فقال الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ليس لي غير ذلك؛ فإني عبد مأمور ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٦) ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾؛ أي: هذا ما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلاً ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أني حيث لم أتله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرًا طويلاً تعرفون حقيقة حالي بأني أُمِّيٌّ لا أقرأ ولا أكتب؟!

(١٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فلو كنت متقولاً؛ لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح ما دمتم كذلك.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع، ولا تدفع عنهم شيئًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولاً خاليًا من البرهان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى - مبطلاً لهذا القول: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير.

(١٩) ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقين على الدين الصحيح، ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بإمهال العاصين، وعدم معاجلتهم بذنوبهم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك

(١٧) أخرج الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: لما قدم رسول الله ﷺ انجفل الناس - أي ذهبوا مسرعين إليه - فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناسُ، أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ؛ تدخلوا الجنةَ بسلامٍ».

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾

٢١١

الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقًا بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض؛ ليتبين الصادق من الكاذب.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون المتعنتون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾؛ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها، ﴿فَقُلۡ﴾ لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ هو المحيط علمًا بأحوال العباد ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ كلٌّ ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

(٢١) ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف؛ نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا اللَّه على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ يسعون بالباطل؛ ليبطلوا به الحق ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله، ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء.

(٢٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ بما يسر لكم من الأسباب الميسرة لكم فيها، وهداكم إليها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ السفن البحرية ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ موافقة لما يهوونه من غير انزعاج ولا مشقة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ شديدة الهبوب ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ هاج عليهم البحر واضطربت أمواجه ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذٍ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا اللَّه وحده، وحينئذ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فلم يدعوا صنمًا ولا وثنًا، بل أفردوه بالدعاء والابتهال، ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لا نشرك بك أحدًا، ولنفردنك بالعبادة.

(٢٣) ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله

---

(٢٣) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّل اللهُ عقوبتَه في الدنيا، مع ما يدخرُ اللهُ لصاحبِه في الآخرةِ، مِن البغي وقطيعةِ الرحمِ»

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرونه شيئًا، ولا تضرون به أحدًا غيركم، ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ غاية ما تؤملون ببغيكم وشرودكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئًا من حطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعًا، ويمضي جميعًا، ثم تنتقلون عنه بالرغم، ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مصيركم ومآلكم إلى الله في يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية، وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه - إن زها- وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم؛ اضمحل وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها، فذلك ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ نبت فيها من كل صنف وزوج بهيج ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار، ﴿وَ﴾مما تأكل ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ كأنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ يبسًا بعد تلك الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك، فهذه حالة الدنيا، سواءً بسواء، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نبينها ونوضحها بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال، ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يُعمِلون أفكارهم فيما ينفعهم ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، وشوّق إلى الدار الباقية، فقال:

(٢٥) ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ عمم -تعالى- عباده بالدعوة ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ والحث على ذلك والترغيب، وسمى الله الجنة **«دار السلام»**؛ لسلامتها من الآفات والنقائص؛ وذلك لكمال

---

(٢٤) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يؤتى بأنعم أهلِ الدنيا مِن أهلِ النارِ يومَ القيامةِ، فيُصبغُ في جهنمَ صبغةً، ثم يقال له: يا ابنَ آدمَ، هل رأيتَ خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا ربِّ. ويؤتى بأشدِّ الناسِ بؤسًا في الدنيا، فيُصبغُ في الجنةِ صبغةً، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيتَ بؤسًا قط؟ هل مر بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يا ربِّ، ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شدةً قط».

(٢٥) أخرج أحمد والطيالسي وغيرهم بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما مِن يوم طلعتْ شمسُه إلا وُكِّل بجَنْبتيها ملكان يناديان نداءً يسمعه خَلقُ اللهِ كلُّهم إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلمُّوا إلى ربِّكم، إنَّ ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى. ولا آبتِ الشمسُ إلا كان بجَنْبتيها ملكان يناديان نداءً يسمعه خَلقُ اللهِ كلُّهم غيرَ الثقلين: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، وأعطِ ممسِكًا تلفًا. وأنزل الله في ذلك قرآنًا في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم. في سورة «يونس»: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وأنزل في قولهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، وأعطِ ممسكًا تلفًا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾».

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

نعيمها وتمامه، وحسنه من كل وجه ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاءه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسل.

(٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله، بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي، فهؤلاء الذين أحسنوا لهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة، الكاملة في حسنها ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه، والبهجة بقربه ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه؛ لأن المكروه إذا وقع بالإنسان تبين ذلك في وجهه وتغير وتكدر، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الأعمال السيئة المسخطة لله من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصي فـ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾؛ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا يدفعه عنهم دافع ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ تسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوادًا في وجوههم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٢٨) يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نجمع جميع الخلائق من إنس وجن، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا

(٢٦) أخرج مسلم في «صحيحه» عن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ويبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة؟ ويزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم اللهُ شيئًا أحبَّ إليهم من النظرِ إليه، ولا أقرَّ لأعينهم».

﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ الزموا مكانكم؛ ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ فرقنا بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ متبرئين منهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فإننا ننزه اللَّه أن يكون له شريك أو نديد.

(٢٩) ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ اللَّه شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وإنما عبدتم من دعاكم لذلك، وهو الشيطان ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم.

(٣٠) ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك اليوم ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ الْحَقِّ﴾ رجعت الأمور كلها إلى اللَّه الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون اللَّه تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

(٣١) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض؟ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ﴾ مَن هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات، من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر؟ ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ عكس هذه المذكورات؟ ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي؟ وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن اللَّه لا شريك له في شيء من المذكورات، ﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزامًا بالحجة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتخلصون له العبادة، وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدونه من دونه من الأنداد والأوثان.

(٣٢) ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به، واعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ أي: المألوه، المعبود بحق، المحمود بصدق، المربي جميع الخلق بالنعم، وهو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَٰلُ﴾ فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم وعبادتهم مع اللَّه غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة اللَّه أنهم أشقياء من ساكني النار.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٤) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ يبتديه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير؛ أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهم أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة، إلى عبادة من لا يخلق شيئًا وهم يخلقون.

(٣٥) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أنتم تعلمون أن أحدًا من شركائكم لا يقدر على هداية ضال ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه ﴿قُلِ﴾ إنما يهدي الحيارى والضُّلَّال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق، ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾؛ أي: أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصّر بعد العمى؟ أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى؛ لعماه وبكمه؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أيّ شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحد مع اللَّه بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا اللَّه وحده؟!

(٣٦) ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ولا يتبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا، إنما هو ظن منهم؛ أي: توهم وتخيل ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ وذلك لا يغني عنهم شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

(٣٧) ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غير ممكن ولا متصور أن يفترى هذا القرآن على اللَّه ﴿وَلَٰكِن﴾ اللَّه أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين، أنزله ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب اللَّه السماوية بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو بيقين من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه.

(٣٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون به عنادًا وبغيًا: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمد على اللَّه واختلقه، ﴿قُلْ﴾ لهم- ملزماً لهم بشيء، إن قدروا عليه، أو أن ما أدّعوه، وإلا كان قولهم باطلاً-: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا محال، ولو كان ممكنًا لادعوا قدرتهم على ذلك ولأتوا بمثله،

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظَّ له من الحجة.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد ﷺ فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بما شاءوا، وأخبر انهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه؛ فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكذا في سورة البقرة -وهي مدنية- تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه أنهم لم يحيطوا به علمًا، فلو أحاطوا به علمًا وفهموه حق فهمه لأذعنوا بالتصديق به ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب، ويحل بهم النكال، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وهو الهلاك الذي لم يُبْقِ منهم أحدًا.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن وما جاء به ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعناد والفساد ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

(٤١) ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يقول اللّه لنبيه ﷺ: وإن كذبوك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم، واستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكلٍّ عمله ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١، ٦]؛ ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ كقول الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

(٤٢) ﴿وَ﴾ أن ﴿مِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: إلى النبي ﷺ، وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب، وتطلب العثرات ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر؛ أي:

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

ربع الحزب ٢٢

٢١٤

لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا.

(٤٣) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ﴾ فلا يفيدهم نظرهم إليك، ولا سبر أحوالك شيئًا، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

(٤٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم اللَّه بعد ذلك بالطبع على قلوبهم والختم على أسماعهم وأبصارهم.

(٤٥) يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ فيها، يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم بعضًا كحالهم في الدنياولكن كل مشغول بنفسه.

وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

(٤٦) يقول تعالى مخاطبًا لرسوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وإما في الآخرة بعد الوفاة ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ واللَّه شهيد على أفعالهم بعدك.

(٤٧) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿رَّسُولٌ ۖ﴾ يدعوهم إلى توحيد اللَّه ودينه ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ فيقضي اللَّه بينهم بالعدل بنجاة المؤمنين وإهلاك الكاذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من جزاء أعمالهم شيئاً، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء من أهل الإيمان، إما أن يعاقبه، وإما أن يعفو عنه، والكافر يخلد في النار، فذلك قضاء الله بينهم بالعدل، وذلك لاشك عدلٌ لا ظلمٌ.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخبر تعالى عن كفر هؤلاء في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه.

(٤٩) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ

ٱللَّهُۗ﴾ فإن هذا ظلم منهم؛ حيث طلبوه من النبي ﷺ فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ لكل قرن مدة من العمر، ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ فإذا جاء ذلك الوقت، ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ لا يتأخرون عنه، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يتقدمونه.

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾ وقت نومكم بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ في وقت غفلتكم ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي بشارة استعجلوا بها، وأي عقاب ابتدروه؟!

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمنون في حال الشدة والمشقة ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فإن سنة اللَّه في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها.

(٥٢) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يستخبرك المكذبون، على وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبين والاسترشاد: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أصحيح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم الميعاد، وجزاء العباد بأعمالهم؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾ مقسمًا على صحته ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ﴾؛ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابًا، حق مبين لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أن يبعثكم كما بدأكم من العدم.

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

٢١٥

(٥٤) ﴿وَ﴾ إذا كانت القيامة فـ ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما لتفتدي به من عذاب اللَّه ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضر والثواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ الذين ظلموا ﴿ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ﴾ ندموا على ما قدموا ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾ العدل التام ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بوجه من الوجوه.

(٥٥) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيه بحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

(٥٦) ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدابير، لا شريك له في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعظكم وتزجركم عن الفواحش، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط اللّه، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وهو: هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فالهدى هو: العلم بالحق والعمل به. والرحمة هي: ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن اهتدى به.

(٥٨) ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو: القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل اللّه به على عباده ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الدين والإيمان، وعبادة اللّه ومحبته ومعرفته، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها.

(٥٩) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ يعني: أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها اللّه رزقًا لهم ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ قل لهم: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ومن المعلوم أن اللّه لم يأذن لهم، فعلم أنهم مفترون.

(٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾؛ أي: ما ظنهم أن يفعل اللّه بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كثير، وذو إحسان جزيل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إما أنهم لا يقومون بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها.

---

(٥٩) أخرج أبو داود والنسائي وأحمد بإسناد صحيح عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة؛ فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال: من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «إذا آتاك الله مالاً فلير عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صِحاحًا آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذا بحر. وتشقها، أو تشق جلودها، وتقول: هذا صرم. وتحرمها عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك اللهُ لك حِلٌّ، وساعِدُ اللهِ أشدُّ من ساعدِك، وموسى اللهِ أحدُّ من موسِك».

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ حال من أحوالك الدينية والدنيوية ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ وما تتلوا من القرآن الذي أوحاه اللَّه إليك ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ ما يغيب عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

(٦٢) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا في الدنيا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال.

(٦٣) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وأما في الآخرة، فأولها: البشارة عند قبض أرواحهم، وفي القبر ما يبشر به من رضا اللَّه تعالى، والنعيم المقيم، وتمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بل ما وعد اللَّه فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتواصلون بها إلى القدح فيك وفي دينك، فإن أقوالهم لا تعزهم ولا تضرك شيئًا ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يؤتيها من يشاء، ويمنعها من يشاء ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم.

(٦٦) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى أن له ما في السموات والأرض، خلقًا وملكًا، يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ فالجميع مماليك لله، مسخرون، مدبرون، لا يستحقون شيئًا من العبادة، وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئًا ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون في ذلك.

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض ﴿وَ﴾ جعل اللَّه ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا، يبصر به الخلق، فينصرفون في معايشهم، ومصالح دينهم ودنياهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يستدلون بها

(٦٤) أخرج الإمام أحمد حديث أبي الدرداء رضي الله عنه الصحيح عن النبي ﷺ في قوله: «﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له».

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

على أنه وحده المعبود، وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة.

(٦٨) ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علوًّا كبيرًا، وبرهان ذلك ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فإذا كان غنيًّا من كل وجه فلأي شيء يتخذ الولد؟ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مماليك، فملكيته لما في السموات والأرض عمومًا تنافي الولادة ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ ليس عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدًا، وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

(٦٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾فيقولون عليه الباطل، ويدَّعون له ولداً ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يبقون في الدنيا، ولا ينالون فيها مطلوبهم.

(٧٠) لكن لهم ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يتمتعون به، وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كتب فناؤهم فيه ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم، إلينا مصيرهم ومنقلبهم ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ وذلك إصلاؤهم جهنم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ بالله في الدنيا، فيكذبون رسله، ويجحدون آياته.

(٧١) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾يقول تعالى لنبيه: واتل على قومك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ في دعوته لقومه حين دعاهم إلى اللَّه مدة طويلة، فتمللوا منه وسئموا، وهو -عليه الصلاة والسلام- غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إن كان مقامي عندكم، وتذكيري إياكم ما ينفعكم بالأدلة الواضحة البينة قد شق عليكم وعظم لديكم وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت على اللَّه في دفع كل شر يراد بي، وبما أدعو إليه ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا من مجهودكم شيئًا ﴿وَ﴾ أحضروا ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون اللَّه رب العالمين ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾؛ أي: مشتبهًا خفيًّا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية، ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ اقضوا علي بالعقوبة

والسوء الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلوني.

(٧٢) ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتكم إليه فلا موجب لتوليكم؛ لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده، ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على دعوتي وعلى إجابتكم فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا: فتمتنعون لأجل ذلك ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا أريد الثواب والجزاء إلا منه أيضًا فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده، بل ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأنا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به.

(٧٣) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما دعاهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾؛ أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ في الأرض بعد إهلاك المكذبين، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد ذلك البيان وإقامة البرهان ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ وهو الهلاك المخزي واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم؛ عقوبة لهم على معصيتهم بهم.

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ المكذبين يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم من أسباب الردى ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كل نبي أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾؛ يعني: أن الله تعالى عاقبهم؛ حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، فطبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان، بعد أن كانوا متمكنين منه، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ نختم عليها؛ عقوبة لهم على معصيتهم بهم.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿مُّوسَىٰ﴾ ابن عمران عليه السلام ﴿وَ﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هَارُونَ﴾ وزيرًا، وبعثناهما ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ كبار دولته ورؤسائهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاءا به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى اللَّه تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ظلمًا وعلوًّا بعدما استيقنوها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وصفهم الإجرام والتكذيب.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ فلما جاءهم الحق من عند اللَّه على يد موسى، ردوه فلم يقبلوه، و﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لم يكفهم إعراضهم ولا ردهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحرًا مبينًا ظاهرًا، وهو الحق المبين.

(٧٧) ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ موبخًا لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾؛ أي: أتقولون: إنه سحر مبين؟ ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟أي: فانظروا وصفه، وما اشتمل عليه؛ فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

(٧٨) ﴿قَالُوا﴾ لموسى، رادين لقوله بما لا يرد به: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غيره الله، وتأمرنا بأن نعبد اللَّه وحده لا شريك له ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء، ولتخرجونا من أراضينا. وهذا تمويه منهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ تكبرًا وعنادًا، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(٧٩) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا للحق الذي جاء به موسى، ومغالبًا لملأه وقومه: ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ماهر بالسحر، متقن له.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ للمغالبة لموسى ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئًا؛ وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبالٍ بهم وبما جاءوا به.

(٨١) ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي كأنها حيات تسعى، ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾؛ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ أي: يظهر بطلانه أمام النظارة من الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟!!

(٨٢) ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويثبت الله الحق الذي جئتكم به، فيعليه على باطلكم، ويصححه بـ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأمره ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أهل الإجرام على أنفسهم وعلى غيرهم، وهم الظلمة المفسدون.

(٨٣) ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت في قلوبهم الإيمان، وقيل: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون، وهم قليل. ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ عن دينهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ له القهر والغلبة والسطوة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشه ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين للحد في البغي والعدوان.

(٨٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يستعينون به على ذلك، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان بالله ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾؛ أي: اعتمدوا عليه، والجئوا إليه واستنصروه، فإن الله كافٍ من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

(٨٥) ﴿فَقَالُوا۟﴾ ممتثلين لذلك: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تسلطهم علينا فيفتنونا، أو يغلبونا فيفتتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غُلبوا.

(٨٦) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

(٨٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ حين اشتد الأمر على قومهما من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ مروهم أن يجعلوا لهم بيوتًا يتمكنون بها من

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

الاستخفاء فيها ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ اجعلوها محلاً تصلون فيها ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والتأييد وإظهار دينهم.

(٨٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما رأى القسوة والإعراض من فرعون وملئه دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدام ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ عظيمة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ إن أموالهم يستعينون بها على الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون، ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أتلفها عليهم ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قسها ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قال ذلك غضبًا عليهم؛ حيث تجرءوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

(٨٩) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ هذا دليل على أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكًا للداعي في ذلك الدعاء ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على دينكما، واستمرا على دعوتكما ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا تتبعان سبيل الجهال الضلَّال المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم.

(٩٠) ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين، فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر، فالتطم على فرعون وجنوده فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ حتى إذا أدرك فرعون الغرق، وجزم بهلاكه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَآءِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى! فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، ولهذا قال تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال:

(٩١) ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمن وتقر برسول الله ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، الذين أضلوا الناس.

(٩٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ شك بنو إسرائيل في موت فرعون، فأمر اللهُ البحرَ أن يلقيه على نجوة مرتفعة ليكون لهم عبرة وآية ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ فلذلك تمر عليهم وتتكرر، فلا ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، اما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أنزلهم اللّه وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الحق ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضُهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام وقدرته الشاملة.

(٩٤) ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟ ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ اسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وحاصل هذا: أن اللّه نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

(٩٥) ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ وأشد من ذلك؛ - أيّ: من الشك والامتراء في القرآن- التكذيب ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وهو آيات اللّه التي لا تقبل التكذيب بوجه ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة.

(٩٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا بد أن يصيروا إلى ما قدره اللّه وقضاه، فلا يؤمنون.

(٩٧) ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانًا وغيًّا إلى غيهم، فلا يؤمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الذي وعدوا به.

---

(٩٠) و(٩١) أخرج الترمذي وأحمد من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الصحيح لغيره، عن النبي ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. قال: قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيتني وقد أخذت حالاً من حال البحر -الطين الأسود-، فدسسته في فيه؛ مخافة أن تناله الرحمة».

(٩٢) في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم؛ فصوموه».

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى المكذبين ﴿ءَامَنَتْ﴾ حين رأت العذاب ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة، لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا.

(٩٩) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير اللّٰه على شيء من ذلك.

(١٠٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادته ومشيئته ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ الشر والضلال والخبال ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن اللّٰه أوامره ونواهيه، وحججه وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من ضل.

(١٠١) ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السموات والأرض، والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمل لما فيها، وما تحتوي عليه، والاستبصار؛ فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات اللّٰه بعد وضوحها ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الهلاك والعقاب

الجزء الحادي عشر — سورة يونس

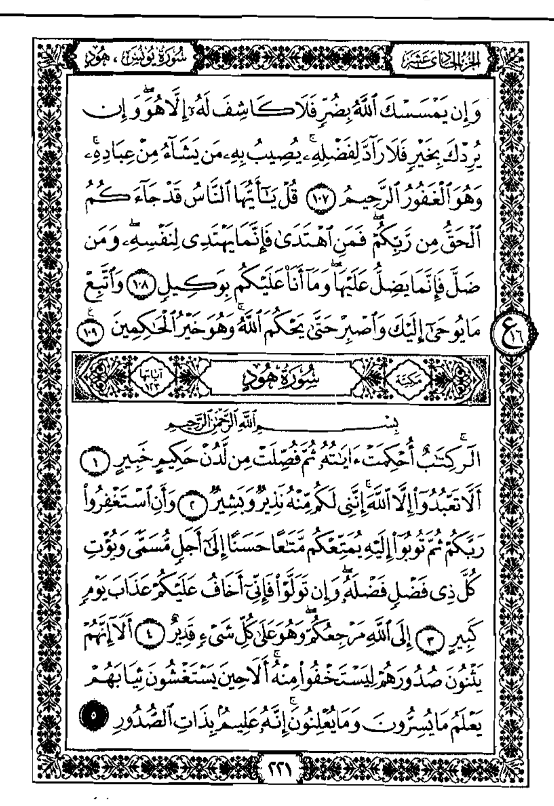
فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٢٢٠

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسل وأتباعهم.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن اللّٰه يدافع عن الذين آمنوا، فإنه بحسب ما مع العبد من الإيمان تحصل له النجاة من المكاره.

(١٠٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ في ريب واشتباه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرهما ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: هو اللّٰه الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم، ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم؛ فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمرني ربي



أن أومن به فأكون أول المؤمنين فآمنت، وأنا من المؤمنين.

(١٠٥) ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلاً على الله، معرضًا عما سواه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق؛ أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو اللَّه تعالى ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ دعوت من دون اللَّه ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الضارين أنفسهم بإهلاكها.

(١٠٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ كفقر ومرض ونحوهما ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدًا، لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يرده الله، ولهذا قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله وإحسانه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يختص برحمته من شاء من خلقه، واللَّه ذو الفضل العظيم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لجميع الزلات الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر اللَّه ذنوبه كبارها وصغارها، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين.

(١٠٨) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لما تبين البرهان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بهدى اللَّه بأن علم الحق وتفهمه وآثره على غيره ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ واللَّه تعالى غني عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ولا يضر اللَّه شيئًا، فلا يضر إلا لنفسه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، واللَّه عليكم وكيل، فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

(١٠٩) ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ علمًا وعملاً وحالاً ودعوة إليه، ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على

ذلك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، فلله الحمد والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

سورة هود(*)

(١) ﴿الٓر﴾ قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة «**البقرة**» بما أغنى عن إعادته، وبالله التوفيق.

يقول تعالى: هذا ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم، ونزل كريم ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أتقنت وأحسنت، صادقةٌ أخبارها، عادلةٌ أوامرها، ونواهيها، فصيحة ألفاظه، بهية معانيه ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ميزت، وبينت بيانًا، في أعلى أنواع البيان ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ من عند الله الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿خَبِيرٍ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن وعواقب الأمور.

(٢) وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه ﴿إِنَّنِى لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنْهُ﴾ من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

(٣) ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتنتفعون في الحياة الدنيا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِ﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضتم عن ما دعوتكم إليه ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب.

(٤) ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه فهذا مقام الترغيب، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب.

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يميلونها ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ من الله، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يتغطون بها ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من

(*) أخرج الترمذي والحاكم وابن أبي شية بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبتَ؟ قال: «شيبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

(٢) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش، الأقرب فالأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم، ألستم مصدقي؟». فقالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

(٥) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم».

وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ منها ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فيها من الإرادات والوساوس والأفكار التي لم ينطقوا بها سرًّا ولا جهرًا.

(٦) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ جميع ما دب على وجه الأرض، فاللَّه تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقهم على الله ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه، وتستقر فيه، وتأوي إليه. ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها ﴿كُلّٞ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ في اللوح المحفوظ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

(٧) يخبر تعالى أنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أولها: يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، ﴿وَ﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿كَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ قبل ذلك ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ ليمتحنكم ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ أخلصه وأصوبه ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ألا وهو الحق المبين.

(٨) ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ إلى وقت مقدر فاستبطئوه ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ لقالوا من جهلهم وظلمهم: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾؛ أي: ما يؤخر هذا العذاب، ومضمون هذا تكذيبهم به؛ فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلًا على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!! ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من العذاب؛ حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

(٩) ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذلك ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ

---

(٧) وفي «المسند» و«الصحيحين» عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا- قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن»- قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء».

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن اللَّه سيردها أو مثلها أو خيرًا منها عليه.

(١٠) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه ﴿فَخُورٌ﴾ بنعم اللَّه على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر، والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق.

(١١) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ إلا من وفقه الله، وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده وهم الذين ﴿صَبَرُوا۟﴾ أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من واجبات ومستحبات ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو: الفوز بجنات النعيم.

(١٢) ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ لا ينبغي هذا لمثلك؛ أن قولهم يؤثر فيك، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعنتهم ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت وظلم، وعناد وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة، التي لا تصدر إلا من سفيه، ولا يضق لذلك صدرك ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ

سورة هود — الجزء الثاني عشر

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

٢٢٣

أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

(١٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ افترى محمد هذا القرآن ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كان قد افتراه؛ فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقًّا الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين؛ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

(١٤) ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ على شيء من ذلكم ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ من عند الله، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: واعلموا أن اللَّه هو المستحق للألوهية والعبادة، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لألوهيته، مستسلمون

---

(١١) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن».

لعبوديته.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ من كانت إرادته مقصورة على الحياة الدنيا وعلى ﴿وَزِينَتَهَا﴾: من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون شيئًا مما قدر لهم.

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ خالدين فيها أبدًا، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بطل واضمحل ما عملوه في الدنيا، ومعنى الآية مختلف فيه - وكل ذلك بأسانيد صحيحة عن السلف -، فأنس بن مالك والحسن قالوا: نزلت في اليهود والنصارى. ومجاهد وغيره قالوا: نزلت في أهل الرياء. والآية تحتمل المعنيين، واللَّه أعلم.

(١٧) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بالوحي الذي أنزل اللَّه فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح ﴿وَ﴾ ثم شاهد ثالث ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ وهو ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراة، التي جعلها اللَّه ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق؛ أي: أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات، لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ لا بد من وروده إليها، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في أدنى شك ﴿مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلًا منهم وضلالًا، وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا.

(١٨) ﴿وَمَنْ﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ويدخل في هذا كل من كذب على اللَّه بنسبة شريك له، أو وصفه بما لا يليق

---

(١٦) في «صحيح مسلم» من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا».

(١٧) في «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول اللهُ تعالى: إني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالَتْهم عن دينهم، وحَرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانًا».

(١٨) في «المسند» و«الصحيحين» عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين».

أُولَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهؤلاء أعظم الناس ظلمًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لعنة لا تنقطع؛ لأن ظلمهم صار وصفًا لهم ملازمًا لا يقبل التخفيف.

(١٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل عليهم الصلاة والسلام التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ يجتهدون في ميلها ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون مكذبون بها.

(٢٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليسوا فائتين الله؛ لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ فيدفعوا عنهم المكروه، أو يحصلوا لهم ما ينفعهم ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ يغلظ ويزداد ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات اللَّه سماعًا ينتفعون به ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ ينظرون نظر عبرة وتفكر فيما ينفعهم.

(٢١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث فوتوها أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون اللَّه لما جاء أمر ربك.

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا وصدقًا ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم، وصدَّقوا واعترفوا لما أمر اللَّه بالإيمان به من أصول الدين وقواعده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ خضعوا له واستكانوا لعظمته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه، ولا خيرًا إلا سبقوا إليه.

(٢٤) ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ فريق الأشقياء وفريق السعداء ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ هؤلاء الأشقياء ﴿وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ مثل السعداء ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ لا يستوون مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعمال التي

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾

تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركونها.

(٢٥) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ أول المرسلين إلى أهل الأرض ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ يدعوهم إلى اللَّه وينهاهم عن الشرك، فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ بينت لكم ما أنذرتكم به بيانًا زال به الإشكال.

(٢٦) ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ إن لم تقوموا بتوحيد اللَّه وتطيعوني.

(٢٧) ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ الأشراف والرؤساء، رادين لدعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ لست بملَك، ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا؟!! ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك؛ يعنون بذلك: أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ لستم أفضل منا فننقاد لكم ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدعونه. وكذبوا في قولهم هذا؛ فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها اللَّه مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ لهم نوح مجاوبًا: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ على يقين وجزم ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أوحى إليَّ وأرسلني، ومَنَّ عليَّ بالهداية ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ خفيت عليكم، وبها تثاقلتم ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ أنكرهكم ونغصبكم بقبولها ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

(٢٩) ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على دعوتي إياكم ﴿مَالًاۖ﴾ أجرًا؛ فتستثقلون المغرم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ إنما أبتغي الأجر من اللَّه ﷻ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ كأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين عنه، احتشامًا ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٤١]، فأخبرهم أنه لا يليق ذلك ولا ينبغي له ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ حيث تأمرونني بطرد أولياء اللَّه وإبعادهم عني.

(٣٠) ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ من يمنعني من عذابه إن طردتهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

نصف الحزب ٢٣ — إمالة الألف إلى الياء

ما هو الأنفع لكم والأصلح وتدبرون الأمور.

(٣١) ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ غايتي أني رسول اللَّه إليكم، أبشركم وأنذركم، وما عدا ذلك، فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن اللَّه عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء، وأحرم من أشاء، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني اللَّه بها، ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ الضعفاء المؤمنين، الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم؛ فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك؛ فحسابهم على الله ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ إن قلت لكم شيئًا مما تقدم ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أقول ما لا علم لي به.

(٣٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

(٣٣) ﴿قَالَ﴾ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم فعل ذلك، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

(٣٤) ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾؛ أي: إن إرادة اللَّه غالبة، فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، مؤكد لها مقرر لها، يقول تعالى لمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ فعلي إثمي في افترائي ما افتريت، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفترى؛ لأني أعلم ما عند اللَّه من العقوبة لمن كذب عليه، وأنا بريء ما تذنبون وتأثمون بربكم، من افترائكم عليه.

(٣٦) ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾؛ أي: قد قسوا ﴿فَلَا

﴿تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فلا تحزن ولا تبالِ بهم وبأفعالهم.

(٣٧) ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بحفظنا ومرأى منا ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ تعليمنا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ لا تراجعني في إهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ قد حق القول، ونفذ فيهم القدر.

(٣٨) ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ امتثل أمر ربه، فجعل يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ ورأوا ما يصنع ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ يهزءون به ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ الآن ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ وعيد شديد، وتهديد أكيد.

(٣٩) ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يهينه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ دائم مستمر أبدًا.

(٤٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ قدرنا بوقت نزول العذاب بهم ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أنزل اللّه السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيونًا حتى التنانير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون عن الماء، تفجرت؛ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿قُلۡنَا﴾ لنوح: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ من كل صنف من أصناف المخلوقات ذكر وأنثى ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ ممن كان كافرًا كابنه الذي غرق، وزوجته وكانت كافرة باللّه ورسوله، ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ والحال أنه ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

(٤١) ﴿وَقَالَ﴾ نوح لمن أمره اللّه أن يحملهم: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ تجري على اسم الله، وترسي بتسخيره وأمره ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ حيث غفر لنا ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين.

(٤٢) ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ بنوح ومن ركب معه ﴿فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ واللّه حافظها وحافظ أهلها ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ لما ركب؛ ليركب معه ﴿وَكَانَ﴾ ابنه ﴿فِي مَعۡزِلٖ﴾ عنهم حين ركبوا؛ أي: مبتعدًا، وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيصيبك ما يصيبهم.

(٤٣) ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ سأرتقي جبلًا أمتنع به من الماء ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ فلا يعصم أحدًا جبل ولا غيره إن لم ينجه الله ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ﴾ الابن ﴿مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾.

(٤٤) ﴿وَقِيلَ﴾ لما أغرقهم الله، ونجى نوحًا ومن معه: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ ابلعي الماء الذي على وجهك ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ فامتثلتا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ نضب من الأرض ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ السفينة ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ أرست على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أتبعوا بهلاكهم لعنةً وبعدًا وسحقًا لا يزال معهم.

(٤٥) ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ قد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ؟ففوض الأمر

لحكمة اللَّه البالغة.

(٤٦) ﴿قَالَ﴾ اللَّـه لـه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾؛ أي: هذا الدعاء الذي دعوت به لنجاة كافر لا يؤمن باللَّه ولا رسوله ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ ما لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيرًا، أو غير خير ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ إني أعظك وعظًا تكون به من الكاملين، وتنجو به من صفات الجاهلين.

(٤٧) فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه، و﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ إني أستجير وأتحصن بك، أن أسألك بعد الآن ما ليس لي به علـم ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من الخسارة.

(٤٨) ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ انـزل مـن السـفـيـنـة ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ بأمن وسلامة منا أنت ومن معك من إهلاكنا ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ البركة هي ثبوت الخير، والمراد: أن اللَّه تعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك اللَّه في الجميع، حتى ملئوا أقطار الأرض ونواحيها، ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك، أحللنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسيؤخذون بعد ذلك.

الجزء الثاني عشر — سورة هود

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٢٢٧

(٤٩) ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ من أخبار الغيب ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ نعلمك بها وحيًا منا إليك ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ على ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم، والدعوة إلى الله ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

(٥٠) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أهل اليمن ﴿أَخَاهُمۡ﴾ في النسب ﴿هُودٗاۚ﴾ ليتمكنوا من الأخذ عنه

(٤٦) أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما من حديث أسماء بنت زيد ﵂ -الصحيح بشواهده- قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيۡرَ صَٰلِحٖۖ﴾».

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

والعلم بصدقه؛ فـ ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أمرهم بعبادة اللّه وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على اللّه الكذب في عبادتهم لغيره.

(٥١) ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا : هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجاناً ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ﴾ إنما أبغي ثوابه من اللّه الذي فطرني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة؟!

(٥٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى اللّه تعالى؛ ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض، ويكثر خيرها، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ عن ربكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

(٥٣) ﴿قَالُوا۟﴾ رادين لقوله: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بينة. بزعمهم! ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

(٥٤) ﴿إِن نَّقُولُ﴾ فيك ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ أصابتك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ وأنتم أيضاً ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام.

(٥٥) ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ من دون اللّه ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ اطلبوا إليَّ الضرر كلكم بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلون.

(٥٦) ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمدت في أمري كله على اللّه ﴿رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ هو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم، وهو الذي ربانا، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾، فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، وشرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد ويثنى عليه بها.

(٥٧) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ﴾ فلم يبق عليَّ تبعة من شأنكم، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون

بعبادته، ولا يشركون به شيئًا ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾ فإن ضرركم إنما يعود إليكم ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشر.

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا بإرسال الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ عظيم شديد.

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾ الذين أوقع اللَّه بهم ما أوقع بظلم منهم؛ لأنهم ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾؛ لأن من عصى رسولاً؛ فقد عصى جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ متسلط على عباد اللَّه بالجبروت ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند لآيات الله.

(٦٠) ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فما من وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾لهم أيضًا لعنة، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ﴾ جحدوا مَن خلقهم ورزقهم ورباهم، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أبعدهم اللَّه عن كل خير، وقربهم من كل شر.

(٦١) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم المعروفون الذين يسكنون مدائن الحجر ووادي القرى ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَٰلِحًا﴾ عبد اللَّه ورسوله ﷺ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحِّدوه وأخلصوا له الدين ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلقكم منها ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ استخلفكم فيها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إِنَّ رَبِّى

الجزء الثاني عشر — سورة هود

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٢٢٩

قَرِيبٌ﴾ ممن دعاه: دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، ﴿مُّجِيبٌ﴾ يجيبه بإعطائه سؤاله، وقبول عبادته وإثابته عليها أجلَّ الثواب.

(٦٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ﴾ قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكًّا مؤثرًا في قلوبنا الريب.

(٦٣) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ برهان ويقين مني ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ مَنَّ عليَّ برسالته ووحيه ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة اللَّه وحده، فلو تركته لما نفعتموني ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾ ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير خسار وتباب وضرر.

(٦٤) ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ لها شرب من البئر يومًا، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ بعقر ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ إن قتلتموها ﴿عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾.

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قتلوها بالعقر الذي هو قطع قوائمها بالسيف ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ عيشوا ﴿فِي دَارِكُمۡ﴾ في دياركم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ ثم تهلكون بعدها ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ لا بد من وقوعه.

(٦٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بوقوع العذاب ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم.

(٦٧) ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فقطعت قلوبهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ خامدين صرعى هلكى لا حراك لهم.

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم، ولا أَنِسُوا فيها، ولا تنعموا بها يومًا من الدهر ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ فما أشقاهم وأذلهم.

(٦٩) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ سلموا عليه، ورد عليهم السلام ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾؛ أي: بادر لبيته؛ فاستحضر لأضيافه عجلاً مشويًا على الرَّضْف -الحجارة المحمية- سمينًا، فقربه إليهم.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ إلى تلك الضيافة؛ فلم يأكلوا من العجل ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ أنكرهم ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ يا إبراهيم ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ إنا رسل الله: أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

(٧١) ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ سارة عليها السلام ﴿قَآئِمَةٞ﴾ تخدم أضيافه ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ - حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به - تعجبًا؛ ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ بشرت الملائكة سارة بالولد بعد الإياس، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ وهذا الولد له عقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق.

قال العلماء: وهذه الآية تدل على أن الذبيح إنما هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكيف يؤمر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده؟ ووعْدُ الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه؛ فتعين أن يكون هو إسماعيل.

وإسماعيل هو الذبيح عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول: أنه إسحاق؛ فباطل، متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين: أن إسماعيل هو بكر أولاده، ولذلك ما ورد في التوراة التي بأيديهم: «**اذبح ابنك إسحاق**»، من تحريفهم وكذبهم على الله عَزَّوَجَلَّ.

الجزء الثاني عشر — سورة هود

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٢٣٠

(٧٢) ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ نداء ندبة، يقولها الإنسان عندما يرى ما يتعجب منه ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ عقيم من بنات التسعين ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ زوجي، سمي بذلك لأنه قَيِّمُ أمرها ﴿شَيْخًا﴾ كبيرًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ لأن هذين الأمرين مانعان من وجود الولد.

(٧٣) ﴿قَالُوٓا۟﴾ الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن أمره لا عجب فيه؛ لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصًا فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيت إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ حميد الصفات؛ لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال؛ لأن أفعاله إحسان وجود وبر وحكمة وعدل وقسط، ﴿مَّجِيدٌ﴾ والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها.

(٧٤) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ التفت حينئذٍ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] فسكت عنهم، واطمأنت نفسه.

(٧٥) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ ذو خلق وسعة صدر، وعدم غضب عند جهل الجاهلين ﴿أَوَّٰهٌ﴾ متضرع إلى اللَّه في جميع الأوقات ﴿مُّنِيبٌ﴾ رجاع إلى اللَّه بمعرفته ومحبته والإقبال عليه والإعراض عما سواه.

(٧٦) ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ غير مصروف عنهم، فلا فائدة في جدالك.

(٧٧) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ شق عليه مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قلبًا؛ لأنه وقع في مكروه، لا يطيق الخروج منه، وذلك أنه لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم

(٧٣) في «الصحيحين» من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد حرج.

(٧٨) ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون في مشيتهم من فرحهم بذلك ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ لم تزل هذه سجيتهم قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ كانوا يأتون الرجال في أدبارهم ﴿قَالَ﴾ لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ﴾ اختلف المفسرون في مراده على قولين:

الأول: يرشدهم إلى نسائهم؛ فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم دنيا وآخرة.

والآخر: بالتزويج، وقى أضيافه ببناته، وكان في ذلك الوقت تزويج المسلمة من الكافر جائزًا، كما زوَّج الرسول ﷺ ابنته من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص بن الربيع، قبل الوحي، وكانا كافرين، والأول أصح.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ﴾ خافوا اللَّه ولا تفضحوني في أضيافي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ صالح سديد، فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

(٧٩) ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا لوط ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لسن أزواجًا لنا فنستحقهن بالنكاح، أو ما لنا في النساء شهوة وحاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ لا نريد إلا إتيان الرجال.

(٨٠) ﴿قَالَ﴾ لهم لوط عند ذلك: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أراد قوة البدن أو القوة بالأتباع ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أنضم إلى عشيرة مانعة، والمراد: لقاتلتكم وحلت بينكم وبينهم.

(٨١) فلما بلغ الأمر منتهاه، واشتد الكرب على لوط طمأنته الملائكة فـ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿يَٰلُوطُ﴾ إن ركنك شديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أخبروه بحالهم؛ ليطمئن قلبه ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ﴾ بسوء ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ وأمر الملائكةُ لوطًا أن يسري بأهله ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بجانب منه قبل الفجر بكثير؛ ليتمكنوا من البعد عن قريتهم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن

(٨٠) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني: الله عز وجل -، فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة؛ أي: في منعة وعزة، من قومه».

همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾؛ لأنها تشارك قومها في الإثم فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ موعد هلاكهم وقت الصبح، فكأن لوطًا استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

(٨٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنَا﴾ ديارهم ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبناها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿مَّنضُودٍ﴾ متتابعة.

(٨٣) ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم.

(٨٤) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة، الذين يسكنون بين الحجاز والشام، قريبًا من بلاد معان، في بلد يعرف بهم «مدين» ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ لأنهم يعرفونه، ويتمكنون من الأخذ عنه ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ بنعمة كثيرة في رزقكم ومعيشتكم ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ عذابًا يحيط بكم، ولا يبقي منكم باقية.

(٨٥) ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾

سورة هود — الجزء الثاني عشر

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

٢٣٢

بالعدل الذي ترضون أن تعطوه ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لا تنقصوا من أشياء الناس ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

(٨٦) ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يكفيكم ما أبقى اللَّه لكم من الخير بعد إيفاء الكيل والميزان وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية، وهو ضار لكم جدًا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ لست بحافظ لأعمالكم، ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها اللَّه تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

(٨٧) ﴿قَالُوا۟﴾ على وجه التهكم بنبيهم،

---

(٨٣) أخرج أصحاب السنن ـ إلا النسائي ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

والاستبعاد لإجابتهم له ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ وكان شعيب كثير الصلاة؛ لذلك قالوا هذا من الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ من التطفيف وبخس الناس في الكيل والوزن، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا الاستهزاء قبحهم الله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

(٨٨) ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يقين وبصيرة فيما أدعوا إليه، وطمأنينة في صحة ما جئت به ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين ﴿وَمَآ﴾ أنا ﴿أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدرٍ لتركه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت في أموري، ووثقت في كفايته، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات.

(٨٩) ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من العقوبات ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح الصرصر العقيم ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ لا في الدار ولا في الزمان؛ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك جيرانهم قوم لوط.

(٩٠) ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ عما اقترفتم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته، وترك مخالفته ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب ﴿وَدُودٌ﴾ يحب عباده المؤمنين ويحبونه.

(٩١) فتضجروا من نصائحه ومواعظه لهم فـ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ ما نفهم ولا نعقل كثيرًا من قولك؛ وذلك لبغضهم لما يقول، ونقرئهم عنه ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ في نفسك، لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ جماعتك وقبيلتك ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لقتلناك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

(٩٢) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كيف تراعونني لأجل رهطي، ولا تراعونني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في

---

(٨٨) أخرج أحمد وأبو داود بإسناد حسن عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناسًا من قومي في تهمة، فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا محمد، علام تحبس جيرتي؟ فصمت رسول الله ﷺ عنه، فقال: إن ناسًا ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به، فقال النبي ﷺ: «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها، فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبدًا، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها؟ والله، لو فعلت لكان عليَّ وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه».

الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

(٩٣) ﴿وَ﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ على حالتكم ودينكم، وهذا تهديد ووعيد شديد ﴿إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾ على طريقتي وديني ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أينا الجاني على نفسه، والمخطئ في فعله، فذلك قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يذله ويفضحه ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ أنا أم أنتم ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ انتظروا ما يحل بي ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ منتظر ما يحل بكم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ لا تسمع لهم صوتًا، ولا ترى منهم حركة. قال العلماء: ذكر هنا ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وفي «الأعراف»: ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾، وفي «الشعراء ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ وهم أمة واحدة، فاجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها.

وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه؛ ففي «الأعراف» لما قالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم عن نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم.

وفي «الشعراء» لما قالوا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد

الجزء الثاني عشر — سورة هود

يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾

ربع الحزب ٢٤

٢٣٣

والمنة كثيرًا دائمًا.

(٩٥) ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾ إذ أهلكها اللَّه وأخزاها ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك.

(٩٦) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ ابن عمران ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة بينة.

(٩٧) ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أشراف قومه ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ مسلكه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ ليس فيه رشد أو هدى، بل هو ضال غاوٍ.

(٩٨) ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كما اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم

يوم القيامة ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ فأوردهم جهنم، وشربوا في حياض رَداها، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر.

(٩٩) ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أتبعناهم - زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار- لعنة في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يلعنهم اللَّه وملائكته والناس أجمعون ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ بئس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب اللَّه ولعنة الدنيا والآخرة.

(١٠٠) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ لتنذر به، ويكون آية على رسالتك وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم ﴿وَ﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد تهدمت مساكنهم، فلم يبقَ لها أثر.

(١٠١) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والعناد ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير اللَّه لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ خسار ودمار.

(١٠٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ وهكذا كما أهلكنا القرون الظالمة المكذبة، كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ يقصمهم بالعذاب ويبيدهم.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات ﴿لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ لعبرة وعظة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، وليظهر لهم من عظمة اللَّه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يشهده اللَّه وملائكته وجميع المخلوقين.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا، وما قدَّر اللَّه فيها من الخلق، فحينئذٍ ينقلهم إلى الدار الأخرى.

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه ﴿فَمِنْهُمْ﴾أي: من الخلق ﴿شَقِيٌّ﴾ فالأشقياء هم: الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله، وعصوا أمره ﴿وَسَعِيدٌ﴾ والسعداء هم: المؤمنون المتقون.

(١٠٦) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ حصلت لهم الشقاوة والخزي والفضيحة ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مشتد عليهم عقابها ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ﴾ الصوت الشديد ﴿وَشَهِيقٌ﴾ الصوت الضعيف، وهو - أي الزفير والشهيق - أشنع الأصوات وأقبحها؛ لأنه شبيه بصوت الحمار، الذي أوله زفير، وآخره شهيق.

(١٠٧) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لابثين مقيمين في النار التي هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ خالدين فيها أبدًا، إلا المدة التي شاء اللَّه أن لا يكونوا فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

---

(١٠٢) في «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

الجزء الثاني عشر — سورة هود

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ
﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ
فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

٢٣٤

فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته؛ فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا﴾ حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير منقطع بوقت من الأوقات.

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون؛ أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ فيه إضمار، أي: كما كان يعبد آباؤهم ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ ماوُعدوا فيه من خير وشر..

(١١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافًا أضر بعقائدهم، وبجامعتهم الدينية، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك مريب.

(١١١) ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لا بد أن يقضي اللّه بينهم يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلًّا بما يستحق ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم دقيقها وجليلها.

(١١٢) ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ أمر نبيه محمدًا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يثبتوا ويداوموا على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي وما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد من هذه الآية، ولذلك قال: «شيبتني هود وأخواتها»(*) ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وأعلمه تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء..

---

(١٠٨) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «فيقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا».

(*) تقدم تخريجه في أول السورة.



(١١٣) ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ لا تميلوا ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فإنكم إذا ملتم إليهم ووافقتموهم على ظلمهم، أو رضيتم ما عليه من الظلم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ إن فعلتم ذلك، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئًا من ثواب الله، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم.

(١١٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الله، فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تمحوها ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكرنا من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات.

(١١٥) ﴿وَٱصْبِرْ﴾ احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم، وأبقيت به الأديان ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ولكنهم قليلون جدًا، وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلاً ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب.

(١١٧) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بظلم منه لهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ مقيمون على

---

(١١٤) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «الجميع أمتي كلهم».

(١١٦) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء».

الصلاح، مستمرون عليه، فما كان اللَّه ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

(١١٨) ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد، وهو دين الإسلام؛ فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ﴿وَ﴾ لكنه اقتضت حكمته أن ﴿لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ على أديان شتى، من بين يهودي ونصراني، ومجوسي ومشرك.

(١١٩) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون ﴿وَ﴾ لأنه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلًا يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ كل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل وأخبار أممهم نقصها عليك؛ ليطمئن قلبك ويثبت، وتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السورة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه ﴿وَ﴾وجاءتك ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

(١٢١) ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على ما كنا عليه.

(١٢٢) ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما يحل بنا من رحمة الله ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما يحل بكم من نقمة الله.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ قم بعبادته، وهي جميع ما أمر اللَّه به مما تقدر عليه، وتوكل على اللَّه في ذلك، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

سورة يوسف

(١) ﴿الٓر﴾ أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «**البقرة**»، ﴿تِلْكَ

---

(١١٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفة الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحد منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد. حتى يضع عليها رب العزة قدمه، فتقول: قط قط، وعزتك».

(١) أخرج ابن حبان، والطحاوي في «مشكل الآثار»، والضياء في «الأحاديث المختارة»، والحاكم بإسناد حسن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فتلاها عليهم رسول الله ﷺ زمانًا. فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ =


الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

٢٣٦

﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ البين الواضحة ألفاظه ومعانيه.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة وأبينها ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ لتعقلوا حدوده، وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

(٣) ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ وذلك لصدقه، وسلاسة عبارته، ورونق معانيه ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي اللَّه إليك.

(٤) ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فأوّلها يعقوب بأن الشمس أمه، والقمر أبوه، والكواكب إخوته، وإنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له؛ إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء اللَّه له واصطفائه إياه، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

(٥) ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ وذلك، أن رؤيا الأنبياء حق ووحي؛ فعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوها حسدوه، فأمره بالكتمان ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ حسدًا من عند أنفسهم بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ لا يفتر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سرًّا ولا جهارًا.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ويختارك

﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، كل ذلك يؤمرون بالقرآن. قالوا: يا رسول الله، ذكرنا. فأنزل الله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

(٤) في «صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

(٥) أخرج ابن حبان في «روضة العقلاء» والسهمي في «تاريخ جرجان» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

بما مَنَّ به عليك من الأوصاف الجليلة، والمناقب الجميلة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ حيث أنعم اللَّه عليهما بنعم عظيمة واسعة؛ دينية ودنيوية ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ علمه محيط بالأشياء وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

(٧) ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾ عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لكل من سأل عنها بلسان الحال، أو بلسان المقال.

(٨) ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين؛ أي: شقيقه لأمه، وإلا فكلهم إخوة ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة، فكيف يفضلهما بالمحبة والشفقة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لفي خطأ بين؛ حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

(٩) ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ بإزهاق روحه ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾أي: إلى أرض يُبْعَد بحيث لا يتمكن من رؤيته فيها؛ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم، ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾؛ أي: تتوبون إلى اللَّه وتستغفرونه من بعد ذنبكم.

(١٠) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ من إخوة يوسف ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثمًا وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ أي: في قعْر الجب، حيث يغيب خبره والغيابة: كل ما ستر عنك الشيء وغيبه. والجب: البئر غير المطوية- وهي التي لم تبنى بالحجارة -؛ لأنه قطع ولم يطوَ ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، فتستريحوا منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ إن عزمتم على فعلكم وما تقومون.

(١١) ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب؟ ﴿وَ﴾الحال ﴿إِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ ابعثه معنا ﴿غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ يتنزه في البرية ويستأنس ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ سنراعيه ونحفظه من كل أذى يريده.

(١٣) ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق عليَّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو لمدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله. ﴿وَ﴾ مانع ثاني، وهو أني ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغير، لا يمتنع من الذئب.

(١٤) ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، و﴿قَالُوا۟﴾مجيبين عنها في الساعة الراهنة: أي: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة حريصون على حفظه ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لكون عاجزون.

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾

ع ١٢

(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ وعزموا ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ يلقوه في الجب ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ ثم إن اللّه لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: سيكون منك معاتبة لهم وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله، وإخوته عليوجه العز والتمكين له في الأرض.

(١٦) ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ جاءوا في ظلمة العشاء؛ ليكون أجرأ على الاعتذار بالكذب.

(١٧) ﴿قَالُواْ﴾ معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ﴾ توفيرًا له وراحة ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ ثيابنا وأمتعتنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ في حال غيابنا عنه واستباقنا ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾؛ تلطف عظيم في تقريرها يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا، - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ الغرابة ما وقع، وعجيب ما تفق لنا في أمرنا هذا .

(١٨) ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ مكذوب مفترى؛ زعموا: أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوهم بذلك و﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ زينت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في التفريق بيني وبينه ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ فسأصبر صبرًا جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، حتى يفرجه اللّه بعونه ولطفه ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ وأستعين باللّه على الصبر ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على ما تذكرون من الكذب والمحال.

(١٩) ﴿وَ﴾ مكث يوسف في الجب ما مكث حتى ﴿جَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ قافلة تريد مصر ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ فرطهم ومقدمهم الذي يعس لهم المياه ويسبرها، ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك ﴿فَأَدۡلَىٰ﴾ ذلك الوارد ﴿دَلۡوَهُۥۖ﴾ فتعلق فيه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وخرج، ﴿قَالَ﴾ وارد السيارة ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾؛ أي: استبشر، وقال: هذا غلام نفيس ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ اختلف أهل التفسير، فقال بعضهم: وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب الماء؛ مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا أمره وقال آخرون: أسر

إخوة يوسف شأنه، وكتموا أنه أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم وباعوه، وكلاهما محتمل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكنه له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه.

(٢٠) ﴿وَشَرَوۡهُ﴾ باعه إخوته، أو السيارة، على التفصيل المتقدم ﴿بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ﴾ قليل جدًّا، فسره بقوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه.

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه أعجب به، ووصى عليه امرأته، وقال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هَمَّ سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علمًا كثيرًا من علم الأحكام وعلم التعبير ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فلذلك يجري منهم ويصدر في مغالبة أحكام اللَّه القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

٢٣٨

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ جعلناه نبيًّا رسولاً، وعالمًا ربانيًّا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد اللَّه ببذل النفع والإحسان إليهم.

(٢٣) ثم أخبر تعالى على المحنة العظيمة التي جرت ليوسف، والتي هي أعظم من محنة إخوته، فقال: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي: امرأة العزيز التي كان يوسف عليه السلام في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها بإكرامه، لكنها حاولته على نفسه ودعته إليها وذلك أنها أحبته حبًّا شديداً لجماله وحسنه وبهائه، وهو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه، من غير

شعور أحد، ولا إحساس بشر، ﴿وَ﴾ زادت المصيبة والمحنة بأن ﴿غَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ وصار المحل خاليًا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما بسبب تغليق الأبواب، ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾؛ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي، فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعدما أكرم مثواي فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون.

(٢٤) ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ همّ معصية وقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾؛ أي: خاطر تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ورأى من برهان ربه وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لترك كل ما حرم الله ما أوجب له الانكفاف عن المعصية الكبيرة، وذهب بعض المفسرين إلى انه لم يحدث منه همٌّ أصلاً، وحملوا قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ على التقديم والتأخير، أي لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾؛ أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره، ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾؛ أي: من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار - صلوات الله وسلامه عليه-.

قال العلماء: إن الله عز وجل لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر توبة منه، كما ذكر في قصة آدم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء.

ويوسف عليه السلام لم يذكر في القرآن أنه فعل ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلاً، وقد اتفق الناس أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكرون أنه وقع منه بعض مقدماتها؛ فيزعمون أنه حل السراويل، وقعد منها مقعد الخاتن، وهذا لا يعضده نقل صحيح، ولا يقبله عقل صريح، ولا يستسيغه رأي رجيح، وإنما استمدوه من كذب أهل الكتاب على أنبياء اللّه، كسليمان، وداود، مما نص القرآن على خلافه، والقرآن أخبر عن يوسف من الإخلاص والاستعصام والتقوى والصبر واختيار السجن في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان مصرًّا أو تائبًا، والإصرار ممتنع في حق الأنبياء، فتعين أن يكون تائبًا، واللّه لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفارًا، كما ذكر عن غيره من الأنبياء، فدل على أن الذنب لم يقع منه عليه السلام ولا مقدماته التي يذكرها بنو إسرائيل من القصص المكذوبة على رسل اللّه وأنبيائه، واللّه أعلم.

(٢٥) ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ أي: واستبق يوسف وامرأة العزيز باب البيت، أما يوسف عليه السلام فذهب ليهرب عنها، ويبادر إلى الخروج من الباب؛ ليتخلص ويهرب من الفتنة، وأما هي فبادرت إليه ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ﴾ وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه ﴿مِن دُبُرٖ﴾ من خلف ﴿وَأَلۡفَيَا﴾ فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال وجدا ﴿سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ زوجها لدى الباب، فرأى

أمرًا شق عليه، فبادرت إلى الكذب، وأدعت أن المراودة كانت من يوسف، و ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ولم تقل: من فعل بأهلك سوءًا؛ تبرئة لها وتبرئة له أيضًا من الفعل، وإنما النزاع عن الإرادة والمراودة ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أو يعذب عذابًا أليمًا.

(٢٦) فلما سمع يوسف مقالتها برأ نفسه مما رمته به، و ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ فأبيت وهربت ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبعث شاهدًا من أهل بيتها، يشهد بقرينة؛ من وجدت معه فهو الصادق ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

(٢٧) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته، فشقت قميصه من هذا الجانب.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها لما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!!

(٢٩) ثم قال آمرًا ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بكتمان ما وقع: يا﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ اترك الكلام فيه وتناسه، ولا تذكره لأحد؛ طلبًا للستر على أهله ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أيتها المرأة ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ فأمر يوسف بالإعراض

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

٢٣٩

عنها، وأمرها بالاستغفار والتوبة.

(٣٠) ثم شاع خبر يوسف عليه السلام وامرأة العزيز في مدينة مصر، حتى تحدث الناس به، و﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الأمراء والكبراء، فجعلن يلمنها، ويقلن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ أي: هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو: باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا ينبغي منها، وهي حالة تحط من قدرها، وتضعه عند الناس.

(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ بقولهن وحديثهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى منزلها للضيافة ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ محلاً مهيأً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليقطعن بها ذلك الطعام، ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ في حالة جماله وبهائه؛ ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أعظمنه في صدورهن، ورأين منظرًا فائقًا لم يشاهدن مثله، ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ من الدهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ تنزيهًا لله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

(٣٢) ﴿قَالَتْ﴾ معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾؛ أي: في حبه، ثم صرحت بما فعلت، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع، ثم قالت تتوعد: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّٰغِرِينَ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه.

(٣٣) فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا رب ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ اختار السجن هروبًا من الوقوع فيما يغضب الله ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي، على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد.

ثم قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: وإن لم تدفع عني، يا رب، فعلهن أمل إليهن؛ فإني ضعيف عاجز إن لم تدفع عني السوء ﴿وَأَكُن﴾ إن صبوت إليهن ﴿مِّنَ الْجَٰهِلِينَ﴾ فإن هذا جهل؛ لأنه إيثار لذة قليلة منغصة على لذات متتابعات، وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا فمَن أجهل منه؟!

(٣٤) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها، وصرف اللّٰه عنه كيدها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنِيَّته الصالحة، وبنِيَّتِه الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى اللّٰه به يوسف من هذه الفتنة الملمة، والمحنة الشديدة.

(٣٥) ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْءَايَٰتِ﴾ الدالة على براءته ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لينقطع بذلك الخبر، ويتناساه الناس.

(٣٦) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ شابان، قيل: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبَّازه، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها

---

(٣١) في «صحيح مسلم» من حديث أنس رضي الله عنه الطويل في الإسراء والمعراج: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن».

(٣٤) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله».

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو صاحب الشراب ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ عنبًا؛ سمي العنب: خمرًا باسم ما يؤول إليه، ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾ وذلك الخبز ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ تنهس سباع الطير منه ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ العالمين بعبارة الرؤيا.

(٣٧) ﴿قَالَ﴾ لهما مجيبًا لطلبهما: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ فلتطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ هذا من علم الله علمنيه، وأحسن إليَّ به، وذلك ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً، فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم.

(٣٨) ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ ثم فسر تلك الملة بقوله ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا من أفضل منته وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ فلذلك تأتيهم المنة والإحسان فلا يقبلونها، ولا يقومون لله بحق.

(٣٩) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ جعلهما صاحبي السجن؛ لكونهما فيه ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة، ما بين أشجار، وأحجار، وملائكة، وأموات وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أذلك ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء من ذلك ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

(٤٠) ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ كسوتموها أسماءً، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ وحده، فهو الذي

يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام وهو الذي ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة، بل معوجة، توصل إلى كل شر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به من أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك.

قال العلماء: جعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سؤال صاحبي السجن له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام؛ لما رأى في سجيتهما من قبول الحق والإقبال على الخير والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما؛ شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال، فقال:

(٤١) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرًا؛ فإنه يخرج من السجن ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو: الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب، ويجعل في محل تتمكن الطيور من أكله ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ لا بد من وقوعه ﴿ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ تسألان عن تعبيره وتفسيره.

(٤٢) ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرًا: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر لربك - وهو الملك- اذكر شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ فأنسى الشيطان ذلك الناجي أن يذّكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان؛ لئلا يطلع نبي الله من السجن ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع: من الثلاث إلى التسع، ولما أراد اللّه أن يتم أمره، ويأذن لإخراج يوسف من السجن قدر لذلك سببًا لإخراج يوسف، وارتفاع شأنه، وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

(٤٣) ولما أراد الله تعالى أن يتم أمره، ويخرج يوسف من السجن معززًا مكرّما أرى المَلِكَ رؤيا عجيبة هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ ملك مصر الأكبر ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾؛ أي: سبع من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾ وهذا من العجب: أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كن نهاية في القوة ﴿وَ﴾ رأيت ﴿سَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهًا.

(٤١) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا على رِجل طائر ما لم تعبر؛ فإذا عبرت وقعت».

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٤) واعتذروا إليه و﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾ أخلاط أحلام، لا حاصل لها، ولا لها تأويل ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان أو من حديث النفس فإنا لا نعبرها.

(٤٥) ﴿وَ﴾ عند ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ من الفتيين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبير لرؤياهما، وما وصاه به وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ بعد مدة من السنين فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ إلى يوسف؛ لأساله عنها.

(٤٦) فأرسلوه، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ والصديق كثير الصدق في أقواله وأفعاله ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

(٤٧) فعبر يوسف البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات ف ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ متتابعات ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ﴾ من تلك الزروع ﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ دبروا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد تلك السنين السبع الخصبات ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ مجدبات ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ يأكلن جميع ما ادخرتموه، ولو كان كثيرًا ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ تمنعونه من التقديم لهن.

(٤٩) ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ السبع الشداد ﴿عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم.

---

(٤٨) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ يرفع رأسه في الركعة الآخرة من صلاة العشاء يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم فيقول: «اللهم نج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» وأهل المشرق - يؤمئذ - من مضر مخالفون له.

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

٢٤٢

(٥٠) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ لمن عنده: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾، أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن، ويحضروه إليه، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وأمره بالحضور عند الملك امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، وحينئذ ﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ يعني به الملك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ اسأله: ما شأنهن وقصتهن؟ فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ إن الله بصنيعهن عالم، وإنما أراد يوسف بذكرهن بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة، ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره.

(٥١) ﴿قَالَ﴾ لهن الملك بعد أن أحضرهن: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ أي: شأنكن ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ فهل رأيتن منه ما يريب؟ فبرأنه، و﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ لا قليل ولا كثير، فحينئذٍ زال السبب الذي تبنى عليه التهمة، ولم يبقَ إلا ما عند امرأة العزيز، فـ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ تمحص وتبين بعدما كنا ندخل عليه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أقواله وبراءته.

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ زوجي ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ لم يجرِ مني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

(٥٣) ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من المراودة والهم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾؛ أي: إلا من عصمه الله تعالى فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية

(٥٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف؛ لأجبت الداعي».

عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل اللَّه ورحمته بعبده ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأناب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة.

(٥٤) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أجعله خصيصة لي، ومقربًا لدي. فأتوه به مكرمًا محترمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، فقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ عندنا ﴿مَكِينٌ﴾متمكن ﴿أَمِينٌ﴾ على الأسرار.

(٥٥) ﴿قَالَ﴾ يوسف طلبًا للمصلحة العامة: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ على خزائن جبايات الأرض وغلالها وكيلًا، حافظًا، مدبرًا؛ ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج ﴿عَلِيمٌ﴾ بكيفية التدبير، والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات.

(٥٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾؛ أي: هذا عن رحمة اللَّه بيوسف التي أصابه بها، وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال:

(٥٧) ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ لمن جمع بين التقوى والإيمان.

(٥٨) ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾؛ أي: لما تولى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة زروعًا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجَبَا من الأطعمة شيئًا كثيرًا، وحفظه، وضبطه ضبطًا تامًا، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه؛ لأجل الميَر إلى مصر ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ أي: لم يعرفوه.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم؟ فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه، وهو بنيامين، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به، فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام.

(٦٠) ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ﴾ إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ فليس لكم عندي ميرة ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

(٦١) ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ دل هذا على أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مولعًا به لا يصبر عنه وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لما أمرتنا به.

(٦٢) ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ الذين في خدمته: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ الثمن الذي اشتروا به من الميرة ﴿فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾؛ أي: بضاعتهم﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ إذا رأوها بعد

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

ذلك في رحالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا.

(٦٣) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ إن لم ترسل معنا أخانا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ ليكون ذلك سببًا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره.

(٦٤) ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليَّ.

(٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل؛ حيث وفى لنا الكيل ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛ أي: إذا ذهبنا بأخينا صار سببًا لكيله لنا، فنمير أهلنا، ونأتي لهم بما هم مضطرون إليه من القوت ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين مما تخاف عليه، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ على أحمالنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل، لا ينالك منه ضرر؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

(٦٦) ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهدًا ثقيلًا، وتحلفون بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أي: إلا أن يأتي أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون دفعه ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه موثقهم على ما قال وأراد ﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أي: يكفينا شهادته علينا، وحفظه وكفالته.

(٦٧) ﴿وَقَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام لما أرادوا الخروج من عنده: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك لأنه خاف عليهم العين؛ لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب، ﴿وَ﴾إلا فـ﴿مَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

ربع الحزب ٢٥

٢٤٤

(٦٨) ﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا، و﴿دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرقة ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى﴾ يدفع ﴿عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ صدق اللَّه تعالى يعقوب فيما قال، ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهو موجب الشفقة، والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاءً لما في خاطره ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ لصاحب علم عظيم ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل اللَّه وتعليمه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور، ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

(٦٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ شقيقه وهو بنيامين الذي أمرهم بالإتيان به، وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال فـ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فإن العاقبة خير لنا، ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهو الإناء الذي يشرب به ويكال فيه ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى منادٍ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ وهي القافلة التي فيها الأحمال ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال.

(٧١) ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه؛ لتسلم له سرقته: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ولم يقولوا: ما الذي سرقنا؛ لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

(٧٢) ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام أجرة له على وجدانه ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾؛ أي: كفيل.

(٧٣) ﴿قَالُوا۟﴾ أي: إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ﴾ واللَّه ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، ﴿مَّا

(٧٢) أخرج أحمد والضياء المقدسي والطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس ﷺ في هذا الحرف ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ قال: كان كهيئة المكُوك. قال: وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب فيه.

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٢٤٥

جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين.

(٧٤) ﴿قَالُوا۟﴾ المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ جزاء هذا الفعل ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ بأن كان معكم؟

(٧٥) ﴿قَالُوا۟﴾ أي: إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾؛ أي: الموجود في رحله ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في شريعتنا.

(٧٦) ﴿فَبَدَأَ﴾ المفتش ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، ﴿ثُمَّ﴾ لما لم يجد في أوعيتهم شيئًا ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل وجدها أو سرقها؛ مراعاة للحقيقة الواقعة، فحينئذٍ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم؛ ليتم له ما أراد ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فكل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

(٧٧) ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: إخوة يوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريبًا عنه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن هذا وأخاه قد يصدر منهم ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغض عليهما ما فيه.

﴿فَأَسَرَّهَا﴾؛ أي: أضمرها ﴿يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: الكلمة، وهي قوله ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فقد ذكرها سرًّا في نفسه، ولم يصرح بها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، مِن وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها ثم سلكوا معه مسلك التملّق لعلّه يسمح لهم بأخيهم.

(٧٨) فـ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا

﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بدلاً منه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

(٧٩) ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: هذا ظلم منا لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده ولم يقل «**من سرق**» كل هذا تحرز من الكذب ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ هو روبيل - وكان أكبر إخوته سنًّا -: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم السابق في يوسف، وعدم إتيانكم بأخيه اللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ سأقيم في هذه الأرض، ولا أزال بها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ يُقدِّر لي المجيء، أو مع أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أعدلُ مَن فصل بين الناس.

(٨١) ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وأُخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ والحال: أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا؛ لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ لو كنا نعلم الغيب؛ لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

(٨٢) ﴿وَسْـَٔلِ﴾ إن شككت في قولنا ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أهل القرية، وهي مصر ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ القافلة التي كنا فيها، فقد اطلعوا على ما أخبرناك به ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ لم نكذب، ولم نغير، ولم نبدل، بل هذا الواقع.

(٨٣) فلما رجعوا إلى أبيهم، وأخبروه بهذا الخبر ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ زينت ﴿أَمْرًا﴾ وهو حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم حالي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي جعل لكل شيء قدرًا.

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿عَنْهُمْ﴾ عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ يا حزناه ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى المصيبة الأولى ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾؛ أي: عمي بصره بسبب الحزن الذي في قلبه ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه.

(٨٥) ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: أولاده: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ فانيًا لا حراك فيك، ولا قدرة على الكلام ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

٢٤٦

﴿ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

(٨٦) ﴿قَالَ﴾ فأجابهم يعقوب بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ﴾، أي: همي وما أنا فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم عليَّ، ويقر عيني بالاجتماع بهم.

(٨٧) ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ من رحمة الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأن رحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين.

(٨٨) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا۟﴾ متضرعين إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الشدة والجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ مدفوعة مرغوب عنها؛ لقلتها ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ مع عدم وفاء العرض، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بالزيادة عن الواجب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.

ولما ذكر له أخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء؛ فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيه شامة وعندها

(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ يعني: كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؛ أي: إنما حملكم على ذلك الجهلُ بمقدار هذا الذي ارتكبتموه..

(٩٠) فعند ذلك ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: يجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

(٩١) ﴿قَالُوا۟﴾ معتذرين ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾فضلك علينا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، فآثرك الله تعالى، ومكنك مما تريده ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾؛ أي: وما كنا في صنيعنا بك إلا مخطئين مذنبين، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

(٩٢) ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام. حلماً وكرمًا

وجودًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحًا تامًّا من غير تعيير لهم على ذلك الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة.

(٩٣) قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته عندما سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره من الحزن: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف - الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، ويرجع إليه بصره ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أولادكم وعشيرتكم، وتوابعكم كلهم.

(٩٤) ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، لمن بقي عنده من بنيه أو لولد ولده: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح القميص، فوجد ريح يوسف من مسيرة أيام؛ قاله ابن عباس. ويقال: أن الريح استأذنت ربها في تأتي يعقوب بريح يوسف ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تسخرون مني.

(٩٥) ﴿قَالُوا۟﴾، أي: ولد ولده: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ لا تزال تائهًا في بحر الحب لا تدري ما تقول.

(٩٦) ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ﴿أَلْقَىٰهُ﴾؛ أي: القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ على وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

نصف الحزب ٢٥

٢٤٧

رجع إلى حاله الأولى بصيرًا، و ﴿قَالَ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن.

(٩٧) فأقروا بذنبهم، و﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

(٩٨) ﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطلبتهم، ومسرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ قال جمهور المفسرين: أخر الدعاء إلى وقت السحر؛ ليكون أتمَّ للاستغفار، وأقرب للإجابة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ورجائي به أن يغفر لكم، ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته.

(٩٩) ﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها، فلما وصلوا إليه،

و﴿دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإحسان والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف.

(١٠٠) ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ على سرير الملك ومجلس العز ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجودًا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام؛ لأنه كان جائزًا في شريعتهم، وأما في شريعتنا فلا يجوز السجود إلا لله ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ حين رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ إحسانًا جسيمًا ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

(١٠١) وقال مقرًا بنعمة الله، شاكرًا لها، داعيًا بالثبات على الإسلام: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ يعني: من ملك مصر ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم، ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: خالقهما ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي: معيني ومتولي أمري ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ أدِمْ عليَّ الإسلام وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه، فيوسف سأل الموت على الإسلام، ولم يتمنَّ الموت، ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

(١٠٢) لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النبأ الذي أخبرناك به ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ ولولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك ﴿مَا كُنتَ﴾ حاضرًا ﴿لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾؛ أي: إخوة يوسف ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ به، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى.

(١٠٣) ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم قد

---

(١٠٠) أخرج ابن ماجه وأحمد والحاكم وابن حبان بإسناد صحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ قال: «ما هذا يا معاذ؟!» قال: أتيت الشام، فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ: «فلا تفعلوا، فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

(١٠١) في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي».

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

٢٤٨

أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدمت الموانع.

(١٠٤) ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة والدعوة إلى اللَّه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ وجزاء ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه.

(١٠٥) ﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّنْ آيَةٍ﴾ عبرة ودلالة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دالة لهم على توحيد اللَّه ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

(١٠٦) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية اللَّه تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية اللَّه وتوحيده.

(١٠٧) ﴿أَفَأَمِنُوا﴾؛ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات اللَّه ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فإنهم قد استوجبوا ذلك، فليتوبوا إلى اللَّه، وليتركوا ما يكون سببًا في عقابهم.

(١٠٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ للناس: ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ طريقي التي أدعو إليها، وهو السبيل الموصلة إلى اللَّه، وإلى دار كرامته ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ أحث الخلق والعباد على الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يبعدهم عنه، ومع هذا فأنا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من ديني؛ أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ أي: ومنْ آمن بي وصدقني أيضاً يدعو إلى اللَّه كما أدعو؛ أي: على بصيرة من أمره ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عما ينسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري، بل أعبد اللَّه مخلصًا له الدين.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾؛ لا نساءًا ولا ملائكة ﴿نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ آياتنا، بالدعاء إلى طاعتنا وإفراد العبادة لنا ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾؛ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولاً وأصح آراءً، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كيف أهلكهم اللَّه بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما قاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ اللَّه، في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تكون لكم عقول، تُؤْثر الذي

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

سورة الرعد — مدنية — آياتها ٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

٢٤٩

هو خير على الأدنى.

(١١٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، حتى إن الرسل - على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم، نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ولا يرد عذابنا عمن اجترم، وتجرأ على الله.

(١١١) ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ قصص الأنبياء والرسل مع قومهم أو في قصة يوسف وإخوته ﴿عِبۡرَةٞ﴾ عظة ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ لذوي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السابقة يوافقها ويشهد لها بالصحة ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإنهم، - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره، - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

سورة الرعد

(١) ﴿الٓمٓرۚ﴾ أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أوائل سورة «**البقرة**». ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين؛ لأن إخباره صدق،

---

(١١٠) في «صحيح البخاري» عن عروة بن الزبير عن عائشة ﵂ قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا، فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كذّبوهم، فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمري، قد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ممن كذّبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك.

وأوامره ونواهيه عدل، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما خلق السموات والأرض ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا وارتفع على العرش العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواءً يليق بجلاله ويناسب كماله، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذللهما لمصالح العباد، ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِى﴾ بتدبير العزيز العليم ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بسير منتظم، حتى يجيء الأجل المسمى؛ وهو: طي اللَّه هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة، فعند ذلك يطوي اللَّه السماوات ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها. فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها ﴿لَعَلَّكُم﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية، والآيات القرآنية، ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ وسعها وبسطها للعباد ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً عظامًا؛ لئلا تميد بالخلق، ﴿وَ﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيرًا كثيرًا، ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ صنفين، مما يحتاج إليه العباد ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يلبس النهار بظلمة الليل، فتظلم الآفاق، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم، غشي النهار الليل، فإذا هم مصبحون ينتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ على المطالب الإلهية ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، وينظرون فيها نظرة اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها هو اللَّه الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

(٤) ﴿وَ﴾ من الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته ﴿فِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أراضٍ يجاور بعضها بعضًا؛ هذه تنبت الكلأ والأشجار والزروع، وهذه أرض لا تنبت كلأً ولا تمسك ماءً، ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ فيها أنواع الأشجار ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾؛ أي: عدة أشجار في أصل واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بأن كان كل شجرة على حدتها، والجميع ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وأرضه واحدة ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ لونًا وطعمًا ونفعًا ولذة، فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز العليم؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدون

(٤) أخرج الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قال: «الدَّقَل والفارسي، والحلو والحامض».

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

به، ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه.

(٥) ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من عظمة الله تعالى، وكثرة أدلة التوحيد؛ ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ فإن العجب إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا ترابًا أن الله يعيدهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ جحدوا وحدانيته، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ يوم القيامة يسحبون بها في النار ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا.

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ جعلوا يستعجلون الرسول ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعذاب، ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شركهم وعصيانهم إليه صاعدًا، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من لم يزل مصرًّا على الذنوب.

(٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يا محمد، من قومك: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: علامة وحجة على نبوته ويجعلون هذا القول منهم عذرًا لهم في عدم الإجابة إلى الرسول ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ليس لك من الأمر شيء، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ داعٍ يدعو إلى الهدى من الرسل وأتباعهم.

(٨) ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضاءل أو يضمحل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه.

(٩) فإنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم كل شيء بما يشاهده العباد، ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته، والذي كل شيء دونه، ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

(١٠) ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ يستوي في علمه وسمعه وقهره ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ المسر بالقول ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ الجاهر به ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ مستقر بمكان خفي فيه ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ داخل سربه في النهار، والسرب هو: ما يستخفى فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

(١١) ﴿لَهُۥ﴾ للإنسان ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار، ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ يحفظون بدنه وروحه من كل من يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا، ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ بإذن اللَّه ما لم يجئ المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم اللَّه إلى البطر بها فيسلبهم اللَّه عند ذلك إياها وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية فانتقلوا إلى طاعة اللَّه غيَّر اللَّه عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور، والغبطة والرحمة، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ عذابًا وشدة، وأمرًا يكرهونه، فإنه ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ ولا أحد يمنع منه، ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يتولى أمورهم؛ فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه

(١٢) ﴿هُوَ﴾ اللَّه ﷻ ﴿ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعًا في خلل السحاب، يُخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها ﴿وَطَمَعٗا﴾ ويطمع في خيره ونفعه، ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأكثر المفسرين على أن الرعد ملك يسوق السحاب، والصوت المسموع من السحاب تسبيحه، ﴿وَ﴾ تسبح ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾؛ أي: خشعًا لربهم، خائفين من سطوته، ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب، ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بحسب ما شاءه وأراده، ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ يخاصمون ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ شديد الحول

---

(١١) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم - وهو أعلم بهم -: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

(١٢) أخرج الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح عن شيخ من غفار - صحب رسول الله ﵁ - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك».

(١٣) أخرج الترمذي وأحمد حديث عبد الله بن عباس ﵄ الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «الرعد ملك من الملائكة، موكل بالسحاب، بيده مخراق من نار يزجر به السحاب، والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره».

وأخرج ابن أبي عاصم في «السنة»، والبزار، وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك ﵁ بإسناد صحيح، قال: بعث رسول الله ﷺ رجلًا من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فقال المشرك: إيش ربك الذي تدعوني إليه؟ من حديد هو؟ من نحاس هو؟ من فضة هو؟ من ذهب هو؟ فتعاظم مقالته، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأعاده النبي ﷺ الثانية، فقال مثل ذلك، فأتى النبي ﷺ، فأرسله الثالثة، فقال مثل ذلك، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة فأحرقته، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقته». فنزلت هذه الآية: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾.

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

٢٥١

والقوة، فلا يريد شيئًا إلا فعله.

(١٤) ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لله وحده ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾؛ أي: لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبعده ﴿لِيَبْلُغَ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطه إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه، كذلك الكفار الذين يدعون مع الله آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء، ولا ينفعونهم في أشد الأوقات، ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عبادتهم ودعاؤهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها.

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جميع ما احتوت عليه السموات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارًا، كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ وتسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجودكل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

(١٦) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين به، أوثانًا وأندادًا يحبونها كما يحبون الله، ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومدبرهما؟ فسيقولون: الله، لانهم يقرون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإن أجابوك فـ ﴿قُلِ﴾ أنت أيضاً يا محمد: ﴿ٱللَّهُ﴾ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أفتاهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير، والنفع والضر!! ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء، زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزل عنهم هذا الاشتباه

واللبس بالبرهان الدال على تفرد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه، ومن المحال أيضًا أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهًا خالقًا، لا شريك له في خلقه ﴿وَ﴾ لأنه ﴿هُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات وكل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر أن ما يدعى من دون اللَّه ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

(١٧) ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل، فقال عز وجل: ﴿أَنزَلَ﴾ يعني: اللَّه عَزَّوَجَلَّ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ المطر ﴿فَسَالَتۡ﴾ من ذلك الماء ﴿أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ في الكبر والصغر ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ الذي حدث من ذلك الماء ﴿زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ فظهر على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية خَبث مرتفع فوق الماء، فالماء الصافي هو الحق الباقي، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل، فهذا أحد المثلين.

والمثل الآخر: قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو ما يسبك في النار ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ أي: لطلب زينة، وأراد الذهب والفضة؛ لأن الحلية تطلب منهما ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾، أي: طلب متاع، وهو ما ينفع به، وذلك مثل الحديد والنحاس والرصاص، تُذاب فيتخذ منها الأوني وغيرها مما ينتفع بها، ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾؛ أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الخبث لا يثبت

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

٢٥٢

مع الماء ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر ولا يبقى إلا الماء والذهب وما ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ للناس؛ أي: جعل اللَّه هذا مثلاً للحق والباطل، فالحق يمكث ويبقى، والباطل يزول ويزهق.

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الحالة الحسنة، والثواب الحسن في الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ بعدما ضرب لهم الأمثال، وبين لهم الحق، لهم الحالة غير

الحسنة، و﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ، وما ضيعوه من حقوق عباده قد كتب ذلك، وسطر عليهم ﴿وَ﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المقر والمسكن مسكنهم.

(١٩) يقول تعالى مفرقًا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ ففهم ذلك، وعمل به ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لا يعلم الحق، ولا يعمل به ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة.

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الذي عهده إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التنمية لها، والنصح فيها، ﴿وَ﴾ تمام الوفاء بها أنهم ﴿لَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ﴾ العهد الذي عاهدوا اللّه عليه.

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا عام في كل ما أمر اللّه بوصله؛ يصلون آباءهم وأمهاتهم ببرهم بالقول والفعل، وعدم عقوقهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وفعلاً، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجرءوا على معاصي اللّه، أو يقصروا في شيء مما أمر اللّه به؛ خوفًا من العقاب، ورجاءً للثواب.

(٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على المأمورات بامتثالها، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار اللّه المؤلمة بعدم تسخطها ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلبًا لمرضاة ربه، ورجاءً للقرب منه، والحظوة بثوابه، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها، ظاهرًا وباطنًا ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة، كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سرًّا وعلانية، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾؛ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة، ومناقبهم الجميلة ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبتهم الجنة.

(٢٣) ثم فسرها بقوله: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: إقامة لا يزولون منها، ولا يبغون عنها حولاً ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ من الذكور والإناث، وكذلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب، فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ يهنئونهم بالسلامة، وكرامة اللّه لهم.

(٢٤) ويقولون: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾ حلت عليكم

---

(٢٤) أخرج الإمام أحمد حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم؛ فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم =

السلامة والتحية من اللّه وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بسبب صبركم، وهو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وهي الجنة.

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقص ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجًا ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد والذم من اللّه وملائكته وعباده المؤمنين ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي: الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

(٢٦) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وَفَرِحُوا﴾ الكفار ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فرحًا أوجب لهم أن يطمئنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة؛ وذلك لنقصان عقولهم ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلاً طويلاً.

(٢٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات اللّه - من مشركي مكة- يتعنتون

سورة الرعد — الجزء الثالث عشر

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

٢٥٣

على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلاَّ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم اللّه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾؛ أي: طَلَبَ رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفًا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون.

(٢٨) ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

= وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾».

(٢٦) في «صحيح مسلم» عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في هذه من اليَمِّ، فلينظر بم يرجع». وأشار بالسبابة.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ حقيق بها وحري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره.

(٢٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم باللَّه وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ لهم حالة طيبة، ومرجع حسن.

(٣٠) قوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾؛ ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلوا عليهم آيات اللَّه التي أوحاها اللَّه إليك، التي تطهر القلوب، وتزكي النفوس ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد، فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة، كيف أخذهم اللَّه بذنوبهم ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا متضمن التوحيدين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾توبتي ومرجعي.

(٣١) قال تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ من الكتب الإلهية ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ جنانًا وأنهارًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لكان هذا القرآن ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾، أي: أفلم يعلم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعًا، ولكن لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾من قومك، ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ من كفرهم بالله، وتكذيبهم إياك، وإخراجهم لك من بين أظهرهم ﴿قَارِعَةٌ﴾؛ أي: نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء، أحياناً بالجدب، وأحياناً بالسلب، وأحياناً بالقتل والأسر، وقيل: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثها إليهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ القارعة، أو أنت يا محمد؛ أي: تنزل أنت قريباً من دارهم بجيشك وأصحابك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ بالنصر عليهم وفتح مكة، وقيل: القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وهذا تهديد وتخويف لهم من نزول ما وعدهم اللَّه به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فلست أول رسول كُذِّبَ وأوذي ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أمهلتهم مدة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بأنواع العذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان عقابًا شديدًا وعذابًا أليمًا، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزءوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم.

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حافظها، ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما عملت وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم، بل عاجز عن نفسه ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾

---

(٢٩) في «مسند الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبان» من حديث أبي سعيد الخدري الصحيح: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «طوبى: شجرة في الجنة، مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها».

وهو الله الأحد الصمد، الذي لا شريك له، ولا ندٌّ ولا نظير ﴿قُلْ﴾ لهم، إن كانوا صادقين: ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾ لنعلم حالهم ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها سبحانه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ بظن من القول؛ أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله، ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ عن الطريق المستقيمة، الموصلة إلى الله، وإلى دار كرامته، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

(٣٤) ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ بأيدي المؤمنين قتلًا وأسرًا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المدخر لهم، مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّۖ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم من عذابه، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه، ثم أعقب ذلك ببيان حسب عاقبة المؤمنين، فقال:

(٣٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ صفتها وحقيقتها ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ دائم أيضًا ﴿تِلْكَ عُقْبَى

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

٢٥٤

ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ﴾ مآلهم وعاقبتهم الجنة إليها يصيرون، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ ومآل الكافرين نار جهنم.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مننا عليهم بالقرآن وبمعرفته، وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ﴾ فيؤمنون به ويصدقونه ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضًا ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ﴾ ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ﴾؛ أي: بإخلاص الدين لله وحده ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ

(٣٤) في صحيح مسلم «من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

﴿مَئَابِ﴾ مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

(٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ محكمًا متقنًا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ آراءهم في الملة والدين ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه.

وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ وإن طلبوا منك آية اقترحوها، فليس لك من الأمر شيء ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لا يتقدم عليه، ولا يتأخر عنه.

(٣٩) ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللوح المحفوظ، الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة، التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا، ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب.

(٤٠) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ أي: نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ والتبيين للخلق ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به، نثيبهم أو نعاقبهم.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الكفار الذين يسألون محمدًا ﷺ آيات الاقتراح: ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أكثر المفسرين على أن المراد فتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص في ديار الشرك ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت فهو قريب.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغنِ عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئًا، فإنهم يحاربون الله ويبارزونه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ أي: لا يقدر

أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: همومها وإرادتها وأعمالها الظاهرة والباطنة ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾؛ أي: ألهم أو لرسله؟ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأهله.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويكذبك هؤلاء الكفار، ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ما أرسلك الله، ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حسبي الله، وهو الشاهد عليَّ وعليكم، وشهادته بقوله وفعله وإقراره: أما قوله فبما أوحاه اللَّه إلى أصدق خلقه، مما يثبت به رسالته، وأما فعله: فلأن اللَّه تعالى أيد رسوله ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره :فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان اللَّه وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين؛ فإنهم يشهدون للرسول ﷺ من آمن واتبع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه ان عنده شهادة أبلغ من خبره.

سورة إبراهيم

(١) ﴿الر﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «**البقرة**». ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإرادة من اللَّه ومعونة، ثم فسر

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ — مكية — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به،وفي ذكر ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة .

(٢) ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ له ملك السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان توعد من لم ينقد لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره.

(٣) ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فرضوا بها

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

٢٥٦

واطمأنوا ﴿عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ وغفلوا عن الدار الآخرة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه، وعلى ألسنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ أي: سبيل اللّه ﴿عِوَجًا﴾ يحرصون على تهجينها وتقبيحها؛ للتنفير منها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا اللّه ورسوله، وحاربوهما.

(٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ليفهموا عنه، ويتمكنوا من تعلم ما أتى به، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ممن اختصه برحمته، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ومن حكمته أنه لا يضع هدايته وضلاله إلا بالمحل اللائق به.

(٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته وأمره بما أمر اللّه به رسوله محمد ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ظلمات الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه، وليحذروا عقابه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التذكير بأيام الله ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لدلالات في أيام اللّه على العباد ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: كثير الصبر في الضراء والعسر والضيق ﴿شَكُورٍ﴾ على السراء والنعمة.

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ يقول اللّه مخبرًا عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين ذكَّر قومه بأيام اللّه عندهم ونعمه عليهم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألسنتكم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يذيقونكم ويولونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الذكور؛ خوفاً منهم إذا كبروا، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يبقونهن فلا يقتلوهن للخدمة والإذلال، ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة عظيمة، أو في ذلك العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من اللّه عظيم لكم.

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أعلم ووعد ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ والشكر هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على اللّه بها، وصرفها في مرضاته،

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمتي ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمتي بجحودها وعدم شكرها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ومن ذلك: أن يزيل النعم التي أنعم بها عليهم.

(٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلن تضروا اللّه شيئًا، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقص، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ وهو كامل الغنى ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(٩) يقول تعالى مخوفًا عباده، ما أحله بالأمم المكذبة، حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقد ذكر اللّه قصصهم في كتابه وبسطها ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان ﴿وَقَالُوا﴾ صريحًا لرسلهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موجب للتهمة، وموقع في الريبة.

(١٠) ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ هذا استفهام، بمعنى نفي ما اعتقدوه، فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في اللّه ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في الدنيا، ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة، ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟! وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟! ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة وبينة ظاهرة.

(١١) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين لاقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ صحيح وحقيقة إنا بشر مثلكم ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن ﴿اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا مَنَّ اللّه علينا بوحيه ورسالته فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على اللّه فضله ويمنعه من تفضله، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به،

وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم.

(١٢) ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ لا شيء يمنعنا من التوكل على الله؛ لأننا على الحق والهدى ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

(١٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعدين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ توعدوهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوها إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهما فيها ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بأنواع العقوبات.

(١٤) ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ وعدهم ربهم بالتمكين في الأرض، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العاقبة الحسنة التي جعلها اللّه للرسل ومن تبعهم، جزاءً ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: قيامه بين يديَّ كما قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأضاف قيام العبد إلى نفسه. ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ما توعدت به من عصاني.

(١٥) ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾؛ أي: الكفار، طلبوا واستعجلوا فتح اللّه وفرقانه بين أوليائه وأعدائه ﴿وَخَابَ﴾ خسر في الدنيا والآخرة ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ من تجبر على الله، وعلى الحق، وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، ﴿عَنِيدٍ﴾ وعاند الرسل وشاقهم.

(١٦) ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: أمامه، فهي لهذا الجبار العنيد بالمرصاد ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: هو صديد، وهو ما يسيل من جلود أهل النار، وهو القيح والدم، وهو في غاية الحرارة.

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتحسَّاه ويشربه جُرَعًا، لا مرة واحدة؛ لمرارته وحرارته ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: لا يكاد يزدرده - أي: يبتلعه - وهو مسيغه لشدة العطش فإذا أساغه قطع أمعاءه! فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: ويأتيه العذاب الشديد من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن كل موضع من أعضاء جسده، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ولكن اللّه قضى أن لا يموتوا ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قوي شديد.

---

(١٣) في «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂ في بدء الوحي: «فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة -، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أوَمُخرِجيَّ هم؟»، قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».

(١٥) و(١٦) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق: إني وكلت بكل جبار عنيد».

(١٨) ثم ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير اساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾؛ أي: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ شديد الهبوب فإنهم ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه!.

(١٩) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ينبه تعالى عباده بأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما، وما فيهما، على ما له من صفات الكمال، ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ سواكم يكونون أطوع لله منكم.

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ بممتنع، بل هو سهل عليه جدًّا.

(٢١) ﴿وَبَرَزُواْ﴾؛ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ حين ينفخ في الصور، فيخرجون من الأجداث إلى ربهم ويبرزون لا يخفى عليه منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنّى لهم ذلك؟! ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: التابعون والمقلدون ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم: المتبَعون

سورة إبراهيم — الجزء الثالث عشر

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ (٢٠) وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ (٢١) وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٢) وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣) أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٢٤)

ع ١٥

٢٥٨

الذين هم قادة في الضلال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا، فأغويتمونا ﴿فَهَلۡ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ ولو مثقال ذرة؟ ﴿قَالُواْ﴾ أي: المتبوعون والرؤساء: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ فلا يغني أحدٌ عن أحد شيئًا ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ﴾ من العذاب ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ عليه ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ لا ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

(٢٢) ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبًا لأهل النار، ومتبرئًا منهم ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ ودخل أهل الجنةِ الجنة وأهل النارِ النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ على ألسنة رسله، فلم تطيعوه، فلو أطعتموه؛ لأدركتم الفوز العظيم، ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ الخير

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٢٦ — ع ١٦

﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ لم يحصل، ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ من حجة على تأييد قولي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾؛ أي: هذا نهاية ما عندي، أني دعوتكم إلى مرادي، وزينته لكم، فاستجبتم لي؛ اتباعًا لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ فأنتم السبب، وعليكم المدار في موجب العقاب ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ﴾ كل له قسط من العذاب ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ تبرأت من جعلكم لي شريكًا مع الله، فلست شريكًا لله، ولا تجب طاعتي ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ خالدين فيه أبدًا.

(٢٣) ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب الطائعين، فقال: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الذين قاموا بالدين قولاً وعملاً واعتقادًا، ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ﴾ لا بحولهم وقوتهم، بل بحول اللَّه وقوته ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يُحَيِّي بعضهم بعضًا بالسلام والتحية والكلام الطيب.

(٢٤) ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ألم تعلم ﴿كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ وهي: شهادة أن لا إله إلا اللَّه وفروعها ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ وهي: النخلة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ في الأرض ﴿وَفَرۡعُهَا﴾ منتشر ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي كثيرة النفع دائمًا.

(٢٥) ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها ﴿كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائمًا، يصعد إلى اللَّه منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة

(٢٤) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه المسلم، لا يتحات ورقها، تؤتي أكلها كل حين؟». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئًا، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله، لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئًا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليَّ من كذا وكذا.

الإيمان ما ينتفع به المؤمن، وغيره ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه.

(٢٦) ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكل والمطعم، وهي: شجرة الحنظل ونحوها ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ هذه الشجرة ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾؛ أي: من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث، وعمل خبيث، يؤذي صاحبه، ولا يصعد إلى اللَّه منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

(٢٧) ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه اللَّه على هوى النفس ومرادها ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من التوفيق والخذلان، والتثبيت والحرمان.

(٢٨) يقول تعالى مبينًا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ ونعمة اللَّه هي: إرسال محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها والكفر بها، والصد عنها بأنفسهم، ﴿وَ﴾صدهم غيرهم حتى ﴿أَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ وهي النار.

(٢٩) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ المستقر.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ نظراء وشركاء ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ليضلوا العباد عن سبيل اللَّه بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوهم إلى عبادتها ﴿قُلْ﴾ لهم متوعدًا: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مآلكم ومأواكم فيها.

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ آمرًا لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة قبل أن لا يمكنهم ذلك ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلاً أو كثيرًا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة، ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق.

(٣٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده على اتساعهما وعظمهما ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المطر الذي ينزله اللَّه من السحاب ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

---

(٢٧) في «الصحيحين» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾».

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّىۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

المختلفة الأنواع ﴿رِزْقًا لَّكُمْۖ﴾ ورزقًا لأنعامكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ السفن والمراكب ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ﴾ فهو الذي يسر لكم صنعتها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم: من حساب أزمنتكم، ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم وثماركم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ مبصرًا لتبتغوا من فضله.

(٣٤) ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي، مقصر في حقوق ربه ﴿كَفَّارٌ﴾ لنعم الله، لا يشكرها، ولا يعترف بها، إلا من هداه اللّٰه فشكر نعمه، وعرف حق ربه، وقام به.

(٣٥) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ اذكر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذه الحالة الجميلة إذ قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾؛ أي: الحرم ﴿ءَامِنًا﴾ فاستجاب اللّٰه دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه اللّٰه في الشرع، ويسر من أسباب حرمته قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يُرِدْه ظالم بسوء إلا قصمه الله، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ اجعلني وإياهم جانبًا بعيدًا عن عبادتها، والإلمام بها.

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾؛ أي: ضلوا بسببها ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على ما جئت به من

---

(٣٤) في «صحيح البخاري» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي، ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربَّنا».

(٣٦) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّىۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ورفع يديه ثم قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي». وبكى، فقال الله: «يا جبريل، اذهب إلى محمد -وربك أعلم- وسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل عليه السلام فسأله؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، -وهو أعلم- فقال الله: «يا جبريل، اذهب إلى محمد؛ فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك».

التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ لتمام الموافقة، ومن أحب قومًا واتبعهم التحق بهم ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

(٣٧) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بعض ذريتي؛ لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، إنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لأن أرض مكة لم يكن فيها ماء ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ تحبهم، وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبى إليه ثمرات كل شيء.

(٣٨) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾؛ أي: أنت أعلم بنا منا، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين.

(٣٩) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ فذلك من أكبر النعم، وكونه على الكبر في حالة الإياس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ لقريب الإجابة ممن دعاه.

(٤٠) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ تقبل عملي وعبادتي واستجب دعائي.

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

ع ١٩

٢٦١

(٤١) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ أراد إن أسلما وأنابا، أو قبل أن يتبين له عداوة والده لله عز وجل ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اغفر للمؤمنين كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا فشر. فاستجاب الله له في ذلك كله؛ إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه.

(٤٢) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد، آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يملي للظالم ويمهله؛ ليزداد إثمًا، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تطرف من شدة ما ترى

من الأهوال وما أزعجها من القلاقل، والآية لتسلية المظلوم وتهديد الظالم.

(٤٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي اللّه للحساب، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها، قد غُلّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، وهي شاخصة طائرة، قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق.

(٤٤) ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ خوّفهم ﴿يَوْمَ﴾ بيوم، ﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، حين يأتي في شدائده وقلاقله ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والتكذيب، وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أمهلنا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ردنا إلى الدنيا، فإنا قد أبصرنا ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ واللّه يدعو إلى دار السلام ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب الأليم، وإلا فهم كذبة في هذا الوعد، ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ حلفتم في دار الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

(٤٥) ﴿وَسَكَنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والعصيان ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من أنواع العقوبات، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات.

(٤٦) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾؛ أي: المكذبون للرسل ﴿مَكْرَهُمْ﴾ الذي وصلت إليه إرادتهم، وقدروا عليه ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾؛ أي: جزاء مكرهم، وهو محيط به علمًا وقدرة ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل بالحق، لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها.

(٤٧) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه؛ لأنه وعد به الصادق قولاً على ألسنة أصدق خلقه، وهم: الرسل، و﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ لا يعجزه شيء، فإنه ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إذا أراد أن ينتقم من أحد فإنه لا يفوته ولا يعجزه.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾

---

(٤٨) في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرْصَة النَّقِيّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد».

وفي «صحيح مسلم» عن مسروق عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

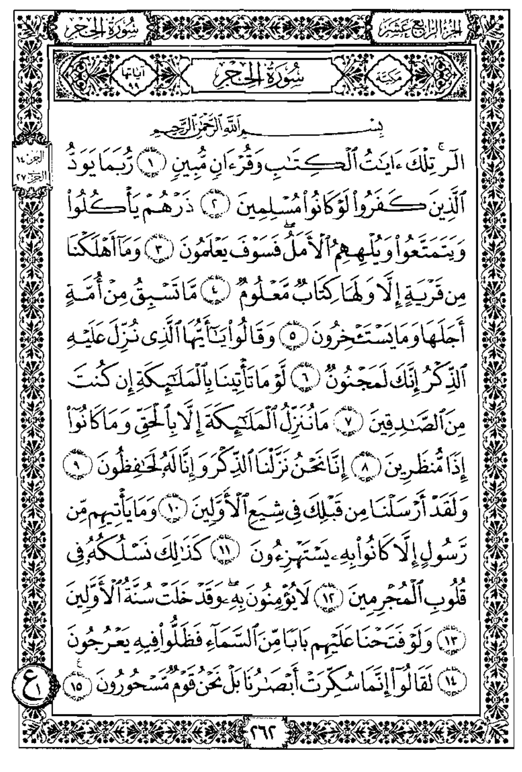
تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلَم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل- أي: كَعَكر الزيتِ - من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها اللَّه تعالى بيمينه ﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم في محل لا يخفى منهم على اللَّه شيء ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ المتفرد بعظمته، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتدبيره.

(٤٩) ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين وصفهم الإجرام وكثرة الذنوب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في ذلك اليوم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مشدودين بعضهم ببعض ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ بسلاسل من نار.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ ثيابهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو الذي تُطلى به الإبل الجرباء، وهي ألصق شيء بالنار ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿ٱلنَّارُ﴾تحيط بها، وتصلاها من كل جانب.

(٥١) ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، بالعدل والقسط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ سريع المحاسبة.

(٥٢) ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد اللَّه لأهلها من العقاب، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ليستدلوا بهذه الآيات


الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

سورة الحجر — مكية — آياتها ٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٥) وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)

٢٦٢

على وحدانية الله، حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ ليتعظ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

سورة الحجر

(١) ﴿الٓر﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «**البقرة**» ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني، وأفضل المطالب، ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ للحقائق.

(٢) ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ إخبار أنهم سيندمون ويتمنون أنهم مسلمون،

---

(٢) أخرج ابن جرير وابن أبي عاصم في «السنة» والحاكم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. =

منقادون لأحكامه في الدار الدنيا، وذلك حين يخرج اللَّه المؤمنين من النار.

(٣) ﴿ذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَأْكُلُوا﴾ في الحياة الدنيا ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بلذاتهم ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ يؤملون البقاء في الدنيا، فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسرانًا عليهم، ولا يغتروا بإمهال اللَّه تعالى، فإن هذه سنته في الأمم.

(٤) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كانت مستحقة للعذاب ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أجل مضروب، وموعد مقدر لإهلاكها.

(٥) ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ لا تتقدم أمة موعد هلاكها وعذابها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ولا تؤخر إذا حان هلاكها عن ميقاتها.

(٦) ﴿وَقَالُوا﴾ وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاءً وسخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا آباءنا لمجرد قولك.

(٧) ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلما لم تأتِ بالملائكة فلست بصادق. وهذا من أعظم الظلم والجهل:

أما الظلم؛ فظاهر، فإن هذا تجرؤ على اللَّه وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل؛ فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة، خير لهم.

(٨) ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بل لا ينزل اللَّه الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له، ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا﴾ حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا ﴿مُنْظَرِينَ﴾ بممهلين.

(٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ في حال إنزاله، وبعد إنزاله.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رسلاً ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ فرقهم وجماعتهم.

(١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ يدعوهم إلى الحق والهدى ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما فعلوه بك، ذَكَره تسلية للنبي ﷺ.

(١٢) ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾؛ أي كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء وبالرسل، كذلك نفعل ذلك في قلوب ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين وصفهم الظلم والبهت من مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله .

(١٣) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ عادة اللَّه فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

(١٤) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على الذين يقولون: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه

= قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، فقد صرتم معنا في النار. قالوا: كانت لنا ذنوب؛ فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة؛ فأُخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا».
قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾».

عيانًا بأنفسهم.

(١٥) ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ من ظلمهم وعنادهم، منكرين لهذه الآية: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ أصابها سُكْرٌ وغشاوة، حتى رأينا ما لم نر، ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر.

(١٦) ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة. وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: ٦١].

(١٧) ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب؛ فبقيت السماء ظاهرها مجمَّلاً بالنجوم النيرات، وباطنها محروسًا ممنوعًا من الآفات.

(١٨) ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ لكن في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ﴾ شعلة من النار ﴿مُّبِينٞ﴾ بين منير يقتله أو يخبله.

(١٩) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ وسعناها ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً عظامًا ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ من كل شيء مقدّر، وبحد معلوم.

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

٢٦٣

(٢٠) ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أنعمنا عليكم بعبيد وإماء، وأنعام؛ لنفعكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم اللَّه إياها، وتكفل بأرزاقها.

(٢١) ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ وما من شيء ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ مفاتيح خزائنه، فجميع الأرزاق وأصناف

---

(١٨) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر- ووصف سفيان بيده ففرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض - فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة، فيُصدَّق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقًا؟ للكلمة التي سمعت من السماء».

الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾؛ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره ﴿إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

(٢٢) ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وسخرنا الرياح: رياح الرحمة تلقح السحاب فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ فيسقيه اللّه العباد، ومواشيهم، وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ لا قدرة لكم على خزنه وادخاره.

(٢٣) ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ويميتهم لآجالهم التي قدرها ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ يرث اللّه الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

(٢٤) ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ﴾ المستقدمون في صفوف الصلاة ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ والمستأخرون فيها، وذلك أن النساء يقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال، ومن النساء من كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال.

وهذه الآية دالة على كمال علم الله، وأنه محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

(٢٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقًا جديدًا، ويحشرهم إليه ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ﴿عَلِيمٞ﴾ ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(٢٦) ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ من طين قد يبس بعدما خمر، حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

(٢٧) ﴿وَٱلۡجَآنَّ﴾ وهو أبو الجن؛ أي: إبليس ﴿خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ خلق آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ من النار الشديدة الحرارة.

(٢٨) ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فلما أراد اللّه خلق آدم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾.

(٢٩) ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ جسدًا تامًّا ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فصار بشرًا حيًّا، والروح جسم شريف يحيا به الإنسان، وأضافه إلى نفسه تشريفًا ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فامتثلوا أمر ربهم، وسجدوا سجود

---

(٢٤) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسناد صحيح؛ قال: كانت امرأة تصلي خلف النبي حسناء من أجمل الناس، فكان الناس يصلون في آخر صفوف الرجال، فينظرون إليها، فكان أحدهم ينظر إليها من تحت إبطه إذا ركع، وكان أحدهم يتقدم إلى الصف الأول حتى لا يراها، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾.

(٢٥) في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه».

(٢٧) في «صحيح مسلم» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

تحية، لا سجود عبادة.

(٣٠) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين أمروا بالسجود ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد.

(٣١) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وهذا أول عداوته لآدم وذريته.

(٣٢) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ما الذي حصل لك حتى امتنعت عن السجود مع الملائكة؟

(٣٣) ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

(٣٤) ﴿قَالَ﴾ اللَّه معاقبًا له على كفره واستكباره: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود ومبعد من كل خير.

(٣٥) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم القيامة.

(٣٦) ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أمهلني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الخبيث أن لا يموت.

(٣٧) ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وليس إجابة اللَّه لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد.

(٣٨) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى.

(٣٩) ﴿قَالَ﴾ إبليس لربه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ بسبب ما أضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكل معصية ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم.

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

٢٦٤

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصتهم واجتبيتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

(٤١) ﴿قَالَ﴾ اللَّه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ مرجعكم كلكم إليَّ فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

(٤٢) ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم، وانقيادهم لأوامره، أعانهم اللَّه وعصمهم من الشيطان ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الضالين.

(٤٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: جهنم موعد من اتبع إبليس؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن

الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

٢٦٥

يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بحسب أعمالهم.

(٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذي اتقوا طاعة الشيطان، وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

(٤٦) ويقال لهم حال دخولها: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ من الموت، والنوم، والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه، أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهم، وسائر المكدرات.

(٤٧) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد، متصافية متحابة ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر، لا مستدبرًا له، متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ، وأنواع الجواهر.

(٤٨) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ مشقة وتعب، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ وهذه أنصُّ آية في القرآن على الخلود.

(٤٩) ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ أخبرهم خبرًا جازمًا مؤيدًا بالأدلة ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب، وتابوا منها؛ لينالوا مغفرته.

---

(٤٤) أخرج الطبراني وابن المبارك في «الزهد» بإسناد صحيح عن أبي هارون الغنوي عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وهو يخطب ـ قال: «إن أبواب الجنة كذا»، وفي «زهد ابن المبارك»: «أبواب جهنم» هكذا». قال أبو هارون: أطباقًا بعضها فوق بعض.

(٤٧) أخرج البخاري عن أبي المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص من بعضهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا؛ أذن لهم في دخول الجنة».

(٤٨) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

(٥٠) ﴿وَ﴾ مع هذا، فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم ﴿أَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله، الذي يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه.

(٥١) ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ وخبِّرهم يا محمد ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عن تلك القصة العجيبة، وضيفه هم: الملائكة الكرام.

(٥٢) ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: الملائكة الكرام دخلوا على إبراهيم ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ سلموا عليه؛ فرد عليهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون.

(٥٣) ﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، ﴿عَلِيمٍ﴾ كثير العلم.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ على حال الكبر، وصار نوع إياس منه ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ على أي وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب؟!

(٥٥) ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير؛ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير.

(٥٦) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ ييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الذين لا علم لهم بربهم وكمال اقتداره.

(٥٧) ﴿قَالَ﴾ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟

(٥٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ كثر فسادهم، وعظم شرهم؛ لنعذبهم ونعاقبهم.

(٥٩) ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إلا لوطًا وأهله وأتباع دينه ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من العذاب الأليم الذي سيحل بقومه.

(٦٠) ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾؛ لأنها خانته في دينه، وكفرت برسالته ﴿قَدَّرْنَآ﴾ قضينا: ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب.

(٦١) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: فلما جاءت الملائكة لوطًا في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره.

(٦٢) ﴿قَالَ﴾ لهم لوط: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لا أعرفكم، ولا أدري من أنتم.

(٦٣) ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكة للوط: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ إنما جئناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه، ويكذبونك حين تعدهم به.

(٦٤) ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي ليس بالهزل ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما قلنا لك.

(٦٥) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في أثنائه حين تنام العيون، ولا يدري أحد عن مسراك ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ أي: وَسِرْ خلفهم، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بهم ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنه كان معهم دليل يدلهم إلى أين يتوجهون.

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أخبرناه خبرًا لا مثنوية فيه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أصلهم ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مستأصل ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ إذا دخلوا في الصبح؛ كما

(٥٦) أخرج البزار من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسناد حسن: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله».

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١].

(٦٧) ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ التي فيها قوم لوط ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضًا بأضياف لوط.

(٦٨) ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ وحق على الرجل إكرام ضيفه ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ فيهم.

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوا الله فيَّ وفي أنفسكم أن يحل بكم عقابه ﴿وَ﴾إن كان ليس فيكم خوف من الله فـ ﴿لَا تُخۡزُونِ﴾ تخجلوني بانتهاك الأمر الشنيع والذنب الفظيع.

(٧٠) و﴿قَالُوٓاْ﴾ له جوابًا عن قوله: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ فقط ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أن تضيفهم، فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر فقد أعذر.

(٧١) ﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ تقدم تفسيره والخلاف فيه، وبيان الراجح في سورة «**هود**» [آية: ٧٨].

(٧٢) ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ أقسم تعالى بنبيه محمد؛ أي: وحياتك ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ في ضلالهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون.

(٧٣) ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ وقت شروق الشمس؛ حيث كانت العقوبة عليهم أشد.

(٧٤) ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قلبنا عليهم مدينتهم ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ تتبع فيها من شذ من البلد.

(٧٥) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ المتأملين المتفكرين.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار.

(٧٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطًا وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

(٧٨) ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو: البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيه شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم.

(٧٩) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ ديار قوم لوط، وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ لبطريق واضح، يمر بهم

المسافرون كل وقت.

(٨٠) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ وهم قوم صالح، الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: كذبوا صالحًا، ومن كذب رسولاً؛ فقد كذب سائر الرسل؛ لاتفاق دعوتهم.

(٨١) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، ومن جملتها: تلك الناقة، وهي من آيات اللَّه العظيمة ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كبرًا وتجبرًا على الله.

(٨٢) ﴿وَكَانُوا۟﴾ من كثرة إنعام اللَّه عليهم ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ من المخاوف، مطمئنين في ديارهم.

(٨٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح.

(٨٤) ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ لأن أمر اللَّه إذا جاء لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

(٨٥) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ما خلقناهما عبثًا باطلاً كما يظن أعداء الله، بل ما خلقناهما إلا بالحق الذي منه أن تكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته، وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ لا ريب فيها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل قابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران.

(٨٦) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لكل مخلوق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ ولقد أعطيناك يا محمد ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ اختلف في السبع المثاني ما هي، فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم: **هي السبع الطوال**: «البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس».

وقال عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس: «**هي الفاتحة**»، وهو الصحيح المعتمد؛ لورود الأحاديث الصحيحة في ذلك، ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وأعطيناك القرآن العظيم وهو خير عظيم لا يقادر قدره.

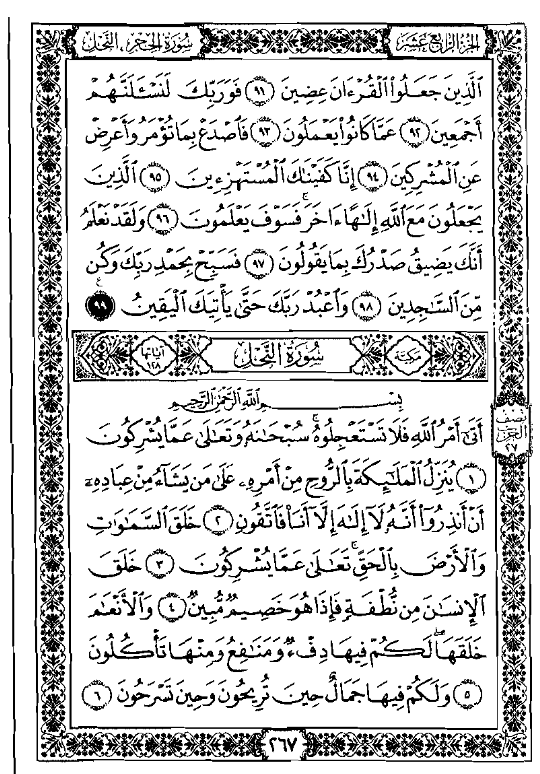
(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون،

---

(٨٧) في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد بن المعلى قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟»، فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟». فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكَّرته، فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وفيه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

(٨٨) أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».



واغتر بها الجاهلون، واستغنِ بما آتاك اللَّه من المثاني والقرآن العظيم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يرجى، ولا نفع يرتقب ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ألن لهم جانبك.

(٨٩) ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقريب والبعيد، والعدو والصديق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء.

(٩٠) ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ يعني: أنذركم عذاباً أنزلناه بالمقتسمين، والمقتسمون الاثنا عشر الذين اقتسموا، أي: تقاسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، أو الذين اقتسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه الصلاة والسلام والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآن عضين؛ حث قالوا: عناداً: بعضه حق موافق للتوارة والإنجيل وبعضهم باطل مخالفاً لهما، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، أو أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم، وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤون من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله ﷺ.

(٩١) ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أصنافاً وأعضاءً وأجزاءً، يصرفونه بحسب ما يهوونه، فيؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض.

(٩٢) ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لنسألن هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا عضين.

(٩٣) ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم، وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون.

---

(٨٩) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم؛ فنجوا، وكذبه طائفة منهم؛ فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق».

(٩١) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزءوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه».

(٩٤) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ امضه ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تبال بهم، واترك مشاتمتهم ومسابتهم، مقبلاً على شأنك.

(٩٥) ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بك وبما جئت به، وهذا وعد من اللَّه لرسوله أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه اللَّه إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

(٩٦) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وهو ربهم وخالقهم، ومدبرهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غِبَّ أفعالهم إذا وردوا القيامة.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء، فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقونه، ولكن اللَّه يمهلهم ولا يهملهم.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: أكثِر، يا محمد، ذكر الله، وتسبيحه، وتحميده، والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه، ويعينك على أمورك.

(٩٩) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى اللَّه بأنواع العبادات حتى يدركك الموت.

والدليل على أن المراد باليقين الموت:

أولاً: ما صح عن السلف، كسالم بن عبد الله، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغيرهم.

ثانيًا: قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٧]، وكذلك قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. ويستدل بهذه الآية على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين: المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل؛ فإن الأنبياء كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه، وكانوا مع ذلك أعبد الناس.

---

(٩٥) أخرج الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الدلائل»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والضياء في «المختارة» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قال: المستهزئون هم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب أبو زمعة من بني أسد بن عبد العزى، والحارث بن غيطل السهمي، والعاص بن وائل السهمي.
فأتاه جبريل عليه السلام فشكاهم إليه رسول الله ﷺ، فأراه أبا عمرو الوليد بن المغيرة، فأومأ جبريل إلى أكحله، فقال: «ما صنعت شيئًا». فقال: «كفيتكه». ثم أراه الحارث بن غيطل السهمي، فأومأ إلى بطنه، فقال: «ما صنعت شيئًا». فقال: «كفيتكه». ثم أراه العاص بن وائل السهمي، فأومأ إلى أخمصه، فقال: «ما صنعت شيئًا». فقال: «كفيتكه».
فأما الوليد بن المغيرة، فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له، فأصاب أكحله فقطعها.
وأما الأسود، فعمي، فمنهم من يقول: عمي هكذا، ومنهم من يقول: نزل تحت شجرة، فجعل يقول: يا بني، ألا تدفعون عني، قد هلكت، أطعن بشوك في عيني! فجعلوا يقولون: ما نرى شيئًا. فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه.
وأما الأسود بن عبد يغوث، فخرج في رأسه قروح فمات منها.
وأما الحارث بن غيطل، فأخذه الماء الأصفر في بطنه، حتى خرج خرؤه من فيه، فمات منها.
وأما العاص بن وائل، فبينما هو كذلك يومًا حتى دخل في رجله شبرقة، حتى امتلأت منها، فمات.

سورة النحل

(١) يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها؛ فقال: ﴿أَتَىٰٓ﴾ جاء ودنا وقرب ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فإنه آتٍ، وما هو آت؛ فإنه قريب.

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علوًّا كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة.

(٢) ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ ممن يعلمه صالحًا لتحمل رسالته، وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾؛ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾أي: على معرفة اللّٰه تعالى وتوحده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ يعرف الله تعايل خلقه حجته عليهم في توحيده، وأنه لا تصلح الألوهية إلا له، خلق ربكم أيها الناس السموات والأرض بالعدل، وهو الحق، منفرداً بخلقها لم يشركه في إنشائها أحد، فأنى يكون له شريك﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تنزه وتعاظم عن شركهم، فإنه الإله حقًّا الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى.

(٤) ومن حججه عليكم، أيضاً، أيها الناس أنه ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾؛ أي: مهينة ضعيفة لم يزل يدبرها ويربيها وينميها، حتى صارت بشرًا تامًّا حتى إذا استوى على سوقه، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته.

(٥) ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ﴾أي: ومن حججه عليكم أيها الناس: الأنعام، أي: الإبل والبقر والغنم لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، ومن جملة منافعها العظيمة ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت، ﴿وَ﴾ لكم فيها ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ بالنسل والدَّرِّ والركوب والحمل وغير ذلك، ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ يعني: لحومها وأولادها.

(٦) ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأموالكم وأولادكم، وتعجبون بذلك ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ في وقت رواحها حين تردُّ بالعشي من مراعيها إلى مباركها ومنازلها التي تأوي إليها ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ وقت سرحها وحركتهاوقدم الرواح؛ لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون اعجب بها

(٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث بسر بن جحاش ﷺ قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم، أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟!»

إذا راحت.

(٧) ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ﴾ آخر غير بلدك، ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ بالمشقة والجهد، لكن الله ذللها لكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ إنه سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه.

(٨) ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ سخرناها لكم ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل - في الغالب - للأكل ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم؛ فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأن اللّٰه تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد به، فيذكر أصلاً جامعًا، يدخل فيه ما يعلمون، وما لا يعلمون.

(٩) ولما ذكر تعالى من الحيوانات في السبل الحسين نبه على الطرق الدينية التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ﴾ بيان وتوضيح ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الصراط المستقيم الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء والمعنى أن الله تعالى أخبر أن ثم طرقًا

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾

تُسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال منها مردودة ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ولكنه هدى بعضًا؛ كرمًا وفضلاً، ولم يهدِ آخرين؛ حكمة منه وعدلاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣].

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ﴾ لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب. شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء- وهو العلو - مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال: ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ أي: جعله

---

(٨) في «الصحيحين» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل».

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

٢٦٩

عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعون فيه أنعامكم.

(١١) ﴿يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يخرجها من الأرض بهذا الماء، على اختلاف صنوفها وأشكالها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بذلك على كمال قدرة اللّه ورحمته.

(١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبدًا، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معايشكم، ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض والأبدان، وغير ذلك، وفيهما - الشمس والقمر - وفي النجوم من الزينة للسماء، والهداية في ظلمات البر والبحر ومعرفة الأوقات، حساب الأزمنة، ما تتنوع دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهاذ جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكر فيما هي مهيأة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين.

(١٣) ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ فيما ذرأ اللّه ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض؛ من حيوان وأشجار ونبات وغير ذلك، مما تختلف ألوانه وتختلف منافعه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ آية على كمال قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم اللّه إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

(١٤) ﴿وَهُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهيأه لمنافعكم المتنوعة ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحوت الذي تصطادونه منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالاً وحسنًا إلى حسنكم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن والمراكب ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ تمخر- أي: تشق - في البحر العجاج الهائل بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهيأها، وتثنون على اللّه الذي مَنَّ بها.

(١٥) ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ اللّه تعالى لأجل عباده ﴿فِي

﴿ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ وهي: الجبال العظام ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تميد بهم - أي: تضطرب و تتحرك وتميل- ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ جعل فيها أنهارًا يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقًا توصل إلى الديار المتنائية، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها.

(١٦) ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ دلائل من الجبال وآكام صغار، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في ظلام الليل.

(١٧) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئًا، لا قليلاً ولا كثيرًا، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

(١٨) ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ عددًا مجردًا عن الشكر ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ فضلاً عن كونكم تشكرونها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

(١٩) ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، فعلمه محيط بهم.

(٢٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الأصنام والأنداد ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ قليلاً ولا كثيرًا ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئًا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟ ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم ولا غيره.

(٢١) ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئًا، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين؟! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لا يدرون متى الساعة.

(٢٢) ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعنادًا، وهو توحيد الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا لا بد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم.

(٢٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾؛ أي: لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ من القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد ﴿قَالُوٓا۟﴾ فيقولون عنه أنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

(٢٥) ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حملوا وزرهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وحملوا أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوا إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون فكل مستقل بجرمه؛ لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم من وزرهم

(٢٥) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا».

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

ووزر من أضلوه.

(٢٦) ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به، وبنوا من مكرهم قصورًا هائلة ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذابًا عُذِّبوا به ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم، ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه.

(٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يفضحهم على رءوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم الرب تبارك وتعالى مقرعًا لهم وموبخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء لله، أي: أين هم ن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العلماء الربانيون: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿وَالسُّوءَ﴾ سوء العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ محيط بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

(٢٨) ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم، ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيقال تكذيبًا لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم تعملون السوء، و﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئًا.

(٢٩) ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فكل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم، فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم لمن كان متكبرًا عن آيات الله واتباع رسله.

(٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا﴾ لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا

﴿حَسَنَةً﴾ وهي الحياة الطيبة، حياة الطهر والعزة والكرامة، ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ لهم من دار الدنيا مع ما فيها من حسنة؛ لفنائها ولبقاء الآخرة. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الآخرة.

(٣١) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: جنات إقامة لهم، يدخلونهاويستقرون فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مهما تمنت أنفسهم، وتعلقت به إراداتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لسخط اللَّه وعذابه؛ بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان، من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم اللَّه عنه.

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم، ويخل في إيمانهم ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ التحية الكاملة خاصة لكم، والسلامة من كل آفة، وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان باللَّه والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة، والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم، لا بحولهم وقوتهم.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات؛ فلم يؤمنوا، وذُكِّروا؛ فلم يتذكروا، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كذبوا وكفروا، ثم

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

٢٧١

لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ عقوبات أعمالهم وآثارها ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أنذرتهم رسلهم بالعذاب استهزءوا به، وسخروا ممن أخبر به، فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

(٣٥) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ احتج المشركون على شركهم بمشيئة اللَّه وقدره، وأن اللَّه لو شاء ما أشركوا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ ولا حرموا شيئًا من الأنعام التي أحلها، كالبحيرة، والوصيلة، والحام، ونحوها، وهذه حجة باطلة، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنها لو كانت حقًا

ما عاقب اللَّه الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ البين الظاهر، الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على اللَّه حجة.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث فيها رسولاً ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كلهم متفقون على دعوة واحدة، وهو: عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فاتبعوا المرسلين علمًا وعملاً، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فاتبع سبيل الغي، ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجد مكذبًا إلا كان عاقبته الهلاك.

(٣٧) ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ وتبذل جهدك في ذلك، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب اللَّه ويقونهم بأسه.

(٣٨) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ حلفوا أيمانًا مؤكدة مغلظة على تكذيب اللَّه ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ وأنه لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابًا فقال تعالى مكذباً لهم ورداً عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: بلى سيكون ذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم البعث والجزاء.

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار؛ فيبين حقائقها ويوضحها ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع اللَّه من شيء لما جاء أمر ربك.

(٤٠) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فإنه إذا أراد شيئًا قال له: كن. فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراده وشاءه.

(٤١) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ بالأذية والمحنة من قومهم الذين يفتنونهم؛ ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فذكر لهم ثوابين: ثوابًا عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع، والعيش الهنيء الذي رأوه عيانًا بعدما هاجروا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الذي وعدهم اللَّه على لسان رسوله خير، و﴿أَكْبَرُ﴾ من أجر الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لو كان لهم علم ويقين بما عند اللَّه من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

(٤٢) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أوامر اللَّه وعن نواهيه، وعلى أقدار اللَّه المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون عليه

---

(٣٩) و(٤٠) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد».

في تنفيذ محابه، لا على أنفسهم.

(٤٣) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كاملين، لا نساء ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: أهل الكتب السابقة ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ نبأ الأولين، وشككتم: هل بعث الله رجالاً؟.

(٤٤) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر، وهي: الكتب، والبينات، الحجج والدلائل، فعلموها وفهموها ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه، بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

(٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾ هذا تخويف وتهديد من الله تعالى لأهل الكفر والمعاصي الذين عملوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من قبل ﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ على كفرهم وشركهم، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ على حين غرة من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم.

(٤٦) ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ وإما في حال تقلبهم وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ فليسوا بمعجزين الله في حالة

سُورَةُ النَّحۡلِ — الجزء الرابع عشر

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾

٢٧٢

من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده.

(٤٧) ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف الشديد، ثم قال تعالى، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم، ويرزقهم وهم يؤذنونه ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة.

(٤٨) ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ إلى جميع مخلوقاته ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ وكيف تتفيأ

(٤٧) في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم».

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

أظلتها ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته وجلاله ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد اللّه وتدبيره عنده.

(٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، خصهم بعد العموم؛ لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ لـمّا مدحهم بكثرة الطاعة، والخضوع لله، مدحهم بالخوف من اللّه الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم اللّه تعالى امتثلوا لأمره طوعًا واختيارًا.

(٥١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تجعلون له شريكًا في إلهيته، ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها، فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتوحدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي، من غير أن تشركوا بي شيئًا من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

(٥٢) ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًا﴾ دائما ثابتا ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أيها الناس ﴿تَتَّقُونَ﴾ تخافون وتحذرون أن يسلبكم نعمة الله عليكم بإخلاصكم العبادة لربكم، وإفرادكم الطاعة له، وما لكم نافع سواه.

(٥٣) ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ لا أحد يشركه فيها ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ تضجون بالدعاء والتضرع.

(٥٤) ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ ثم إذا نجاهم من الشدة وصرتم في حال الرخاء ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ

(٤٩) أخرج أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجدًا، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله».

بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة.

(٥٥) ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أعطيناهم؛ حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ﴾ في دنياكم قليلاً ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة كفركم.

(٥٦) ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وافترائهم على اللَّه الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا نعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيبًا مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم؛ فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ أقسم اللَّه تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليجزينهم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم.

(٥٧) ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة.

(٥٨) ﴿وَ﴾ كان ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ ساكت من شدة الحزن والأسف.

(٥٩) ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ يختفي ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ كراهية أن يراه الناس خوفًا من الخزي والعار ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ من الإناث، ثم يتفكر ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ يدفنها وهي حية ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ؛ وذلك أن جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم، وجعلوا لما لا ينفعهم ولا يضرهم شركا فيما رزقهم الله، وعبدوا غير من خلقهم وأنعم عليهم.

(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ المثل الناقص والعيب التام ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فاللَّه أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه من الوجوه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو: التعظيم والإجلال، والمحبة والإنابة والمعرفة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه.

(٦١) ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ من غير زيادة ولا نقص ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدواب والحيوانات؛ فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

(٦٢) يخبر تعالى أن المشركين يجعلون له ما يكرهون ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك؛ بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله، فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟! ﴿وَ﴾ هم مع هذه الإساءة العظيمة ﴿تَصِفُ﴾ تقول ﴿أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ في

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

الآخرة ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مقدَّمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبدًا.

(٦٣) ثم بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّبَ، فقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً يدعونهم إلى التوحيد ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فحسّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر وعبادة الأوثان، مقيمين، حتى كذبوا رسلهم وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فالشيطان ناصرهم اليوم، وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة عند ورودهم على ربهم فلا ينفعهم حينئذالشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا بل ضرتهم فيها وهي لهم في الآخرة أضرّ.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد هذا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ إلا لتبين للناس الحق فيما كان موضع اختلافهم من التوحيد والقدر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد ﴿وَهُدًى﴾ ليكون هداية تامة ﴿وَرَحْمَةً﴾ عامة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبالكتاب الذي أنزله.

(٦٥) ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: إنزال المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بإنبات جميع أصناف النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بعد يبوسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود بحق، وأنه على كل شيء قدير، فالذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم.

(٦٦) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ لآية تستدلون بها على كمال قدرة الله، وسعة إحسانه ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ وأفرد هاهنا الضمير عودًا على معنى النَّعَم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان؛ ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما في الكَرِش من الثُفْل ﴿وَدَمٍ﴾ في باطن الحيوان، فأخرج من بين ذلك ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ من الكدرة ليس عليه لون دم ولا رائحة الفرث ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ للذته، فلا يغص به أحد، ولأنه يُسقى ويُغذى، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

(٦٧) ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ أي: ولكم أيضاً عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة ﴿وَرِزْقًا

﴿حَسَنًا﴾ من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًّا ونضيجًا، وحاضرًا ومدخرًا، وطعامًا وشرابًا، يتخذ من عصيرها ونبيذها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن اللَّه كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يبنون.

(٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثم أذن لها تعالى إذنًا قدريًّا تسخيريًّا أن تأكل من كل الثمرات ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ وأن تسلك الطرق التي جعلها اللَّه مذللة لها مسهلة عليها ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ من أمراض عديدة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها اللَّه هذه الهداية العجيبة.

(٧٠) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يخبر تعالى: أنه الذي خلق العباد، ونقلهم في الخلقة طورًا بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ﴿وَمِنكُم﴾ ومنهم ﴿مَّن﴾ يعمره حتى ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾؛ أي: العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقًا بعد خلق.

(٧١) يقول تعالى ذكره: ﴿وَاللَّهُ﴾ أيها الناس، ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الذي رزقكم في الدنيا﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾على غيرهم ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾أي: بمشركي مماليكهم فيما رزقهم من الأموال والأزواج، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾أي: حتى يستوو هم وعبيدهم في ذلك، فيرون أن هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد، ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟!فهذا مثل ضربه الله عز وجل، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته أو في فراشه فتعدلوا الله خلقه وعباده؟ فإن لم ترضى لنفسك هذا فالله أحق أن يترك منك. ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: يكفرون.

(٧٢) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجًا؛ ليسكنوا إليها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ أولادًا ﴿وَحَفَدَةً﴾ أولاد البنين تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المآكل والمشارب ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: الأصنام ﴿وَبِنِعْمَتِ

(٦٩) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه؟ فقال: «اسقه عسلاً». فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقًا. قال: «اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقًا. فقال رسول الله: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه، فبرئ.

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

٢٧٥

﴿ٱللَّهِ﴾؛ يعني: التوحيد والإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي اللّه والكفر به.

(٧٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله والحال أنهم لا يملكون لهم رزقًا من السموات والأرض، فلا ينزلون مطرًا، ولا رزقًا، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئًا، ولا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لو أرادوا.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسموات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها؟!

(٧٤) ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فقد ضرب اللّه تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه:

(٧٥) المثل الأول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ مثل رجلين: أحدهما عبد رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئًا، والثاني: حر غني قد رزقه اللّه منه رزقًا حسنًا من جميع أصناف المال ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وهو كريم محب للإحسان ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾. ولم يقل: (يستويان)؛ لمكان (من) لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وقيل: (إن عبداً مملوكاً)، (ومن رزقناه) أريد بهما الشيوع في الجنس، والمعنى: هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان، مع أنهما مخلوقان غير محال استواؤهما، فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق والعبد الذي

(٧٥)، (٧٦) أخرج الطبراني في «تفسيره» والواحدي في «أسباب النزول» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده. وفي قوله ﴿مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير، ذاك مولى عثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما.

ليس له ملك ولا قدرة بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء؟!! ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوّى المشركون آلهتهم بالله؟ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرءوا على الشرك العظيم ﴿وَ﴾.

(٧٦) والمثل الثاني: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق ﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، ﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ يبعثه ﴿لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ لا ينجح مسعاه ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ وهو الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عبد من دون الله، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئًا منها.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هو تعالى المنفرد بغيب السموات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ في قرب كونها ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياؤه للموتى.

(٧٨) ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو المنفرد بهذه النعم، حيث ﴿أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ ولا تقدرون على شيء.

ثم إنه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾

خص هذه الأعضاء الثلاثة؛ لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا يصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

(٧٩) ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ألم ينظر هؤلاء المشركون ﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذللات ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الهواء ما بين السماء والأرض، ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ بقدرته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بآيات الله،

المتفكرون فيما جعلت آية عليه، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة، وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على حكمته وعلمه الواسع، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك اللّٰه رب العالمين.

(٨٠) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكِنُّكم من الحر والبرد، وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه من صوف وشعر ووبر ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة الحمل، تكون لكم ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ في السفر والمنازل، التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا﴾؛ أي: الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾؛ أي: الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾؛ أي: المعز. والضمير عائد على الأنعام، ﴿أَثَٰثًا﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك، ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها.

(٨١) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ﴿ظِلَٰلًا﴾ وذلك كأظلة الأشجار والآكام ونحوه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مغارات تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ ألبسة وثيابًا من القطن والكتان والصوف ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يذكر اللّٰه البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم؛ فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وثيابًا تقيكم وقت البأس والحرب، وذلك كالدروع والزرود ونحوها ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إذا ذكرتم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تُسْلِمُونَ﴾ لعظمته، وتنقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليها ومسديها.

(٨٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الله، وعن طاعته بعدما ذُكِّروا بنعمه وآياته ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء، بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير، والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك فحسابهم على الله.

(٨٣) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾؛ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره!.

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه اللّٰه أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم: الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ

كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار؛ لأنه اعتذار كاذب، لا يفيدهم شيئًا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وإن طلبوا الرجوع إلى الدنيا؛ ليستدركوا، لم يجابوا ولم يعتبروا.

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أشركوا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه؛ لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقرون بها، ويفتضحون.

(٨٦) ثم أخبر تعالى عن تبرئة آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ يوم القيامة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾، أي: الذين كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقًا للألوهية، فاللوم عليكم.

(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْاْ﴾؛ حينئذ؛ أي: المشركون ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾؛ أي: استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وزال عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من أنها تشفع لهم.

(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ يذكر الله تعالى في هذه الآية عاقبة المجرمين حيث كفروا، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

٢٧٧

العذاب ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ كما تضاعف جرمهم، وأفسدوا في أرض الله.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ نبيًا أو رسولاً من بني جنسهم؛ لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم منها ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ بيانًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة، ومعانٍ جلية ﴿وَهُدًى﴾ لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة، فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

والآخرة ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾ بشارة ﴿لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين الطائعين لأمره ونهيه.

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ﴾ في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالإنصاف ومن الإنصاف التوحيد وعدم الإشراك به، ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ إلى الخلق ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يأمر بصلة الأرحام، وخصهم اللَّه لتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، وغير ذلك من الفواحش ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية تتعلق بحق اللَّه تعالى ﴿وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ كل عدوان على الخلق في الدماء، والأموال، والأعراض، ﴿يَعِظُكُمۡ﴾ بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرتكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به، فتفهمونه وتعقلونه.

(٩١) ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان بها برًّا، ويشتمل ما تعاقد عليه هو وغيره؛ كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ نهى اللَّه عن نقضها ﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم اللَّه تعالى ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيها المتعاقدون ﴿كَفِيلًاۚ﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم اللَّه عليكم كفيلاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على صفة متعاطيها، وذلك ﴿كَٱلَّتِي﴾ تغزل غزلاً قويًّا، فإذا استحكم

---

(٩٠) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث أبي بكرة الصحيح عن النبي ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

(٩١) أخرج الإمام أحمد والبخاري والبيهقي بإسنادهم عن نافع قال: لمّا خلع النّاس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهْله، ثمّ تشهد، ثمَّ قال: أمَّا بعد، فإنَّا قد بايعنا هذا الرّجل على بيع الله ورسوله، وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان» وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلًا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يشرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صَيْلَمٌ - أي: قطيعة - بيني وبينه.

وتم ما أريد منه ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ أنقاضًا؛ فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

(٩٤) ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ عهودكم ومواثيقكم ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ خديعة وفسادًا تبعًا لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب الذي يسوؤكم ويحزنكم، ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حيث ضللتم، وأضللتم غيركم، ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مضاعف.

(٩٥) ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل ما بين العوضين.

(٩٦) فآثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإن ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ ولو كثر جدًا، لا بد أن ﴿يَنفَدُ﴾ ويفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ ببقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على طاعة الله وعن معصيته وفطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم، ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(٩٧) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عملًا مشروعًا من عند الله ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالاً طيبًا من حيث لا يحتسب ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٩٨) ثم لما منَّ الله تعالى على النبي ﷺ بإنزال كتاب جامع لصفات الكمال، وأنه تبيان لكل شيء، قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: فإذا أردت قراءة هذا الكتاب الشريف الذي نبهت على بعض ما اشتمل عليه ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها، فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة من شره، فيقول القارئ «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متدبرًا لمعناها، معتمدًا بقلبه على الله في صرفه عنه، والمقصود إرشاد الأمة،

---

(٩٦) أخرج الإمام أحمد وغيره بإسناد حسن لغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

(٩٧) أخرج مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

٢٧٩

والاستعاذة أمر ندب وليس بواجب، نقل الإجماع على ذلك ابن جرير وغيره، وجمهور العلماء على أنها قبل القراءة لا بعدها.

(٩٩) فـ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ تسلط وحجة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيدفع اللّه عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ تسلطه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يجعلونه وليًا، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أشركوا في عبادة الله.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان، وقد كتبت عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها ﴿قَالُوٓا۟﴾ للرسول ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍ﴾ مختلق، تتقوله من تلقاء نفسك، فرد اللّه عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ منهم جهال، لا علم لهم بربهم ولا بشرعه ولا بكتابه.

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: نزوله من عند اللّه بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتًا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئًا فشيئًا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ويبشرهم أن لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبدًا، وأيضًا فإنه كلما نزل شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه.

(١٠٣) يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله وافترائهم قائلاً: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ

(١٠٣) أخرج الطبري والواحدي في «أسباب النزول» والبغوي في «معجم الصحابة» وغيرهم بإسناد صحيح عن عبيد بن مسلم الحضرمي، قال: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، يسمى أحدهما: يسار، والآخر: جبر، وكانا يقرآن كتابًا لهما، فربما مرَّ رسول الله ﷺ فقام عليهما، فقال المشركون: إنما يتعلم محمد منهما. فأنزل الله ﷿ هذه الآية.

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بَشَرٌۗ﴾ ثم بين تعالى لسان هذا البشر، فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ﴾ أي: لسان الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ هل هذا القول ممكن؟! أو له حظ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يئول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

(١٠٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحرمانه، وخذلان اللَّه لهم ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب موجع.

(١٠٥) ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ إنما يصدر افتراء الكذب من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم، وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات اللَّه، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على اللَّه، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم؛ فأظهر اللَّه خزيهم وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد.

(١٠٦) يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ فعمي بعدما أبصر، ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ هذا بخلاف ممن هو كاره مجبر عليه ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ راغب فيه غير معتقد بما قاله من الكفر الذي أكره عليه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ وشرح صدره بالكفر راضيًا به مطمئنًا ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ في غاية الشدة، مع أنه دائم أبدًا.

(١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم طمعًا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهدًا في خير الآخرة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم اللَّه الهداية، فلم يهدهم؛ لأن الكفر وصفهم.

(١٠٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ فطبع على قلوبهم، فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم؛ فردوها، وعرضت عليهم؛ فلم يقبلوها.

(١٠٩) ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

(١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

٢٨٠

المشركين بعد ذلك بأن يهديهم بالسيف، وبألسنتهم بالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون الله ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد تلك الفتنة والغفلة ﴿لَغَفُورٞ﴾ لذو ستر على ما كان منهم من إطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون وللإيمان معتقدون ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.

(١١١) ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ كل يقول: نفسي، لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

(١١٢) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل في سواها، وكذلك كان ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ هنيئًا سهلاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر اللَّه لها الرزق يأتيها من كل مكان ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ جحدت آلاء اللَّه عليها، وأعظمها بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ أذاقهم اللَّه ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع والخوف الذي هو ضد الأمن وذلك ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وعدم شكرهم.

(١١٣) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ﴾ يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ جحدوا رسالته، وأنكروا نبوته، وحاربوا دعوته، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ عذاب الجوع والخوف ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ والحال أنهم ظالمون لأنفسهم حيث عرضوها بكفرهم إلى العذاب.

(١١٤) ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم اللَّه من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ حالة كونها متصفة بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثرًا عن حد ونحوه.

فتمتعوا بما خلق اللَّه لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على اللَّه بها، وصرفها في طاعة الله ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

(١١٥) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾ الأشياء المضرة؛

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

تنزيهًا لكم، ومن ذلك ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى منه: ميتة الجراد والسمك.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر، ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصود به الشرك، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلى شيء من المحرمات بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك فلا جناح عليه إذا كان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر للمضطر ويرحمه، فيأذن له في الأكل؛ دفعًا للضرر.

(١١٦) ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذبًا وافتراءً على اللَّه وتقولاً عليه ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فتقولون: إن اللَّه أمرنا بهذا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر اللَّه خزيهم.

(١١٧) وإن تمتعوا في الدنيا؛ فإنه ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع في الآخرة.

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وأما الذين هادوا فحرم اللَّه عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

(١١٩) ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ أي: اقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة والذلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن اللَّه يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته، ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

(١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إمامًا جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مديمًا لطاعة ربه، مخلصًا له الدين، ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلاً

على اللَّه بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضًا عما سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله وجميع أحواله؛ لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

(١٢١) ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ آتاه اللَّه في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ ربه، واختصه بخُلَّته، وجعله من صفوة خلقه وخيار عباده المقربين ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في علمه وعمله، فعلم الحق وآثره على غيره.

(١٢٢) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ رزقًا واسعًا، وزوجة حسناء، وذرية صالحة، وأخلاقًا مرضية، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من اللَّه تعالى.

(١٢٣) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته.

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ فرضًا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم: اليهود، فصار اختلافهم سببًا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى اللَّه هذه الأمة إليه، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب، ممن استحق العذاب.

(١٢٥) ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح، ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ كل أحد على حسب حاله وفهمه، وقوله وانقياده، ومن الحكمة: الدعوة بالعلم، لا بالجهل، والبدأة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ وهو: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد اللَّه للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ وهي: الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا، ومن ذلك: الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق، لا المغالبة ونحوها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أعلم بالسبب الذي أداه إلى الضلال، ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازيه عليها، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم مَنَّ عليهم فاجتباهم.

(١٢٤) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد».

(١٢٦) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة، وعفوتم عن جرمهم، ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة.

(١٢٧) ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم فلم ترَ منهم قبولاً لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾ شدة وحرج ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين.

(١٢٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بعونه ونصره وتوفيقه وتسديده، وهذه معية خاصة، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أحسنوا في عبادة الله بأن عبدوه وحده، كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

سورة الإسراء

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

سُورَةُ الإِسْرَاءِ — مكية — آياتها ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

٢٨٢

(١) ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها؛ لأن له الأفعال العظيمة، والمنن الجسيمة التي من جملتها أنه ورسوله محمد ﷺ ﴿لَيْلًا﴾؛ أي: في جنح الليل ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ مسجد الكعبة الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بيت المقدس الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾؛ أي: محمدًا ﷺ ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾؛ أي: العظام ﴿إِنَّهُۥ

---

(١٢٦) أخرج الترمذي والنسائي في «التفسير» بإسناد حسن من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فيهم: حمزة، فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا ـ من المشركين ـ لَنُرْبِيَنَّ عليهم، قال: فلما كان يوم فتح مكة، قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم، فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ أمَّن الأسود والأبيض، إلا فلانًا وفلانًا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾، فقال رجل: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «كفُّوا عن القوم إلا أربعة»، وفي رواية: «نصبر ولا نعاقب».

هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بهم فيعطي كلاًّ منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

وقد تواترت الأخبار الصحاح على أن رسول اللَّه ﷺ أسري بروحه وجسده يقظة لا منامًا؛ لأنه لو أسري بروحه دون جسده لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلاً على نبوته، ولا حجة على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكرًا عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة عام، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل.

(٢) ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد صلوات الله وسلامه عليه، عطف بذكر موسى عبد ه وكليمه عليه السلام أيضا، فإنه تعالى كثيرًا ما يقرن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ، وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾؛ أي: ليعبدوا اللَّه وحده، وينيبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلاً ومدبرًا لهم في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا، ولا ينفعونهم بشيء.

(٣) ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فيه تهييج وتنبيه على المنة؛ أي: يا ذرية من مننا عليهم، وحملناهم مع نوح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره، ويتابعوه عليه.

(٤) ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾؛ أي: لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، فيفجرون ويتجبرون على الناس.

(٥) ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما؛ أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعثًا قدريًا، وسلطنا عليكم تسليطًا كونيًا جزائيًا، ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي شجاعة وعدد وعدة، فنصرهم اللَّه عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجامحين لا يخافون أحداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلطين،

---

(٣) أخرج الشيخان في حديث الشفاعة الطويل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» الحديث وفيه: «فيأتون نوحًا، فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله: عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك».

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، جلها موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد.

(٦) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ الدولة والرجعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجليتموهم من دياركم ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أكثرنا أرزاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم.

(٧) ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ وإن عصيتم الله وركبتم ما نهاكم عنه ﴿فَلَهَا﴾ فعليها يعود الضرر كما أراكم اللَّه من تسليط الأعداء، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: المرة الأخرى التي تفسدون فيها في الأرض؛ سلطنا عليكم الأعداء ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والمراد بالمسجد: مسجد بيت المقدس ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ وليدمروا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميراً.

(٨) ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط اللَّه عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم اللَّه به منهم، فهذا جزاء الدنيا، وما عند اللَّه من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ يَصْلونها، ويلازمونها، لا يخرجون منها أبدًا.

(٩) ثم أخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

٢٨٣

فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾؛ أي: الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ ﴿يَهْدِي﴾ يرشد ويسدِّد من اهتدى به ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أعدل وأعلى، من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والسنن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعده اللَّه لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

(١٠) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأما الذين يكفرون بالآخرة فقد ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ هيأنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يوم القيامة في جهنم.

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ﴾ يخبر تعالى عن جهل الإنسان، حيث يدعو على نفسه أو ولده أو ماله في بعض الأحيان كالغضب ﴿بِالشَّرِّ﴾ بالهلاك والموت

واللعنة والدمار ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ أن يهب له النعمة والعافية، فلو استجاب له ربه دعاءه على نفسه كاستجابته دعاءه لنفسه لهلك بدعائه، ولكن الله لا يستجيب بفضله، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ وإنما يحمل الإنسان على ذلك عجلته وقلقه.

(١٢) ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ دالتين على كمال قدرة اللَّه وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة، ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ مضيئة ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ في معايشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم، ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم، ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ بينا الآيات وصرفناه؛ لتتميز الأشياء، ويتبين الحق من الباطل.

(١٣) ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه؛ أي: ما عمل من خير وشر يجعله اللَّه ملازمًا له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ﴾؛ أي: يؤتاه ﴿مَنشُورًا﴾ فيه عمله من الخير والشر، حاضرًا صغيره وكبيره.

(١٤) ويقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك؛ ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

(١٥) ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ هداية كل أحد لنفسه وثوابه لها ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ وضلالة كل أحد على نفسه؛ لأن عليها عقابه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من شر ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ فاللَّه تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة اللَّه تعالى فإن اللَّه تعالى لا يعذبه.

(١٦) ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر منعميها وأغنياءها أمرًا قدريًا ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ واشتد طغيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ حقت عليهم كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ خربناها وأهلكنا من فيها.

(١٧) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ يخبر اللَّه تعالى منذرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ

---

(١٣) أخرج الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا، عبدك فلان، قد حبسته، فيقول الرب عز وجل: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت».

(١٥) أخرج أبو يعلى والبزار حديث أنس بن مالك الصحيح لغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالموءودة، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهَرِم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب ـ تبارك وتعالى ـ لعنق من النار: ابرز. ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب، أنى ندخلها ومنها كنا نفر؟! قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي؛ فيقتحم فيها مسرعًا، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لرسلي أشد تكذيبًا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار».

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

بأنه أهلك أممًا من المكذبين ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من بعد قوم نوح؛ كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله، لما كثر بغيهم واشتد كفرهم، أنزل اللَّه بهم عقابه العظيم، ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

(١٨) يخبر تعالى أن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ أي: الدنيا المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ و المنتهى ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن اللَّه يجعل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب اللَّه له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾؛ أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ في حالة الخزي والفضيحة والذم من اللَّه ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له العذاب والفضيحة.

(١٩) ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ التي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً منمى مدخرًا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

(٢٠) ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ ومع هذا؛ فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلاًّ يمده اللَّه منها؛ لأنه عطاؤه وإحسانه ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعًا من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه.

(٢١) ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل اللَّه العباد بعضهم على بعض بها، ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

(٢٢) ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب مع النبي ﷺ والمراد المكلفون من الأمة، لا تعتقد أيها المكلّف أن أحدًا من المخلوقين يستحق في العبادة شيئًا، ولا تشرك باللَّه أحدًا منهم، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرب لا ينصرك، بل يكلك إلى نفسك ومن عبدت معه.

(٢٣) ولما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء دينيًا وأمرًا شرعيًا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أحدًا من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من كل صفة أعظمها على وجه لا يشبهه أحد من خلقه.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان: القولي والفعلي؛ لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكد الحق، ووجوب البر ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾؛ أي: إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه، والمعنى: لا تؤذهما أدنى أذية ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: تزجرهما وتتكلم لهما كلامًا خشنًا ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه، وتأدّب وتلطّف معهما بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان

(٢٤) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ تواضع لهما ذلاً لهما ورحمة، واحتسابًا للأجر ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ ادع لهما بالرحمة أحياءً وأمواتًا؛ ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ جزاء على تربيتهما إياك صغيرًا.

(٢٥) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أموالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وما فيها من الخير والشر ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾ فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ومحبة ما يقرب إليه، فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

(٢٦) يقول تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من البر والإكرام، الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمنة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ آته حقه من الزكاة ومن غيرها؛ لتزول مسكنته ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾

(٢٣) أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﵁ الصحيح لغيره؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنفُ رجلٍ ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورغِم أنف رجل أتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له، ورغِم أنف رجل أدرك أبويه ولم يدخلاه الجنة».

(٢٦) أخرج الإمام أحمد والحاكم بإسناد صحيح من حديث أنس ﵁ قال: أتى رجل من بني تميم النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك؛ فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل، والجار، والمسكين». فقال: يا رسول الله، أقلل لي، قال: «فـ﴿ـآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾». فقال: حسبي يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك، فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أديتها إلى رسولي؛ فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها».

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

٢٨٥

وهو: الغريب المنقطع به عن بلده، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، يعطي الجميع من المال على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائدًا على المقدار اللائق.

(٢٧) ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أشباههم في ذلك أي: في التبذير والسفه، وترك طاعة الله، وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ جحودًا لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته.

(٢٨) ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ لطيفًا برفق، ووعد بالجميل عند سنوح الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر؛ لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم.

(٢٩) ثم قال تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبخل، ناهياً عن السَّرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة لإمساك والبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتنفق فيما لا ينبغي، وزيادة على ما ينبغي، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ إن فعلت ذلك تلام على ما فعلت ﴿مَّحْسُورًا﴾ حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

(٣٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيقه على من يشاء؛ حكمة منه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فيجزيهم على ما يعلمه صالحًا لهم، ويدبرهم بلطفه وكرمه.

(٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ وهذا من رحمته بعباده؛ حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ خوفًا من الفقر والإملاق، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وتكفل برزق الجميع، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾؛ أي: من أعظم كبائر الذنوب؛ لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم والتجرؤ على قتل الأطفال الذين لم يجرِ منهم ذنب ولا معصية.

(٢٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد من ثديِهما إلى تراقيهما، فأمَّا المنفق فلا ينفق إلا سبغت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع».

(٣٢) ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ النهي عن قربان الزنى أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، ﴿وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾؛ أي: بئس السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وهذا شامل لكل نفس حرم اللَّه قتلها: من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ بغير حق ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ حجة ظاهرة على القصاص من القاتل ﴿فَلَا يُسۡرِف﴾ الولي ﴿فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ والإسراف: مجاوزة الحد؛ إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ إن ولي المقتول منصور على القاتل شرعاً، وغالباً قدراً.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أنْ أمَر أولياءه بحفظه، وحفظ ماله، وإصلاحه، وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن ﴿يَبۡلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُۥۚ﴾ أي: بلوغه وعقله ورشده ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ الذي عاهدتم اللَّه عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه، ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾؛ أي: مسئولين عن الوفاء به، فإن وفيتم؛ فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفعلوا؛ فعليكم الإثم العظيم.

(٣٥) ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى: النهي عن كل غش في ثمن، أو مثمن، أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ من بخسكم إياهم ذلك ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها اللَّه لعبادته أن يُعِدَّ للسؤال جوابًا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه اللَّه

(٣٢) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه؛ فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريبًا، فقال: «اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟». قال: لا والله، يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟». قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾

تعالى.

(٣٧) ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ كبرًا وتيهًا وبطرًا، متكبرًا على الحق ومتعاظمًا في تكبرك على الخلق، إنك في فعلك ذلك ﴿لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ لن تقطع الأرض بمشيتك ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ ولا تقدر أن تطاول الجبال، بل تكون حقيرًا عند الله، ومحتقرًا عند الخلق، مبغوضًا ممقوتًا، قد اكتسبت شر الأخلاق، واكتسيت بأرذلها من غير إدراك لبعض ما تروم.

(٣٨) ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾؛ أي: يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ فإن الحكمة: الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال، وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرًا كثيرًا ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك، فقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ خالدًا مخلدًا، فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله الجنة ومأواه النار.

﴿مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

(٤٠) ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم: أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾ واتخذ لنفسه من الملائكة إناثًا؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ فيه أعظم الجرأة على الله؛ حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكمتم له بأردأ القسمين، وهو: الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور؟!، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

---

(٣٦) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث».

(٣٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بردان يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

(٤١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن، أي: نوّع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين وبينها ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه، وما يضرهم فيدعوه، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ولكن أبى أكثر الناس إلا نفورًا عن آيات الله؛ لبغضهم للحق، ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، ومن أعظم ما صرفه فيه الآيات والادلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، فأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً.

(٤٢) ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قُل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: على موجب زعمهم وافترائهم ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ لاتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته، والإنابة إليه، والتقرب، وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهًا مع الله؟!!

(٤٣) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فعَلا قدره وعظم، وجلت كبرياؤه التي لا تقادر، أن يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبينًا، وظلم ظلمًا كبيرًا.

(٤٤) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجماد، وحي وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ بلسان الحال، ولسان المقال ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، ولا يحيط بها إلا علام الغيوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السموات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال، ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، ودعاهم إلى بابه؛ ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته؛ لسقطت السموات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

---

(٤٤) أخرج الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج، فقال: «ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس - أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس - ورفع كل راع ابن راع». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته، وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل». ثم قال: «إن نبي الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة، قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة؛ رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة؛ قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر». قال: قلت - أو قيل -: يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ هو أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا». قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا». قلت، أو قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه الحق، وغمط الناس».

(٤٥) ثم أخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين الذين ردوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان والخير، والعلم الكثير ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ يسترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه، والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

(٤٦) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونه سماعًا تقوم به عليهم الحجة ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صممًا عن سماعه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ داعيًا لتوحيده، ناهيًا عن الشرك به ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ من شدة بغضهم له، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

(٤٧) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن؛ لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة، يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة؛ لم يفده الاستماع شيئًا، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾؛ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في مناجاتهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما

نصف الحزب ٢٩

قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

٢٨٧

قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

(٤٨) ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد متعجبًا ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فَضَلُّوا۟﴾ في ذلك، أو صارت سببًا لضلالهم؛ لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لا يهتدون أدنى هداية، فنصيبهم الضلال المحض، والظلم الصرف.

(٤٩) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾؛ أي: أجسادًا بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: لا يكون ذلك. فجهلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسول الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة،

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم، لا يقدرون عليه، جعلوا قدرة اللّه كذلك.

(٥٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين للبعث استبعادًا: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ في الشدة والقوة.

(٥١) ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ﴾ يعظم ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته؛ فإنكم غير معجزي اللّه في أي حالة تكونون، وعلى أي وصف تتحولون، وليس في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات، فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ من يبعثنا بعد الموت؟ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، فإنه سيعيدكم خلقًا جديدًا ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يهزونها إنكارًا وتعجبًا مما قلت ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ متى وقت البعث، الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرارًا منهم لأصل البعث، بل ذلك سفه منهم وتعجيز ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقرير والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

(٥٢) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من القبور للبعث والنشور، وينفخ في الصور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ تنقادون لأمره، ولا تستعصون عليه، وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾؛ أي: هو المحمود تعالى على فعله، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

(٥٣) ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر بكل كلام يُقَرِّب إلى الله؛ من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع بينهما، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، ف ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

(٥٤) ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئًا والخير في عكسه، ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ ويخذل من شاء، فيضل عنها فيستحق العذاب ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما اللّه هو الوكيل، وأنت مبلغ هادٍ إلى صراط مستقيم.

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلًّا منهم ما

---

(٥٣) أخرج الإمام أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشيرن أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من نار».

(٥٥) أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته لتسرج فكان يقرأ قبل أن يفرغ»؛ يعني: القرآن.

يستحقه وتقتضيه حكمته، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ﴾ فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما مَنَّ به عليهم من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وهو الكتاب المعروف، وذلك تنبيه على فضله وشرفه.

(٥٦) يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أندادًا يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزمًا لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ فانظروا هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم الضر؟ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضًا ﴿تَحْوِيلًا﴾ له من شخص إلى آخر، من شدة إلى ما دونها.

(٥٧) ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ أي: يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فلا تتم العبادة إلا بالخوف

سورة الإسراء — الجزء الخامس عشر

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

٢٨٨

والرجاء، فبالخوف يكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾؛ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ ما من قرية من القرى المكذبة للرسل ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أو عذاب شديد ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ كتاب كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله، وتصديق رسله قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

(٥٧) في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم النفر من الجن، واستمسك الإنس بعبادتهم، فنزلت: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي اقترحها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفًا من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها عاجلهم العقاب، وحلَّ بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً﴾ ومن أعظم الآيات: الآية التي أرسلها اللّه إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص اللّه علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فتَرْكُ إنزالها والحالة هذه خير لهم وأنفع، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾؛ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان، الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب؛ ليرتدعوا عن ما هم عليه.

(٦٠) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ علمًا وقدرة، فليس لهم ملجأ يلجئون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كافٍ لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه اللّه الذي أحاط بالناس ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾ أكثر المفسرين على أنها رؤيا عين رآها رسول اللّه ﷺ ليلة الإسراء؛ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾؛ أي: اختبارًا وامتحانًا، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ﴾ التي ذكرت ﴿فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس، حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفًا رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقًا للعادة، والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟!! ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التحلي بالشر ومحبته، وبغض الخير وعدم الانقياد له.

(٦١) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ ينبه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق اللّه آدم عليه السلام استكبر عن السجود له، و﴿قَالَ﴾ متكبرًا: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾؛ أي: من طين.

(٦٢) فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مخاطبًا لله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ أخبرني ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ فضلته عليَّ ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ﴾ أمهلتني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يوم يبعثون ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

---

(٥٩) أخرجه الإمام أحمد والنسائي في «التفسير» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال؛ فيزرعوا، قال الله عز وجل: «إن شئت آتيناهم ما سألوا، فإن كفروا؛ أهلكوا كما أهلك من قبلك، وإن شئت نستأني بهم لعلنا ننتج منهم، فقال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً﴾».

(٦٣) فـ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مدخرًا لكم، موفرًا جزاء على أعمالكم.

(٦٤) ثم أمره اللَّه أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله، والمقصود: أن اللَّه ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية اللَّه بأقواله وأفعاله، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم، ﴿وَعِدْهُمْ﴾ الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلاً مضمحلاً.

(٦٥) ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تسلط وإغواء، بل اللَّه يدفع عنهم كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفايتهم، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

(٦٦) ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٢٨٩

يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر الملتطم، يحملها على ظهره؛ ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهذا من رحمته بعباده، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

(٦٧) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وإذا مسهم

---

(٦٥) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لَيُنْضِي شيطانه - أي: يهزله - كما يُنْضِي أحدكم بعيره في السفر».

(٦٧) أخرج أبو داود والنسائي والبيهقي وأبو يعلى - واللفظ له - بإسناد صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: «اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خَطَل، ومِقْيَس بن صُبابة، وعبد الله بن أبي سرح؛ ... وأما عكرمة؛ فركب البحر، فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا؛ فإن آلهتكم لا تغني هاهنا. فقال عكرمة: لئن لم =

الخوف والشدة في البحر، فخافوا من الهلاك؛ لتراكم الأمواج ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بطل وسقط عنهم ما كانوا يدعون من دون اللّه في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات؛ لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات، الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ فلما كشف اللّه عنهم الضر ونجاهم إلى البر؛ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ وهذا من جهل الإنسان وكفره؛ فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى اللّه فمنَّ عليه بالعقل السليم، واهتدى إلى الصراط المستقيم.

(٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ بعد ذلك ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ يغور بكم ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ناحية البر، وهي الأرض ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يمطر عليكم حجارة من السماء، فهو على كل شيء قدير، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ناصرًا يرد عنكم، وينقذكم منه.

(٦٩) ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ ريحًا شديدة جدًا تقصف ما أتت عليه ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ تبعة ومطالبة، فإن اللّه لم يظلمكم مثقال ذرة.

(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره؛ حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم، والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ في السفن والمراكب ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس والمناكح ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

(٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس ومعهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم: الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ لكونه اتبع إمامه الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناته وقلت سيئاته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ مما عملوه من

= ينجني في البحر إلا الإخلاص فما ينجيني في البر غيره، اللهم إنَّ لك عليَّ عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوًا كريمًا. قال: فجاء فأسلم.

الحسنات.

(٧٢) ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن الحق؛ فلم يقبله، ولم ينقد له، بل اتبع الضلال، ﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن سلوك طريق الجنة، كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، كما تدين تدان.

(٧٣) ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك على أن تفتري على اللّه غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل اللّه إليك ﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ حبيبًا صفيًا.

(٧٤) ﴿وَ﴾ مع هذا فـ ﴿لَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ قريبًا من الفعل، من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

(٧٥) ﴿إِذًا﴾ لو ركنت إليهم بما يهوون ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لأصبناك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ناصرًا وحافظًا يمنعك من عذابنا.

(٧٦) ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ المشركون ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ ليستخفونك من أرض مكة ليخرجوك منها ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بعدك إلا قليلاً حتى يهلكهم الله.

(٧٧) ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

٢٩٠

هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب، ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

ولولا أن محمدًا ﷺ رسول الرحمة والهداية لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(٧٨) ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأمر تعالى نبيه محمد ﷺ بإقامة الصلاة تامة، ظاهراً وباطناً، في أوقاتها ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة

---

(٧٨) في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

العصر ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ صلاة الفجر، وسميت: قرآنًا؛ لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة، حيث يشهدها اللَّه وملائكة الليل وملائكة النهار. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾

(٧٩) وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ زيادة لك في علو الهمة ورفع الدرجات، وصلاة الليل واجبة في حقه ﷺ بهذه الآية -على أحد قولي العلماء-، وعلى أمته مندوب إليه مرغب فيه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾؛ أي: افعل هذا الذي أمرتك به؛ لنقيمك يوم القيامة مقامًا يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى.

والمقام المحمود: هو مقام الشفاعة لأمته؛ لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون.

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يئول إليه الخروج والدخول من النصر والعز ودولة الدين، كما وصف القدم بالصدق، فقال: ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: ٢]، ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ حجة ظاهرة وبينة واضحة.

(٨١) ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ والحق هو ما أوحاه اللَّه إلى رسوله محمد ﷺ، ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ اضمحل باطل الكفار وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، كما في قوله: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل ويهلك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمنة والأمكنة الخالية في العلم بآيات اللَّه وبيناته.

(٨٢) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ نحا القرآن كله شفاء من أمراض القلوب، كالشك والنفاق والزيغ، ومن أمراض الأبدان، من آلامها وأسقامها ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان، والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ به، المصدقين بآياته ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا؛ إذ به تقوم عليهم الحجة.

(٨٣) ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه اللَّه، فإن الإنسان - عند إنعام اللَّه عليه - يفرح بالنعم،

---

(٧٩) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل».
وفي «صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس تدنو، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك. ثم بموسى، فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذٍ يبعثه الله مقامًا محمودًا، يحمده أهل الجمع كلهم».

(٨١) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾».

ويبطر بها، ويعرض عن ذكر اللّه ودعائه، ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تباعد عن ربه، فلا يشكره، ولا يذكره، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه، ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبدًا.

(٨٤) ﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ من الناس ﴿يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على ما يليق به من الأحوال: إن كانوا من الصفوة الأبرار؛ لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين، ومن كان من غيرهم من المخذولين؛ لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم، ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ فيعلم من يصلح للهداية فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

(٨٥) ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي يقصد بها التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر اللّه رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾؛ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ أي: في جنب علم الله

وفي هذه الآية دليل على ان المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يُعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

(٨٦) ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾

ع ١٠

٢٩١

---

(٨٥) في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في بعض ضرب المدينة، وهو يتوكأ على عَسِيب ـ عصا من جريد ـ معه، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم: لا تسألوه؛ لا يجيء بشيء تكرهونه. فقال بعضهم لبعض: لنسألنه. فقالوا: سلوه. فقام رجل منهم إليه، فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت عنه النبي ﷺ، فلم يرد عليه شيئًا، فقلت: إنه يوحى إليه، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي، فقمت مقامي، فلما انجلى عنه قال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه!

(٨٦) أخرج الطبري وعبد الرزاق والطبراني والدارمي من طرق يقوي بعضها بعضًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «يطرق الناس ريحًا حمراء من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية». ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

رسوله رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبيرا.

فالذي تفضل به عليك قادر على أن يذهب به ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ثم لا تجد رادًّا يرده، ولا وكيلًا يتوجه عند الله فيه.

(٨٧) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهذا استثناء منقطع، معناه: ولكن لإنشاء ذلك رحمة من ربك، ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ وهذا من فضل الله عليك، وفضله كبير، وخيره كثير، ومن ذلك: عموم رسالته للثقلين، وكونه خاتم الأنبياء، وعروجه إلى الملكوت الأعلى، وإمامته بالأنبياء، والمقام المحمود، فهو بحقٍّ سيد ولد آدم ولا فخر.

(٨٨) ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه؛ حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

(٨٩) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنينا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد؛ لأجل أن يتذكروا ويتّقوا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فلم يتذكر إلا القليل منهم، وأما أكثر الناس فأبوا إلا جحودًا للحق، وردًّا للصواب، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة.

(٩٠) ﴿وَقَالُوا۟﴾ للرسول ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ أنهارًا جارية.

(٩١) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾؛ أي: خلال الأشجار تفجيرًا.

(٩٢) ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعًا من العذاب ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ جميعًا أو مقابلة ومعاينة، يشهدون لك بما جئت به.

(٩٣) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾؛ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ رقيًّا حسيًّا، ﴿وَ﴾مع هذا ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لصعودك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أمرنا فيه باتباعك، ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم المتضمنة لرد الحق، وسوء أدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات أمره الله أن ينزهه فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ عما تقولون علوًّا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة، ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ليس بيده شيء من الأمر.

(٩٤) ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ أراد: أن الكفار كانوا يقولون: لن نؤمن لك لأنك بشر، وهلاّ بعث الله إلينك ملكاً جهلاً منهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم

بشرًا، وهذا من رحمته بهم أن أرسل إليهم بشرًا منهم؛ فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

(٩٥) فأجابهم الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين مقيمين، كما أنتم فيها عنهم ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ ليمكنهم التلقي عنه.

(٩٦) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناوأه فلو تقوّل عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين، فـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فإنه خبير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

(٩٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية، فمن يهده - فييسره لليسرى ويجنبه العسرى - فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضله فيخذله ويكله إلى نفسه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يحشرهم الله ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ خزيًا ﴿عُمْيًا﴾ لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي جمعت كل هم وغم وعذاب، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ تهيأت للانطفاء ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ سعرناها بهم، لا يفتر عنهم العذاب.

فإن قيل: كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم، وقد قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] أثبت الرؤية والكلام والسمع؟

قيل: يحشرون على ما وصفهم الله، ثم تعاد إليهم هذه الأشياء.

وجواب آخر: ﴿عُمْيًا﴾ لا يرون ما يسرهم ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون شيئًا يسرهم.

(٩٨) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته، وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل، ونطقت به الكتب، وعَجَّزُوا ربهم فأنكروا تمام قدرته

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

الحزب ٣٠ — ع ١١ — ٢٩٢

---

(٩٧) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم».

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

مكية — آياتها ١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ بالية نخرة ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: لا يكون هذا؛ لأنه في غاية البعد عن عقولهم الفاسدة.

(٩٩) ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وهي أكبر من خلق الناس ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير، ﴿وَ﴾ لكنه قد ﴿جَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بعد إقامة الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم. ظلمًا منهم.

(١٠٠) ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ التي لا تنفد ولا تبيد ﴿إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله، ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

(١٠١) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران الكليم إلى فرعون وقومه، وآتيناه ﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ كل واحدة منها تكفي لمن قَصْدُه اتباع الحق: كالعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص من الثمرات، واليد، وفلق البحر، فإن شككت في شيء من ذلك ﴿فَسۡـَٔلۡ﴾ يا محمد ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ موسى ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾ مع هذه الآيات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورًا﴾ عندك علم السحر، فهذه العجائب التي تفصلها من سحرك.

(١٠٢) ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجًا على قومك واستخفافًا لهم ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا﴾ ممقوتًا ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة.

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يجليهم ويخرجهم منها ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ ونجينا موسى وقومه، وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم.

(١٠٤) ولهذا قال: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد هلاك فرعون ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفًا﴾ جميعًا؛ ليجازى كل عامل بعمله.

(١٠٥) ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم؛ لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم

وعقابهم ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ بالصدق والعدل، والحفظ من كل شيطان رجيم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من أطاع اللَّه بالثواب العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصى اللَّه بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما يبشر به وينذر.

(١٠٦) ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا، فارقًا بين الهدى والضلال، والحق والباطل ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على مَهل؛ ليتدبروه، ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه، ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

(١٠٧) ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم اللَّه العلم النافع ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾؛ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له.

(١٠٨) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عما لا يليق بجلاله مما نسبه إليه المشركون، ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا خلف فيه ولا شك.

(١٠٩) ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ على وجوههم ﴿يَبْكُونَ﴾ والبكاء مستحب عند قراءة القرآن، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ خضوعًا لربهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

(١١٠) يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لعبادي: ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أيهما شئتم ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهى عن دعائه به، فأي اسم دعوتموه به حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ قراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذورًا؛ أما الجهر: فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه؛ سبوه وسبوا من جاء به، وأما المخافتة: فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ اتخذ بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا﴾ تتوسط فيما بينهما.

(١١١) ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع

---

(١٠٦) أخرج النسائي وابن جرير والحاكم بإسناد صحيح عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

(١٠٩) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «لا يلج النار من بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مسلم أبدًا».

(١١٠) في «الصحيحين» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾؛ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (١٥)

٢٩٤

الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل هو اللّه الأحد الصمد لم يلد ولم يولد، له الملك كله، فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لا يتولى أحدًا من خلقه ليتعزز به ويعاونه؛ فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات في الأرض ولا في السموات ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ عظمه وأجلّه بالإخبار بأوصافه العظيمة وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

سورة الكهف (*)

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الثناء عليه بصفاته، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وأجلُّ نعمه على أهل الأرض: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعل كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بيناً واضحاً جليًّا، نذيراً للكافرين، وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي: لم يجعل فيه اعجواجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً، مستقيماً، ولهذا قال:

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾؛ أي: مستقيماً ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده؛ أي: قدره وقضاءه، على من خالف أمره ﴿وَ﴾ أنزل اللّه على عبده الكتاب؛ ﴿يُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به وبرسله وكتبه ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي: الأعمال الصالحة؛ من واجب، ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الثواب الذي رتبه اللّه على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجلُّه: الفوز برضا الله، ودخول الجنة.

(*) في «الصحيحين» من حديث البراء رضي الله عنه قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة ـ أو سحابة ـ قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «اقرأ فلان؛ فإنها السكينة تنزلت عند القرآن أو تنزلت للقرآن».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عصم من الدجال».

(٣) ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد.

(٤) ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة.

(٥) ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ بهذا القول، افتروه وائتفكوه ﴿وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ﴾ الذين قلدوهم واتبعوهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه بالاتخاذ للولد ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾؛ أي: كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء.

(٦) ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه عليهم، ورحمة بهم - أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ مهلكها غمًا وأسفاً عليهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ أي: القرآن ﴿أَسَفًا﴾؛ أي: حزناً.

(٧) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض: من مآكل لذيذة، ومشارب، وملابس طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل، ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار؛ ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أصلح عملاً؛ وهو: أخلصه وأصوبه.

(٨) ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة، وزائلة منقضية.

(٩) ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ وهو الغار في الجبل ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ وهو الكتاب الذي رقمت فيه أسماؤهم وقصتهم ﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾؛ أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرهم لهم غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جدًا، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان.

ولم يخبرنا الله تعالى بمكان هذا الكهف، ولا في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه، ولا قصد شرعي، وقد تكلف كثير من المفسرين

---

(٧) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا خَضِرة حُلْوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

ربع الحزب ٣٠ — ع ١٤

فذكروا فيه أقوالاً لا تصح، وروايات لا تثبت، واللَّه أعلم بأي بلاد اللَّه هو، ولو كان فيه مصلحة دينية لأرشدنا اللَّه تعالى ورسوله إليه، ولكنه أعلمنا بصفته، ولم يعلمنا بمكانه.

(١٠) ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ الشباب ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير، ﴿وهيئ لنا من أمرنا رشدًا﴾ يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا.

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾؛ أي: أنمناهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ وهي: ثلاثمائة وتسع سنين.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لينظر عبادي فيعلموا بالبحث ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾؛ أي الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مبلغ مكث الفتية في كهفهم رقودًا ﴿أَحْصَىٰ﴾ أحفظ وأصوب ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ لما مكثوا في كهفهم ﴿أَمَدًا﴾ مقدار مدتهم.

(١٣) ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك ﴿نَبَأَهُم﴾ خبر أصحاب الكهف ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق الذي ما فيه شك، ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبان، وهذا من جموع القلة، يدل على أنهم دون العشرة، ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ باللَّه وحده لا شريك له، من دون قومهم، ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ فشكر اللَّه لهم إيمانهم، فزادهم إيمانًا وبصيرة.

(١٤) ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ صبرناهم وثبتناهم، فجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ لله في البحث عن الحق، أو بين يدي ملكهم الطاغية حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام، ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي خلقنا ورزقنا ودبرنا وربانا، هو خالق السموات الأرض، ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ﴾؛ أي: من سائر المخلوقات ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا﴾؛ أي: إن دعونا معه آلهة بعدما علمنا أنه الرب الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾ ميلاً عظيمًا عن الحق، وطريقًا بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك.

(١٥) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ﴾ لما ذكروا ما مَنَّ اللَّه به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم

بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ بحجة وبرهان على ما هم عليه من الباطل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ إنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم.

(١٦) ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: إذا حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك؛ لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا إلى بقائهم بين أظهرهم، وهم على غير دينهم ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ انضموا إليه واختفوا فيه، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقٗا﴾ وفيما تقدم أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةٗ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدٗا﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

(١٧) ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾؛ أي: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غارًا إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينًا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها؛ فتفسد أبدانهم بها، ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٖ مِّنْهُ﴾؛ أي: من الكهف؛ أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول المكث ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾؛ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرْشِدٗا﴾؛ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح.

(١٨) ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿أَيْقَاظٗا﴾كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم منفتحة؛ لئلا تفسد ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وهذا أيضًا من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيْهِ﴾؛ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطًا ذراعيه ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾؛ أي: الباب أو فنائه، هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين؛ فأخبر أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، في قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارٗا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبٗا﴾أي: لو اطلع عليهم أحد لولى هاربًا ولامتلأ قلبه خوفًا؛ لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل إليهم أحد، بالرغم من قربهم من المدينة جدًا، والدليل على قربهم: أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعامًا من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها؛ وذلك حتى يبلغ الكتاب أجله، فيوقظهم الله تعالى من رقدتهم.

(١٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ من نومهم الطويل

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢٩٦

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو كبيرهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم رقدتم في نومكم؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم فلهذا ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلًا، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أي: فضتكم، وكانوا قد استصحبوها من منازلهم ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أطيبه وألذه ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: قوت وطعام تأكلونه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يُعْلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ من الناس.

(٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ يعلموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم: أنهم بين أمرين؛ إما الرجم بالحجارة؛ فيقتلونهم أشنع قتلة؛ لحنقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال لا يفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم.

(٢١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يخبر تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف؛ ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فلولا أنه حصل العلم بحالهم لم يكونوا دليلًا على ما ذكر، وذلك -واللَّه أعلم- بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد اللَّه أمرًا فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد اللَّه حق لا شك فيه ولا مرية ولا بعد ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ اللَّه أعلم بحالهم

---

(٢١) في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ومآلهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾؛ أي: نعبد اللَّه تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم.

(٢٢) ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقوُّلهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم: من يقول: ثلاثة رابعهم كلبهم. ومنهم: من يقول: خمسة سادسهم كلبهم. وهذان القولان ذكر اللَّه بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب؛ فدل على بطلانهما ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ومنهم من يقول: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ وهذا ـ واللَّه أعلم ـ هو الصواب؛ لأن اللَّه أبطل الأولين، ولم يبطله؛ فدل على صحته ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشادًا إلى أن الأحسن في هذا المقام رد العلم إلى اللَّه تعالى؛ إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، ولكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ أي: تجادل وتحاج فيهم ﴿إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ مبنيًا على العلم واليقين ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾؛ أي: في شأن أهل الكهف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أَحَدٗا﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب، والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا.

(٢٣)، (٢٤) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهًا للرسول ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، فنهى اللَّه أن يقول العبد في الأمور المستقبلة: ﴿إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ﴾ من دون أن يقرنه بمشيئة الله؛ وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيب المستقبل، الذي لا يدري هل يفعله أم لا؟ وهل يكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذور محظور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله وحصول البركة فيه والاستعانة من العبد لربه، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ولما كان العبد بشرًا لا بد أن يسهو عن ذكر المشيئة، أمره اللَّه أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر؛ ليحصل المطلوب، ويندفع المحذور، ويؤخذ منه الأمر بذكر الله عند النسيان، ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره أن يسأله ذلك، فقال: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾.

(٢٥) ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾؛ أي: أصحاب الكهف ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ لما نهاه اللَّه عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف؛ لعدم علمهم بذلك، وكان اللَّه عالم الغيب والشهادة العالم بكل شيء، أخبره بمدة لبثهم، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة القمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ إذا سئلت عن

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

نصف الحزب ٣٠

لبثهم وليس عندك علم في ذلك فرد العلم إلى الله؛ لأن علم ذلك عنده وحده ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإن ذلك في غيب السموات والأرض، وغيبهما مختص به ﷻ، وقوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾؛ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه قضاءً وقدرًا، وخلقًا وتدبيرًا.

(٢٧) ﴿وَٱتۡلُ﴾ اتبع يا محمد ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ ما أوحى اللّه إليك ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل الذي ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذًا تعوذ به.

(٢٨) ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ وغيره أسوته في الأوامر والنواهي: أن يجالس ويحبس نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أول النهار وآخره ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ يريدون بذلك وجه الله، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا، فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه اللّه بأن أغفله عن ذكره ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ صار تبعًا لهواه ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ﴾ مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطٗا﴾ ضائعة معطلة.

(٢٩) ﴿وَقُلِ﴾ للناس يا محمد: هو ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾؛ أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه اللّه على لسان رسوله، فإذا بان واتضح ولم يبقَ فيه شبهة ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وليس في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ الإذن، وإنما ذلك تهديد

ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين، ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ إن يطلبوا الشراب؛ ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت من شدة حرارته ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ ينضج الوجوه من حره، فكيف بالأمعاء والبطون ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم ﴿وَسَآءَتۡ﴾ النار ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل.

(٣٠) ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعًا في ذلك شرع الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

(٣١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة المهيأة لإقامتهم في الجنات ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ حليتهم فيها الذهب ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو: الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو: ما رق منه ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ وهي: السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

(٣٢) ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين؛ أي: بستانين حسنين من أعناب ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ أطفنا جوانب الأعناب بنخل ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ وجعلنا وسط الأعناب الزرع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود، ولذلك قال:

(٣٣) ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرها وزرعها تامًّا، وأنها ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ لم تنقص من أكلها أدنى شيء ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

(٣٤) ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾؛ أي: لذلك الرجل ﴿ثَمَرٞ﴾؛ أي: عظيم، ﴿فَقَالَ﴾ صاحب الجنتين ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يخاطبه ويجاوبه ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد وخدم وأقارب.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٤٧

(٣٥) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾؛ أي: الكافر أخذ بيد المسلم يطوف به فيها، ويريه ثمارها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره للمعاد، فـ ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ﴾ لا أعتقد ﴿أَن تَبِيدَ﴾ تهلك ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ راقه حسنها، واغتر بزهرتها، لما رأى النخل الباسقات، والظلال الوارفات، والأنهار الجاريات، فتوهم أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وأنكر البعث والنشور، فقال:

(٣٦) ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ سيعطيني خيرًا من هاتين الجنتين، قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى يدل على تمرده وعناده.

(٣٧) ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ ناصحًا له، ومذكرًا له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟! وتجهل نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيرًا من جنتك.

(٣٨) ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فأقر بربوبية ربه، وانفراده فيها، والتزام طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحدًا من المخلوقين.

(٣٩) ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته، فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: هلاَّ إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها أضفت النعمة إلى موليها ومسديها، وحمدته عليها، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ لتكون شاكراً لله متسبباً لبقاء نعمته عليك؟!

ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام،

(٣٩) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي نبي الله ﷺ: «يا أبا هريرة، أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال: قلت: نعم، فداك أبي وأمي، قال: «أن تقول: لا قوة إلا بالله». قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم». قال: فقلت لعمرو: قال أبو بلج: قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟، فقال: لا، إنها في سورة «الكهف»: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

ولو مع قلة ماله وولده، إنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرَّض للزوال والعقوبة عليه والنكال فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت وإن فخرت عليَّ بكثرة مالك ولدك، ورأيتني أقل منك مالاً وولدًا، فإن ما عند اللَّه خير وأبقى، وفي هذا الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير، وفيه أيضا وفيها أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾أي: في الدار الآخرة﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا ﴿فَتُصْبِحَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾؛ أي: غائرًا لا يستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها.

(٤٢) فاستجاب اللَّه دعاءه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أصابه عذاب أحاط به واستهلكه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ ندم على شركه.

(٤٣) ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لما نزل العذاب بجنته ذهب عنه ما كان يفتخر به، ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان بنفسه منتصرًا، وكيف ينتصر أو يكون له انتصار على قضاء اللَّه وقدره؟!

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: في تلك الحال التي أجرى اللَّه فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحًا وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية الحق لله وحده، فمن كان مؤمنًا به تقيًّا؛ كان له وليًّا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه؛ خسر دينه ودنياه ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ جزاءً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾؛ أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

(٤٥) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ يا محمد، أي لقومك ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، وأن مثل هذه الحياة الدنيا ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ كمثل المطر ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، أو تنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين؛ ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرقه، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابًا، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وحصل درهمها ودينارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ قادر على هذه الحال، وهذه الحال.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

(٤٦) ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ التي يفتخر بها الناس ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس وراء ذلك شيء ﴿وَ﴾ أن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله وحقوق عباده؛ من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ فثوابها يبقى ويتضاعف على الآباد ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة.

(٤٧) يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة، فقال:

---

(٤٦) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن لغيره عن الحارث مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه: جلس عثمان يومًا، وجلسنا معه، فجاء المؤذن، فدعا بماء في إناء -أظنه أنه سيكون فيه مد-؛ فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر؛ غفر له ما كان بينهما وبين الصبح، ثم صلى العصر؛ غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب؛ غفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء؛ غفر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح؛ غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يذهبن السيئات». قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: «هي: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(٤٧) أخرج الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد» بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيرًا، ثم شددت عليه رحلي، فسرت عليه شهرًا، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله ابن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة عراة غرلاً بهمًا»، قلت: وما بهمًا؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه مَن بعُدَ، كما يسمعه مَن قَرُب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه، حتى اللطمة». قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عز وجل عراة غرلاً بهمًا؟ قال: «بالحسنات والسيئات».

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ يزيلها عن أماكنها، ويجعلها كثيبًا، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشى، وتكون هباءً منبثًا ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وتبرز الأرض، فتصير قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمتًا، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ ويحشر اللّه جميع الخلق على تلك الأرض ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلا يغادر منهم أحدًا، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقًا جديدًا.

(٤٨) ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ فيعرضون عليه صفًا؛ ليستعرضهم، وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها، وقال هنا مخاطبًا للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عيانًا: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد اللّه ووعيده، فها قد رأيتموه وذقتموه.

(٤٩) ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فحينئذٍ تحضر كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويخاف المجرمون من أعمالهم السيئة، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا رأوها: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يا هلاكنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ لا يقدرون على إنكاره، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فحينئذٍ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون ويحق عليهم العذاب.

(٥٠) ثم قال تعالى مذكراً هؤلاء المشركين حسد إبليس أباهم ومعلمهم ما كان منه من كبره واستكباره عليه حين أمره بالسجود له، وأنه من العداوة والحسد لهم على مثل الذي كان عليه لأبيهم: ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ سجود تحية وتكريم ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ جميعاً؛ امتثالاً للأمر ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الذي يطيعه المشركون ويتبعون أمره، ويخالفون أمر الله، فإنه لم يسجد له استكباراً على الله، وحسداً لآدم ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فخرج عن طاعة ربه، ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ أي بدلاً عني؟! ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر، عن ولاية الرحمن.

(٥١) ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ما أحضرتهم ولا شاورتهم؛ أي: إبليس وذريته أو الكفار ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقي للسموات والأرض ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ ولا كانوا إذ ذاك موجودين، فكيف يجعل له شركاء من الشيطان، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، ولهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً، ولم يعانوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أنصاراً وأعواناً.

(٥٢) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله لهم يقوم القيامة: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ بزعمكم؛ أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا؛ فالحقيقة ليس لله

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

ع ٢٠

شريك في الأرض ولا في السماء. أي: نادوهم؛ لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فاستغاثوا بهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين المشركين وشركائهم ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكًا يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض.

(٥٣) ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ رأى المشركون جهنم قبل دخولها فانزعجوا واشتد قلقهم ﴿فَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بيّنّا ﴿فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صرف فيه من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ مجادلة ومنازعة فيه.

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾؛ أي: أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم، من ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ بالله تعالى، ويتركوا ما هم فيه من الإشراك ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ الإسلام والقرآن والرسول ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ يتضرعون إلى ربهم، ويطلبون عفوه ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلب أو انتظار أو تقدير أن تأتيهم سنة الأولين، وهي الاستئصال، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عذاب الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ عيانًا ومقابلة.

(٥٦) ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ومجادلتهم قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وما أشبهه..؛ ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليُضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا﴾ اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب.

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا، ولا أكبر جرمًا، ممن

وعظ بآيات الله، وبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ تولى عنها وتركها، ولم يؤمن بها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية محكمة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أن يفهموه؛ أي: لئلا يفهموه، وإن سمعوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صممًا يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لأن الذي يُرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالمًا، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلالة فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق، وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن من بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك.

(٥٨) ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب وأنه ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي: العباد ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ على ما قدمت أيديهم من الذنوب ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ يوم البعث والحساب يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه و﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، والإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم أنزل بهم بأسه ولهذا قال:

(٥٩) ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ وقتًا مقدرًا، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ يخبر تعالى عن نبيه

---

(٦٠) أخرج البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم: أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «أن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أي رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا، فتجعله في مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ. وأخذ حوتًا، فجعله في مكتل، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما، فرقد موسى، واضطرب الحوت، فخرج فسقط في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار مثل الطاق، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما، حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله، قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ فكان للحوت سربًا، ولهما عجبًا، قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسلم موسى، فرد عليه، فقال: وأنَّى بأرضك السلام؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا. قال: يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. قال: هل أتبعك؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ إلى قوله: ﴿أَمْرًا﴾. =

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

موسى عليه السلام وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره؛ وهو: يوشع بن نون عليه السلام؛ الذي نبأه اللَّه بعد ذلك: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ لا أزال مسافرًا. وإن طالت عليَّ الشقة، ولحقتني المشقة. حتى أصل إلى مجمع البحرين. وهو المكان الذي أوحي إليه أنه ستجد فيه عبدًا من عباد اللَّه العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ مسافة طويلة.

(٦١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ هو وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ ذلك الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ أي: مسلكاً. وهذا من الآيات. قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، فلما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر، فانسرب ـ دخل ـ بإذن اللَّه في البحر، وصار مع حيواناته حيًا.

(٦٢) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾؛ أي: موسى وفتاه مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ طعامنا ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز، فقد ألقي على موسى عليه السلام الجوع بعد مجاوزة الصخرة؛ ليتذكر الحوت، ويرجع إلى مطلبه.

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ له فتاه وتذكر: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك

= فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، كلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. إذ أخذ الفأس فنزع لوحًا، قال: فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحًا بالقدوم، فقال له موسى: ما صنعت؟! قوم حملونا بغير نَوْل، عمَدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمْرًا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾. فكانت الأولى من موسى نسيانًا، فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده! قال له موسى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، مائلاً، أومأ بيده كأنه يمسح شيئًا إلى فوق، قال: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا، عمدت إلى حائطهم، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾». قال النبي ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر؛ فقص الله علينا من خبرهما».

الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ تركته وفقدته، وذلك أن يوشع عليه السلام حين رأى ذلك من الحوت قام؛ ليدرك موسى فيخبره، فنسي أن يخبره، ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ لما انسرب في البحر، ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

(٦٤) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نطلب ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رجعا يقصان أثرهما الذي نسيا فيه الحوت.

(٦٥) ﴿فَوَجَدَا﴾؛ أي: فلما وصلا إلى المكان ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وهو الخضر عليه السلام ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أعطاه اللَّه رحمة خاصة، بها زاد علمه، وحسن عمله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿عِلْمًا﴾ وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى عليه السلام لأنه كان على علم علمه اللَّه إياه، كما علم موسى كذلك علمًا لم يعطه للخضر.

(٦٦) ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يقول موسى للخضر ـ عليهما الصلاة والسلام ـ: جئت لأتبعك وأصحبك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي.

(٦٧) ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ لا تقدر على اتباعي وملازمتي؛ لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال:

(٦٨) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؛ أي: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟

(٦٩) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ إنما استثنى؛ لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: لا أخالفك فيما تأمر.

(٧٠) ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني. ولكن جعل الاختيار إليه، إلا أنه شرط عليه شرطًا، فقال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله.

(٧١) ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ بدأ موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾،

---

(٦٥) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما سمّي الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء؛ فإذا هي تهتز من خلفه خضراء».

قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له - : واختلف أهل العلم في الخضر، أهو نبي أم عبد صالح؟

والراجح عندي: أنه نبي يوحى إليه، كما يدل على ذلك سياق القرآن والأحاديث الصحاح الواردة في ذلك.

وكذلك اختلف في كونه باقيًا إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة، وقد ذكر بعض المفسرين حكايات وآثارًا عن السلف لا تثبت، ورووا أحاديث لا تصح، ورجح المحققون أنه مات، فلم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ، ولا حضر عنده، ولا قاتل معه، وقد قال ﷺ: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»؛ لأن الرسول ﷺ أرسل إلى الجن والإنس، فلا يسع أحدًا التخلفُ عن اتباعه، وأخبر ﷺ قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل والبراهين الدالة على موته، والله أعلم.

وقد بسطت القول في الخضر، وعجائب قصته مع موسى عليهما السلام في كتاب فرد: «الروض ا لنضر في فوائد قصة موسى مع الخضر عليهما السلام» يسَّر الله نشره على خير وبركة.

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود في ذلك، سيبينه. فلم يصبر موسى عليه السلام؛ لأن ظاهره أنه منكر؛ لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ عظيمًا شنيعًاوهذا من عدم صبره عليه السلام.

(٧٢) ﴿قَالَ﴾ العالم، وهو: الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: فوقع كما أخبرتك.

(٧٣) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي﴾ لا تضيق عليَّ وتشدد عليَّ ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ بسبب نسياني لما اتفقنا عليه. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ لا تعسر عليَّ الأمر، واسمح لي فسمح عنه الخضر.

(٧٤) ﴿فَانطَلَقَا﴾ بعد ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾؛ أي: صغيرًا ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر؛ فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية فـ ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ غلامًا صغيرًا لم يذنب ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير مستند لقتله، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ وأي نكرٍ مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحدًا!!

(٧٥) ﴿قَالَ﴾ له الخضر - معاتبًا ومذكرًا -: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد التذكار بالشرط الأول.

(٧٦) ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾؛ أي: بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾؛ أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: عذرت مني، ولم تقصر.

(٧٧) ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ استضافاهم ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ لأنهم كانوا لئامًا بخلاء ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ القرية ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾؛ أي: عاب ـ أي: صار ذا عيب ـ واستهدم ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر؛ أي: بناه وأعاده جديدًا فـ ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ مقابل إصلاحه، لا سيما وأن أهل القرية لم يعطونا حقنا من الضيافة.

(٧٨) فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، فـ﴿قَالَ﴾ له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم

---

(٧٤) أخرج مسلم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا، ولو عاش؛ لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا».

الجزء السادس عشر — سورة الكهف

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

٣٠٣

يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ أي: سأخبرك بتفسير ما أنكرت عليَّ، وأنبئك بأن لي في ذلك من المآرب، وما يئول الأمر إليه.

(٧٩) ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة بهم ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ يؤاجرون ويكتسبون بها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب وفيه إسناد إرادة العيب إليه ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلمًا، فأردت أن أخرقها؛ ليكون فيها عيب؛ فتسلم من ذلك الظالم.

(٨٠) ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ﴾ فعلمنا ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا؛ أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه يحملهما على ذلك؛ أي: فقتلته؛ لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟!! ولهذا قال:

(٨١) ﴿فَأَرَدْنَآ﴾؛ أي: الله بأمره، والخضر بقتله ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ولدًا صالحًا زكيًا، واصلاً لرحمه، وبارًا بوالديه.

(٨٢) ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أقمته؛ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: إنما أصلحته لأنه كان لغلامين في المدينة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مدفون تحت الجدار ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فحالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونهما صغيرين فقدا أباهما، وحفظهما الله بصلاح والدهما ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ يبلغا ويعقلا وأسند ذلك إلى الله تعالى لما فيه من فعل الخير. ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ حينئذ ﴿كَنزَهُمَا﴾ فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما ورددته، وأعدته مجانًا ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاها الله عبده الخضر ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾؛ أي: ما أتيت شيئًا من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فسرته لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: لم تطق عليه صبرًا.

(٨٣) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾يا محمد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول اللَّه ﷺ عن قصة ذي القرنين، فقال الله تعالى له: ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب، وأوضِّح لكم من أحواله ما يتذكر فيه ويكون عبرة.

(٨٤) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملَّكه اللَّه تعالى، ومكّنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أعطاه اللَّه من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان، فأعطاه اللَّه ما بلغ به مغرب الشمس.

(٨٥) ﴿فَأَتْبَعَ﴾أي: أدرك ولحق ﴿سَبَبًا﴾؛ أي طريقًا.

(٨٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ حتى رأى الشمس في مرأى العين؛ كأنها تغرب في عين حمئة؛ أي: سوداء، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾؛ أي: عند مغربها ﴿قَوْمًا﴾أي: أمة من الأمم ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾؛ أي: إما أن تقتلهم إن هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله، ويذعنوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم بالرشاد.

(٨٧) ﴿قَالَ﴾ سأجعلهم قسمين: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ بالكفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾؛ أي: تحصل له العقوبتان: عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة.

(٨٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فله الجنة والحالة الحسنة عند اللَّه جزاء يوم القيامة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وسنحسن إليه، ونلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة.

(٨٩) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ لما وصل إلى مغرب الشمس كرَّ راجعًا، قاصدًا مطلعها، متبعًا للأسباب التي أعطاه الله.

(٩٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وذلك أن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب، حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروشهم.:

(٩١) ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعِلْمُنا معه حيثما توجه وسار.

(٩٢) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني طريقا ثالثاً.

(٩٣) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهًا من المشرق قاصدًا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان كانا معروفين في ذلك الزمان، سدان من سلاسل الجبال المتصلة يمنة ويسرة حتى تتصل بالبحار، بين يأجوج

---

(٨٤) أخرج الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» بإسناد صحيح عن حبيب بن حماز، قال: كنت عند علي رضي الله عنه، وسأله رجل عن ذي القرنين؟ كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال سبحان الله! سُخر له السحاب، ومُدت له الأسباب، وبُسط له النور. فقال: أزيدك؟ قال: فسكت الرجل وسكت علي.

ومأجوج وبين الناس ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ دون السدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؛ لعجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم.

(٩٤) ﴿قَالُوا﴾ أي: القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ وهم من البشر من سلالة آدم ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل، وأخذ الأموال، وغير ذلك ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعْلاً ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو: إفسادهم في الأرض.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ مما تبذلون لي وتعطوني ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ مانعًا من عبورهم عليكم.

(٩٦) ﴿آتُونِي﴾ أعطوني ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد. فأعطوه ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ النار؛ أي: أوقدوها إيقادًا عظيمًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ صار الحديد نارًا ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾؛ أي: نحاسًا مذابًا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكامًا هائلاً، وامتنع له مَن وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج.

(٩٧) ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ولا على نقبه من أسفله؛ لإحكامه وقوته.

---

(٩٤) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله -تعالى- يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذٍ يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾». قال: فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ فقال: «أبشروا؛ فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ومنكم رجل». قال: ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة». فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة». فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالرَّقْمَة في ذراع الحمار».

(٩٧) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صحيح عن رسول الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا. فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله. ويستثني، فيعودون إليه كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليهم وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء. فيبعث الله عليهم نَغَفًا - دودًا - في أقفائهم، فيقتلهم بها». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَر - يمتلئ ضرعها لبنًا - من لحومهم ودمائهم».

الجزء السادس عشر ― سورة الكهف

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

ربع الحزب ٣١

٣٠٤

(٩٨) ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين، إذا مَنَّ اللَّه عليهم بالنعم الجليلة؛ ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ جعل اللَّه ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد خروج الدجال، وفي خلافة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٩٩) ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج، ويكون هذا عند فتح السد، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه، فيكثرون ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على إثر ذلك؛ لأن خروجهم من علامات الساعة الكبرى، والصُّور: قرن ينفخ فيه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أحضرناهم في صعيد واحد للحساب، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠].

(١٠٠) ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾؛ أي: عرضت لهم؛ لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها.

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لا يقدرون على سمع آيات اللَّه الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أفظن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ لا يكون ذلك، ولا يوالي ولي اللَّه معاديًا لله أبدًا، فمن زعم أنه يتخذ ولي اللَّه وليًا له، وهو معادٍ لله؛ فهو كاذب ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ضيافة وقِرًى، فبئس النزل نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

(١٠٣) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس -على وجه التحذير والإنذار-: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾

---

(٩٩) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح لشواهده من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وقد التقم صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ؟»، قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قالوا: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

(١٠٠) في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجنهم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟.

(١٠٤) ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ يظنون أنهم محسنون في صنعه حيث ظنوا أنهم على شيء وليسوا على شيء، وأتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً، فنالوا هلاكًا وبوارًا، كمن يشتري سلعته يرجو عليها ربحًا، فخسر وخاب سعيه.

(١٠٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية، الدالة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿فَحَبِطَتۡ﴾ بطلت بسبب ذلك ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾؛ لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكرت من حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة وزن؛ لحقارتهم وخستهم ﴿جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾ بكفرهم بآيات الله ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ واتخاذهم آياته ورسله هزوًا يستهزءون بها، ويسخرون منهم.

(١٠٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ لهم جنات الفردوس منزلاً.

(١٠٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع.

﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ تحولاً ولا انتقالاً؛ لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيمًا فوق ما هم فيه.

(١٠٩) ﴿قُل﴾ لهم يا محمد مخبرًا عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾؛ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾؛ أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري والبحار أقلام ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد، ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ بمثل البحر آخر، ثم

---

(١٠٤) أخرج البخاري في «صحيحه» عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: سألت أبي: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود: فكذبوا محمدًا. وأما النصارى: كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام ولا شراب. والحرورية: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد رضي الله عنه يسميهم: الفاسقين.

أخرج ابن جرير الطبري في «تفسيره» من طرق بمجموعها صحيحة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ قال: أنتم يا أهل حروراء.

قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له - : وأقوال السلف لا تضارب بينها، فهي تشمل كل من عَبَدَ اللهَ على غير طريقة شرعية وأحدث في دين الله يحسب أنه مصيب فيها، وزيّن له سوء عمله فرآه مقبولًا، وهو مخطئ، وعمله مردود.

(١٠٥) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: أقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾.

(١٠٧) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة؛ فسئلوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، وفيه تُفَجّر أنهار الجنة».


الجزء السادس عشر — سورة مريم

سُورَةُ مَرْيَمَ — آياتها ٩٨ — مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

٣٠٥

آخر، وهلم جرًا، بحور تمده، ويكتب بها لما نفدت كلمات الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

(١١٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾؛ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: فضلت عليكم بالوحي الذي يوحيه إليَّ، الذي أجلُّه الإخبار لكم: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله؛ من واجب ومستحب، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصًا لوجه اللّه تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه ونيل رضاه.

سورة مريم

(١) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «**البقرة**».

(٢) ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾؛ أي: هذا ذكر رحمة اللّه بعبده زكريا سنقصه عليك، ونفصله تفصيلاً؛ يعرف به حالة نبيه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة.

(٣) ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداءً خفيًّا؛ ليكون

---

(١١٠) أخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري الصحيح قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ، فنبيت عنده، تكون له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فيبعثنا، فكثر المحتسبون وأهل النوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم أنهكم عن النجوى؟» قال: فقلنا: تبنا إلى الله، أي نبي الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي؟» قال: قلنا: بلى، قال: «الشرك الخفي؛ أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل».

(٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان زكريا نجارًا».

أكمل، وأفضل، وأتم إخلاصًا.

(٤) ﴿قَالَ﴾ زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ وَهَى وضعف، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن؛ ضعف غيره ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ اضطرم المشيب في السواد؛ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ﴿وَلَمْ أَكُنْۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ لم تكن يا رب تردني خائبًا ولا محرومًا من الإجابة، بل لم تزل بي حفيًا، ولدعائي مجيبًا.

(٥) ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل ﴿مِن وَرَآءِى﴾ من بعد موتي أن لا يقوموا بدينك حق القيام، فدعا اللّه أن يرزقه ولدًا يقوم بالدين من بعده ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ واشتكى أن امرأته عاقر؛ أي: ليست تلد أصلًا، وأنه قد بلغ من الكبر عتيًا؛ أي: عمرًا يندر معه وجود الشهوة والولد ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ وهذه الولاية: ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل؛ ولهذا قال:

(٦) ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وكان زكريا من ذرية يعقوب ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ عبدًا صالحًا ترضاه، وتحببه إلى عبادك؛ فرحمه ربه واستجاب دعوته فقال:

(٧) ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، أي: فبشره على يد الملائكة ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ بولد ذكر ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ سماه اللّه له: يحيى، وكان اسمًا موافقًا لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين. كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٣٩].

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد.

فإن قيل: ما وجه المدحة باسم لم يسم به أحد قبله، ونرى كثيرًا من الأسماء لم يسبق إليها؟

فالجواب: أن وجه الفضيلة أن اللّه تعالى تولى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه؛ فسماه باسم لم يسبق إليه.

(٨) ﴿قَالَ﴾ زكريا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ والحال أن المانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي. وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ نحل عظمي، وصار إلى حالة اليبس والجفاف، وهذا دليل على أن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان لا يولد له، كذلك امرأته كانت عاقرًا من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما، لا لعقرهما.

(٩) ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً على هذا التعجب: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ الأمر مستغرب

---

(٦) في «الصحيحين» عن عروة بن الزبير: أن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أخبرته أن فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ ابنة رسول الله ﷺ سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه، فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ، ما تَرَكْنا صدقةٌ».

قال أبو أسامة الهلالي: - عفا الله عنه -: ولا حجة في هذه الآية ونظائرها للروافض؛ لأن المراد وراثة العلم والدعوة، وسياق الآية وسباقها يدلان على ذلك دلالة واضحة بلا مرية، والسياق والسباق في المقيدات بلا مثنوية!



في العادة، وفي سنة اللَّه في الخليقة، ولكن قدرة اللَّه تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها؛ فذلك هين عليه ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ ليس بأصعب من إيجاده قبلُ ولم يكن شيئًا.

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ يطمئن بها قلبي، فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه اللَّه إلى طلبته؛ رحمة به، فـ ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، والمعنى واحد؛ لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام، ومؤداها واحد، والمعنى: تُحبس لسانُك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة، فلم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها إلا إشارة، وهذا من الآيات العجيبة.

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ اطمأن إلى البشارة، وامتثل أمر ربه شاكرًا عابدًا، فعكف في محرابه، وكان الناس من وراء المحراب الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ بالإشارة والرمز ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ صلوا ﴿بُكْرَةً﴾ غدوة ﴿وَعَشِيًّا﴾ مساءً؛ لأن البشارة بيحيى في حق الجميع مصلحة دينية.

(١٢) ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ دل الكلام على ولادة يحيى وشبابه وتربيته، فلما وصل إلى حالة يَفهم فيها الخطابَ أمره اللَّه أن يأخذ التوراة بجد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل اللَّه فيه من الذكاء والفطنة، ما لا يوجد في غيره؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾؛ أي: معرفة أحكام اللَّه والحكم بها، وقيل: النبوة﴿صَبِيًّا﴾، وهو في حال صغره وصباه.

(١٣) ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ رحمة ورأفة تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله، ﴿وَزَكَوٰةً﴾ طهارة من الآفات والذنوب، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فاعلاً للمأمور، تاركًا للمحظور، ومن كان مؤمنًا تقيًّا؛ كان لله وليًّا، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي ما رتبه اللَّه على التقوى.

(١٤) ﴿وَ﴾ كان أيضاً ﴿بَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ لم يكن عاقًّا ولا مسيئًا إلى أبويه، بل كان محسنًا إليهما بالقول والفعل ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لم يكن متجبرًا متكبرًا عن عبادة الله، ولا مترفعًا على عباد الله،

ولا على والديه؛ بل كان متواضعاً، متنذللاً، مطيعاً، أوابًا لله على الدوام، فيجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلهذا قال:

(١٥) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، فإن الإنسان أوحش ما يكون في هذه الأحوال: يوم ولد، فيخرج مما كان فيه. ويوم يموت، فيرى قومًا لم يكن عاينهم. ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر لم يرَ مثله، فخُصَّ -عليه الصلاة والسلام- بالسلامة في هذه المواطن.

(١٦) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن الكريم ﴿مَرْيَمَ﴾ بنت عمران عَلَيْهَا السَّلَامُ، من سلالة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا من أعظم فضائلها أن تذكر في الكتاب العظيم ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ حين تباعدت عن أهلها ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾؛ أي: مما يلي الشرق عنهم، ومن هنا اتخذ النصارى الضالون المشرق قبلة، وأما عيسى وأتباعه فكانوا يستقبلون الكعبة ويحجون إليها.

(١٧) ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ سترًا ومانعًا، وهذا التباعد منها واتخاذ الحجاب؛ لتعتزل وتنفرد بعبادة ربها، ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ أي: كاملًا من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها منفردة عن الناس، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها فاعتصمت بربها، واستعاذت منه.

(١٨) ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ ألتجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ إن كنت تخاف اللَّه وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وهذا هو المشروع في دفع الصائل أن يكون بالأسهل فالأسهل.

(١٩) ﴿قَالَ﴾ لها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾؛ أي: إنما وظيفتي وشغلي: تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه؛ فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة.

(٢٠) ﴿قَالَتْ﴾ مريم ـ عليها السلام ـ متعجبة من وجود الولد من غير أب: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ من أين يكون لي ولد؟ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ لم أكن ذات زوج ليقربني ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ زانية، تريد أن الولد يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن واحدًا منهما.

(٢١) ﴿قَالَ﴾ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ كما قلت يا مريم، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ هكذا قال ربك، ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ فإن اللَّه على ما يشاء قادر ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: خلق ولد بلا أب، تدل على قدرة اللَّه تعالى، وعلى أن الأسباب

(١٥) أخرج أحمد بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ، أو همّ بخطيئة؛ ليس يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ».

الجزء السادس عشر — سورة مريم

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

٣٠٧

جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس؛ أما رحمة اللّه به: فلما خصه اللّه بوحيه، ومَنَّ عليه بما مَنَّ به على أولي العزم.

وأما رحمته بوالدته: فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة.

وأما رحمته بالناس: فإن أكبر نعمه عليهم أن بَعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ﴿وَكَانَ﴾ وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ قضاءً سابقًا، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء.

(٢٢) ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها، فحملت بعيسى عليه السلام: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ خافت من الفضيحة، فتنحت بالحمل وانفردت، ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدًا عن أهلها.

(٢٣) ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ فلما قرب ولادها ألجأها ﴿الْمَخَاضُ﴾ ألم الولادة ووجعها ﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وكانت نخلة بالية في المكان الذي تنحت فيه، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث؛ استحياءً من الناس ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ شيء لا يعرف ولا يذكر؛ أي: لم أخلق، وتمني الموت في شرعنا منهي عنه.

(٢٤) ﴿فَنَادَاهَا﴾ ابنها عيسى عليه السلام بدلالة السباق والسياق؛ فلا بد من حمل الضمير على أقرب مذكور، ألا ترى قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وتأمل سياق قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾.

﴿مِن تَحْتِهَا﴾ حين ولدته ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لا تجزعي ولا تهتمي، فـ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهرًا تشربين منه.

(٢٥) ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ قيل لمريم: حركي جذع النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا﴾ تسقط عليك النخلة رطبًا ﴿جَنِيًّا﴾ طريًّا لذيذًا نافعًا.

(٢٤) أخرج ابن جرير في «تفسيره»، والحاكم، والطبراني في «الصغير» ومحمد بن العباس البزاز في حديثه بإسناد جيد عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «السَّري: النهر».

(٢٦) ﴿فَكُلِي﴾ من التمر ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾؛ أي: طيبي نفساً، وقيل: قري عينك بولدك عيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب الهني، وأما من جهة قالة الناس ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ﴾؛ فأمرها أنها إذا رأت أحدًا من البشر أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ سكوتًا ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾؛ أي: لا تخاطبيهم بكلام؛ لتستريحي من قولهم وكلامهم، والتعبد بالصمت منهي عنه في شرعنا، وهو من شعار أهل البدع، وتقليد لأهل الكتاب.

(٢٧) ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ فلما تعلت مريم من نفاسها أتت بعيسى قومها تحمله؛ وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فلما رأوها كذلك؛ أعظموا أمرها، واستنكروا جدًا، و﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ عظيمًا وخيمًا، وأرادوا بذلك: البغاء. حاشاها اللّه من ذلك.

(٢٨) ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ يا شبيهة هارون في العبادة، ويمكن أن يكون أخًا لها سمّوه بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، وليس هو هارون أخو موسى، فبينهما قرون، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، أي: فكيف كنت على غير وصفها؟!.

(٢٩) ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ فأشارت لهم إليه؛ ليكلموه، وإنما أشارت لذلك؛ لأنها أُمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك، و﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ لأن ذلك لم تجرِ به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن.

(٣٠) ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام. وهو في المهد صبي: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس في صفة يستحق بها أن يكون إلهًا، أو ابنًا للإله، ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قضى أن يؤتيني الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ قيل: معناه: سيجعلني نبياً.

فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن اللّه علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه؛ وذلك تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

(٣١) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ في أي مكان وأي زمان، فالبركة جعلها اللّه فيَّ من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وحقوق عباده التي أجلُّها الزكاة، ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ مدة حياتي،وهذا كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

(٣٢) ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي له؛ لشرفها

(٢٨) في «صحيح مسلم» عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرءون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم».

الجزء السادس عشر — سورة مريم

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

٣٠٨

وفضلها، ولكونها والدة، لها حق الولادة وتوابعها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبرًا على الله، مترفعًا على عباده ﴿شَقِيًّا﴾ في دنياي وأخراي.

(٣٣) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي من طعن الشيطان، ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ والسلامة عند الموت من الشرك، ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ السلامة من الأهوال والشر والعقاب.

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ ذلك الموصوف بتلك الصفات: عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مرية، بل قول الحق، وكلام الله الذي لا أصدق منه قيلاً، ولا أحسن منه حديثًا، ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ ما ينبغي ولا يليق؛ لأن ذلك من الأمور المستحيلة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزه وتقدس عن الولد والنقص ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ من الأمور الصغار والكبار لم يمتنع عليه ولم يستصعب، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذًا في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟!

(٣٦) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الذي خلقنا وصورنا، ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره، ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ طريق معتدل موصل إلى الله؛ لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا فإنه من طرق الغي والضلال.

(٣٧) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم؛ اختلفوا في عيسى عليه السلام فمن غالٍ فيه وجافٍ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، ورسله، وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى القائلون بعيسى قول الكفر، ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مشهد يوم القيامة الذي يشهده الأولون والآخرون.

(٣٨) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال؛ لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، وبين ضال عن طرق الحق، وتأمل كيف قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ ولم يقل: (فويل لهم) ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب ووافقت الحق، فقالت في

عيسى «إنه عبد الله ورسوله»، فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ الإنذار هو: الإعلام بالخوف على وجه الترهيب والإخبار بصفاته ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه، مخلدًا فيه، ﴿وَهُمْ﴾ اليوم ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون به.

(٤٠) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ نحن نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعًا، ويبقى الرب وحده فيرثهم، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجزيهم بأعمالهم.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين والذكر الحكيم، أي: واتل على قومك خير نبي الله ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ والصديق: الكثير الصدق القائم عليه، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، ﴿نَّبِيًّا﴾ فجمع الله له بين الصديقية والنبوة، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله وصبر على ما ناله، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه، فقال:

(٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر، مهجنا له عبادة الأوثان: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ لم تعبد أصنامًا ناقصة في ذاتها وفي أفعالها، فلا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًا، بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع؟!

(٤٣) ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يا أبت لا تحقرني، وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني اللّه من العلم ما لم يعطك. والمقصود من هذا قوله: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مستقيمًا معتدلاً، وهو: عبادة اللّه وحده لا شريك له.

(٤٤) ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ لأن من عبد غير الله؛ فقد عبد الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ فمن اتبع خطواته؛ فقد اتخذه وليًا، وكان عاصيًا، لله بمنزلة الشيطان.

(٤٥) ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنازله الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسله فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك وإياي، وأنك إن أطعتني،

---

(٣٩) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون، فينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون، فينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده، ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا».

وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليًا للشيطان.

(٤٦) فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل، و﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فتبجح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن شتم آلهتي ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لأشتمنك ولأبعدنك عني بالقبول القبيح، أي: رجماً بالقول، وقيل: قتلاً بالحجارة ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ لا تكلمني زمانًا طويلاً.

(٤٧) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ستسلم من خطابي إياك بالشتم والسب وبما تكره ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة؛ بأن يهديك للإسلام الذي تحصل به المغفرة، فـ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ رحيمًا رءوفًا بحالي، معتنيًا بي.

(٤٨) فلما آيس من قومه وأبيه قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنتم وأصنامكم ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي.

(٤٩) ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فذهب مهاجرًا إلى ربه ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد الهجرة ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ آنسنا وحشته من فراقهم، وأقررنا عينه بأولاد كرام على الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فحصل له ولهؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين.

(٥٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ لإبراهيم وابنيه ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ من الثناء الحسن الرفيع في كل أهل الأديان، فكلهم يتولونهم، ويثنون عليهم، وهذا أيضًا من الرحمة التي وهبها لهم.

(٥١) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ بن عمران -عليه الصلاة والسلام- كليم الرحمن، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام على معنى: أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرها، على معنى: أنه كان مخلصًا لله تعالى في جميع أعماله، وأقواله،

ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان، فإن اللَّه أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجلُّ حالة يوصف بها العبد: الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع اللَّه له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله، والنبوة تقتضي إيحاء اللَّه إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق.

(٥٢) ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾؛ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأبرك، من اليمن والبركة ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء: أن النداء؛ هو: الصوت الرفيع، والنجاء: ما دون ذلك.

(٥٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وذلك حين دعا ربه فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٩، ٣٠]، فأجاب اللَّه دعاءه، وأرسل هارون ـ عليه السلام ـ، وهذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون.

(٥٤) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لا يعد وعدًا إلا وفَّى به ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى جرهم ﴿نَّبِيًّا﴾ مخبرًا عن اللَّه عز وجل.

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ كان مقيمًا لأمر اللَّه على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، فرضي اللَّه عنه، ورضي هو عن ربه.

(٥٦) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ واذكر يا محمد في القرآن الكريم على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ جمع اللَّه له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفائه لوحيه، واختياره لرسالته.

(٥٧) ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ رفع اللَّه ذكره في العالمين ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر عالي المنزلة، وثبت أن رسول اللَّه ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.

(٥٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أنعم اللَّه عليهم نعمة لا تلحق، ومنة لا تُسبق من النبوة والرسالة، وأن بعضهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يريد نوحًا وإدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ من ذريته الذين حملناهم معه في السفينة، يريد إبراهيم عليه السلام؛ لأنه من ولد سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو يعقوب عليه السلام، ويريد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم اللَّه واختارهم واجتباهم

---

(٥٤) في «صحيح مسلم» من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

(٥٥) في «سنن أبي داود» و«النسائي» و«ابن ماجه» من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين؛ كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات».

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الحاملة للعظات، والعبر الباهرات، والدلائل الواضحات، والحجج الدامغات ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجره، ذكر من أتى بعدهم، وبدّلوا ما أمروا به، فقال:

(٥٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد النبيين ﴿خَلْفٌ﴾ قوم سوء، رجعوا إلى الخلف والوراء ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، ﴿وَ﴾ السبب الداعي لذلك أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ شهوات أنفسهم وإرادتها، فصارت هممهم منصرفة إليها ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ عذابًا مضاعفًا شديدًا، ثم استثنى تعالى فقال:

(٦٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله، إذا قصد به وجهه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة موفرة أجورها، مضاعفًا عددها.

(٦١) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحيوية ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ التي وعدها الرحمن أضافها إلى أسمه « الرحمن » لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿عِبَادَهُۥ﴾؛ أي: عباد إلهيته، الذين عبدوه اختياراً، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: هي من الغيب الذين يؤمنون به ولم يروه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

(٦٢) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ كلامًا لاغيًا لا فائدة

---

(٥٩) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» والبخاري في «خلق أفعال العباد» والحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيًا، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر»، قال شبير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ فقال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يؤمن به.

(٦٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم، من الحسن، ولا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا».

فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتمًا، ولا عيبًا، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً مكدرًا، ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ الأقوال السالمة من كل عيب، ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أرزاقهم من المآكل والمشارب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذاتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ ليعظم وقوعها ويتم نفعها.

(٦٣) ف﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي﴾ وصفناها بما ذكر ﴿نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبغون عنها حولاً.

(٦٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا؛ ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمرًا، فنحن عبيد مأمورون ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ له علم الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأننا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائرًا بين: هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ لم يكن لينساك ويهملك، بل لم يزل معتنيًا بأمورك، مجريًا لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره الجليلة.

(٦٥) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمله ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ اصبر نفسك عليها وجاهدها ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ هل تعلم لله

الجزء السادس عشر — سورة مريم

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

٣١٠

مساميًا، ومشابهًا، ومماثلاً من المخلوقين؟

(٦٦) ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المراد كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول -مستفهمًا على وجه النفي والعناد والكفر-: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾ كيف يعيدني الله حيًا بعد الموت، وبعدما كنت رميمًا؟!! هذا لا يكون ولا يتصور.

(٦٧) ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ أَوَلاَ يلفت نظره ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة ولم يك شيئًا؟! وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ دعوة للنظر بالدليل العقلي بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو

(٦٤) في «صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ إلى آخر الآية.

تذكرها وأحضرها في ذهنه لم ينكر ذلك.

(٦٨) ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسم اللّٰه تعالى - وهو أصدق القائلين - بربوبيته ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾؛ أي: لنجمعن هؤلاء المنكرين للبعث ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ هم وشياطينهم، وليجمعنهم لميقات يوم معلوم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ جاثين على ركبهم من شدة الأهوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

(٦٩) ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ﴾ ثم لنخرجن ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أشدهم عتوًّا، وأعظمهم ظلمًا، وأكبرهم كفرًا، وهم من أهل كل دين قادتهم ورؤساؤهم في الشر.

(٧٠) ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ علمنا محيط بمن هو أولى صليًا بالنار، وقد علمناهم، وعلمنا أعمالهم، واستحقاقها، وقسطها من العذاب.

(٧١) ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ حكمًا حتمه اللّٰه على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه والمراد بالورود: هو المرور على الصراط، فيردها الجميع، ثم يصدر عنها المؤمنون فينجيهم اللّٰه، ويهوى فيها الكفار، وورودهموها هو ما تظاهرت عليه الأحاديث وتواترت به الأخبار عن رسول اللّٰه ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج ومكدس فيها.

(٧٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ اللّٰه تعالى؛ بفعل المأمور، واجتناب المحظور ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

(٧٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء الكفار ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على وحدانية اللّٰه وصدق رسله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزءوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ في الدنيا من كثرة الأموال والأولاد، وتفوق الشهوات، ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلسًا؛ أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالاً وأولادًا، وقد حصلت أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد وحسن المنظر كثيرًا ما يكون سببًا لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى:

(٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ متاعًا وأموالاً ﴿وَرِئْيًا﴾ أحسن مرأى ومنظرًا،

---

(٧١) أخرج ابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن أم مبشر عن حفصة ﵄ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا يدخل النار -إن شاء الله- أحد شهد بدرًا والحديبية». قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت: فسمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

(٧٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي أجله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾؛ أي: القائلون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ بقتل أو أمر في الدنيا، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ فحينئذٍ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلاً ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أقل ناصرًا، ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئًا؛ لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقًا في العلم والإيمان، والعمل الصالح؛ زاده اللّه منه وسهله عليه، ويسره له، ويدل عليه أيضًا الواقع؛ فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها ولا تضمحل هي

سورة مريم — الجزء السادس عشر

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

٣١١

الصالحات منها، من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾؛ أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومرداً على صاحبها.

وهذه الآية دالة على زيادة الإيمان ونقصه؛ كما قاله السلف الصالح، خلافًا للمرجئة ومن وافقهم

(٧٧) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أفلا تعجب من حالة هذا الكافر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الذي جمع بين كفره

---

(٧٧) في «الصحيحين» عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: كنت رجلاً قينًا ـ أي: حدادًا ـ بمكة في الجاهلية، فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفًا، فاجتمع لي عنده دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا، قال: وإني لميت ثم مبعوث من بعد الموت؟ قلت: نعم، قال: فإنه سيكون لي ثَمَّ مال وولد، فأقضيك. فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

بآيات اللَّه ودعواه الكبيرة، ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولدًا؛ أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمنًا باللَّه وادعى هذه الدعوى؛ لسهل الأمر.

(٧٨) ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ هل نظر في اللوح المحفوظ؛ فأحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولدًا؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أنه نائل ما قاله.

والجواب: لم يكن شيء من ذلك؛ فعلم: أنه متقول، قائل ما لا علم لديه، ولهذا قال تعالى:

(٧٩) ﴿كَلَّاۚ﴾ ليس الأمر كما زعم، فليس للقائل اطلاع على الغيب؛ لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسائل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهدًا؛ لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوّله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ عليه ﴿مَا يَقُولُ﴾ فنجازيه به في الآخرة ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال.

(٨٠) ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلبه ماله وولده، ويصير لنا ماله وولده دونه ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ وحده لا مال معه ولا ولد.

(٨١) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ يخبر تعالى عن المشركين أنهم اتخذوا أصنامًا يعبدونها ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ﴾ لتكون تلك الآلهة لهم ﴿عِزًّا﴾ منعة، يعتزون بها ويستنصرونها حتى تكون لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب.

(٨٢) ﴿كَلَّاۚ﴾ ليس الأمر كما زعموا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرءون منهم، كما أخبر اللَّه تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أعداءً لهم، بخلاف ما رجوا منهم.

(٨٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم ينته إلى علمك ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سلطناهم عليهم، يفعلون بهم ما أرادوا من الإغواء والفتنة ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تزعجهم إزعاجًا، وتحركهم شديدًا نحو الشهوات والمعاصي.

(٨٤) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ﴾ على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أن لهم أيامًا معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون.

(٨٥) يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين والمجرمين، فيقول: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، أن المتقين لهم - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظمين.

(٨٦) ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ وأما المجرمون فإنهم يساقون إلى جهنم وردًا؛ أي: عطاشًا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات؛ سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم في حال ظمئهم ونصبهم، يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال:

(٨٧) ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى فلا يملك هؤلاء الكفار الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ لكن من اتخذ عنده

عهدًا، فآمن به وبرسله واتبعهم؛ فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة.

(٨٨) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا، كقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. واليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. والمشركين: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

(٨٩) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ عظيمًا وخيمًا.

(٩٠) من عظيم أمره أنه ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن قطعاً من هذا القول ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾ وتكاد الأرض تنشق، فتنصدع من ذلك ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ تندك الجبال.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر.

(٩٢) ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا يَنبَغِي﴾ لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضًا من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثيل ولا سمي.

(٩٣) ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ﴾ يوم القيامة ﴿عَبْدًا﴾ ذليلاً منقادًا، غير متعاصٍ ولا ممتنع.

(٩٤) ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السموات والأرض، وأحصاهم وأحصى أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية.

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله.

(٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن

سورة مريم، طه — الجزء السادس عشر

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طه — مكية — آياتها ١٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَىٰهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

٣١٢

---

(٩١) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله؛ إنه يشرك به ويجعل له ولدًا، وهو يعافيهم، ويدفع عنهم، ويرزقهم»

(٩٦) في «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه». قال: «فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فقال: يا =

يجعل لهم محبة ووِدادًا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض.

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يخبر تعالى عن نعمته، وأنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه، والانتفاع به، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذرهم، فتقوم عليهم الحجة.

(٩٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ من قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم من المعاندين المكذبين؛ لما استمروا في طغيانهم أهلكهم الله، فليس لهم من باقية ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل ترى منهم أحدًا ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ الركز: الصوت الخفي؛ أي: هل تسمع لهم صوتًا ولو خفيًّا؟ فقد أهلكهم الله، ولم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسمارهم عظة للمتعظين.

سورة طه

(١) ﴿طه﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتتح بها كثير من السور، وليست اسمًا للنبي ﷺ، وثبت عن جمع من السلف، كابن عباس، وسعيد بن جبير، وسفيان الثوري: أنها بمعنى: يا رجل - والله أعلم -.

(٢) ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلًا للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال:

(٣) ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، وخص بالتذكرة من يخشى؛ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟! هذا ما لا يكون.

(٤) ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات، المدبر لجميع المخلوقات، أي فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم، وكثيرًا ما يقرن بين الخلق والأمر، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وفي قوله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وذلك أنه الخالق الآمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام

= جبريل، إني أبغض فلانًا، فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه»، قال: «فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض».

(٢) في «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم.
(٥) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ علا وارتفع، استواءً يليق بجلاله، ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.
وهذه من آيات الصفات، والمسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف الصالح: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل ولا تفويض، والإيمان بمعانيها الصحيحة التي تعرف في لسان العرب.
(٦) ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ من مَلَك، وإنسي وجني، وحيوان، وجماد، ونبات، وهواء ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾؛ أي: ما تحت الأرض السابعة، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مسخرون، تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.
(٧) ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ تعلن به ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ الكلام الخفي ﴿وَأَخۡفَى﴾ من السر الذي في القلب، ولم ينطق به.
والمراد: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى، الذي يعلم السر وأخفى؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦].
(٨) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء - إلا هو ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلامًا محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها.
(٩) ثم قال تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: قد أتاك خبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، بعد أن قضى أتم الأجلين وأكملهما الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وفيه تمهيد بنبوته ﷺ بقصة موسى عليه السلام ليأتم به في تحمل أعباء النبوة، وتبليغ الرسالة، والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.
(١٠) ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ أنه رأى نارًا من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ﴾ يبشرهم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أقيموا ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أبصرت ﴿نَارٗا﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ شهاب من نار تصطلون - تستدفئون - به ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ من يهديني الطريق.
(١١) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ اقترب من النار التي آنسها من بعيد وكانت - في الحقيقة - نورًا، وهي نار تحرق وتشرق ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ناداه الله.
(١٢) ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ الذي يكلمك ويخاطبك ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ لتطأ الأرض المقدسة بقدميك حافيًا، ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ لأنك بالوادي المطهر المعظم ﴿طُوٗى﴾ اسم للوادي المقدس.

الجزء السادس عشر — سورة طه

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

٣١٣

(١٣) ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم اللّه بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ ألق سمعك للذي أوحى إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبدأه، وعماد الدعوة الإسلامية.

(١٤) بين الذي يوحيه إليه بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾؛ أي: اللّه المستحق الألوهية المتصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له، ولا مثيل، ولا كفو، ولا سمي ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ بجميع أنواع العبادة؛ ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خص الصلاة بالذكر. وإن كانت داخلة في العبادة - لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب، واللسان، والجوارح، وقوله: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾ اللام للتعليل؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي.

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لا بد من وقوعها ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ عن نفسي ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ من كان كافرًا بها، غير معتقد لوقوعها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أقبل على دنياه، وعصى مولاه ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد عنها.

(١٧) ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا، حتى إذا صارت حية؛ علم أنها معجزة عظيمة.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ هذه عصاي ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين: منفعة لجنس الآدمي، وهو: أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، ومنفعة للبهائم، وهو: أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاه الغنم، ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ﴾ مقاصد ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير هذين الأمرين.

(١٩) ﴿قَالَ﴾ اللّه تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ انبذ هذه العصا التي في يدك.

(١٤) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾».

(٢٠) ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ على وجه الأرض ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ انقلبت بإذن اللَّه ثعبانًا عظيمًا، فولى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو: أن يظن أنها تخييل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

(٢١) ﴿قَالَ﴾ اللَّه لموسى: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ ليس عليك منها بأس سنردها هيئتها ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: نردها عصا كما كانت، فامتثل موسى أمر اللَّه إيمانًا به وتسليمًا، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها.

(٢٢) ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أدخل يدك في إبطك وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ بياضًا ساطعًا ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عيب ولا برص ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ دلالة أخرى على صدقك سوى العصا.

(٢٣) ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾؛ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين؛ لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى.

(٢٤) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد، والعلو في الأرض.

(٢٥) ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ وسعه وأفسحه؛ لأتحمل الأذى القولي والفعلي.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك.

(٢٧) ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام؛ وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه؛ كما في حديث الفتون.

(٢٨) ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ احلل العقدة كي يفهموا كلامي، فسأل اللَّه أن يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة.

(٢٩) ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ معينًا يعينني، ويؤازرني ويساعدني على من أرسلت إليهم ﴿مِّنْ أَهْلِى﴾ من إخوتي في النسب.

(٣٠) ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ وهذا - أيضًا - سؤال من موسى في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، وكان هارون أكبر من موسى، وأفصح منه لسانًا.

(٣١) ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ قوّ به ظهري.

(٣٢) ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ في النبوة وتبليغ الرسالة ومشاورتي، بأن تجعله نبيًّا كما جعلتني.

(٣٣) ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ نصلي لك كثيرًا.

(٣٤) ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ علم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى.

(٣٥) ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا، وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم.

(٣٦) ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أعطيت جميع ما طلبت؛ فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك يفقهوا

الجزء السادس عشر — سورة طه

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١)

٣١٤

قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ قبل هذه المرة، وهذا تذكير له بنعمه السالفة عليه.

(٣٨) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ ألهمنا أمك ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ ما يلهم، ثم فسر هذا الإلهام، وعدد نعمه عليه، فقال:

(٣٩) ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ حيث ألهمنا أمك أن تجعلك في التابوت وقت الرضاعة؛ لخوفها عليك من فرعون، فجعلتك في التابوت ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ ثم ألقتك في نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ شاطئ النهر، فأمر اللَّه اليمَّ أن يلقيه في الساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ وقيض اللَّه أن يأخذه فرعون أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فكل من رآه أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ لتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجل وأكمل من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟!

(٤٠) ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ فجاءت أخت موسى

---

(٤٠) أخرج النسائي والطبري في «تفسيريهما»، وأبو يعلى في «مسنده» بإسناد حسن، عن سعيد بن جبير، قال: سألت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تعالى لموسى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون: ما هي؟ فقال استأنِفِ النهار يا ابن جبير؛ فإن لها حديثًا طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس؛ لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل؛ فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك. فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر؛ فيقل نباتهم، ودعوا عامًا؛ فلا تقتلوا منهم أحدًا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم. فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يقتل فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل، حملت بموسى عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبير، ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به، فأوحى الله إليها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليَمِّ، فلما ولدت؛ فعلت =

متعرفة خبره ﴿فَقَالَتْ﴾ لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ على امرأة ترضعه وتضمه بالأجرة، وذلك

= ذلك، فلما توارى عنها ابنها، أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني؟! لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضَة - وهي مَشْرَبُ الماءِ من النَهرِ - تستقي منها جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه. فحملنه كهيئته، لم يخرجن منه شيئًا حتى دفعنه إليها، فلما فتحته؛ رأت فيه غلامًا، فألقى الله عليه منها محبة لم يُلق منها على أحد قط. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره؛ أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون؛ ليذبحوه. وذلك من الفتون يا ابن جبير!، فقالت لهم: أقروه؛ فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي؛ كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه؛ لم ألمكم، فأتت فرعون؛ فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فقال فرعون: يكون لك، فأما لي؛ فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلف به؛ لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته؛ لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها؛ لأن تختار له ظئرًا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه؛ لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به، فأخرج إلى السوق ومجمع الناس؛ ترجو أن تجد له ظئرًا تأخذه منها، فلم يقبل.

وأصبحت أم موسى والهًا، فقالت لأخته: قُصِّي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرًا؟ أحيٌّ ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه.

فبصرت به أخته عن - عن بعد - جنب وهم لا يشعرون، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤورات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها، فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا بن جبير!

فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك، فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها، نزا إلى ثديها، فمصه حتى امتلأ جنباه ريًّا.

وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها: أن قد وجدنا لابنك ظئرًا، فأرسلت إليها، فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها؛ قالت امكثي؛ ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئًا حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيرًا؛ فعلت، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز موعوده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتًا حسنًا، وحفظه لما قد قضى فيه، فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السُّخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع، قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني، فوعدتها يومًا تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة؛ لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أمينًا يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم. فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها؛ نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه؛ لحسن أثرها عليها، ثم قالت: لآتين فرعون؛ فلينحلنه وليكرمنه.

فلما دخلت به عليه؛ جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون، فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه؟! إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك. فأرسل إلى الذباحين؛ ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به! =

أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع | فأباها، ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه؟! يزعم أن يصرعني ويعلوني، فقالت: اجعل بيني وبينك أمرًا؛ تعرف فيه الحق: ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه؛ فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرب ذلك إليه، فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعدما كان قد هم به، وكان الله بالغًا فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال؛ لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني، والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضبًا شديدًا؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عَزَّوَجَلَّ والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفًا يترقب الأخبار.

فأتي فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صَفْوه مع قومه، لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك؛ آخذ لكم بحقكم.

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة؛ إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل أمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلي إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما قال له ما قال، فإذ هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعدما قاله له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي، وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾؟ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هِيْنَتِهم - غير متعجلين - يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقًا حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير!

فخرج موسى متوجهًا نحو مدين، لم يلق بلاءً قبل ذلك، وليس له بالطريق علم، إلا حسن ظنه بربه عَزَّوَجَلَّ فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص: ٢٢] ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]؛ يعني: بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣] معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤] فجعل يغترف في الدلو ماءً كثيرًا، حتى كان أول الرعاء، وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

﴿وَلَا تَحْزَنَّ﴾ ولكي يذهب منها الحزن والغم | ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ وهو القبطي لما دخل المدينة وقت

= واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلًا بِطَانًا، فقال: إن لكما اليوم لشأنًا؟ فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى، فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٢٥]، ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦]، فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك؟ ما قوته؟ وما أمانته؟ قالت: أما قوته: فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه. وأما الأمانة: فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا الأمر إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]

ففعل فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة، وكانت السنتان عِدَة منه، فقضى الله عنه عدته؛ فأتمها عشرًا.

قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم، فقال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس، فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئًا، وتعلم أن الله كان قاضيًا عن موسى عدته التي وعده؟! فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني، فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك؟ قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله؛ كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله سبحانه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون؛ يكون له ردءًا، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله ﷻ، سؤله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون، فأمره أن يلقاه.

فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، فانطلقا جميعًا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن، قال: فما تريدان؟ وذكَّره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بني إسرائيل؛ فأبى عليه وقال: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه؛ خافها، فاقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه، فرآها بيضاء من غير سوء؛ يعني: من غير برص، ثم ردها، فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾؛ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئًا مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما.

فأرسل إلى المدائن؛ فحشر له كل ساحر متعلم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله، ما أحد في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرُنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم. فتواعدوا: يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. قال سعيد: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة -اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة- هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد، قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا؛ فلنحضر هذا الأمر ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؛ يعنون: موسى وهارون؛ استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى ـ لقدرتهم بسحرهم ـ: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ =

غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من | شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي، فاستغاثه

= قال: بل ألقوا ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فلما ألقاها؛ صارت ثعبانًا عظيمًا فاغرة فاها، فجعلت العصا تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَرًا على الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقت عصًا ولا حبلاً إلا ابتلعته!! فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرًا؛ لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله تعالى، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾.

وامرأة فرعون بارزة متبذِّلة، تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون؛ ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت؛ أخلف موعده، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات؛ كل ذلك يشكو إلى موسى، ويطلب إليه أن يكفها عنه؛ ليوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه؛ أخلف موعده ونكث عهده!!

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا؛ أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله تعالى إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة؛ حتى يجاوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا، فانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصيًا لله ﷻ، فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ افعل ما أمرك به ربك؛ فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر؛ انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه؛ التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر، قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه، فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قد رأيتم من العبر، وسمعتم ما يكفيكم.

ومضى فأنزلهم موسى منزلاً، وقال لهم: أطيعوا هارون؛ فإن الله قد استخلفه عليكم، فإني ذاهب إلى ربي. وأَجَّلهم ثلاثين يومًا أن يرجع إليهم فيها.

فلما أتى ربَّه ﷻ وأراد أن يكلمه في ثلاثين يومًا وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئًا من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: يا رب، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرًا ثم ائتني، ففعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل؛ ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم، فقال: إنكم خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئًا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا. فحفر حَفِيرًا، وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار؛ فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم. =

الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى | فقضى عليه، فدعا اللّه وسأله المغفرة، فغفر له،

= وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأى أثرًا، فقبض منه قبضة فمر بهارون، فقال له هارون: يا سامري، ألا تلقي ما في يديك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد؛ فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن تكون عجلًا، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلًا أجوف، ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقًا، فقالت فرقة: يا سامري، ما هذا، وأنت أعلم به؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا؛ لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا؛ فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولن نؤمن به ولا نصدق. وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا عدم التكذيب به، فقال لهم هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ليس هذا، قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا، هذه أربعون يومًا قد مضت؟! وقال: سفهاؤهم أخطأ ربه؛ فهو يطلبه ويبتغيه.

فلما كلم الله موسى، وقال له ما قال؛ أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ فقال لهم ما سمعتم في القرآن ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟! قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وفطنت لها وعميت عليكم، ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ ولو كان إلهًا؛ لم يخلص إلى ذلك منه.

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها؛ فتكفر عنا ما عملنا.

فاختار موسى قومه سبعين رجلًا لذلك، لا يألو الخير، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، لذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم. فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ متوجهًا نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يُقرُّوا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهو من وراء الجبل؛ مخافة أن يقع عليهم. =

ثم فر هاربًا لما سمع أن الملأ طلبوه، يريدون قتله، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ فنجاه اللّه من الغم، من عقوبة الذنب، ومن القتل ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ اختبرناك وبلوناك، فوجدناك مستقيمًا في أحوالك ﴿فَلَبِثْتَ﴾ مكثت ﴿سِنِينَ﴾ عشر سنين ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بلدة شعيب عليه السلام على ثماني مراحل من مصر، حين فر هاربًا من فرعون وملئه حين أرادوا قتله ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ جئت مجيئًا قد مضى به القدر، وعلمه الله، وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان.

(٤١) ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أجريت عليك صنائعي ونعمي، واخترتك لرسالتي.

(٤٢) ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون ﴿بِآيَاتِي﴾ الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكري بالاستمرار عليه، والزماه كما وعدتما بذلك ﴿كي نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا﴾ فإن ذكر اللّه فيه معونة على جميع الأمور يسهلها، ويخفف حملها.

(٤٣) ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ جاوز الحد في كفره وطغيانه وظلمه وعدوانه.

(٤٤) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ سهلاً لطيفًا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ﴿لَعَلَّهُ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتركه.

(٤٥) ﴿قَالَا﴾ موسى وهارون عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك ونقيم عليه الحجة ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه.

(٤٦) ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿لَا تَخَافَا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أنتما بحفظي ورعايتي أسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما.

(٤٧) ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ بهذين الأمرين: دعوته إلى الإسلام، وتخليص بني إسرائيل من قيده وتعبيده لهم ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك

= ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون؛ خَلْقهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمرًا عجبًا من عظمها، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾، قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم، من الجبارين، آمنا بموسى وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا، إن كنتم إنما تخافون من ما رأيتم من أجسامهم وعددهم؛ فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، ف﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى.

فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فأغضبوا موسى، فدعا عليهم، وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذٍ، فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم موسى: فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ يصبحون كل يوم، فيسيرون، ليس لهم قرار.

ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابًا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجرًا مربعًا، وأمر موسى؛ فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خلِّ عنهم وأطلقهم عن أعمالك ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ لا تتعبهم في العمل؛ لأن فرعون كان يستعملهم في الأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ بحجة ومعجزة تدل على صدقنا أيدنا بها اللَّه الذي هو ربك ورب العالمين ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ من اتبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

(٤٨) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ خبرنا من عند الله، لا من عند أنفسنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بأخبار الله، وأخبار رسله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الانقياد لهم واتباعهم.

(٤٩) ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى منكرًا وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربه ومليكه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ الذي بعثكما وأرسلكما من هو؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري.

(٥٠) ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيباً بجواب شافٍ كافٍ واضح: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية الكاملة المشاهدة في جميع المخلوقات.

(٥١) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما حالهم؟ وما شأنهم؟ وما خبرهم؟

فإن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الماضية والأمم الخالية الذين لم يعبدوا الله.

(٥٢) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ قد أحصى أعمالهم من خير وشر ليجازيهم بها ﴿فِي كِتَٰبٍۖ﴾ وكتبه في كتابه، وهو: اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ وأحاط به علمًا وخبرًا، فلا يضل عن شيء منها، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ما علمه منها.

(٥٣) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فراشًا بحالة تتمكنون من السكون فيها والقرار ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أنزل المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ بذلك الماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مختلف الطعوم والألوان والمنافع من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها زوج، فمنها للناس، ومنها للدواب، ولهذا قال:

(٥٤) ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ﴾ وساقها على وجه الامتنان؛ ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النباتات الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان

مضرًّا؛ كالسموم ونحوه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل اللّه وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، وخص اللّه أولي النهى بذلك؛ لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم؛ فإنهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة.

(٥٥) ﴿مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ يعني: أباكم آدم ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ عند الموت والدفن ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يوم البعث.

(٥٦) ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية، ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى.

(٥٧) ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى سحر وتمويه، المقصود منها: إخراجهم من أرضهم.

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ مثل سحرك ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ فأمهلنا، واضرب بيننا وبينك أجلًا وميقاتًا ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ لا نجاوزه ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مستوٍ علمنا وعلمك به في مكان مستوٍ معتدل؛ لنتمكن من رؤية ما فيه.

(٥٩) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو عيدهم الذي يتفرغون فيه، ويقطعون شواغلهم، ويتزينون فيه ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ يجمعون كلهم في وقت الضحى.

وإنما سأل موسى ذلك؛ لأن يوم الزينة وقت الضحى فيه يحصل كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، فيكون أبعد في الريبة.

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوافرًا وعلمًا مرغوبًا فيه، فجمع خلقًا كثيرًا من السحرة ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ ثم جاء الموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته، واجتمع الناس أيضاً للموعد، فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملأ والأشراف والعوام، والصغار والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

(٦١) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ حين اجتمعوا من جميع البلدان، واعظاً ومقيما الحجة عليهم، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق وتفترون على الله الكذب ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيستأصلكم بعذاب من عنده، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ كما خاب فرعون فإنه افترى وحتال ليبقى الملك عليه فلم ينفعه.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تشاجروا فيما بينهم، وتناظروا في أمر موسى فقال بعضهم: هو نبي. وقال البعض الآخر: هو ساحر ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ تناجوا فيما بينهم.

(٦٣) ﴿قَالُوٓاْ﴾ وأسر بعضهم إلى بعض: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾؛ يعني: موسى وهارون عليهما السلام، ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ مقصودهما

إخراجكم من مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ بعلمهما بالسحر، فهما ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، وهذه كمقالة فرعون السابقة؛ فإما أن يكون ذلك توافقًا من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقينًا منه لهم مقالته التي صمم عليها، وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ طريقة السحر، حسدكم عليها وأراد أن يظهر عليكم؛ ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم الذي شغلتم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض، على الاجتهاد في مغالبته، ولهذا قالوا:

(٦٤) ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ أظهروه دفعة واحدة، متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقًا رأيكم وكلمتكم ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره؛ فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام.

(٦٥) ﴿قَالُوا۟﴾ السحرة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ خيروه موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حالة كانت.

(٦٦) ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أولاً؛ ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر

الجزء السادس عشر — سورة طه

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

٣١٦

للناس جلية أمرهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ أي: فألقوا، فإذا حبالهم ﴿وَعِصِيُّهُمْ﴾ جمع عصا ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ البليغ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أنها حيات تسعى.

(٦٧) ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وجد ﴿فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ خوفًا فطريًا يعتري النفس البشرية، وقد يكون خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن تظهر معجزته.

(٦٨) ﴿قُلْنَا﴾ له تثبيتًا وتطمينًا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ستعلوا عليهم وتقهرهم، ويذلوا لك ويخضعوا.

(٦٩) ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾؛ أي: عصاك؛ فإذا هي ﴿تَلْقَفْ﴾ تلتقم وتبتلع ﴿مَا صَنَعُوٓا۟﴾ من

(٦٩) في «سنن أبي داود»، و«مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح عن عمرو بن دينار: أنه سمع بجالة يقول: «كتب عمر رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. فقتلنا ثلاث سواحر».

السحر ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾ إن الذي صنعوا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ حيلة ساحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾؛ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمثمر لهم، ولا ناجح؛ فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علمًا يقينًا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان.

(٧٠) ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ وقعوا ساجدين ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون، كما في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ - ٤٨]، ولهذا قال بعض السلف: كانوا أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة.

(٧١) ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾؛ أي: أنتم أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليَّ وعلى رعيتي لتظهروه ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد؛ يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ لأجل أن تشتهروا وتختزوا وقوله: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾؛ يعني: بزعمه هو أو الله، وأنه أشد عذابًا من الله، وأبقى قلبًا للحقائق، وترهيبًا لمن لا عقل له.

(٧٢) ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: السحرة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك، وما وعدتنا به من الأجر والتقريب ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على ما أرانا اللّه من الآيات البينات الدالات على أن اللّه هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا على «البينات» يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع، لا أنت، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به: من القطع والصلب والعذاب ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا، وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

(٧٣) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾؛ أي: كُفْرنا ومعاصينا؛ فإن الإيمان مكفر السيئات، والتوبة تجب ما قبلها ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، وفي هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهًا ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾؛ لنا منك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ ثوابًا مما كنت وعدتنا.

(٧٤) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾ يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه ﴿مُجْرِمًا﴾ وصفه الجرم من كل وجه،

---

(٧٤) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها؛ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر - جماعات - فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة، تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية!

واستمر على ذلك حتى مات ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذَّب فيها ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فلا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

(٧٥) ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ به، مصدقًا لرسله، متبعًا لكتبه، ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ المنازل العاليات في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات.

(٧٦) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة دائمة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بين الأشجار وخلال القصور ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ ماكثين أبدًا، لا يخرجون ولا يزحزحون، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان.

(٧٧) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ أوحى الله إلى نبيه موسى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سر بهم ليلاً من أرض مصر، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل ونساؤهم وذريتهم، ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أوحى الله أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفرق اثني عشر طريقًا، وصار الماء كالجبال العالية عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون ﴿وَلَا

الجزء السادس عشر — سورة طه

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

نصف الحزب ٣٢

٣١٧

تَخْشَىٰ﴾ ولا يخشوا من الغرق في البحر.

(٧٨) ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين، وقوم فرعون داخلين أمر الله البحر فالتطم عليهم، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ غرقوا كلهم.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال.

(٨٠) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ يذكر

---

(٧٥) في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء؛ لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين».

تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ ومواعدته لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بجانب الطور الأيمن؛ لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة والأخبار الجميلة، ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم:

(٨١) ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ في رزقه؛ فتستعملوه في معاصيه، وتبطروا النعمة ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ فإنكم إن فعلتم ذلك؛ غضبت عليكم، ثم عذبتكم، ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ ردى وهلك، وخاب وخسر، ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال:

(٨٢) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ﴾ كثير المغفرة والرحمة ﴿لِّمَن تَابَ﴾ من الكفر والبدعة والفسوق ﴿وَءَامَنَ﴾ باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان، ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم.

(٨٣) كان اللّه تعالى، قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر، فلما تم الميقات، بادر موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى الحضور للموعد شوقًا لربه، وحرصًا على موعوده، فقال اللّه له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ما الذي قدمك عليهم؟ ولِمَ لَمْ تصبر حتى تقدم أنت وهم؟

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ قريبًا مني، وسيصلون في أثري ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ والذي عجلني إليك يا رب: الطلب لقربك، والمسارعة في رضاك، والشوق إليك.

(٨٥) ﴿قَالَ﴾ اللّه له: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ بعبادتهم للعجل؛ ابتليناهم واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ بصنع العجل حيث أخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار، فقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي. فافتتن به بنو إسرائيل فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا.

(٨٦) ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ فلما رجع موسى إلى قومه ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ ممتلئًا غيظًا وحنقًا وغمًّا، ﴿قَالَ﴾ لهم موبخًا ومقبحًا لفعلهم: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ وذلك بإنزال التوراة، ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ المدة، فتطاولتم غيبتي، وهي مدة قصيرة؟ ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فتعرضتم لأسبابه، واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائبًا، ولم تحترموا حاضرًا.

(٨٧) ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾؛ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ ولكن السبب الداعي لذلك: أننا تأثمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون، استعاروا حليًا كثيرًا من القبط، فخرجوا وهو معهم ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ يعني: زينة القوم، ألقوها في حفرة، وجمعوها حين ذهب موسى؛ ليراجعوه فيها إذا رجع ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحلي فيها، ثم ألقى

عليها قبضة تراب أخذها من أثر الرسول.

(٨٨) ﴿فَأَخْرَجَ﴾ السامري ﴿لَهُمْ﴾ لبني إسرائيل ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا فنسيه وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جماداً ، فظنوه إله الأرض.

(٨٩) ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يرون أن العجل لا يكلمهم ولا يجيبهم إذا دعوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد، وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار اللّه لهم.

(٩٠) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: إن اتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة فإن هارون قد نهاهم عنه، وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ وأخبرهم أنه فتنة ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وأن ربهم اللّه وحده لا شريك له ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ على ديني في عبادة اللّه، ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ في ترك عبادة العجل.

(٩١) ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ لا نترك عبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ حتى نسمع كلام موسى فيه.

(٩٢) فأقبل موسى على أخيه لائمًا، وقال: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ بعبادة العجل

سورة طه — الجزء السادس عشر

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

٣١٨

فأشركوا بالله.

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ خالفت أمري في قولي: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

(٩٤) فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، فـ﴿قَالَ﴾ هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ترقيق له، وإلا؛ فهو شقيقه ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾ وهذا يدل على أن إعفاء اللحى من سنن الأنبياء ﴿وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ بشعر رأسي، وكان قد أخذ بذوائبه، فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك؛ لتركت ما أمرتني بلزومه ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾

(٨٩) أخرج ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هارون مرَّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما لا يضر ولا ينفع. فقال هارون: اللهم أعطه ما سأله على ما في نفسه. ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور. فخار، فكان إذا خار سجدوا، وإذا خار رفعوا رءوسهم.


الجزء السادس عشر — سورة طه

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

٣١٩

لائمتك، و﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ وارفق بهم.

(٩٥) ثم أقبل على السامري فـ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ما أمرك وشأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟!

(٩٦) ﴿قَالَ﴾ السامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ رأيت ما لم يروا، وعرفت ما لم يعرفوا، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرس، رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده، على ما قاله أكثر المفسرين، ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ألقيتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ زينت لي نفسي أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان.

(٩٧) ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَٱذْهَبْ﴾ تباعد عني واستأخر مني، ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ تعاقب في الحياة عقوبة؛ لا يدنو منك أحد، ولا يَمَسَّكَ أحد؛ حتى إن من أراد القرب منك، قلت: لا تمسني، ولا تقرب مني؛ عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا سامري ﴿مَوْعِدًا﴾ لعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ فتجازى بعملك من خير وشر، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ أي: العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار، وقيل بالسحق بالمبرد ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لنذرينه ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ في البحر ﴿نَسْفًا﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهًا؛ لامتنع ممن يريده بأذى، ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إتلافه، - وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته - بالإحراق والسحق وَذرْيه في اليم، ونسفه؛ ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة؛ لأن في النفوس أقوى داعٍ إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

(٩٨) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا وجهه الكريم، فلا يُؤْلَهُ، ولا يحب، ولا يرجى، ولا يخاف، ولا يدعى إلا هو؛ لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو،

فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

(٩٩) ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يمتن اللَّه تعالى على نبيه ﷺ، بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول اللَّه حقًا، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو: هذا القرآن الكريم.

(١٠٠) ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ حملاً ثقيلاً من الإثم، وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن وأولاه الكفر والهجران.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

(١٠١) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين في وزرهم ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ بئس الحمل الذي يحملونه والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله، فقال:

(١٠٢) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ إذا نفخ في الصور، وخرج الناس من قبورهم كل على حسب حاله ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ والمجرمون يحشرون زرقًا ألوانهم؛ من الخوف والقلق والعطش.

(١٠٣) ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتناجون بينهم في قِصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ما لبثتم إلا عشرة أيام.

(١٠٤) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ واللَّه يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة، نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم، والمقصود من هذا: الندم العظيم كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور.

(١٠٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ ماذا يصنع اللَّه بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ يزيلها ويقلعها من أماكنها، فتكون كالعهن، وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباءً منبثًا، فتضمحل وتتلاشى ويسويها بالأرض.

(١٠٦) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ يجعل الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ مستويًا.

(١٠٧) ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أيها الناظر ﴿عِوَجًا﴾ هذا من تمام استوائها ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة؛ فتبرز الأرض وتتسع للخلائق، ويمدها اللَّه مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

(١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم، ويقومون منها، يدعو الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مستجيبين له، لا يلتفتون عنه يمنة ولا يسرة، مهطعين إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم! مهطعين إليه، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقًا وصدقاً، لجميع الخلق، يُسمعهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعون، فيحضرون ليوم القيامة

الجزء السادس عشر — سورة طه

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

٣٢٠

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ سكنت وذلت وخضعت، ووصفت الأصوات بالخشوع، والمراد: أهلها، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سرًّا بتحريك الشفتين فقط، حيث يملكهم الخشوع والسكون والإنصات؛ انتظارًا لحكم الرحمن فيهم.

(١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ لا يشفع أحد عنده من الخلق ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الشفاعة، ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ ولا يأذن إلا لمن رضي شفاعته.

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يحيط علمًا بالخلائق كلهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي: ولا يحيط خلقه به علماً.

(١١١) ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ خضعت وذلت ﴿لِلْحَىِّ﴾ الذي لا يموت ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾ الذي لا ينام ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ خسر من أشرك بالله، والخيبة كل الخيبة لمن لقي الله مشركًا.

(١١٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ والحال أنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ زيادة في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ نقصًا من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته.

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي، الذي يفهمونه ويفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ وخوَّفناهم فيه بضروب من الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربيًّا، وكونه مصرفًا فيه من الوعيد، أكبر سبب وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح.

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ جل وارتفع، وتقدس عن كل نقص وآفة، ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية نافذة فيهم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وجوده، وملكه، وكماله حق، فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه مُلك قاصر باطل يزول، وأما الرب فلا يزال، ولا يزول، مَلِكًا حيًّا قيومًا جليلاً. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ

(١١١) في «صحيح مسلم» من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

وَحۡيُهُۥۖ﴾ لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقرأه، ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه، أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله.

(١١٥) ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ﴾ ولقد وصينا آدم عليه السلام وأمرناه، وعهدنا إليه عهدًا ليقوم به، ﴿فَنَسِيَ﴾ نسي ما أمر به ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم، ثم ذكر تفصيل ما أجمله، فقال:

(١١٦) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ لما أكمل خلق آدم بيده، وعلَّمه الأسماء، وفضَّله وكرَّمه، أمر الملائكة بالسجود له؛ ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ فبادروا بالسجود ممتثلين ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾؛ أي: وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم.

(١١٧) ﴿فَقُلۡنَا﴾ قال الله ﷻ لآدم عليه السلام: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ حواء عليها السلام، ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا﴾ إياك أن يسعى في إخراجكما ﴿مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ تتعب وتنصب، وتعنى في طلب الرزق، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة.

وقد استنبط بعض الأذكياء من هذه الآية: أن عمل الرجل مختلف عن عمل المرأة من الجهة الدنيوية، فمجال الرجل أن يكد ويسعى؛ ليوفر العيش الهنيء لزوجته وأولاده، والمرأة راعية في بيت زوجها تقوم على تربية أولاده، وتحفظ ماله ونفسها وبيتها، ولذلك فالذين يريدون أن تخرج المرأة من بيتها لا يحبون لها السعادة، بل الشقاء والضنك والقلق.

(١١٨) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا﴾ لا تعطش ﴿وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ تصيبك الشمس بحرها وأذاها؛ لأنه ليس في الجنة شمس، وأهلها في ظل ممدود.

وهذان أيضًا متقابلان؛ فالظمأ: حر الباطن، والضحى: حر الظاهر، وفي هذه الآيات: أن الله ضمن لآدم وزوجته عليهما السلام الرزق، وطلب منهما العبادة بفعل المأمور وترك المحظور.

(١٢٠) ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ﴾ لآدم عليه السلام ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إبليس لعنه الله ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ التي من أكل منها خلد في الجنة ﴿وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ لا ينقطع إذا أكلت منها.

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا﴾؛ يعني: آدم وحواء عليهما السلام،

(١٢١) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك. قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيًا، فبكم وجدت الله كتب في التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟»، قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى».

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿مِنْهَا﴾ من الشجرة التي نهاهما اللّه عنها ﴿فَبَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا﴾ لآدم وحواء ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾ وبدا لكل منهما عورة الآخر بعد أن كانا مستورين ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ وجعلا يرقعان ويلزقان ويصلان على أنفسهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ من ورق أشجار الجنة؛ ليستترا ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ بفعل ما لم يكن له فعله، وهذا قبل التوبة والاجتباء.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختاره واصطفاه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ يسر له طريق التوبة، وعفى عنه، ﴿وَهَدَىٰ﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره.

(١٢٣) ﴿قَالَ﴾ اللّه تعالى لآدم وحواء عليهما السلام ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾ كلكم: آدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أمر اللّه تعالى آدم وذريته أن يتخذوا إبليس وذريته عدوًّا لهم، ويأخذوا حذرهم ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ سينزل عليهم كتبًا، ويرسل إليهم رسلاً: يبينون لهم الطريق المستقيم الموصل إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ وأنهم في أي وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه، بأن فعل ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ عن كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ثبت عن جمع من السلف أن المراد: عذاب القبر، وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصر والبصيرة.

(١٢٥) ﴿قَالَ﴾ على وجه الذل والتألم من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ في دار الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة؟

(١٢٦) ﴿قَالَ﴾ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ بإعراضك عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العذاب، فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل.

(١٢٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هذا الجزاء ﴿نَجْزِى﴾؛ أي:

نجزيه ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم، وجاوز ما أذن له، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فاللَّه لم يظلمه، ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب: إسرافه وعدم إيمانه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضعافًا مضاعفة ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لكونه لا ينقطع.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ ما أحل اللَّه بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسمارهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ العقول السليمة والفطر المستقيمة.

(١٢٩) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ هذه تسلية للرسول ﷺ وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن اللَّه جعل العقوبات سبباً وناشئًا عن الذنوب، ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة؛ ولهذا أمر اللَّه رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، فقال:

(١٣٠) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وأمره أن يتعوض عن ذلك ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾؛ يعني: صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ يعني: صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ أوقات الليل وساعاته ﴿فَسَبِّحْ﴾؛ يعني: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ يعني: صلاة الظهر ﴿لَعَلَّكَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿تَرْضَىٰ﴾ بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: ولا تمد عينيك

---

(١٣٠) في «الصحيحين» من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر، لا تضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ هذه الآية.

(١٣١) وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ في المشربة التي اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسدًا مضجعًا على رَمْل حصير، وليس في البيت إلا صُبرة من قرظ، وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟». فقال: يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟». وفي رواية: «وفي شك أنت يابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض».

معجبًا، ولا تكرر النظر مستحسنًا ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ إلى أحوال الدنيا والممتعين بها من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابًا بأبصار المعرضين ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ وإنما جعلها اللّه فتنة واختبارًا؛ ليعلم من يقف عندها، ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجًا في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم، وظلها ممدود.

(١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة، بإقامتها بحدودها، وأركانها، وخشوعها ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم فكيف بمن قام بأمرنا واشتغل بذكرنا؟! ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها؛ كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف:١٢٨].

(١٣٣) ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هلاَّ يأتينا بآية من ربه؟ يعنون: آيات الاقتراح، ولأن قولهم يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها.

(١٣٤) ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم ﴿لَقَالُوا۟﴾ لكانوا قالوا يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ بالعقوبة، فها قد جاءكم رسولي، ومعه آياتي وبراهيني؛ فإن كنتم كما تقولون؛ فصدقوه.

(١٣٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد مخاطبًا للمكذبين لك الذين يقولون: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾

---

(١٣٢) أخرج الإمام مالك وابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد صحيح عن زيد بن أسلم عن أبيه: كان يبيت عند عمر بن الخطاب من غلمانه أنا ويرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام؛ يعني: أهله، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وفي «سنن الترمذي» وابن ماجه و«مسند الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبان» بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك».

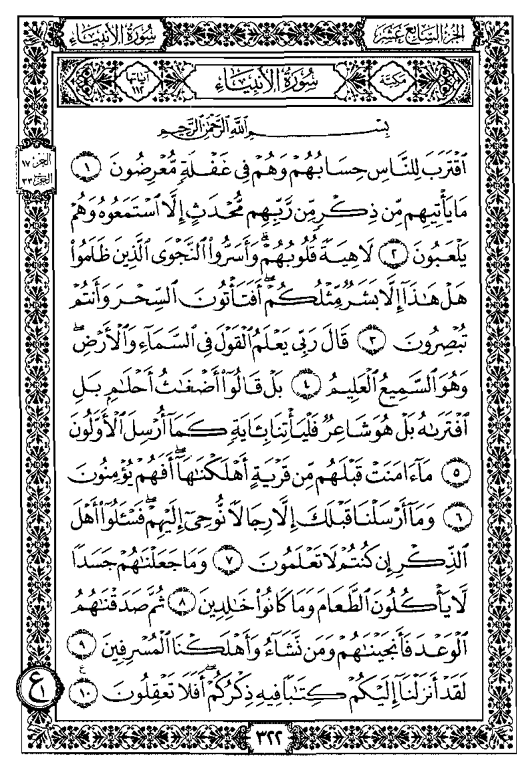
بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه، هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه؛ فهو خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه.

سورة الأنبياء(*)

(١) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٢]؛ أي: قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم، وهو يوم القيامة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ والحال: أنهم في غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به.

(٢) ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ يذكر ما ينفعهم ويحثهم عليه، وما يضرهم ويرهبهم منه، ﴿مُّحْدَثٍ﴾ جديد إنزاله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ سماعًا تقوم عليهم به الحجة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حالهم أنهم لاعبون، لا يعتبرون ولا يتيقظون.

(٣) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ قلوبهم غافلة معرضة بمطالبها الدنيوية، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطئوا فيما بينهم، وقالوا في الرسول ﷺ: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: إنه بشر


الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء
سورة الأنبياء — مكية — آياتها ١١٢
الجزء ١٧ — الحزب ٣٣
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
٣٢٢

مثلكم، وإنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفِّروا الناس، وقولوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أي: أفتتبعونه فتكونون كما يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر.

(٤) ﴿قَالَ﴾ محمد ﷺ: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ الخفي والجلي ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في الضمائر، وأكنته السرائر.

(٥) ﴿بَلْ قَالُوا﴾؛ أي: المكذبون بالنبي

(*) في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأُوَل - يعني: السور التي أنزلت أولاً بمكة - وهن من تِلادي؛ يعني: أول ما حفظت».

(٢) أخرج النسائي في «السنن الكبرى» بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «في الدنيا».

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

محمد ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم الأقاويل الباطلة المختلقة، فتارة يقولون: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس وتارة يقولون: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه وتقوّله من عند نفسه: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إنه شاعر وما جاء به شعر، ولهذا قال اللَّه عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد ﷺ إن كان صادقًا ﴿بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ كناقة صالح، وعصى موسى، ونحو ذلك وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى:

(٦) ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ قبل مشركي مكة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية أتتهم الآيات ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بالتكذيب ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الآيات المقترحة، وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبدًا.

(٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ والمعنى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهم: أهل العلم من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، يخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم. وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين: أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية، لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾.

(٨) ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون.

(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ وأن اللَّه صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المكذبين لهم.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ أيها المرسل إليهم محمد ابن عبد اللَّه بن عبد المطلب ﷺ ﴿كِتَٰبًا﴾ جليلاً وقرآنًا مبينًا ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم وفخركم وارتفاعكم؛ كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ فلو كان لكم عقل؛ لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه وسلكتم غيره من الطرق التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما؛ علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح.

(١١) يقول تعالى محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين لرسولهم بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الأمم: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تلفت عن آخرها. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ بسبب ظلم أهلها وكفرهم، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أحدثنا بعد هلاكها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أمة أخرى بعدهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

(١٢) ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يفرون هاربين.

(١٣) فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: لا تهربوا؛ فإنه لا يفيدكم الركض والندم ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ﴾ ولكن إن كان لكم اقتدار؛ فارجعوا إلى ما نعمتم به من اللذات والمشتهيات ومساكنكم المزخرفات، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عما كنتم فيه من أداء شكر النعم.

(١٤) ﴿قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بذنبهم حين لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقًا لأصحاب السعير﴾ [الملك: ١٠، ١١].

(١٥) ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ الدعاء بالويل والثبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن اللَّه عادل فيما أحل بهم ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾ بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيم، قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثًا ولا لعبًا من غير فائدة، بل بالعدل والقسط؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا ﴿إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو؛ لأن ذلك نقص ومثل سوء، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ﴾ يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجودل به، فإن اللَّه ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه؛ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ مضمحل فانٍ ﴿وَلَكُمُ﴾ أيها الكفار الفجار ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله به مما لا يليق، من اتخاذ الصاحبة والولد

ومن الأنداد والشركاء.

(١٩) ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يملون ولا يسأمون؛ لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ لا يضعفون ولا يسأمون؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(٢١) ولمَّا بين تعالى كل اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له؛ أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة في غاية العجز وعدم القدرة قال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾أصنام من الخشب والحجارة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ يحيون الأموات والاستفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم.

(٢٢) ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ في السموات والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد ما فيهما من المخلوقات ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون من اتخاذ الولد والصاحبة وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

(٢٣) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول ولا بفعل، فلا يتوجه إليه سؤال؛ لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المخلوقين كلهم ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم؛ لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيدًا، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

(٢٤) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كرره استعظاماً لكفرهم، واستفظاعاً لأمرهم، وتبكيتاً، وإظهاراً لجهلهم، وهو أيضاً استفهام إنكار وتوبيخ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ فقد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ وإنما أقاموا على ما هم عليه؛ تقليدًا لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

---

(١٩)، (٢٠) أخرج ابن أبي حاتم، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» وأبو الشيخ في «العظمة» والطحاوي في «مشكل الآثار» بإسناد صحيح من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟». قالوا: ما نسمع شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

٣٢٤

(٢٥) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها: الأمر بعبادة اللَّه وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

(٢٦) ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: هؤلاء الكافرون بربهم، المكذبون لرسولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ وأنهم زعموا أن اللَّه اتخذ ولدًا، فقالوا: الملائكة بنات الله. تعالى اللَّه عن قولهم، فقال تعالى رادًا عليهم: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي أن: عبيد مربوبون مدبَّرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيَّرهم من عبيد كرامته ورحمته، في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً.

(٢٧) ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة حتى يقول الله؛ لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ مهما أمرهم؛ امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه فعلوه؛ فلا يعصونه طرفة عين.

(٢٨) ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ جميع أمورهم الماضية والمستقبلة، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه؛ شفعوا فيه ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

(٢٩) ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ وأن من قال منهم: ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى اللَّه من جميع الوجوه مشاركته اللَّه في خصائص الإلهية والربوبية؟!

(٣٠) ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بأبصار قلوبهم فيروا بها، ويعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ كانتا ملتصقتين، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ فصلتا بينهما السماء بالمطر،

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

٣٢٥

والأرض بالنبات ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ وخلقنا ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ أحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حي؛ من الإنسان والحيوان والنبات، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إيمانًا صحيحًا، ما فيه شك ولا شرك.

(٣١) ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته: أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال أرساها بها وأوتدها ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ لئلا تضطرب بالعباد، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبالاً شامخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلاد، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا﴾؛ أي: ومن حكمة الله ورحمته: أن جعل بين تلك الجبال ﴿فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾ طرقًا سهلة لا حزنة ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

(٣٢) ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا﴾ للأرض التي أنتم عليها ﴿مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ من السقوط ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ غافلون لاهون.

(٣٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير وتقدير آخر، ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ يدورون.

(٣٤) ولما كان أعداء الرسول يقولون: تربصوا به ريب المنون. قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ﴾ أي: فهذا طريق مسلوك فلم نجعل لبشر ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسبيل أمثالك، من الرسل والأنبياء، والأولياء، وغيرهم.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾؛ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذًا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان؛ ولهذا قال تعالى:

(٣٥) ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾؛ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ ابتلاهم بالخير والشر والموت؛ فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٣٦) ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من كفار مكة ومشركي قريش؛ كأبي جهل وأمثاله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يستهزءون بك، ويتخذونك سخريًا، وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ أي: هذا المحتقر - بزعمهم - الذي يسب آلهتكم ويذمها، ويقع فيها؟! أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به. ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هنا بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو - بالكفر والشرك.

(٣٧) ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ أي: خلق عجولاً؛ يبادر الأشياء، ويستعجل وقوعها ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ في انتقامي ممن كفر بي وعصاني ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ ذلك.

(٣٨) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الذين كفروا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ قالوا هذا القول اغترارًا، ولمَّا يحق عليهم العقاب، وينزل بهم العذاب.

(٣٩) فـ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حالهم الشنيعة ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ لا يدفعون ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب وغشيهم من كل مكان ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ لا ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا.

(٤٠) ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم﴾ النار ﴿بَغۡتَةٗ﴾ فجأة ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون فيؤخر عنهم العذاب فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا!

(٤١) ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ أي: نزل بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

(٤٢) ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم﴾ يحرسكم ويحفظكم ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ إذا كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ أي: بدله وغيره؛ أي: هل يحفظكم أحد غير الله؟ لا حافظ إلا هو ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ فلهذا أشركوا به وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، ولهُدوا لرشدهم، ووفقوا في أمرهم.

(٤٣) ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ إذا أردناهم بسوء هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء والشر النازل بهم؟ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ هذه الآلهة التي استندوا إليها من دون الله لا يستطيعون نصر أنفسهم، ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذ لم يعانوا من الله فهم مخذلون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة.

(٤٤) ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ في الدنيا؛ حيث أعطيناهم النعم وأمهلناهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ وأطلنا أعمارهم، فامتد بهم الزمان، فاغتروا واشتغلوا بالتمتع

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

نصف الحزب ٣٣ — ع

بها، ولهوا بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، وأحسن ما قيل: ما ننقص من أطراف المشركين، ونزيد في أطراف المؤمنين؛ أي: ظهور النبي ﷺ والمسلمون وفتحهم ديار الشرك أرضًا فأرضًا ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم؛ أذعنوا، وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

(٤٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾؛ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله إليَّ؛ فإن استجبتم، فقد استجبتم لله، وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؛ أي: الأصم لا يسمع صوتًا؛ لأن سمعه قد فسد وتعطل، شبه الكفار بالصُّمِّ الذين لا يسمعون نداء مناديهم؛ ووجه التشبيه أن هؤلاء لم ينتفعوا بما سمعوا، كالصُّمِّ لا يفيدهم صوت مناديهم.

(٤٦) ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ أصابهم، ولو ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ جزء يسير من عذابه ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يخبر تعالى عن حكمه العادل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر،

---

(٤٧) أخرج الترمذي والإمام أحمد بإسناد صحيح عن عائشة ﵂: أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونني، ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم؛ فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك عليهم، وإن كان عقابك بقدر ذنوبهم كان كفافًا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك». فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ، ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ما له ما يقرأ من

الذي توزن به الحسنات والسيئات، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة ولا كافرة ﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها، ليُجازى بها صاحبها، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسبًا؛ أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها.

(٤٨) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿وَضِيَاءً﴾ يهتدي به المهتدون، ويأتم به السالكون ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر. وخص ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بذلك علمًا وعملاً، ثم فسر المتقين فقال:

(٤٩) ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون.

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ فوصفه بوصفين جليلين؛ كونه ذكرًا يتذكر به جميع المطالب الشرعية: عقائد وعبادات ومعاملات، ومباركًا يقتضي كثرة خيراته ونماءها وزيادتها، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟!

(٥١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد، ونزول كتابيهما، وأعطاه من الرشد الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة؛ لعلمنا أنه أهل لذلك.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ التي مثلتموها ونحتموها بأيديكم ﴿الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك.

(٥٣) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبوه ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ وجدناهم كذلك يفعلون، فسلكنا سبيلهم، وأتبعناهم على عبادتها.

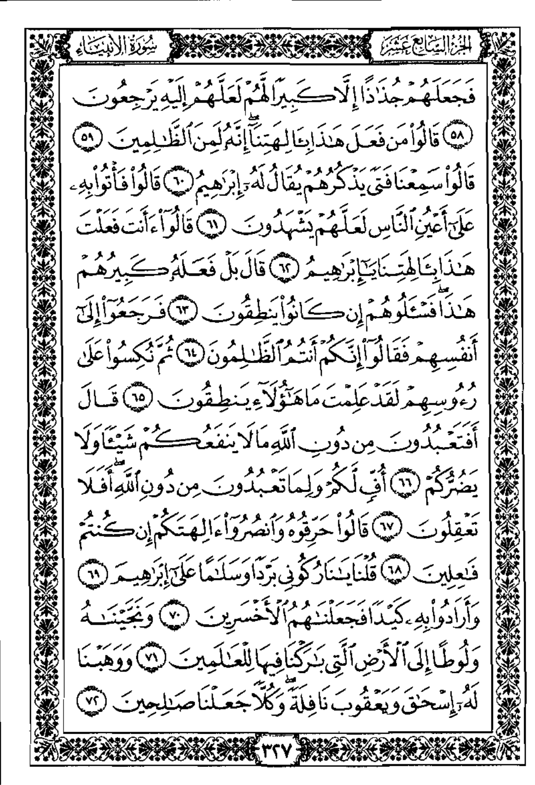
(٥٤) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ضلال بين واضح بعبادتكم لها.

(٥٥) ﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ يقولون: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجدّ؟ أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ؟

(٥٦) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ بأن الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأيُّ شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا خليل الرحمن.

(٥٧) ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم.

= كتاب الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾»، فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد شيئًا خيرًا من فراق هؤلاء -يعني: عبيده-، إني أشهدك أنهم أحرار كلهم.



(٥٨) ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ كسرًا وقطعًا ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ إلا صنمهم الكبير ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا؛ لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته.

(٥٩) ﴿قَالُوا﴾ حين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها، ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده.

(٦٠) ﴿قَالُوا﴾ أي: الذين سمعوا قول إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ شابًا ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويذمهم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ هو الذي نظن أنه صنع هذا.

(٦١) فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ﴾ بإبراهيم ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم.

(٦٢) فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ التكسير ﴿بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ وهذا استفهام تقرير؛ أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

(٦٣) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: كسرها غضبًا عليها؛ لما عبدت معه، وأراد بذلك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إقامة

(٦٣) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. - قال -: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس. فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إليَّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الجبار سألني عنك؟ فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها، فأُخذ أخذًا شديدًا، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت له فأُرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأُخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة فأُخذ، فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأُرسل، ثم دعا أدنى حجابه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال: مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمني هاجر». وكان أبو هريرة إذا حدَّث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

الحجة عليهم، فذلك قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ وأراد الأصنام المكسرة، اسئلوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، اسألوه لأي شيء كسرها ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ حتى يخبروا من فعل ذلك بهم.

(٦٤) ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تتهكم بنا، وتستهزئ بنا، وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

(٦٦) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لهم موبخاً لهم ومعلناً بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ فلا نفع ولا دفع.

(٦٧) ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ﴾ تبًا لكم ﴿وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ لتعرفوا هذه الحال.

(٦٨) فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، فـ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ اقتلوه أشنع القتلات بالإحراق ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ غضبًا لآلهتكم، ونصرة لها.

(٦٩) ﴿قُلۡنَا﴾؛ أي: اللَّه ﷻ خاطب النار قائلاً: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ لو قال بردًا ولم يقل سلامًا؛ لمات إبراهيم من بردها، ولكن قال سبحانه: ﴿بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ فكانت عليه بردًا وسلامًا، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه.

(٧٠) ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ حيث عزموا على إحراقه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، كما جعل اللَّه خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

(٧١) ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ من النمرود وقومه من أرض العراق ﴿وَلُوطًا﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ بلاد الشام.

(٧٢) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ حين اعتزل قومه ﴿إِسۡحَٰقَ﴾ بدعائه، حيث قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ ولد الولد ﴿نَافِلَةٗ﴾ أي: زيادة، والنافلة أيضاً العطية، وهما جمعياً - إسحاق ويعقوب - من عطاء الله، لكن أعطاه الله تعالى إسحق بدعائه، وزاده يعقوب ﴿وَكُلّٗا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ قائمين بحقوقه، وحقوق عباده.

---

(٦٩) أخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم بإسناد صحيح لغيره عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي؛ قالت: دخلتُ على عائشة ﵂ فرأيت في بيتها رمحًا، فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ؛ إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوزغ؛ فإنه كان ينفخ على إبراهيم»؛ فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يهدون الناس بديننا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ولأن الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا﴾ لا لغيرنا ﴿عَٰبِدِينَ﴾ مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هذا ثناء من اللَّه على رسوله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس بالصواب والسداد، وأن اللَّه أرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فقلب اللَّه عليهم ديارهم، وعذبهم عن آخرهم؛ لأنهم ﴿قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى اللَّه لوطًا وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً؛ ليبعدوا عن القرية، فسروا ونجوا، وذلك من فضل اللَّه عليهم ومنته.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا الإنعام خاص بعباد اللَّه الصالحين، ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم في كل أحواله وجميع أحيانه.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا﴾ واذكر عبدنا ورسولنا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مثنيًا مادحًا ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم ولوط عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ فاستجاب اللَّه له، ونجى اللَّه نوحًا وأهله ومن معه من المؤمنين ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الشدة والتكذيب والأذى والطوفان.

(٧٧) ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ نجيناه وخلصناه منتصرًا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فأغرقهم الله تعالى ولم يُبقِ منهم أحدًا.

(٧٨) ﴿وَ﴾ اذكر هذين النبيين الكريمين

---

(٧٨) أخرج أحمد وابن ماجه والبيهقي بإسناد صحيح: أن ناقة للبراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخلت حائط رجل، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ: «أن على أهل الحوائط حفظها في النهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها».

﴿وَدَاوُدَ﴾ وولده ﴿وَسُلَيْمَنَ﴾ عليهما السلام، مثنيًا مبجلاً، إذ آتاهما اللَّه العلم الواسع والحكم القاطع بين العباد بدليل قوله تعالى ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي: الزرع، وقيل: كَرْم ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ رعته ليلاً بدون راعٍ، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ حاضرين صدور حكمهما في القضية، لا يخفى علينا شيء من ذلك.

وكان حكم داود: أن يأخذ صاحب الحرث الماشية مقابل ما أتلفته؛ لأن المتلف يعادل قيمة الغنم التي أتلفته.

وحكم سليمان: بأن يأخذ صاحب الماشية الزرع، يقوم عليه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الماشية يستغل صوفها ولبنها وسخالها، فإذا ردت إليه كرومه وزروعه كما كانت أخذها ورد الماشية لصاحبها لم ينقص منها شيء، وكان حكمه موافقًا للصواب؛ ولهذا قال تعالى:

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ﴾ ففهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك، أن داود لم يفهمه اللَّه في غيرها، ولهذا خصها بالذكر؛ بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

قال بعض السلف: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا، ولكن اللَّه حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده.

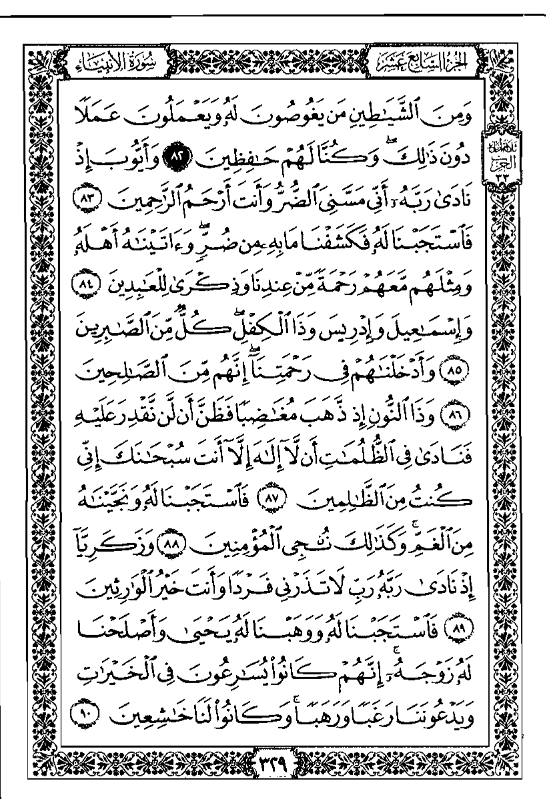
ثم ذكر ما خص به كلًّا منهما، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ ذكر أنه كان من أعبد الناس، وأكثرهم لله ذكرًا وتسبيحًا وتمجيدًا، وكان قد أعطاه اللَّه من حسن الصوت ورقته ورخامته ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله؛ جاوبته الجبال الصم، والطيور البهم، وهذا فضل اللَّه عليه وإحسانه، ولهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي: ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

(٨٠) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ علم اللَّه داود عليه السلام صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ نعمة اللَّه عليكم؟

(٨١) ﴿وَلِسُلَيْمَنَ الرِّيحَ﴾ سخرناها ﴿عَاصِفَةً﴾ سريعة في مرورها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ حيث أديرت امتثلت أمره ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء.

---

(٧٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب؛ فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله، هو ابنها. فقضى به للصغرى».



(٨٢) ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ يدخلون تحت الماء، فيخرجون الجواهر من قعر البحر ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ غير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم اللَّه له بقوته وعزته وسلطانه.

(٨٣) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ورسولنا ﴿أَيُّوبَ﴾ مثنيًا معظمًا له، رافعًا لقدره، حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابرًا راضيًا عنه ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ دعا ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ البلاء والمرض وفقدان المال والولد ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ذو رحمة واسعة وسعت كل شيء.

(٨٤) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ وذلك أنه قال: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾فنبعت عين ماء، فأمره أن يغتسل منها ويشرب، ففعل، فأذهب الله ما به من الأذى ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾ رددنا عليه أهله وماله ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ بأن منحه اللَّه العافية،

---

(٨٣) أخرج أبو يعلى في «مسنده» والبزار وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما؛ كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته؛ أمسكته امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، وأوحي إلى أيوب أن ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها، قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله المبتلى؟ ووالله على ذلك؛ ما رأيت أحداً أشبه منك إذ كان صحيحًا. فقال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير -وهو المكان الذي يوضع فيه القمح والشعير-، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح؛ أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الوَرِق - أي: الفضة - حتى فاض».

ومن الأهل والمال شيئًا كثيرًا ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ به؛ حيث صبر ورضي، فأثابه اللَّه ثوابًا عاجلاً قبل ثواب الآخرة ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ جعلناه عبرة للعابدين الذين ينتفعون بالصبر.

(٨٥) ﴿وَ﴾ اذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثنِ عليهم أبلغ الثناء ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾ ابن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ نبيين من أنبياء بني إسرائيل، ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ والصبر: هو حبس النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه.

(٨٦) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم اللَّه برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل.

(٨٧) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ورسولنا ﴿ذَا ٱلنُّونِ﴾ وهو: يونس بن متى، صاحب الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن؛ فإن اللَّه تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم؛ فلم يؤمنوا به ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ خرج من بين أظهرهم مغضبًا لهم، ووعدهم بنزول العذاب بأَمَدٍ سمَّاه لهم، فجاءهم العذاب ورأوه عيانًا، فعجوا إلى الله، وضجوا وتابوا، فرفع اللَّه عنهم العذاب ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وظن أن اللَّه لا يضيق عليه في بطن الحوت، فركب في السفينة مع أناس؛ فاقترعوا من يُلقون في البحر لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحر، ﴿فَنَادَىٰ﴾ في تلك الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته.

(٨٨) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾؛ أي: الشدة التي وقع فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع

(٨٧) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد حسن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يرد عليَّ السلام، فأتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قال: قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفًا في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يرد عليَّ السلام،! فأرسل عمرُ إلى عثمان، فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال عثمان: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. قال: حتى حلف وحلفت. قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفًا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة.

قال: قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ، فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فَمَهْ؟» قال: قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنه لم يدعُ بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له».

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾

في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها.

(٨٩) ﴿وَ﴾ اذكر عبدنا ورسولنا ﴿زَكَرِيَّآ﴾ منوهًا بذكره، ناشرًا لمناقبه وفضائله ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ دعا ربه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته وحيدًا، ولا يخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به، ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ خير الباقين، وخير من خلفني بخير.

(٩٠) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ النبي الكريم الذي لم يجعل الله له من قبل سميًا، ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ بعدما كانت عاقرًا لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل؛ لأجل نبيه زكريا ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يبادرون إليها، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

(٩١) ﴿وَ﴾ اذكر مريم عليها السلام، مثنيًا عليها، مبينًا لقدرها، شاهرًا لشرفها ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ حفظته من الحرام وقربانه ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ نفخ فيه جبريل عليه السلام فحملت بإذن الله ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ حيث حملت به، ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون.

(٩٢) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب واحد، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ الذي خلقتكم وربيتكم بنعمتي في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدًا، والنبي واحدًا، والدين واحدًا، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة؛ كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء

(٩٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لِعَلَّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد».

ترتيب المسبب على سببه.

(٩٣) وكان اللائق الاجتماع على توحيد الله وعبادته وعدم التفرق، لكن البغي والاعتداء أبيا إلا التفرق، ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ﴾ تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقًا، وتشتتوا أحزابًا، ﴿كُلٌّ﴾من الفرق المتفرقة ﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ فنجازيهم أتم الجزاء.

(٩٤) ثم فصل جزاءه فيهم منطوقًا ومفهومًا، فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الأعمال التي شرعتها الرسل عليهم السلام ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسله وما جاءوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافًا كثيرة ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة؛ أي: ومن لم يعمل من الصالحات أو عملها وهو ليس بمؤمن؛ فإنه محروم خاسر في دينه ودنياه.

(٩٥) ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ يمتنع على أي أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ بعذابنا ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فرطوا في جنب الله.

(٩٦) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ هذا تحذير من الله للناس أن يقيموا على الكفر

(٩٦) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث النَّوَّاس بن سَمْعَان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخَفَّض فيه ورَفَّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟». قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداةً، فخفَّضت فيه ورفَّعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قَطَط، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلةً بين الشأم والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا». قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يومًا؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله! وما إسراعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت؛ فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرًا، وأسبغه ضروعًا، وأمدُّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم؛ فيردُّون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحِلِين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخَرِبَة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعه جِزْلَتين، رَمية الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرُودَتَيْنِ - حلتين-، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات، =

والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ من كل مكان مرتفع ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون، وخروجهم من علامات الساعة الكبرى؛ كما تواتر في الأحاديث الصحيحة الصريحة، ولهذا قال:

(٩٧) ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يوم القيامة الذي وعد اللَّه بإتيانه، ووعده حق وصدق ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة، لا تكاد تطرف من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة، والقلاقل المفظعة، ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بظلمهم، وعدْلِ اللهِ فيهم، فحينئذٍ يؤمر بهم إلى النار وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إنكم أيها العابدون مع اللَّه آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقودها وحطبها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ داخلون فيها مع أصنامكم وآلهتكم.

(٩٩) ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ لو كانت هذه الأصنام التي اتخذتموها من دون اللَّه آلهة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ العباد والمعبودون، لا يخرجون منها ولا ينتقلون عنها.

(١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ من شدة العذاب

= ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه، حتى يدركه بباب لُدّ، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إنى قد أخرجت عبادًا لى لا يَدَان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطُّور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون -يسرعون-، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثَّور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَف - دود يكون في أنوف الإبل والغنم - فى رقابهم، فيصبحون فَرْسَى -قَتْلَى- كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يَكُنُّ - يستر- منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة -المرآة-، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدِّى بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقِحْفها - مقعَّر قشرها -، ويبارك فى الرِّسْل - اللبن - حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبةً، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر؛ فعليهم تقوم الساعة».

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها؛ لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها، ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عُبد، وهو راض بعبادته، وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله:

(١٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ، وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾ عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونوا قريبًا منها، بل يبعدون عنها غاية البعد.

(١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ حتى لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الحَجِّ — مدنية — آياتها ٧٨

٣٣١

---

(١٠١) أخرج الإمام أحمد والطبراني في «الكبير» والطحاوي في «مشكل الآثار» بإسناد صحيح لغيره عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: آية في كتاب الله لا يسألني الناس عنها، ولا أدري، أعرفوها؛ فلا يسألوني عنها، أم جهلوها؛ فلا يسألوني عنها؟!! قيل: وما هي؟ قال: آية لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. شق ذلك على أهل مكة، وقالوا: شتم محمد آلهتنا. فقام ابن الزِّبَعْرَى، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: شتم محمد آلهتنا. قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. قال: ادعوه لي. فدعي محمد ﷺ، فقال ابن الزِّبَعْرَي: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة، أم لكل من عبد من دون الله؟ قال: «بل لكل مَن عُبد من دون الله عَزَّ وَجَلَّ». قال: فقال: خصمناه ورب هذه البَنية! يا محمد، ألست تزعم أن عيسى عبد صالح، وعزيرًا عبد صالح، والملائكة عباد صالحون؟! قال: «بلى». قال: فهذه النصارى يعبدون عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة. قال: فضج أهل مكة، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ عيسى، وعزير، والملائكة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧].

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

(١٠٣) ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فليهنكم ما وعدكم الله.

(١٠٤) ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما يطوي الكاتب للسجل؛ أي: الورقة المكتوب فيها ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾؛ أي: إعادتنا للخلق، مثل ابتدائنا لخلقهم؛ فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئًا، كذلك نعيدهم بعد موتهم ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ننفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ وهو الكتاب المزبور؛ أي: : المكتوب، والمراد الكتب المنزلة كالتوراة ونحوها ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: كتبناه في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو: اللوح المحفوظ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ يتبلغون به، في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته.

(١٠٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو رحمته المهداة لعباده.

(١٠٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته.

(١٠٩) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلات، ونزول العقوبة ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكم بالعقوبة ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي علمي وعلمكم بذلك مستو ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب؛ لأن علمه عند اللّه، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

(١١٠) ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: الله يعلم ما يظهره العباد ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ويعلم ما يسرون، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى.

(١١١) ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ شر لكم ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإن تتمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

(١١٢) ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أحكم يبيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة«بدر» وغيرها.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ في الكذب والباطل والأفراء نسأل ربنا الرحمان ونستعين به ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ من الكذب والباطل والافتراء.

* * *

سورة الحج

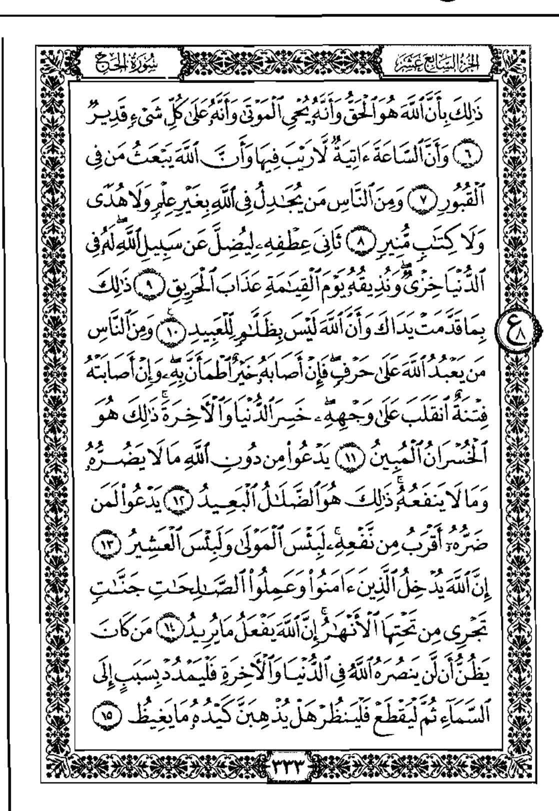
بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ يخاطب اللَّه الناس كافة بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم: أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمتثلوا أوامره مهما استطاعوا، ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأهوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه؛ ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض، وزلزلت زلزالها وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كثيباً مهيلاً، ثم كانت هباءً منبثًا، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج، فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تنصدع له القلوب، وتجلُ منه الأفئدة وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال:

(٢) ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾؛ أي: الساعة ﴿تَذۡهَلُ﴾ تشغل ﴿كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ امراة معها ولد ترضعه ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصًا في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم لا يجزي

(٢) أخرج الإمام أحمد والنسائي في «الكبرى»، حديث عمران بن الحصين رضي الله عنهما الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا الخطى، وعرفوا أنه عنده قول يقوله، فلما تأشبوا حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك؟ ذاك يوم يُنادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل فيقول: يا آدم ابعث بعثك إلى النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فواالذي نفس محمد بيده - إنكم لمع خليقتين ما كانتا في شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فسري عنهم، ثم قال: «اعملوا وأبشروا، فو الذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرقمة في ذراع الدابة».


الجزء السابع عشر — سورة الحج

ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴿٦﴾ وأن الساعة ءاتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴿٧﴾ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿٨﴾ ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿٩﴾ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿١٠﴾ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴿١١﴾ يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ﴿١٢﴾ يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴿١٣﴾ إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴿١٤﴾ من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴿١٥﴾

٣٣٣

والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا.

(٣) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال وجعلوا يجادلون بالباطل الحق ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ والحال، أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ وغاية ما عندهم: تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله، وعلى رسله، معاند لهم.

(٤) ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ قدِّر على هذا الشيطان المريد ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ في الدنيا عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم، ﴿وَيَهۡدِيهِ﴾ يقوده ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهو الحار المؤلم المقلق المزعج.

(٥) ولما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ وذلك بخلق أبي البشر: آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾؛ أي: مَنِيّ، وهذا ابتداء أول التخليق ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ تنقلب تلك النطفة، بإذن الله، دمًا أحمر ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ ينتقل الدم مضغة: قطعة لحم، بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ مصور منها خلق الآدمي ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام، قبل تخليقها ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ أصل نشأتكم ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ نبقي في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام ﴿مَا نَشَآءُ﴾ إبقاءه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهو مدة الحمل ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفۡلٗا﴾ لا تعلمون شيئًا، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق ثم تنتقلون، طورًا بعد طور، ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ وهو: كمال القوة والعقل ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أخسه وأرذله، وهو: سن الهَرَم والتخريف، الذي به يزول العقل، ويضمحل ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئًا، مما كان يعلمه قبل ذلك ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ خاشعة مغبرة لا نبات فيها، ولا خضرة ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ

﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتۡ﴾ ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ صنف من أصناف النبات ﴿بَهِيجٖ﴾ يبهج الناظرين، ويسر المتأملين.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: لتعلموا أن الله هو الحق، وأنه هو الرَّب المعبود: الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته، وعظيم صنعته، ما أشهدكم.

(٧) ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ فلا وجه لاستبعادها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فيجازيكم بأعمالكم: حسنها وسيئها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ ويخاصم في توحيد الله وإفراده بالألوهية ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ منه بما يخاصم به ﴿وَلَا هُدٗى﴾ غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ واضح بين.

(٩) ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ لاوي جانبه وعنقه، وهذا من كبره عن الحق، واحتقاره للخلق ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ دين الله ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، ويقال له إذا أذيق عذاب النار يوم القيامة:

(١٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ والأمر أنه تعالى ليس بمعذب عبيده بغير ذنب من قبلهم.

(١١) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته ﴿مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ بل دخل فيه: إما خوفًا، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكاره شيء؛ اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ ارتد عن دينه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بفوات ما كان يؤمل﴿وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ لأنه من أهل النار ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الواضح البين.

(١٢) ﴿يَدۡعُواْ﴾ هذا الراجع على وجهه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إن عصاه ولم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ إن أطاعه وعبده. وهذا صفة كل مدعو ومعبود، من دون اللّٰه فإنه لا يملك

---

(٧) في «سنن أبي داود» و«ابن ماجه» و«المسند» للإمام أحمد حديث أبي رزين العقيلي الصحيح قال: يا رسول الله أكلنا يرى ربه ﷻ يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم» قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك ممحلًا؟» قال: بلى. قال: « ثم مررت به يهتز خضرًا؟ قال: بلى. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه».

(١١) في «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإذا ولدت امرأته غلامًا، ونُتجت خيلُه، قال: هذا دِين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله، قال: هذا دِين سُوء.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟
فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

ربع الحزب — سجدة

٣٣٤

لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ الذي بلغ في البعد إلى حد النهاية.

(١٣) ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ فإن ضرره في العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هذا المعبود من دون الله ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ القرين الملازم على صحبته؛ فإن المقصود من المولى والعشير حصول النفع ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

(١٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أخبر تعالى أنه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وسميت الجنة جنة؛ لاشتمالها على المنازل والقصور والأشجار والنباتات التي تُجِنُّ مَن فيها؛ أي: تستره من كثرتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فمهما أراده تعالى فعله من غير ممانع ولا معارض.

(١٥) ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ من كان يظن أن اللَّه لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل، فإن النصر من اللَّه ينزل من السماء ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ هذا الظان ﴿بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وليرقى إليه ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ النصر النازل عليه من السماء ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ ما يكيد به الرسول، ويعمله من محاربته، والحرص على إبطال دينه، ﴿مَا يَغِيظُ﴾ ما يغيظه من ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: إنه لا يقدر على شفاء غيظه، بما يعمله من الأسباب، وقيل: أراد بالسماء سقف البيت؛ أي: ليشدد حبلاً في سقف بيته فليختنق به حتى يموت، أي فليختنق غيظاً حتى يموت.

(١٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا؛ جعلناه آيات واضحات، دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة ولكن الهداية بيد اللَّه.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض: من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين، واليهود، والنصارى، والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أن اللَّه سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم، التي حفظها وكتبها، وشهدها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ شهيد على أفعالهم، حفيظ

لأقوالهم، عليم بأسرارهم، وما تكن ضمائرهم.

(١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة في أقطار السماوات والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ خص هذه؛ لأنها عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة؛ كما في قوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ﴾ فسجودهما بفيئ ظلالهما عن اليمين والشمائل ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ والحيوانات كلها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يسجد له طوعًا مختارًا متعبدًا بذلك ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ يهنه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ من يذله الله فلا يكرمه أحد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته.

(١٩) ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ كل يدعي أنه الحق ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين، ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ الماء الحار جدًا.

(٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره

الجزء السابع عشر — سورة الحج

وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣٣٥

﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ يشوي حرها جلودهم فتتساقط.

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ سياط من حديد بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم.

(٢٢) ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فلا يفتر عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ﴿وَ﴾ يقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ المحرق للقلوب والأبدان.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير

---

(١٨) في «الصحيحين» من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»

(١٩) في «الصحيحين» عن أبي ذر؛ قال: نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وصاحبيه علي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة.

المسلمين الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ يسورون في أيديهم، رجالهم ونساؤهم، أساور الذهب ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فتم نعيمهم بذلك، من أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها، لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر.

(٢٤) ﴿وَ﴾ ذلك بسبب أنهم ﴿ هُدوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة: التي فيها، ذكر اللَّه، أو إحسان إلى عباد اللَّه ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الصراط المحمود، وذلك؛ لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد، وحسن المأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر باللَّه ورسوله، وبين الصد عن سبيل اللَّه، ومنع الناس من الإيمان ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والصد عنه ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارئ إليه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد في الحرم موجب للعذاب - وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم- فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم: من الكفر والشرك، والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة، فما ظنهم أن يفعل اللَّه بهم؟!

(٢٦) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ هيأناه له، وأنزلناه إياه. وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنيانه على تقوى الله، وأسسه على طاعة الله وبناه هو وابنه إسماعيل ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ وأمره أن لا يشرك به شيئا، بأن يخلص للَّه أعماله، ويبنيه على اسم اللَّه ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه لكونه بيت الرب ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ به ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات، من ذكر، وقراءة، وتعلم علم، وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلين؛ أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم، طاعة مولاهم، وخدمته والتقرب إليه عند بيته فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم: تطهير البيت لأجلهم.

(٢٧) ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم: فرضه وفضيلته ﴿يَأْتُوكَ﴾ أتوك حجاجاً وعماراً ﴿رِجَالًا﴾ مشاة على أرجلهم من الشوق ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ناقة ضامر، تقطع المهامة والمفاوز، وتواصل السير، حتى تأتي إلى

(٢٥) أخرج الإمام أحمد والبزار والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بعدن أبين، لأذاقه الله من العذاب الأليم.

أشرف الأماكن ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ من كل بلد بعيد.

(٢٨) ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ لينالوا ببيت اللّه منافع دينية من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه ومنافع دنيوية من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية؛ أي: ليذكروا اسم اللّه عند ذبح الهدايا، شكراً للّه على ما رزقهم منها، ويسرها لهم؛ فإذا ذبحتموها ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ شديد الفقر.

(٢٩) ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى الذي لحقهم في حال الإحرام ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج والعمرة والهدايا ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ القديم: أفضل المساجد على الإطلاق، والمعتق: من تسلط الجبابرة عليه.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ الذي ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات اللّه وإجلالها، وتكريمها ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ﴾ يكرم ويجل ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كل ما حرمه اللّه وأمر باحترامه من عبادة وغيرها، كالمناسك والحرم ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ في دينه ودنياه

الجزء السابع عشر — سورة الحج

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ
٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ
٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ
ٱلۡعَتِيقِ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ
ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ
فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ
قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا
رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ
جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا
لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا
وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧ ۞إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨

ع ١١ — نصف الحزب ٣٤ — ع ١٢

٣٣٦

وأخراه ﴿عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ من إبل وغنم وبقر ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ في القرآن تحريمه: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ الخبث القذر ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع اللّه ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ جميع الأقوال المحرمات؛ فإنها من قول الزور، الذي هو الكذب.

(٣١) أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مقبلين عليه، وعلى عبادته، معرضين عما سواه ﴿غَيۡرَ

---

(٢٨) في «صحيح البخاري» معلقًا بصيغة الجزم ووصله عبد بن حميد عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «الأيام المعلومات: أيام العشر».

(٣٠) في «الصحيحين» عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين – وكان متكئًا فجلس، فقال: « ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: فَمَثَله كأنما سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد.

(٣٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه لكم ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمها باستحسانها واستسمانها من تقوى القلوب.

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ في الهدايا ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هذا في الهدايا المسوقة من البدن ونحوها، ينتفع بها أربابها بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر مؤقت، وهو: ذبحها؛ إذا وصلت ﴿مَحِلُّهَآ﴾ وهو ﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ المحرم كله: منى وغيرها؛ فإذا ذبحت أكلوا منها، وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم السالفة ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ مكاناً لذبح الدماء وإراقة القرابين؛ ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند نحرها وذبحها ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع؛ فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو: ألوهية اللّه، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ انقادوا واستسلموا له؛ لا لغيره، فإن الإسلام طريق الوصول إلى دار السلام ﴿وَبَشِّرِ﴾ بخير الدنيا والآخرة ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات؛ لخوفهم ووجلهم من اللّه وحده ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة والمستحبة.

(٣٦) ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ الإبل والبقر ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ للمهدي وغيره، في الدنيا من الأكل، والصدقة، والانتفاع، وفي الآخرة من الثواب، والأجر ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند ذبحها قولوا: بسم الله، واذبحوها ﴿صَوَآفَّ﴾؛ أي: قائمات؛ بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض جنوبها حين تسلخ ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الفقير الذي لا يسأل تقنعاً وتعففاً، والفقير الذي يسأل؛ فكل منهما له حق فيهما ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ أي: البدن ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللّه على تسخيرها؛ فإنه لولا تسخيره لها رحمة بكم وإحساناً إليكم؛ لم يكن لكم بها طاقة.

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ ليس المقصود منها: ذبحها فقط. ولا ينال اللّه من لحومها، ولا دمائها شيء، لكونه الغني الحميد ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة؛ ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر: أن يكون القصد وجه الله وحده ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تعظموه

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

وتجلوه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ مقابلة لهدايته إياكم؛ فإنه يستحق أكمل الثناء، وأجل الحمد، وأعلى التعظيم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة اللَّه بأن يعبدوا اللَّه؛ كأنهم يرونه؛ فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة، فليعبدوه، معتقدين وقت عبادتهم: اطلاعه عليهم، ورؤيته إياهم.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من اللَّه للذين آمنوا: أن اللَّه يدفع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم - بسبب إيمانهم - كل شر من شرور الكفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ خائن في أمانته: التي حمَّله اللَّه إياها، فيبخس حقوق اللَّه عليه، ويخونها، ويخون الخلق ﴿كَفُورٍ﴾ لنعم اللَّه، يوالي اللَّه عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان؛ فهذا لا يحبه اللَّه، بل يبغضه ويمقته، وسيجازيه على كفره وخيانته.

(٣٩) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبلُ ممنوعين، فأذن اللَّه لهم بقتال الذين يقاتلونهم ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ وإنما أذن لهم لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستنصروه، وليستعينوا به.

(٤٠) ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ ألجئوا إلى الخروج، بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم: ﴿أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلا لأنهم وحدوا اللَّه، وعبدوه مخلصين له الدين ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فيدفع اللَّه بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين؛ ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ﴾؛ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب: معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ في هذه المعابد ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات، وتتلى فيها كتب اللَّه، ويذكر فيها اسم اللَّه بأنواع الذكر ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن

(٣٩) أخرج الترمذي والنسائي وابن جرير بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة؛ قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون؛ ليَهْلكُنَّ. قال ابن عباس: فأنزل الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال.

﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾ يقوم بنصر دينه مخلصاً له في ذلك، ويقاتل في سبيله؛ لتكون كلمة اللّه هي العليا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ كامل القوة، ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم؛ فأبشروا يا معشر المسلمين.

(٤١) ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع ينازعهم، ولا معارض ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيتهم عموماً، آتوها أهلها الذين هم أهلها ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف: من حقوق اللّه، وحقوق الآدميين ﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كل منكر ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ جميع الأمور ترجع إلى اللّه، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى.

(٤٢) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون؛ فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأغرقهم الله بالطوفان ﴿وَعَادٌ﴾ قوم هود عليه السلام فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام فأخذتهم الصيحة؛ فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

(٤٣) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كذبوه وحاولوا إحراقه بالنار؛ فأنجاه الله منهم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ قرى سدوم التي كانت تعمل الخبائث، فجعل الله عاليها سافلها.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب عليه السلام فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذبه فرعون وملؤه؛ فأغرقه الله في اليمِّ وهو مليم ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأفظع المثلات.

(٤٥) ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكم من قرية ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بالعذاب الشديد، والخزي الدنيوي ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بكفرها باللّه وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ فديارهم متهدمة، قصورها، وجدرانها: قد سقطت على عروشها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ وكم من بئر - قد كان يزدحم عليها الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم - فقد أهلها، وَعُدِم منها الوارد والصادر ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ وكم من قصر، تعب عليه أهله؛ فشيدوه، ورفعوه، وحصنوه، وزخرفوه؛ فحين جاءهم أمر اللّه، لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبره، ومثالاً لمن فكر ونظر.

(٤٦) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ آيات اللّه، ويتأملون بها مواقع عبره ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذبين وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى

الجزء السابع عشر — سورة الحج

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

٣٣٨

عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة؛ فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر.

(٤٧) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يستعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب، لجهلهم، وظلمهم، وعنادهم، وتعجيزاً للّه، وتكذيباً لرسله ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فما وعدهم به من العذاب لا بد من وقوعه ، ولا يمنعهم منه مانع، وأما عجلته والمبادرة إليه؛ فليس ذلك إليك يا محمد ، ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا فإن أمامهم يوم القيامة الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم حيث يقع بهم العذاب الدائم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من طوله، وشدته، وهوله؛ فسواء أصابهم عذاب في الدنيا أم تأخر عنهم العذاب؛ فإن هذا اليوم لا بد أن يدركهم.

(٤٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكم من قرية ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أمهلتها مدة طويلة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجباً لمبادرتنا بالعقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ مع عذابها في الدنيا سترجع إلى اللّه؛ فيعذبها بذنوبها.

(٤٩) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ يأمر تعالى عبده ورسوله محمد ﷺ أن يخاطب الناس جميعاً بأنه رسول اللّه حقاً، مبشراً للمؤمنين بثواب اللّه، منذرًا للكافرين والظالمين من عقابه وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ بَيِّن الإنذار وهو: التخويف مع الإعلام بالمخوف.

(٥٠) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم إيماناً صحيحاً صادقاً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما حصل منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ رزق حسن، يعني في الجنة. أي: عملوا في إبطال آياتنا.

(٥١) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾؛ أي: عملوا في إبطال آياتنا. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ يحسبون أنهم يفوتننا، وقرأت: ﴿معجّزين﴾ بالتشديد، أي: مثبطين الناس عن الإيمان . ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من السعي والمعاجزة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الملازمون للنار.

(٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يخبر الله تعالى بحكمته البالغة ، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ قرأ قراءته: التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ في قراءته، من طرقه ومكايده، ما هو مناقض

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

لتلك القراءة ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يتقنها، ويحررها، ويحفظها؛ فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ كامل القوة والاقتدار؛ فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

(٥٣) ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ لطائفتين من الناس لا يبالي اللَّه بهم: ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم؛ فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ مشاقة للَّه، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين.

(٥٤) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وأن اللَّه منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي؛ فيفرقون بين الأمرين ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبهة ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بسبب إيمانهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وهذا النوع من تثبيت اللَّه لعبده.

(٥٥) ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جئتهم به يا محمد؛ لعنادهم وإعراضهم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ مفاجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا خير فيه، وهو: يوم القيامة.

(٥٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾ تعالى، لا لغيره ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل يحكم سبحانه بين المؤمنين والكافرين ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ باللَّه ورسله، وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول.

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ باللَّه ورسله ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الهادية للحق والصواب ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كما استهانوا برسله وآياته؛

أهانهم وأخزاهم في جهنم الله بالعذاب.

(٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خرجوا من دارهم ووطنهم وأولادهم ومالهم ابتغاء وجه اللَّه، ونصرة لدين اللَّه ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ من غير قتال على فرشهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لخير من يرزق، فما رزقهم به هو خير رزق وأطيبه وأوسعه.

(٥٩) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾؛ أي: الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب.

(٦٠) ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ بأن من جني عليه وظلم فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته؛ فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ فإن بغي عليه بعد هذا ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ فإن اللَّه ينصره؛ لأنه مظلوم فلا يجوز أن يُبْغي عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك؛ نصره اللَّه فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا أظلم وجُني عليه، فالنصر إليه أقرب. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ يعفو عن المذنبين؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر ذنوبهم؛ فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم.

(٦١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف في تقديره وتدبيره، الذي ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم بالعكس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء!

(٦٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: ذلك الذي ذكرت لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ العلي في ذاته،وفي قدره، وفي قهره ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته.

(٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ وهو: المطر ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ خضراء بعد يباسها ومحولها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، ﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

(٦٤) ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته، وكمال اقتداره ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه ومن غناه: أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي شرعه.

الجزء السابع عشر — سورة الحج

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

٣٤٠

(٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد ببصرك وقلبك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من حيوانات ونبات وجمادات ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بتسخيره وتسييره ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فلولا رحمته وقدرته؛ لسقطت السماء على الأرض؛ فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مع ظلمهم، أرحم بهم من والديهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

(٦٦) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ وأوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد موتكم؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه اللّٰه ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم اللّٰه، كفور باللّٰه، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث، وقدرة ربه.

(٦٧) ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا﴾ الآية.

يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنسَكًا﴾ معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور مع اتفاقها على العدل والحكمة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون عليه بحسب أحوالهم ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ لا ينازعنك المكذبون لك، ويعترضوا على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أمر اللّٰه رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ﴾ لأنك على ﴿هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فلست على أمر مشكوك فيه؛ ولهذا أمره اللّٰه بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال:

(٦٨) ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة.

(٦٩) ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فمن وافق الصراط المستقيم؛ فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه؛ فهو من أهل الجحيم.

(٧٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ

(٧٠) في «صحيح مسلم» من حديث عبد اللّٰه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «إن اللّٰه قدَّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها: خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العلم المحيط بما في السماوات والأرض، قد أثبته الله ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان تصوره عندهم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

(٧١) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ يخبر تعالى عن المشركين الذين عبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهاناً ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لا مستند لهم على ما فعلوه، وإنما هو تقليد تلقوه، وكذب اختلقوه ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب الله، إذا نزل بهم وحل.

(٧٢) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ من بغضها وكراهتها ترى وجوههم معبسة، وأبشارهم مكفهرة ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم، وبغض الحق وعداوته فهذه الحالة من الكفار بئس الالة، وشرها بئس، ولكن ثمّ ما هو شر منها، حالتهم التي يؤلون إليها؛ فلهذا قال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الجزء السابع عشر — سورة الحج

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سورة المؤمنون — مكية — آياتها ١١٨

٣٤١

(٧٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ ألقوا إليه أسماعكم، وافهموا ما احتوى عليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شمل كل ما يدعى من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: لخلقه، بل أبلغ من ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز ﴿ضَعُفَ

(٧٣) في «الصحيحين» و«المسند» واللفظ لأحمد - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي: ذرة أو ذبابة أو حبة».

﴿ٱلطَّالِبُ﴾ الذي هو المعبود من دون اللَّه ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو الذباب.

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حيث سووا الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه. سووا من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرًّا، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ كامل القوة، كامل العزة، ومن كمال قوته وعزته: أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته.

(٧٥) ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ يختار ويجتبي ﴿مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فيما يشاء من شرعه وقدره ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ رسلاً؛ لإبلاغ رسالته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم.

(٧٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعلم ما قدموا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما خلفوا ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إلى الله في الآخرة تصير إليه أمور الدنيا، وإليه تعود كما كان منه البدء.

(٧٧) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود، لفضلهما وركنيتهما ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ وأمرهم بفعل الخير عموماً، وعلق تعالى الفلاح على هذه الامور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب.

(٧٨) ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب؛ فالجهاد في اللَّه حق جهاده، هو: القيام التام بأمر اللَّه، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب، وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ مشقة وعسر ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هذه الملة المذكورة، والأوامر المزبورة: ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها؛ فالزموها واستمسكوا بها ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في الكتب السابقة ﴿وَفِى هَـٰذَا﴾ أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع، أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم اللَّه به في كتابه ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة لمستحقيها؛ شكراً للَّه على ما أولاكم ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الذي يتولى أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لمن تولاه؛ فحصل له مطلوبه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لمن استنصره؛ فدفع عنه المكروه.

* * *

سورة المؤمنون

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا وسعدوا ونجحوا. المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ من صفاتهم الكاملة أنهم: ﴿فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ والخشوع في الصلاة هو: حضور القلب بين يدي الله تعالى.

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فائدة ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم وترفعاً عنه وإذا مرو باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾؛ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك؛ كالنظر، واللمس، ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد.

(٦) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلهما.

(٧) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ المتجرئون على محارم الله.

(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ إذا ائتمنوا لم يخونوا بل مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها،

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

٣٤٢

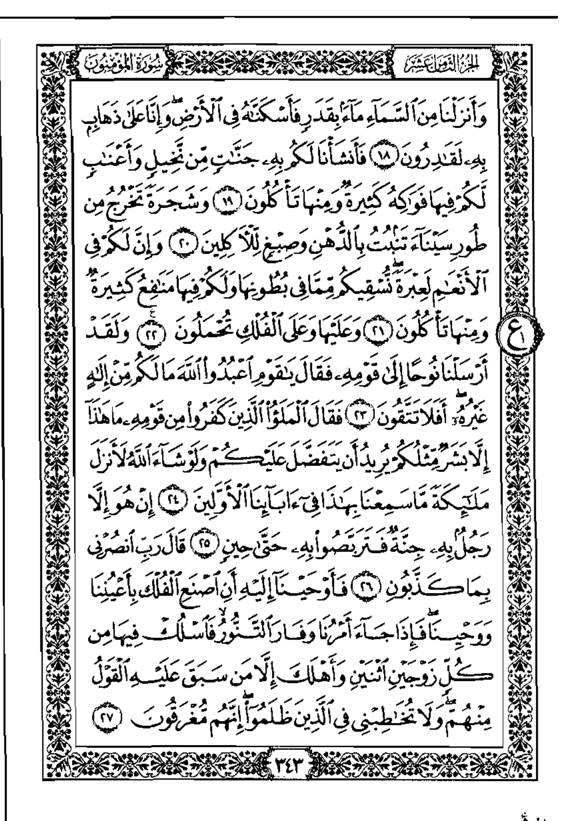
وهذا عام في جميع الأمانات، التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد. فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوها.

وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها.

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع في الصلاة، وبالمحافظة عليها؛ لأنه لا يتم أمرهم إلا

---

(٩) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».



بالأمرين.

(١٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ يرثون منازل أهل النار في الجنة.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها، ولا يبغون عنها حولاً.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ آدم عليه السلام ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أي: قد وسلت، وأخذت من جميع الأرض.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: جنس الآدميين ﴿نُطْفَةً﴾ وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة فتستقر ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو: الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ التي قد استقرت قبلُ ﴿عَلَقَةً﴾ دماً أحمر، بعد مضي أربعين يوماً في النطفة ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ﴾ بعد أربعين يوماً ﴿مُضْغَةً﴾ قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ اللينة ﴿عِظَٰمًا﴾ صلبة ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عماداً للحم ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ نفخ فيه الروح ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تعالى، وتعاظم، وكثر خيره ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ خلقه كله حسناً، والإنسان من أحسن مخلوقاته.

(١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فتجازون بأعمالكم: حسنها وسيئها.

---

(١٠) أخرج ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات، فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾».

(١١) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة؛ فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، منه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

(١٢) أخرج أبو داود والترمذي والإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك».

(١٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ سقفًا للبلاد، ومصلحة للعباد ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ سبع سموات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا محيط بما خلقنا، فلا نغفل مخلوقاً، ولا ننساه، ولا نخلق خلقًا؛ فنضيعه، ولا نغفل عن السماء؛ فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار، وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقاً.

(١٨) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ يكون رزقاً لكم ولأنعامكم، بقدر ما يكفيكم ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنزلناه عليها؛ فسكن واستقر ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله؛ فيذهب نازلاً، لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، وإذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾

(١٩) ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ خص تعالى هذين النوعين مع أنه ينشر منه غيرهما من الأشجار؛ لفضلهما، ومنافعهما ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ في تلك الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ من تين، وأترج، ورمان، وتفاح وغيرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ صيفًا وشتاءً.

(٢٠) ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ فيها الزيت ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾؛ أي: يجعل إداما للآكلين وغير ذلك من المنافع.

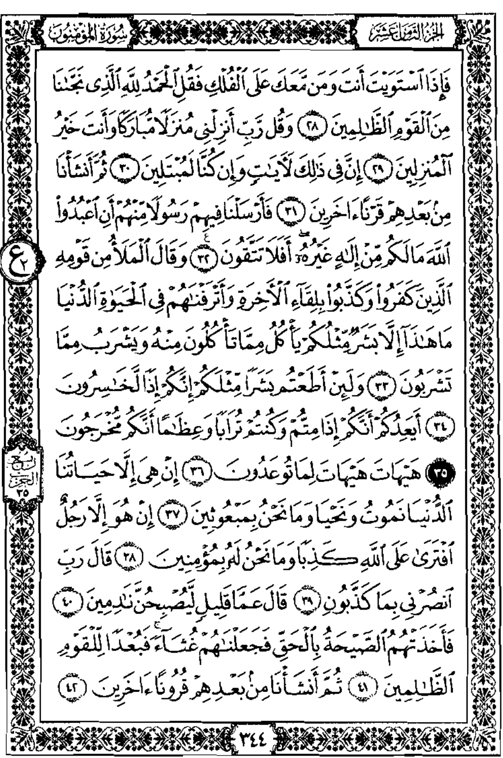
(٢١) ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ ومن نعمه عليكم: أن سخر لكم الأنعام من الإبل، والبقر، والغنم فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ من لبن ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم.

(٢٢) ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ جعلها سفناً لكم في البر تحملون عليها أثقالكم إلى بلد، لم تكونوا بالغيه، إلا بشق الأنفس كما جعل لكم السفن في البحر، تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلاً كان، أو كثيراً فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدرَّ علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يذكر الله تعالى عبده ورسوله : نوح عليه السلام أول رسول أرسله إلى أهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾أخلصوا له العبادة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام.

---

(٢٠) في «سنن الترمذي» و«ابن ماجه» بإسناد حسن لغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ائتدموا بالزيت، وادهنوا به؛ فإنه يخرج من شجرة مباركة».



سورة المؤمنون — الجزء الثامن عشر

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾

ربع الحزب ٣٥

٣٤٤

(٢٤) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبوعون: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ ليكون متبوعاً، وإلا فما الذي يفضله عليكم، وهو من جنسكم؟ ولقد أجاب تعالى عن هذه المعارضة بجواب شاف على ألسنة رسله: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولقد أجاب تعالى محمد هما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وهذه معارضة بالمشيئة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة؛ فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين؛ لأن الملائكة لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان، وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بإرسال الرسول ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علما بما يقدم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولاً، فإما أن يكونوا على الهدى، فلا حاجة الإرسال لارسول إذا ذاك، وإما يكونوا على غيره، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم لم تأت آباءهم، ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم.

(٢٥) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ مجنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ انتظروا به ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يأتيه الموت.

(٢٦) فلما رأى نوح أنه لا يزيدهم دعاؤه إلا فراراً ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فاستنصر ربه عليهم غضباً؛ حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله.

(٢٧) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عند استجابتنا له سبباً ووسيلة للنجاة قبل وقوع أسبابه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ بأمرنا لك، ومعونتنا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فارت الأرض، وتفجرت عيوناً ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أدخل في الفلك من الحيوانات: ذكراً وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أدخلهم ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ كابنه. ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا تدعني أن أنجيهم؛ فإن القضاء والقدر قد حتم أنهم مغرقون.

(٢٨) ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾ فاحمدوا اللّٰه على النجاة والسلامة ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في عملهم وعذابهم.

(٢٩) ﴿وَقُل﴾ يا نوح: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ موضع نزول مبارك، فالبركة في السفينة النجاة، وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل في أولاده ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وفي هذا تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في هذه القصة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ تدل على أن اللّٰه وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة اللّٰه بعباده؛ حيث حملهم في صلب أبيهم نوح في الفلك لما غرق أهل الأرض ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمختبرين إياهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره.

(٣١) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هلاك قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم، الأمر بعبادة اللّٰه، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ربكم، فتجتنبوا هذه الأوثان والأصنام.

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وإنكار البعث والجزاء ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً، وتحذيراً منه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من جنسكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكاً، لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب.

(٣٤) ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً وهو مثلكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ إنكم لمسلوبو العقل، نادمون على ما فعلتم.

(٣٥) ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ فنيتم وصرتم تراباً ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أحياء من قبوركم.

(٣٦) ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾بعيد بعيد ما يعدكم به من البعث، بعد أن تمزقتم، وكنتم تراباً وعظاماً.

(٣٧) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بمنشرين بعد الموت.

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فلهذا أتى بما أتى به من توحيد اللّٰه، وإثبات المعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين بالبعث بعد الموت.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بإهلاكهم وخزيهم الدنيوي قبل الآخرة.

(٤٠) ﴿قَالَ﴾ اللّٰه مجيباً لدعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ ليصيرُن ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على كفرهم وتكذيبهم.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ لا بالظلم

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

والجور، بل بالعدل وظلمهم ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً﴾ هشيماً يبساً بمنزلة غثاء السيل الملقى في جنبات الوادي ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والذم من العالمين.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ أمماً وخلائق

(٤٣) ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ كل أمة في وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أرسلنا إليهم رسلاً متتابعة ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالهلاك ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالاً للمكذبين، وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم ﴿فَبُعْدًا﴾ هلاكاً ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تهديد قوي لقريش المصرة على الشرك والتكذيب والعناد، ولهذا قال:

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة بينة.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ كـ ﴿وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وغيره من رؤسائهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ وصفهم بالعلو والقهر والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

(٤٧) ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ كبراً وتيهاً وتحذيراً لضعفاء العقول، وتمويهاً: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ موسى وهارون ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة ومن المعلوم أن هذا لا يصلح لرد الحق، وأنه تكذيب ومعاندة.

(٤٨) ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ في الغرق في البحر.

(٤٩) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ بعدما أهلك الله فرعون ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهو التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وامتننا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة؛ حيث حملته وولدته من غير أب،

وتكلم في المهد صبيًا، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقر وراحة ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جار.

(٥١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي: الرزق، والطيب الحلال ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ والشكر لله بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه؛ فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه، أتم الجزاء وأفضله.

(٥٢) ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ جماعتكم يا معشر الرسل ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقة على دين واحد ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ وربكم واحد ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بامتثال أوامري، واجتناب زواجري.

(٥٣) ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُم﴾ دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ فرقاً وشيعاً ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندهم من العلم والدين ﴿فَرِحُونَ﴾ يزعمون: أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق.

(٥٤) ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم المحقون ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن ينزل العذاب بهم.

(٥٥) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد.

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

٣٤٦

(٥٦) ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة وهذا مقدم لهم؟ ليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنما نملي لهم، ونمهلهم، ونمدهم بالنعم؛ ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا.

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ وجلون، من خشية ربهم، خوفاً أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا تليت

---

(٥١) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها النَّاس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب له»

عليهم آياته زادتهم إيماناً، ويتفكرون في الآيات القرآنية، ويتدبرونها.

(٥٩) ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ لا شركا جليًا؛ كاتخاذ غير الله معبوداً يدعونه، ويرجونه، ولا شركاً خفيا كالرياء ونحوه.

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ يعطون من أنفسهم، مما أمروا به ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله.

(٦١) ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ في ميدان التسارع في أفعال الخير همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه. فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة، انتهزوه وبادروه ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ للخيرات ﴿سَابِقُونَ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، وربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور، أو متعسر، فقال تعالى:

(٦٢) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بقدر ما تسعه ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وهو الكتاب الأول: الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقًّا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقص من إحسانهم، ولا يزداد في عقوبتهم.

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في غفلة وعمى ﴿مِّنْ هَذَا﴾ القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ سيئة ﴿مِّن دُونِ ذَلِكَ﴾ يعني الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ لابد أن يعملوها.

(٦٤) ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعميهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا مسه ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يصرخون ويتوجعون.

(٦٥) ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ لا يجيركم أحد.

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، ﴿فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى، تتأخرون عن الإيمان.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ الضمير يعود إلى البيت الحرام؛ أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا، وأعلى، ﴿سَامِرًا﴾ جماعة يتحدثون بالليل حول البيت ﴿تَهْجُرُونَ﴾ تقولون الكلام الهجر، الذي هو: القبيح في هذا القرآن.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أفلا يتفكرن في القرآن، ويتأملونه ويتدبرونه ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو منعهم من الإيمان: أنه جاءهم رسول وكتاب ما جاء آبائهم الأولين فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أو منعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ﷺ، غير معروف عندهم.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون، وليس كذلك ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه، ولا تناقض ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأعظم الحق إخلاص العبادة لله

(٦٠) في «سنن الترمذي» و« مسند الإمام أحمد» بإسناد حسن بشواهده من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرفون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾».

وحده، وترك ما يعبد من دون الله.

(٧١) ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ لفساد التصرف والتدبير، المبني على الظلم وعدم العدل ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم﴾ بهذا القرآن المذكر لهم ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق.

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أجرًا ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: دين الإسلام، وهو الطريق القاصد، والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ عن دين الحق ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ متجنبون منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته.

(٧٥) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ هذا بيان لشدة تمردهم، وأنهم إذا أصابهم الضر؛ دعوا الله أن يكشف عنهم؛ ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك؛ ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم ﴿لَّلَجُّوا﴾ استمروا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ الجوع الذي أصابهم سبع سنين ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: خضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إليه ويفتقرون.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

نصف الحزب ٣٥

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

٣٤٧

كالقتل يوم بدر وغيره ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير.

(٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ العقول التي تدركون بها الأشياء ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما أقل شكركم على ما أنعم به عليكم!.

(٧٩) ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بثكم في أقطارها وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد موتكم؛

---

(٧٦) أخرج النسائي في «التفسير» والطبراني في «الكبير» وابن حبان والطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله عز وجل - ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ الشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

ع

فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير وشر.

(٨٠) ﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ المتصرف في الحياة والموت، هو اللَّه وحده ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما وتناوبهما ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم هذه النعم، موجب لكم: أن تخلصوا له العبادة، وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

(٨١) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ بل سلك هؤلاء مسلك الأولين من المكذبين بالبعث.

(٨٢) ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل بزعمهم.

(٨٣) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نوعد بأن البعث كائن ولم نره ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأسمارهم.

(٨٤) ﴿قُل﴾ لهؤلاء المكذبين: ﴿لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ من هو الخالق للأرض ومن عليها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من خالقها ومالكها.

(٨٥) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولا بد لهم من ذلك، لأنهم يقرون أنها مخلوقة ﴿قُلْ﴾ لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به مما هو معلوم عندكم مستقر في فطركم.

(٨٦) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات والثوابت ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها.

(٨٧) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقرون بأن اللَّه رب ذلك كله ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم.

(٨٨) ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ملك كل شيء من العالم العلوي والسفلي ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عباده من الشر ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ لا يقدر أحد أن يجير على اللَّه، ولا يدفع الشر الذي قدره اللَّه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أجيبوا إن كنتم تعلمون.

(٨٩) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ سيقرون أن اللَّه المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه، ﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزمًا لهم: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم.

(٩٠) ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في عبادتهم

مع الله غيره.

(٩١) ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ من شريك ﴿إِذًا﴾ لو كان معه آلهة متعددة كما يقولون؛ ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فالغالب يكون هو الإله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوًّا كبيرًا.

(٩٢) ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فَتَعَالَىٰ﴾: ارتفع وعظم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به.

(٩٣) ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: أيّ وقت أريتني عذابهم، وأحضرتني ذلك.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ اعصمني وارحمني مما ابتليتهم به.

(٩٥) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ ولكن إن أخرناه؛ فلحكمة، وإلا؛ فقدرتنا صالحة لإيقاعه.

(٩٦) ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم؛ فإن ذلك فضل منك على المسيء ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر، والتكذيب بالحق، اي: قد أحاط علمنا بذلك وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، وأنت يا محمد ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه وظيفة العبد في مقابلة المسئ من البشر، وأما المسئ من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، لكن الوظيفة أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله، فقال:

(٩٧) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ نزغاتهم ووساوسهم.

(٩٨) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور - وذلك مطردة للشياطين - عند الأكل والجماع والذبح وغيرها.

(٩٩) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين: أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك ليقول:

(١٠٠) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله ﴿كَلَّا﴾ لا رجعة له ولا إمهال ﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ مجرد قول اللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فليعدوا له عُدَّته، وليأخذوا له أهبته.

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سُورَةُ النُّورِ — مدنية — آياتها ٦٤

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله؛ لاشتغاله بنفسه.

(١٠٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة وفوزهم بالثناء الجميل.

(١٠٣) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ خابوا وهلكوا وفازوا بالصفقة الخاسرة ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً.

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تغشاهم من جميع جوانبهم ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم. من شدة ما هم فيه، وعظم ما يلقونه، فيقال لهم - توبيخاً ولوماً -:

(١٠٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تدعون بها؛ لتؤمنوا، وتعرض عليكم؛ لتنظروا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ظلماً منكم وعنادًا فحينئذ أقروا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار.

(١٠٦) ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ هذا قولهم واعتراف صريح بأنهم كانوا ضالين.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا.

---

(١٠١) أخرج الطبراني في «الكبير» والضياء في «المختارة» وسعيد بن منصور في «سننه» وابن سعد في «الطبقات» والحاكم والبيهقي حديث عمر بن الخطاب الصحيح لشواهده: «خطب عمر بن الخطاب إلى علي بن أبي طالب ابنته من فاطمة، وأكثر تردده إليه، فقال: يا أبا الحسن، ما يحملني على كثرة ترددي إليك إلا حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة؛ إلا سببي ونسبي» فأحببت أن يكون لي منكم آل البيت سبب وصهر، فقام علي؛ فأمر ابنته من فاطمة فزينت، ثم بعث بها إلى أمير المؤمنين عمر، فلما رآها قام إليها فأخذ بساقها، وقال: قولي لأبيك: قد رضيت، قد رضيت، قد رضيت. فلما جاءت الجارية إلى أبيها قال لها: ما قال لك أمير المؤمنين؟ قالت: دعاني وقبلني ، فلما قمت أخذ بساقي وقال قولي لأبيك: قد رضيت. فأنكحها إياه، فولدت له زيد بن عمر بن الخطاب، فعاش حتى كان رجلاً، ثم مات.

(١٠٨) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى حين انقطع كلامهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ امكثوا في النار صاغرين مهانين ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ لا تعودوا إلى سؤالي؛ فإنه لا جواب لكم عندي.

(١٠٩) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته.

(١١٠) ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أيها الكفرة ﴿سِخْرِيًّا﴾ تهزءون بهم وتحتقرونهم ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ من صنيعهم وعبادتهم.

(١١١) ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على طاعتي وعلى أذاكم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم.

(١١٢) ﴿قَٰلَ﴾ الله للكافر يوم البعث على وجه اللوم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم أقمتم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الدنيا وفي القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾.

(١١٣) ﴿قَالُواْ﴾ الكفار ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كلامهم هذا مبني على استقصارهم جدًا لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلهذا قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ الضابطين لعدده.

(١١٤) ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سواء عينتم عدده أم لا ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قدر لبثكم في الدنيا.

(١١٥) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ سدى وباطلاً ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ لا يخطر هذا ببالكم.

(١١٦) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكونه مَلِكاً للخلق كلهم حقًا، في صدقه، ووعده، ووعيده، مألوهاً معبوداً؛ لما له من الكمال ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً ذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم؛ لأنه حسن المنظر بهي الشكل.

(١١٧) ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ بلا بينة من أمره ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ الله يحاسبه على ذلك ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

(١١٨) ﴿وَقُل﴾ داعياً لربك: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا؛ لتوصلنا برحمتك إلى كل خير ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

---

(١٠٨) أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وهناد في «الزهد» والطبري في «تفسيره» والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن أهل جهنم يدعون مالكاً، فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾. قال: هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك. ثم يدعون ربهم؛ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: والله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير: أولها زفير، وآخرها شهيق.

الجزء الثامن عشر — سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

٣٥٠

سورة النور

(١) هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد وحفظناها من كل شيطان ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قدرنا فيها ما قدرنا، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أحكاماً جليلة، وأوامر وزواجر، وحكمًا عظيمة؛ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، وأما الثيب حدَّه الرجم ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ونهانا تعالى: أن تأخذنا رأفة بهما في دين اللَّه تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة، أو صداقة، أو غير ذلك ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر اللَّه ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعة من المؤمنين ليشتهر، ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلاً.

(٣) ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة باللَّه، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر اللَّه ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ والزانية كذلك لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم عليهم أن يُنكحوا زانياً أو يَنكحوا زانية.

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ النساء الحرائر العفائف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين. والمراد بالرمي: الرمي بالزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رموا به ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ بسوط متوسط يؤلم فيه، ولا يبالغ

---

(٢) في «صحيح مسلم» عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

(٣) في مصنف عبد الرزاق و«مستدرك الحاكم» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع: لا يزني بها إلا زان، أو مشرك.

وفي «سنن أبي داود» بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله».

بذلك ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾؛ أي: لهم عقوبة أخرى؛ وهو: أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حدّ على القذف؛ حتى يتوب ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة اللّه.

(٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالتوبة في هذا الموضع: أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال.

(٦) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ الحرائر لا المملوكات ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ على رميهم بذلك ﴿شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ بأن لم يقيموا شهداء على ما رموهن به ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سماها شهادة؛ لأنها نائبة مناب الشهود.

(٧) ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة؛ بأن يدعو على نفسه باللعنة إن كان كاذباً.

(٨) ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يدفع عنها العذاب؛ إذا قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ تشهد أربع شهادات بالله أنها ما زنت .

(٩) ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وتزيد في الخامسة مؤكدة لذلك: أن

سورة النور — الجزء الثامن عشر

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

٣٥١

تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عنه.

وخصها بالغضب؛ لأن الرجل لا يريد فضيحة أهله - غالباً - إلا وهو صادق، وهي تعلم صدقه، ولهذا كانت الخامسة: أن غضب الله عليها؛ لأن المغضوب عليهم هم الذين يعلمون الحق ثم يحيدون عنه.

---

(٦) في «صحيح البخاري» عن ابن عبَّاسٍ رضي اللّه عنهما: أنَّ هلال بن أمية قذف امرأته عند النَّبيِّ ﷺ بشريك ابن سحماء، فقال النَّبيُّ ﷺ: «البينة أو حدٌّ في ظهرك» فقال: يا رسول اللّه إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيِّنة، فجعل يقول: «البيِّنة وإلَّا حدٌّ في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق؛ فلينزلن اللّه ما يبرىء ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾. فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: «إن اللّه يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب». ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها؛ فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين؛ فهو لشريك ابن سحماء». فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لو لا ما مضى من كتاب اللّه؛ لكان لي ولها شأن».

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ جواب (لولا) محذوف للتعظيم يعني: لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم، ودفع عنكم الحد باللعان، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ لمن تاب من عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض من حدود..

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ الكذب الشنيع،

(١١) في «الصحيحين» عن عائشة قالت: لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به قام رسول اللّه ﷺ في خطيباً، فتشهد فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد: أشيروا عليَّ في أناس أَبَنُوا - اتهموا - أهلي، وأيم اللّه ما علمت على أهلي من سوء، وأبنوهم بمن! واللّه ما علمت عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي». فقام سعد بن معاذ؛ فقال: ائذن لي يا رسول اللّه: أن نضرب أعناقهم، وقام رجل من بني الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال: كذبت أما واللّه أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم، حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت، فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي، ومعي أم مسطح، فعثَرتْ فقالت: تعس مسطح. فقلت: أيْ أمِّ تسبين ابنك؟! وسكتت، ثم عثرت الثانية فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: تسبين ابنك! ثم عثرت الثالثة، فقالت: تعس مسطح. فانتهرتها، فقالت: واللّه ما أسبه إلا فيك. فقلت: في أي شأني؟ قالت: فبقرت لي الحديث. فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم واللّه. فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلًا ولا كثيراً، ووعكت، فقلت لرسول اللّه ﷺ: أرسلني إلى بيت أبي، فأرسل معي الغلام، فدخلت الدار، فوجدت أم رومان في السفل، وأبا بكر فوق البيت يقرأ. فقالت: أمي ما جاء بك يا بنية؟ فأخبرتها، وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني، فقالت: يابنية، خففي عليك الشأن فإنه - واللّه - لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها، وقيل فيها، وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ مني. قلت: وقد علم به أبي؟ قالت: نعم. قلت: ورسول اللّه ﷺ؟ قالت: نعم ورسول اللّه ﷺ، فاستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأمي: ما شأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه، قال: أقسمت عليك أي بنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت. ولقد جاء رسول اللّه ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي، فقالت: لا واللّه ما علمت عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، وانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقي رسول اللّه ﷺ حتى أسقطوا لها به، فقالت: سبحان اللّه، واللّه ماعلمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان اللّه واللّه ما كشفت كنف أنثى قط. قالت عائشة: فقتل شهيداً في سبيل اللّه. قالت: وأصبح أبواي عندي فلم يزالا حتى دخل علي رسول اللّه ﷺ وقد صلى العصر، ثم دخل وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي، فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: يا عائشة، إن كنت قارفت سوءًا أو ظلمت؛ فتوبي إلى اللّه؛ فإن اللّه يقبل التوبة من عباده». قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار؛ فهي جالسة بالباب. فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً، فوعظ رسول اللّه ﷺ فالتفتُّ إلى أبي فقلت: أجبه، قال: فماذا أقول. فالتفت إلى أمي فقلت: أجيبيه، فقالت: أقول ماذا. فلما لم يجيباه، تشهدت فحمدت اللّه، وأثنيت عليه بما هو أهله، ثم قلت: أما بعد: فو اللّه لئن قلت لكم: إني لم أفعل، واللّه عز وجل يشهد إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم لقد تكلمتم به، وأشربته قلوبكم، وإن قلت: إني فعلت، واللّه يعلم أني لم أفعل، لتقولن قد باءت به على نفسها، وإني واللّه ما أجد لي ولكم مثلًا - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. وأنزل على رسول اللّه ﷺ من ساعته فسكتنا، فرفع عنه، وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه، ويقول: «أبشري يا عائشة، فقد أنزل اللّه براءتك». قالت: وكنت أشد ما كنت غضباً. فقال لي أبواي: قومي إليه. فقلت: واللّه لا أقوم
=

وهو: رمي أم المؤمنين عائشة ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعة منتسبون إليكم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ معظم الإفك، وهو: عبد اللّه بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

(١٢) ﴿لَّوْلَا﴾ هلاَّ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ ظن المؤمنون بعضهم ببعض ﴿خَيْرًا﴾؛ وهو: السلام مما رموا به ﴿وَقَالُوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك من كل سوء، وعن أن تبتلي أصفياءك بالأمور الشنيعة ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب وبهت، من أعظم الأشياء وأبينها.

(١٣) ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ هلا جاء الرامون على ما رموا به ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ عدول مرضيين ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك ﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فيما يجاءوا به من الإفك.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما؛ أي: في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ خضتم ﴿فِيهِ﴾ من شأن الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم.

(١٥) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ تتلقفونه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ ويلقيه بعضكم إلى بعض ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾، وهذا عتاب وتأنيب وتأديب ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة النبي عليه السلام لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي عليه السلام؟! فعظيم عند اللّه أن يقال في زوجة رسوله ما قيل.

(١٦) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ وهلاَّ إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قُلْتُم﴾ منكرين لذلك: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ننزهك يا رب عما لا يليق بك، وهذا كذب عظيم.

= إليه، ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكن أحمد اللّه الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه. وكانت عائشة تقول: أما زينب بنت جحش فعصمها اللّه بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك، وكان الذي يتكلم فيه مسطح، وحسان بن ثابت، والمنافق عبد اللّه بن أبي، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة. قالت: فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً، فأنزل اللّه عز و جل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ - إلى آخر الآية - يعني أبا بكر - ﴿وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ - يعني: مسطحاً إلى قوله - ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. حتى قال أبو بكر: بلا واللّه ياربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، وعاد له بما كان يصنع.

(١٥) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يدري ما تبلغ، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».



(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ينهاكم الله ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ﴾ لنظيره من رمي المؤمنين بالفجور ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

(١٨) ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ يوضحها لكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ كامل العلم ﴿حَكِيمٌ﴾ كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعًا لمصالحكم في كل وقت.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ﴾ تظهر وتنتشر ﴿ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ الأمور الشنيعة المستقبحة؛ مثل: الزنا ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ موجع للقلب والبدن ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ كذبهم وبراءة عائشة، وما خاضوا فيه من سخط الله ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فلذلك علمكم، وبين لكم ما تجهلونه.

(٢٠) ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ولولا أن تفضّل الله عليكم أيها الناس ورحمكم، وأن الله ذو رأفة، وذو رحمة بخلقه لهلكتم فيما أفضتم فيه، وعاجلتكم من الله العقوبة، ولكن الله تاب على من تاب، وطهّر من طهّر منهم بالحد الذي أقيم عليه..

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ طرقه ووساوسه ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: الشيطان ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه ﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ وهو: ما أنكره الشرع ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿عَلِيمٞ﴾ بأعمالهم ونياتهم وأحوالهم.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾؛ أي: لا يحلف ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ الطَّول والصدقة والإحسان ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ الجدة سعة الرزق والفضل والإحسان ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ

---

(١٩) في «مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح لشواهده عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم؛ فإنه من طلب عورة أخيه المسلم، طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته».

(٢١) أخرج ابن أبي حاتم وعبد الرزاق والبيهقي بإسناد صحيح عن أبي رافع قال: غضبت عليَّ امرأتي، فقالت: هي يوماً يهودية، ويومًا نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه نزعات شيطان.

﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: لا يحلفوا أن لا يصلوا قرابتهم المساكين والمهاجرين، يعني: مسطحًا، وكان مسكيناً مهاجراً بدريًا، حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ﴾ عنهم خوضهم في أمر عائشة رضي الله عنها ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح، عاملكم بذلك فلما قرأها النبي ﷺ على أبي بكر قال: بلى، أنا أحب أن يغفر الله لي. ورجع إلى مسطح نفقته.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائف عن الفجور ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله ورسوله؛ استباحة لعرضهن، وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أبيِّ ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

(٢٤) وذلك العذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فكل جارحة تشهد عليه بما عملته.

(٢٥) ﴿يَوْمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جزاءهم على أعمالهم، بالعدل ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

(٢٦) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ﴾ كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من القول والكلام ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الناس ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَٰتِۖ﴾ من القول والكلام ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من القول ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الناس ﴿لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ من القول. والمعنى: لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات من الرجال والنساء إلا الطيب من الرجال والنساء، هذا ذم للذين قذفوا عائشة، ومدح للذين برؤوها بالطهارة ناسب للخبيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له ورسوله محمد ﷺ أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبه إلا كل طيب من النساس، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ وهوالمقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة الرسول ﷺ يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح فكيف وهي هي؟!! صديقة النساء، وأفضلهم وأعلمهن وأطيبهن، وحبيبة رسول رب العالمين ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً ولا للشك وشبهة محلاً فقال: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾. وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب

(٢٤) في «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك ؓ قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يارب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام عليك شهودًا، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لكم وسحقًا، فعنكن كنت أناضل».

الجزء الثامن عشر — سورة النور

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٣٥٣

للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً لها ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة.

(٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ تستأذنوا، وسمي الاستئذان: استئناساً؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك: «السلام عليكم، أأدخل؟» ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح وهو من مكارم الأخلاق.

(٢٨) ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: إن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ إذا كان في البيت قوم وطلبوا من المستئذن الرجوع؛ فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾؛ أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله: من كثرة وقلة، وحسن وعدمه.

(٢٩) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم، وفيه حرج ﴿أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ وهذا لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها مساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون ، من الأحكام الشرعية.

(٢٧) في «الصحيحين» أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استأذن على عمر رضي الله عنه ثلاثا فلم يؤذن له، فانصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رجعك؟ قال إني استأذنت ثلاثًا، فلم يؤذن لي، وإن سمعت رسول الله ﷺ : «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فلم يؤذن له ، فلينصرف» فقال: لتأتين على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا، فذهب إلى ملأ في الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري، فأخبر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق.

(٣٠) ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات، وإلى النساء الأجنبيات، وإلى المردان الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام في قبل أو دبر، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أطهر وأطيب وأنمى لأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ذكرهم بعلمه بأعمالهم؛ ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

(٣١) ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكين من جماعهن، أو مسهن، أو النظر المحرم إليهن ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ليشددن ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ يعني المقانع ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ على النحر والصدر ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية التي لم يبح كشفها في الصلاة ولا للأجانب ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ أشقاء أو لأب أو لأم ﴿أَوْ بَنِي

الجزء الثامن عشر — سورة النور

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)

٣٥٤

أَخَوَاتِهِنَّ﴾ ولم يذكر العم والخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض دون افتضاح يؤدي إلى المباشرة والوصف، ولا يجوز أن تنظر إليها الذمية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنثى: أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإذا زال الملك أو بعضه لم يجز النظر ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم من الرجال، الذين لا إربة-أي: لا حاجة - لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه والأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء وهم مع ذلك في

(٣٠) في «صحيح مسلم» عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري.

(٣١) وفي سنن أبي داود بإسناد حسن لغيره عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها، وقال يا أسماء: «إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وإشار إلى وجهه وكفيه.

عقولهم وَلَهُ وخوث والعنين ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الأطفال الذين دون التمييز ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ لا يضربن الأرض بأرجلهن؛ ليصوت ما عليهن من حلي، فتعلم زينتها فيكون وسيلة إلى الفتنة ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة؛ وهي: الرجوع مما يكرهه اللّه ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه ظاهراً باطناً.

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى؛ وهم: من لا أزواج لهم، من رجال ونساء ثيبات وأبكار ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين: صلاح الدين، ويحتمل الصالحين للتزوج المحتاجين إليه ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ الأزواج والمتزوجين ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيه حث على التزوج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله.

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾؛ أي: ليطلب العفة عن الحرام والزنا ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: أسبابه ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به، أو بالوجدان التمكن منه ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وعد للمستعفف أن اللّه سيغنيه، وييسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ﴾ في الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾ قدرة على التكسب، وصلاحاً في دينه ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يدخل في ذلك أمر سيده، الذي كاتبه: أن يعطيه من كتابته، أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعونتهم ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ إماءكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أن تكون زانية ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وأما إذا لم ترد تحصناً؛ فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك. وإنما نهى عن هذا لما كانوا يستعملونه في الجاهلية: من كون السيد يجبر أمته على البغاء؛ ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من خراجهن ومهورهن وأولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فليتب إلى اللّه، وليقلع عما صدر منه، مما يغضبه؛ فإذا فعل ذلك، غفر اللّه ذنوبه ورحمه.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات التي تلاها على عباده؛ ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحقها؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ

---

(٣٢) في سنن «الترمذي» و«النسائي» و«ابن ماجه» و«مسند أحمد» بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله».

(٣٣) في «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه قال: كان عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لجارية له: اذهبي؛ فابغينا شيئًا. فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ واضحات الدلالة ﴿وَ﴾ أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ من أخبار الأولين، وما حلّ بهم في مخالفتهم أوامر الله ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ يتعظ بها المتقون.

(٣٥) ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسي والمعنوي ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ الكوَّة- أي: الفتحة في الحائط غير نافذة - ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق، ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفاتها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء إضاءة الدر ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح، ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يوقد من زيت الزيتون الذي ناره، من أنور ما يكون ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، لكنها متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: اجتماع نور المصباح، وحسن الزجاجة، وطيب الزيت، وكذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى - لصفا الفطرة - قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازدادا نوراً على نوره وهدى على هدى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾يوفق الله من يشاء لإصابة الحق ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه، ويفهموا، وليتضح الحق من الباطل ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء.

(٣٦) لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقِّد من زيت طيب، وذلك القنديل ذكر محلها؛ وهي: المساجد؛ وهي أطيب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويُوحَّد، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ عظيمة فاضلة، وهي المساجد ﴿أَذِنَ

---

(٣٥) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» أو« لا إله غيرك».

(٣٦) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك: أنه أذا توضأ؛ فأحسن وضوءه، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»

الجزء الثامن عشر — سورة النور

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

٣٥٥

﴿ٱللَّهُ﴾ أمر ووصى ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ فيدخل في رفعها: بناؤها، وكنسها وتنظيفها وصونها، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ويدخل في ذلك: الصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات، التي تفعل في المساجد، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ إخلاصاً ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ وخص هذين من الوقت لشرفهما .

(٣٧) ﴿رِجَالٌ﴾؛ أي: يسبح فيها للّه رجال ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ بل جعلوا طاعة اللّه وعبادته، غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة هوله

(٣٨) ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أعمالهم الحسنة الصالحة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل.

(٣٩) ثم ضرب الله تعالى مثلين لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بربهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ واعتقاداتهم يحسوبنها صالحة نافعة عند الله، يجدونها ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ جمع قاع: أي: في فلاة، وهو شعاع يرى فيها نصف النهار في شدة الحر، يشبه الماء الجاري ﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظنه ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ شديد العطش ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا

(٣٧) أخرج ابن أبي حاتم وهناد في «الزهد» بإسناد حسن لغيره من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد؛ فنادى بصوت يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق».

(٣٩) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يقال لليهود يوم القيامة: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد، ما تبغون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا، فاسقنا. فيقال: ألا ترون؟ فتتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً؛ فينطلقون؛ فيتهافتون فيها».

جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه. كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، ترى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالاً نافعة، فتغره صورتها، ويحسبها هو أيضًا أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها، كاحتياج الظمآن للماء حتى إذا قدم على أعماله، يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئا؛ بل ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ لن يعدم منه قليلاً ولا كثيرًا. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد.

(٤٠) والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار: ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مع قربها إليه؛ كذلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ من لم يهده الله؛ فهو هالك جاهل.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾؛ أي: باسطات أجنحتهن في الهواء في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ علم جميع أفعالهم، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك.

الجزء الثامن عشر — سورة النور

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

نصف الحزب ٣٦

٣٥٦

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ خالقهما ورازقهما، والمتصرف فيهما ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجع الخلق ومآلهم إليه سبحانه وتعالى؛ ليجازيهم بأعمالهم.

(٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله وكيف ﴿يُزْجِى﴾ يسوق ﴿سَحَابًا﴾ قطعاً متفرقة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ بين تلك القطع ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ فيجعله سحاباً متراكماً مثل الجبال ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ الوابل والمطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ يخرج من خلال السحابة، نقطاً متفرقة؛ ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، ﴿وَ﴾ تارة ﴿يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ ينزل الله من ذلك السحاب برداً يتلف ما يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ

عَن مَّن يَشَآءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع، وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

(٤٤) ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن ليل إلى نهار، ومن نهار إلى ليل ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي البصائر والعقول النافذة.

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ على اختلاف أجناسها واشكالها وألوانها ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ مادتها كلها: الماء ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالآدميين ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من المخلوقات على ما يشاؤه من الصفات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشاء لم يكن.

(٤٦) ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسنى، وقدم الصدق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته.

(٤٧) يخبر تعالى صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولاً بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ التزمنا طاعة الله ورسوله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة توليا عظيماً ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾حقًّا؛ فكذبت أفعالهم أقوالهم.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إذا صار بينهم وبين أحد حكومة، ودعوا إلى اللّٰه ورسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية.

(٤٩) ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِنِينَ﴾ سامعين مطيعين.

(٥٠) ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ علة ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم اللّٰه ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأما حكم اللّٰه ورسوله؛ ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترن بالعمل.

(٥١) ولما ذكر حال المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا حكم اللّٰه ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم؛ لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح .

(٥٢) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بترك المحظور

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

ع ١٣

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة اللّه وطاعة رسوله وخشية اللّه وتقواه ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، ووصولهم إلى الثواب.

(٥٣) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد: أنهم يقسمون باللّه ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ فيما يستقبل ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ معك إلى الجهاد قال الله تعالى رادًّا عليهم: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا نحتاج إلى إقسامكم، ولا إلى أعذاركم؛ فإن اللّه قد نبأنا من أخباركم ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا؛ فهي قول بلا فعل ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء.

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن﴾ امتثلوا، كان حظهم وسعادتهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة، وقد أداها ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إلى الصراط المستقيم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الذي لا يبقي لأحد شكًّا ولا شبهة.

(٥٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض؛ أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ وأن يمكن لهم دينهم ﴿الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو دين الإسلام ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وأنه يبدلهم أمناً من بعد خوفهم؛ حيث كان الواحد منهم، لا يتمكن من إظهار دينه ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ آمنين ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ فأنجز الله وعده، وأظهر دينه، ونصر أولياءه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ المراد: كفران النعمة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة اللّه، وفسدوا.

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وبإيتاء

---

(٥٥) أخرج الطبراني في «الأوسط» والحاكم والبيهقي في «دلائل النبوة» والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه: قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار؛ رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الجزء الثامن عشر — سورة النور

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٣٥٨

الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد وأعطاهم إياها ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وذلك بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لا تظن يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خالفوك وكذبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يعجزون اللّه، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بئس المآل: مآل الكافرين.

(٥٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنهم ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ مماليكهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والذين لم يبلغوا الحلم منهم ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ ثلاث عورات للمستأذن عليهم: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ عند انتباههم قبل صلاة الفجر ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ للقائلة، وسط النهار ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وقت نومهم بعد صلاة العشاء ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ حيث هذه الأوقات عورات؛ لأن الإنسان يضع فيها ثيابه؛ فتبدوا عورته ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ ليسوا كغيرهم: فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بياناً مقروناً بحكمته ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ له العلم المحيط ﴿حَكِيمٌ﴾ وله الحكمة التي وضعت كل شيء موضعه.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ وهو إنزال المني يقظة أو مناماً ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في سائر الأوقات. والذين من قبلهم هم الذين ذكرهم اللّه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ الآية ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يوضحها، ويفصل أحكامها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ بما دبر لهم.

(٦٠) ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن في النكاح، ولا يطمع فيهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ حرج وإثم ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ الثياب الظاهرة ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ غير مظهرات للناس زينة من تجمل وضرب بالأرض؛ ليعلم ما تخفي من زينتها ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من تزوج وترك لما يخشى منه الفتنة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات

والمقاصد.

(٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة: التي تتوقف على واحد منها وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى، أو سلامة الأعرج، أو صحة المريض ﴿وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ بيوت أولادكم ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ وهؤلاء معروفون ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وهذا الحرج المنفي من الأكل من هذه البيوت كل ذلك إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة، وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ يشمل بيت الإنسان سواء كان في البيت ساكن أم لا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ فليسلم بعضكم على بعض ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ سلامكم ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم ﴿مُبَارَكَةً﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة من الخير والثواب


الجزء الثامن عشر — سورة النور، الفرقان

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الفُرْقَانِ — مكية — آياتها ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٣٥٩

﴿طَيِّبَةً﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتفهمونها.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أنهم كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع؛ أي: من ضرورته أو مصلحته أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه، وعدم

---

(٦١) أخرج الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ وذلك لما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ فقال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام من أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد. فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾.

تفرقهم فالمؤمن بالله ورسوله حقاً لا يذهب لأمر من الأمور، إلا بإذن من الرسول، أو نائبه من بعده فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين: أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له. والثاني الإذن له يشاء فتقتضيه المصلحة دون مضرة بالآذن فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله: أن يستغفر له؛ لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم الذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ ويرحمهم؛ بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

(٦٣) ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فإذا دعاكم؛ فأجيبوه وجوباً وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: يا محمد - مثلاً - عند دعائكم، كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميزه صلى الله عليهو سلم عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله، ولما مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه على على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، توعد من لم يفعل، ذلك، وذهب من غير استئذان مبيناً أن لا يخفى عليه تعالى، وإن خفي عن الناس، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون فتوعدهم على ذلك بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ شرك وشر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل في الدنيا، وجيع في الآخرة.

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحكمه القدري وحكمه الشرعي ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد أحاط علمه بما أنتم عليه، من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم إخبارًا مطابقًا لما وقع منهم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ فليحذر أن يخالف رسوله أو يعصى، وليتق في أمره ونهيه، فإن نقمته صعبة، وعذابه شديد.

---

(٦٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد صحيح عن مجاهد قال: كانوا يقولون يا محمد! يا أبا القاسم! فنهاهم الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك؛ إعظاما لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - قال: فقالوا: يا رسول الله! يا نبي الله.

(٦٤) في «الصحيحين» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه؛ فهو رد» وفي رواية لمسلم «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد».

سورة الفرقان

(١) ﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الذي نزّل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس اللّه ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا اللّه من سخطه.

(٢) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما مماليك وعبيد له ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ نزه نفسه عن الولد وعن الشريك ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ شمل العالم العلوي، والعالم السفلي: من حيواناته، ونباتاته، وجماداته ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك.

(٣) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون اللّه، الخالق لكل شيء ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لا قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ أي: إماتة وإحياء ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ بعثاً بعد الموت.

(٤) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ باللّه: ﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على اللّه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ واستعان على جمعه بقوم آخرين ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل.

الجزء الثامن عشر — سورة الفرقان

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣٦٠

(٥) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾؛ أي: هؤلاء الكفار: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، استنسخها محمد ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ تقرأ عليه في أول النهار وآخره.

(٦) فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَنزَلَهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ الغيب ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنزله من أحاط علمه بما في السماوات، وما في الأرض، والجهر والسر ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب إذا فعلوا أسباب المغفرة؛ وهي: الرجوع عن معاصيه والتوبة منها ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

٤٧/ع

الراجع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

(٧) ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: المكذبون للرسول الذين قدحوا برسالته: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ﴾ ما لهذا الذي ادعى الرسالة- تهكماً منهم واستهزاء- ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلاّ كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولاً ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هلا أنزل معه ملك ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يساعده ويعاونه.

(٨) ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ مال مجموع من غير تعب ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيستغني عن مشيه في الأسواق ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ حملهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن.

(٩) ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ وهي: هل كان ملكًا، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، أو أنزل عليه كنز؟ أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق؟ أو أنه كان مسحوراً ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ قالوا أقوالاً متناقضة كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية.

(١٠) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك.

(١١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يوم القيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها.

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قبل وصولهم، ووصولها إليهم ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ تقلق منهم الأفئدة، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعرًا، قد غضبت عليهم؛ لغضب خالقها، وقد زاد لهبها؛ لزيادة كفرهم وشرهم.

(١٣) ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ تضيق عليهم وقت عذابهم، وهم في وسطها ﴿ مُّقَرَّنِينَ﴾ مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، جمع بين ضيق المكان وتزاحم السكان

وتقرينهم بالسلاسل والأغلال؛ فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحبسوا في أشر حبس ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾؛ أي: نادوا: ياثبورنا؛ أي: يا هلاكنا؛ إذ الثبور: الهلاك.

(١٤) ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ ليس هذا الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم، والغم، والحزن.

(١٥) ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي وضعت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى اللّه؛ فمن قام بالتقوى، فاللّه قد وعده إياها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ ثوابًا على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موئلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائما أبداً.

(١٦) ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ما يطلبون وتتعلق به أمانيهم ومشيئتهم ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ يسأله إياها عباده المتقون، ولا بد أن يقع.

(١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الملائكة والجن والإنس وعزير وعيسى ﴿فَيَقُولُ﴾ اللّه مخاطباً للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم، وزينتم لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

(١٨) ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ نزهوا اللّه عن شرك المشركين به، وبرأوا أنفسهم من ذلك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ لا يليق بنا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ اشتغالاً في لذات الدنيا، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ بائرين لا خير فيهم، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار.

(١٩) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم أو بفداء أو غير ذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم وعدم ناصركم.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: ومن يشرك بالله فيظلم نفسه، فذلك ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ كالذي ذكرنا أنَّا نذيقه الذين كذبوا بالساعة.

(٢٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة، وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من اللّه تعالى، كمال قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين، والرسل فتناهم بدعوة الخلق، والغني فتنة للفقير والفقير فتنة للغني والقصد من تلك الفتنة ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يرى ويعلم أحوالكم ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم؛ فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

٣٦٢

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد اللَّه ووعيده: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هلاَّ نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلا مستقلين ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي؛ فاتبعوه ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجرأوا هذه الجرأة. فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين، حتى تطلبوا رؤية اللَّه، وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وطغوا في القول، وتجاوزوا الحد في الظلم وقسوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار.

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم؛ إلا لعقوبتهم ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ تقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل: الحجر المنع.

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً لهم، وتعبوا فيها ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ باطلاً مضمحلاً، قد خسروه، وحرموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان.

(٢٤) في ذلك اليوم الهائل، كثير البلابل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا باللَّه وعملوا صالحاً، واتقوا ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة.

(٢٥) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل اللَّه فيه، فتنفطر له السماوات، وتشقق ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتنزل ملائكة كل سماء ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أموره عليه. بخلاف المؤمن؛ فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

(٢٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين ملك ولا صورة مُلك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له الصدر، أن أضاف المُلْك في يوم القيامة لاسمه «الرحمن» الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر

أموره عليه.

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ بشركه وكفره وتكذيبه للرسل ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ حزناً، وأسفاً ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ طريقاً بالإيمان به.

(٢٨) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿خَلِيلًا﴾ حبيبًا مصافيًا.

(٢٩) ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال، بخدعه وتسويله ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يزين له الباطل، ويقبح له الحق، ويعده الأماني، ثم يتخلى عنه.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ منادياً لربه، وشاكياً له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ قد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره، واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه.

(٣١) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه، يعارضونهم، ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٦٣

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك؛ فيحصل لك المطلوب، ومصالح دينك ودنياك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه، في أمر الدين والدنيا.

(٣٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذا في جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليه أنفسهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أنزلت الكتب قبله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن؛ ازداد طمأنينة وثباتاً، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ مهلناه، ودرجناك فيه تدريجًا.

---

(٣٢) أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال المشركون إن كان محمد كما يزعم نبيًا فلم يعذبه ربه؛ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة؟ ينزل عليه الآية والآيتين والسورة؟! فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ إلى قوله ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

(٣٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق، ويدفعون به رسالتك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أنزلنا عليك قرآناً جامعًا للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه؛ فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل، ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظاً، وأحسن تفسيرًا، مبين للمعاني بياناً كاملاً.

(٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله وسوء مآلهم وأنهم يحشرون على وجوههم في أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب، ويجرونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الحال ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مكانة ومنزلة، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخطأ طريقا.

(٣٥) ثم أشار تعالى إلى هذه قصص الماضين ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم، الذين كانوا قريبًا منهم،فبدأ بذكر موسى؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ نبيًا مؤازراً، ومؤيداً، وناصراً.

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا﴾ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ﴾ قوم فرعون وهم القبط ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾فيه إضمار؛ أي: فكذبوهما فدمرناهم﴿تَدْمِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكاً.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً، ومن كذب برسول؛ فقد كذب بجميع الرسل، ولهذا أغرقهم اللّه جميعًا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ سوى ما حل بهم من عاجل العذاب.

(٣٨) ﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿عَادًا﴾ قوم هود عليه السلام ﴿وَثَمُودَا﴾ قوم صالح ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾وهم قرية من قرى ثمود ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ وأممًا بين أضعاف من ذُكر أهلكناهم كثيرة.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أهلكنا إهلاكاً.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني قرية قوم لوط ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب بسبب تكذيبهم بالرسل وبمخالفتهم أوامر اللّه ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون؛ لأنهم لا يرجون نشورًا؛ أي: معادًا يوم القيامة.

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، استهزءوا بك، واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار-: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؛ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث اللّه هذا الرجل.

(٤٢) ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ بأن يجعل

(٣٣) أخرج النسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾وقرأ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾

الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

ربع الحزب ٣٧

٣٦٤

الآلهة إلهاً واحداً ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لو لم نصبر عليها لأضلنا ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يعلمون علماً حقيقيًا ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾من كان أضل سبيلاً، هم أم المؤمنون.

(٤٣) ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ألا تعجب من حاله، وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة؟ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منذر: قد قمت بوظيفتك، وحسابه على اللَّه.

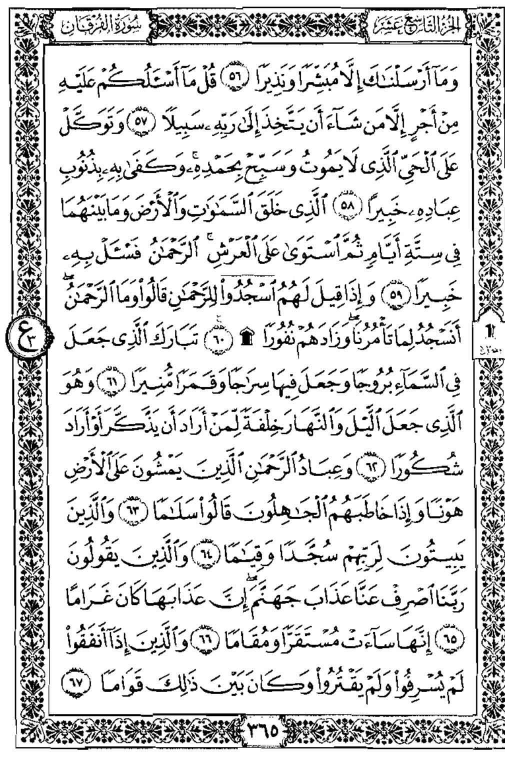
(٤٤) ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أيها الرسول ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أن أكثر هؤلاء المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يقال لهم سماع طالب الإفهام ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما يعاينون من الحجج والإعلام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾هم أسوأ حالاً من الأنعام؛ فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة اللَّه وحده، وهم يعبدون غيره، مع قيام الحجة عليهم.

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تشاهد ببصرك وببصيرتك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ كمال قدرة ربك، وسعة رحمته ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أنه مد على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهبه الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ فلولا وجود الشمس لما عرف الظل، فإن الضد يعرف بضده.

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فكلما ارتفعت الشمس، تقلص الظل، شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية.

(٤٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ من رحمته بكم ولطفه، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ قاطعاً للحركة لراحة الأبدان ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم.

(٤٣) أخرج ابن أبي حاتم والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجرًا أحسن منه؛ رمى به، وعبد الآخر؛ فأنزل الله هذه الآية.


الجزء التاسع عشر — سورة الفرقان

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

٣٦٥

(٤٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ هو وحده الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه؛ بأن أرسل الرياح مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهو: المطر. فثار بها السحاب، وتألف، وصار كسفاً، وألقحته، وأدرته بإذن ربها، والمتصرف فيها ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس.

(٤٩) و﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾أي: بالمطر ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أرضاً قد طال انتظارها للغيث؛ فلما جاءها عاشت واكتست رُباها الخضرة، وأنواع النوابت والأشجار ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ نسقيكموه أنتم وأنعامكم.

(٥٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ وهم يرون إحياء الأرض الميتة أن الله قادر على إحياء الموتى، وليذكر مَنْ مُنِع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه؛ فيقلع عما هو فيه ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أي: جحودًا. وكفرانهم: أنهم إذا مطروا؛ قالوا: مطرنا بنوء كذا!

(٥١) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ لبعث في كل قرية رسولا ينذرهم ويحذرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها.

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك، في تبليغ ما أرسلت به ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجرأة ما رأيت.

(٥٣) ﴿وَهُوَ﴾ وحده ﴿الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر،

---

(٤٨) في سنن أبي داود والترمذي والنسائي ومسند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء».

(٥٠) في «صحيح مسلم» من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا؛ وكذا؛ فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

فيذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حاجزاً حصيناً.

(٥٤) ﴿وَهُوَ﴾ اللَّه وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ الآدمي ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ ماء مهين ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين. والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره؛ لذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعبدون أصناماً وأمواتاً لا تضر ولا تنفع ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ وكان الكافر معينًا للشيطان على ربه، مظاهرًا له على معصيته.

(٥٦) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد إلى من أرسلناك إليه ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ تبشر من أطاع اللَّه بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ وتنذر من عصى اللَّه بالعقاب العاجل والآجل.

(٥٧) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على هذا البلاغ وهذا الإنذار ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولوا: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعو إليه فلا نتبعه.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله.

(٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ اعبده، وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعلمها، ويجازي عليها.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ علا وارتفع ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: فاسأل عنه خبيرًا.

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وحده ﴿قَالُوا۟﴾ جحداً وكفراً ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعواهم إلى السجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

(٦١) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزل منزلة منزلة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ فيه النور والحرارة؛ وهي: الشمس ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ فيه النور، لا الحرارة.

(٦٢) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يذهب أحدهما؛ فيخلفه الآخر، وهكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بهما ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ويشكر اللَّه على ذلك، ولمن أراد أن يذكر اللَّه ويشكره، وكان له وردٌ من الليل أو النهار

(٦٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل».

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

فمن فاته ورده من أحدهما، أدركه في الآخر.

(٦٣) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته يشترك فيها جميع الخلق؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، وعبودية لألوهيته، وهي: عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المرادة، ولذلك أضافها إلى اسمه «الرحمن» ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ساكنين متواضعين لله وللخلق ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ خطاب جهل ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ خاطبوهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله.

(٦٤) ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ في الليل في صلاة ﴿سُجَّدًا﴾ على وجوههم ﴿وَقِيَامًا﴾ على أقدامهم.

(٦٥) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ملازماً لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

(٦٦) ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ بئس موضع قرار وإقامة، وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب.

(٦٧) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ بأن يزيدوا على الحد ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا﴾ وسطًا عدلاً، يبذلون من غير ضرر ولا ضرار.

(٦٨) ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهو نفس المسلم، والكافر

---

(٦٣) في مسند الإمام أحمد بإسناد حسن لغيره من حديث النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ - وسب رجل رجلًا عنده، قال: فجعل المسبوب يقول: عليك السلام -: «أما إن ملكًا بينكما يذب عنك كلما يشتمك هذا، قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا، بل لك أنت، أنت أحق به».

(٦٨) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

المعاهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.
﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله بغير حق والزنا، فسوف ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء الإثم، ثم فسره بقوله:
(٦٩) ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ في العذاب لمن فعلها كلها ثاب لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك أم القتل والزنا فلا يخلد صاحبهما، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والسنة النبوية. ﴿مُهَانًا﴾ أي: حقيراً ذليلاً.
(٧٠) ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي، وفعل الطاعات ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ مما أمر به الشارع؛ إذا قصد به وجه الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ تتبدل أفعالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة تبدل حسنات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده.
(٧١) ﴿وَمَن تَابَ﴾ إلى الله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدى الفرائض واجتنب النواهي ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ فإن الله يقبل توبته.
(٧٢) ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يحضرون القول والفعل المحرم ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ الكلام الذي لا خير فيه ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ مسرعين معرضين، نزهوا أنفسهم، وأكرموها عن الخوض فيه.
(٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أمرهم باستماعها، والاهتداء بها ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يقابلوها بالإعراض عنها، وعدم سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها.
(٧٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ قرنائنا: من أصحاب وأقران وزوجات ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ الذين خرجوا من أصلابنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تقر بهم أعيننا بعبادتك وطاعتك وحدك لا شريك لك ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية؛ فنكون قدوة للمتقين.
(٧٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بصفات عباد الرحمن ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يثابون ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذه الأعين ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ وذلك بسبب صبرهم ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ يثابون ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿تَحِيَّةً﴾ التحية والإكرام ﴿وَسَلَٰمًا﴾ والتوقير والاحترام من ربهم ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض.
(٧٦) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ حسنت منظراً، وطابت منزلاً.
(٧٧) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ لا يبالي بكم إذا لم تعبدوه ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾ عذاباً يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

نصف الحزب ٣٧

٣٦٧

سورة الشعراء

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ معنى الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة «البقرة».

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البين الواضح بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك فيما أخبر به، أو حكم به.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ مهلكها وشاق عليها ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ فإن الهداية بيد اللّه.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ أعناق المكذبين ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك؛ فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع، هو الإيمان بالغيب وقال«خاضعين» ولم يقل «خاضعة» أي: الأعناق، فقيل: المراد الرجال، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، وقيل غير ذلك.

(٥) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم.

(٦) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بالحق، وصار التكذيب لهم سجية لا تتغير ولا تتبدل ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به.

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جميع أصناف النباتات: حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

(٨) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ على إحياء اللّه الموتى بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نهيه.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء ووصل جوده إلى كل حي.

(١٠) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ واذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء اللّه إياه، حين كلمه، ونبأه وأرسله فقال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية.

(١١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: قل لهم - بلين قول، ولطف عبارة- ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ اللّه الذي خلقهم ورزقهم؛ فيتركون ما هم عليه من الكفر.

(١٢) فـ ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: معتذراً من ربه ومبيناً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ من تكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ هذا للعقدة التي كانت على لسانه ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾؛ فأجاب الله طَلِبته، ونبأ أخاه كما نبأه.

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ في قتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ يقتلونني به.

(١٥) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لا يتمكنون من قتلك، فإنا سنجعل لكما سلطاناً ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على صدقكما، وصحة ما جئتما به ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أحفظكما وأكلؤكما.

(١٦) ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أرسَلَنا إليك؛ لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته، وتذعن لتوحيده، ولم يقل: «رسولا رب العالمين»؛ إما لأنه مصدر بمعنى: رسالة، والمصدر يوحَّد؛ أي: «أنا ذو رسالة»، وقيل: لأنهما ذَوَا شريعة واحدة فنزلا منزلة رسول والمعنى: كل منا رسول.

(١٧) ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكُفَّ عنهم عذابك، وارفع عنهم يدك؛ ليعبدوا ربهم، ويقيموا أمر دينهم.

(١٨) فلما جاءا فرعون، وقالا له ما قال الله لهما، لم يؤمن فرعون، ولم يلن، وجعل يعارض موسى، فقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ ألم ننعم عليك، ونقم بتربيتك، منذ كنت وليدًا في مهدك، ولم تزل كذلك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وأنعمنا عليك مدة من السنين؟

(١٩) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ وهي قتل

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

٣٦٨

موسى للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

(٢٠) فـ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي.

(٢١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أرسلني الله إليك؛ فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت.

(٢٢) ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تدلي علي بهذه المنة حيث سخرت بني إسرائيل،

وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور يتبين: أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم، وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني اللَّه من أذاك.

(٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا إنكار منه لربه ظلماً وعلوًا مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى عليه السلام

(٢٤) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة.

(٢٥) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾متجهماً ومعجّباً لقومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ما يقول هذا الرجل.

(٢٦) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خالقكم وخالق آبائكم الأولين.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ فرعون معاندًا للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من سائر المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقد أديت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل.

(٢٩) ﴿قَالَ﴾ متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ زعم أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهًا غيره، وإلا فقد تقرر: أنه هو ومن معه على بصيرة من أمرهم.

(٣٠) فقال له موسى حين توعده بالسجن: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أية ظاهرة جلية على صحة ما جئت به من خوارق العادات.

(٣١) ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ فإنا لن نسجنك حينئذ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إن كنت صادقاً فأرنا برهاناً واضحاً، ودليلاً بيناً.

(٣٢) ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ التي يتوكأ عليها ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾؛ أي: ذكر الحيات ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه.

(٣٣) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها.

(٣٤) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ معارضاً للحق، ومن جاء به: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بارع في صفة السحر.

(٣٥) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾موه عليهم؛ لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، وخوفهم أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم؛ ليجدُّوا ويجتهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟

(٣٦) ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخرهما ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ ابعث في جميع مدنك﴿حَٰشِرِينَ﴾جامعين للناس.

(٣٧) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ من يجمع لك كل ساحر ماهر عليم في سحره.

(٣٨) ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو: يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

(٣٩) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ نودي بعموم

الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود.

(٤٠) ﴿لَعَلَّنَا﴾ لكي ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم فنتبعهم، ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر.

(٤١) ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لموسى؟

(٤٢) ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي. وعدهم الأجر والقربة منه؛ ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم، في معارضة ما جاء به موسى، فلما اجتمعوا للموعد، هم وموسى، وأهل مصر، وعظهم موسى وذكرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ فتنازعوا وتخاصموا ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضاً.

(٤٣) ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيدهم بشيء دون شيء؛ لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

(٤٤) ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فاستعانوا بعزة عبدٍ ضعيفٍ، عاجز من كل وجه، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام - إذا فعلوا شيئًا -: هذا بثواب فلان.

(٤٥) ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع وتأخذ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ فالتقفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي؛ لأنها إفك وكذب وزور،

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

٣٦٩

وذلك كله باطل لا يقوم للحق، ولا يقاومه.

(٤٦) ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ فكان هذا أمرًا عظيماً جدًا، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنية وسجدوا لله رب العالمين.

(٤٧) ﴿قَالُوٓاْ﴾ السحرة ﴿ءَامَنَّا﴾ أقررنا وخضعنا ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي خلق جميع العوالم.

(٤٨) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ الذي أرسل موسى وهارون بالحق والمعجزة الباهرة.

(٤٩) ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجب ويعجب قومه من جراءتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾

هذا، وهو الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه. ثم توعد السحرة؛ فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتختزوا، وتذلوا.

(٥٠) ﴿قَالُوا﴾؛ أي: السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان، وذاقوا لذته: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون.

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود؛ فثبتهم الله وصبرهم.

(٥٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا، ويتمهلوا في ذهابهم ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ سيتبعكم فرعون وجنوده؛ ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر.

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس؛ ليوقع ببني إسرائيل

(٥٤) ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ لطائفه قليلة.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ فلا بد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أَبقُوا منا.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ﴾ بساتين مصر وجناتها الفائقة، ﴿وَعُيُونٍ﴾ وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة.

(٦٠) ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ اتبع قوم فرعون قوم موسى وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم

---

(٥٢) أخرج أبو يعلى في «مسنده» وابن حبان في صحيحه» والحاكم بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أتى النبي ﷺ أعرابيًّا؛ فأكرمه، فقال له: «ائتنا» (وفي رواية نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله ﷺ: «تعهَّدنا، ائتنا؛ فأتاه الأعرابي، فقال له رسول الله ﷺ: «سل حاجتك»، فقال: ناقة برحلها، وأعنزًا يحلبها أهلي. فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل»، فقال أصحابه: يا رسول الله، وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «إن موسى لما سار ببني أسرائيل من مصر، ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: نحن نحدثك: إن يوسف لما حضره الموت، أخذ علينا موثقاً من الله: أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال: فمن يعلم موضع قبره ؟ قالوا: ما ندري أين قبر يوسف؛ إلا عجوزٌ من بني إسرائيل. فبعث إليها، فأتته، فقال: دُلِّيني على قبر يوسف، فقالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، فقال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه: أن أعطها حكمها. فانطلقت بهم إلى بحيرة - موضع مستنقع ماء-، فقالت: انضبوا هذا الماء. فأنضبوا، قالت: احتفروا واستخرجوا عظام يوسف. فلما أقلُّوها إلى الأرض، إذا الطريق مثل ضوء النهار».

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

محثين، على غيظ وحنق قادرين.

(٦١) ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ رأى كل منهما صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ شاكين لموسى وحزنين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ سيدركنا قوم فرعون، ولا طاقة لنا بهم

(٦٢) فـ﴿قَالَ﴾: موسى، مثبتاً لهم، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق: ﴿كَلَّآ﴾ ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم.

(٦٣) ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ اثنى عشر طريقًا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ﴾ الجبل ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ فدخله موسى وقومه.

(٦٤) ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ وقربنا هنالك فرعون وقومه من البحر، وقدمناهم إليه.

(٦٥) ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

(٦٦) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ لم يتخلف من قوم فرعون عن الغرق أحد.

(٦٧) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ عظيمة دالة على صدق ما جاء به موسى، وبطلان ما عليه فرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بهذه الآيات المقتضية للإيمان؛ لفساد قلوبهم.

(٦٨) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

(٦٩) ﴿وَٱتْلُ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الناس، ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا، فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه، وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته، ودعوته قومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه.

(٧٠) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ من أهل العراق: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: ما هذه التماثيل التي لها عاكفون

(٧١) ﴿قَالُوا۟﴾ متبجحين بعبادتهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا.

(٧٢) فقال لهم إبراهيم مبيناً عدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾؛ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم.

(٧٣) ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بالرزق ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إذا تركتم عبادتها؛ فأقروا أن ذلك كله، غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر.

(٧٤) ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك،

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

ع ٩ — الحزب ٣٨

وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فاتبعوهم.

(٧٥) ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه التماثيل التي لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع.

(٧٦) ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾؛ أي: أعداء لي، ووحّده على معنى: أن كل معبود لكم عدو لي. ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه وليي وإلهي، ثم وصف معبوده، فقال:

(٧٨) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ يرشدني إلى طريق النجاة.

(٧٩) ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ هو رازقي بما سخر من الأسباب.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ أضاف المرض إلى نفسه، وإن كان المرض والشفاء كله من الله استعمالاً لحسن الأدب ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ أي: يبرئني من المرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره.

(٨١) ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ لايقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو.

(٨٣) ثم دعا عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه؛ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ علماً كثيراً، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

(٨٤) ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ اجعل لي ثناء صدق مستمر إلى آخر الدهر.

(٨٥) ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها.

(٨٦) ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ بالتوبيخ على بعض

(٨٧) أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ :« يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي من أبي ألأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذِيْخ -وهو الذكر من الضباع- متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

الذنوب، والعقوبة عليها، والفضيحة.

(٨٨) بل أسعدني في ذلك اليوم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ من كفر بك وعصاك في الدنيا﴿ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ أي: يوم لا ينفع إلا القلب السليم، معناه: الذي سلم من الشرك والشك، ومحبة الشر، والإصرار على البدعة والذنوب.

(٩٠) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ قربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم، الذين امتثلو أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

(٩١) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أظهرت جهنم، واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الذين أوضعوا في معاصي اللّه، وتجرأوا على محارمه، وكذَّبوا رسله، وردوا ما جاءوهم به من الحق.

(٩٢)،(٩٣) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لأهل النار يوم القيامة :﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين آلهتكم الذين تزعمون أنهم شفعاؤكم؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بأنفسهم، فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم.

(٩٤) ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ ألقوا في النار ﴿هُمْ﴾ أي: ما كانوا يعبدون ﴿وَٱلْغَاوُونَ﴾ العابدون لها.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ من الإنس والجن.

(٩٦) ﴿قَالُوا﴾ أي: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في النار ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضاً.

(٩٧) ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ اعترفوا بذنبهم، وأقروا بسخافتهم، وبان لهم ضلالهم

(٩٨) ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه.

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي والفسق ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار.

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا﴾ حينئذ ﴿مِن شَٰفِعِينَ﴾ يشفعون لنا؛ لينقذونا من عذابه.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ قريب مصاف، ينفعنا بأدنى نفع.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَءَايَةً﴾ لكم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع نزول الآيات.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده إن أنابوا إليه ، وأخلصوا العبادة له، لكرمهم في جواره في جنات النعيم.

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جميعهم؛ لأن تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين؛ لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم كتكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللّه تعالى، فتتركون

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

٤٠

ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده.

(١٠٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ أي: فيجب عليكم تلقي ما أرسلت به والإيمان به، وشكر الله تعالى على أن خصكم بهذا الرسول الكريم. ﴿أَمِينٌ﴾ فيما بعثني الله به وهو الوحي، وهذا أيضاً يوجب عليهم التصديق بخبره، والطاعة لأمره.

(١٠٨) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتتكلفون من المغرم الثقيل ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل، وأما أنتم؛ فمنيتي ومنتهى إرادتي منكم: النصح لكم، وسلوككم الصراط المستقيم.

(١١٠) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾أعاد ذلك عليه السلام؛ لتأكيد دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك.

(١١١) ﴿ قَالُوا﴾؛ أي: قومه له ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ كيف نتبعك ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس، وأراذلهم.

(١١٢) ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس عليَّ من أحوالهم شيء، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهر أمرهم.

(١١٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾إن حساب باطن أمرهم الذي خفي عني ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ فإنه يعلم سر أمرهم وعلانيته.

(١١٤) كأنهم طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً، وتجبراً؛ ليؤمنوا؛ فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعلي.

(١١٥) ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ما أنا إلا منذر ومبلغ عن اللَّه ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا للَّه.

(١١٦) ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ من دعوتك إيانا إلى اللَّه وحده ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ لأي: من المشتومين، أو المضروبين بالحجارة.

(١١٧) ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فلم يؤمنوا بي

(١١٨) ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أهلك الباغي منا. وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١١٩) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يعني في السفينة المملوءة من الخلق والحيوانات والأمتعة.

(١٢٠) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد نوح ومن معه من المؤمنين ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ جميع قومه.

(١٢١) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: نجاة نوح وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لَءَايَةً﴾ دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاءوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله.

(١٢٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بعزه أعداءه؛ فأغرقهم بالطوفان ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه حيث نجى نوحاً ومن معه من أهل الإيمان.

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كذبت القبيلة المسماة عاداً رسولهم هوداً؛ وتكذيبهم له تكذيب لغيره؛ لاتفاق الدعوة.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودٌ﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتتركون الشرك وعبادة غيره.

(١٢٥) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ أرسلني الله إليكم رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا ﴿أَمِينٌ﴾ تعرفون ذلك مني.

(١٢٦) ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أدوا حق الله تعالى، وهو: التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

(١٢٧) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً حتى تستثقلوا ذلك المغرم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمه، وأدر عليهم فضله وكرمه، خصوصاً ما ربى به أولياءه وأنبياءه.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ المكان المرتفع، وقيل: الفج بين الجبلين ﴿ءَايَةً﴾ بنيانًا علمًا ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تلعبون.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل: قصوراً مشيدة، وبنياناً مخلدًا، وقيل: أبرجة حمام؛ وقيل: بركاً ومجابي للمياه ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بالخلق ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتلاً وضرباً وأخذ أموال، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة.

(١٣١) ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ واتركوا شرككم وبطركم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم أمين ناصح.

(١٣٢) ﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾ أعطاكم ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام.

(١٣٣) ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ من إبل وبقر وغنم ﴿وَبَنِينَ﴾ وكثرة نسل: كثَّر أموالكم، وكثر أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بساتين وأنهار.

(١٣٥) ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني - من شفقتي عليكم وبري بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمررتم على كفركم وبغيكم.

(١٣٦) ﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذبين لنبيهم، بل وبكل استهتار وسوء أدب: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ الجميع على حد سواء؛ أي: يستوي عندنا وعظك وهذا

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

غاية العتو؛ ولهذا قالوا:

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين: تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر؛ لا أن هذه محن ومنح من اللّٰه تعالى، وابتلاء لعباده.

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وهذا إنكار منهم للبعث أو تنزل مع نبيهم وتهكم به: إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما أدرت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صار التكذيب سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه رادع ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فأرسل عليهم ريحاً شديدة الهبوب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ على صدق نبينا: هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع وجود الآيات المقتضية للإيمان.

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقدرته قوم هود على قوتهم وبطشهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

(١٤١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا صالحاً عليه السلام الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبا للجميع.

(١٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ في النسب ﴿أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ في النسب، برفق ولين: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللّٰه تعالى وتدعون الشرك والمعاصي.

(١٤٣) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من اللّٰه ربكم، أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان، ﴿أَمِينٌ﴾ تعرفون ذلك مني وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به.

(١٤٤) ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ باتباع أوامره، واجتناب معاصيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ حيث تعلمون أني رسول الله إليكم أمين عليكم.

(١٤٥) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولون: يمنعنا من اتباعك، أنك تريد أخذ أموالنا ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا أطلب الثواب إلا منه.

(١٤٦) ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾؛ أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الدنيا آمنين لا تخافون شيئاً.

(١٤٧) ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بساتين وأنهار.

(١٤٨) ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ ثمرها ﴿هَضِيمٌ﴾

نضيد كثير، وهو متكسر من لينه ورطوبته.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتا من الجبال الصم الصلاب والمعنى: أتحسبون أن تتركوا سدى، تتمتعون في هذه الخيرات بغير أم ولا نهي بغير أمر ولا نهي، بل تستعينون بهذا النعم على معاصي الله

(١٥٠) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم.

(١٥١) ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الذين تجاوزوا الحد.

(١٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ الذين وصفهم وداؤهم: الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي والدعوة إليها، إفساداً لا إصلاح فيه.

(١٥٣) فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئاً: بل ﴿قَالُوٓا۟﴾ لصالح ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قد سحرت فأنت تهذي بما لا معنى له.

(١٥٤) ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فأي: فضيلة فقتنا بها حتى تدعونا إلى اتباعك؟ ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فتعنتوا واقترحوا عليه آية يأتيهم بها.

(١٥٥) ﴿قَالَ﴾ صالح لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء ترونها وتشاهدونها بأجمعكم ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ تشرب ماء البئر يوماً ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر.

(١٥٦) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فخرجت واستمرت

سورة الشعراء — الجزء التاسع عشر

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

٣٧٤

عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم.

(١٥٧) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قتلوا الناقة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب، لا توبةً، أو عند معاينة العذاب، ولذلك لم ينفعهم الندم.

(١٥٨) ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهي صيحة نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا، وبطلان قول معارضيهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع وضوح الأدلة.

(١٥٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿لَهُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه وصالحي عباده.

(١٦٠) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا لوطاً الرسول، وتكذيبه يعد تكذيباً لكافة الرسل؛ لأن

دينهم واحد.

(١٦١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ هذه أخوة وطن وديار؛ لأن لوط بابلي الموطن ودينه الإسلام، وهو ابن أخ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أمرهم بتقوى الله، وحضهم عليها؛ لأنهم قائمون على عظائم الذنوب.

(١٦٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله عز وجل ﴿أَمِينٌ﴾ فلا تشكوا في رسالتي.

(١٦٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الزموا تقواه ودعوا القبائح التي تفعلونها ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ لتنجوا من عذاب عظيم، وخزي مقيم.

(١٦٤) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أريد لكم خير الدنيا والآخرة، ولا أريد منكم مالاً ولاجاهًا؛ لأن أجري على ربي الذي اختارني لرسالته، وخصني بنبوته.

(١٦٥) ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ وهو جماع الرجال في أدبارهم المستقذر القبيح ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من بني آدم.

(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ تركتم إتيان النساء في أقبالهن، وهن اللاتي خلقهن الله لكم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ معتدون مجاوزون الحلال إلى الحرام.

(١٦٧) ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من البلد.

(١٦٨) فلما رأى استمرارهم عليه ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ المبغضين الناهين عنه، المحذرين منه.

(١٦٩) ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من فعله وعقوبته؛ فاستجاب اللَّه له.

(١٧٠) ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ نجينا لوطاً وابنتيه

(١٧١) ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب.

(١٧٢) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم.

(١٧٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾؛ أي: حجارة من سجيل ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أهلكهم اللَّه عن آخرهم.

(١٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ في هذا الذي ذكرنا من إهلاك قوم لوط وزوجته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على وضوح الأدلة وقيام البراهين على صدق رسول الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿لَهُوَ﴾ وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر لكل الظالمين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه وعباده المؤمنين.

(١٧٦) ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾؛ أي: البساتين الملتفة الأشجار، وهم أصحاب مدين ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ فكذبوا نبيهم شعيباً، الذي جاء بما جاء به المرسلون.

(١٧٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللَّه تعالى؛ فتتركون ما يسخطه ويغضبه من الكفر والمعاصي.

(١٧٨) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله إليكم ﴿أَمِينٌ﴾ أبلغكم ما أوحي إلي دون زيادة ولا نقصان.

(١٧٩) ﴿فَاتَّقُوا﴾ عقاب ﴿اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ترشدوا على خلافكم أمره.

(١٨٠) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كانت دعوة الأنبياء جميعًا الامتناع من أخذ أجر على الدعوة وتبليغ الرسالة وكانوا مع شركائهم يبخسوا المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم:

(١٨١) ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه وأكملوه ﴿وَلَا تَكُونُوا

مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها؛ ببخس المكيال والميزان.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان العادل، الذي لا يميل.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم في حقوقهم شيئاً ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تفسدون في البلاد بالسلب والقتل ومنع حقوق العباد.

(١٨٤) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الخليقة الأولين.

(١٨٥) قالوا له مكذبين له، رادين لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ فأنت تهذى وتتكلم كلام المسحور، الذي غايته: أن لا يؤاخذ به.

(١٨٦) ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة، اختصصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور.

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قطع عذاب تستأصلنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوى أنك رسول من الله إلينا.

(١٨٨) ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، إنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعماركم وأحوالكم الذي يجازيك ويحاسبكم.

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أظلتهم سحابة؛ فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظلها غير الظليل، فأحرقهم

سورة الشعراء — الجزء التاسع عشر

وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

٣٧٥

بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، وبدار الشقاء والعذاب نازلين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات؛ لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿لَهُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي امتنع بقدرته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها: جميع الخيرات في الدنيا والآخرة.

(١٩٢) ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالذي أنزله


سُورَةُ الشُّعَرَاء — الجزء التاسع عشر

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ النَّمۡلِ

٣٧٦

فاطر الأرض والسماوات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي.

(١٩٣) ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ وهو: جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم ﴿ٱلۡأَمِينُ﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ يا محمد﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي.

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بعث إليهم، وباشر دعوتهم أصلاً ﴿مُّبِينٖ﴾ اللسان البين الواضح.

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به وصدقها، بل جاء بالحق، وصدق المرسلين.

(١٩٧) ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً﴾ على صحته وأنه من الله ﴿أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس.

(١٩٨) ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون على التعبير؛ كما ينبغي.

(١٩٩) ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه.

(٢٠٠) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أدخلنا التكذيب، ونظمناه في قلوب أهل الإجرام، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها.

(٢٠١) ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ على تكذيبهم.

(٢٠٢) ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يأتيهم على حين غفلة وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُواْ﴾ إذ ذاك: ﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ يطلبون أن ينظروا ويمهلوا. والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب، الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة.

(٢٠٤) يقول تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ وهو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به، ولا يحتقر ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة، للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون بها على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يعجزوننا،

ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

(٢٠٥) ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ أي شيء يغني عنهم، ويفيدهم؟!

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر بهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، فيدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات اللّه، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

(٢٠٩) ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر.

(٢١٠) ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزّهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً وأمته أسوة له في ذلك عن دعاء غير اللّه من جميع المخلوقين ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ وأن ذلك موجب للعذاب الدائم؛ لكونه شركًا.

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي.

(٢١٥) ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم

(٢١٦) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ فإن خالفوا أمرك ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: تبرأ من عملهم، وعظهم عليه، وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والتوكل هو: اعتماد القلب على اللّه تعالى، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده وبرحمته به، يفعل ذلك.

---

(٢١٤) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، أماجمعتنا إلا لهذا! وأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

(٢١٨) ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وتقلبك راكعاً وساجداً.

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.

(٢٢١) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: بصفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين.

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل ﴿أَثِيمٍ﴾ في فعله، كثير المعاصي.

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ﴾ عليه ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ الذي يسترقونه من السماء ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أكثر ما يلقون إليه كذب؛ فيصدق واحدة، ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه.

(٢٢٤) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾؛ أي: هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت؛ فإنهم ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى.

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الشعر ﴿يَهِيمُونَ﴾ فتارة في مدح، وتارة في قدح، فلا يستقر لهم قرار.

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ تخالف أقوالهم أفعالهم.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟﴾ ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن باللّه ورسوله، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر اللّه ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ إلى موقف وحساب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حقًّا إلا استوفاه.

---

(٢٢٣) في «صحيح البخاري» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء» قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقًّا؟ فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيُقَرْقِرُها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة».

(٢٢٤) في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ، بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ : «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا».

(٢٢٧) في «مسند الإمام أحمد» و«مصنف عبد الرزاق» بإسناد صحيح من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل».

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

نصف الحزب ٣٨

(١) ﴿طسٓ﴾ تقدم الكلام في فواتح سورة البقرة على الحروف المقطعة.

يقول تعالى منبهاً عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: هذه الآيات ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح الدلالات، وأبينها على أجلِّ المطالب، وأفضل المقاصد.

(٢) ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه وتبشرهم بثواب اللَّه المرتب على الهداية لهذا الطريق.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فرضها ونفلها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة لمستحقيها ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين؛ وهو: العلم التام الواصل إلى القلب.

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة التي رأوها حسنة ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ حائرين مترددين، مؤثرين سخط اللَّه على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقًّا، والحق باطلاً.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أشده وأسوأه ﴿وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

(٦) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك، ينزل ﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها ﴿عَلِيمٍ﴾ بأسرار الأحوال وبواطنها، كظواهرها.

(٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران عليه السلام وابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهًا إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرت ناراً من بعيد ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون.



(٨) ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ناداه اللَّه تعالى وأخبره: أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته: أن جعله اللَّه موضعاً لتكليم اللَّه لموسى وإرساله ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على أن يظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

(٩) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ أخبره اللَّه: أنه اللَّه المستحق للعبادة، وحده لا شريك له ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل المخلوقات ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره وخلقه.

(١٠) ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وهو ذكر الحيات سريع الحركة ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى ﴿مُدْبِرًا﴾ هرب خائفاً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: لم يلتفت من شدة ذعره من الحية، التي رأى على مقتضى الطبائع البشرية ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره، وتصريفه وأمره ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فالذين اختصهم اللَّه برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير اللَّه، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

(١١) ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم وأما المرسلون فما لهم وللوحشة، والخوف؟ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي اللَّه، وتاب وأناب ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن اللَّه غفور رحيم.

(١٢) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الجيب قطع في القميص ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ هاتان الآيتان: انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من الجيب، فتخرج بيضاء في جملة تسع آيات، تذهب بها، وتدعو فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد اللَّه، واستكبارهم في الأرض بغير

---

(٨) في «صحيح مسلم» و«تفسير ابن أبي حاتم» واللفظ له من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي ان ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، وحجابه النور – أو: النار – لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره». ثم قرأ أبو عبيدة– أحد الرواة –: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

الحق.
(١٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ مضيئة تدل على الحق، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ظاهر لكل أحد.
(١٤) ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ كفروا بآيات اللّه جاحدين لها ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ﴿ظُلۡمٗا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم ﴿وَعُلُوّٗاۚ﴾ على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسل ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أسوأ عاقبة، دمرهم اللّه وأغرقهم في البحر وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.
(١٥) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾؛ أي: يذكر في يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان عليهما السلام، بالعلم الواسع الكثير؛ بدليل التنكير ﴿وَقَالَا﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فحمدا اللّه على جعلهما من المؤمنين: أهل السعادة، وأنهما كانا من خواصهم.
(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه ﴿وَقَالَ﴾ سليمان عليه السلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ فكان عليه الصلاة والسلام، يفقه ما تقول، وتتكلم به؛ كما راجع الهدهد وراجعه، وكما فهم قول النملة للنمل؛ كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه السلام ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أعطانا اللّه من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤت أحداً من الآدميين ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي أعطانا اللّه، وفضلنا، واختصنا به ﴿لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الواضح الجلي؛ فاعترف أكمل اعتراف بنعمة اللّه تعالى.
(١٧) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم، ومن الجن، والشياطين، ومن الطيور ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم، قد استعد لذلك، وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره.
(١٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ خافت على النمل أن يحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم.
(١٩) ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ إعجاباً منه بنصح أمتها، وحسن تعبيرها. وقال شاكراً للّه الذي أوصله إلى هذه الحال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾

---

(١٨) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أن نملة قرصت نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح».

(١٩) في الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبتسم».

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾

ألهمني ووفقني ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ ووفقني أن أعمل صالحاً ترضاه؛ لكونه موافقاً لأمرك، مخلصاً فيه، سالماً من المفسدات والمنقصات ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ﴾ التي منها الجنة ﴿فِي﴾ جملة ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ طلب ما فقد من الطير ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ ما للهدهد لا أراه؟ ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به؛ لكونه خفيًا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم كان غائبًا من غير إذني، ولا أمري؟

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ دون القتل؛ فأنتف ريشه ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ لأقطعن حلقه ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ حجة واضحة على تخلفه.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ غاب زماناً يسيراً ثم جاء، وهذا يدل على هيبة جنوده منه ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ اطعلت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ خبر متيقن.

(٢٣) ثم فسر هذا النبأ؛ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع ونحو ذلك ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ كرسي ملكها الذي تجلس عليه عرش هائل.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فرأوا ما عليه هو الحق ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

(٢٥) ﴿أَلَّا﴾ هلا ﴿يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يعلم الخفي في أقطار السماوات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء؛ بإنزال المطر،

(٢٣) أخرج البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه؛ قال: لما بلغ النبي ﷺ أن فارساً ملَّكوا ابنة كسرى؛ قال: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

وإنبات النباتات، ويخرج خبء -أي : خبيئة - الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض؛ ليجازيهم بأعمالهم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ أي :يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال.

(٢٦) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له؛ لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسماوات، وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيمًا؛ فهو صغير حقير في جنب عرش الله عز وجل، ثم ههنا كلام الهدهد، فلما فرغ الهدهد من كلامه.

(٢٧) و﴿قَالَ﴾ متثبتاً؛ لكمال عقله ورزانته: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في مقالتك ، لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك.

(٢٨) ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وذلك أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله إليهم فألقاه إلى بلقيس ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾استأخر غير بعيد ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ إليك وما يتراجعون به.

(٢٩) فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم ﴿قَالَتْ﴾ لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بكرمه:أنه جليل المقدار من أكبر ملوك الأرض، وايضًا ما رأته من عجيب أمره، كونه طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

(٣٠) ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ وبينت المكتوب فقالت: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾لا تكونوا فوقي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأقبلوا إلي مسلمين.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أخبروني، ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته، وننقاد؟ أم ماذا نفعل؟ ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم.

(٣٣) ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إن رددت عليه قوله، ولم تدخلي في طاعته؛ فإنا أقوياء على القتال. فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي، الذي لو تم؛ لكان فيه دمارهم، ولكنهم لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ الرأي ما رأيت؛ لعلمهم بعقلها، وحزمها، ونصحها لهم ﴿فَانْظُرِي﴾ نظر فكر وتدبر ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ تجدينا مطيعين لأمرك.

(٣٤) ﴿قَالَتْ﴾ لهم - مقنعة لهم بالعدول عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال -: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ قتلاً وأسراً ونهباً لأموالها وتخريباً لديارها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: جعلوا الرؤساء السادة

---

(٢٦) أخرج أبو داود وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصُرَد».

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ع ١٨

أشراف الناس من الأرذلين، فصدق الله قولها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾؛ أي: كما قالت هي يفعلون.

(٣٥) ثم أرادت أن تختبره، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ عطية عن طريق الملاطفة ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ منه، هل يستمر على رأيه وقوله أم تخدعه الهدية، وتتبدل فكرته، وكيف أحواله وجنوده؟

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ جاءه الرسل بالهدية ﴿قَالَ﴾ منكراً عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾؛ أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم؟! ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ إن هديتكم لم تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر علي النعم ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

(٣٧) ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: بهديتك ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بها ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ مهانون مدحورون فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه.

(٣٨) فـ﴿قَالَ﴾ لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ والعفريت، هو: القوي النشيط جدًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني قبل أن تقوم من مجلسك ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾ على حمله، ﴿أَمِينٞ﴾ على ما فيه من الجواهر.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو رجل عالم صالح عند سليمان كان يعرف اسم اللّه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾؛ أي: ارفع بصرك وانظر مُدَّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، وذلك بأن يدعو اللّه بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا اللّه؛ فحضر ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حمد اللّه تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ ليختبرني بذلك؛ فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته؛ كما هو دأب الملوك الجاهلين بل

علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بيَّن أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه فقال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ غني عن أعماله ﴿كَرِيمٌ﴾ كثير الخير، يعم به الشاكر، والكافر إلا أن شكر نعمه، داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها.

(٤١) ثم ﴿قَالَ﴾ سليمان لمن عنده: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيروه بزيادة ونقص، ونحن في ذلك ﴿نَنظُرْ﴾ مختبرين لعقلها ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدها به قد خلفته في بلدها و﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؛ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو؛ لأنها عرفته فأتت بلفظ محتمل للأمرين صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منَّة: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: الهداية والعقل والحزم من قبل هذه الملكة ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه

الجزء التاسع عشر — سورة النمل

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

٣٨١

بعقله من ضلالهم وخطأهم من أندر ما يكون؛ فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر.

(٤٤) ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول فأمرها أن تدخل « الصرح » وهو القصر، أو صحن الدار، أو المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلسًا من قوارير، تجري تحته الأنهار.

فـ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء لأن القوارير شفافة، يُرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه. فلما استعدت للخوض قيل لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زجاج، فلا حاجة منك لكشف الساقين؛ فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت

ورجعت عن كفرها، و ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ أي: بما سلف من شركها وعبادتها للشمس من دون اللّه ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: متبعة لدين سليمان في عبادته للّه وحده.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود - القبيلة المعروفة - أخاهم في النسب: صالحاً، وأنه أمرهم: أن يعبدوا اللّه وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

(٤٦) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ لم تبادرون فعل السيئات، وتحرصون عليها، قبل فعل الحسنات؛ التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فإن رحمة اللّه قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

(٤٧) ﴿قَالُواْ﴾ لنبيهم صالح مكذبين ومعارضين: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ زعموا: أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين صاروا سبباً لمنع مطالبهم الدنيوية. فـ﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ما أصابكم اللّه بذنوبكم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر؛ لينظر هل تقلعون وتتوبون، أم لا؟.

(٤٨) ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح الجامعة لمعظم قومه ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد، ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح، والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك.

(٤٩) ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ لنأتينهم ليلاً هو وأهله، فلنقتلنهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ إذا قام علينا، وادعى علينا أنا قتلناهم، ننكر ذلك، وننفيه ونحلف بأننا ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فتواطئوا على ذلك.

(٥٠) ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية حتى من قومهم، خوفاً من أوليائه ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح - عليه السلام - وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(٥١) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكناهم واستأصلنا شأفتهم؛ فجاءتهم صيحة عذاب؛ فأهلكوا عن آخرهم.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازليها ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ هذا عاقبة ظلمهم وشركهم باللّه، وبغيهم في الأرض ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق، ويتدبرون وقائع اللّه، في أوليائه وأعدائه؛ فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم، الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل

النجاة والفوز.

(٥٣) ولهذا قال: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر: خيره وشره، ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته، وطاعة رسله.

(٥٤) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً ونبأه الفاضل حين قال لقومه - داعياً إلى الله، وناصحاً -: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندتم، وارتكبتم ذلك ظلماً منكم وجرأة على الله.

(٥٥) ثم فسر تلك الفاحشة فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ كيف توصلتم إلى هذه الحال، فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محل الغائط والنجو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس على الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: ما ذلك منكم إلا أنكم قوم سفهاء جهلة بعظيم حق الله عليكم، فخالفتم لذلك أمره، وعصيتم رسوله .

(٥٦) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم: المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح، ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده، فما كان جواب قومه ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور.

الجزء العشرون — سورة النمل

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

٣٨٢

(٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الهالكين مع قومها.

(٥٨) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بئس المطر مطرهم، وبئس العذاب عذابهم؛ لأنهم أنذروا وخوفوا؛ فلم ينزجروا، ولم يرتدعوا؛ فأحل الله بهم عقابه الشديد.

(٥٩) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي يستحق كمال الحمد، والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه، وجميل معروفه، وهباته، وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وسلم - أيضاً - على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله رب العالمين، وذلك لرفع ذكرهم، وتنويهًا بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم

من النقائص والعيوب ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف؛ أي: آللَّه الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألطاف، خير أم الأصنام والأوثان، التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير؛ فاللَّه خير مما يشركون، ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه لا الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة ما سواه هي الباطل، فقال:

(٦٠) ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي: لأجلكم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن منظر من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ لولا منة اللَّه عليكم بإنزال المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه ويشرك به؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

(٦١) ﴿أَمَّن﴾؛ أي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع خير أم اللَّه الذي ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يستقر عليها العباد، ويتمكنون من السكنى، والحرث والبناء والذهاب والإياب ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ جعل في خلال الأرض أنهاراً ينتفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ترسيها وتثبتها؛ لئلا تميد، وتكون أوتاداً لها، لئلا تضطرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض، مبعدة عن البحار، فتحصل منها مقاصدها ومصالحها ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فعل ذلك حتى يعدل به اللَّه ويشرك به معه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون باللَّه تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به شيئاً.

(٦٢) ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص، مما هو فيه إلا اللَّه وحده؟ ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: البلاء والشر والنقمة إلا اللَّه وحده؟ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ من يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع اللَّه شيئًا من ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قليل تذكركم وتدبركم للأمور، التي إذا تذكرتموها أدركتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة

(٦٢) في «مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح عن رجل من بلهجيم قال: قلت: يا رسول الله، إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده، الذي إذا مسك ضر؛ فدعوته كشف عنك، والذي إذا ضللت بأرض قفر؛ فدعوته ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سنة؛ فدعوته أنبت لك».

أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

والإعراض، شامل لكم؛ فلذلك ما ارعويتم، ولا اهتديتم.

(٦٣) ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ من هو الذي يهديكم حين تكونون ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب، التي تهتدون بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ﴾؛ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعه، ثم تلقحه، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ فعل ذلك أم هو وحده الذي انفرد به؟ فلِم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه؟ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاظم وتنزه وتقدس عن شركهم، وتسويتهم به غيره.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدي خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ بالمطر والنبات؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ يفعل ذلك ويقدر عليه؟ ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(٦٥) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ يخبر تعالى: أنه المنفرد بعلم غيب السماوات والأرض ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يدرون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى البعث والنشور والقيام من القبور.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِۚ﴾ بل ضعف ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلاً إلى القلب ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ﴾؛ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم؛ لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ من الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم علم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني مشركي مكة: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ هذا بعيد غير ممكن؛ قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ فلم يجئنا، ولا رأينا منه شيئاً ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

ربع الحزب ٣٩

ع

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فلا تجدون مجرمًا قد استمر على إجرامه؛ إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل اللَّه به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم؛ فإنك لو علمت ما فيهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير لم تأس ولم تحزن ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم ستعود عاقبته عليهم.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: المكذبون بالمعاد وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم؛ فإن وقوعه ووقته، قد أجله اللَّه بأجله، وقدره بقدره. فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ينبه عباده على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ومع هذا؛ فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تنطوي عليه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة؛ فكل حادث جلي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة، وتفصيله، وتوضيحه: لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل؛ قصه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال واستبان به الصواب من المسائل المختلف فيها.

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ من الضلالة والغي والشبه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تثلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه، فهؤلاء

تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة، والفوز والفلاح.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ إن اللَّه - تعالى - سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين؛ لخفاء الدليل، ولبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم اللَّه فيها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق؛ فأذعنوا له ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء وبأقوال المختلفين، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلاً بما علمه فيه.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح.

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ يعني: الكفار، شُبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم، كما شبهوا بالصم في قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

(٨١) ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى، وأعمى قلبه عن الإيمان ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ هؤلاء الذين ينقادون لك، هم الذين يؤمنون بآيات اللَّه، وينقادون لها بأعمالهم، واستسلامهم.

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا وقع على الناس القول الذي حتمه اللَّه وفرض وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ تكلم العباد ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات اللَّه؛ فإظهار اللَّه هذه الدابة، من آيات اللَّه العجيبة؛ ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون، وهذه الدابة هي الدابة المشهورة: التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة.

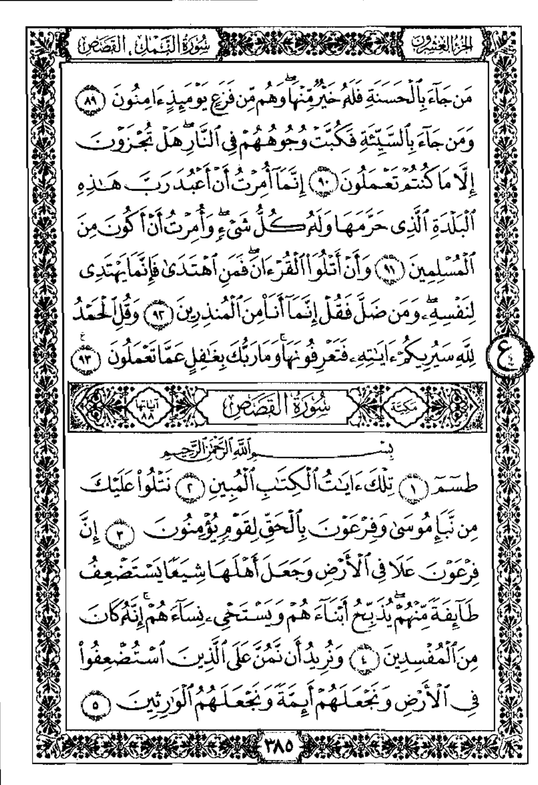
(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن اللَّه يجمعهم ويحشر من كل أمة من الأمم فوجاً وطائفة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

(٨٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ وحضروا ﴿قَالَ﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علما؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم، تكذيبًا بالحق، وعملهم لغير اللَّه، أو على غير سنة رسولهم.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي

---

(٨٢) في «المسند» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه الصحيح عن النبي ﷺ: «تخرج الدابة؛ فتسم الناس على خراطيمهم، ثم يغمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير؛ فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول: من أحد المخطَّمين».



استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ألم يشاهدوا الآية العظيمة، وهو تسخير اللّه لهم الليل والنهار: هذا بظلمته؛ ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه؛ لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بكمال وحدانية اللّه وسبوغ نعمته.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ انزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم ببعض خوفاً مما هو مقدمة له ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ممن أكرمه اللّه وثبته، وحفظه من الفزع ﴿وَكُلٌّ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين.

(٨٨) ﴿وَ﴾ ومن هوله أنك ﴿تَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ لا تفقد شيئاً منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ، وقد تفتت ثم تضمحل، وتكون هباءً منبثًا، ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ من خفتها، وشدة ذلك الخوف، وذلك ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

(٨٩) ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ يعم جنس الحسنات: قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ هذا أقل التفضيل ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ من الأمر الذي فزع الخلق لأجله ﴿ءَامِنُونَ﴾.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ اسم جنس يشمل كل سيئة ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك.

(٩١) قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ مكة المكرمة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وأنعم على أهلها؛ فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من

---

(٩١) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذه البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته؛ إلا لمن عرفها، ولا يختلى خلاها».

العلويات والسفليات، أتي به؛ لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أبادر إلى الإسلام.

(٩٢) ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ﴾ وأمرت أن أتلوا عليكم ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ لتهتدوا به وتقتدوا، وتعلموا ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي علي، وقد أديته ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

(٩٣) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، وبخاصة أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي وقع، والذي ينبغي أن يقع منهم، من الحمد والثناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم؛ لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ معرفة تدلكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة، بوجه من الوجوه عليه.

سورة القصص

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال.

(٣) ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ فإن نبأهما غريب، وخبرهما عجيب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإليهم يساق الخطاب، ويوجه الكلام؛ حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبُّر ذلك.

(٤) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾؛ أي: تكبر وتجبر وطغى﴿ فِي ٱلْأَرْضِ﴾أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وتلك الطائفة، هم: بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾أي: ونستبقي نساءهم للخدمة والامتهان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا قصد لهم في صلاح الدين، ولا صلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

(٥) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأهم ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

نصف الحزب ٣٩

الآخرة.

(٦) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة اللّه، وجرت بها مشيئته، ﴿وَ﴾ كذلك نريد أن ﴿نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ الذين بهم صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿مِنْهُم﴾ من هذه الطائفة المستضعفة ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم.

(٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: ألهمت في سرها ونفث في روعها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ نيل مصر، في وسط تابوت مغلق ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فبشرها بأنه سيرده إليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله اللّه رسولاً.

(٨) ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط: أن يكون عدوًّا لهم وحزناً يحزنهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ مجرمين، فأردنا أن نعاقبهم على إجرامهم، ونكيد لهم، جزاء على مكرهم وكيدهم.

(٩) ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾: هذا الولد ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أبقه لنا؛ لِتقرَّ به أعيننا، ونسر به في حياتنا. فقال فرعون: أما لك؛ فنعم، وأما لي فلا. فكان كذلك، وهداها اللّه به، وأهلكه اللّه على يديه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه درجة أعلى من ذلك، نجعله ولدًا لنا، ونكرمه، ونجله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه. وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا؛ لكان لهم وله شأن آخر.

(١٠) ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ بما في قلبها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به ﴿لِتَكُونَ﴾ بذكر الصبر والثبات ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١١) ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ اذهبي؛ فقصي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه، من غير أن يحس بك أحد، أو يشعروا بمقصودك. فذهبت تقصه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ عن بعد﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وفي القصة أنها كانت تمشي جانبًا وتنظر اختلاسًا؛ تُرى أنها لا تنظره.

(١٢) ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ ومن لطف اللّه بموسى وأمه: أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدًا يطلبه، فجاءت أخته وهو بتلك الحال ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ يضمنونه ﴿لَكُمْ﴾ ويرضعونه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ أي: لموسى ناصحون، فلما قالت ذلك أخذوها، وشكُّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك نصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤورة الملك، ورجاء منفعته. فأرسلوها.

(١٣) ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ به ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقه، بل وسيتربى عندها، على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدها ﴿حَقٌّ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس، وعاقبته محمود في نفس الأمر.

(١٤) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

فكملت فيه تلك الأمور ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة اللّه، المحسنين لخلق اللّه، يعطيهم علماً وحكماً، بحسَب إحسانهم.

(١٥) ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ يتخاصمان ويتضاربان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثة الإسرائيلي ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أماته من تلك الوكزة؛ لشدتها، وقوة

الجزء العشرون — سورة القصص

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍۖ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

٣٨٨

موسى؛ فندم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما جرى منه، ولم يكن قصده القتل، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ﴾ من تزيينه ووسوسته ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

(١٦) ثم استغفر ربه ف ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتل القبطي من غير أمر ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ذنبي﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خصوصاً للمخبتين إليه، المبادرين للإنابة والتوبة؛ كما جرى من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١٧) ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معيناً ومساعدًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا أعين أحدًا على معصيته.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد قتل القبطي ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف؛ لأنه قد علم: أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى؛ من بني إسرائيل، فبينما هو على تلك الحال ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ على عدوه ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ على قبطي آخر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ أي: للإسرائيلي موبخًا على حاله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الغواية، ظاهر الجراءة؛ قاتلت رجلاً فقتلتُه بسبب، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه؟! وقيل: إنما قال موسى للفرعوني ذلك.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ موسى ﴿بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ له وللمخاصم المستصرخ لموسى، أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي ﴿قَالَ﴾ له الإسرائيلي، وقد ظن أنه يريد أن يبطش به؛ لما رأى من غضبه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالقتل ظلمًا ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك، وأمر فرعون بقتل موسى! فطلبوه فبثعوا وراءه ليحضروه لذلك، وهم لا يخافون أن يفوتهم.

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾قيل: هو مؤمن آل فرعون ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يسرع في مشيه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر فأخذ طريقًا قريبًا حتى سبق إلى موسى فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾؛

أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾يأمر بعضهم بعضًا بقتلك﴿فَٱخْرُجْ﴾ عن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في الأمر لك بالخروج.

(٢١) فامتثل نصحه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يوقع به القتل، ودعا اللّه: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضباً من غير قصد منه للقتل، فَتوعُّدُهُمْ له ظلم منهم وجراءة.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك فيه لفرعون ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق؛ لأنه لم يكن يعرف إليها قبل فهداه اللّه سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

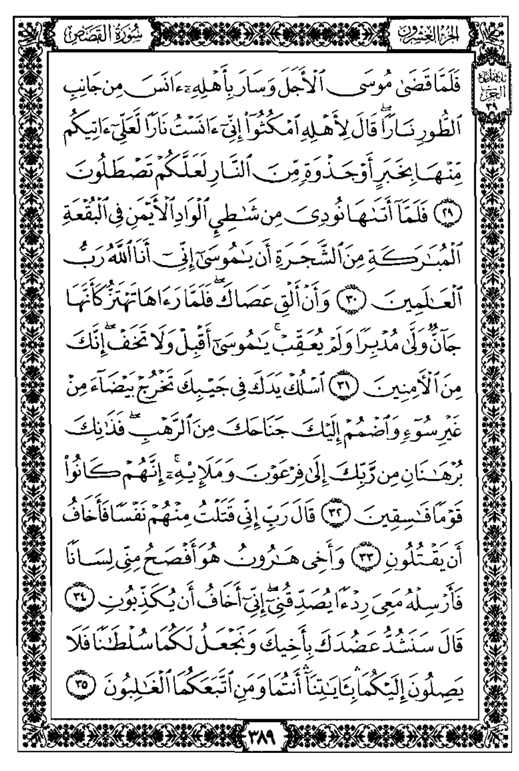
(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر كانوا يسقون منه مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾جماعة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾؛ أي سوى الجماعة ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾؛ أي: تحبسان وتمنعان غنمهما عن حياض الناس؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وبخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما ﴿قَالَ﴾ لهما موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما بهذه الحالة ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي؛ قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا قوة له على السقي؛ فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء.

(٢٤) فرق لهما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ورحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجر، ولا له قصد غير وجه اللّه تعالى، فلما سقى لهما، وقيل: إنه رفع حجرًا كان على رأس البئر لا يطيق رفعه إلا جماعة من الناس، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحًا لتلك الظلال بعد التعب ﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة مسترزقًا ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ إني محتاج إلى ما تسوقه إلي من أيّ خير كان، كالطعام، وكان قد اشتد عليه الجوع.

(٢٥) وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ لا لِمَنٍّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك؛ فأجابها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ مسكناً روعه، جابراً قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ليذهب خوفك وروعك؛ فإن اللّه نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ إحدى ابنتيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اجعله أجيراً عندك يرعى الغنم ويسقيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾؛ أي: إن موسى أولى من استؤجر؛



فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾؛ أي: تصير أجيرًا عندي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ ثماني سنين ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ تبرع منك لا شيء واجب عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ فأحتم عشر السنين، وما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما استأجرتك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مجيباً له فيما طلبه منه: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ هذا الشرط الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

(٢٩) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ قضى الأجل الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ قاصداً مصر ﴿ءَانَسَ﴾ أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ رأى ناراً تضيء على بعد ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ أي: حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ تسدفئون بها من البرد.

(٣٠) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فأخبر بألوهيته وربوبيته.

(٣١) ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها سورة مهيلة

(٢٨) أخرج البخاري عن سعيد بن جبير؛ قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب؛ فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقال: «قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إن رسول الله إذا قال فعل».

﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ ذكرُ الحيات العظيم ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يرجع، لاستيلاء الروع على قلبه، فقال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف.

(٣٢) ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾ أدخلها ﴿فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برص ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك ليزول عنك الرهب والخوف ﴿فَذَٰنِكَ﴾ يعني: العصا، واليد البيضاء ﴿بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة إن نفعت.

(٣٣) فـ ﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، معتذرًا من ربه، سائلاً له المعونة على ما حمله: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ إذا رأوني.

(٣٤) ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول الجمرة حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدرة؛ فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل له شدة في التعبير ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ معاوناً ومساعداً ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ يعني فرعون وقومه.

(٣٥) فأجابه الله إلى سؤاله؛ فـ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ نعاونك به ونقويك، ثم أزال عنه محذور القتل؛ فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ تسلطاً وتمكناً من الدعوة بالحجة،

الجزء العشرون — سورة القصص

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

٣٩٠

والهيبة الإلهية من عدوهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿قَالُوا۟﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مفتعل مصنوع ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك؛ فإن الله أرسل يوسف قبل موسى.

(٣٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٠)

عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأبيتم إلا التمادي في غيكم، واللجاج على كفركم، فاللّه تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

(٣٨) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجرئاً على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء ضعفاء العقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثَمَّ إله غيري لعلمته ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ليجعل له لبناً من فخار ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ بناء عالياً ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى.

(٣٩) ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد اللّه، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل اللّه، وما جاءوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل ﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فلذلك تجرأوا، وإلا فلو علموا، وظنوا أنهم يرجعون إلى اللّه؛ لَمَا كان منهم ما كان.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة، أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من عذاب اللّه؛ فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون اللّه من ولي ولا نصير.

(٤٢) ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ زيادة في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح، والمقت والذم وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم، الذين اجتمع عليهم مقت اللّه، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

(٤٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر للناس: أمور يبصرون بها، ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ لمن آمن به ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بما فيه من المواعظ والبصائر.

(٤٤) ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ بجانب الجبل الغربي ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ يعني عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

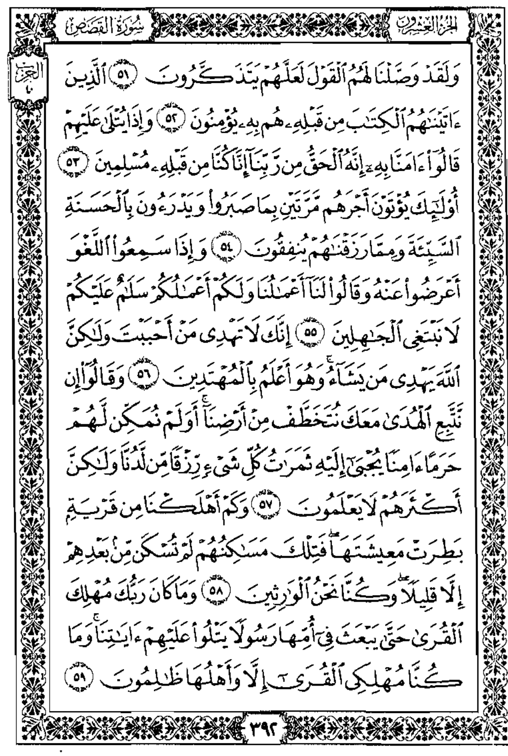
(٤٥) ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ خلقنا أمماً بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ فاندرس العلم، ونسيت آياته؛ فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك، وإلى ما علمناك، وأوحينا إليك ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا﴾ مقيماً ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ تعلمهم، وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى أثر من آثار إرسالنا إياك، وَوَحْيٌ لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

(٤٦) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويريهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: العرب وقريش ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلاً لغيرهم؛ فكانت رسالته لهم أصلاً، ولغيرهم تبعاً.

(٤٧) ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فأرسلناك يا محمد؛ لدفع حجتهم، وقطع مقالتهم.

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ وهو القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿قَالُواْ﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة؛ أي: فأما ما دام ينزل متفرقاً، فإنه ليس من عند الله، وأيّ دليل في هذا ؟! وأيّ شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقًا؟! بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقًا ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين، بل لقد كفروا بكتاب موسى من قبل، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن

(٤٣) أخرج الطبري وابن أبي حاتم في «تفسيريهما» بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء والأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخوا قردة بعد موسى، ألم تر أن الله يقول: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾».
وورد عند البزار مرفوعاً، وإسناده صحيح.



قَبْلُ﴾ أي: فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ القرآن والتوراة تعاونا في سحرهما، وإضلال الناس؛ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق، بما ليس ببرهان، وهذا شأن كل كافر، ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

(٤٩) ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما.

(٥٠) ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء، فاتبعه وترك الهدى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذي صار الظلم لهم وصفاً، والعناد لهم نعتاً.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً؛ رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقًا رحمة بهم، فلمَ اعترضوا بما هو من مصالحهم؟!

(٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هُم بِهِۦ﴾ بهذا القرآن، ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له، وأذعنوا، و﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما مَنَّ الله به علينا من الإيمان والإسلام، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبُه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول.

(٥٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ

﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أجراً على الإيمان الأول، وأجراً على الإيمان الثاني ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، ومن خصالهم الفاضلة: أنهم ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ دأبهم وطريقتهم: الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل.

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ من جاهل خاطبهم به أعرضوا عنه، و ﴿قَالُوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ كُلٌّ سَيُجازى بعمله، الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلمتم منا، لا تسمعون منا إلا الخير، لا نعارضكم بالشتم والقبيح من القول ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها.

(٥٦) ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله تعالى يهدي من يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد.

(٥٧) ﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: بعض كفار قريش معتذرين عن عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فقال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أولم نجعلهم متمكنين، ممكنين في حرم يكثر المنتابون إليه، ويقصده الزائرون، قد احترمه القريب والبعيد، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصون بقليل ولا كثير ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من سائر الثمار مما حوله وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

(٥٨) فتوعدهم الله تعالى بما فعل بالأمم قبلهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فخرت بها وألهتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسل؛ فأهلكهم الله ﴿فَتِلْكَ

(٥٤) أخرج الطبري في «جامع البيان» وأبو القاسم البغوي في «معجم الصحابة» والطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح عن رفاعة القرظي رضي الله عنه، قال: «نزلت هذه الآية في عشرة أنا منهم».

(٥٦) في «الصحيحين» من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة؛ جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال: «اي عم! قل: لا إله إلا الله؛ كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب: آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

الجزء العشرون — سورة القصص

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

٣٩٣

﴿مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيحاشها من بعدهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ للعباد، نميتهم، ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم، ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال:

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليهم أخبارها ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعا إليه؛ فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة.

(٦٠) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ هذا حض منه تعالى لعباده، على الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق: من الذهب، والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب واللذات ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها؛ أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشواً بالمنغصات، ممزوجاً بالغصص ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، ومستمر سرمداً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تكون لكم عقول بها تزنون أيَّ الأمرين أولى بالإيثار، وأيَّ الدارين أحق للعمل بها.

(٦١) ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له، بالثواب الحسن: الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم؛ ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ من غير شك، ولا ارتياب؛ لأنه وعد من كريم، صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته، وجانب سخطه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ

---

(٦٠) أخرج مسلم في «صحيحه» من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليمّ؛ فلينظر ما ذا يرجع إليه».

فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، ولم يرفع بهدى اللّه رأساً، ولم ينقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال..

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ هذا إخبار من اللّه تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء: عن عبادة اللّه، وإجابة رسله؛ فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادي من أشركوا به شركاء، يعبدونهم، ويرجون نفعهم؛ ودفع الضرر عنهم، فيناديهم؛ ليبين لهم عجزها وضلالهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وليس للّه شريك ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

(٦٣) ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ من الرؤساء والقادة في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ التابعون ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم؛ أي: نحن براء منهم، ومن عملهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ على ما أملتم فيهم من النفع ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب اللّه من شيء ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، مستحقين للعقوبة ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعد ما كانوا مكذبين به، منكرين له ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لَمَا حصل عليهم ما حصل، ولَهُدوا إلى صراط الجنة.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ هذا النداء في إثبات النبوة ﴿فَيَقُولُ﴾ اللّه سبحانه لهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل صدقتموهم واتبعتموهم، أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ عميت عليهم الحجج فلم يُحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم؛ ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب اللّه تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة عن الشرك والمعاصي، وآمن باللّه فعبده، وآمن برسله؛ فصدقهم، وعمل صالحا متبعًا فيه للرسل ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾؛ أي: يوم القيامة و«عسى» من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنّه لا محالة.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ يخبر تعالى أن المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له منازع ولا معقب ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وأن أحداً ليس له من الأمر والاختيار شيء ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأنه تعالى منزه عن كل ما يشركون به.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وأنه العالم بما أكنته الصدور، وما أعلنوه.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(٧٠) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وأنه هو الحاكم في الدارين: في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذرأ والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كلا منكم بعمله، من خير وشر.

(٧١) قال تعالى ممتناً على عباده، ومذكرًا لنعمه عليهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أنداداً، وهو خالقهم ورازقهم ومدبر حياتهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني و﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد.

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ ثم يمتن عليهم مرة أخرى ويذكرهم بنعمة أخرى ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ دائماً مستمرًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أخبروني ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مواقع العبر؛ ومواضع الآيات؛ فتستنير في بصائركم، وتسلكوا الطريق المستقيم؟!

(٧٣) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بالأسفار والترحال والحركات والأشغال ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ويوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله أن يظهر جراءتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: في الدنيا، وكرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ.

(٧٥) ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وأحضرنا من كل جماعة شهيدها، وهو نبيها الذي يشهد عليها بما أجابته أمته فيما أتاهم به عن الله من الرسالة ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾

حجتكم ودليلكم على صحة شرككم مع إقامة الحجج عليكم ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالى؛ قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلحت حجة الله ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الكذب والإفك، واضمحل وتلاشى وعدم.

(٧٦) ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ من بني إسرائيل، وهو ابن عمه، على قول جمهور المفسرين ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ وطغى؛ بما أوتيه من الأمور العظيمة المطغية ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ كنوز الأموال شيئًا كثيرًا ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾ لتثقل ﴿بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، أي: حتى أن مفاتح خزائن أمواله، تثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟! ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ ناصحين له، محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ بها، المنكبين على محبتها.

(٧٧) ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ ابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك ﴿وَأَحۡسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ بهذه الأموال

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾

﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بالتكبر، والعمل بمعاصي الله، والاشتغال بالنعم عن المنعم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة.

(٧٨) فـ﴿قَالَ﴾: قارون - رادًا لنصيحتهم، كافراً بنعمة ربه -: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي، ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟! قال الله تعالى مبينًا أن عطاءه ليس دليل على حسن حالة المعطى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً

---

(٧٦) أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ «كان ابن عمه».

﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فما المانع من إهلاك قارونه مع مُضِيِّ عادتنا وسنتنا بإهلاك مَنْ هو مثله وأعظم منه؛ إذ فعل ما يوجب الهلاك؟ ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم.

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون ذات يوم ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ذو حظ وافر من الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والآجل من الجنة ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا﴾؛ أي: لا يؤتاها، قيل: المراد: الأعمال الصالحة، وقيل: الكلمة التي قيلت؛ أي: ولا يوفق لقيل هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم.

(٨١) فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزَّيَّنت الدنيا عندهم، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به من داره وأثاثه ومتاعه ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة وعصبة وخدم وجنود ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ جاءه العذاب؛ فما نصر، ولا انتصر.

(٨٢) ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ الذين يريدون الحياة الدنيا ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾؛ أي: ألم تعلم يا هذا أن ﴿اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا وتغير فكرهم الأول ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(٨٣) لما ذكر تعالى قارون وما حدث له، رغب تعالى في الدار الآخرة وأخبر بالسبب الموصل إليها، فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي

---

(٨١) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به؛ فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مقدر ومنغص ﴿نَجۡعَلُهَا﴾ داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق؟! ﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض، ولا الفساد؛ لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ لمن اتقى الله تعالى.

(٨٤) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقه تعالى وحقوق العباد ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ أعظم وأجل ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه نَهْيَ تحريم ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل.

(٨٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ نزله، وفرض فيه الأحكام، وبيَّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكامه جميع المكلفين ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ إلى يوم القيامة، وقيل: إلى الجنة، وقيل: إلى مكة ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ قل لمن كذبك من قومك: ربي أعلم بالمهتدين منكم ومني وستعلمون لمن تكن له عاقبة الدار.



الجزء العشرون — سورة القصص، العنكبوت

إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ العَنكَبُوتِ — مكية — آياتها ٦٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

٣٩٦

(٨٦) ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ لم تكن متحرياً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعدًا له، ولا متصديًا ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ بك وبالعباد ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا﴾ أي: معينًا ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم، ولا يخدعنك عنها، ولا تتبع أهواءهم ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ بل أخلص لله عبادتك؛ فإنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ فلا أحد

الجزء العشرون — سورة العنكبوت

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

٣٩٧

يستحق أن يؤله ويحب ويعبد إلا اللّه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وإذا كان كل شيء سواه هالكاً مضمحلاً؛ فعبادة الهالك الباطل باطلة، ببطلان غايتها، وفساد نهايتها ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ إليه مرجع الخلائق كلهم؛ ليجازيهم بأعمالهم.

سورة العنكبوت

(١) ﴿الٓمٓ﴾ مضى الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة «البقرة».

(٢) ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ أظن الناس ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم؟ كلا، لنختبرنهم ليبيّن المخلص من المنافق، والصادق من الكاذب.

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ من الأنبياء والمؤمنين ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾في قولهم: آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ والله أعلم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: فَلَيُظهِرَنَّ الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ أحسب الذين همهم فعل السيئات، وارتكاب الجنايات: أن أعمالهم ستهمل، وأن اللّه سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساء حكمهم حين ظنوا ذلك.

(٥) ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الدار الآخرة؛ يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، أبشر بقرب لقاء الحبيب ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ فإنه آت، وكل ما هو آت قريب؛ فتزود للقائه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للأصوات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالنيات، فمن كان صادقاً في ذلك، أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً، لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه، ومن لا يصلح.

(٦) ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه وشيطانه وعدوه الكافر ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يأمرهم بما أمرهم به؛ لينتفع به، ولا نهاهم عما

(٣) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه وأحمد وغيرهم بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل؛ فالأمثل، يبتلى الرجل على حسَب دينه، فإن كان في دينه صُلباً؛ اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة؛ ابتلي على حسَب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد؛ حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

نهاهم عنه، بُخْلاً منه عليهم.

(٧) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يعني: أن الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهي أعمال الخير: من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات وغيرها.

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه ﴿حُسْنًا﴾أي: ببرهما، والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وإن حرصا أن تتابعهما على دينهما إن كانا مشركين ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فإياك وإياهما لا تطعهما في ذلك ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء مع من أحب. أي: حبًّا دينيًا، ولهذا قال:

(٩) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من آمن بالله، وعمل صالحًا، فإن الله وعده: أن يدخله الجنة في جملة عباد الله الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته، ومرتبته عند الله.

(١٠) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعيير؛ ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ يجعلها صادَّة له عن الإيمان، والثبات عليه، كما أن العذاب صادٌّ عما هو سببه ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ لأنه موافق للهوى ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث أخبركم بهذا الفريق الذي حاله كما وصف لكم؛ فتعرفون بذلك كمال علمه، وسعة حكمته.

(١١) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فلذلك قدَّر مِحنًا وابتلاء؛ ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه

---

(٨) في «صحيح مسلم» عن سعد بن أبي وقاص ﷺ؛ قال: نزلت فيّ أربع آيات: أصبت سيفاً؛ فأتيت به النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إني أصبت سيفاً؛ فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].
وصنع رجل طعاماً فدعانا، فشربنا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش؛ فقالت الأنصار: نحن خير. وقالت قريش: نحن خير. فقام رجل منهم فغزر أنفه، فكان أنف سعد مغزوراً، ونزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].
قال: وقالت أمي: أليس تزعم: أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين، فوالله لا آكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر، ولم تأكل طعاماً ولم تشرب شراباً، وكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا - فتحوا - فمها بعصاً؛ فيصبون فيه الطعام والشراب، فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ .
ودخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض، فقلت: أوصي بمالي كله قال «لا، قلت: النصف، فنهاني، قلت: الثلث، فسكت، وأخذ الناس به.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

ع ١٥

بمجرده؛ لأنهم قد يحتجون على اللّه: أنهم لو ابتُلوا؛ لَثبتُوا.

(١٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وهذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما قالوا من حمل خطاياهم.

(١٣) ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أثقال ذنوبهم التي عملوها ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب التي حصلت بسببهم ومن جرائهم ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الشر وتزيينه.

(١٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبات الأمم المكذبة، وأن اللّه أرسل عبده ورسوله: نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد، وإفراد اللّه بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ نبياً داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ وهو لا يَنِي بدعوتهم، ولا يفتر في نصحهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مستحقون العذاب.

(١٥) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الذين ركبوا معه: أهله، ومن آمن به ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ السفينة ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعتبرون بها على أن من كذب الرسل آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل اللّه لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

(١٦) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه، يدعوهم إلى اللّه؛ فقال لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحْدوه، وأخلصوا له العبادة، وامتثلوا ما أمركم به ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أن يغضب عليكم؛ فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: عبادة اللّه وتقواه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من ترك ذلك ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإيثار.

(١٧) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تنحتونها، وتخلقونها بأيديكم،

---

(١٣) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً».

وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها، والتمسك بذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا تملك نفعاً ولا ضرًّا ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له؛ لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ وحده؛ لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما عملتم، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم.

(١٨) ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ مثل عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وقد أبلغكم ونصح لكم وأقام حجة الله عليكم.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ كيف يخلقهم ابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل عليه، يسير لديه؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

(٢٠) ﴿قُلْ﴾ لهم - إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء -: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فإنكم ستجدون أمماً من الآدميين، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجددها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ﴾ بعد الإعادة ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهي النشأة لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو: إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم وبدأ العذاب؛ لأن الكلام هو مع الكفار؛

---

(٢١) أخرج أبو داود وابن ماجه وغيرهما بإسناد صحيح لغيره عَنْ ابْنِ الدَّيلميّ قال: وقع في نفسي شيءٌ من هذا القدر خَشِيتُ أن يفسد علي ديني وأمري؛ فأتيت أبي بن كعب، فقلت: أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فخشيت على ديني وأمري، فحدِّثني من ذلك بشيءٍ لعل الله أن ينفعني به، فقال: لو أن الله عَذَّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانَت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحدٍ ذهباً، أو مثل جبل أحدٍ، تنفقه في سبيل الله مَا قبل منك حتى تؤمن بالقدر؛ فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن مت على غير هذا دخلت النَّار، ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود فتسأله، فأتيت عبد الله فسألته فذكر مثل ما قال أبي، وقال لي: ولا عليك أن تأتي حذيفة. فأتيت حذيفة فسألته، فقال مثل ما قالا، وقال: ائت زيد بن ثابتٍ فاسأله. فأتيت زيد بن ثابتٍ فسألته، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنَّ الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك جبل أحدٍ ذهباً، أو مثل جبل أحدٍ ذهباً، تنفقه في سبيل الله ما قبلَه منك حتى تؤمِن بالقدر كلِّه؛ فتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنَّك إن متَّ على غيْر هذا دخلت النَّار».

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

مكذبي الرسل ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته.

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يا هؤلاء المكذبين المتجرئين على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو أنكم معجزون لله في الأرض ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم، وما زينت لكم أنفسكم، وخدعتكم، من النجاة من عذاب اللّه فلستم بمعجزين اللّه، في جميع أقطار العالم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم؛ فيدفع عنكم المكاره.

(٢٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ الآية. يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاءوهم به، وكذبوا بلقاء اللّه فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ فلذلك لم يعلموا سبباً واحداً، يحصلون به الرحمة، وإلا، فلو طمعوا في رحمته لعملوا لذلك أعمالاً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجع.

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم، حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ منها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، وبطلان قول من خالفهم وناقضهم.

(٢٥) ﴿وَقَالَ﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله، من نصحه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غاية ذلك مودة في الدنيا ستنقطع وتضمحل ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، ﴿وَ﴾ أن ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ جميعاً: العابدين والمعبودين ﴿ٱلنَّارُ﴾ وليس أحد ينصركم من عذاب اللّه، ولا يدفع عنكم عقابه.

(٢٦) ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ لم يزل إبراهيم عليه الصلاة

والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه الله، وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة؛ وهي الشام ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم؛ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ولكنه «حكيم» ما اقتضت حكمته ذلك.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بعد ما هاجر إلى الشام ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بابنه: محمد ﷺ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بل وهو ومحمد ﷺ، أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهم منزلة.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي منكراً عليهم سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلون من قبيح الأفعال، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ القبيحة، وهي إتيان الذكور والتي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

بمن يمر بهم من المسافرين، فترك الناس الممرّ بهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ مجلسكم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ ما لا يليق من الأقوال والأفعال، ولا ينكر بعضكم على بعض، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبيَّن لهم قبائحها في نفسها، وما تئول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرعووا، ولم يذكروا ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم.

---

(٢٦) أخرج أحمد والحاكم وغيرهما بإسناد حسن لغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة؛ فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضوهم، تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، فتبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف».

وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(٣٠) و﴿قَالَ﴾ مستنصرًا عليهم: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فاستجاب الله دعاءه؛ فأرسل الملائكة لإهلاكهم

(٣١) ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ وبشروه بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط؛ فجعل يراجعهم.

(٣٢) ﴿قَالَ﴾: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ فـ﴿قَالُواْ﴾ له: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين.

(٣٣) ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطاً؛ فساءه مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة الضيوف أبناء السبيل؛ فخاف عليهم من قومه ﴿وَقَالُواْ﴾ له لما رأوا فيه أثر الضجرة: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله، وقالوا له: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

(٣٤) ثم أخبرته الملائكة بما هم فاعلون بقولمه، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ مدينة سدوم ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابًا من السماء؛ وهي: الحجارة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم بإتيان أدبار الرجال.

(٣٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ﴾ تركنا من ديار قوم لوط ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾ آثاراً وعبراً ظاهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ العبر بقلوبهم، فينتفعون بها.

(٣٦) ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ في النسب، لا في الدين ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له وقال لهم: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ فنهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكاييل والموازين، والسعي بقطع الطرق.

(٣٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ عذاب الله ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ ميتين.

(٣٨) ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصتهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم، وآثارهم، التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة فكذبوهم، وجادلوهم ﴿وَزَيَّنَ

لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الحق ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾في ضلالاتهم، معجبين بها، يحسبون أنهم على هدى وصواب، وهم على ضلال.

(٣٩) ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ واذكر يا محمد قارون وفرعون وهامان ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حين بعث اللّه إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ اللّه، ولا فائتين .

(٤٠) ﴿فَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ على قدره وبعقوبة مناسبة له ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ عذابًا يحصبهم؛ كعاد قوم هود حين أرسل اللّه عليهم الريح العقيم ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كثمود قوم صالح ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وهامان وجنودهما ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ ما ينبغي ولا يليق به ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

(٤١) إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقًا بما كسبت أيديهم ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دونه فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا مثل ضربه اللّه لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتَّقَوِّي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده فإن مثله؛ ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ يقيها من الحر والبرد والآفات ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفه ووهنه وهي من أضعف الحيوانات، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفًا، كذلك الذين يتخذون من دون الله اولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوهم يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم ووهنًا إلى وهنهم. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم، ولتبرأوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم.

(٤٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ إنه تعالى يعلم: أنهم ما يدعون من دون اللّه شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة جميعاً، الذي قهر بها جميع الخلق ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

(٤٣) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم؛ لأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة؛ فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس، ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يَعْقِلُهَآ﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ إلا أهل العلم الحقيقي الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

(٤٤) ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هو تعالى المنفرد بخلق السماوات على علوها وارتفاعها وسعتها

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها من الجبال والبحار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لم يخلقها عبثاً ولا سدًى، وإنما خلقها؛ ليقوم أمره وشرعه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على كثير من المطالب الإيمانية؛ إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عيانًا.

(٤٥) ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله وهو هذا الكتب العظيم ومعنى تلاوته اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله داخلة في تلاوة الكتاب فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهي ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فالفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر ووجه كون الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه تقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهي عن الفحشاء والمنكر فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها، وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ أي: أعظم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشر؛ فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء

(٤٥) أخرج الإمام أحمد والبزار بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ فقال: «إنه سينهاه ما يقول».

وأوفاه.

(٤٦) ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد الباطل وتهجينه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصد المجادل منهم وحاله: أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل، على وجه المشاغبة والمغالبة؛ فهذا لا فائدة في جداله؛ لأن المقصود منها ضائع ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم من حق وباطل فهذا ظلم، وقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ منقادون مستسلمون لأمره.

(٤٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد، هذا ﴿ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ الكريم المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ لأنهم تيقنوا صدقه بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الموجودين ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ أيماناً عن بصيرة، لا عن رغبة ولا رهبة ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الذين دأبهم الجحود للحق، والعناد له.

(٤٨) ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَتۡلُواْ﴾ تقرأ ﴿مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ قبل ما أنزلنا إليك الكتاب ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ ولا تكتبه ﴿إِذٗا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لَّٱرۡتَابَ﴾ لشك ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ من أهل مكة؛ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها.

(٤٩) ﴿بَلۡ﴾ هذا القرآن ﴿هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ لا خفيات ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ وهم: سادة الخلق وعقلاؤهم، وأولو الألباب الكمل منهم ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

(٥٠) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول، ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه

(٤٦) أخرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون».

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

المرتبة.

(٥١) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ في علمهم بصدقك، وصدق ما جئت به ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ وأنت رجل أمي: لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من اهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما أختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

(٥٢) ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته؛ فإن كنت كاذباً؛ أَحَلَّ بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني وييسر لي الأمور؛ فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من اللّه؛ فإن وقع في قلوبكم أن شهادته لا تكفي دليلاً فإنه ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن جملة معلوماته: حالي وحالكم، ومقالي لكم؛ فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث خسروا الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الآيات.

يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول، وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب -: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بسبب تعجيزهم لنا، وتكذيبهم الحق، فلو آخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ ولكن - مع ذلك - فلا يستبطئوا نزوله ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به.

(٥٤) ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أعاده تأكيداً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها معدل ولا منصرف؛ قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم.

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ

﴿أَرْجُلِهِمْ﴾ إذا غشيهم العذاب: أحاطت بهم جهنم من سائر الجهات، وهذا أبلغ من العذاب الحسي؛ كقوله تعالى ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب؛ كما شملكم الكفر والذنوب.

(٥٦) ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصدقوا رسولي ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده؛ فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود بحق واحد.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ والموت لابد أن ينزل بكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيقة الجامعة، لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

(٥٨) ولذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فـ﴿نِعْمَ﴾ تلك المنازل في جنات النعيم ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ لله.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على عبادة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم.

(٦٠) ﴿وَكَأَيِّن﴾ فكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ في الأرض؛ لأنها ضعيفة القوى، ضعيفة العقل﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ ولا يزال الله يسخر لها الرزق في كل وقت بوقته﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي



على قدرتكم على الاكتساب ،فكلكم عيال الله القائم برزقكم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فلا تخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق؛ بسبب أنها خافية عليه.

(٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد كفار مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: فكيف يصرفون عمن صنع ذلك؛ فيعدلون عن إخلاص العبادة له.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ الله يوسع من رزقه على من يشاء من خلقه، ويضيق فيقتر لمن يشاء منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إن الله عليم بمصالحكم،

ومن لا يصلح له إلا البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلا التقتير عليه، وهو عالم بذلك.

(٦٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ ولو سألت كفار مكة من أنزل المطر فأحيا به البلاد والعباد ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وحده ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن الفاعل لهذه الأشياء هو الله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بل ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه خالق هذه الأشياء.

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ تلهو بها القلوب ﴿وَلَعِبٌ﴾ تلعب بها الأبدان؛ بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها، ولا انقطاع، ولا موت معها، وهي الحياة الكاملة التي من لوازمها: أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللّهو واللعب.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾؛ أي: فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر فخافوا الغرق والهلاك فيه ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يتركون وقتذاك أندادهم، ويخلصون الدعاء للّه وحده لا شريك له ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة.

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ وليكملوا تمتعهم في الدنيا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف، وأليم العقوبة.

(٦٧) ثم قال تعالى ممتنًا على هؤلاء المشركين من قريش؛ ومذكرًا نعمته عليهم التي خصهم بها دون الناس غيرهم، مع كفرهم بنعمته وإشراكهم في عبادته الآلهة والأنداد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ يأمن فيه من سكنه ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ والناس من حولهم يُسلبون قتلاً وسباءً أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة وحيث كانوا أظلم الخلق؟!

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى اللّه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ على يد رسوله محمد ﷺ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم الذي لا يخرجون منه.

(٦٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل اللّه، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ الطرق الموصلة إلينا؛ وذلك لأنهم محسنون ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون والنصر والهداية.

سورة الروم وهي مكية

(١) ﴿الٓمٓ﴾ تقدم الكلام في الحروف المقطعة في أوائل سورة البقرة.

(٢) ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ غلبت فارسُ الرومَ.

(٣) ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ فغلبوهم غلباً لم يحط بملكهم بل بأدنى أرضهم ففرح بذلك مشركو مكة؛ لأن الفرس عباد أوثان، وحزن المسلمون؛ لأن الروم أهل كتاب﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، فأخبرهم اللّه ووعدهم: أن الروم ستغلب الفرس.

(٤) ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

(٥) ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾إياهم على المشركين، ونصرة الروم على فارس ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ من خلقه على من يشاء، وهو نصرة المؤمنين على المشركين يوم ببدر، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي

الجزء الحادي والعشرون — سورة الروم

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾

٤٠٥

الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

(٦) ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ فتيقنوا ذلك واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن ما وعد اللّه

(١ ... ٥) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» و«خلق أفعال العباد» والترمذي، والنسائي في «التفسير» وأحمد وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ : قال: غُلِبَت وغَلَبت، كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم؛ لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ قال: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً؛ فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلَ خمسِ سنين فلم يظهروا، فذكر ذلك للنبي ﷺ قال: «ألا جعلته إلى دون قال: أراه -العشر». قال أبو سعيد، والبضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد، فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾. قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر.

به حق؛ فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد اللّه، ويكذبون آياته.

(٧) وهؤلاء الذين لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، إنما ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها؛ فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة.

(٨) ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل اللّه ولقائه ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً غير لائق أن يتركهم سدى مهملين لا ينهون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾ مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء به القيامة ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ فلذلك لم يستعدوا للقائه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به.

(٩) ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ كعاد وثمود ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، أي: أكثر مما عمرها أهل مكة ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاءوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك لم يجدوا إلا أممًا بائدة، وخلقًا مهلكين ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بنقص حقوقهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ببخس حقوقهم، وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم اللّه بذلك الإهلاك وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها.

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ العمل ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ الحالة السيئة الشنيعة التي تسوؤهم، وصار ذلك داعياً لهم؛ لأن ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فهذا عقوبة لسوئهم وذنوبهم.

(١١) ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات ثم يعيدهم بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم.

(١٢) ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقوم الناس لرب العالمين ويرون القيامة عيانًا، يومئذ ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ييأسون من كل خير.

(١٣) ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ التي عبدوها مع اللّه ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع اللّه، وتبرأ المعبودون.

(١٤) ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير إلى الجنة، وأهل الشر إلى النار؛ كما افترقت أعمالهم في الدنيا.

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ آمنوا بقلوبهم وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة

﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتهيات ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون وينعمون.

(١٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نعمه وقابلوها بالكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم.

(١٧) ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إخبار من الله في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدد فيها نعمته.

(١٨) ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحمده أهل السماوات والأرض ويصلون له ﴿وَعَشِيًّا﴾ يعني: صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في وقت الظهيرة؛ وهو: صلاة الظهر.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بعكس المذكور ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة؛ فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم.

(٢٠) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: الذي خلقكم من أصل واحد

سورة الروم — الجزء الحادي والعشرون

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

٤٠٦

ومادة واحدة وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها؛ ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل، وبثكم في أقطار الأرض، هو الرب المعبود بحق، الملك المحمود بصدق، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

(٢١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته، وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فهما يتوادان ويتراحمان، وما شيء

(١٧- ١٨) أخرج الطبري والحاكم والطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح: أن نافع بن الأزرق سأل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: «نعم»، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: «جمعت الآية الصلوات الخمس ومواقيتها».

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى
مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

ع ٦ — نصف الحزب ٤١

أحب إلي أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعملون أفكارهم ويتدبرون آيات اللّه، وينتقلون من شيء إلى شيء.

(٢٢) ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ في ارتفاعها واتساعها وشغوف أجرامها، وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾؛ أي: اختلاف اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر، وهؤلاء عجم، وهؤلاء بربر ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أبيض وأسود وأحمر، وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾لعبرة وأدلة ﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾لخلقه الذين يعقلون أنه لا يُعييه إعادتهم لهيئتهم التي كانوا بها قبل مماتهم من بعد فنائهم.

(٢٣) ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وفي الآيات الدالة على حكمة المولى عز وجل ما جعل لكم في صفة النوم في الليل والنهار التي يحصل بها منافع للناس ما لا يعلمه إلا الله ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ أي: ابتغاؤكم من فضله في النهار، وهو التصرف في طلب المعيشة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار، وهم أهل العلم الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات.

(٢٤) ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ومن آياته: أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق الذي يُخاف ويُطْمَع فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ دالة على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إتقانه، وعظيم حكمته وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لهم عقول تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

(٢٥) ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾العظيمة؛ أي: هي قائمة ثابتة بأمره بغير عمد﴿ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون .

(٢٦) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الكل خلقه ومماليكه المتصرف فيهم من غير منازع

ولا معاون ولا معارض ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ خاضعون لكماله.

(٢٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت للبعث ﴿وَهُوَ﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادرا على الابتداء الذي تقرون به كانت قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الوصف الأعلى في كل كمال، فصفاته كلها عليا، ومنها الوحدانية ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ له العزة الكاملة والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته أتقن بها ما صنعه، وأحسن فيها ما شرعه.

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: مثّل لكم أيها القوم ربكم مثلاً ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كالأحرار الشركاء في الحقيقة الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟ ليس الأمر كذلك؛ فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم وهم أيضاً مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه؟! ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الحقائق ويعرفون.

(٢٩) ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادهم إليه ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ لا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتنقطع بهم الوصل والأسباب.

(٣٠) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ انصبه ووجهه ﴿لِلدِّينِ﴾ إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق

---

(٢٧) أخرج البخاري في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

(٣٠) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يولد يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ كما ينتجون البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟» قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وفي رواية للبخاري: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمرنا به ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفاً؛ فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

(٣١) ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه بالتوبة مقبلين إليه بالطاعة ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وخص من المأمورات الصلاة؛ لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى؛ لقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضادًا للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه.

(٣٢) ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدلوه وغيروه وصاروا فرقاً مختلفة؛ وهم: اليهود والنصارى ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت على نصر ما معها من الباطل، ومنابذة غيرهم ومحاربتهم ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فَرِحُونَ﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقاً.

(٣٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ مرض أو خوف، من هلاك ونحوه ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مقبلين إليه بالدعاء، ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال؛ لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ إذا جماعة منهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يشركون به من لا نصرهم ولا دفع عنهم، ولا أفقر ولا أغنى.

(٣٤) ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟﴾ وكل هذا كفر بما آتاهم الله ومَنَّ به عليهم، ثم توعدهم بقوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم في الآخرة.

(٣٥) ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجة ظاهرة ﴿فَهُوَ﴾ ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

(٣٦) ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالي الرخاء والشدة: أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة: من صحة وغنى ونصر ونحو ذلك، فرحوا بذلك

فرح بطر، لا فرح شكر ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ حال تسوؤهم، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة.

(٣٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فالقنوط بعد ما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته وضيقه من تقديره، ضائع ليس له محل، فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهم الذين يعتبرون ببسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده.

(٣٨) ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع من النفقة الواجبة والبر ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ وكذلك آت المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ابتغاء مرضاة الله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه.

(٣٩) ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ وقصدكم بذلك أن يزيد في أموالكم بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة؛ ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة الْمُعْطَى ﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ المضاعف لهم الأجر الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربيها الله لهم حتى تكون شيئا كثيرا.

(٤٠) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم ثم إحيائكم ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوهم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقدس وتنزه وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم عليهم.

(٤١) ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ استعلن الفساد؛ أي: فساد معايشهم ونقصها، وحلول الآفات بها ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ البوادي والمفاوز ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ المدائن والقرى التي هي على المياه الجارية ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال، الفاسدة المفسدة بطبعها ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ليعلموا أنه المجازي على الأعمال فعجل لهم نموذجًا من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿وَلَعَلَّهُمْ

---

(٣٩) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فيربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فَلوّه أو فَصِيله، حتى تصير التمرة أعظم من أُحد».

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان، والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذمّ ولعن من خلق اللّه يتبعهم، وخزي متواصل؛ فاحذروا أن تفعلوا فعالهم يُحْذَى بكم حذوهم.

(٤٣) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أقبل بقلبك وتوجه بوجهك، واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره، ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن ردّه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين.

(٤٤) ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الحقوق التي للّه أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ﴾ لا لغيرهم ﴿يَمْهَدُونَ﴾ يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفاتها.

(٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم اللّه من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وهذا بخلاف الكافرين، فإن اللّه لما أبغضهم ومقتهم عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

(٤٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود بحق، والملك المحمود بصدق ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ بإثارتها للسحاب، ثم جمعها؛ فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً تحيا به البلاد والعباد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ القدري ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتصرف في معايشكم ومصالحكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب، وسَيّر لكم الأمور.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الأمم

السابقين ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق ﴿فَجَآءُوهُم﴾ رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص وجاءوهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والأدلة الواضحة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة، ووعدناهم به؛ فلا بدّ من وقوعه.

(٤٨) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ من الأرض ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يمده ويوسعه ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ على أيّ الحالة التي أرادها من ذلك ﴿وَ﴾ ثم ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كِسَفًا﴾ سحاباً ثخيناً قد طبق بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: السحاب، نقطاً صغاراً متفرقة، لا تنزل جميعاً؛ فتفسد ما أتت عليه ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ بذلك المطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه؛ فلهذا قال:

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين قانطين؛ لتأخر وقت مجيئه؛ أي: فلما نزل في تلك الحال صار له موقع عظيم عندهم وفرح واستبشار.

(٥٠) ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

الجزء الحادي والعشرون — سورة الروم

وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

٤١٠

فقدرته تعالى لا يتعاصى عليها شيء.

(٥١) ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحًا مضرة متلفة أو منقصة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد تداعى إلى التلف ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ فينسون النعم الماضية، ويبادرون إلى الكفر.

(٥٢) وهؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لأنه ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وبالأولى ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع

النافع كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

(٥٣) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم، فليس منهم قابلية له ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المنقادون لأوامرنا، المسلمون لنا.

(٥٤) يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذبين بالبعث من مشركي قريش، محتجًا عليهم بأنه القادر على ذلك، وعلى ما يشاء: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾؛ أي: من نطفة وماء مهين، فأنشأكم بشرًا ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يفعل ما يشاء ويتصرف في عباده بما يريد ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ ليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف، ولا نقص بوجه من الوجوه.

(٥٥) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بالله أنهم ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ ما زالوا وهم في الدنيا يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب.

(٥٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ أي: مَنَّ الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم: العلم بالحق، والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع مناسبًا لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ عمرتم عُمْرًا يتذكر فيه المتذكر، ويعتبر فيه المعتبر حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وإن طلبوا الإعذار، وأنهم يردون ولا يعودون لما نُهوا عنه، لم يُمَكَّنُوا؛ فإنه فات وقت الإعذار؛ فلا تقبل معذرتهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يزال عتبهم والعتاب عنهم، ولا هم يرجعون إلى الدنيا.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ

مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ تتضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتنقطع به الحجة ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ آية تدل على صحة ما جئت به ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ قالوا للحق: إنه باطل.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

(٦٠) ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضاً؛ فلا يصدنك ذلك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: قد ضعف إيمانهم، وقلَّ يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقلَّ صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء؛ فإنك إن لم تجعلهم منك على بال وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي.

* * *

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

سورة لقمان — مكية — آياتها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

٤١١

سورة لقمان
وهي مكية

(١) ﴿الٓمٓ﴾ مضى الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾؛ أي: تلك الآيات الرفيعة الشأن التي تألقت منها هذه السورة أو القرآن كله، هي آيات الكتاب الموصفة بالحكمة.

(٣) ﴿هُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق.

(٤) ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المشتملة على الإخلاص، ومناجاة الرب تعالى ﴿وَيُؤْتُونَ

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله؛ فيتركون معاصيه.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ عظيم، كما يفيده التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ الذي لم يزل يربيهم بالنعم؛ ويدفع عنهم النقم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

(٦) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ هو محروم مخذول ﴿يَشۡتَرِي﴾ يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء، ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الأحاديث الملهية للقلوب، الصادَّة لها عن أجلِّ مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو، وباطل، وغيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أضل من لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ ويتخذ آيات الله هزواً، ويسخر بها، وبمن جاء بها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزءوا بآيات الله، وكذبوا الحق الواضح.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ أدبر إدبار مستكبر عنها، رادٍّ لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ بل ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ صمماً، لا تصل إليه الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته.

﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم؛ وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة، ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدرى بعظيم أمره.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام والعمل الصالح ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقِرًى لهم بما أسلفوه.

(٩) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ في جنات النعيم: نعيم القلب والروح والبدن ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

(١٠) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع على عظمها وسعتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرئيت، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله تعالى ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها ﴿أَن﴾ أي: لئلا ﴿تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ فلولا الجبال

---

(٦) أخرج الطبري والحاكم والبيهقي بإسناد حسن عن أبي الصهباء: أنه سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قال: الغناء.

الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ولما بثها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ المنظر، نافع مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

(١١) ﴿هَٰذَا﴾ العالم العلوي والسفلي من جماد وحيوان، وسَوْقِ أرزاق الخلق إليهم ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ وحده لا شريك له، كلٌّ مقرٌّ بذلك، حتى أنتم يا معشر المشركين ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه؛ ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جَلِيٍّ واضح؛ حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرًّا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة؛ وهي: العلم النافع، والعمل الصالح ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛

سُورَةُ لُقْمَانَ — الجزء الحادي والعشرون

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

ليبارك له فيه، وليزيده من فضله ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وأخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله عاد وبال ذلك عليه ، والله غني عنه، حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيماً: أنه لا أفظع وأبشع ممن سَوَّى

(١٣) أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم؟! فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله.

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ عهدنا إليه ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أمه وأبيه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم والمرض والضعف والثقل وتغير الحال، ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد، ﴿وَ﴾ ثم ﴿فِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها ﴿أَنِ﴾ وقلنا له: ﴿ٱشْكُرْ لِى﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمئونتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل. فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها؛ فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها؛ فيعاقبك العقاب الوبيل؟.

(١٥) ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ﴾ اجتهد والداك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ على أن تتابعهما على دينهما ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فلا تقبل منهما ذلك، ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأن حق اللّه مقدم على حق كل أحد، وأما برهما؛ فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي فلا تتبعهما ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ وهم المؤمنون باللّه وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه. واتباع سبيلهم: أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى اللّه، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى اللّه، ثم يتبعها سعي البدن فيما يرضي اللّه ويقرب منه ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الطائع والعاصي والمنيب وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على اللّه من أعمالهم خافية.

(١٦) ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ في وسطها ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أي جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ لسعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار، والمقصود من هذا: الحث على مراقبة اللّه والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من

(١٤ - ١٥) أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: إنه نزلت فيه آيات من القرآن؛ قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب؛ قالت: زعمت: أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها في الجهد، فقام ابن لها يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

عمل القبيح قلَّ أو كثُر.

(١٧) ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ حثه عليها؛ وخصها؛ لأنها أكبر العبادات البدنية ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه.

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك؛ فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك للناس تكبُّرا عليهم، وتعاظماً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ بطراً، فخراً بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ في نفسه وهيئته وتعاظمه ﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

(١٩) ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ امش متواضعاً مستكيناً، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أفظعها وأبشعها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة؛ لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

الحزب ٤٢

٤١٣

وقلوبكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزروع والأنهار والمعادن ونحوها ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ عمّكم وغمركم ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ التي نعلم بها، والتي تخفى علينا، نعم الدنيا ونعم الدين، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم.

﴿وَ﴾ لكن مع توالي هذه النعم ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن﴾ لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله؛ فجعل ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ يجادل عن

---

(١٩) أخرج الإمام مسلم والنسائي في «الكبرى» - واللفظ له - من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة؛ فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير بالليل؛ فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنها رأت شيطاناً».

الباطل؛ ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة اللّه وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم؛ فيترك وشأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ غير مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول، ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في اللّه مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين.

(٢١) ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على أيدي رسله؛ فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿قَالُواْ﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائناً من كان.

قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحَيرة.

(٢٢) ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول ﷺ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ فقد أخذ موثقاً من اللّه متيناً لا يعذبه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ رجوعها وموئلها ومنتهاها، فيحكم في عباده، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

(٢٣) ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾ لأنك أديت ما عليك، من الدعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتد؛ فقد وجب أجرك على اللّه، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير لهداه اللّه ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور اللّه وأذى رسله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التي ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر وكان شهادة؟

(٢٤) ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ في الدنيا، ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ انتهى في عظمه وكبره، وفظاعته، وألمه، وشدته.

(٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ لو سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك، ولبادروا بقولهم: اللّه الذي خلقهما وحده. فـ ﴿قُلِ﴾ لهم ملزماً لهم، ومحتجاً عليهم بما أقروا به، على ما أنكروا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ الذي بيَّن النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد.

﴿بَلۡ﴾ ولكن ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحَيرة والشك، لا على وجه البصيرة.

---

(٢٧) أخرج مسلم من حديث عائشة ﵂ قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش؛ فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو خلقه وملكه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عما سواه، وكل شيء فقير إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع.

(٢٧) ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾؛ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أخلاقًا، وجعل البحر مدادًا، ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله، الدالة على عظمته وصفاته جلاله لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددًا، وإنما ذكر السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم، ودبرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

(٢٨) ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهذا شيء يحير العقول: إن خلق جميع الخلق على كثرتهم وبعثتهم بعد موتهم جميعاً، بعد تفرقهم، في لمحة واحدة كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته! ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات؛ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في

الجزء الحادي والعشرون — سورة لقمان

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

سورة السجدة — مكية — آياتها

٤١٤

النهار، وإيلاج النهار في الليل؛ أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما، ذهب الآخر ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وتسخيره للشمس والقمر يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما؛ ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ما به يعتبرون وينتفعون و﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

(٣٠) و﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته ما بيَّن ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعده حق،

ووعيده حق، وعبادته هي الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لَما بَقِيَ، فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادته أبطل وأبطل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده: أن سخر البحر تجري فيه الفلك، بأمره القدري ولطفه وإحسانه ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ ففيها الانتفاع والاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالجبال والغمام فوقهم: أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين:

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾فرقة مقتصدة، لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم. وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار، ومِن غَدْره: أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغَدَر ولم يف بذلك، ﴿كَفُورٍ﴾ بنعم الله.

(٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي: امتثال أوامره، وترك زواجره، ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه، ف ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كلٍّ عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه، وهذا من رحمة الله بعباده، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب ويحذرهم من العقاب ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الذي هو الشيطان.

(٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ

---

(٣٤) أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».

﴿ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ قد تقرر: أن اللّه تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يُطْلِع اللّه عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات؛ فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعلم متى مرساها ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودنياها ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل اللّه تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ محيط بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبايا والسرائر.

* * *

سورة السجدة وهي مكية

(١) ﴿الٓمٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم لا شك فيه ولا مرية أنه منزلٌ، ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمته.

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ومع ذلك قال المكذبون للرسول، الظالمون في ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه. وهذا من أكبر الجراءة

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

ربع الحزب ٤٢ — ع ١٤ — ٤١٥

على إنكار كلام اللّه، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق، فقال الله، رادًا على من قال: افتراه: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميدأي هم ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون، فأنزلنا الكتاب عليك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلالهم؛ فيعرفون الحق فيؤثرونه.

---

(١) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾. وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأحمد والترمذي والنسائي حديث جابر رضي الله عنه الصحيح: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾».

(٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق حكيم ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ علا وارتفع ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم في أموركم؛ فينفعكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم؛ إن توجه عليكم العقاب ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق السماوات والأرض، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المتفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فَيُسْعِدُ بها ويُشْقِي، ويُغْنِي ويُفْقِرُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُكرِمُ ويُهِينُ، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويُنزِّل الأرزاق ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرج إليه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يعرج إليه ويصله في لحظة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدابير في المملكة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فبسعة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته؛ أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

(٧) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقًا يليق به، ويوافقه فهذا عام، ثم خص الآدمي لشرفه وفضله، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ وذلك بخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أبي البشر.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ ذرية آدم ناشئة ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ بأن أرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ما زال يعطيكم من المنافع شيئًا فشيئًا، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الذي خلقكم وصوركم.

(١٠) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بلينا

---

(٤) وأخرج مسلم والنسائي - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي؛ فقال: «إن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، وخلقه من أديم الأرض، بأحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله من آدم الطيب والخبيث».

قال أبو أسامة الهلالي - كان الله له -: وقد ضعف جماعة من أهل العلم هذا الحديث؛ لوهم ظنوه بوجود تعارض بينه وبين القرآن الكريم، وقد نقلت ردود العلماء عليهم في كتابي: «صحيح الأنباء المسند في أحاديث الأنبياء» (١/ ٥١، ٥٢/ ١٤).

وتمزقنا، وتفرقنا في المواضع التي لا تُعلَمُ ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: لمبعوثون بعثًا جديدًا، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد وكفر بلقاء ربهم وجحد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: بالبعث بعد الموت.

(١١) ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

(١٢) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة، قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ بان لنا الأمر، ورأيناه عيانًا؛ فصار عين يقين ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به.

(١٣) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ وجب وثبت ثبوتًا لا تغير فيه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

(١٤) ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم، بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

٤١٦

نسيان ترك بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه، ولا ملاقيه ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم بالعذاب جزاء من جنس عملكم، فكما نَسِيتُمْ نُسِيتُمْ ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ العذاب غير المنقطع ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

(١٥) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أيمانًا حقيقيًا من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعُوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها وانقادوا، و﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ خاضعين لها خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قالوا: سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول والتسليم،

وقابلوها بالانشراح والانقياد.

(١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع جنوبهم وتنزعج ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ جمع مضجع، وهو: الموضع الذي يضطجع عليه، والمراد: الفراش ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا﴾ أن ترد أعمالهم ﴿وَطَمَعًا﴾ في قبولها وفي ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الرزق: قليلاً كان أو كثيرًا ﴿يُنفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه؛ ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه: النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير.

(١٧) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ

---

(١٦) أخرج أبو داود وأحمد - واللفظ له - بإسناد حسن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطأته ولحافه، ومن بين أهله وحيه إلى صلاته، فيقول ربنا: أي ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطأته، ومن بين حيّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله عز وجل فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له من الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه».

أخرج الترمذي عن أنس بإسناد صحيح؛ قال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة.

(١٦ و١٧) أخرج الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد - واللفظ له - بإسناد حسن من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبيِّ ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبيَّ الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنَّة، ويباعدني من النَّار؟ قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنَّه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصَّلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثمَّ قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصَّوم جُنَّة، والصَّدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرَّجل في جوف الليل، ثمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتَّى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

ثمَّ قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه»؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصَّلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»، فقلت له: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: «كف عليك هذا» فقلت: يا رسول الله وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمُّك يا معاذ، وهل يكبُّ النَّاس على وجوههم في النار - أو قال على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم».

(١٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين، رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وفي «صحيح مسلم» عن الشعبي يقول: سمعت المغيرة بن شعبة يخبر به النَّاس على المنبر. يرفعه إلى النَّبي ﷺ قال: سأل موسى ربَّه ما أدنى أهل الجنَّة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنَّة الجنَّة، فيقال: له: ادخل الجنَّة. فيقول: أي ربِّ كيف وقد نزل النَّاس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربِّ. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله. فقال في الخامسة: رضيت ربِّ. فيقول: هذا لك، وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت ربِّ. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر.» قال «ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ » الآية.

﴿أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم؛ فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

(١٨) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد عمر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله التي يضر وجودها بالإيمان ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ قد خرب قلبه، وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ عقلاً وشرعًا، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

(١٩) ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من فروض ونوافل ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح ﴿نُزُلَۢا﴾ ضيافة وقِرًى ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية.

(٢٠) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ مقرهم ومحل خلودهم: النار ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج؛ لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ؛ ردوا إليها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم

الجزء الحادي والعشرون — سورة السجدة

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سورة الأحزاب — مدنية — آياتها ٧٣

٤١٧

بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم.

(٢١) ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجًا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ وهو مصائب الدنيا وأسقامها، أو إقامة الحدود عليهم قبل أن يموتوا ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله، ويتوبون من ذنوبهم.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعديًا ممن ذكر بآيات ربه التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته على أيدي رسله تأمره وتذكره

---

(٢١) وأخرج مسلم - وأحمد واللفظ له - عن أبي بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: «المصيبات والدخان قد مضيا والبطشة واللزام».

مصالحه الدينية والدنيوية ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ تركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد النقمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: كما آتى الله تعالى محمد ﷺ القرآن، كذلك آتى موسى الكتاب الذي هو: التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾؛ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ أي: بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو: العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وثَمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل: منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ أو عمدًا، والله تعالى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدهم إلى الصواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الذين سلكوا مسلكهم ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ فيشاهدونها عيانًا؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم فُعِلَ بهم؛ كما فُعِلَ بأشياعه من قبل ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أيات الله؛ فيعونها، فينتفعون بها.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ بأبصارهم نعمتنا، وكمال حكمتنا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجودًا فيها، فيفرغه فيها، من السحاب أو من الأنهار ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ نباتًا مختلف الأنواع ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ وهو نبات البهائم ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ وهو طعام الآدميين ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون، فيهتدون بذلك البصر، وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم.

---

(٢٣) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ؛ قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا؛ جعدًا كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلًا مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكًا خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إياه فلا تكن في مرية من لقائه».

(٢٨) ثم قال تعالى مخبرًا عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

(٢٩) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئًا، فلو كان إذا حصل حصل إمهالكم؛ لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقينًا؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح انقضى الأمر ولم يبق للمحنة محل، فـ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾؛ لأنه صار إيمان ضرورة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون؛ فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ الأمر الذي يحل بهم؛ فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

سورة الأحزاب وهي مدنية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يا أيها الذي منَّ الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق: اشكر نعمة ربك عليك؛ باستعمال تقواه، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأدِّ إلى عباده وحيه، وابذل النصيحة للخلق، ولا

الجزء الحادي والعشرون — سورة الأحزاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

٤١٨

يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تطع كل كافر، قد أظهر العداوة لله ورسوله ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال:

(٢) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وَارْجُ بذلك ثواب ربك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فإنه بما تعملون خبير؛ يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم، من الخير والشر.

---

(١) أخرج النسائي في «الكبرى» والإمام أحمد - واللفظ له - بإسناد حسن عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط! لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عليم حكيم).

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن تعتمد على ربك، اعتماد من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور؛ فيقوم بها، وبما هو أصلح للعبد.

(٤) ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: «أنت عَليَّ كظهر أمي أو كأمي»، فما جعلهن الله ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بل أمك مَنْ ولدتك، وصارت أعظم النساء عليك حرمة وتحريمًا، وزوجتك أحلُّ النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمر لا يجوز.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدعيه، وهو ليس له، أو يُدْعَى إليه؛ بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام.

والمعنى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم، أو يدعون إليكم أبناءكم، فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم، وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم، فلا جعل الله هذا كهذا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القول الذي تقولون في الدعي: إنه ابن فلان، الذي ادعاه، أو والده فلان ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ قول لا حقيقة له ولا معنى له ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ اليقين والصدق، فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ السبل المستقيمة والطرق الصادقة.

(٥) ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأدعياء ﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعدل وأقوم وأهدى ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إخوتكم في دين الله، ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاة على ذلك ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه؛ فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهرًا؛ فدعوتموه إليه وهو في الباطن غير أبيه؛ فليس عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ ﴿وَلَٰكِن﴾ يؤاخذكم ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الكلام بما لا يجوز ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفر لكم ورحمكم حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بيَّن لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم.

(٦) ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب ما

---

(٥) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

(٦) أخرج البخاري من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه؛ قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي؛ فقال ﷺ: «الآن يا عمر».

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن =

للإنسان وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، فترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين: أنهن لا يحللن لأحد من بعده ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه؛ فيرث بعضهم بعضًا، ويبر بعضهم بعضًا ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم: إن شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعًا، وتعطوهم معروفًا منكم ﴿كَانَ﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ قد سطر وكتب وقدره الله؛ فلا بد من نفوذه.

(٧) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عمومًا، ومن أولي العزم -وهم، هؤلاء الخمسة المذكورون- خصوصًا، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالاقتداء بهم.

(٨) ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ: هل وفوا

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

٤١٩

فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يُذَكِّر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها، حين جاءتهم جنود عظيمة، وأمم كثيرة، وذلك في وقعة الخندق ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وأرسل جنوداً لم يروها، وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ بصيراً بأعمالكم في حفر الخندق

شئتم: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن ترك مالاً؛ فليرثه عصبته من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتني فأنا مولاه».

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

والاستعداد للمعركة.

(١٠) ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، ومالأتهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول اللّه ﷺ على المدينة فحصروا المدينة، واشتد الأمر فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف اللّه: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت وشخصت من الرعب ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ زالت عن أماكنها من شدة الخوف حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، كما قال تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ الظنون السيئة: أن اللّه لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ بالخوف والقلق والجوع؛ ليتبين إيمانهم، ويزيد يقينهم، فظهر من إيمانهم، وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وضعف اعتقاد ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو قول المنافقين: يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، هذا والله الغرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يريدون: يا أهل المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى المدينة، يأمرونهم بترك القتال، فهذه الطائفة شر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال اللّه فيهم: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غُيَّبٌ عنها، فَأْذَنْ لنا نرجع إليها، فنحرسها، فكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: وهم كذبة في ذلك ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ ما قصدهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ هرباً من الزحف.

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ سئل هؤلاء ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين ﴿لَءَاتَوْهَا﴾ لأعطوها مبادرين ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا

﴿يَسِيرًا﴾ ليس لهم منعة ولا تَصلُّبٌ على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء؛ يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم؛ هذه حالهم.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾ والحال أنهم قد ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذًا بربهم؟

(١٦) ﴿قُل﴾ لهم، لائمًا على فرارهم، ومخبرًا أنهم لا يفيدهم ذلك شيئًا: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان سبباً في تعجيل أخذهم غرة ﴿وَإِذًا﴾ حين فررتم؛ لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدنيا؛ فإنكم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ متاعًا لا يسوى فراركم، وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي في النعيم السرمدي.

(١٧) ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾ يمنعكم ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ شرًّا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولاهم؛ فيجلب لهم النفع ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم؛ فيدفع عنهم المضار.

(١٨) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ عن الخروج لمن لم يخرجوا ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين خرجوا: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ ارجعوا ﴿وَ﴾ هم مع تعويقهم وتخذيلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصًا على التخلف.

(١٩) ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم عند القتال، وبأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من شدة الجبن، الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفًا من إجبارهم على ما يكرهون من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ ليس فيهم خير، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحًا بما أمر به، شحيحًا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ بسبب عدم إيمانهم أذهب الله أجور أعمالهم وأبطلها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلاً هيناً عنده.

(٢٠) ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ، وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم؛ فخاب ظنهم، وبطل حسبانهم ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه

(١٩) أخرج أبو داود وابن حبان وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «شرُّ ما في رجل: شحٌّ هالعٌ، وجبنٌ خالعٌ».

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

المرة، ودّ هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

(٢١) ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب؛ فتأسَّوْا به في هذا الأمر وغيره ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها من كان يرجو اللّه واليوم الآخر ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في جميع المواطن عل السراء والضراء.

(٢٢) لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هذا ما وعدنا اللّه ورسوله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فإنا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ في قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقيادًا لأمر اللّه.

(٢٣) ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وفوا به وأتموه وأكملوه؛ فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق؛ فقتل في سبيل اللّه، أو مات مؤديًا لحقه، لم ينقصه شيئًا ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه؛ فهو شارع في قضاء ما عليه، ووفاء نحبه، ولمّا يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك مجد ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ بل لم يزالوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون.

(٢٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم، واستواء

(٢٣) في «الصحيحين» في حديث أنس رضي الله عنه: قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر؛ فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين؛ ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون؛ قال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني: أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني: المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى - أو نظن - أن هذه الآيات نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

ظاهرهم وباطنهم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا اللّه عليه ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان؛ إذا أتوا بالمتاب ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم؛ حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزبهم، وفرحوا بِعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحد إلا غَلَبَ، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم؛ إن لم يعنهم بقوته وعزته.

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أنزلهم من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ مَنْ عداهم من النساء والصبيان.

(٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ غنَّمكم ﴿أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ مساكنهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ سائر الأموال غير الأرض والدور ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أرضاً كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطئها، كفارس والروم، وقيل خيبر، فمكنكم اللّه وخذلهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته: قدَّر لكم ما قدر.

(٢٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها، وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ شيئاً مما عندي من الدنيا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أفارقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من دون مغاضبة ولا مشاتمة.

(٢٩) ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ

---

(٢٥) أخرج النسائي والطبري والبيهقي وابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح؛ قال: حبسنا يوم الخندق عن الظهر والعصر والمغرب والعشاء، حتى كفينا ذلك؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ فقام رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فأقام ثم صلى الظهر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام فصلى العصر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام المغرب فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العشاء فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وأخرج البخاري من حديث سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

(٢٨ و٢٩) أخرج الشيخان مطولاً وابن أبي حاتم - واللفظ له - عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فقال: «إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك» قالت: قد علم
=

الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ
وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

٤٢٢

﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لَكُنَّ الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان؛ لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول.

(٣٠) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزرهن وإثمهن، لو جرى منهن؛ ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلاً هيناً.

(٣١) ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ تطيع ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قليلا أو كثيرًا ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مثل ما نعطي غيرها مرتين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وهي الجنة، فقنتن لله ورسوله، وعملن صالحًا، فعلم بذلك أجرهن.

(٣٢) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فإنكن بذلك، تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكملن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فَتَلِنَّ في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ أي: مرض شهوة الزنا ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: غير غليظ، ولا جاف، كما أنه ليس بلَيِّنٍ خاضع.

(٣٣) ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ اقررن فيها؛ لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ؛ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات أو متبخترات ومتكسرات؛ كعادة أهل الجاهلية الأولى ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ

أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، ثم قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآيتين». قالت عائشة ﷺ فقلت: أفي هذا استأمر أبوي؛ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة ﷺ.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمرهن بالطاعة، خصوصًا الصلاة والزكاة، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله كل أمر أَمَرَا به أمر إيجاب أو استحباب ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بأمركن بما أَمَرَكُنَّ به، ونهيكن بما نهاكُنَّ عنه؛ ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الأذى والشر والخبث، يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول فيه بلا مثنوية، إما وحده - على قول - أو مع غيره، على الصحيح. ولذلك؛ فالمراد أعم من سبب النزول فيدخل في أهل بيته من حرم الصدقة عليه بعده: آل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

(٣٤) ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله القرآن والحكمة: أسراره أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره يشمل ذكر لفظه بتلاوته، وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر، فلطفه وخبرته يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

(٣٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة إذا كانوا قائمين بها ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة من عقائد القلب وأعماله ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المطيعين لله ولرسوله ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في مقالهم وفعالهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الشدائد والمصائب ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصًا في عباداتهم، خصوصًا في صلواتهم ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ فرضًا ونفلاً

---

(٣٣) في «سنن الترمذي» و«صحيح ابن حبان» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها».

وأخرج الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح أنه تلا: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكان ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صُباحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صُباحاً وفي الرجال دمامة، وأن إبليس أتى رجلًا في السهل في صورة غلام، فآجر نفسه منه، فكان يخدمه، واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يزمر فيه الرعاء، فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال. قال: ويتزين الرجال لهن، وإن رجلًا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

(٣٥) أخرج النسائي وأحمد بإسناد صحيح عن أم سلمة رضي الله عنها؛ قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟! قالت: فلم يَرعني ذات يوم ظهراً إلا نداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخر الآية ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

٤٢٣

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ شمل ذلك الفرض والنفل ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ في أكثر الأوقات، خصوصًا أوقات الأوراد المقيدة؛ كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة والمناقب الجليلة ﴿مَّغْفِرَةً﴾ فجازاهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ لا ينبغي ولا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحتَّما به وألزما به ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة: أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ بيِّنًا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها؛ من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله؛ وهو: الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك؛ وهو: التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام

(٣٦) أخرج الإمام أحمد وعبد الرزاق بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى استأمر أمها. فقال النبي ﷺ: «فنعم إذاً». . . قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله إذًا، ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبياً، وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع، فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فانكحوه. قال: فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: إن كنت رضيته؛ فقد رضيناه، قال: «فإني قد رضيته» قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جليبيب؛ فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال: أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة.

(٣٧) أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك» قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كتم شيئاً؛ لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ؛ تقول: «زوّجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات».

﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق، حين جاءك مشاورًا في فراق زوجته زينب بنت جحش؛ فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة؛ فإن التقوى تحث على الصبر وتأمر به ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه: أنه لو طلقها زيد؛ لتزوجها ﷺ ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ طابت نفسه، ورغب عنها وفارقها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك؛ لفائدة عظيمة، وهي ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قبل ينتسب إليك.

ولما كان قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ عامًّا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

(٣٨) ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ إثم وذنب ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ لا بد من وقوعه.

(٣٩) ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعادتهم، وأنهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ فيتلون على العباد آيات الله، وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسبًا عباده، مراقبًا أعمالهم.

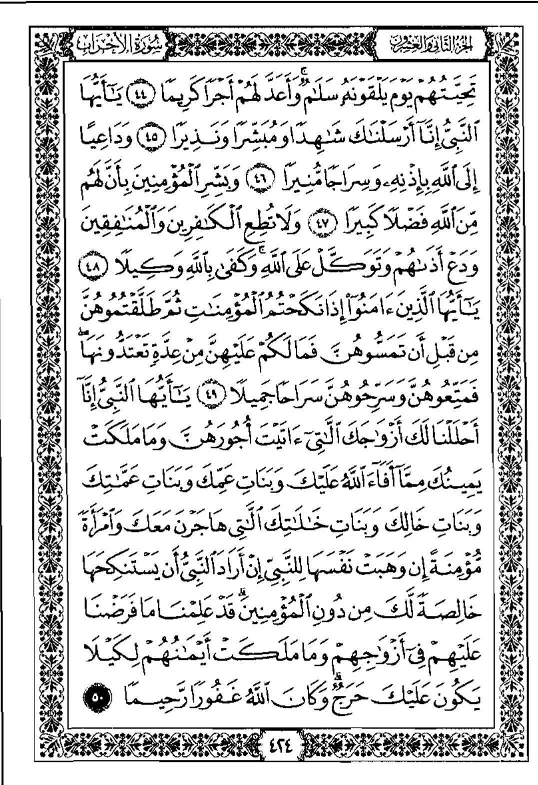
(٤٠) ﴿مَا كَانَ﴾ لم يكن الرسول ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ ﴿أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أيها الأمة؛ فقطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عامًّا في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره؛ أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من بره ونصحه؛ كأنه أب لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله، ومن لا يصلح.

(٤١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

(٤٠) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت؛ فلا رسول بعدي ولا نبي» قال: فشق ذلك على الناس. قال: قال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة».

(٤١) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث أبي الدرداء الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟... قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل».



تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

٤٢٤

يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيرًا: من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك.

(٤٢) ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره؛ لفضلها وشرفها، وسهولة العمل فيها.

(٤٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم: أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا، وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجلُّ رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته واستماع كلامه الجليل ورؤية وجهه الجميل وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه إلا من أعطاهم إياه؛ ولهذا قال:

(٤٤) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ تحية المؤمنين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم يرون الله ﴿سَلَامٌ﴾ يسلم الله عليهم، ويسلمهم من جميع الآفات ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ في الجنة.

(٤٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمدًا ﷺ، هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿شَاهِدًا﴾ أي: شاهدًا على أمته بما عملوه من خير وشر، فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشَّر والمنذَر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشَّر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيوي وديني،

---

(٤٣) أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

(٤٥) أخرج البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينًا عمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً».

رتب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم.

والْمنْذَر هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينية، المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى، بالعقاب الوبيل.

(٤٦) الرابع: كونه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها.

الخامس: كونه ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ وذلك يقتضي: أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلَّم به من الجهالات، وهدى به ضُلَّالاً إلى الصراط المستقيم.

(٤٧) وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكر في هذه الجملة، المبشَّر، وهم المؤمنون.

وذكر المبشَّر به؛ أي: الفضل الكبير.

﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ وهو: العظيم الجليل.

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعهم ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إتمام أمرك وخذلان عدوك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تُوكَلُ إليه الأمور المهمة، فيقوم بها، ويسهلها على عبده.

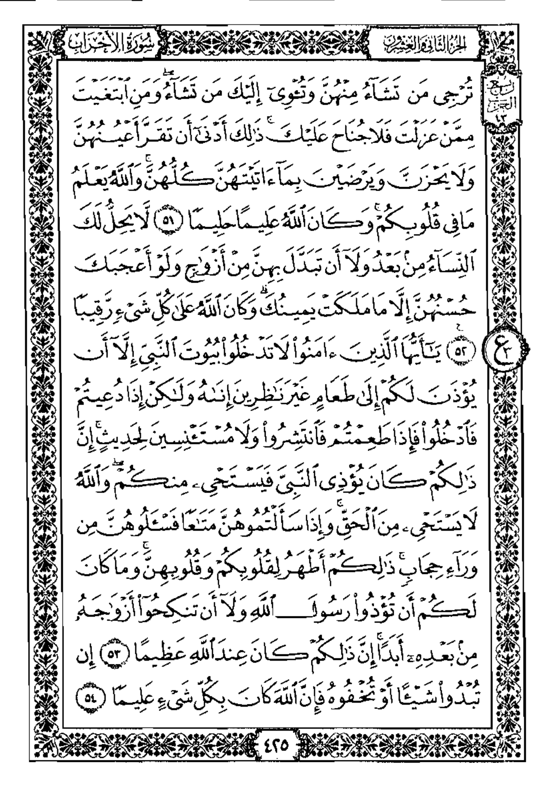
(٤٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ يخبر تعالى المؤمنين: أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها أزواجهن عليهن ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وأمرهم بتمتيعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبر لخواطرهن؛ لأجل فراقهن ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وأن يفارقوهن فراقًا جميلاً من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا غير ذلك.

(٥٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أعطيتهن مهورهن من الزوجات.

وكذلك أحللنا لك ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الإماء التي ملكت ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا - أيضًا - مشترك. وكذلك من المشترك قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة القريبين والبعيدين،

(٥٠) أخرج البخاري وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك فيّ حاجة؟ فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها! واسوأتاه، واسوأتاه؛ فقال: «هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ؛ فعرضت عليه نفسها».

قال أبو أسامة الهلالي: - غفر الله له ولوالديه ومشايخه - : هي كذلك أفضل من وجه آخر: أنها صحابية، رضي الله عنها، بنت أنس من التابعين. فتدبر!



وهذا حصر المحللات ﴿ٱلَّتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول؛ كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿وَ﴾ أحللنا لك ﴿ٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ بمجرد هبتها نفسها ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ هذا تحت الإرادة والرغبة ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إباحة الموهبة، وأما المؤمنون؛ فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك وبينا فرائضه، فما في هذه الآية مما يخالف ذلك؛ فإنه خاص لك؛ لكون الله جعله خطابًا للرسول وحده بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأبحنا لك أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك مالم نوسع على غيرك، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لم يزل متصفًا بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته، وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

(٥١) ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ تؤخر من أردت من زوجاتك؛ فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تضمها وتبيت عندها ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿مَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أن تؤويها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ والمعنى: أن الخيرة بيدك في ذلك كله ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوسعة عليك، وكون الأمر راجعًا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعًا منك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾؛ أي: إذا علمن أن الله قد وضع الحرج في القَسْم، ثم مع هذا أنت تَقْسِم لهن اختيارًا منك لا أنه

(٥١) أخرج الشيخان عن عائشة ﵂ قالت: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟! فلما نزلت: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ قالت: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

على سبيل الوجوب، فرضْ بذلك، واستبشر به، وحملن جميلك في يده ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾؛ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه - أي الميل القلبي مع العدل - ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾؛ أي: بضمائر السرائر ﴿حَلِيمًا﴾؛ أي: يحلُم ويغفر.

(٥٢) ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد زوجاتك الموجودات ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حسن غيرهن؛ فلا يحللن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ﴾ السراري؛ فذلك جائز لك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ مراقبًا للأمور، وعالمًا بما إليه تؤول، وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

(٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها؛ إلا أن تُدْعَوا إلى طعام تطعمونه ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ منتظرين نضجه، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ قبل الطعام وبعده ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ﴾ أن يقول لكم: اخرجوا ﴿وَ﴾ لكن ﴿ٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ لأنه تعالى لا يأمركم إلا بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ كأن يسألن متاعًا أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يسألن ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ يكون بينكم وبينهن ستر، يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ لأنه أبعد عن الريبة.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء ﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلق به ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنه ﷺ له مقام التعظيم، والرفعة والإكرام، وتزوُّج زوجاته بعده مخل بهذا المقام ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

(٥٤) ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾ تظهروه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تكتموه وتسروه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لا تخفى عليه خافية.

(٥٥) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ كذلك لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن؛ أي: اللاتي من جنسهن في الدين،

---

(٥٢) أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن عائشة ﵂ قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له النساء.

(٥٣) أخرج النسائي وغيره بإسناد صحيح عن عائشة ﵂؛ قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حيساً في قعب، فمرّ عمر ﵁ فدعاه فأكل، فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: حسّ - أو أوّه - لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين؛ فنزل الحجاب.

(٥٥) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن داود سأل الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قال: لأنهما ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.



الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

٤٢٦

فيكون ذلك مخرجًا لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد أعمال العباد: ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك، أتم الجزاء وأوفاه.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره.

و﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ عليه، أي: يثني الله عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى؛ لمحبته تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيمًا له ﷺ، ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم.

(٥٧) وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الاوقات، وأوجبه كثير من العلماء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية: من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم في الدنيا أنه يحتم قتل من شتم الرسول وآذاه ومِنْ لعنهم في الآخرة: العذاب في النار، وهو قوله تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ جزاء له على أذاه: أن يؤذى بالعذاب المهين.

---

(٥٦) أخرج البخاري معلقاً عن أبي العالية، قال: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون : يبرّكون . وأخرج الشيخان عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ؛ قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

(٥٧) في«الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل :يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره».

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير جناية منهم موجبة للأذى ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ على ظهورهم ﴿بُهْتَٰنًا﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، هذه الآية تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عمومًا- ويبدأ بزوجاته وبناته؛ لأنهن آكد من غيرهن، هذا الجملة للواو العاطفة الآنية ولأن الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم- أن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه؛ أي: يغطين بها رؤوسهن ونحورهن وصدورهن ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ دل على وجود أذية إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر، فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم؛ بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن.

(٦٠) أما من جهة أهل الشر فقد تواعدهم بقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض شك أو شهوة ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم

الجزء الثاني والعشرون — سورة الأحزاب

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

٤٢٧

بك، وليس لهم قوة ولا امتناع ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مبعدين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أينما وجدوا ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يحبسوا، أو يعاقبوا.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أن من تمادى في العصيان، وتجرأ على الأذى، ولم ينته منه؛ فإنه يعاقب عقوبة بليغة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييرًا، بل سنته تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

(٦٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ يستخبرك الناس عن الساعة؛ استعجالاً لها، وبعضهم تكذيبًا لوقوعها، وتعجيزًا للذي أخبر بها ﴿قُلْ﴾ لهم:

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلمها إلا اللّه، فليس لي ولا لغيرى بها علم، ومع هذا؛ فلا تستبطؤوها ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ومجرد مجيء الساعة قرباً، وبعدًا ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والربح والشقاوة والسعادة: هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

(٦٤)فوصف مستق العذاب، ووصف العذاب فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين صار الكفر باللّه وبرسله وبما جاءوا به من عند اللّه دأبهم وطريقتهم، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقابًا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نارًا موقدة، تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم.

(٦٥) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يُفتَّر عنهم ساعة ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ فيعطيهم ما طلبوه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى عنهم الولي النصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغًا عظيمًا، ولهذا قال:

(٦٦) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن أمنية فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرة وندمًا وهمًّا وغمًّا وألمًا.

(٦٧) ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ وقلدناهم على ضلالهم ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ الهداية.

(٦٨) ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ضعفي عذاب غيرهم ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ اخزهم خزيا متعدد المرات في عذاب جهنم؛ فيقول اللّه: لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

(٦٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرءوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران كليم الرحمن ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ من الأذية؛ أي: أظهر اللّه لهم براءته. والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى

(٦٩) أخرج البخاري، والسياق له، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول اللهﷺ: «إن موسى كان رجلًا حييًا ستيراً لا يُرى من جلده شيء؛ استحياء منه، فأذاه من أذاه من بني إسرائيل؛ فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص وإما أُدرَة، وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر؛ فجعل يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل؛ فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وأبرأه مما يقولون وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

لما رأوا شدة حيائه وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر؛ أي: كبير الخصيتين. واشتهر ذلك عندهم، فأراد اللَّه أن يبرئه منهم، فاغتسل يومًا، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى - عليه الصلاة والسلام - في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فرأوه أحسن خلق اللّه، فزال عنه ما رموه به ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ له وجاهة وجاه عند ربه، فلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ومن ذلك: أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

(٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم: في السر والعلانية ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وغير ذلك. ومن القول السديد: لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، وأسدُّ قول: لا إله إلا الله.

(٧١)ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقوله القول السديد، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يكون ذلك سببًا لصلاحها، وطريقًا لقبولها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضًا ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التي هي السبب في هلاككم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك أنه يجار من نار الجحيم، ويصير إلى النعيم المقيم.

(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن اللّه عليها المكلفين، التي هي: امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية؛ كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة: السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير، لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدَّيتيهَا على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤديها؛ فعليك العقاب ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وعرضها اللّه على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مع ظلمه لنفسه، وجهله بأمر ربه، وحمل هذا الحمل الثقيل.

(٧٣) فانقسم الناس -بحسب قيامهم بها وعدمه- إلى ثلاثة أقسام: منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا. ومشركون: تركوها ظاهرًا وباطنًا. ومؤمنون: قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.

فذكر اللّه تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب؛ فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين

---

(٧٢) أخرج الطبري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح: أنه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ قال: « عرضت على آدم، فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك. قال: قبلت. فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل في ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة».



الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة؛ لنفاقه وشركه.

* * *

سورة سبأ
وهي مكية

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: الثناء بالصفات الحميدة، والأفعال الحسنة؛ فللّه تعالى الحمد وحمد نفسه هنا على أن ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحمده ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى اللّه تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به، وكمال عدله وقسطه، وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها.

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من مطر وبذر وحيوان ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارهما تنزل على عباده كل وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ باللّه وبرسله وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فأمر اللّه رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث،

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

٤٢٩

وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقرَّ به؛ لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام؛ فقال: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ﴾ الأمور الغائبة عن أبصارنا، وعن علمنا ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو: اللوح المحفوظ.

(٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقاً جازماً ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ تصديقًا لإيمانهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم؛ بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ بإحسانهم يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ سعوا فيها كفراً بها، وتعجيزًا لمن جاء بها، وتعجيزا لمن أنزلها؛ كما عجزوه في الإعادة بعد الموت.

(٦) ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أهل العلم ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق؛ أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين ﴿وَ﴾ يرون - أيضاً - أنه في أوامره ونواهيه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ العزيز: هو المنيع الجانب الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: في جميع أقواله وأفعاله وشروعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله.

(٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعنون بذلك الرجل: رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، وأنه كيف يقول: إنكم مبعوثون بعدما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!.

(٨) فأجاب بعضهم فقالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ حين زعم أنّا نبعث؟ وألف افترى ألف استفهام، وهو استفهام تعجب وإنكار ﴿أَم بِهِۦ

﴿جِنَّةٌۢ﴾ جنون فقال الله تعالى رادًا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد، وهم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق، فكفروا بالآخرة، ولم يؤمنوا بماجاءهم به، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة، وهم اليوم في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

(٩) ثم وعظهم ليعتبروا، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نبههم على الدليل العقلي الدال على عدم استبعاد البعث الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمته ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتهما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من العذاب؛ لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ المنيب المقبل إلى الله تعالى، فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات أعظم؛ لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ ومن نعمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات؛ كالجبال، والحيوانات من الطيور أن تُرَجِّع التسبيح بحمد ربها مجاوبة له ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ ومن فضله عليه: أن ألان له الحديد، فكان لا يحتاج أن يدخله نارًا، ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيو، ولهذا قال:

(١١) ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ ليعمل الدروع السابغات ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد؛ أي: يقدره حلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض.

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ في الذي أعطاكم الله من النعم ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليَّ منها شيء.

(١٢) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ لما ذكر فضله على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره، فتسير في اليوم مسيرة شهرين ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾؛ أي: سير غدوها وهو أول النهار إلى الزوال - مسيرة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ وسير رواحها - وهو من الزوال إلى آخر النهار- مسيرة شهر ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وسخر الله له - أيضاً -:

الشياطين والجن، لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ يعدل ﴿مِنْهُمْ﴾ من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرنا به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الاعمال التي يعجز عنها غيرهم ﴿مِن مَّحَارِيبَ﴾ وهو كل بناء يعقد، وتحكم به الأبنية ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ صور الحيوانات والجمادات ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ كالبرك الكبار يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ﴿وَ﴾ يعملون له ﴿قُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ لا تزول عن أماكنها من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها فقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم.

﴿شُكْرًا﴾ لله على ما أعطاكم، ومقابلة لما أولاكم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النقم.

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ على سليمان ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ وهي الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ لما سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمت الجن وأيقنت ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ في التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيًا، أراد الله تعالى بذلك أن يعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب؛ لأنهم كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، لغلبة الجهل.

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

٤٣٠

(١٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ والمراد بسبأ القبيلة المعروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها: مأرب ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آيَةٌ﴾ والآية هنا: ما أدرَّ الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم: أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًا محكماً، يكون مجمعاً للماء، فكانت السيول

(١٣) في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى».

تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ فأمرهم اللّه بشكر نعمه التي أدرَّها عليهم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ جعل بلدهم بلدة طيبة؛ لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أن اللّه تعالى وعدهم إن شكروه أن يغفر لهم ويرحمهم.

(١٦) ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ السيل المتوعر الذي خرب سدهم ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿خَمْطٍ﴾ شجر الآراك وثمره الذي يسمى: البَرير ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر يشبه الطَّرْفاء ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهذا شجر معروف.

(١٧) ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ وهل نجازي جزاء العقوبة إلا من كفر باللّه وبطر النعمة.

(١٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى، هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ سيراً مقدراً يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفين ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسراً ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم باللّه وبنعمته، فعاقبهم اللّه تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم؛ فأبادها عليهم.

(١٩) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم اللّه أحاديث يتحدث بهم، وأسماراً للناس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه اللّه، ولا يتسخطها بل يصبر عليها ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمة اللّه تعالى يُقِرُّ بها ويعترف، ويثني على من أولاها، ويصرفها في طاعته.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه، وهذا ظن من إبليس، لا يقين، لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأته خبر من اللّه أنه سيغويهم أجمعين؛ إلا من استثنى، فهؤلاء وأمثالهم ممن صدق عليه إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن لم يكفر بنعمة اللّه، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ لإبليس ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تسلط وقهر، وقسر على ما يريده منهم، ولكن حكمة اللّه تعالى اقتضت تسليطه وتسويله

(١٩) أخرج مسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً لهن، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

لبني آدم ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحاً، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات، ملزماً لهم بعجزها، ومبيناً لهم بطلان عبادتها: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ زعمتموهم شركاء لله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه، فإنهم ليس لهم أدنى ملك، فـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فِيهِمَا﴾ في السماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك ﴿وَمَا لَهُ﴾؛ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿مِنْهُم﴾ من هؤلاء المعبودين ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير.

(٢٣) فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ

وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٤٣١

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ هذا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، فإذا انتهى الوحي زال الفزع عنهم وجلي عن قلوبهم فإذا كان كذلك ﴿قَالُوا﴾؛ أي: يسأل بعضهم بعضًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم لمن تحتهم حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالُوا

---

(٢٣) أخرج البخاري عن عكرمة؛ قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله - تعالى - الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال في يوم كذا وكذا، كذا وكذا؛ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء».

﴿ٱلْحَقَّۖ﴾؛ أي: أخبروا بما قال، دون زيادة ولا نقصان ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار، ومن علوه: أن حكمه تعالى يعلو، وتذعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته.

(٢٤) ﴿قُلْ﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ: أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ فإنهم لا بد أن يقروا أنه الله، ولئن لم يقروا؛ فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إحدى الطائفتين منا ومنكم، على الهدى، مستعلية عليه، أو في ضلال مبين، منغمرة فيه، وهذا الكلام ليس على طريق الشك، بل يقوله من تبين له الحق، واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه، وبطلان ما عليه خصمه، لكن كذبهم من غير أن يصرح بالتكذيب.

(٢٥) ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كل منا ومنكم له عمله أنتم ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم.

(٢٦) ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب، من المستحق للعقاب ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الحاكم العادل، العالم بحقائق الأمور.

(٢٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾ أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادًا وصيرتموها له عدلاً ﴿كَلَّاۚ﴾ ليس لله شريك ولا ند ولا ضد ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء؛ فكل ما سواه، فهو مقهور مسخر مدبر. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه.

(٢٨) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ؛ إلا ليبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا ظلم منهم في استبعادهم قيام الساعة.

(٣٠) ﴿قُل﴾ لهم مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ لكم ميعاد مؤجل معدود لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم.

(٣١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾ يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، فـ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم القادة: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٣٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٤) وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٣٦) وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ (٣٨) قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٣٩)

مُؤۡمِنِينَ﴾ ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفران، فتبعناكم على ذلك. ومقصودهم بذلك: أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

(٣٢) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾ بقوتنا وقهرنا لكم؟! ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبرتموه من المكر، في الليل والنهار ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ إذ تُحسِّنون لنا الكفر، وتدعوننا إليه وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق وتهجنونه، وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا. فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سرًّا في أنفسهم؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾ في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقال ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

(٣٤) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وأن الله إذا أرسل رسولاً في قرية من القرى، كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها.

(٣٥) ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ ممن اتبع الحق ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أولاً: لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

(٣٦) ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ فأجابهم الله تعالى: بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلاً على ما زعمتم؛ فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

(٣٧) ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى اللّه زلفى وتدني إليه ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لهم الجزاء عند اللّه تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا اللّه ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ في المنازل العاليات المرتفعات جدًّا ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات؛ لما هم فيه من اللذات، وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب، فـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

(٣٩) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ بحسب ما له في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال الكثير، ويضيق على هذا ويقتر، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب أو جار أو مسكين أو يتيم أو غير ذلك، ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

(٤٠) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ العابدين لغير اللّه والمعبودين من دونه، من الملائكة ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ اللّه ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ فتبرأوا من عبادتهم.

(٤١) و﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيها لك وتقديساً، أن يكون لك شريك أو ند ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك

---

(٣٧) في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

أولياء وشركاء؟ ولكن هؤلاء المشركون ﴿كَانُوا۟ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ الشياطين، يأمرون بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ مصدقون للجن، منقادون لهم.

(٤٢) ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والمعاصي: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فاليوم عاينتموها ودخلتموها، جزاء لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

(٤٣) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات كتابنا ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾؛ أي: واضحات أنهن حق من عندنا ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله؛ لتتركوا عوائد آبائكم، الذين تعظمون وتمشون خلفهم ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ سحر ظاهر بيِّن لكل أحد، تكذيباً بالحق، وترويجاً على السفهاء.

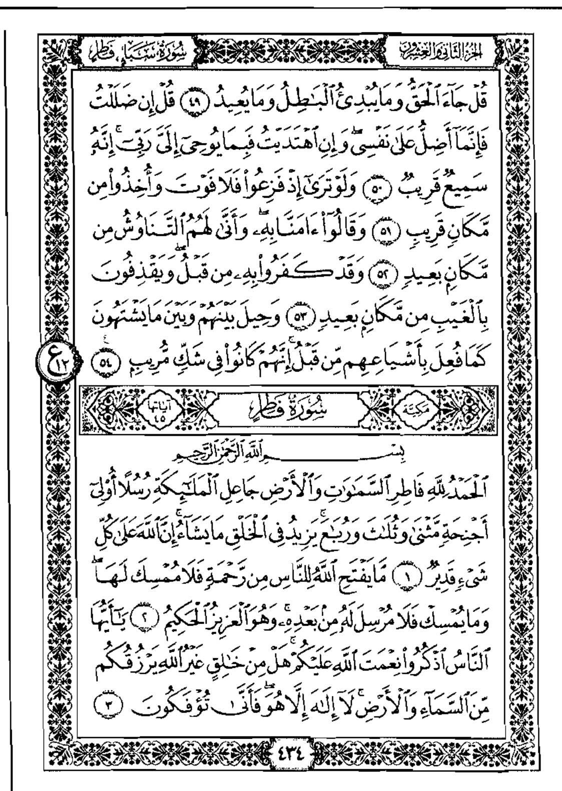
(٤٤) ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ حتى تكون عمدة لهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جئتهم به، فليس عندهم علم، ولا أثارة من علم.

(٤٥) ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُوا۟﴾ ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿مِعۡشَارَ﴾ عُشر ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: أعطينا الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر ﴿فَكَذَّبُوا۟﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري عليهم، وعقوبتي إياهم، قد علمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وغير ذلك فاحذروا يا هؤلاء المكذبون: أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

(٤٦) ﴿قُلۡ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله ﴿مَثۡنَىٰ﴾ مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ كل واحد يخاطب نفسه بذلك ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ فإذا قمتم لله مثنى وفرادى، استعملتم فكركم وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟

(٤٧) ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لقومك المكذبين: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ على اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمان باللهن والعمل بطاعته، العمل بطاعته إلا على الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ محيط علمه بما أدعو إليه، فلو كنت كاذباً؛ لأخذني بعقوبته، وشهيد - أيضاً - على أعمالكم سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

(٤٨) ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أخبر تعالى أن هذه


الجزء الثاني والعشرون — سورة سبأ فاطر

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ فَاطِرٍ — مكية — آياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٤٣٤

سنته وعادته أن يقذف بالحق؛ لأنه بين من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين ﴿عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ﴾ الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوساوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

(٤٩) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدئ ولا يعيد.

(٥٠) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ وأنه إن ضل فإنما يضل على نفسه، ضلاله قاصر على نفسه غير متعد إلى غيره ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي ﴿فَبِمَا﴾ إنما هدايتي بما ﴿يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ فهو مادة هدايتي؛ كما هو مادة هداية غيري ﴿إِنَّهُ﴾ إن ربي ﴿سَمِيعٌ﴾ للأقوال والأصوات كلها ﴿قَرِيبٌ﴾ ممن دعاه وسأله وعبده.

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرسول حال هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ حين رأوا العذاب ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فليس لهم عنه مهرب ولا فوت ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ليس بعيداً عن محل العذاب، بل يؤخذون، ثم يقذفون في النار.

(٥٢) ﴿وَقَالُوا﴾ في تلك الحال: ﴿آمَنَّا﴾ بالله وصدقنا ما به كذبنا ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان لكان إيمانهم مقبولاً.

(٥٣) ﴿وَقَدْ﴾؛ أي: ولكنهم ﴿كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ﴾ يرمون ﴿بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ بقذفهم الباطل؛ ليدحضوا به الحق، ولكن لا سبيل إلى ذلك، كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلى إصابة الغرض، فكذلك الباطل، من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه، فإذا برز الحق وقاوم الباطل قمعه.

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الشهوات واللذات والأولاد والأموال ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ من الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك حيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ محدث الريبة وقلق القلب، فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتبوا حين استعتبوا.

سورة فاطر وهي مكية

(١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يمدح الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السماوات والأرض، وما اشتملتا عليه من

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

٤٣٥

المخلوقات؛ لأن ذلك دليل على كمال قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته، وبديع حكمته، وإحاطة علمه ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ في تدبير أوامره القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه، في تبليغ أوامره الدينية ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ تطير بها، فتسرع بتنفيذ ما أمرت به ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة، بحسب ما اقتضته حكمته ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يزيد بعض مخلوقاته على بعض: في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك: زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

(٢) ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ من رحمته عنهم ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فهذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناء، وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمه تعالى داع لشكره.

ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله؛ نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق؟!

(٤) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا أيها الرسول، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فأهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء.

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ لا شك فيه، ولا مرية

---

(٢) في «الصحيحين»: أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كتب إلى المغيرة بن شعبة: اكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ: فكتب إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربته كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا غايته ومقصوده ممن تبعه: أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبدًا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم، بما دعا اللّه إلى الإيمان به ﴿وَعَمِلُواْ﴾ بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يحصل به المطلوب.

(٨) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عمله السيئ القبيح؛ زينه له الشيطان، وحسنه في عينه ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ كمن هداه اللّه إلى الصراط المستقيم والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولكن الهداية والإضلال بيد اللّه تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصدهم الشيطان عن الحق ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ فلا تأسف على ذلك، فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، واللّه هو الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(٩) ثم أخبر تعالى عن صنعه لتعتبروا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ فأنزله اللّه عليها ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الأموات من قبورهم.

(١٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ يا من يريد العزة، اطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد اللّه، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى اللّه ويعرض عليه، ويثني اللّه على صاحبه بين الملأ الأعلى ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ اللّه تعالى إليه - أيضاً -. كالكلم الطيب. وأما السيئات؛ فإنها بالعكس يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك

---

(٨) أخرج الترمذي أحمد الحاكم والطبراني في «مسند الشاميين» والآجري في «الشريعة» وابن أبي حاتم - واللفظ له - من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الصحيح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذٍ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على ما علم الله ﷻ».

(١٠) أخرج ابن ماجه والإمام أحمد بإسناد صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل؛ يُذَكِّرْنَ بصاحبهن، ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به».

عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً؛ لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل.

(١١) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الأطوار: من تراب إلى نطفة وما بعدها ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لم يزل ينقلكم طورًا بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكرًا يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وكذلك أطوار الآدمي كلها بعلمه وقضائه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لا يطول عمره ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ يعني: من عمر آخر، والذي سلك مسلكًا من أسباب قصر العمر؛ كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

والمعنى: أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أثبت ذلك في كتاب حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهلاً هيناً.

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا إخبار عن قدرته وحكمته ورحمته: أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسوِّ بينهما؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً، سائغاً شرابها؛ لينتفع بها الشاربون

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ومن المصالح والمنافع في البحر: أن سخره الله تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم،

فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾أي: بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾الله على نعمه.

(١٣) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ ومن ذلك إيلاجه تعالى الليل بالنهار، والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، والضياء والنور، والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفف، وغير ذلك مما هو من الضروريات التي لو فقدت لَلَحِقَ الناس الضرر ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الرب المألوه المعبود ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ أي: الذي له الملك كله ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ وهو: اللفافة التي تكون على نواة التمرة.

(١٤) ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ إن تدعو الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لا يسمعوكم؛ لأنهم ما بين جماد وأموات، وملائكة مشغولين بطاعة ربهم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يتبرأون منكم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ لا أحد ينبئك أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تمتر.

(١٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه؛ وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال.

(١٦) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك؛ ولهذا قال:

(١٧) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع، ولا معجز له.

(١٨) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نفس مثقلة بالخطايا والذنوب تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ فإنه لا يحمل عن قريب، ولو على والديه وأقاربه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾الذين يخافون عقاب الله يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، ولكن لإيمانهم بما أتيتهم به، ينفعهم إنذارك، ويتعظون بمواعظك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

وأدُّوا الصلاة المفروضة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ ومن زكى نفسه بالتنقِّي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ﴾ فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

(١٩) ثم ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فاقد البصر ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ فشبه الكافر بالاعمى، وشبه المؤمن بالبصير.

(٢٠) ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ ظلمات الليل ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ ضياء النهار، وشبه الباطل بالظلمات، وشبه الحق بالنور.

(٢١) ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾ الفيء وبرودة الجو ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ الريح الحارة مع الشمس، يعني الجنة والنار، وقيل: الثواب والعقاب.

(٢٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ ولا أحياء القلوب وأمواتها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ سماع فهم وقبول؛ لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئًا، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به؛ ولهذا قال:

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

٤٣٧

(٢٣) ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، تخوفهم بالنار.

(٢٤) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك بثواب اللّه العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًاۚ﴾ لمن عصاك بعقاب اللّه العاجل والآجل ولست ببدع من الرسل ﴿وَإِن﴾ ﴿مِّنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة اللّه.

(٢٥) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كذب ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم

فيما أخبروهم به ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

(٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف؛ ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته فمن ذلك: أن اللّه تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ومن ذلك: الجبال التي جعلها اللّه أوتاداً للأرض، تجدها جبالاً مشتبكة، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض؛ أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمر، وفيها غرابيب سود؛ أي: شديدة السواد جدًا.

(٢٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة، وإنما ينتفع بها من يخشى اللّه تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فكل من كان باللّه أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية اللّه الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته: خلق هذه المخلوقات المتضادات ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ثم خص من التلاوة، بعد ما عمّ، الصلاةَ التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقةَ على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في جميع الأوقات ﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي: رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

(٢٨) في «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂: صنع رسول الله ﷺ شيئاً؛ فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِى كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

(٣٠) ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ زيادة عن أجورهم ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ غفر لهم السيئات، ﴿شَكُورٞ﴾ وقبل منهم القليل من الحسنات.

(٣١) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب والرسل؛ لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها؛ فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله؛ ومن ذلك: أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المهيمن على سائر الكتب، وهو القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ وهم هذه الأمة ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالمعاصي التي هي دون الكفر ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ راجع إلى السابق إلى الخيرات؛ لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضل الكبير الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق وأكبر الفضل وراثة هذا الكتاب.

---

(٣٢) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة»، قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه -: قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره: «ومعنى قوله: «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الامة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

(٣٣) ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ فجنات عدن جنات إقامة؛ أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ وهو الحلي الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء ﴿وَ﴾ يحلون فيها ﴿لُؤۡلُؤٗا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

(٣٤) ﴿وَ﴾ لما تم نعيمهم، وكملت لذتهم ﴿قَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ وهذا يشمل كل حزن ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا﴾ أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ الدار التي تدوم فيها الإقامة، وذلك الإحلال ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم ﴿لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ فشدة العذاب وعظمه مستمر عليهم في جميع الآنات واللحظات ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

(٣٧) ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن اللّه عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا﴾ دهراً وعمراً ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ يعني به رسول اللّه ﷺ؛ فاحتج عليهم بالعمر والرسل ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أخبر تعالى عن سعة علمه واطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عالم

(٣٣) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «تبلغ الحلية في المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

(٣٥) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل».

(٣٦) في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها، ولا يحيون».

(٣٧) أخرج أحمد وابن أبي حاتم والبزار - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح لغيره عن النبي ﷺ، قال: «العمر الذي أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم ستون سنة» يعني: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

بالسرائر وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

(٣٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بما جاءت به رسله، ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له وبغضه إياه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة.

(٤٠) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني عن شركائكم ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فـ ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحرًا، أم خلقوا جبالاً، أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جماداً؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أم لشركائكم شِرْكة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في خلقها وتدبيرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان ﴿فَهُمْ﴾ في شركهم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة

الجزء الثاني والعشرون — سورة فاطر

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٤٣٩

الشرك؟ ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنَّوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام رحمته وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ

(٤١) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام. قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعباً، قال: ما حدثك؟ قال: حدثني أن السماوات تدور على منكب ملك. قال: فصدقته أو كذبته. قال: ما صدقته ولا كذبته، قال: «لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورحلها، كذب كعب، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾».

قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه -: كعب هو كعب الأحبار، وقول ابن مسعود: كذب؛ أي: أخطأ. والله أعلم.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يسٓ — مكية — آياتها ٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

﴿أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا؛ ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وليعلموا كمال حلمه ومغفرته؛ بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين.

(٤٢) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله قسمًا اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أهدى من اليهود والنصارى، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ لم يهتدوا ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وزيادة ضلال وبغي وعناد.

(٤٣) ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته؛ فَلْيَتَرَقَّب هؤلاء ما فعل بأولئك.

(٤٤) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحض تعالى على السير في الأرض بالقلوب والأبدان للاعتبار، لا لمجرد النظر والغفلة ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وبطشًا، لن يتعذر عليه أن يفعل بهم مثل الذي فعل بأولئك من تعجيل النقمة، والعذاب لهم، فلما جاءهم العذاب لم تنفعهم قوتهم، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بجميع الكائنات

﴿قَدِيرًا﴾ على مجموعها.
(٤٥) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لاستوعبت العقوبة حتى الحيوانات غير المكلفة ﴿وَلَٰكِن﴾ يمهلهم تعالى ولا يهملهم؛ و﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر.

* * *

سورة يس
وهي مكية

(١) ﴿يسٓ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هذا قسم من اللّه تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفُه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.
(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وإنك من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل.
(٤) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معتدل، موصل إلى اللّه وإلى دار كرامته.
(٥) ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته.
(٦)﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة.
(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.
(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ وهي جمع (غل) والغل: ما يغل به العنق ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ وهذه الأغلال التي في الأعناق عظيمة قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت رءوسهم إلى فوق ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رافعو رءوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.
(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة.
(١٠) ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يؤمن مَن طبع على قلبه ورأى الحق باطلاً والباطل حقًا.
(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنما تنفع نذارتك ويتعظ بنصحك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ من قصده اتباع الحق وما ذكر به ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين: القصد الحسن في طلب الحق، وخشية اللّه تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

(١٢) ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ من الخير والشر وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، أو آثار خطاهم إلى الطاعة والمعصية، ولا تنافي بين القولين، بل فيهما دلالة وتنبيه على بعضها بطريق الأولى والأخرى؛ فإنه إن كانت هذه الآثار تكتب، فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق أولى، والله أعلم.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: كتاب، هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو: اللوح المحفوظ.

(١٣) ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك ﴿مَّثَلًا﴾ يعتبرون به، وذلك المثل: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ من الله تعالى يأمرونهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

(١٤) ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ رسولين ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ قويناهما بثالث؛ فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ قالت الرسل لهم: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له.

(١٥) فـ ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضًا المخاطبين لهم؛ فقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾. ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ فلو كنا كاذبين لأظهر الله خزينا، ولبادرنا بالعقوبة.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم؛ فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا

(١٢) أخرج الترمذي بإسناد صحيح لغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تكتب» فلم ينتقلوا.

فستعلمون عاقبة ذلك.

(١٨) ﴿قَالُوٓاْ﴾ فقال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ لم نر على قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، ثم توعدوهم؛ فقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ نقتلنكم رجماً بالحجارة أشنع القتلات ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عقوبة شديدة.

(١٩) ﴿قَالُواْ﴾ أي: فقالت لهم رسلهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ وهو ما معهم من الشرك والشر، المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم قلتم لنا ما قلتم ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ متجاوزون للحد.

(٢٠) ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ حرصاً على نصح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم؛ فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه فقال:

(٢١) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ اتبعوا من نصحكم نصحاً يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم، ولا أجراً على نصحه لكم وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقبحه.

(٢٢) ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وما المانع لي من عبادة من هو المستحق للعبادة؛ لأنه الذي فطرني وخلقني ورزقني ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وإليه مآل

سورة يس — الجزء الثالث والعشرون

وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾

٤٤٢

جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم.

(٢٣) ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ سؤال استنكار وتقريع وتوبيخ ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا تغني شفاعتهم عني شيئاً ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من الضر الذي أراده الله بي.

(٢٤) ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فجمع في هذا الكلام؛ بين نصحهم، والشهادة للرسل بالرسالة.

(٢٥) فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ فقتله قومه لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به.

(٢٦) فـ ﴿قِيلَ﴾ له في الحال: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ فدخلها ﴿قَالَ﴾ مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحاً لقومه بعد

وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ بأي شيء غفر لي؛ فأزال عني أنواع العقوبات ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرات.

(٢٨)﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار اللّه تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب اللّه يكفيهم.

(٢٩)﴿إِن كَانَتْ﴾ عقوبتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة اللّه ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين: لا صوت، ولا حركة لهم.

(٣٠) قال اللّه مترحمًا للعباد: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر اللّه وفرطت في جنب اللّه! ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يكذبون ويستهزئون به.

(٣١) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها اللّه تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها

(٣٢) ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ سيعيد اللّه الجميع خلقاً جديداً، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى؛ ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة.

(٣٣) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي اللّه تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أنزل اللّه عليها المطر؛ فأحياها بعد موتها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، فجعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم.

(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصًا النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أنهار سارحة.

(٣٥)﴿لِيَأْكُلُوا۟﴾ أي: جعلنا في الأرض تلك الأشجار والنخيل والأعناب ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قوتاً وفاكهة وأدمًا ولذة ﴿وَ﴾ الحال أن تلك الثمار ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ وليس لهم فيه صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم.

(٣٦) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الأصناف كلها ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ فنوّع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فنوّعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخُلُقِهِمْ، وأوصافهم الظاهرة والباطنة ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد.

(٣٧) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على نفوذ مشيئة اللّه وكمال قدرته وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿ٱلَّيْلُ

وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾

﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نزيل الضياء العظيم الذي طبق الأرض، ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ فنبدله بالظلمة، ونحلها محله وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس؛ فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال:

(٣٨) ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ دائماً تجري لمستقر لها قدره الله لها، لا تتعداه ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده، ومناف في دينهم ودنياهم.

(٣٩) ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ يصغر جدًّا؛ فيعود ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ عرجون النخلة الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئًا فشيئاً حتى يتم نوره، ويتسق ضياؤه.

(٤٠) ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ في سلطانه الذي هو الليل؛ فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه ﴿وَكُلّٞ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ يدورون في فلك السماء.

(٤١) ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ﴾ ودليل لهم وبرهان على أن الله وحده المعبود ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم؛ لأن اسم الذرية يقع على الآباء والأجداد، كما يقع على الأولاد ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾: في سفينة نوح المملوءة بالأزواج من كل صنف.

(٤٢) ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم﴾ للموجودين من بعدهم ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ من مثل ذلك الفلك؛ أي: من جنسه ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن؛ لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية.

(٤٣) ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ لا أحد يصرخ لهم، فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل

---

(٣٨) في «الصحيحين» و«المسند» ـ واللفظ للإمام أحمد ـ من حديث أبي ذر رضي الله عنه؛ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس؛ فقال ﷺ: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عز وجل فتستأذن في الرجوع، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾».

عنهم المشقة ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ مما هم فيه.
(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ حيث لم نغرقهم، لطفاً بهم، وتمتيعاً لهم إلى حين؛ لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.
(٤٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أحوال البرزخ والقيامة وما في الدنيا من العقوبات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه؛ فأعرضوا عن ذلك، ولم يرفعوا به رأسًا، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال:
(٤٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها.
(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الرزق الذي منَّ به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ معارضين للحق محتجين بالمشيئة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمروننا بذلك.
(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك؛ فإنه عن قريب.
(٤٩) ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾وهي نفخة الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة.
(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا يُنظرون ولا يمهلون لا قليلة ولا كثيرة ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.
(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث والنشور، ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأنِّي والتأخر.
(٥٢) ﴿قَالُواْ﴾ وهم المكذبون، وقد اظهروا الحسرة والحزن ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ يا هلاكنا﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ من رقدتنا في القبور فيجيبهم المؤمنون أو الملائكة -ولا منافاة إذا الجمع ممكن-: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هذا الذي وعدكم الله به ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ووعدتكم به الرسل؛ فظهر صدقهم رأي العين.
(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ﴾ البعثة من القبور ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور؛ فتحيا الأجساد ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ الأولون والآخرون، والإنس والجن؛ ليحاسبوا على أعمالهم.
(٥٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزاد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير؛ أو شر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله على ذلك ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

---

(٥١) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قال: أربعون شهراً؟ قالوا: أبيت «ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق».

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجازى إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين؛ فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ في شغل مفكه للنفس، مُلِذٍّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه المتمنون ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات.

(٥٦) ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ من الحور العين، اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان، وحسن الأخلاق. ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن، ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

(٥٧) ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة من عنب وتين ورمان وغيرها. ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

(٥٨) ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ولهم أيضاً سلام حاصل لهم من رب رحيم ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قَوْلًا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها.

(٥٩) لما ذكر تعالى جزاء المتقين ذكر جزاء المجرمين ﴿وَ﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ تميزوا عن

الجزء الثالث والعشرون — سورة يس

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

٤٤٤

المؤمنين، وكونوا على حدة؛ ليوبخهم ويقرعهم على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم:

(٦٠) ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ آمركم وأوصيكم على ألسنة رسلي، وأقول لكم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لا تطيعوه، وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه.

(٦١) ﴿وَ﴾ أمرتكم ﴿أَنِ اعْبُدُونِي﴾ بامتثال

(٥٥) أخرج الطبري وأبو نعيم في «صفة الجنة» بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: شغلهم افتضاض الأبكار». ومثله عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أوامري وترك زواجري، ﴿هَٰذَا﴾ عبادتي وطاعتي ومعصية الشيطان ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ خلقاً كثيراً ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم وليًا.

(٦٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عيانًا.

(٦٤) ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسل الله.

(٦٥) ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء.

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نُذهِبَ أبصارهم كما طمسنا على نطقهم ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمست أبصارهم.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ لأذهبنا حركتهم، ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ إلى الأمام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى ورائهم؛ ليبعدوا عن النار.

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ من بني آدم ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف؛ ضعف العقل، وضعف القوة ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن الآدمي ناقص من كل وجه؛ فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن واضح جليٌّ لمن تأمله وتدبره.

(٧٠) ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدْلُونَ بها.

---

(٦٥) في «صحيح مسلم» في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب! ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، والكرام الكاتبين شهودًا، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بعمله، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول بعدًا لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل».

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سُورَةُ الصَّافَّاتِ — مكية — آياتها ١٨٢

(٧١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلَّلها ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ وجعلهم مالكين لها.

(٧٢) ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحاملهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها.

(٧٣) ﴿وَمَشَارِبُ﴾ في ألبانها، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة، ولا يتمتعون بها تمتعًا خاليًا من العبرة والفكرة.

(٧٤) ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ يقول الله منكراً على المشركين اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاء نصرها وشفاعتها، وأن تمنعهم من عذاب الله.

(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ لا تقدر الأصنام على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأحقر وأدحر؛ لأنها جماد لا تقدر على الاستنصار لنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ الكفار جند للأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وينصرونها من أن يمسها أحد بسوء، فبدل أن تنصرهم هم ينصرونها كجند مبعوثون لنصرتها.

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ فلا يحزنك يا أيها الرسول ﴿قَوْلُهُمْ﴾؛ أي: قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول أو فيما جاء به.

والمعنى: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم في التكذيب، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ في عبادة الأصنام، أو ما يعلنون بألسنتهم في الأذى، فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ المنكر للبعث و الشاك فيه ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ أمراً يفيده اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعد ما

تفرق وتمزق من باب أولى.

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقه بعد أن لم يكن شيئًا مذكوراً فوُجد عياناً، لم يضرب هذا المثل ﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعد ما بليت وتلاشت. هذا وجه الشبهة والمثل؛ وهو: أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر.

(٧٩) فأجاب تعالى عن هذا الاستفهام بجواب شفٍ كافٍ، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه: أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحواله وفي جميع الأوقات؛ فبعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت.

(٨٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادهما وشدة تخالفهما؛ فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك.

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ على سعتهما وعظمهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أن يعيدهم بأعيانهم ﴿بَلَىٰ﴾ قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

(٨٢) ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل شيء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ في الحال من غير تمانع.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المنعم المتفضل.

(٧٨ و٧٩) في «الصحيحين» و«المسند» - واللفظ للإمام أحمد - قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنه: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته ﷺ يقول: «إن رجلًا حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت، فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلًا، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي؛ فامتحشت، فخذوها، فدقوها، فذروها في اليم. ففعلوا، فجمعه الله، تعالى إليه ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك؛ فغفر الله عز وجل له». فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك، وكان نباشًا.

سورة الصافات
وهي مكية

(١) ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الآيات ١-١١] هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عبادتها وتدبيرها ما تدبره بإذن ربها على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ صفوفاً في خدمة ربهم؛ وهم: الملائكة.

(٢)﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾وهم الملائكة؛ يزجرون السحاب وغيره بأمر الله.

(٣)﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ وهم الملائكة؛ الذين يتلون كلام الله تعالى.

(٤)﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحبّ والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

(٥)﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها؛ فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها؛ فكذلك لا شريك له في ألوهيته. ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾وخص اللّه المشارق بالذكر؛ لدلالتها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها.

(٦)﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ يخبر الله تعالى أنه جعل الكواكب زينة للسماء؛ إذ لولاها؛ لكانت السماء جرماً مظلماً لا ضوء فيها، ولكن زينها فيها؛ لتستنير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما


الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤

٤٤٦

يحصل.

(٧) ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ حراسة السماء عن كل شيطان مارد.

(٨) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهم: الملائكة؛ فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب؛ طردًا لهم، وإبعادًا عن استماع ما يقول الملأ الأعلى﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ ، وذلك من كل جهة يقصدون السماء منها.

(٩) ﴿دُحُورٗاۖ﴾ : رجمًا يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ دائم، معد لهم؛ لتمردهم عن طاعة

---

(١) في صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء».

ربهم.

(١٠) ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ إلا من تلقف من الشياطين المردة الكلمة الواحدة من كلام الملائكة على وجه الخفية والسرقة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

(١١) ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ اسأل منكري خلقهم بعد موتهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أيجادهم بعد موتهم أشد خلقاً وأشق؟ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من هذه المخلوقات؟ فلا بد أن يقروا: أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس؛ فيلزمهم إذًا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها؛ لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قوي شديد لزج.

(١٢) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان من تكذيب من كذب بالبعث بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿وَ﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه: أنهم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

(١٣) ﴿وَ﴾ من العجب - أيضا - أنهم ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ ما يعرفون في فطرهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك.

(١٤) ﴿وَ﴾من العجب - أيضا - أنهم ﴿إِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً﴾ دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يستهزئون.

(١٥)﴿وَقَالُوٓاْ﴾ من العجب - أيضاً -: قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها وهو الحق في رتبة أخس الأشياء وأحقرها وهو السحر.

(١٦) ومن العجب - أيضاً - قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات على قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادا وإنكارا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ انتهت حياتنا بالموت ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ صرنا تراباً ﴿وَعِظَٰمًا﴾ بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ خلقاً جديداً.

(١٧) ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ أي: وآباؤنا الأولون.

(١٨) ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم؛ أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم؛ فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

(١٩) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ كما ابتدئ خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلاً، وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يستهزءون.

(٢١) فيقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القضاء بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق،

وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تستبعدون وقوعه وتعجبون من حدوثه وتنكرون مجيئه.

(٢٢) إذا أحضروا يوم القيامة، وعاينوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يجانسه في العمل ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها.

(٢٣) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ اتخذوها آلهة ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم.

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار؛ يقال: قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا؛ ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

(٢٥) فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرقكم لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب، وتغيثكم وتشفع لكم عند الله؟! فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال؛ لأنهم قد علاهم الذل والصغار استسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا؛ فلم ينطقوا، ولهذا قال:

(٢٦) ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ هم اليوم أذلاء منقادون لا حيلة لهم.

(٢٧) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم، وهدوا إلى صراط

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

٤٤٧

الجحيم، ووقفوا، فسئلوا، فلم يجيبوا، وأقبلوا فيما بينهم يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم.

(٢٨) فـ ﴿قَالُوا﴾ الأتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والغلبة، فتضلونا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين.

(٢٩) ﴿قَالُوا﴾ لهم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ما زلتم مشركين كما نحن مشركون، فأي شيء فضلكم علينا؟ وأي شيء يوجب لومنا؟

(٣٠) ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ قهر لكم على اختيار الكفر ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ متجاوزين للحد

(٣١) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ نحن وإياكم ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ العذاب حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سنذوق العذاب ونشترك في

العقاب.

(٣٢) فلذلك ﴿أَغْوَيْنَاكُمْ﴾ دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها؛ وهي: الغواية﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ فاستجبتم لنا؛ فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم؛ كما اشتركوا في الدنيا على الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال:

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية، وجاوز النجاية فقال:

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ﴾ أولئك المشركون من عبدة الأوثان ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قال لهم الرسول ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها وعلى من جاء بها.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿لِـ﴾ قول ﴿شَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ.

(٣٧) ولهذا قال تعالى ناقضاً لقولهم: ﴿بَلْ جَاءَ﴾ محمد ﷺ ﴿بِالْحَقِّ﴾ مجيئه حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ بأن جاء بما جاءوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم؛ كما هم أخبروا به وبشروا.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ المؤلم الموجع.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلم نظلمكم وإنما عدلنا فيكم.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم؛ لأنهم أخلصوا للّه الأعمال؛ فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه.

(٤١) ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه.

(٤٢) ﴿فَوَاكِهُ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس؛ للذتها في لونها وطعمها ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ معظمون مجلون موقرون.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعته مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر

(٤٤) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ وهي المجالس المرتفعة المزينة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيما بينهم لا يرى بعضهم قفا بعض على

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك؛ وهي: كاسات الخمر.

(٤٦) وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه؛ فإنها في لونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ يتلذذ شاربها بها وقت شربها وبعده.

---

(٣٥) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله؛ فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله».

وزاد الطبري وابن أبي حاتم والبيهقي في «الأسماء والصفات» وابن حبان بإسناد على شرطهما: «وأنزل الله في كتابه - وذكر قوماً استكبروا - فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾».

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ليس فيها صداع ولا كدر ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ لا تذهب عقولهم.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وعند أهل دار النعيم، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، قصرت طرفها على زوجها؛ لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها ﴿عِينٌ﴾ حسان الأعين.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ الحور ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن.

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى نعيمهم، وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل حتى أفضى ذلك بهم إلى أن:

(٥١) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ من أهل الجنة ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ في الدنيا، ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به.

(٥٢) و﴿يَقُولُ﴾ لي: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب، والاستبعاد والكفر والعناد.

(٥٣) ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ جميعاً، وتمزقت أجسادنا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ صرنا تراباً ﴿وَعِظَٰمًا﴾ نخرة ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ مجازون بأعمالنا، محاسبون عليها.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ المؤمن لأصحابه وجلسائه في أهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ مشرفون على النار؛ لننظر إليه، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه.

سورة الصافات — الجزء الثالث والعشرون

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٤٤٨

(٥٥) ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ فرأى قرينه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في وسط العذاب وغمراته.

(٥٦)فـ ﴿قَالَ﴾ له لائماً على حاله، وشاكرًا للّه على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تَٱللَّهِ﴾ والله ﴿إِن كِدتَّ﴾ لقد كدت ﴿لَتُرْدِينِ﴾ أن تهلكني بسبب ما أدخلت عليَّ من الشُّبه بزعمك.

(٥٧)﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(٥٨) ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة اللّه على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى في

الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ولا بعث بعدها ولا عذاب.

(٦٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه.

(٦١) ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ لمثل هذا النعيم وهذا الفوز ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ في الدنيا؛ ليصيروا إليه في الآخرة.

(٦٢) ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأي الطعامين أولى؟ الذي وصف في الجنة ﴿أَمْ﴾ طعام أهل النار؟ وهو: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أي: التي في النار، والزقوم: اسم جنس لشجر خبيث المنظر، كريه الطعم، ويكره أهل النار على تناولها؛ فهم يتزقمونه على أشد كراهية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين؛ امتحاناً واختباراً لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ وجعلناها عذاباً ونكالاً لهم في الآخرة.

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أصل منبتها في قرار الجحيم، غذيت من النار، ومنها خلقت.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها؛ سمي: طلعاً؛ لطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ هم الشياطين بأعيانهم، شبه به لقبحها، والعرب إذا وصفوا شيئاً قبيحاً قالوا: كأنه شيطان، وإذا وصفوا شيئاً جميلاً قالوا: كأنه مَلَك؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف: ٣١].

وهذا كله تبشيع لها وتكريه لذكرها، فإذا كان طلعها كذلك؛ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أهل النار ﴿لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ من شجر الزقوم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ والملء: حشو الوعاء لا يحتمل عليه زيادة؛ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على أثر هذا الطعام ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حارًا.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مآلهم ومقرهم ومأواهم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ ليذوقوا من عذابه الشديد، وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟﴾ وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ على ضلالة.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك في غير برهان ولا دليل ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون في الضلال.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الخالية، وقليل منهم آمن واهتدى.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ ينذرونهم عن غيهم وضلالهم.

---

(٦٦) أخرج الترمذي وابن ماجه والنسائي في «الكبرى» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال: «﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا؛ لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه».

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ كانت عاقبتهم: الهلاك والخزي.

(٧٤) ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين بل منهم من آمن وأخلص الدين لله؛ استثناه الله من الهلاك؛ فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته؛ لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه، فـ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه؛ فقال: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ لدعاء الداعين، وسماع تبتلهم وتضرعهم.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ نجاه وأهله من الكرب العظيم وهو: التكذيب والأذى، وأغرق جميع الكافرين.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أبقى نسله وذريته متسلسلين، فجميع الناس من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ جعل له ثناء حسناً مستمرًّا إلى وقت الآخرين.

(٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مفسراً كما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن: أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وذلك؛ لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سنته تعالى في المحسنين: أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم.

(٨١) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين الموحدين.

(٨٢) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فلم يبق منهم عين

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

تطرف، ولا ذكر، ولا أثر.

(٨٣) ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وإن من شيعة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٨٤) ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشُّبه والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به.

(٨٥) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ، وإلزام لهم بالحجة.

(٨٦) ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أتعبدون من دونه آلهة كذباً.

(٨٧) ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يفعل بكم، وقد عبدتم معه غيره.

وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى

جعلتم له أنداداً وشركاء؟!

(٨٨) فأراد عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن يكسر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهز الفرصة في حين غفلة منهم، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ نظر في السماء متفكرًا فيما يلهيهم به.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ضعيف. والقصد: أنه تخلف عنهم؛ ليتم له الكيد بآلهتهم.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ إلى عيدهم، فلما وجد الفرصة:

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة ﴿فَقَالَ﴾ متهكمًا بها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: فكيف يليق أن تعبد، وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلم.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ فهذه جماد لا تأكل ولا تكلم.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاذاً؛ إلا كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون.

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ يسرعون ويهرعون، يريدون أن يوقعوا به.

(٩٥) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أتعبدون من دون اللّه من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم.

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واللّه خلقكم وخلق عملكم.

(٩٧) ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَـٰنًا﴾ عالياً مرتفعاً، وأوقدوا فيها النار ﴿فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ﴾ جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم.

(٩٨)﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ رد اللّه كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

(٩٩) ﴿وَ﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي.

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولداً يكون ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وذلك عند ما أيس من قومه، ولم ير فيهم خيراً، دعا اللّه أن يهب له غلاماً صالحاً، ينفع اللّه به في حياته وبعد مماته.

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ووصف اللّه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عمن جنى.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت

---

(٩٦) أخرج البخاري في «خلق أفعال العباد» وابن أبي عاصم في «السنة» وابن منده في «التوحيد» والبيهقي في «الأسماء والصفات» والحاكم بإسناد صحيح، عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول اللهﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته».

قال أبو اسامة الهلالي - عفا الله عنه -: أهل السنة والجماعة يفرقون بين (خلق الفعل) و(فعل الفعل)؛ فخالق الفعل هو الله عز وجل، والذي يفعل الفعل هو العبد، ولذلك فهو مسؤول عن فعله واختياره، فتدبر هذا المقام اللطيف الذي ضلت فيه افهام، وزلت فيه أقدام، نسأل الله الثبات على السُّنة والإسلام.

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

منفعته ﴿قَالَ﴾ له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ قد رأيت في النوم، والرؤيا: أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه ﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابرًا محتسباً، مرضيًا لربه، وبارًا بوالده: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ امض لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

(١٠٣) ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام: إبراهيم جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ تل إبراهيم إسماعيل على جبينه؛ ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه؛ لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

(١٠٤) ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

(١٠٥) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾ قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطَّنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ صار بدله ذبح من

---

(١٠٧) أخرج الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسناد صحيح؛ قال في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم بإسناد جيد عنه قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه.

وأخرج أبو داود وأحمد وغيرهما من حديث صفية بنت شيبة الصحيح قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ـ وَلَدَتْ عامة أهل دارنا ـ: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقال مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبي ﷺ؟ - قال: «إني كنت رأيت قرني الكبش، حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فخمرهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي».

قال: سفيان: لم يزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت؛ فاحترقا.

الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم عليه السلام؛ فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم القيامة.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ وأبقينا عليه ثناءً صادقاً في الآخرين؛ كما كان في الأولين.

(١٠٩) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: تحيته عليه.

(١١٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة اللّه ومعاملة خلقه، أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

(١١١) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما أمر اللّه بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين.

(١١٢) ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبيًّا من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

(١١٣) ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما، وذريتهما ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه.

(١١٤) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ يذكر تعالى منته على عبديه ورسوليه موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى اللّه تعالى.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: من عدوهما فرعون.

(١١٦) ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ونصرهما عليه حتى أغرقه اللّه وهم ينظرون.

(١١٧) ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ، وتفصيل كل شيء.

(١١٨) ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى اللّه، ومَنَّ عليهما بسلوكه.

(١١٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين.

(١٢٠) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ تفسير للذكر الجميل والثناء الحسن.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: كما جزيناهما نجزي المحسنين من عبادنا المؤمنين.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جزيناهما بما جزيناهما به لإيمانهما.

(١٢٣) ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يمدح تعالى عبده ورسوله: إلياس عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى اللّه.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أمر قومه بالتقوى، وعبادة اللّه وحده ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له: بعل، وتركهم عبادة اللّه الذي خلق الخلق وأحسن خلقهم.

(١٢٦) ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: الذي رباهم؛ فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة.

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال اللّه متوعداً لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم اللّه، ومنَّ عليهم باتباع نبيهم؛ فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من اللّه

جزيل الثواب.

(١٢٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ثناءً حسناً.

(١٣٠) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ تحية من اللّه، ومن عباده عليه.

(١٣١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ كما جزينا إلياس لإحسانه في طاعتنا نجزي المحسنين.

(١٣٢) ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأثنى اللّه عليه كما أثنى على إخوانه صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

(١٣٣) ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى اللّه قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة.

(١٣٤) ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ فلما لم ينتهوا؛ نجاه اللّه وأهله أجمعين؛ فسروا ليلاً؛ فنجوا.

(١٣٥) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ الباقين المعذبين؛ وهي: زوجة لوط لم تكن على دينه.

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ بأن قلبنا عليهم ديارهم حتى همدوا وخمدوا.

(١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على ديار قوم لوط ﴿مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ﴾ في هذه الأوقات، يكثر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية.

(١٣٨) ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الآيات والعبر، وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟

(١٣٩) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى بالنبوة والرسالة والدعوة إلى اللّه، وذكر تعالى عنه أنه

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

الحزب ٤٦ — ٤٥١

عاقب عقوبة دنوية، أنجاه منها بسبب إيمانه، وأعماله الصالحة، فقال:

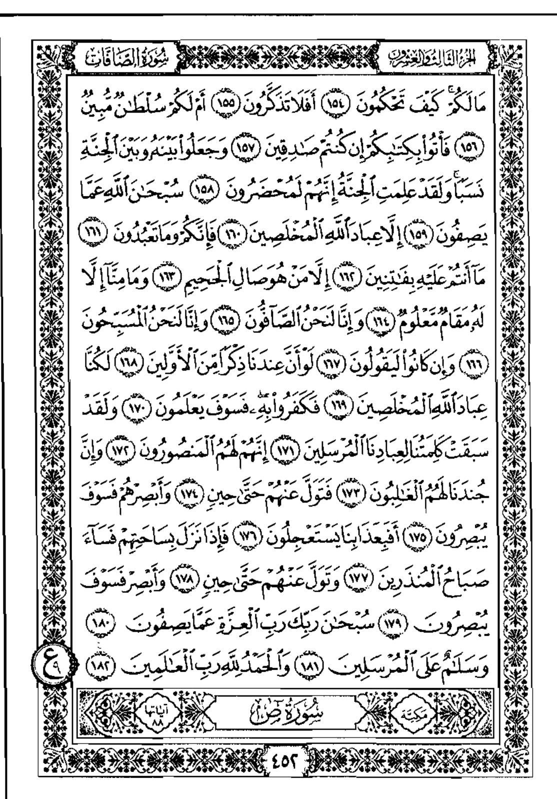
(١٤٠) ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ لجأ ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة بالركاب والأمتعة.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ﴾ قارع؛ فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين.

(١٤٢) ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ﴾ وقت التقامه ﴿مُلِيمٌ﴾ فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وفي بطن الحوتحيث قال: « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» .

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته للّه نجاه اللّه تعالى.



(١٤٥)﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء؛ وهي: الأرض الخالية العارية من كل أحد ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قد سقم ومرض.

(١٤٦)﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ أي: من قرع؛ تظله بظلها الظليل؛ لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به، وبره.

(١٤٧)﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ثم لطف به لطفًا آخر، وامْتَنَّ عليه مِنّة عظمى، وهو أنه أرسله ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ من الناس ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عنها، والمعنى: أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى.

(١٤٨) ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه.

(١٤٩) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾؛ أي: اسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله فجمعوا بين الشرك بالله، ووصفه بما لا يليق بجلاله، ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ هذه قسمة ضيزى، وقول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له وهو البنات التي لا يرضونهن لأنفسهم، ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك.

(١٥٠) قال الله تعالى في بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ خلقهم ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم؟ فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله؛ ولهذا قال:

(١٥١) ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ كذبهم الواضح ﴿لَيَقُولُونَ﴾:

(١٥٢) ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في جميع أقوالهم.

(١٥٣)﴿أَصْطَفَى﴾ أي: اختار ﴿ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ أيُّ شيء يجعله أن يختار البنات دون البنين.

(١٥٤)﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الجائر.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكرتم لم تقولوا هذا القول.

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حجة ظاهرة على قولكم، من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع، ولهذا قال:

(١٥٧)﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإن من يقول قولاً لا يقيم عليه حجة شرعية؛ فإنه كاذب متعمد، أو قائل على الله بلا علم.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجِنَّة نسباً؛ حيث زعموا: أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سروات الجن ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ والحال: أن الجِنَّة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله؛ ليجازيهم عباداً أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا كذلك.

(١٥٩) ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ الملك العظيم، الكامل الحليم، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

(١٦١) ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله.

(١٦٢) ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدًا.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من هذا: بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى.

(١٦٤) ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من أحد إلا له مقام وتدبير قد أمره الله، به لا يتعداه، ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء.

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ في طاعة الله وخدمته.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ لله عما لا يليق به. فكيف - مع هذا - يصلحون أن يكونوا شركاء لله؟! تعالى الله.

(١٦٧) ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين، يظهرون التمني، ويقولون:

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين.

(١٦٩) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا لله العبادة، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ وهم كَذَبة في ذلك فقد جاءهم أفضل الكتب؛ فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ العذاب حين يقع بهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا يحسبوا - أيضاً - أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة، الله - التي لا مرد لها، ولا مخالف لها - لعباده المرسلين وجنده المفلحين.

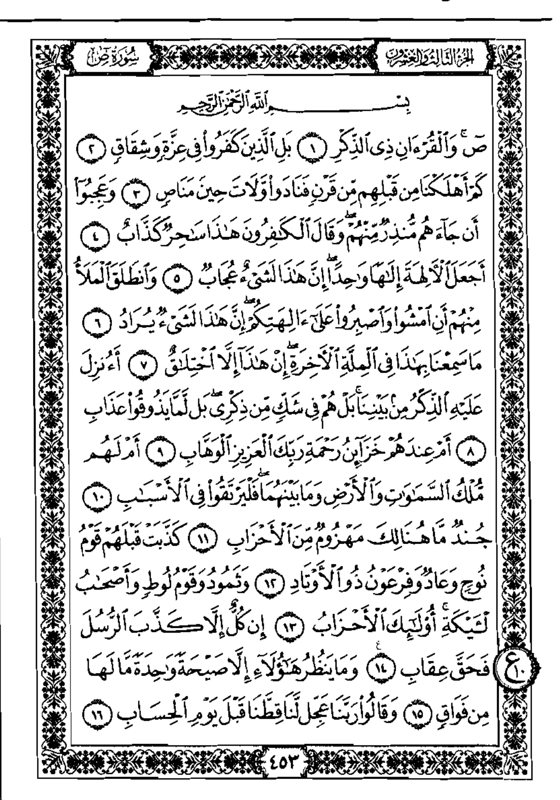
(١٧٢) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ المنصورون من ربهم؛ نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ للكافرين بالحجة والعزة.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا، ولم يقبلوا الحق، وأنه

---

(١٦٤) أخرج الطبري وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» بإسناد حسن لغيره عن عائشة ﵂ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم»؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾.



ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ من يحل به النكال؛ فإنه سيحل بهم.

(١٧٦) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ينكر عليهم استعجالهم بالعذاب، الدال على سفههم، وخفة أحلامهم، إذ ما يستعجل بالعذاب إلا أحمق جاهل.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ نزل عليهم، وقريبا منهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة، والاستئصال.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أعاد الأمر بالتَّولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم، ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

(١٨٠) ولما ذكر في هذه السورة كثيرًا من أقوالهم الشنيعة، التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ تنزه وتعالى: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به.

(١٨١) ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات.

(١٨٢) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الألف واللام للاستغراق؛ فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربى بها العالمين له وحده لا شريك له.

سورة ص
وهي مكية

(١) ﴿صٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي القدر العظيم والشرف، المُذَكِّرِ للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء اللّه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام اللّه الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء،

---

(١٧٧) في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: صبّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر؛ خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

(١) أخرج الحاكم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: نزل ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فيهم وفي مجلسهم ذلك؛ يعني مجلس أبي طالب وأبي جهل واجتماع قريش إليهم حين نازعوا رسول اللهﷺ.

فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.

(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

(٣)﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل، ﴿فَنَادَوا۟﴾ وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وليس الوقت، وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فَلْيَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم؛ فيصيبهم ما أصابهم.

(٤)﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب: أن جاءهم منذر منهم؛ ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر عليهم، وتمام الانقياد له، ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وَقالُوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

(٥) ثم قالوا معلنين عن ذنبه عندهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة للّه وحده ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ يقضي منه العجب لبطلانه وفساده.

(٦) ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها، وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها صاد ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك.

(٧) ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم، فإنه الحق ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه.

(٨) ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ما الذي فضله علينا حتى ينزل الذكر عليه من دوننا، ويخصه اللّه به؟ ولما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخبرت عالى من أين صدرت، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ ليس عندهم علم ولا بينة؛ ولهذا توعدهم بالعذاب فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ قالوا هذه الأقوال وتجرأوا عليها، حيث كانوا ممتعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب اللّه شيء، فلو ذاقوا عذابه، لم يتجرأوا.

(٩) ثم قال تعالى مبينًا أنه المتصرف في ملكه، وأن العباد لا يملكون شيئًا من الأمر: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ فيعطون منها من شاءوا، ويمنعون منها من شاءوا فهو الذي لا يرام جانبه والذي يعطي ما يريد، لمن يريد.

(١٠) ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول اللّه.

(١١) ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

٤٥٤

سيهزمون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين.

(١٢) ثم حذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم: الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزباً على الباطل فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ الجنود العظيمة والقوة الهائلة.

(١٣) ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ الأشجار والبساتين الملتفة؛ وهم: قوم شعيب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئاً.

(١٤) ﴿إِن كُلٌّ﴾ من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿عِقَابِ﴾ وجب عليهم ونزل بهم عذابي، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك.

(١٥) ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فلينتظروا ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

(١٦) ﴿وَقَالُوا۟﴾ قال هؤلاء المكذبون من جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ولَجُّوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد إن كنت صادقاً، فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب، فقال لرسوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل؛ فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم.

(١٧) ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ لما أمر اللّه رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة للّه وحده، ويتذكر حال العابدين، ومن أعظم العابدين: نبي اللّه داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ القوة العظيمة على عبادة اللّه تعالى في بدنه وقلبه ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى اللّه في جميع الأمور.

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾؛ أي: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ آخر النهار ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أوله.

(١٧) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «أحبّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود: كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى».

(١٩) ﴿وَ﴾ سخر ﴿الطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معه مجموعة ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ﴾ للّه تعالى ﴿أَوَّابٌ﴾ مطيع.

(٢٠) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قويناه بما أعطيناه من الأسباب، وكثرة الْعَدَد والْعُدَدِ، التي بها قوّى اللّه ملكه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوة والعلم العظيم ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: الخصومات بين الناس.

(٢١) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ على داود ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ محل عبادته، من غير إذن، ولا استئذان.

(٢٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ ولم يدخلوا عليه مع باب؛ فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، فـ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ نحن ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالظلم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تُمِلْ مع أحدنا ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أرشدنا إلى العدل في قضيتنا.

والمقصود من هذا: أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك، فسيقصان عليه نبأهما بالحق، فلم يشمئز نبي اللّه داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

(٢٣) فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ نص على الأخوة في الدين، أو النسب، أو الصداقة؛ لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه اللّه ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فطمع فيها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ دعها لي، وخلها في كفالتي ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

(٢٤) ﴿قَالَ﴾ داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما أن هذا

---

(٢١) قال أبو اسامة الهلالي - كان الله له-: أورد كثير من المفسرين ههنا قصة تآمر نبي الله داود عليه السلام على قائدة أوريا حيث بعثه إلى ساحة الحرب؛ ليقتل، ثم يتزوج امرأته بعد أن فعل الفاحشة معها.

وهذه أحاديث مكذوبة لا يصح إيرادها فضلا عن ترويجها، ولذلك قال الحافظ ابن كثير في« التفسير» « قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد، وإن كان من الصالحين، لكنّه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يُقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُردَّ علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا».

(٢٤) في «الصحيحين» و«المسند» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في السجود في(صٓ): «ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها».

وعنه عند النسائي بإسناد صحيح: أن النبي ﷺ سجد في (صٓ)، وقال: «سجدها داود توبة».

وعنه - أيضاً - عند الترمذي وابن ماجه وابن حبان بإسناد صحيح لغيره؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدتُ؛ فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: «اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود». قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: «لِم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر»؟ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ وهـذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعهم من الظلم ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ قليل هم ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ حين حكم بينهما ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية؛ ليتنبه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لِمَا صدر منه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ الذي صدر منه، مما يقال فيه: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ منزلة عالية وقربة منا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع.

(٢٦) ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ العدل، وهذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فتميل مع أحد؛ لقرابة، أو صداقة، أو محبة، أو بغض للآخر ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خصوصاً المتعمدين منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ فلو ذكروه، ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً؛ أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ بربهم؛ حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ، وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق؛ فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود بحق.

(٢٨) ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمتنا.

(٢٩) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فيه خير كثير،

وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه اللّه ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب.

(٣٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى اللّه في جميع أحواله.

(٣١) ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات التي من وصفها الصفون؛ وهو: رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، فألهته عن صلاة المساء وذكره.

(٣٢) ﴿فَقَالَ﴾ ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى اللّه بما ألهاه عن ذكره، وتقديمًا لحب اللّه على حب غيره: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ آثرت حب الخير الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد: الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ حتى غابت الشمس في الحجاب.

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ فردوها ﴿فَطَفِقَ﴾ فيها ﴿مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾وفي هذه الآية ثلاثة أقوال:

الأول: جعل يعقرها بسيفه في سوقها وأعناقها.

الثاني: كان يمسح سوقها وأعناقها بيده؛ يكشف الغبار عنها حبًا لها وشفقة عليها.

الثالث: طلب رد الشمس حتى صلى العصر في وقتها.

والقول الأول هو المشهور، وهو منسوب لجمهور المفسرين، والثاني له وجه معتبر، فهو يناسب مقام النبوة، وهو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير الطبري.

والثالث مردود؛ لأن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ في غزوه لبيت المقدس، كما ثبت في صحيح السنة.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه واختبرناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ في هذه الآية قولان:

---

(٣١) أخرج أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قدم رسول اللهﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لعب - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان في رقاع، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت: فرس. قال: «وما هذا الذي عليه؟» قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان»؟! قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه.

(٣٤) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الله الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

قال أبو اسامة الهلالي - عفا الله عنه -: قال أبو حيان في «البحر المحيط»: «نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالًا =

الجزء الثالث والعشرون — سورة ص

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

نصف الحزب ٤٦

٤٥٦

الأول: أن المراد بالجسد شيطان جلس على كرسي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ويتصرف في ملكه مدة فتنته.

الثاني: شق مولود، جاءت به القابلة؛ فألقته على كرسيه.

الأول هو الأشهر، والثاني هو الأصح، لورود السنة الصحيحة به.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب.

(٣٥) فـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ فاستجاب الله له وغفر له، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده.

(٣٦) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ غدوها شهر ورواحها شهر ﴿رُخَآءً﴾ لينة ليست بعاصفة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيث أراد في البلاد.

(٣٧) ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر؛ يستخرجون الدر والحلي.

(٣٨) ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد- القيود- وأوثقه.

(٣٩) وقلنا له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ فقرَّ به عيناً ﴿فَٱمْنُنْ﴾ على عمن شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حرج عليك في ذلك ولا حساب؛ لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال:

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو من المقربين عند الله، المكرمين بأنواع الكرامات لله.

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ﴾ في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: رب ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ

= يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وأما هي من أوضاع اليهود الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وهذا الحديث فصل في هذه المسالة بلا ريب ولا مثنوية».

(٣٥) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة؛ ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾».

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ بمشقة وضُرٍّ.

(٤٢) فقيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ اضرب الأرض بها؛ لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه اللّه تعالى.

(٤٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ قيل: إن اللّه تعالى أحياهم له ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وأغناه اللّه، وأعطاه مالاً عظيماً ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر؛ فأثبناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر: أن اللّه تعالى يثيبه ثواباً عاجلاً وآجلاً، ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

(٤٤) ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حزمة شماريخ ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ قال المفسرون: وكان في مرضه وضره، قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه اللّه ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه اللّه، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه، رحمها اللّه ورحمه، فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾؛ أي: أيوب ﴿صَابِرًا﴾ ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه اللّه تعالى ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كثير الرجوع إلى اللّه في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء والمحبة والتأله.

(٤٥) ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَ﴾ ابنه ﴿إِسْحَٰقَ﴾ ابن ابنه ﴿وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ القوة على عبادة اللّه تعالى ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ البصيرة في دين اللّه. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

(٤٦) ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة للّه وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

(٤٧) ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفاهم اللّه من صفوة خلقه ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ الذين لهم كل خُلق كريم، وعمل مستقيم.

(٤٨) ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم اللّه من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال: من الأعمال والأخلاق. والصفات الحميدة والخصال السديدة.

(٤٩) ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم ﴿ذِكْرٌ﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم؛ بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ لمآباً حسناً، ومرجعاً مستحسناً.

(٥٠) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم.

(٥١) ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ على الأرائك المزينات،

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

والمجالس المزخرفات ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يأمرون خدامهم، أن يأتوا ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ من كل ما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم.

(٥٢) ﴿وَعِندَهُمْ﴾ من أزواجهم الحور العين ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ طرفهن على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن؛ لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلاً، ولا عنه عوضاً ﴿أَتْرَابٌ﴾ على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

(٥٣) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاع.

(٥٥) ﴿هَٰذَا﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ لشر مرجع ومنقلب.

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهى قرُّها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المعد لهم مسكناً ومستقرًّا.

(٥٧) ﴿هَٰذَا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد والخزي والفضيحة والنكال ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ ماء حار قد اشتد حره، يشربونه فيُقطِّع أمعاءهم ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قيح وصديد، مر المذاق، كريه الرائحة.

(٥٨) ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من نوعه ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها، ويخزون بها.

(٥٩) وعند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾أي بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

(٦٠) ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: العذاب ﴿لَنَا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسببكم ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

(٦١) ثم دعوا على المغوين لهم، فـ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ

وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

(٦٢) ﴿وَقَالُوا﴾ وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ كنا نزعم أنهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار. وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين: إما أننا غالطون في عَدِّنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون، ولكن تجاوزتهم أبصارنا.

(٦٤) قال تعالى مؤكداً ما أخبر به: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لَحَقٌّ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فللَّه تعالى، ولكني آمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير، وأزجركم عن الشر، فمنِ اهتدى فلنفْسه، ومن ضلَّ فعليها ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ هذا تقرير لألوهيته بهذا البرهان القاطع، وقهره لكل شيء.

(٦٦) وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية؛ فقال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خالقهما ومربيهما ومدبرها بجميع أنواع التدابير ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة التي بها خلق المخلوقات العظيمة ﴿الْغَفَّارُ﴾ لجميع الذنوب: صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه، وأقلع منها.

(٦٧) ﴿قُلْ﴾ لهم مخوفاً ومحذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله.

(٦٨) ولكن ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتم في قولي، وامتريتم في خبري؛ فإني أخبركم بأخبار، لا علم لي بها، ولا درستها في كتاب، فإخباري بها على وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقي وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال:

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ بالملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياي، وإيحاؤه

---

(٦٩) أخرج الإمام أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: احتبس عنَّا رسول اللَّه ﷺ ذات غداةٍ عن صلاة الصُّبح حتَّى كدنا نتراءى عين الشمس فخرج سريعاً، فثوِّب بالصَّلاة فصلَّى رسول الله ﷺ، وتجوَّز في صلاته، فلمَّا سلَّم دعا بصوته فقال لنا: «على مصافِّكم كما أنتم» ثمَّ انفتل إلينا ثمَّ قال: «أما إنِّي سأحدِّثكم ما حبسني عنكم الغداة أنِّي قمت من اللَّيل فتوضَّأتُ وصلَّيت ما قدِّر لي، فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربِّي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد. قلت: لبيك ربِّ، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، قالها ثلاثاً، قال: «فرأيته وضع كفَّه بين كتفيَّ حتَّى وجدت برد أنامله بين ثدييَّ، فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفت، فقال: يا محمَّد. قلت: لبَّيك ربِّ، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفَّارات، قال: ما هنَّ؟ قلت: مشي الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصَّلوات، وإسباغ الوضوء في المكروهات. قال: ثمَّ فيم؟ قلت: في الدرجات، قال: ما هن؟ قلت: إطعام الطَّعام، ولين الكلام، =

إليَّ، ولهذا قال:
(٧٠) ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر النذارة جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.
(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على وجه الإخبار: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ مادته من طين.
(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ سويت جسمه وتم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فوطّن الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربهم، وإكراماً لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتحن اللّه آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم اللّه بالسجود.
(٧٣) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ سواء من كان منهم في السماوات أو في الأرض.
(٧٤) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في علم اللّه تعالى.
(٧٥) ف ﴿قَالَ﴾ اللّه موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ شرفته وكرمته، واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.
﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ المتكبرين الذين يتكبرون على الخلق، فتكبرت عن السجود لكونك منهم.
(٧٦) ﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهو قياس فاسد؛ لمعارضته النص، ومخالفته للواقع؛ فإن التراب مادة الخير والنمو والزكاء، والنار مادة الإتلاف والإحراق.
(٧٧) فـ ﴿قَالَ﴾ اللّه له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو السماء والمحل الكريم ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مبعد مدحور.
(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ طردي وإبعادي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ دائماً أبداً.
(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ سأل اللّه النِّظِرة والإمهال إلى يوم البعث؛ لشدة عداوته لآدم وذريته، وليتمكن من إغواء من قدر اللّه أن يغويه.
(٨٠) فـ (قال) اللّه مجيبا لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: الممهلين، المبقى على حياتهم.
(٨١) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى، حين تستكمل الذرية؛ يتم الامتحان.
(٨٢) فلما علم أنه مُنظَر، بادى ربه من خبثه بشدة العداوة لربه، ولآدم وذريته، فـ﴿قَالَ﴾: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة اللّه ليغوينهم كلهم أجمعين.
(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ علم أن اللّه سيحفظهم من كيده، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ

= والصَّلاة بالليل والنَّاس نيام، قال: سل. قلت: اللهمَّ إنِّي أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفَّني غير مفتون، أسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك». قال رسول الله ﷺ: «إنها حق، فادرسوها ثم تعلموها».

بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ اللّه تعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ الحق وصفي، والحق قولي.

(٨٥) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الإنس والجن أجمعين.

(٨٦) فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال اللّه له: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على دعائي إياكم ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليَّ.

(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ﴾ هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم، من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب، وتتقطع عنهم الأسباب.

سورة الزمر
وهي مكية

(١) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من اللّه العزيز الحكيم، الذي وصْفُه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل



مخلوق، وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه، لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن دال على مرتبته.

(٢) ولكنه زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق؛ فقال: ﴿إِنَّآ

---

(٨٦) في «الصحيحين» عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: «يا أيها الناس، من علم شيئاً؛ فليقل به، ومن لم يعلم؛ فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾».

(١) أخرج الترمذي والنسائي وأحمد بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر».

﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه؛ لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ولما كان نازلاً من الحق، مشتملاً على الحق، لهداية الخلق، على أشرف الخلق؛ عظمت فيه النعمة وجلَّت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أخلص للّه تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة، والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تُفرد اللّه وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتذرين عن أنفسهم، وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ لترفع حوائجنا للّه، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا.

أي: فهؤلاء قد تركوا ما أمر اللّه به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وهذا من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق! ولهذا قال حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك باللّه فقد حرم اللّه عليه الجنة، ومأواه النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ وصفه الكذب أو الكفر.

(٤) ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعم ذلك من زعمه من سفهاء الخلق ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لاصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاءه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد؛ لاقتضى أن يكون شبيهًا له في وحدته؛ لأنه بعضه، وجزء منه.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لجميع العالم، العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهورًا، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

(٥) ثم أخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم، وأنه ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يُدخل كلاً منهما على الآخر ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بتسخير منظم، وسير مقنن ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِى﴾ متأثراً عن تسخيره تعالى: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري

الجزء الثالث والعشرون — سورة الزمر

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

٤٥٩

بأمره ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين، الغفار لمن أشرك به بعد ما رأى من آياته العظيمة ثم تاب وأناب.

(٦) ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ على كثرتكم وانتشاركم في أنحاء الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ خلقها بقدر نازل منه؛ رحمة بكم ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤]. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ طوراً بعد طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾: ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ المألوه المعبود، الذي رباكم ودبركم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته، لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فكيف تعبدون معه غيره.

(٧) ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ لأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعوا ما خلقهم لأجله ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ لله تعالى بتوحيده وإخلاص الدين له ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾؛ لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله. وكما أنه لا يتضرر بشرككم، ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلًّا منكم ما يستحقه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

(٨) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

الضر: من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة بَحْرٍ أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا اللّه، فيدعوه متضرعاً منيباً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلح في ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ اللّه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ نسي ذلك الضر الذي دعا اللّه لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ليضل بنفسه، ويضل غيره ﴿قُلْ﴾ لهذا العاتي الذي بدل نعمة اللّه كفراً: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار.

(٩) ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يقول اللّه عز وجل ليس المعرض عن طاعة ربه المتبع لهواه، كمن هو قانت مطيع للّه بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة اللّه، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم، ويعلمون دينه الشرعي، ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذكروا ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة اللّه على مخالفته.

(١٠) ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قل منادياً لأشرف الخلق وهم المؤمنون، آمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية اللّه لهم وإنعامه عليهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعبادة ربهم ﴿حَسَنَةٌ﴾ ورزق واسع،

(٩) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه».

ونفس مطمئنة، وقلب منشرح ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار اللّه المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد اللّه الصابرين أجرهم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند اللّه، وأنه معين على كل الأمور.

(١١) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ إنما أمرت بإخلاص العبادة للّه وحده لا شريك له.

(١٢) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من ائتمر بما آمر به، وأول من أسلم.

(١٣)﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى.

(١٤)﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ مخلصاً له التوحيد، لا أشرك به شيئاً. وهذا - أيضاً - تهديد وتبرء منهم.

(١٥) ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أمر توبيخ وتهديد؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ حقيقة هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ هذا الخسران المبين الظاهر الواضح، الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

(١٦) ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ سوط يسوق اللّه به عباده إلى رحمته ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع: عبادة غير اللّه، فاجتنبوها في عبادتها ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره اللّه ببشارتهم.

(١٨) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وهذا جنس يشمل كل قول؛ فهم يستمعون جنس القول؛ ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام اللّه وكلام رسوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقول الزاكية.

(١٩) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن

الجزء الثالث والعشرون — سورة الزمر

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٢) ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

٤٦١

﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة.

(٢٠) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز للمتقين، الذين أعد لهم من الكرامة، وأنواع النعيم، ما لا يقادر قدره ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ منازل عالية مزخرفة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ بعضها فوق بعض ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المتدفقة، المسقية للبساتين الزاهرة، والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى؛ ليوفيهم أجورهم.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يذكّر تعالى أولي الألباب ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أودعه فيها ينبوعاً، يستخرج بسهولة ويسر ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ من بر وذرة وشعير وأرز وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكماله، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ متكسراً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يذكرون بها عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وخزنه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم، ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

(٢٠) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث أبي هريرة الصحيح بشواهده قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة. فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد؟ قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي؛ لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم. ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماوات، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين».

(٢٢) ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ هل يستوي من شرح اللّه صدره للإسلام؛ فاتسع لتلقي أحكام اللّه والعمل بها، منشرحاً قرير العين ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ على بصيرة من أمره؛ كمن ليس كذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ وقسا قلبه عن ذكره؟!

(٢٣) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه أحسن الحديث على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام اللّه، وأحسن الكتب المنزلة من كلام اللّه هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن؛ علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجلُّ المعاني؛ لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والائتلاف، وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه ﴿مَّثَانِىَ﴾ تُثَنَّى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء اللّه وصفاته ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عند ذكر الرجاء والترغيب؛ فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكره اللّه من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ هداية منه لعباده، ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ بسبب ذلك ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

(٢٤) ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أفيستوي هذا الذي هداه اللّه ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته؛ كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب؛ لأنه قد غلت يداه ورجلاه ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: وباله.

(٢٥)﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون.

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك العذاب ﴿ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فافتضحوا عند اللّه وعند خلقه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

(٢٧)﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾يخبر تعالى: أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير، وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عندما نوضح لهم الحق؛ فيعلمون ويعملون.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ جعلناه قرآناً عربيًّا، واضح الألفاظ، سهل المعاني، خصوصاً



على العرب ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى.

(٢٩) ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد؛ فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ خالصاً له، قد عَرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة؛ فهل يستويان مثلاً.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾ لا يستويان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على تبيين الحق من الباطل وإرشاد الجهال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يشركون بالله.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ كلكم لا بدّ أن يموت.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل.

(٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يقول تعالى محذراً ومخبراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا، وهو كاذب ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر.

(٣٣) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾؛ أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان

(٣٠ و٣١) أخرج الترمذي وأحمد والحاكم بإسناد حسن عن الزبير بن العوام رضي الله عنه؛ قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير: والله إن الأمر لشديد!

(٣١) أخرج النسائي وابن جرير بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل أن نختصم فيه.

بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلابد في المدح من الصدق والتصديق، فـ«صدقه» يدل على علمه وعدله، و«تصديقه» يدل على تواضعه وعدم استكباره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق، والتصديق به.

(٣٤) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ من الثواب ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين يعبدون اللّه كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والمحسنين إلى عباد اللّه.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ أي: ذنوبهم الصغار؛ بسبب إحسانهم وتقواهم ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بحسناتهم كلها.

(٣٦) ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره، واجتنب نهيه، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه؛ وهو: محمد ﷺ، فإن اللّه تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله كقومك؛ فليس له من هاد يهديه أبداً.

(٣٧) ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ وقد هداك الله؛ فليس أحد يستطيع إضلالك أبداً؛ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده، ويدفع عنه مكرهم ﴿ذِي ٱنتِقَامٍ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ ولئن سألت المشركين ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئاً ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ الذي خلقها وحده ﴿قُلۡ﴾ لهم مقرراً عجز آلهتهم، بعد ما تبينت قدرة اللّه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ أخبروني ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أيّ ضرّ كان ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ يوصل إليَّ بها منفعة في ديني أو دنياي ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر، ولا يمسكون الرحمة ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ اللّه كافِيَّ ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم.

(٣٩) ﴿قُلۡ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ

---

(٣٦) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً، ولا له من الأمر شيء ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على ما دعوتكم إليه: من إخلاص الدين لله تعالى وحده ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن العاقبة.

(٤٠) و﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول عنه ولا يزول.

(٤١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بنوره واتبع أوامره؛ ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فإن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا يضر الله شيئاً ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها.

(٤٢) ثم أخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ وهذه الموتة الصغرى؛ أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿فَيُمْسِكُ﴾ من هاتين النفسين النفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ وهي نفس من كان مات، أو قضي أن يموت في منامه ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى استكمال رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

(٤٣) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ ينكر تعالى على من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم ﴿قُلْ﴾ لهم - مبيناً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ أي: من اتخذتم من الشفعاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به؛ لأنها جمادات من أحجار

(٤٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه؛ فلينفضه بداخلة إزاره؛ فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي؛ فارحمها، وإن أرسلتها؛ فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

وأشجار وصور وأموات.

(٤٤) ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لأن الأمر كله لله، وكل شفيع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات؛ فالواجب: أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل، ومن أشرك به بالعذاب الوبيل.

(٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ توحيداً له وأمراً بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أنهم يشمئزون وينفرون ويكرهون ذلك أشد الكراهة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بذلك فرحاً بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم.

(٤٦) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومدبرهما ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي نشاهده ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم.

(٤٧) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

(٤٨) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم؛ بسبب صنيعهم وكسبهم

---

(٤٦) في «صحيح مسلم» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن؛ قال: سألت عائشة ﵂: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام في الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

(٤٩) ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته: أنه حين يمسه ضرٌّ من مرض أو شدة أو كرب ﴿دَعَانَا﴾ ملحًا في تفريج ما نزل به ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته عاد بربه كافراً، ولمعروفه منكراً، و ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: علم من اللّه أني له أهل، وأني مستحق له؛ لأني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ يبتلي اللّه به عباده؛ لينظر من يشكره ممن يكفره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتبه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

(٥٠) ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة،أي: قالوا مثل قولهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقًّا، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ ولم يغن ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم العذاب.

(٥١) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات؛ لأنها تسوء الإنسان وتحزنه ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ فليسوا خيراً من أولئك ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ اللّهَ سبحانه وتعالى.

(٥٢) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا: أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى: أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق، أي: يضيقه على من يشاء، سواء أكان صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بسط الرزق وقبضه؛ لعلمهم أن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم؛ لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعياً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، واللّه أعلم.

(٥٣) ثم أخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك، فقال:﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام

---

(٥٣) أخرج ابن إسحاق في «السيرة» ومن طريقه ابن جرير في «تفسيره» والحاكم في «المستدرك» بإسناد صحيح - صرح فيها ابن إسحاق بالتحديث - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اجتمعنا للهجرة اتعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل التَّنَاضِبَ من أضاةِ بني غفار، فوق سرف، وقلنا: أيكم لم يصبح عندها فقد احتبس، فليمض صاحباه، فحبس عنا هشام بن العاص، فلما قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة؛ فكلماه، فقالا له: إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من الشمس حتى تراك، فرَقَّ لها، فقلت له: يا عياش، والله إن يريدك القوم إلا عن دينك؛ فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حرّ مكة لاستظلت، قال: أبر قسم أمي، ولي هناك =

مقامه من الدعاة لدين اللّه مخبراً، للعباد عن ربهم: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسوا منها، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: واعلموا: أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك بالتوبة والإيمان، ولا يغفر الشرك إلا بذلك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار بالتوبة، فمن تاب تاب الله عليه، ومن لم يتب؛ فهو تحت المشيئة إن شاء غفر له بفضله، وإن شاء عذبه بعدله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفه المغفرة والرحمة.

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ بجوارحكم ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا تجدون من ينصركم؛ لأن الله خذلكم.

(٥٥) ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

٤٦٥

مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة اللّه وخشيته وخوفه ورجائه، ومن الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة والزكاة والصيام، ونحو ذلك ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

= مالًا فآخذه. قال: قلت: و الله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما، فأبى إلا أن يخرج معهما، فقلت له لما أبى علي: أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة ذلول؛ فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانج عليها، فخرج معهما عليها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال أبو جهل بن هشام: والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض؛ عدَيا عليه وأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن. قال: فكنا نقول والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفاً ولا عدلًا، ولا يقبل توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر، لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، أنزل فيهم وفي قولنا لهم، وقولهم لأنفسهم: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال عمر: فكتبتها في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاصي. قال هشام: فلم أزل أقرؤها بذي طوى أُصعِّد بها فيه وأُصوِّب، ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

(٥٦) ثم حذرهم ﴿أَن﴾ يستمروا على غفلتهم حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و﴿تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في جانب حقه ﴿وَإِن كُنتُ﴾ في الدنيا ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عملَ ساخرٍ مستهزئ، غير موقنٍ مصدقٍ في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً.

(٥٧) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ و«لو» في هذا الموضع للتمني؛ أي: ليت أكون متقياً له؛ فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب.

(٥٨) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ﴾ لكنت ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأحسنت العمل.

(٥٩) ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ الدالة دلالة لا يمترى فيها على الحق ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بها، الجاحدين لها.

(٦٠) ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة؛ كأنها الليل البهيم، جزاء من جنس عملهم؛ فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق وعن عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزيًا وسخطًا، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم.

(٦١) ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفوزهم من النار بأعمالهم الحسنة؛ وذلك لأن معهم آلة النجاة؛ وهي: تقوى الله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ العذاب الذي يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وكل تحت تدبيره وقهره.

(٦٣) ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مفاتيحها: علماً وتدبيراً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

(٦٤) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من جميع الأنبياء ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل؛ ففي نبوة جميع الأنبياء: أن الشرك محبط لجميع الأعمال، مفسد بجميع الأحوال ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دينك وآخرتك.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لله.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - على سعتها وعظمها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوَّى به غيره ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه وتعاظم عن شركهم به.

(٦٨) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام أحد الملائكة المقربين. ﴿فَصَعِقَ﴾ غشي، أو مات، على اختلاف القولين: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلهم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء، أو بعضهم، وغيرهم، وهذه النفخة الأولى نفخة الصعق، ونفخة الفزع ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ نفخة البعث، النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ ماذا يفعل الله بهم.

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

٤٦٦

---

(٦٧) أخرج الإمام أحمد ومسلم - واللفظ للإمام أحمد - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: أتى النبي ﷺ رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله عز وجل يحمل الخلائق على أصبع، والسماوات على أصبع، والأرض على أصبع، والشجر على أصبع، والثرى كذا على أصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه؛ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٦٨) أخرج الحاكم بإسناد صحيح على شرط الشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء الله عز وجل. قلت: ووقع عند أبي يعلى في «الكبير» والدارقطني في «الأفراد» وابن المنذر والبيهقي في «البعث والنشور» زيادة منكرة بلفظ: «هم الشهداء، يتقلدون سيوفهم حول عرشه، تتلقاهم الملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت، أزمتها الدر الأبيض، برحال الذهب، أعنتها السندس والاستبرق، ونمارها ألين من الحرير، مد خطاها مدّ أبصار الرجال، يسيرون في الجنة على خيول، يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، لننظر كيف يقضي بين خلقه؟ يضحك إليهم إلهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه».

(٦٩) ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كتاب الأعمال وديوانه ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ ليُسألوا عن التبليغ، وعن أممهم، ويشهدوا عليهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ من الملائكة، والأعضاء، والأرض ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ العدل التام، والقسط العظيم.

(٧٠) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

(٧١) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً، يُضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس، وأفظع موضع، وهي جهنم ﴿زُمَرًا﴾ فرقاً متفرقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم لأجلهم ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ لقدومهم، وقِرى لنزولهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ موبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أرسلهم الله بها ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يحذرونكم من شر هذا اليوم. ﴿قَالُواْ﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب.

(٧٢) فـ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس المقر، النار مقرهم.

(٧٣) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة، والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها ﴿وَفُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق؛ ليكرموا فيها ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلام من كل آفة وشر حال عليكم ﴿طِبْتُمْ﴾ طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ بسبب طيبتكم؛ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

(٧٤) ﴿وَقَالُواْ﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ وعدنا الجنة على ألسنة رسله، إن آمنا وصلحنا،

---

(٧٣) أخرج الشيخان وأحمد- واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا».

فوفَّى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما منّانا ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ ننزل منها أيّ مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمرًا.

(٧٥) ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لم يذكر القائل من هو؛ ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

سورة المؤمن
مكية

(١) ﴿حمٓ﴾ أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة بما يغني.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم، وبأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله

الجزء الرابع والعشرون — سورة الزمر ـ غافر

وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

٤٦٧

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

(٣) ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ من التائبين ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ التفضل والإحسان الشامل ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا نظير له في جميع صفاته؛ فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع والمآب؛ فيجازي كل عامل بعمله.

(٤) ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا، والمراد بالمجادلة هنا: المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل؛ فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون فيخضعون لله الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

٤٦٨

يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب.

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم هدد من جادل بآيات الله؛ ليبطلها؛ كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليبطلوه، وعلى الباطل لينصروه ﴿وَ﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يقتلوه ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ماحلوا بالشبهة؛ ليردوا الحق الواضح الجلي ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ كما حقت على أولئك حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ عرش الرحمن: الذي هو سقف المخلوقات، وأعظمها، وأوسعها، وأحسنها، وهؤلاء الملائكة قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصًا التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ خاشعون له، أذلاء بين يديه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًا: أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله -

---

(٧) أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله - تعالى - من حملة العرش؛ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة سنة».

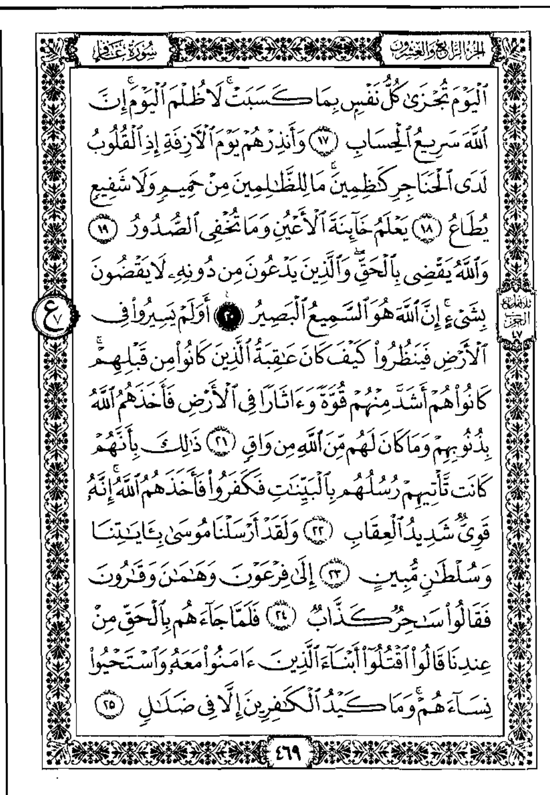
تعالى- ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك؛ بتوحيدك وطاعتك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

(٨) ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ على ألسنة رسلك ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ اجمع بينهم وبينهم؛ لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء؛ فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها.

(٩) ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: الأعمال السيئة وجزاءها؛ لأنها تسوء صاحبها ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقيته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن ﴿وَذَٰلِكَ﴾ زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

(١٠) ثم أخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذيس يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها: من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر ﴿يُنَادَوْنَ﴾ حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها؛ لِمَا فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم في الدنيا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حلَّ عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

(١١) فتمنوا الرجوع، و﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ يريدون العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرى، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا


الجزء الرابع والعشرون — سورة غافر

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

٤٦٩

مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

(١٢) فقيل لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرْتُمْ﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ هذا الذي أنزلكم هذا المنزل أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ فهو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ومن علو قدره كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه وصفاته وأفعاله، المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم؛ فحكمه لا يغير ولا يبدل.

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده؛ بتبيين الحق من الباطل، بما يُري عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ مطرًا به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى اللّه تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه.

(١٤) ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص القصد للّه تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق اللّه وحقوق عباده ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم باللّه لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص للّه وحده غاية الكراهة.

(١٥) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الذي فيه نفع العباد

(١٤) أخرج مسلم والإمام أحمد - واللفظ له - عن أبي الزبير؛ قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». قال: وكان رسول اللهﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة.

ومصلحتهم ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم اللَّه واختصهم اللَّه لوحيه ودعوة عباده ﴿لِيُنذِرَ﴾ من ألقى اللَّه إليه الوحي ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه، وسماه يوم التلاق؛ لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ من هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض؟ الملك ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ لجميع المخلوقات؛ الذي دانت له المخلوقات، وذلت وخضعت.

(١٧) ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في الدنيا من خير وشر، قليل وكثير ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة؛ لإحاطة علمه، وكمال قدرته.

(١٨) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ وصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على ما في قلوبهم من الروع الشديد، والمزعجات الهائلة ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب ولا صاحب ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فاللَّه- تعالى- لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فاللَّه تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون اللَّه ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

(٢١) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ

---

(١٦) أخرج الحاكم - واللفظ له - وابن أبي حاتم والدارمي في «الرد على الجهمية» وابن أبي الدنيا في «الأهوال» وأبو نعيم في «الحلية» وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، وينزل الله إلى السماء الدنيا؛ فينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار، والخزي والفضيحة ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العَدَد والعُدَد وكبر الأجسام ﴿وَ﴾ أشد ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنعه بها ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد.

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ وجحدوا مع هذا البيان والبرهان. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أهلكهم ودمرهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئًا.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية على حقية ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة بينة.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره ﴿وَقَٰرُونَ﴾ الذي كان من قوم موسى؛ فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: ذكبوه وجعلوه ساحرًا مُمَوِّهًا، كذابًا في أن الله أرسله.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم؛ لم يقووا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبرًا متجبرًا مغررًا لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ زعم أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَن

﴿يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ يعني: موسى؛ وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعون مذكراً»؛ أي: صار واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام.

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ مستعينًا بربه: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد.

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ﴾ موفق عاقل حازم ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ مقبحاً فعل قومه وشناعة ما عزموا عليه وقد كان ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ فأخذت الرجل غضبةٌ لله عز وجل، فقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه: أنه يقول: ربي اللَّه، ولم يكن أيضاً قولاً مجردًا عن البينات؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ لأن بيناته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، فهذا لا يوجب قتله.

ثم قال لهم مقالة عقلية، تقنع كل عاقل، بأي حالة قدرت، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾؛ أي: موسى بين أمرين: إما كاذب في دعواه أو صادق فيها؛ فإن كان كاذبًا؛ فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم: إن لم تجيبوه عذبكم اللَّه عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل ﴿كَذَّابٞ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى اللَّه؛ أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه اللَّه إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا.

(٢٩) ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ في الدنيا ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ عذابه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ لا تغني عنكم هذه

---

(٢٧) أخرج أبو داود والنسائي والإمام أحمد وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأُ بك في نحورهم».

(٢٨) أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الصحيح بشواهده؛ قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر».

وأخرج البخاري عن عروة بن الزبير؛ قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط؛ فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر؛ فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ، وقال: أتقتلون رجلًا أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

الجنود، ولا ترد عنا شيئاً من بأس اللَّه إذا أرادنا بسوء. ف ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا له في ذلك، ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي. وقد كذب فرعون؛ فإنه رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له، وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلب للحق.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم.

(٣١) ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة اللَّه فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

(٣٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة.

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ هاربين ذاهبين، قد ذهب بكم إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب اللَّه، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدى بيد اللَّه تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به؛ لخبثه، فلا سبيل إلى هدايته.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب -عليهما السلام- ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ في حياته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات؛ ازداد شككم وشرككم، و ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ وذلك لكفركم وتكذيبكم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ فالذي وصفه السرف والكذب، لا يهديه اللَّه؛ لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه اللَّه بأن يمنعه الهدى.

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، فهم يجادلون فيها على وضوحها؛ ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ بغير حجة وبرهان ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فاللَّه أشد بغضًا

لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق، والتصديق بالباطل ونسبته إليه، ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت؛ موافقة لربهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ في نفسه على الحق برده، وعلى الخلق باحتقارهم، ﴿جَبَّارٍ﴾ بكثرة ظلمه وعدوانه.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أصل إلى الأبواب والطرق المؤدية إلى إله موسى.

(٣٧) ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أبوابها وطرقها من سماء إلى سماء ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أراه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًّا، وأنه فوق السماوات.

قال اللَّه تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنًا، ودعا إليه، وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق؛ بسبب الباطل الذي زين له ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

(٣٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لا كما

الجزء الرابع والعشرون — سورة غافر — الحزب ٤٨

وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

٤٧٢

يقول لكم فرعون؛ فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

(٣٩) ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح وأقوالها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم اللَّه ما لا تبلغه أعمالهم.

(٤١) ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٤٢) ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه، ثم إذا تابوا وأنابوا إليه؛ كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا يقينًا ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة؛ لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ فسيجازي كل عامل بعمله ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

(٤٤) فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه؛ قال لهم: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ألجأ إليه وأعتصم، وأتوكل عليه في مصالحي، ودفع الضرر الذي يصيبني منكم، أو من غيركم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي؛ فيمنعني منكم، ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم؛ فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته.

(٤٥) ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ وقى الله القويّ الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

(٤٦) وفي البرزخ ﴿ٱلنَّارُ﴾ يعذبون بها سوء العذاب ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ صباحاً ومساءً ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ في نار جهنم، فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة والجماعة على عذاب البرزخ في القبور.

(٤٧) يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضًا، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ الأتباع

---

(٤٦) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة؛ وإن كان من أهل النار؛ فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

للقادة ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ على الحق- وهم القادة- ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ ولو قليلاً.

(٤٨) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ وجعل لكلٍّ قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

(٤٩) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ لعله تحصل بعض الراحة.

(٥٠) فـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من اللَّه وما يبعد منه؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة اللَّه البالغة فظلمنا وعاندنا الحق بعد ما تبين ﴿قَالُوٓاْ﴾ الخزنة لأهل النار متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ أنتم ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ باطل لاغ؛ لأن الكفر محبط لجميع الأعمال، صادٌّ لإجابة الدعاء.

(٥١) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم لهم ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العقاب ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ الملائكة.

سورة غافر — الجزء الرابع والعشرون

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

٤٧٣

(٥٢) ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ حين يعتذرون ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ الدار السيئة التي تسوء نازليها

(٥٣) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى﴾ أعطينا موسى ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ الآيات والعلم الذي يهتدي به المهتدون ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جعلناه متوارثًا بينهم، من قرن إلى آخر، وهو التوراة.

(٥٤) ﴿هُدٗى﴾ وذلك الكتاب مشتمل على الهدى الذي هو: العلم بالأحكام الشرعية وغيرها ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ وعلى التذكر للخير بالترغيب فيه، وعلى الشر بالترهيب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ العقول الصحيحة السليمة.

(٥٥) ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من

الجزء الرابع والعشرون سورة غافر

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

ربع الحزب ٤٨

٤٧٤

قبلك من أولي العزم المرسلين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ليس مشكوكًا فيه، أو فيه ريب أو كذب ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وبالتسبيح بحمد اللّه تعالى خصوصًا ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالى: أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ بغير بينة من أمره ولا حجة ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ فهذا قصدهم ومرادهم ولكن هذا لا يتم لهم وليسوا ببالغيه ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ فاعتصم ﴿بِٱللَّهِ﴾ والجأ إليه ولم يذكر مما يستعيذ؛ إرادة للعموم: استعذ باللّه من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ باللّه من شياطين الإنس والجن، واستعذ باللّه من جميع الشرور ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلافها ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بجميع المرئيات بأيّ محل وموضع وزمان كانت.

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ يخبر تعالى بما تقرر في العقول: أن خلق السماوات والأرض أعظم وأكبر من خلق الناس؛ فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون، فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث، وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن باللّه وعمل الصالحات، ومن كان مستكبرًا على عبادة ربه، مقدمًا على معاصيه، ساعيًا في مساخطه ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تذكركم قليل، وإلا، فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة

عليه؛ لآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية، والآيات الأفقية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور التي توجب كمال التصديق والإذعان.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ﴾ هذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة ووعدهم أن يستجيب لهم، فقال: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ وتوعد من استكبر عنها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم.

(٦١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾؛ أي: لأجلكم جعل اللّه الليل مظلمًا ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ من حركاتكم التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي اللّه عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية؛ لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تقرير لربوبيته ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ تقرير لألوهيته وأنه المستحق للعبادة وحده، لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ كيف تصرفون عن عبادته، وحده لا شريك له، بعد ما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل؟

(٦٣) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أفكتم عن الحق مع قيام الدلائل كذلك ﴿يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ عقوبة على جحدهم لآيات اللّه، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص.

(٦٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ قارة ساكنة، مهيأة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها، والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ سقفًا للأرض التي أنتم فيها، قد جعل اللّه فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكل، ومشرب،

(٦٠) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

ع ١٢

ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها اللّه لعباده ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي دبر الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعاظم، وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

(٦٥) ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا وجهه الكريم ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ﴾ اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه اللّه تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميع المحامد والمدائح، والثناء بالقول، كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك للّه تعالى وحده لا شريك له؛ لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

(٦٦) ﴿قُلْ﴾ يا أيها النبي: ﴿إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون اللّه ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ ولست على شك من أمري بل على يقين وبصيرة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره.

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وذلك بخلقه لأصلكم وأبيكم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقة، فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ بلوغ الأشد ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ بهذه الأطوار المقدرة ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ تنتهي عنده أعماركم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

(٦٨) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ جليلاً أو حقيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا رد في ذلك ولا مثنوية ولا تمنع.

(٦٩) يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الواضحة البينة ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف ينعدلون عنها، وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟.

(٧٠) ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ الذي جاءهم من اللَّه ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ وبما أرسل اللَّه به رسله الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولاً ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد من اللَّه عز وجل لهؤلاء.

(٧١) ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ التي يقرنون بها، هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾.

(٧٢) ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ الماء الذي اشتد غليانه وحره ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يوقد عليهم اللَّهب العظيم، فيَصْلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ توبيخًا وتقريعًا على شركهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ في الدنيا.

(٧٤) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ جحدوا عبادتهم ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾

(٧٥) ويقال لأهل النار: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي وقع عليكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ وتمرحون على عباد اللَّه، بغيًا وعدوانًا وظلمًا وعصيانًا.

(٧٦) ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل بطبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبدًا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثوى يخزون فيه، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها.

(٧٧) ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر دينه، ويُعْلِي كلمته، وينصر رسله، في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك -أيضًا- بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولذلك قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ في الدنيا فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عقوبتهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم.

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ كثيرين إلى قومهم يدعونهم ويصبرون على أذاهم ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ خبرهم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ

﴿نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ وكل الرسل مدبرون، ليس بيدهم شيء من الأمر ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ بمشيئته وأمره ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم والفتح ﴿قُضِيَ﴾ بينهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ وقت القضاء المذكور ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاءوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة.

(٧٩) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام منها: منافع الركوب عليها والحمل، ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.

(٨٠) ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة، من أصوافها، وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ على الرواحل البرية والفلك البحرية، يحملكم اللَّه الذي سخرها، وهيأ لها ما هيأ من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه؛ حيث أشهد عباده آياته النفسية وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعدَّدها عليهم؛ ليعرفوه ويشكروه ويذكروه ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أيَّ آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عندكم: أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع.

(٨٢) ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين، ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم السالفة؛ كعاد وثمود وغيرهم، ممن ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ حين جاءهم أمر اللَّه، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا بحصونهم.

(٨٣) ثم ذكر جرمهم الكبير، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين للهدي من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ المناقض لدين الرسل ﴿وَحَاقَ﴾ أي: نزل ﴿بِهِم﴾ بالكفار الجاحدين ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من العذاب.

(٨٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ عذابنا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل.

(٨٥) ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾

في تلك الحال.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾؛ أي: هذا حكم الله في المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجيًا لهم من العذاب، وذلك؛ لأنه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت الإهلاك، وإذاقة البأس ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة، في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه دائمًا أبدًا.

* * *

سورة فصلت
مكية

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

سُورَةُ فُصِّلَتْ — مكية — آياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

نصف الحزب ٤٨ — ع ١٥

٤٧٧

(١) ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الكريم ﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها: إنزال هذا الكتاب.

(٣) ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ باللغة الفصيحة أكمل اللغات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأجل أن يتبين لهم معناه؛ كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغَيِّ من الرشاد.

(٤) ﴿بَشِيرًا﴾ بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب العاجل والآجل ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعًا، تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

(٥) ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به؛ بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ أغطية مغشاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾؛ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك. والقصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم

عليه ولهذا قالوا: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ كما رضيت بالعمل بدينك؛ فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا.

(٦) ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها النبي: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ هذه صفتي ووظيفتي، أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد المتفرقين، إنما اللّٰه إله واحد ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى اللّٰه تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله وإلى دار كرامته ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ عذاب شديد سيحل بالمشركين.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ودنسوا أنفسهم؛ فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص والمتابعة ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ عظيم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع ولا نافد.

(٩) ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وجعلوا معه سبحانه أنداداً يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاؤون في عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم.

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ ثم دحاها في يومين؛ بأن جعل فيها جبالاً من فوقها، ترسيها في الزوال والزلزال وعدم الاستقرار ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ جعلها مباركة قابلة للخير والبَذْر والغراس ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرع وتُغرس، يعني في يومين اثنين، فهما مع اليومية السابقين أربعة ولهذا قال: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

(١١) ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ علا وارتفع علوًّا يليق بجلاله وكماله ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، عطف عليه بقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ انقادا

---

(٨) أخرج أحمد وعبد الرزاق والبغوي في «شرح السنة» بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض، قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه، أو أكفته إليَّ».

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

٤٧٨

لأمري طائعتين أو مكرهتين؛ فلا بد من نفوذه ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

(١٢) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ هي: النجوم، يستنار بها، ويهتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهرًا، وجمالاً لها باطنًا ﴿وحفظاً﴾ بجعلها رجومًا للشياطين؛ لئلا يسترق السمع فيها ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات الغائب والشاهد.

(١٣) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعد ما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة ومن صفات الإله العظيم ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ عذابًا يستأصلكم ويجتاحكم ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ القبيلتين المعروفتين حيث اجتاحهم العذاب، وحل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

(١٤) ﴿إِذْ﴾ حيث ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يتبع بعضهم بعضًا متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يأمرونهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبوهم، ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أيها البشر ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

(١٥) ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فكانوا مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال تعالى ردًا عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلولا خلقه إياهم، لم يوجدوا، فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا، لم يغتروا بقوتهم، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته، وعصوا رسوله، فعاقبهم الله تعالى عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها، فقال تعالى:

(١٦) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ أي: ريحًا عظيمة، من قوتها وشدتها لها صوت مزعج

الجزء الرابع والعشرون | سورة فصلت

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

٤٧٩

كالرعد القاصف؛ فسخرها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:]. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ متتابعات، فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقال هنا: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا يمنعون من عذاب الله، ولا ينفعون أنفسهم.

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحِجْر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بيّنا لهم ووضحنا لهم الحق ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ الذي هو: الكفر والضلال على ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ الذي هو: العلم والإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ لا ظلمًا من الله سبحانه لهم.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ نجى الله صالحًا عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به وبآياته وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: ويجمعون ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

(٢١) ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو، كما ذكرنا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ونحن ندافع عنكن؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق -أيضاً- صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة؛ فيجزيكم بما عملتم.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم؛ ولهذا قال:

(٢٣) ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الظن السيئ؛ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم.

(٢٤) ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ﴾ سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فهم في النار لا محيد عنها، ولا خروج لهم منها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا ما يعمر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

(٢٥) ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ بعثنا ووكلنا ﴿لَهُمْ﴾ لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَآءَ﴾ من شياطين الإنس والجن، ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، والآخرة بعّدوها عليهم وأنسوهم ذكرها ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب عليهم ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِىٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسر فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب.

(٢٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه، ولا إلى من جاء به ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: ألغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرئه؛ كيما لا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته.

(٢٧) ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهو الكفر والمعاصي؛ فإنها أسوأ ما كانوا يعملون.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجالدة ﴿ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ الخلود الدائم؛ الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين،

---

(٢٢) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ قال: كان رجلان من قريش وخِتْنٌ لهما من ثقيف - أو رجلان من ثقيف وخِتْنٌ لهما من قريش - في بيت، كثيرة شحوم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه (وفي رواية: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا) وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله (وفي رواية: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فإنه يسمع إذا أخفينا) فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾

فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها.

(٢٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأتباع منهم -بدليل ما بعده - على وجه الحنق على من أضلهم: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب من شياطين الجن وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنم ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلين المهانين كما أضلونا وفتنونا، وصاروا سببًا لنزولنا، ففي هذا بيان حنق بعضهم على بعض، وتبرّي بعضهم من بعض.

(٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية اللّه تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملاً، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على ما يستقبل من أمركم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما مضى؛ فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد اللّه مفعولاً.

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون اللّه لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ قد أعد وهيئ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٣٢) ﴿نُزُلًا﴾ هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نُزُلٌ وضيافة ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ غفر لكم السيئات ﴿رَّحِيمٍ﴾ حيث وفقكم لفعل

(٣٠) أخرج مسلم في «صحيحه» عن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال ﷺ: «قل: آمنت بالله، ثم استقم».

الحسنات، ثم قبلها منكم؛ فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ لا أحد أحسن ﴿قَوْلًا﴾ كلامًا وطريقة وحالة ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة اللَّه بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى اللَّه عنه وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مع دعوته الخلق إلى اللَّه بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر اللَّه بالعمل الصالح الذي يُرْضِي ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمره، السالكين في طريقه.

(٣٤) ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا اللَّه تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك؛ كالأقارب والأصحاب ونحوهم إساءة بالقول أو بالفعل؛ فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك فَطَيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ كأنه قريب شفيق.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه اللَّه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

(٣٦) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ من وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ اسأله مفتقرًا إليه أن يعيذك ويعصمك منه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته.

(٣٧) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه اللَّه وحده لا شريك له ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ هذا بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظُلَمه، وسكون الخلق فيه ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ اللذان لا تستقيم معايش العباد، ولا أبدانهم، ولا أبدان حيواناتهم، إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه، وكثرت مصالحه؛ فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

(٣٨) ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادة اللَّه تعالى، ولم ينقادوا لها ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني:

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن
يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ
وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

٤٨١

تسهيل الهمزة الثانية

الملائكة المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لا يملون من عبادته؛ لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

(٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ لا نبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها وهمودها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الإلحاد في آيات اللّه: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان لها ما أرادها اللّه منها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ توعُّدٌ لمن ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات اللّه ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ من عذاب اللّه، مستحقًّا لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه، من الطريق المهلك؛ قال: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد، الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم، فاسلكوا طريق الغيِّ، المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيزٌ﴾ منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء.

(٤٢) ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من

أنزله بحفظه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منازله ﴿حَمِيدٍ﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار التي يحمد عليها.

(٤٣) ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ فكما كُذبت كُذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه؛ حيث أنزل كتاباً عربيًا على الرسول العربي بلسان قومه؛ ليبين لهم، وأنه لو جعله قرآنا أعجميًا بلغة غير العرب﴿لَّقَالُوا﴾ لاعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ هلاً بينت آياته، ووضحت وفسرت ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ كيف يكون محمد عربيًا، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون؛ فنفى اللّه تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، ما به تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب، وتشفي القلب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ صمم عن استماعه وإعراض ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ينادون إلى الإيمان ويُدعون إليه فلا يستجيبون؛ بمنزلة الذي ينادي وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعيًا، ولا يجيب مناديًا. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرًا؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى؛ بإعراضهم وكفرهم.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك الكتاب ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وإن اللّه تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين بإهلاك الكافرين في الحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم ، فلذلك كذبوه وجحدوه.

(٤٦) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي أمر اللّه به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيُحمِّل أحدًا فوق سيئاتهم.

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ع

(٤٧) ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ جميع الخلق ترد علمهم إلى اللَّه تعالى، ويقرون بالعجز عنه: الرسل والملائكة وغيرهم ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علماً تفصيليًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم من أنواع الحيوانات إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ فكيف سوّى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟! ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخًا وإظهارًا لكذبهم؛ فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي؛ فعبدتموهم، وجادلتم على ذلك وعاديتم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع اللَّه: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أعلمناك يا ربنا واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها.

(٤٨) ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ من دون اللَّه ﴿وَظَنُّواْ﴾ أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ منقذ ينقذهم.

(٤٩) ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ لا يمل دائمًا من دعاء اللَّه في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل، ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل لم يزل طالبًا للزيادة ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ المكروه؛ كالمرض، والفقر، وأنواع البلايا ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ ييأس من رحمة اللَّه تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يحب ويطلب.

(٥٠) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ أي: الإنسان الذي يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر؛ فيئوس قنوط ﴿رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ﴾ بعد ذلك الشر الذي أصابه؛ بأن عافاه اللَّه من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر اللَّه تعالى بل يبغى ويطغى ويقول: ﴿هَٰذَا لِى﴾

أتاني لأني له أهل، وأنا مستحق له ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها اللّه له ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد جدًّا.

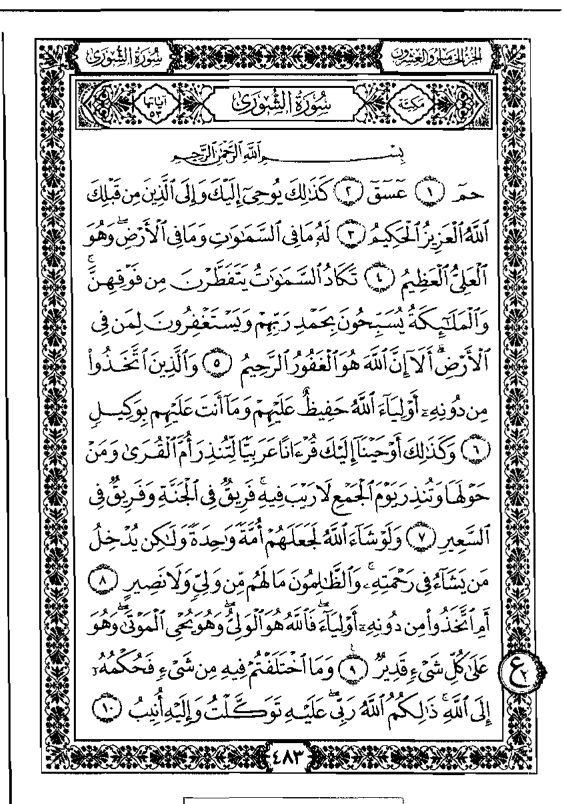
(٥١) ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره ﴿وَنَـَٔا﴾ ترفع ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ عجباً وتكبرًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ المرض أو الفقر أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير جدًّا؛ لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه اللّه ومنَّ عليه.

(٥٢) ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن، المسارعين إلى الكفران: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ من غير شك ولا ارتياب ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ معاندة للّه ولرسوله؛ لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

(٥٣) ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: فإن شككتم بصحته وحقيقته؛ فسنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن منزلاً من عند اللّه عز وجل، على رسوله ﷺ، بدلائل خارجية ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات اللّه، وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين، ونصر المؤمنين ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ من تلك الآيات بيانًا لا يقبل الشك ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ وما اشتمل عليه حق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة اللّه تعالى؛ فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصرًا متضمنًا لشهادته القولية عند من شك فيها.

(٥٤) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا؛ فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ علمًا وقدرة وعزة.

* * *


الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

٤٨٣

سورة الشورى
مكية

(١-٢) ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ كما أوحى إلى مَنْ قبله من الأنبياء والمرسلين ﴿ٱللَّهُ لِقَآءَ رَبِّهِمۡۗ﴾ وهو تنزيل من اتصف بالألوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة.

(٤) ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه، وتحت تدبيره القدري والشرعي، وأنه ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته وقدره وقهره ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي من عظمته.

(٥) ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ على عظمها وكونها جماداً ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون اللّٰه ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

(٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل اللّٰه ﴿قُرۡءَانًا

(٧) أخرج الترمذي والنسائي في «الكبرى» وأحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان». فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا، فقال: للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً». ثم قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا». فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله، إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: «سددوا وقاربوا؛ فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل =

عَرَبِيًّا﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق ﴿وَتُنذِرَ﴾ الناس ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ الذي يجمع اللَّه به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا باللَّه، وصدقوا المرسلين ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

(٨) ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ جعل الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الهدى؛ لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه، ﴿وَ﴾ أما ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فـ ﴿مَا لَهُم﴾ من دون اللَّه ﴿مِّن وَلِيٍّ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه.

(٩) يقول تعالى منكرًا على المشركين اتخاذهم آلهة من دون الله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أقبح غلط ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

(١٠) ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أصول

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٨٤

دينكم وفروعه مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرد إلى كتابه وإلى سنة رسوله، فما حكما به؛ فهو الحق، وما خالف ذلك؛ فباطل ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر؛ فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

(١١) ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية،

= النار، وإن عمل أي عمل». ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما، ثم قال: «فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير».

ويحصل لكم من النفع ما يحصل ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ ومن جميع أصنافها نوعين: ذكراً وأنثى؛ لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يبثكم ويكثركم ويكثر مواشيكم، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ يرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدًّا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

(١٢) ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء حتى يكون بقدر حاجته لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أحوال عباده، فيعطي كلًّا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

(١٣) ثم ذكر الله تعالى أكبر منَّة أنعم بها على عباده، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها؛ دين الإسلام ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ الذي شرعه اللّه للمصطفين المختارين من عباده، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، وتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً، مع اتفاقكم على أصل دينكم ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص للّه وحده ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته؛ ومنه: أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذي من العبد يتوصل به إلى هداية اللّه تعالى؛ وهو: إنابته لربه.

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ إن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل اللّه عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا

مثلهم ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب القاضي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ الذين ورثوهم وصاروا خلفاً لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً، فإن خلفهم اختلفوا شكّاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

(١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾ لدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل اللّه به كتبه، وأرسل رسله، فادع إليه أمتك، وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ بنفسك ﴿كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ استقامة موافقة لأمر اللّه ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى اللّه، أو بترك الاستقامة ﴿وَقُلۡ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أي: صدّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾ هو رب الجميع، لستم بأحق به منا ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ من خير وشر ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ بعد ما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

٤٨٥

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يوم القيامة، فيجزي كلاً بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب. قال العلماء: اشتملت هذه الآية على عشر كلمات مستقلات، كل منها برأسه، ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها عشرة فصول كهذه.

(١٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما استجاب للّه أولو الألباب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ باطلة مدفوعة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لأنها مشتملة على رد الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن

حجج اللّه وبيناته وتكذيبها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو أثر غضب اللّه عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

(١٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ فالكتاب هو: هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وأما الميزان؛ فهو: العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله اللّه تعالى ووضعه بين عباده؛ ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، ثم قال تعالى مخوفًا للمستعجلين لقيام الساعة، المنكرين لها، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عناداً وتكذيباً ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون؛ لإيمانهم بها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: بعد ما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها ﴿لَفِى﴾ فهم في ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾يخبر تعالى بلطفه بعباده؛ ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده -وخصوصاً المؤمنين- إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافًا كثيرة، ومع ذلك؛ فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾بأن كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ من الشرك والبدع وتحريم ما أحل اللّه، وتحليل ما

---

(١٨) في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له النبي ﷺ نحواً من صوته: «هاؤم» فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحكم إنها كائنة، فما أعددت لها؟» قال: حبّ الله ورسوله. ، فقال: «أنت مع من أحببت».

حرم اللَّه، ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لولا الأجل المسمى الذي ضربه اللَّه فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه؛ لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل؛ لأن المقتضي للإهلاك موجود ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

(٢٢) وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين وجلين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أن يعاقبوا عليه ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ العقاب الذي خافوه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم باللَّه وبكتبه ورسله وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فهؤلاء ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة وما فيها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الفوز العظيم، والنعمة التامة.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

نصف الحزب ٤٩ — ع

٤٨٦

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه البشارة العظيمة التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح؛ فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لا أسألكم عليه أجراً، إلا أجراً واحداً

---

(٢٣) أخرج أحمد والطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أتاه رجل فسأله المعنى عن قوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قرابة محمد ﷺ. قال ابن عباس: عجلت، إن رسول الله ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة، قال: فنزلت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم.

هو لكم، وعائد نفعه إليكم؛ وهو: أن تودوني وتحبوني في القرابة؛ أي: لأجل القرابة ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأن يشرح اللّه صدره، وييسر أمره، وتكون سببًا للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند اللّه وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة، ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير؛ فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبًا: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على اللّه؛ بادعاء النبوة، والنسبة إلى اللّه ما هو بريء منه ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئاً، ولا يدخل إليه خير ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: ومن حكمته أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات؛ فإن عاقبته الاضمحلال ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بحججه وبراهينه الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبته في القلوب، وتبصر أولي الألباب ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكنته ولم تبده.

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾هذا بيان لكمال كرم اللّه -تعالى- وسعة جوده، وتمام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم، ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن اللّه يقبلها بعد ما انعقدت سبباً للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا اللّه، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبون دعوته؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا

(٢٥) في «الصحيحين» من حديث أنس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح».

استجابوا له، شكر اللّه لهم، وهو الغفور الشكور.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ توفيقاً ونشاطاً على العمل، ومضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأما غير المستجيبين لله، وهم: المعاندون الذين كفروا به وبرسله؛ ف ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

(٢٧) ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لغفلوا عن طاعة اللّه، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فهو أعلم بذلك؛ فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالاً، فينزل اللّه الغيث ﴿وَيَنشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون بذلك ويفرحون ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

(٢٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ومن أدلة قدرته العظيمة وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها اللّه مصالح ومنافع لعباده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ يخبر تعالى: أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم، وفيما يحبون ويكون عزيزًا عليهم؛ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ وأن ما يعفو اللّه عنه أكثر.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: معجزين قدرة اللّه عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه اللّه فيكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم

(٣٠) أخرج الشيخان من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي، بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا همٍّ، ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها».

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٤٨٧

المضار.

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ من السفن والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من النظام الأمواج، وجعلها تحملكم، وحمل أمتعتكم الكثيرة، إلى البلدان البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

(٣٣) ثم نبَّه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي جعلها اللَّه سبباً لمشيها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ الجوار ﴿رَوَاكِدَ﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في تسخير البحر وإجرائه الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لدلالات على نعمه -تعالى- على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء.

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن ويغرقهن ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ بما كسبت ركبانها من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من ذنوبهم فلا يعاقب عليها.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ليبطلوها بباطلهم ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

(٣٦) ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لذة منغصة منقطعة ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه، ولا كدر، ولا انتقال ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو: الاعتماد بالقلب على اللَّه في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه، مع الثقة به تعالى.

(٣٧) ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ والفرق بين الكبائر والفواحش -مع أن جميعهما كبائر- أن الفواحش؛ هي: الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر؛ فإن الآخر يدخل فيه ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله؛ كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ انقادوا لطاعته ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب، ونحوهم، والمستحبة؛ كالصدقات على عموم الخلق ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ وصل إليهم من أعدائهم ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

(٤٠) ثم ذكر اللَّه تعالى: مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم:

فمرتبة العدل: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يجزيه أجراً عظيماً، وثواباً كثيراً، وشرط اللَّه في العفو الإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته؛ فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به.

وفي جَعْلِ أجر العافي على اللَّه ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله اللَّه به، فكما يحب أن يعفو اللَّه عنه؛ فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه اللَّه؛ فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم.

(٤١) ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ لا حرج عليهم في ذلك.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

(٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق

(٣٩) في «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂ : «أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله».

(٤١) أخرج أحمد والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عروة؛ قال: قالت عائشة ﵂ : ما علمت حتى دخلت عليّ زينب بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر ذريعتيها، ثم أقبلت علي؛ فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها، فما ترد علي بشيء، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه.

(٤٢) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ﵁ قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا؛ فعلى البادئ، ما لم يعتد المظلوم».

(٤٣) أخرج أبو داود وأحمد حديث أبي هريرة الصحيح: أن رجلًا شتم أبا بكر، والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله؛ فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر ﵁ فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددتُ عليه بعض قوله غضبتَ وقمتَ! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه
=

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٤٩

﴿وَغَفَرَ﴾ لهم؛ بأن سمح لهم عما يصدر منهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: لمن الأمور التي حث اللَّه عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يُلَقَّاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة.

(٤٤) ثم أخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، ﴿وَ﴾أنه ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يتولى أمره ويهديه ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ مرأى ومنظراً فظيعاً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، و﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

(٤٥) ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً من هيبتها وخوفها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ حيث ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ على الحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ في سوائه ووسطه، منغمرين، لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما كانوا في الدنيا يمنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب اللَّه لم يدفع عنهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

(٤٧) ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يأمر تعالى عباده

= بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان» ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله؛ إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة؛ إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة؛ إلا زاده الله بها قلّة».

بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك، وعدم التسويف، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عما جئتهم به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فإذا أديت ما عليك، فقد وجب أجرك على اللّه، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على اللّه الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ذكر تعالى في هذه الآية حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه اللّه رحمة من صحة بدن ورزق رغد وجاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾؛ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مرض أو فقر أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الذنوب والخطايا ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

(٤٩) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى من عمومه أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد ، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فاللّه تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ فمن الخلق من يهب له إناثاً، ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ ومنهم من يهب له ذكوراً ،

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ ومنهم من يزوجه: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء؛ فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته.

(٥١) ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب اللّه عز وجل وأنه يكون على أحد هذه الأوجه: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إما أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ وَحْيًا؛ بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهًا ﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهًا، لكن ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران: كليم الرحمن ﴿أَوْ﴾ يكلمه اللّه بواسطة الرسول الملكي؛ ف ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾ بإذن ربه لا بمجرد هواه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيٌّ﴾ أي: عليُّ الذات، عليُّ الأوصاف عظيمها، عليُّ الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ
وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ
وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)

سُورَةُ الزُّخْرُفِ — مكية — آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا
لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى
ٱلْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
(٧) فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ
(٨) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)

(٥٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه: روحاً؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، ﴿وَلَـٰكِن﴾ جاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تبينه لهم وتوضحه، وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه.

(٥٣) ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الصراط الذي نصبه اللَّه لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ ترجع جميع أمور الخير والشر؛ فيجازي كُلًّا بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

سورة الزخرف مكية

(١) ﴿حمٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن؛ فأقسم بالكتاب المبين وأطلق؛ ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد، من أمور الدنيا والدين والآخرة.

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه: أنه جُعِلَ بأفصح اللغات، وأوضحها، وأبينها، وهذا من بيانه ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

(٤) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: هذا الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لَعَلِىٌّ﴾ في قدره وشرفه ومحله ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا

ينزل كتابًا، ولو كانوا مسرفين ظالمين، فقال:

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ ومعناه: أفنترك عنكم الوحي ونُمسك عن إنزال القرآن، فلا نأمركم ولا ننهاكم ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؛ أي: من أجل أنكم أسرفتم- أي تجاوزتم الحد - في كفركم وشرككم؟

(٦) ثم قال تعالى - مُسَلِّيًا لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه، وآمرًا له بالصبر عليهم-: يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق: أن لا نتركهم هملاً ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في شيع الأولين.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يُكذِّبونه ويسخرون به.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ﴾ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾ قوة وأفعالاً وآثاراً في الأرض ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مضت أمثالهم وأخبارهم، وبينا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

(٩) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يخبر تعالى عن المشركين: أنك لو سألتهم ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ الله وحده لا شريك له ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي دانت لعزته جميع المخلوقات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك.

(١٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مهدها وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في

سورة الزخرف — الجزء الخامس والعشرون

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

٤٩٠

السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادّكار فيه.

(١١) ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ لا يزيد ولا ينقص، ويكون بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أحييناها بعد موتها، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعد ما تستكملون في البرزخ؛ ليجازيكم بأعمالكم.

(١٢) ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون: من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ السفن البحرية الشراعية والنارية ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البر والبحر.

(١٣) ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، لتستقروا عليها ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذللها ويسر أسبابها.

(١٤) ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ لراجعون إليه بعد مماتنا.

(١٥) ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفوًا أحد ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ جحود لنعم الله ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكفران.

(١٦) ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ وهذا استفهام توبيخ وإنكار.

(١٧) ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من كراهته وشدة بغضه، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ من الحزن والغيظ، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

(١٨) ثم قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: المرأة ناقصة، يكمل نقصها بلبس الحُلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا يُنسب إلى جناب الله تعالى.

(١٩) ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾؛ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله تعالى إناثًا ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾؛ أي: بذلك ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ وعن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً: فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه. وأما شرعًا؛ فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به، المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون ويتقولون.

(٢١) ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ

(١٣ و١٤) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً رضي الله عنه أتى بدابة، فلما وضع رجله في الركاب؛ قال: «بسم الله» فلما استوى عليها قال: «الحمد لله» ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي؛ فاغفر لي» ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين، فقال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال: «يعجب الرب من عبده؛ إذا قال: رب! اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري».

﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك؛ فإن الله أرسل محمداً ﷺ نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره.

(٢٢) ثم ذكر الله تعالى شبهة من شبههم الواهية، فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين وملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

(٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ منعموها وملأها الذين أطغتهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا على الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

(٢٤) ﴿قَٰلَ﴾ محمد ﷺ لهؤلاء المشركين ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فعلم بهذا: أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

(٢٥) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم؛ فيصيبهم ما أصابهم.

(٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ مبغض له، مجتنب، مُعادٍ لأهله.

(٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي؛ فـ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لما

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف — الحزب ٥٠

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٤٩١

يصلح ديني وآخرتي.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ هذه الخصلة الحميدة: التي هي أم الخصال وأساسها، وهي: إخلاص العبادة لله وحده، والتبرِّي من عبادة ما سواه ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الرسالة، قامت أدلة رسالته قيامًا باهرًا، بأخلاقه ومعجزاته،

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبنفس دعوته ﷺ.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق، وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

(٣١) ﴿وَقَالُوا۟﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ من أهل مكة أو أهل الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ معظم عندهم ومبجل.

(٣٢) قال الله ردًّا لاقتراحهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال والحرف والصنائع ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ لك ولأتباعك من المؤمنين ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمع هؤلاء الكفار من الأموال.

(٣٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض؛ لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً؛ لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ درجاً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ على سطوحهم.

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ أغلاقاً على أبوابهم من فضة ﴿وَسُرُرًا﴾ وجعلنا لهم سرراً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾.

(٣٥) ﴿وَ﴾ لجعل لهم ﴿زُخْرُفًا﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون من الذهب، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده؛ لئلا يتسارعوا في الكفر، وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا ﴿وَإِن كُلُّ

(٣٥) أخرج مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر؛ فيطعم بحسنته ما عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها».

ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ منغصة مكدرة فانية ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ﴾ وأن الآخرة عند الله تعالى خير ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

(٣٦) ﴿وَمَن يَعۡشُ﴾ يعرض ويصد ﴿عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ قيَّض له الرحمن شيطاناً مريداً ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزًا.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الصراط المستقيم والدين القويم ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ إذا جاء ربه في الآخرة ﴿قَالَ﴾ الكافر لقرينه الشيطان ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ بعد ما بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ بئس القرين كنت لي في الدنيا.

(٣٩) ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ لا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم، وذلك؛ لأنكم اشتركتم في الظلم؛ فاشتركتم في العذاب والعقاب.

(٤٠) يقول تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الذين لا يسمعون ﴿أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ الذين لا يبصرون ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يقول تعالى: أو تهدي من كان في ضلال بَيِّنٍ واضح؛ لعلمه بضلاله، ورضاه به.

(٤١) ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فاعلم بخبرنا الصادق أنا منهم منتقمون.

(٤٢) ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره، فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.

(٤٣) ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ فعلاً واتصافاً، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه في نفسك وفي غيرك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر، ويرهبكم عنه ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ عنه: هل قمتم به؛ فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به؛ فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة؟

(٤٥) ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله، مع أن كل

(٤٤) أخرج البخاري عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين».

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ فدل هذا أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم.

(٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فدعاهم إلى الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ردوها وأنكروها، واستهزأوا بها ظلماً وعلوًا.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ الآية المتأخرة أعظم من السابقة ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإسلام، ويذعنون له؛ ليزول شركهم وشرهم.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يعنون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا: إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً؛ فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم؛ وهم السحرة، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بما خصك اللَّه به، وفضلك به من الفضائل والمناقب؛ أن يكشف عنا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف اللَّه عنا ذلك.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ لم يوفوا بما قالوا.

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ﴾ مستعلياً بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ ألست المالك لذلك، المتصرف فيه ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ الأنهار المنسحبة من النيل في وسط القصور والبساتين ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك الطويل العريض وهذا من جهله البليغ؛ حيث افتخر أمر خار ج عن ذاته.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحتقر، فأينا خير؟ ﴿وَ﴾ مع هذا فا﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ عما في ضميره بالكلام؛ لأنه ليس بفصيح اللسان.

(٥٣) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ فهلاً كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً مجملاً بالحلي والأساور؟ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ استخف

عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق، ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فبسبب فسقهم؛ قيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

(٥٥) ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا بأفعالهم ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فرعون وهامان وجنودهما.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

(٥٧) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾ من أجل هذا المثل المضروب ﴿يَصِدُّونَ﴾ يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم وأفلجوا.

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على مَنْ عبدهم عندما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾: ما جعلوه؛ أي: المثل لك إلا خصومة بالباطل؛ لعلمهم: أن (ما) لغير العاقل؛ فلا يتناول عيسى عليه السلام ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾: أي: شديدو الخصومة ووجه حجتهم الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد: أن عيسى من عباد اللّه المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض. وهي من أضعف الشبه وأبطلها؛ فإن تسوية اللّه بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام؛ لأن العبادة حق للّه تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأي شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟

(٥٧) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن أبي إمامة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه؛ إلا أورثوا الجدل» ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

(٥٧ - ٦١) أخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن حبان والطحاوي في «مشكل الآثار» بإسناد حسن عن ابن عبَّاس قال: لقد علِّمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها النَّاسُ؛ فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها؛ فيسألوا عنها؟ ثمَّ طفق يحدثنا، فلمَّا قام؛ فلاومنا أن لا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلمَّا راح الغد؛ قلت: يا ابن عبَّاس، ذكرت أمس أنَّ آيةً سن القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس؛ فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها، وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم إنَّ رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحدٌ يُعبد من دون الله فيه خيرٌ» وقد علمت قريشٌ أنَّ النَّصارى تعبد عيسى ابن مريم وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد ،ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبداً من عباد الله صالحاً، فلئن كنت صادقاً؛ فإنَّ آلهتهم لكما تقولون. قال: فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: قلت: ما يصدون؟ قال: يَضِجُّون ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة.


سُورَةُ الزُّخْرُفِ — الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

٤٩٤

(٥٩) وإنما هو كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والحكمة، والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعرفون به قدرة اللّه تعالى على إيجاده من دون أب.

(٦٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة اللّه بكم أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام؛ سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكن في قيام الساعة؛ فإن الشك فيها كفر ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى اللّه عز وجل.

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عما أمركم اللّه به؛ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك ﴿مُّبِينٌ﴾ قد أبان لكم عداوته.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكمِّلاً ومتمِّماً لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ اعبدوا اللّه وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعون.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن اللّه هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة اللّه وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه عبد من عباد اللّه.

(٦٥) ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ كلٌّ قال بعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى اللّه من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد اللّه ورسوله ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ ما أشد حزن الظالمين، وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم.

(٦٦) ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ غافلون عنها غير مستعدين لها.

(٦٧) ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾المتخالين على الكفر والتكذيب ومعصية اللّه﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ يوم القيامة ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير اللّه، فانقلبت يوم القيامة عداوة ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي؛ فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله.

(٦٨) ثم ذكر ثواب المتقين، وأن اللّه تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر؛ فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها.

(٦٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وصفهم الإيمان بآيات اللّه، وذلك ليشمل التصديق بها، وما لا يتم التصديق إلا به من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ للّه منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

(٧٠) ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ من كان على مثل عملكم من كل مقارن لكم: من زوجة وولد وصاحب وغيرهم ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تنعمون وتكرمون.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها؛ وهي: صحاف الذهب، وشرابهم، بألطف الأواني؛ وهي: الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة، أعظم من صفاء القوارير.

﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها.

(٧٢) ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أورثكم اللّه إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

---

(٧٢) أخرج ابن أبي حاتم - واللفظ له - وأحمد والحاكم بإسناد حسن عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله في الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]، وكل أهل الجنة يرى منزله في النار، فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ الأعراف: ٤٣] فيكون له شكراً». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمنَ منزله في النار، والمؤمن يرث الكافرَ منزله في الجنة؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾».

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

٤٩٥

(٧٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ من جميع الأنواع ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون.

(٧٤) ولما ذكر نعيم الجنة عقبه بذكر عذاب جهنم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب ﴿خَٰلِدُونَ﴾ فيه، لا يخرجون منه أبداً.

(٧٥) ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة؛ بإزالته، ولا بتهوين عذابه ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير، غير راجين للفرج.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، واللّه لم يظلمهم، ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

(٧٧) ﴿وَنَادَوْا۟﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. فـ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو اللّه لهم أن يقضي عليهم-: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ مقيمون فيها.

(٧٨) ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه، فلو تبعتموه؛ لفزتم وسعدتم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

(٧٩) ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ أي: أبرم هؤلاء المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْرًا﴾ كادوا كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق؛ ليدحضوه بما موَّهوا من الباطل المزخرف المزوق ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون أمراً، ومدبرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله.

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ كلامهم الخفي الذي يتناجون به؛ أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها، ولا مجازاة على ما خفي منها. فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إنا نعلم سرهم

---

(٧٧) أخرج البخاري ومسلم عن صفوان بن يعلى عن أبيه رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم حتى يَردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

(٨١) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول الكريم للذين جعلوا للّه ولداً: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقياداً للأمور المحبوبة للّه، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً.

(٨٢)﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والظهير والعوين والولد، وغير ذلك؛ مما نسبه إليه المشركون.

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ يخوضوا بالباطل، ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة؛ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

(٨٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ يخبر تعالى: أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض؛ فأهل السماوات كلهم والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله ويفتقرون لكماله. وأما هو؛ فهو فوق عرشه بذاته، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

وبهذا؛ فالآية لا حجة فيها لدعاة الحلول والقائلين بوحدة الوجود، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك بمعنى: تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه؛ ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته: أنه مالك الدنيا والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة؛ فيحكم بينكم بحكمه العدل.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كل من دعي من دون اللّه من الأنبياء والملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن اللّه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ نطق بلسانه، مقرًّا بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة للّه تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة.

(٨٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق؛ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لأقروا أنه اللّه وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن عبادة اللّه والإخلاص له وحده؟!

(٨٨) ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وعنده علم قيله؛ اي: الرسول ﷺ، شاكيًا لربه تكذيب قومه متحزنًا على ذلك، متحسرًا على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معالجتهم بالعقوبة،

الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

سُورَةُ الدُّخَانِ — مكية — آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

نصف الحزب ٥٠

٤٩٦

ولكنه تعالى حليم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون ولهذا قال:

(٨٩) ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غِبَّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

سورة الدخان
مكية

(١) ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه ، أما جواب القسم، فقوله:

(٣) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي: ليلة القدر ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً؛ لتقوم حجة الله على عباده ﴿فِيهَا﴾ في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم اللَّه به، وهذه الكتابة والفرقان، الذي يكون في ليلة القدر، أحد الكتابات التي تكتب وتميز؛ فتطابق الكتاب الأول الذي كتب اللَّه به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم.

(٥) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسل، ومنزلين للكتب، والرسل تبلغ أوامر المُرسِل، وتخبر بأقداره.

(٦) ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إن إرسال الرسل، وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم اللَّه عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة؛ فإنه من أجل ذلك وسببه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ يسمع جميع الأصوات﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ويعلم جميع الأمور، الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه؛ فرحمهم

(١) في «الصحيحين» في حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خبأت لك خبئاً» . قال: هو الدُّخ؛ فقال ﷺ: «اخسأ، فلن تَعْدوَ قَدْرَك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

بذلك وَمَنَّ عليهم.

(٧) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما شاء ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق.

(٨) ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا وجهه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم؛ فيجزيكم بعملكم: إن خيراً فخير، وإن شرًّا؛ فشر ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ رب الأولين والآخرين مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

(٩) ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

(١٠) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر فيهم العذاب؛ فإنه قد قرب، وآن أوانه ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن واضح، يراه كل أحد.

وقد اختلف السلف في حقيقة هذا الدخان:

فقالت طائفة: إن الدخان مضى، وهذا قول عبد الله بن مسعود، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، وأبي العالية، والضحاك. واختاره ابن جرير. وقالت أخرى: لم يمض الدخان بعدُ، بل هو من أمارات الساعة الكبرى. وهذا قول حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، ووافقه جماهير الصحابة والتابعين.

والمختار: أن الدخان من الآيات الكبرى لمجيء الساعة؛ ففيه أحاديث مرفوعة في الصحاح والحسان وغيرهما، ويؤيده ظاهر القرآن.

ومن المعلوم: أن الجمع بين قولي السلف ممكن، فالدخان الذي مضى غير الدخان الذي سيأتي قبيل الساعة، والله أعلم.

(١١) ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٢) وقوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب

(١٠ - ١٦) في «الصحيحين» واللفظ لمسلم عن مسروق قال: جاء إلى عبد الله رجلٌ؛ فقال: تركت في المسجد رجلًا يفسر القرآن برأيه، يفسر هذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: يأتي النَّاس يوم القيامة دخانٌ؛ فيأخذ بأنفاسهم، حتَّى يأخذهم منه كهيئة الزكام، فقال عبد الله من علم علمًا؛ فليقل به، ومن لم يعلم؛ فليقل: الله أعلم، فإنَّ من فقه الرَّجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم. إنما كان هذا: أنَّ قريشا لمَّا استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهدٌ، حتَّى جعل الرجل ينظر إلى السماء؛ فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، وحتى أكلوا العظام، فأتى النَّبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، استغفر الله لمضر؛ فإنهم قد هلكوا. فقال: «لمضر ؟! إنَّك لجريء». قال فدعا الله لهم؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ . قَالَ: فَمُطِرُوا، فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ قَالَ: عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعني: يوم بدرٍ.

وفي «صحيح مسلم» من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه؛ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو: تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا».

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

اللّه وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم.

(١٣) ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يقول: كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيِّن الرسالة والنذارة.

(١٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ﴾؛ أي: يعلمه بشر ﴿مَّجْنُونٌ﴾ أي: به جنة ومس من الشيطان.

(١٥) وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا؛ لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب. والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الضلال.

(١٦) ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يوم وقعة بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منكم لطغيانكم وكفركم.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ ابتليناهم واختبرنا قبلهم قوم فرعون، وهم قبط مصر، بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم.

(١٨) ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد اللّه؛ يعني بهم: بني إسرائيل، أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي، وأفضل العالمين في زمانهم. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من رب العالمين ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص.

(١٩) ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد اللّه ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بينة ظاهرة.

(٢٠) ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي: تقتلوني أشر القتلات، بالرجم بالحجارة.

(٢١) ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: فإن لم تصدقوني؛ فاتركوني، لا عليَّ ولا لي، فاكفوني شركم، فلم يزالو متمردين عاتين على اللّه، محاربين لنبيه موسى عليه السلام، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل.

(٢٢) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ قد أجرموا جرماً يوجب تعجيل العقوبة.

(٢٣) ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ فأمره اللّه أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره: أن فرعون وقومه سيتبعونه.

(٢٤) ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ بحاله، وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل؛ كما أمره اللّه، ثم تبعهم فرعون، فأمر اللّه موسى: أن

يضرب البحر، فضربه؛ فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة؛ فسلكه موسى وقومه، فلما خرجوا منه، أمره اللَّه أن يتركه رهواً؛ أي: بحاله؛ ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم فرعون داخلين فيه؛ أمره اللَّه تعالى أن يلتطم عليهم؛ فغرقوا عن آخرهم ، وأورثه اللَّه بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم.

(٢٥) ولهذا قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ بعد الغرق ﴿مِن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين وأشجار ﴿وَعُيُونٍ﴾ المراد بها الأنهار والآبار.

(٢٦) ﴿وَزُرُوعٍ﴾ فما هو دون الأشجار﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المساكن الأنيقه والأماكن الحسنة.

(٢٧) ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ عيشة لينة، ومتعة حسنة ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما يشاءون، ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والحكم في البلاد.

(٢٨) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أفعل بمن عصاني ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: بني إسرائيل.

(٢٩) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لم يحزن عليهم، ولم يؤس على فراقهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ممهلين عن العقوبة.

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي كانوا فيه.

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ إذ يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ مستكبراً في الأرض بغير الحق ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين لحدود اللَّه، المتجرئين على محارمه.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمي زمانهم، ومن قبلهم وبعدهم، حتى أتى اللَّه بأمة محمد ﷺ؛ ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم اللَّه خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الباهرة، والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ إحسان كثير ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين ﴿لَيَقُولُونَ﴾ مستبعدين للبعث والنشور:

(٣٥) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ ما هي إلا الحياة الدنيا، فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار.

(٣٦) ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأيَّ ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به، وتواترت تواتراً عظيماً من كل وجه.

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾؛ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمْ

---

(٣٧) أخرج أحمد وغيره من حديث سهل بن سعد الساعدي الصحيح لغيره عن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

وأخرج الطبري والحاكم بإسناد صحيح عن عائشة قالت: «لا تسبوا تبعاً؛ فإنه كان رجلًا صالحاً».

الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الجَاثِيَة — مكية — آياتها ٣٧

٤٩٨

قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الحميري، وكان ملكه عظيماً، ودان بدين الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فإنهم، ليسوا خيراً منهم، وقد اشتركوا في الإجرام؛ فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولا لهواً أو سدى من غير فائدة.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأنه ما خلقهما إلا بالحق؛ أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض.

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل اللّه به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلفين ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾ الخلائق ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ كلهم سيجمعهم اللّه فيه، ويحضرهم، ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها، ولا ينفع مولى عن مولى شيئاً. ولا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب اللّه عزّ وجلّ؛ لأن أحداً من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً.

(٤٢) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ من المؤمنين؛ فإنه يشفع بعضهم ببعض ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه، وأهل طاعته.

(٤٣) لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه، ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم: الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، ثم ذكر طعامهم، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ شر الأشجار وأفظعها.

(٤٤) ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ ذي الإثم.

(٤٥) وأن طعمها ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾؛ أي: كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ شديد الحرارة يغلي في بطونهم.

(٤٦) ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كالماء إذا اشتد غليانه.

(٤٧) ﴿خُذُوهُ﴾ يقال للزبانية: خذوا الكافر ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ سوقوه بعنف، سحباً ودفعاً على ظهره ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وسطها.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ

﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج ١٩-٢٠].

(٤٩) ويقال للمعذَّب: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ بزعمك أنك عزيز ستمتنع من عذاب اللَّه، وأنك كريم على اللَّه لا يصيبك بعذاب، فاليوم تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس.

(٥٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب العظيم ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون؛ فالآن صار عندكم حق اليقين.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ أي: إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا، فآمنوا وعملوا الصالحات، بعد اجتناب الشرك والمعاصي، في مجلس آمنين، لا يلحقهم فيه خوف بحال.

(٥٢) ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ في ظل ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه ﴿وَعُيُونٍ﴾ سارحة تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم.

(٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾؛ أي: غليظ الحرير ورقيقه، مما تشتهيه أنفسهم ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قلوبهم ووجوههم، في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة والآداب المستحسنة.

(٥٤) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ﴾ نساء جميلات ﴿عِينٍ﴾ ضخام الأعين، حسانها.

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة ﴿ءَامِنِينَ﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها، والموت.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ مع هذا النعيم المقيم قد وقاهم وسلَّمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم، في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب، ولهذا قال:

(٥٧) ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ حصول النعيم، واندفاع العذاب عنهم، من فضل اللَّه عليهم وكرمه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وأيّ فوز أعظم من نيل رضوان اللَّه وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

(٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها؛ فتيسر به لفظه، وتيسر معناه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

(٥٩) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بهم من العذاب.

---

(٥٦) أخرج مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا؛ فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا؛ فلا تموتوا أبداً، وأن لكم أن تنعموا؛ فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبّوا؛ فلا تهرموا أبداً».



سورة الجاثية مكية

(١) ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

(٢) يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، وأنه ﴿تَنزِيلُ﴾ نزل به الروح الأمين ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المألوه المعبود بحق؛ لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي له العزة الكاملة، والحكمة التامة.

(٣) ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة، التي خلق بها السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات المختلفة: من الملائكة والإنس، والجن، والدواب، والطيور، وغيرها، وما في البحر من الأصناف المتنوعة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ يتفكرون بها وينتفعون ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وملائكته ورسله، إيماناً تامًّا، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وعلومهم.

(٤) ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون أنه لا إله غيره.

(٥) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي: وما أنزل الله من السحاب من المطر وقت الحاجة إليه وسماه رزقًا، لأن به يحصل الرزق ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ جنوباً وشمالاً، برية وبحرية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال سبحانه وتعالى أولاً: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى.

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ متضمنة الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٧) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كذاب في مقاله أثيم في فعاله.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره وجحوده؛ استكبارًا وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً

الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّقَوْمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

٤١٨ — ٥٠٠

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به.

(١٠) ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ من الأموال ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يستنصرون بهم، فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، وكيف والعظيم سبحانه وصفه بأنه عظيم.

(١١) ﴿هَٰذَا هُدٗى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن؛ فإنه يهدي إلى معرفة اللَّه تعالى، ويهدي إلى معرفة رسله، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة، وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الواضحة القاطعة التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو المؤلم الموجع.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ يخبر تعالى بفضله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللَّه تعالى؛ فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا مِّنْهُ﴾ من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولِمَا أودع اللَّه فيهما من الشمس والقمر، والكواكب الثوابت والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يستخدمون عقولهم، فيتفكرون في وجود هذه المخلوقات ومن أوجدها.

(١٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام اللَّه؛ أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون.

فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم ثواباً جزيلاً.

(١٥) وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ بين الناس ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أكثرهم من بني إسرائيل ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة؛ فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

(١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ آتينا بني إسرائيل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: الموجب لعدم الاختلاف ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ لا ينفعونك عند الله؛ فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

(٢٠) ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس؛ فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ﴾ في الدنيا والآخرة؟ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به.

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ثم يجازي بعد ذلك مَنْ أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

٤٩

والباطنة، هل شكروا اللَّه تعالى، وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

(٢٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فما هويه سلكه، سواء كان يرضي اللَّه أو يسخطه ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من اللَّه تعالى أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع ما ينفعه ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعي الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ لا أحد يهديه، وقد سدّ اللَّه عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم؛ فتسلكونه، وما يضركم؛ فتجتنبونه.

(٢٤) ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: منكرو البعث: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، ومن مات فليس براجع إلى اللَّه، ولا مجازيه بعمله. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم على ذلك، ولا برهان.

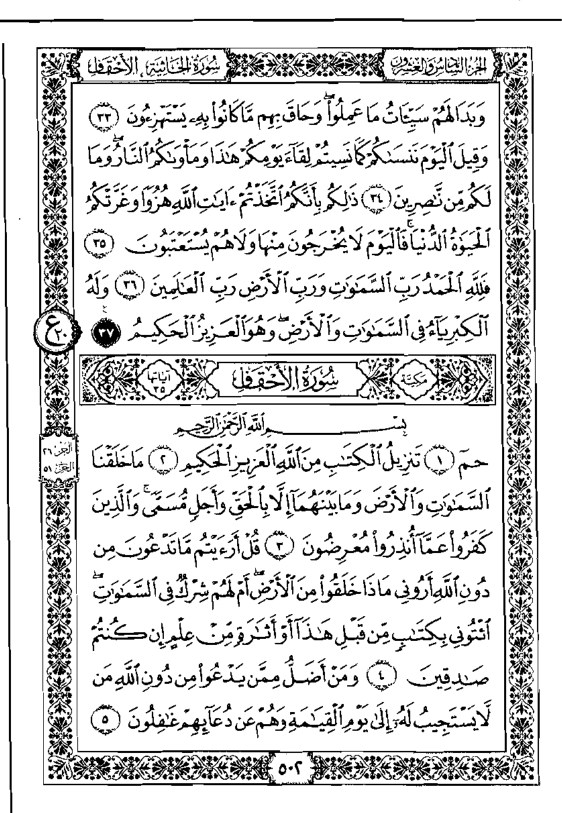
(٢٥) ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إن هي إلا ظنون واستبعادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إذا استدل عليهم وبُيِّن لهم الحق، وأن اللَّه قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أحيوهم إن كان ما تقولونه حقًّا.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم؛ لعملوا له أعمالاً وتهيئوا له.

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات ﴿وَ﴾ أنه ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يجمع الخلائق لموقف القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يحصل الخسار على المبطلين الذين أتوا بالباطل؛ ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة؛ لأنها

(٢٣) أخرج النسائي في «التفسير» والحاكم في «المستدرك» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه؛ رمى به، وعبد الآخر».

(٢٤) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم: يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر: أقلب ليله ونهاره».


الجزء السادس والعشرون — سورة الجاثية، الأحقاف

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سورة الأحقاف — مكية — آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

٥٠٢

متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة.

(٢٨)﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ على ركبها، خوفاً وذعرًا، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ المفاز والنجاة والربح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

(٣١) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله؛ فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو وفقتم لها ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فجنيتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضًا بقوله:

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم﴾ منكرين لذلك: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ لا نعرفها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ إن نتوهم وقوعها إلا توهماً مرجوحاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ بمتحققين فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، ورد قول من جاء به. قال تعالى:

(٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل ﴿مَّا

(٣٠) أخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «تحاجَّت الجنَّةُ والنَّار، فقالت النَّار: أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنَّة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء النَّاس وسقطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنَّة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنَّار: إنَّما أنت عذابٌ أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأمَّا النَّار فلا تمتلىء حتَّى يضع رجله؛ فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعضٍ، ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحدًا، وأمَّا الجنَّة؛ فإنَّ الله ﷻ ينشئ لها خلقاً».

كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه وبمن جاء به.

(٣٤) ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نتركلكم في العذاب ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هي مقركم ومصيركم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

(٣٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها؛ فاطمأننتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

(٣٦) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

(٣٧) ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له الجلال والعظمة والمجد ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

سورة الأحقاف
مكية

(١) ﴿حمٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في فواتح سورة البقرة.

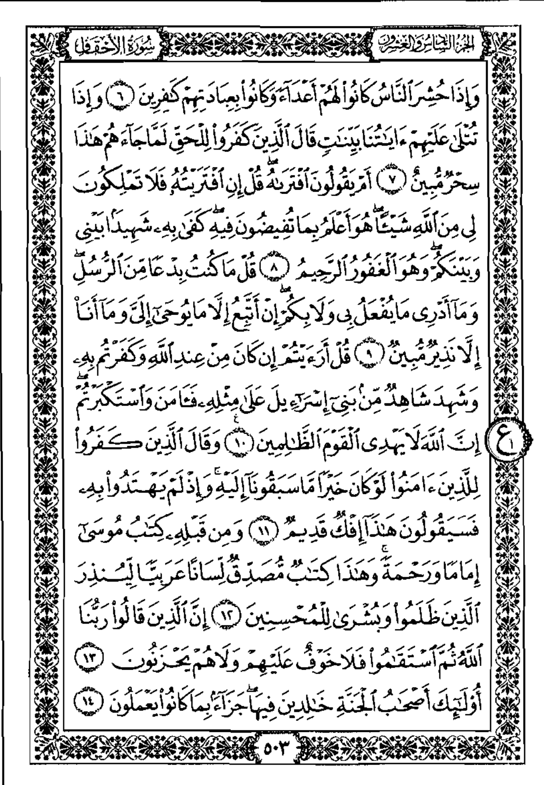
(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾هذا ثناء منه تعالى على كتابه وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يرام ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في أقواله وأفعاله.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا

---

(٣٤) في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة، قالوا: لا. قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة» قالوا: لا. قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم؛ إلا كما تضارون في رؤية أحدهما». قال:« فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ، ألم أكرمْكَ، وأسوِّدك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنَّك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب، آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذًا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: مَنْ ذا الذي يشهد عليَّ؛ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه، بعمله وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه».

(٣٧) أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: العز إزاري، والكبرياء ردائي؛ فمن نازعني واحداً منهما؛ عذبته».



﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لا عبثًا، ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما- على عظمهما - قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ مدة معينة مضروبة، لا تزيد ولا تنقص.

فلما أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل، وانار السبيل، أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضًا عن الحق، وصدوفًا عن دعوة الرسل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ .

(٤) ﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السماوات والأرض ، وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا لله عَزَّوَجَلَّ فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند انفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم.

(٥) ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لا أضل ممن يدعون من دون الله أصنامًا، ويطلب ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم.

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ على المكذبين ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ بحيث تكون على وجه لا يمترى بها، ولا يشك في وقوعها وحقها، لم تفدهم خيرًا، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافترائهم ﴿لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أي:

(٤) أخرج أحمد والحاكم والطبراني والطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً وموقوفاً: أن رسول الله سئل عن الخط؛ فقال: «هو أثارة من علم».

ظاهر لا شك فيه.

(٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه؛ فليس هو من عند اللَّه، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ فاللَّه علي قادر، وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟! ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إن أرادني اللَّه بضر أو أرادني برحمة ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فلو كنت متقولاً عليه؛ لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقابًا يراه كل أحد؛ لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة - مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ويرحمكم؛ فيوفقكم للخير، ويثيبكم جزيل الأجر.

(٩) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي، وتستنكروا دعوتي؛ فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقتْ دعوتي دعوتهم ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ لست إلا بشراً ليس بيدي من الأمر شيء، واللَّه تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتم دعوتي؛ فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي، فحسابكم على اللَّه، وقد أنذرتكم.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أخبروني: لو كان هذا القرآن من عند اللَّه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ﴾ وشهد على صحته الموفقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق؛ فآمنوا به، واهتدوا؛ فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومن الظلم: الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

(١١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، ولكنا أول مبادر به، وسابق إليه ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كذب قديم مأثور عن الناس الأقدمين؛ فينتقصون القرآن وأهله ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ

---

(٩) أخرج البخاري وأحمد - واللفظ له - عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء - وهي امرأة من نسائهم - أخبرته، وكانت بايعت رسول الله ﷺ؛ قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضناه، حتى إذا توفى أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي وأمي أنت؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما هو؛ فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فقلت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، فأحزنني ذلك، فنمت؛ فأريت لعثمان عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله؟».

وفي رواية للبخاري: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به».

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ع٢

﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدَّقها بموافقته لها، وجعله الله ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ويبشر المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته وداموا على ذلك ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

(١٤) ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله المقتضى للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ هذا من

---

(١٠) أخرج أحمد وأبو يعلى والطبري وابن حبان والطبراني والحاكم بإسناد صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أروني إثني عشر رجلًا يشهدون: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه» فأسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليه، فلم يجبه أحد، فثلث؛ فلم يجبه أحد، فقال: «أبيتم فوالله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفي، آمنتم أم كذبتم». ثم انصرف وأنا معه، حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد! فأقبل فقال ذلك الرجل: أيَّ رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلًا أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك. قال: فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل. قالوا: كذبت. ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًا. فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم لن يُقبل منكم قولكم» فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام. فأنزل الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأخرج الشيخان في «صحيحهما» عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: ما سمعت النبيَّ ﷺ يقول لأحدٍ يمشي على الأرض إنَّه من أهل الجنَّة إلا لعبد الله بن سلامٍ، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾.

لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع، وخدمة الحضانة،و ليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة، ولذل قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ للحمل تسعة أشهر،أو نحوها، والباقي للرضاع، هذا هو الغالب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها ومؤليها، ومقابلته منته بالاعتراف، والعجز عن الشكر ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه اللّه ويقبله، ويثيب عليه ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح اللّه أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى﴾.

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها.

(١٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ وهو الطاعات؛ لأنهم يعملون أيضًا غيرها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فلا نأخذهم بها، بل نغفر لهم ﴿فِىٓ﴾ جملة ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم، هو وعد صادق، من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

(١٧) ولما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ إذ دعواه إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ تبًا لكما، ولما جئتما به.

---

(١٧) أخرج البخاري في «صحيحه» عن يوسف بن ماهك؛ قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه؛ فقال مروان: إنَّ هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلَّا أنَّ الله أنزل عذري.

وأخرج النسائي والحاكم والخطابي في «غريب الحديث» بإسناد حسن لغيره عن محمد بن زياد؛ قال: لما بايع معاوية لابنه يزيد؛ قال مروان: سنة أبي بكر، وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر سنة هرقل وقيصر. فقال: أنزل الله فيك: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية، قال: فبلغ عائشة رضي الله عنها، فقالت: كذب والله؛ ما هو به، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان، ومروان في صلبه، فمروان من لعنة الله.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وَهُمَا﴾ أي: والداه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ عليه، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد إلا عتوّاً ونفوراً واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند اللّه.

(١٨) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيغرقون في تيارهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم.

(١٩) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن لا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون؛ فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ العذاب الشديد الذي يهينكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تتكبرون عن طاعته ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل، والكذب على اللّه؛ بنسبته إلى رضاه، والقدح في الحق والاستكبار عنه؛ فعوقبوا أشد العقوبة.

(٢١) ﴿وَاذْكُرْ﴾ بالثناء الجميل ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ وهم عاد ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فلم يكن بدعاً منهم، ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فأمرهم بعبادة اللّه، الجامعة لكل قول سديد، وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد،

وخوفهم -إن لم يطيعوه- العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة.

(٢٢) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ ليس لك من القصد ولا معك من الحق؛ إلا أنك حسدتنا على آلهتنا؛ فأردت أن تصرفنا عنها ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله، استبعاداً منهم وقوعه.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ ليس علي إلا البلاغ المبين ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة.

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾؛ أي: العذاب ﴿عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل فتسقي نوابتهم، ويشربون من آبارها وغدرانها ﴿قَالُواْ﴾ مستبشرين: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ هذا الذي جنيتم به على أنفسكم حيث قلتم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ريح عاتية.

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ تهلك كل شيء تمر عليه من شدتها ونحسها ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ بإذنه ومشيئته ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم.

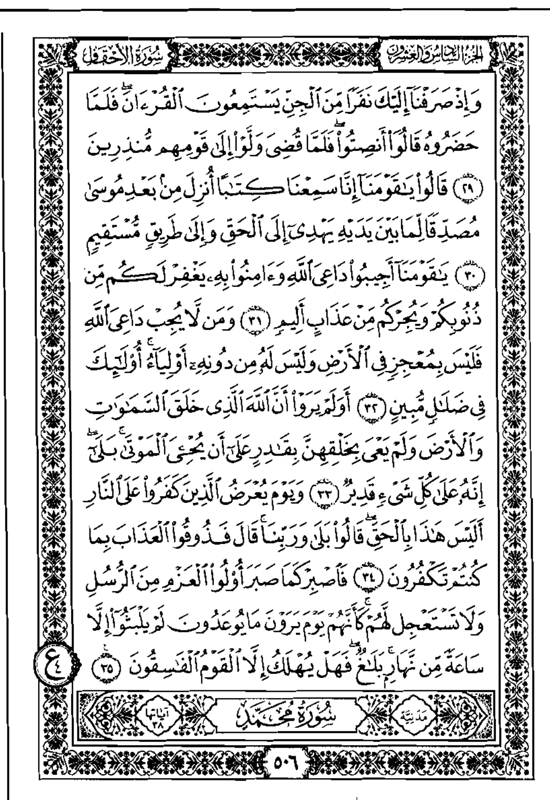
(٢٦) ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ يعني فيما نمكنكم فيه، من قوى الأبدان، وطول العمر وكثرة المال؛ فلم تغن عنهم أموالهم، ولا أولادهم، ولا جنودهم من الله شيئاً ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم، ولا أذهانهم، حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿إِذۡ كَانُواْ﴾ ذلك بسبب أنهم ﴿يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

(٢٧) ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نوّعناها من كل وجه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه من الكفر والتكذيب.

(٢٨) ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من

---

(٢٤) في «الصحيحين» عن عائشة ﵂: أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم. وقالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه. قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، فقد عُذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب؛ فقالوا: هذا عارض ممطرنا».


الجزء السادس والعشرون — سورة الأحقاف

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ مُحَمَّدٍ — مدنية — آياتها ٣٨

٥٠٦

شيء ﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ يتقربون إليهم ويتألهونهم لرجاء نفعهم ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب الذي يمنون به أنفسهم؛ حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم؛ فضلَّت وبطلت.

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أرسلنا إليك ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ طائفة من الجن ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: استمعوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ فرغ ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة اللّه عليهم، وقيضهم اللّه معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

(٣٠) ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل، ومغير لبعض الأحكام ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى اللّه، وإلى جنته: من العلم باللّه وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

(٣١) ﴿يَٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ﴾ الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم؛ ليثيبكم، ويزيل عنكم كل شر ومكروه ولهذا قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يقيكم من عذابه الأليم.

(٣٢) ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ﴾ فإن اللّه على كل شيء قدير؛ فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ لا يجيرهم منه أحد ﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأيّ ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر؛ فأعرض واستكبر؟

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي

(٢٩) أخرج ابن أبي شيبة والحاكم بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: صه. وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا﴾ الآية إلى ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

خلق السماوات والأرض، على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما، ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من دون أن يكترث بذلك، ولم يعجز بخلقهن، فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانًا؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ عذاباً لازماً دائماً؛ كما كان كفركم صفة لازمة.

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى اللَّه، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب؛ فإن هذا من جهلهم وحمقهم؛ فلا يستخفنك بجهلهم، ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو اللَّه عليهم بذلك، فإن كل ما هو آت قريب، و﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل، وهم صائرون إلى العذاب الوبيل ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: هذه الدنيا متاعها وشهوتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.
أو هذا القرآن العظيم الذي بينا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

نصف الحزب ٥١

٥٠٧

سورة محمد
وهي مدنية

(١) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر باللَّه وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل اللَّه، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه. فهؤلاء ﴿أَضَلَّ﴾ اللَّه ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها؛ ليكيدوا بها الحق وأولياء اللَّه، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن اللَّه سيحبطها عليهم.

(٢) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما أنزل اللَّه على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق اللَّه، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة ﴿كَفَّرَ﴾ اللَّه ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ صغارها وكبارها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم؛ بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾؛ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، لأنهم اتبعوا الشيطان ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه؛ فرباهم -تعالى- بالحق؛ فاتبعوه؛ فصلحت أمورهم ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون

(٤) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الحرب والقتال، ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ الرباط، وهذا احتياط لأسرهم؛ لئلا يهربوا، فإذا شد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من هربهم ومن شرهم فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ بين المنِّ عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم. وهذا الأمر مستمر ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى لا يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ فإنه -تعالى- على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنيًّا على متابعة أهل الغلبة ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم؛ لتكون كلمة اللَّه هي العليا ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فهؤلاء لن يحبط الله أعمالهم؛ أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا والآخرة.

(٥) ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة

---

(٤) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده في الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه».

إلى الجنة ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حالهم وأمورهم.
(٦) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ نعتها لهم، وبيَّن منازلهم حتى يهتدوا إلى مساكنهم لا يخطئون، وطيّبها لهم.
(٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دينه ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ عند القتال.
(٨) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾أي: فخزيًا لهم وشقاء وبلاء. ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق.
(٩) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإضلال والتعس للذين كفروا؛ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾: أبطلها وأضلها؛ فلا ينفعون بها، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.
(١٠) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.
(١١) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتولاهم برحمته؛ فأخرجهم من الظلمات إلى النور،

---

(٦) أخرج البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا».

(٨) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش».

(١١) عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: جعل النبيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ - وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا - عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُم». فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ. فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةَ - أَيْ قَوْمِ - الْغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ؛ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ؛ فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ؛ فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً: سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ. ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ؛ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّه، إِنَّ الَّذِينَ =

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾

٥٠٨

وتولى جزاءهم ونصرهم ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه.

(١٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة: من دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناظرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيذة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم؛ ذكر أنهم وُكِلُوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها ولا فضل ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ ولهذا كانت النار منزلاً معدًّا لهم، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها.

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين هي أشد قوة ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾، في الأموال والأولاد والأعوان والأبنية والآلات ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ يعني مكة. ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ فلا نجد لهم ناصراً، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً، فكيف حال هؤلاء الضعفاء الذين كذبوك

= عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ. قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ. أُعْلُ هُبَل؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ» قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ».

(١٢) في «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

(١٣) أخرج الترمذي وابن حبان والحاكم بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لما خرج من مكة: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».

وعادوك، أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن اللّه تعالى بعث رسوله بالرحمة والتأني بكل كافر وجاحد؟

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه: علماً وعملاً، قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده اللّه لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ واتبع هواه بغير هدى من اللّه، ومع ذلك يرى أن ما هو عليه من الحق.

(١٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مثل صفة الجنة التي أعدها اللّه لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ غير متغير، لا بوخم، ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بحموضة ولا غيرها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه، ويصدع الرأس، ويغول العقل ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من شمعه، وسائر أوساخه ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك، مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم، ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المرهوب، ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها ﴿وَسُقُواْ﴾ فيها ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾ حارًا جدًا ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ قطع ما في بطونهم من الأحشاء والأمعاء.

(١٦) ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المنافقين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول، استماعاً لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ قريباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها؛ بسبب اتباعهم أهواءهم.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي اللّه ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

(١٨) ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ علاماتها الدالة على قربها ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ من أين لهم إذا جاءتهم

(١٥) أخرج ابن أبي حاتم وهناد في «الزهد» وابن أبي شيبة في «المصنف» وأبو نعيم في «صفة الجنة» حديث ابن مسعود رضي الله عنه الصحيح لغيره: «أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك». وهذا موقوف لفظاً، ولكن مرفوع حكماً. وأخرج الترمذي وابن حبان وأحمد - واللفظ له - بإسناد صحيح عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

(١٨) أخرج البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين».


الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

٥٠٩

الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك.

(١٩) ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا اللّه، ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ أي: اطلب من اللّه المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة: من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿وَ﴾ استغفر أيضاً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإنهم -بسبب إيمانهم- كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة، ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم، ويستغفر لذنوبهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾؛ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر بالقتال ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ ملزم العمل بها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ من كراهتهم لذلك، وشدته عليهم ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: وكان الأولى بهم.

---

(١٩) أخرج مسلم من حديث الأغر المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله؛ فإني أتوب في اليوم مائة مرة».

وفي «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت».

وأخرج مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه في طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله! فقال ﷺ: «ولك» قال: - عاصم الأحول وهو الراوي عن ابن سرجس - :فقلت: أستغفر لك؟ فقال: نعم، ولكم، وقرأ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. قال: ثم درت خلفه فنظرت إلى نغض كتفه الأيمن؛ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل.

(٢١) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أن يسمعوا ويطيعوا؛ أي: في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ جاءهم أمر جد وأمر محتم؛ فلزم الحال وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من حالهم الأولى.

(٢٢) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ فهما أمران: إما التزام لطاعة اللّه، وامتثال لأوامره، فثَم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولٍّ عن طاعة اللّه، فما ثم إلا الفساد في الأرض، بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

(٢٣) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط اللّه ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرونه، فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة اللّه عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب اللّه، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه؛ لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى اللّه، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبداً؟!.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ كفروا بعد أن عرفوا محمداً ﷺ ووجدوا نعته في كتبهم، لا عن دليل وبرهان، وإنما ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين لهم القبيح وحسنه ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ غرَّهم وخدعهم، ومدّ لهم في الأمل.

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني المنافقين، أو اليهود ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من المشركين المبارزين العداوة للّه ولرسوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي يوافق أهواءهم، وهو التعاون على عداوة محمد ﷺ، والقعود عن الجهاد، وكانوا يقولونه سرًّا، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين؛ لئلا يغتروا بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾

---

(٢٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بِحِقْو الرحمن - عز وجل - فقال: مه. فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك».
قال أبو هريرة رضي الله عنه اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾.

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

بالمقامع الشديدة؟!

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيهم منه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أبطلها وأذهبها.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لأعلمناكهم وعرفناكهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفلتات ألسنتهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها.

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ نختبر إيمانكم وصبركم ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ فمن امتثل أمر الله، وجاهد في سبيل الله، لنصر دينه وإعلاء كلمته، فهو المؤمن حقًّا، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

(٣٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ فلا ينقص به ملكه ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل؛ بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب لا تقبل؛ لعدم وجود شرطها.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية؛ وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي: امتثال الأمر، واجتناب النهي، على الوجه المأمور به، بالإخلاص وتمام المتابعة ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها:

من مَنَّ بها، وإعجاب، وفخر، وسمعة، ومن عمل بالمعاصي، التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها، بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّوا۟﴾ الخلق ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه ﴿ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لا بشفاعة، ولا بغيرها.

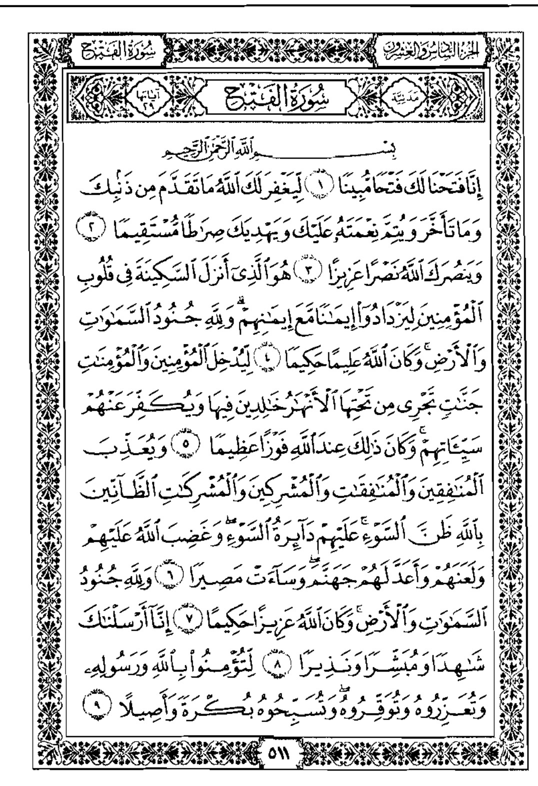
ومفهوم الآية الكريمة: أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به، والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾؛ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ ولا تدعوا إلى المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم، طلبًا للراحة ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الغالبون وخارجية ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبكم وإقدامكم على عدوكم، وفي هذا بشارة عظيمة ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ لا ينقصكم من أعمالكم شيئا، بل سيوفيكم أجوركم، ويزيدكم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإذا عرف الإنسان أن الله -تعالى- لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؛ فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم، وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

قال العلماء: هذا في حال علو المسلمين على أعدائهم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فإن له أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح، ووَضْع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

(٣٦) ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً؛ ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ جزاء أعمالكم في الآخرة ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم وبقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصًا يضركم.

(٣٧) ولذلك قال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يجهدكم بالمسألة، ويلحّ عليكم بطلبها منكم فيلحف ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها وتمنعوها إياه، ضنًّا منكم



بها، ولكن علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم فلم يسألكموها ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ ما في قلوبكم من الضغن - أي: البغض والعداوة - إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

(٣٨) ثم قال تعالى مستدلاً على ذلك: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾ فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب اللّه تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر اللّه بترك الإنفاق شيئاً ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإيمان باللّه وامتثال ما يأمركم به ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ في التولي، بل يطيعون اللّه ورسوله، ويحبون اللّه ورسوله.

سورة الفتح
وهي مدنية

(١) ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ هذا الفتح المذكور؛ هو: صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول اللّه ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول اللّه ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش

---

(٣٨) أخرج الترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إذا تولينا استبدل بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال: «هذا وقومه، لو كان الدين عند الثريا؛ لناله رجال من هؤلاء؟ يعني: سلمان الفارسي».

(١) في «الصحيحين» عن معاوية بن قرة رضي الله عنه قال: سمعت عبد الله بن المغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع. ثم قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مغفل وقال: لولا أن يجتمع الناس عليك لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكي النبي ﷺ، فقلت لمعاوية كيف كان ترجيعه؟ قال: «آآآ ثلاث مرات».

وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ قال: الحديبية.

وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول اللَّه ﷺ وعقده فعل. فدخل الناس في تلك المدة في دين اللَّه أفواجاً؛ فلذلك سماه اللَّه فتحاً؛ ووصفه بأنه فتح مبين، أي: ظاهر جلي.

(٢) ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ أن غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قويًا لا يتضعضع فيه الإسلام.

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يخبر - تعالى - عن منته على المؤمنين؛ بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة؛ فالصحابة ﷺ لما جرى ما جرى بين رسول اللَّه ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن اللَّه لا ينصر دينه ونبيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ولكنه تعالى عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

(٥) ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين: أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

---

(٢) في «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ قال: فسألته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد علي قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا بن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؛ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيّ شيء. قال: فقال رسول الله ﷺ «نزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾».

(٥) في «الصحيحين» عن أنس ﷺ قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه في الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليّ آية أحب إلى مما على الأرض» ثم قرأهما عليهم النبي ﷺ، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بيّن الله ﷻ ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ حتى بلغ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ
ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ
أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟
كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

٥١٢

(٦) ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن اللَّه يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوءهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا باللَّه الظن السوء: أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار اللَّه عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما اقترفوه من المحادة للَّه ولرسوله ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ هيأ وأحضر لهم ﴿جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وساءت جهنم مصيراً يصير إليه الكافرون والمنافقون.

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود؛ ليعلم العباد: أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ قويًا غالباً، قاهراً لكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ ومع عزته وقوته؛ فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

(٨) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شَٰهِدًا﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهداً على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهداً للَّه -تعالى- بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من أطاعك وأطاع اللَّه بالثواب الدنيوي والديني والأخروي ﴿وَنَذِيرًا﴾ ومنذراً من عصى اللَّه بالعقاب العاجل والآجل.

(٩) ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان باللَّه ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعظموا رسول الله ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تحترمونه وتجلّونه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تنزهوا اللَّه ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ وآخره.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ هذه المبايعة التي أشار اللَّه إليها هي بيعة الرضوان التي بايع

(١٠) أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم».

وعند أبي داود والترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان عن جابر بإسناد صحيح :عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

الصحابة ﷺ فيها رسول اللّه ﷺ على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص من لوازمه أن لا يفرُّوا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالى: أن الذين يبايعونك حقيقة الأمر أنهم ﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هي يد حقيقية، تليق بجلال الله سبحانه وكماله، وليس المراد: قوة الله أو نعمته، فهو تأويل باطل، وكأنهم بايعوا اللّه وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد اللّه عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أتى به كاملاً موفراً ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه.

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يذم تعالى المتخلفين عن رسوله في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن باللّه تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في الجهاد، وأنهم طلبوا من رسول اللّه ﷺ أن يستغفر لهم، قال اللّه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول اللّه ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفا يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم لكان استغفار الرسول نافعاً لهم؛ لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا؛ لأنهم ظنوا باللّه ظن السوء ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ لا يقدر أحد أن يرد ما أراده اللّه فيكم ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ وهو العليم بسرائركم وإن صانعتمونا ونافقتمونا.

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ فظنوا أنهم سيقتلون ويستأصلون، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحكم، وسبب ذلك أمران:

أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هلكى، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد اللّه، ونصر دينه، وإعلاء كلمته.

(١٣) ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنه كافر مستحق للعقاب ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو من قام بما أمره اللّه به، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن تهاون بأمر اللّه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وصفه اللازم



الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة؛ فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين.

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية: أن رسول اللّه ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم شرعاً وقدراً.

﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إنكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مجيبين لهذا الكلام الذي منعوا به عن الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رشدهم؛ لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون من الله ما لهم وما عليهم من الدين ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم وهو من صدّق اللّه والرسول.

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أثخنهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبذلوا الجزية ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الأجر الذي رتبه اللّه ورسوله على الجهاد في

(١٦) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغاراً الأعين، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة». قال سفيان: هم الترك.

سبيل اللَّه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو النار.

(١٧) ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع. ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة اللَّه ورسوله ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالسعادة كلها في طاعة اللَّه، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

(١٨) ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول اللَّه تحت الشجرة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو: فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة اللَّه تعالى والقيام بمرضاته.

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمين إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾؛ أي: غنيمة خيبر، فلا تحسبوها وحدها، بل ثَمّ شيء كثير من الغنائم سيتبعها ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ﴾؛ أي: واحمدوا اللَّه إذ كفَّ أيدي الناس عنكم القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عَنكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلون بها على خبر اللَّه الصادق، ووعده الحق، وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل.

(٢١) ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ وعدكم أيضاً غنيمة أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ﴾ هو قادر عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به؛ لكمال اقتدار اللَّه تعالى ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٢) ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه بشارة من اللَّه لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ﴾ وهذه سنة اللَّه في الأمم السابقة أن جند اللَّه هم الغالبون ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

٥١٤

فكان هذا كالسنن الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل.

(٢٤) يقول -تعالى- ممتنًا على عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحدروا على المسلمين، ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهين؛ فأمسكوهم فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

(٢٥) ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي: كفرهم بالله ورسوله، وصدهم رسول الله ومن معه من المؤمنين أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، ﴿وَ﴾ هم الذين -أيضاً- صدوا ﴿الْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ محبوساً ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ وهو محل ذبحه، وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾؛ أي: ولكن ثم مانع، وهو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، خشية أن تطأوهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم من نيلهم بالأذى والمكروه ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وفائدة أخروية، وهو أنه ليدخل في رحمته من يشاء فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال،

---

(٢٤) أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

(٢٥) أخرج أبو يعلى والطبراني وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» وابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أبي جمعة رضي الله عنه قال: قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاث رجال وسبع نسوة وفينا أنزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾.

فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حيث أنفوا من كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم)، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة؛ لئلا يقول الناس: دخلوا مكة قاهرين لقريش. وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم، حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله، ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَ﴾ كانوا ﴿وَأَهْلَهَا﴾ الذين استأهلوها لما يعلم اللَّه عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

(٢٧) ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها، ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح، الحجرات

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الحُجُرَات — مدنية — آياتها ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

٥١٥

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلق والتقصير، وعدم الخوف ﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(٢٨) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان

---

(٢٦) أخرج الترمذي والطبري والطبراني والبيهقي في «الأسماء والصفات» وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» بإسناد صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾» قال: «لا إله إلا الله».

(٢٧) في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة.

والرحمة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ بما بعثه اللّه به ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك نبي صادق فيما تخبر عن ربك، وأن الله ناصرك ومنجز لك ما وعدك.

(٢٩) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار: أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متحابون متراحمون متعاطفون ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها الركوع والسجود ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ قد أثرت العبادة -من كثرتها وحسنها- في وجوههم، حتى استنارت لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت، بالجلال ظواهرهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ هذا وصفهم الذي وصفهم اللّه به مذكور بالتوراة هكذا ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ وأما مثلهم في الإنجيل؛ فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع، أي: قوي وغلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله؛ كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين اللّه والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه، فآزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فالصحابة رضي الله عنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع اللّه لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

قال العلماء: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله في رواية عنه بتكفير الروافض الذين ينتقصون الصحابة رضي الله عنهم ويسبونهم؛ لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء على ذلك.

سورة الحجرات وهي مدنية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا متضمن للأدب مع اللّه تعالى ومع رسول اللّه ﷺ، والتعظيم له واحترامه وإكرامه، فأمر اللّه عباده المؤمنين أن لا يتقدموا بين يدي اللّه ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا

(٢٩) في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه».

(١) اخرج الطبراني في «الأوسط» والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» من طرق يقوي بعضها بعضاً عن مسروق: =

حقيقة الأدب الواجب مع اللَّه ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول اللَّه ﷺ وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها كائناً ما كان ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

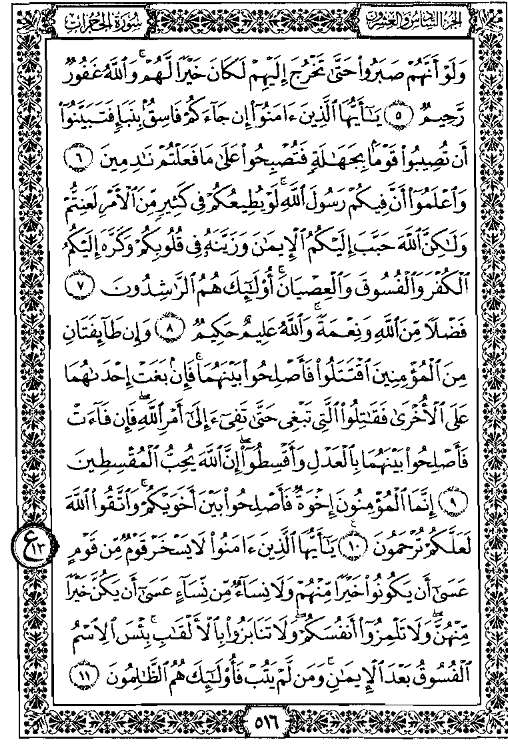
(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مدح من غض صوته عند رسول اللَّه ﷺ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ بأن اللَّه امتحن قلوبهم للتقوى؛ أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا اللَّه تعالى.

= أنه دخل على عائشة رضي الله عنها في اليوم الذي يشك فيه من رمضان، فقالت: يا جارية، خصوصي له سويقاً. فقال: إني صائم. فقالت: تقدمت الشهر؟ فقلت: لا، ولكني صمت شعبان كله فوافق ذلك هذا اليوم. فقالت: إن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ، فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؛ رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾. فما كان عمر يُسْمِعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني: أبا بكر.

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية؛ جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو، ما شأن ثابت أشتكى؟» قال سعد: إنه لجاري وما علمت له بشكوى قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال: ثابت: أُنزِلَتْ هذه الآية، ولقد علمتم أنّي من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: بل هو من أهل الجنة.

وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماوات والأرض».



(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ ذم تبارك وتعالى الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب؛ فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصفهم بالجهل وقلة العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل استعمال الأدب، فأدب العبد عنوان عقله.

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم؛ حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ وهذا -أيضًا- من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردًا، فإن في ذلك خطرًا كبيرًا، ووقوعًا في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ بسبب ذلك

(٥) أخرج أحمد والطبري والطبراني والضياء في «الأحاديث المختارة» بإسناد صحيح عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس: أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اخرج إلينا؛ فلم يجبه، فقال: يا محمد، إن حمدي زين، وإن ذميّ شين؛ فقال: «ذاك هو الله». فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(٦) أخرج الطبراني وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» وابن عساكر، عن علقمة بن ناجية قال: بعث إلينا رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط يصدق أموالنا، فسار حتى إذا كان قريبا منا -وذلك بعد وقعة المريسيع- رجع؛ فركبنا في أثره، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أتيتُ قوماً في جاهليتهم أخذوا اللباس ومنعوا الصدقة، فلم يغير ذلك النبي ﷺ حتى نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ﴾ [الحجرات: ٦]، وأتى المصطلقون النبي ﷺ أثر الوليد بطائفة من صدقاتهم يسوقونها، ونفقات يحملونها، فذكروا ذلك له، وأنهم خرجوا يطلبون الوليد بصدقاتهم فلم يجدوا، فدفعوا إلى رسول الله ﷺ ما كان معهم، وقالوا: يا رسول الله! بلغنا مخرج رسولك فسررنا بذلك، وقلنا: نتلقاه فبلغنا رجعته، فخفنا أن يكون ذلك من سخطه علينا، وعرضوا على النبي ﷺ أن يشتروا منه ما بقي، فقبل منهم الفرائض، وقالوا: «ارجعوا بنفقاتكم لا نبيع شيئاً من الصداقات حتى نقبضه»، فرجعوا إلى أهليهم، وبعث إليهم من قبض بقية صدقاتهم.

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بإسناد حسن من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان».

الخبر ما يكون سببًا للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصُدِّق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب ولم يعمل به.

(٧) ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ليكن لديكم معلومًا أن رسول اللَّه ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم البار الراشد الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، و ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ لشق عليكم وأعنتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولكن الرسول يرشدكم، واللَّه تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع اللَّه في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ ويكره إليكم الكفر والفسوق؛ أي: الذنوب الكبار، والعصيان: وهي ما دون ذلك من الذنوب بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين زين اللَّه الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراط المستقيم.

(٨) ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ﴾ ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل اللَّه عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بمن يشكر النعمة، فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

(٩) ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ترجع إلى ما حدّ اللَّه ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقرابة أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ هذا عقد عقده اللَّه بين المؤمنين: أنه إذا وجد من أيّ شخص كان - في مشرق

(٩ و١٠) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك ﷺ قال: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ؛ فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَا، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾.

الأرض ومغربها- الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولقد أمر اللَّه ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد، والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى اللَّه، الرحمةَ؛ فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وإذا حصلت الرحمةَ، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾وهذا - أيضًا- من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض: أن ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، و﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ فعسى أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، كما هو الغالب والواقع؛ فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحلٍّ بكل خلق ذميم، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار. وسمي الأخ المؤمن نفسًا لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه وما تقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنابز بالألقاب ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهذا هو الواجب على العبد: أن يتوب إلى اللَّه -تعالى- ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار

(١١) أخرج أصحاب السنن وأحمد بإسناد صحيح، عن أَبِي جُبَيْرَةَ بْنُ الضَّحَّاكِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، فِي بَنِي سَلِمَةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «يَا فُلَانُ». فَيَقُولُونَ: مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا الاِسْمِ، فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

والمدح له مقابلة على ذمه.

(١٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ نهى اللَّه تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين، فـ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه» ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبه أكل لحمه ميتًا المكروه للنفوس غاية الكراهة باغتيابه؛ فكما أنكم تكرهون أكل لحمه وخصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح؛ فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه حيًّا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده؛ حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبِل منهم التوبة.

(١٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد،

الجزء السادس والعشرون — سورة الحجرات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

نصف الحزب ٥٢ — ٤٤ — ٥١٧

وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ولكن اللَّه تعالى بث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل؛ أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

(١٢) أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

(١٣) أخرج الترمذي وأحمد وغيرهما بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ فقال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس من هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند اللَّه أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يقوم منهم بتقوى اللَّه ظاهرًا وباطنًا﴿خَبِيرٌ﴾ ممن يقوم بذلك ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كُلًّا بما يستحق.

(١٤) ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول اللَّه ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا؛ أي: إيمانًا كاملاً مستوفيًا لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر اللَّه رسوله أن يرد عليهم فقال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: لا تدَّعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهرًا وباطنًا كاملاً ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك ﴿وَ﴾ السبب في ذلك أنه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وإنما آمنتم خوفًا، أو رجاء، أو نحو ذلك ﴿وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بفعل خير أو ترك شر ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ لا ينقصكم منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه وأناب ﴿رَّحِيمٌ﴾ به؛ حيث قبل توبته.

(١٥) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ على الحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة اللَّه ورضوانه ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ شرط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك؛ لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر اللَّه بالإيمان به ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة.

(١٦) ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا شامل للأشياء كلها التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله، ويجازي عليه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(١٧) ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان، وليس به؛ فإنه إما أن يكون ذلك تعليمًا للَّه، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له وتبرعوا بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإن المنة للَّه تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمنّ عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة؛ فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام،

(١٤) في «الصحيحين» من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: أعطى رسول اللهﷺ رجالًا ولم يعط رجلًا فيهم شيئاً، فقال سعد ﷺ: يا رسول الله، أعطيتَ فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبيﷺ: «أو مسلم»؟ حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبيﷺ يقول: «أو مسلم»؟ ثم قال النبيﷺ: «إني لأعطي رجالًا وأدع من هو أحب إليّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يُكبوا في النار على وجوههم».

ومنته عليهم بالإيمان أعظم من كل شيء.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: الأمور الخفية فيهما التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة، وحكمته البالغة.

* * *

سورة ق
وهي مكية

الجزء السادس والعشرون — سورة ق

سورة ق — مكية — آياتها ٤٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾

٥١٨

(١) ﴿قٓۚ﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ يقسم تعالى بالقرآن المجيد؛ أي: وسيع المعاني عظيمها.

(٢) ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ المكذبون للرسول ﷺ ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ مستغرب، تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر وليس هذا بعجيب؛ فإن اللَّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

(٣) ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ فقاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير، العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ بعيد الوقوع.

(٤) ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم.

(٥) ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو

(١) أخرج مسلم عن أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ؛ كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار.

(٦) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء ﴿وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا ولا فروجًا، ولا خلالاً ولا إخلالاً.

(٧) ﴿وَ﴾ إلى ﴿الأَرْض مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا﴾ ووسعناها حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار والاستعداد لجميع مصالحه ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وأرساها بالجبال؛ لتستقر من التزلزل والتموج ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ من كل صنف من أصناف النبات، التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها؛ لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم.

(٨) فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿تَبْصِرَةً﴾ يتبصر بها من عمي الجهل و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، وليس ذلك لكل أحد؛ بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ إلى الله؛ أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب المعرفض فما تغني الآيات والنذر عن قولم لا يؤمنون.

(٩) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ نافعاً ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: وهو الحب الذي يراد لحبه وادخاره.

(١٠) ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾؛ أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ منضود.

(١١) ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ هو رزق للخلق قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون هم ومواشيهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل علها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحسّ أعظم مما ينكره الجاحدون للبعث.

(١٢) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام؛ كـ ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ كذبوا نوحاً ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وهم من كانوا مقيمين حولها يعبدون الأصنام ﴿وَثَمُودُ﴾ كذبوا صالحًا.

(١٣) ﴿وَعَادٌ﴾ كذبوا هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ كذب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ كذبوا لوطاً.

(١٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ كذبوا شعيباً ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وتبع: كل ملِك ملَك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام؛ فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله اللّٰه إليهم، ولم يخبرنا اللّٰه من هو ذلك الرسول، وأي من التبابعة؛ لأنه -واللّٰه أعلم- كان مشهورًا عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب، خصوصًا مثل هذه الحادثة العظيمة، ولكن تبع أسلم وآمن؛ فذمّ قومه ولم يذمّه ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم اللّٰه إليهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فحق عليهم وعيد اللّٰه وعقوبته، ولستم

أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيرًا منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم.

(١٥) ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو: المنشأ الأول - على الخلق الآخر - وهو: النشأة الآخرة؛ فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم، فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا، ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونعي عن ذلك وليسوا في شك من ذلك، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾أي: هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه؛ لأن الإعادة أهون من الابتداء.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسره ويوسوس في صدره ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهو العرق المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله؛ فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

(١٧) وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب

الجزء السادس والعشرون — سورة ق

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

٥١٩

عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات ﴿وَ﴾ الآخر ﴿عَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذلك متهيئ لعمله الذي أعد له، ملازم له.

(١٨) ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ مراقب له ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر لحاله.

(١٩) ﴿وَجَآءَتْ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات

---

(١٨) في «الصحيحين» من حديث بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة في سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها من سخطه إلى يوم يلقاه».

(١٩) أخرج ابن حبان وأبو يعلى والبيهقي وابن سعد في «الطبقات» وابن أبي الدنيا في «المحتضرين» من طرق يقوي بعضها بعضا عن عائشة رضي الله عنها قالت: حضرت أبي رضي الله عنه وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشية فتمثلت ببيت في الشعر:

من لا يزال دمعه مقنعًا　　　فإنه لابد مر مدفوق

=

اللَّه ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا مرد له ولا مناص ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تتأخر وتنكص عنه.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم اللَّه به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

(٢١) ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بأعمالها خيرها وشرها.

(٢٢) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخًا ولومًا وتعنيفًا؛ أي: لقد كنت مكذبًا بهذا، تاركًا للعمل له ﴿فَ﴾ الآن ﴿كَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي غطى قلبك، فكثر نومك واستمر إعراضك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قرين هذا المكذب المعرض، من الملائكة الذين وكلهم اللَّه على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله، ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ قد أحضرت ما جعلت عليه من حفظه، وحفظ عمله؛ فيجازى بعمله.

(٢٤) ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ كثير الكفر والعناد لآيات اللَّه، المكثر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يمنع الخير الذي عنده، الذي أعظمه: الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله، مناع لنفع ماله وبدنه ﴿مُعْتَدٍ﴾ على عباد اللَّه، وعلى حدوده ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في وعد اللَّه ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان، ولكن وصفه الكفر والعدوان والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن.

(٢٦) ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ عبَد معه غيره ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظمها وأشدها وأشنعها.

(٢٧) ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشيطان، متبرئًا منه، حاملاً عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ لأني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره.

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ الرب عز وجل للإنسي وقرينه الجني ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ لا فائدة في اختصامكم عندي، ﴿وَ﴾ الحال أني ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ جاءتكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حجتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ لا يمكن أن يخلف

= قالت: فرفع ﷺ رأسه، فقال يا بنية، ليس كذلك، ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وفي البخاري عنها ﵂ أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه، ويقول: «سبحان الله! إن للموت سكرات».

ما قاله اللَّه وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من اللَّه قيلاً، ولا أصدق حديثًا ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

(٣٠) ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ وذلك من كثرة ما ألقي فيها ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضبًا لربها، وغيظًا على الكافرين.

(٣١) ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت ﴿لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك صغيره وكبيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له.

(٣٢) ويقال لهم على وجه التهنئة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ هذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، هي التي وعد اللَّه كل أواب؛ أي: رجاع إلى اللَّه في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به ودعائه، وخوفه ورجائه ﴿حَفِيظٖ﴾ يحافظ على ما أمر اللَّه به، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل الوجوه، حفيظ لحدوده.

(٣٣) ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾؛ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته ولازم على خشية اللَّه في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه.

(٣٤)﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾ دخولاً مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات.

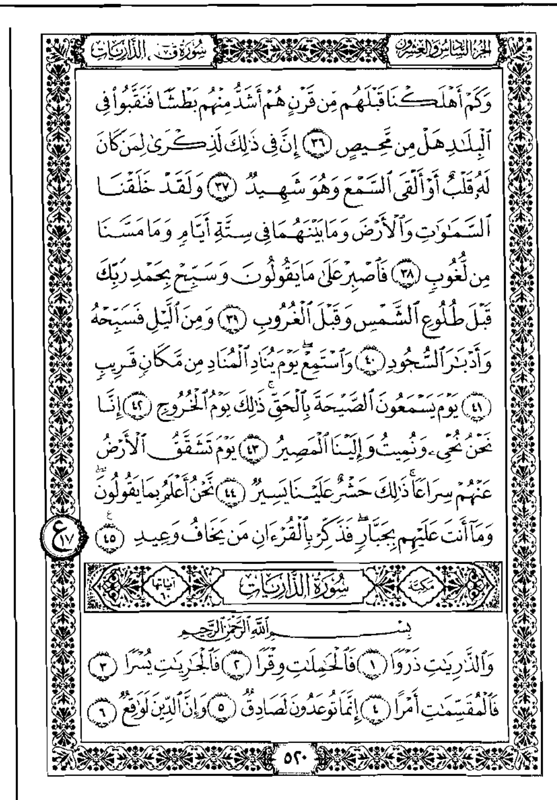
(٣٥) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ كل ما تعلقت به مشيئتهم، فهو حاصل فيها ﴿ وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾

---

(٣٠) أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه، فتقول: قط قط».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار؛ فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله تبارك وتعالى من خلقه أحداً، وأما الجنة؛ فإن الله ينشئ لها خلقاً آخر».

(٣٥) أخرج الشافعي في «الأم» وابن أبي شيبة في «المصنف» والطبري والطبراني في «الأوسط» وغيرهم من طرق يُقوّي بعضها بعضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء، فيها نكتة سوداء؛ فقلت: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك؛ لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك، تكون أنت الأول، وتكون اليهود والنصارى من بعدك، قال: ما لنا فيها؟ قال: فيها خير لكم، فيها ساعة من دعا ربه فيها بخير هو له قسم إلا أعطاه إياه، أو ليس له بقسم إلا ادخر له ما هو أعظم منه، أو تعوذ فيها من شر هو عليه مكتوب؛ إلا أعاذه، أو ليس عليه مكتوب؛ إلا أعاذه من أعظم منه. قلت: ما هذه النكتة السوداء فيها؟ قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة: يوم المزيد، =


الجزء السادس والعشرون سورة ق، الذاريات

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

سورة الذاريات - مكية - آياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)

٥٢٠

ولهم فوق ذلك ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله: النظر إلى وجه اللّه الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه.

(٣٦) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أمما كثيرة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: قوة وآثارًا في الأرض ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا وعمروا ودمروا، فلما كذبوا رسل اللّه، وجحدوا آيات اللّه، أخذهم اللّه بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، فـ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب اللّه، حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم، ولا أولادهم.

(٣٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ قلب عظيم حيّ ذكيّ زكيّ؛ فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات اللّه تذكر بها وانتفع فارتفع ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات اللّه، واستمعها استماعًا يسترشد به ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: قلبه حاضر؛ فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة ومشيئته النافذة التي أوجد بها أعظم المخلوقات ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

= قال: قلت: لم تدعونه يوم المزيد؟ قال: إن ربك ﷻ اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل - تبارك وتعالى من عليين على كرسيه، ثم حفّ الكرسي بمنابر من نور، وجاء النبيون حتى يجلسوا عليها، ثم حفّ المنابر بكراسي من ذهب، ثم جاء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها، ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكثيب، فيتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى وجهه، وهو يقول: أنا الذي صدقتكم وعدي، وأتممت عليكم نعمتي، هذا محل كرامتي فسلوني، فيسألونه الرضا، فيقول الله ﷻ: رضائي أحلكم داري، وأنالكم كرامتي، فسلوني؛ فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم؛ فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار منصرف الناس يوم الجمعة، ثم يصعد الرب تبارك وتعالى على كرسيه، فيصعد معه الشهداء والصديقون - أحسبه قال: ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم درة بيضاء، لا فصم فيها ولا وصم، أو ياقوتة حمراء، أو زبرجدة خضراء، منها غرفها وأبوابها، مطردة فيها أنهارها، متدلية فيها ثمارها، فيها أزواجها وخدمها، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا فيه كرامة، وليزدادوا فيه نظراً إلى وجهه - تبارك وتعالى -، ولذلك دعي يوم المزيد».

﴿بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ من غير تعب ولا إعياء.

(٣٩) ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي: واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسبيحه أول النهار وآخره.

(٤٠) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات؛ فإن ذكر اللّه تعالى مسلٍّ للنفس، مؤنس لها، مهون للصبر.

(٤١) ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ بقلبك ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ وهو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ينفخ في الصور ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الخلق .

(٤٢) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء.

(٤٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ هو الله الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاًّ بعمله، إن خيراً فخير، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٤٤) ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ عن الأموات ﴿سِرَاعًا﴾ يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين على اللّه يسير، لا تعب فيه ولا كلفة.

(٤٥) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لك، مما يحزنك من الأذى ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ مسلط عليهم تجبرهم على الهدى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ والتذكير هو تذكير ما تقرر في العقول والفطر من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد اللّه.

سورة الذاريات
مكية

(١) في صدر هذه السورة أقسم سبحانه وتعالى بمخلوقاته العظيمة التي جعل اللّه فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون فقال تعالى:

(١) ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ والمراد بالذاريات: الرياح التي تذروا في هبوبها ﴿ذَرْوًا﴾ بلينها ولطفها، وقوتها وإزعاجها.

(٢) ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير الذي ينفع اللّه به البلاد والعباد.

(٣) ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع

---

(٣٩) في «الصحيحين» و«مسند أحمد» - واللفظ له - عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم؛ فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

(٤٠) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال: «هو التسبيح بعد الصلاة».

الجزء السادس والعشرون — سورة الذاريات

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٥٢١

بالاعتبار بها.

(٤) ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن اللّه، فكل منهم قد جعله اللّه على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حدّ ورسم، ولا ينقص منه.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾؛ أي: لخبر صدق.

(٦) ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: يوم الحساب والجزاء ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لكائن لا محالة.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران حين يحركها النسيم.

(٨) ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ منكم من يقول: ساحر، ومنكم من يقول: كاهن، ومنكم من يقول: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلقة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل.

(٩) ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة اللّه اليقينية وبراهينه.

(١٠) ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ قاتل اللّه الذين كذبوا على اللّه، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل؛ ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على اللّه ما لا يعلمون.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ في لجة من الكفر والجهل والضلال ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن أمر الآخرة.

(١٢) ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ على وجه الشك والتكذيب ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ متى يوم الجزاء يا محمد؟ مستبعدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم.

(١٣) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر.

(١٤) ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال ﴿هَٰذَا﴾ العذاب الذي وصلتم إليه، هو ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال والسخط والوبال.

(١٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة اللّه دثارهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه، التي لا يوجد لها نظير في الدنيا، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع به الآذان، ولم يخطر على قلوب العباد ﴿وَعُيُونٍ﴾ سارحة، تشرب منها تلك البساتين،

ويشرب بها عباد اللّه، يفجرونها تفجيرًا.

(١٦) ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُحْسِنِينَ﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد اللّه ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان وطرق الخيرات.

(١٧) ﴿كَانُوا۟﴾ المحسنون ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ نومهم بالليل، قليل وأما أكثر الليل؛ فإنهم قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع.

(١٨) ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يستغفرون اللّه تعالى استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة، ليست لغيره.

(١٩) ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ واجب ومستحب ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم .

(٢٠) ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ وذلك شامل لنفس الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وأشجار ونبات؛ تدل المتفكر فيها المتأمل لمعانيها على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

(٢١) ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن اللّه وحده الأحد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

(٢٢) ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾؛ أي: مادة رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة.

(٢٣) فلما بيّن الآيات ونبه عليها تنبيهًا ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى أنوعده وجزاءه حق وشبه ذلك بأظهر الأشياء لنا وهو النطق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت وفي الرزق.

(٢٤) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾؛ أي: أما جاءك ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم: الملائكة الذين أرسلهم اللّه لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ﴾ مجيبًا لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ عليكم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

(٢٦) ولهذا ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ ذهب سريعًا في خفية؛ ليحضر لهم قراهم ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ من خيار ماله.

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أدناه منهم، وعرض عليهم الأكل، فـ ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تلطف في العبارة وعرض حسن.

قال العلماء: هذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: نأتكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل سمين مشوي فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ألا تأكلون، على سبيل العرض والتلطف؛ كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

(٢٨) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بما جاءوا له ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق عليه السلام.

(٢٩) ﴿فَـ﴾ لما سمعت المرأة البشارة ﴿أَقْبَلَتِ﴾ فرحة مستبشرة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ صيحة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أنى لي الولد، وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم غير صالح رحمي للولادة أصلاً.

(٣٠) ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ اللَّه الذي قدَّر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة اللَّه تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علمًا، فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

(٣١) ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر أنهم رسل أرسلهم اللَّه لبعض الشئون المهمة.

(٣٢) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا: أشركوا باللَّه، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

(٣٣) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ مطبوخ بالنار.

(٣٤) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ لأنهم أسرفوا، وتجاوزوا الحد.

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم لوط عليه السلام وأهل بيته إلا امرأته.

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته فإنها من المهلكين.

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي: في مدن قوم لوط ﴿ءَايَةً﴾ عبرة وموعظة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن اللَّه شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدقون.

(٣٨) ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وما أرسله اللَّه به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات: آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى بذلك السلطان المبين.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح ﴿وَقَالَ﴾ فرعون وقومه: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ إن موسى لا يخلو إما أن يكون أتى به شعبذة ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونًا لا يؤخذ بما صدر منه؛ لعدم عقله.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ ألقيناهم وأغرقناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ مذنب طاغ، عات على اللَّه، فأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(٤١) ﴿وَفِى عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالأشياء الهالكة البالية.

(٤٣) ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ آية عظيمة، حين أرسل اللَّه إليهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فكذبوه وعاندوه، وبعث اللَّه له الناقة آية مبصرة، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًّا ونفورًا ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ فقيل ﴿لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى وقت فناء آجالكم.

(٤٤) ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ترفعوا واستكبروا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم.

(٤٥) ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ لأنفسهم.

(٤٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وكذلك ما فعل اللَّه بقوم نوح، حين كذبوا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفسقوا عن أمر اللَّه، فأرسل اللَّه عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم اللَّه تعالى عن آخرهم، ولم يبق من الكافرين ديارًا، وهذه عادة اللَّه وسنته فيمن عصاه.

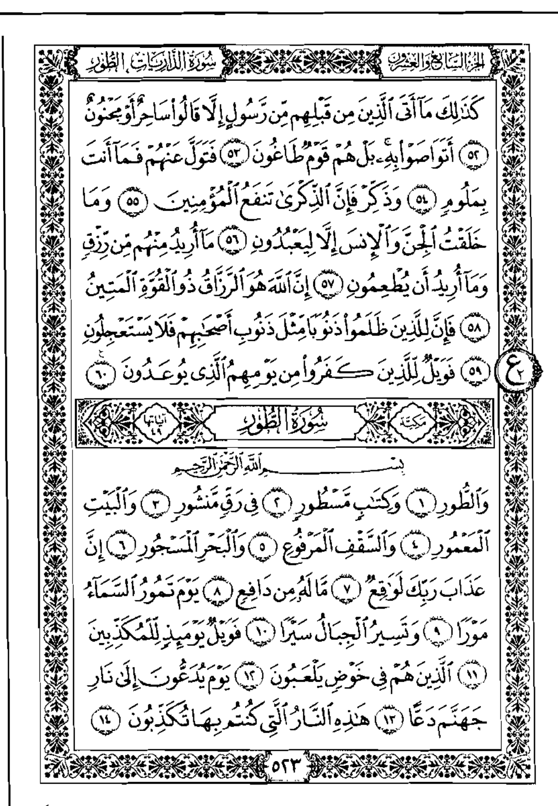
(٤٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾؛ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ بقوة وقدرة عظيمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون -أيضاً- على عبادنا بالرزق.

(٤٨) ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾؛ أي: جعلناها فراشًا للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته حكمته ورحمته وإحسانه.

(٤٩) ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين: ذكر وأنثى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ نعمة الله عليكم.

(٥٠) ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ففروا مما يكرهه اللَّه ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، و من الغفلة إلى ذكر اللَّه، وكل من خِفْتَ منه فررت منه، إلا الله تعالى فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر لكم من عذاب اللَّه، ومخوف بيِّن النذارة.

(٥١) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا من الفرار إلى اللَّه، بل هذا أصل



الفرار إليه: أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير اللَّه من الأوثان، والأنداد، والقبور، وغيرها، مما عبد من دون اللَّه، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

(٥٢) ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ يقول اللَّه مسليًا لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين باللَّه، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأبًا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل، فما أرسل اللَّه من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

(٥٣) ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾يقول اللَّه تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم -الأولين والآخرين- هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضًا بها؟ فلا يستغرب اتفاقهم عليها ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، وكذلك المؤمنون؛ لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه، والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسلهم وتعظيمهم وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

(٥٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

(٥٥) ﴿وَذَكِّرْ﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول فإن اللَّه فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير: أن يذكر ما في المأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطًا وهمة، توجب لهم الانتفاع

(٥٤و٥٥) اخرج الطبري والضياء في «المختارة» والبيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن مجاهد قال: خرج علينا عليّ متعجراً ببرد مشتملًا في خميصة، قال: «لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ اشتد على أصحاب النبيﷺ، فلم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة؛ إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنا، حتى نزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فطابت أنفسنا».

والارتفاع.

﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأخبر اللَّه أن الذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان اللَّه، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها.

(٥٦) ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه الغاية التي خلق اللَّه الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها؛ وهي: عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

(٥٧) ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ فما يريد الله عز وجل من العباد من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى اللَّه الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها.

(٥٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ كثير الرزق ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ الذي له القوة والقدرة كلها.

(٥٩) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وإن للذين ظلموا وكذبوا محمدًا ﷺ ﴿ذَنُوبًا﴾ نصيبًا وقسطًا من العذاب والنكال ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالعذاب؛ فإن سنة اللَّه في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة.

(٦٠) ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب اللَّه -تعالى- نعوذ باللَّه منه.

* * *

سورة الطور
مكية

(١) يقسم تعالى في هذه السورة بأمورعظيمة، مشتملة على الحكم الجليلة، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فقال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ فأقسم بالطور الذي هو طور سيناء، الجبل الذي كلم اللَّه عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام.

(٢) ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ يحتمل أن المراد به: اللوح المحفوظ، ويحتمل أن المراد به: القرآن الكريم.

(٣) ﴿فِى رَقٍّ﴾ الرق ما يكتب فيه، وهو: أديم الصحف ﴿مَّنشُورٍ﴾ مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

---

(٥٧) أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم بإسناد صحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلًا، ولم أسد فقرك».

(١) في «الصحيحين» عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب: (والطور)، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه.

وفيهما عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال: «طوفي من وراء الناس، وأنت راكبة، فطفت ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرا بـ (الطور وكتاب سطور).


الجزء السابع والعشرون — سورة الطور

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

ربع الحزب ٥٣

٥٢٤

(٤) ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام.

(٥) ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ السماء التي جعلها اللَّه سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنارها، وينزل اللَّه منها المطر والرحمة وأنواع الرزق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

(٦) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ المملوء ماء، قد سجره اللَّه، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، أو الموقد الذي يوقد ناراً يوم القيامة فيصير ناراً تلظى، ممتلئًا، على عظمته وسعته، من أصناف العذاب؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

هذه الأشياء التي أقسم اللَّه بها، مما يدل على أنها من آيات اللَّه وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ لا بد أن يقع، ولا يخلف اللَّه وعده وقيله.

(٨) ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه؛ لأن قدرة اللَّه تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب.

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ تدور السماء وتضطرب.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ تزول عن أماكنها، وتسير كسَيْر السحاب.

(١١) ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

(١٢) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ خوض في الباطل ولعب به.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يوم يدفعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً:

(١٤) ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

(١٥) ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع: أهذا

---

(٤) وفي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك -ضمن حديث الإسراء - قال ﷺ: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

سحر لا حقيقة له؛ فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا بصيرة لكم، ولا علم عندكم؟

(١٦) ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم، وتطلع على أفئدتكم ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾أي: وإنما فعل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَنَعِيمٍ﴾ وهذا شامل لنعيم القلب والروح والبدن.

(١٨) ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم اللَّه من النعيم ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فرزقهم المحبوب، ونجاهم من المرهوب؛ لما فعلوا ما أحبه اللَّه، وجانبوا ما يسخطه ويأباه.

(١٩) ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾ مما تشتهيه أنفسكم، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة متهنئين بتلك المآكل والمشارب على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقد نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة.

(٢٠) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية، ووصف اللَّه السرر بأنها مصفوفة؛ ليدل على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهاءها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة: أن ألحق اللَّه بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان؛ أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم اللَّه بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها؛ جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ ومع ذلك لا ينقص اللَّه الآباء من أعمالهم شيئاً.

ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق اللَّه بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار

---

(١٩) أخرج الطبري والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» والبيهقي في «إثبات القدر» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ أي: لا تموتون فيها، فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٨، ٥٩].

دار العدل، ومن عدله - تعالى - أن لا يعذب أحداً إلا بذنب ولهذا قال: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

(٢٢) ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم من لحم الطير وغيرها.

(٢٣) ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية.

(٢٤) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ خدم شباب ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

(٢٥) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها.

(٢٦) ﴿قَالُوٓا۟﴾ في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في دار الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين وجلين فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

(٢٧) ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالهداية والتوفيق ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ العذاب الحار الشديد حره.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات، وندعوه في سائر الأوقات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فمن بره بنا ورحمته إيانا أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

(٢٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ يأمر - تعالى- رسوله ﷺ أن يذكر الناس مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجة اللَّه على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأن لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ منُه ولطفه ﴿بِكَاهِنٍ﴾ له رئي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مائة كذبة ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم.

(٣٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ وتارة يقولون فيه: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ ننتظر به الموت؛ فسيبطل أمره، ونستريح منه.

(٣١) ﴿قُلْ﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ أي: انتظروا بي الموت ﴿فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ نتربص بكم أن يصيبكم اللَّه بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

(٣٢) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ أي: أهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبئس العقول والأحلام، التي أثرت ما أثرت، وصدر منها ما صدر.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع؛ فالطغيان ليس له حد يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه.

(٣٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ تقوّل محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

(٣٤) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه.

(٣٥) ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد اللّه، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن اللّه خلقهم وقد تقرر في العقل مع الشرع أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء؛ أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا -أيضاً- محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم؛ فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث أن اللّه الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك علم أن اللّه تعالى هو المعبود وحده الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

الجزء السابع والعشرون — سورة الطور

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)

سورة النجم — مكية — آياتها ٦٢

٥٢٥

(٣٦) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء للّه، وهذا أمر واضح جدًّا ﴿بَل﴾ ولكن المكذبين ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ ليس عندهم علم تام ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

(٣٧) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾؛ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك فيعطون من يشاءون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على اللّه أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمدا ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة اللّه، وهم أحقر وأذل من ذلك ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾؛ أي: المتسلطون على خلق اللّه وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء.

(٣٨) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ ألهم اطلاع على الغيب واستماع له بين الملأ الأعلى فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ المدعي لذلك ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال.

(٣٩) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ كما زعمتم ﴿وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ كما شئتم، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لهم؛ حيث جعلوا لله ما يكرهونه؛ كقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩].

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ يا أيها الرسول ﴿أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم.

(٤١) ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول اللَّه، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول اللَّه ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه اللَّه من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحدا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض.

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بقدحهم فيك وفيما جئتهم به ﴿كَيْدًا﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ كيدهم في نحورهم، ومضرته عائدة إليهم.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره غير اللَّه تعالى؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى اللَّه، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد، ويصلَّى له ويسجد، ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو اللَّه المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

(٤٤) يقول تعالى في ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا عن الحق وعسوا في دين الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف- أي: قطع كبار من العذاب ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: هذا سحاب متراكم على العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها.

(٤٥) وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾؛ أي: دعهم يا محمد ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم فيه من العذاب والنكال ما لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره.

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا ينتصرون من عذاب اللَّه.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ لما ذكر

اللَّه عذاب الظالمين في القيامة أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة؛ وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

(٤٨) ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أمرَ رسولَه ﷺ: أن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعده اللَّه بالكفاية بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من الليل.

(٤٩) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ آخر الليل ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يدخل في ذلك الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر وصلاة الفجر، وذلك حين تدبر النجوم فتغيب بضوء الصبح.

سورة النجم
وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

نصف الحزب ٥٣

(١) ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هويه؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار؛ لأن في ذلك من آيات اللَّه العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح: أن النجم اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي؛ لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن اللَّه تعالى جعل

---

(٤٨) أخرج البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ ثم صلّى، تقبلت صلاته».

وأخرج أبو داود والنسائي في «الكبرى» وأحمد بإسناد صحيح عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأَخَرَة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى؟ قال: «كفارة لما يكون في المجلس».

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: «والنجم». قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو: أمية بن خلف.

النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ المقسم عليه: تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً حسن القصد، ناصحاً للأمة بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد. وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره

(٣) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ لا يتبع إلاَّ ما أوحى اللَّه إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

ودَلَّ هذا على أن السنة وحي من اللَّه لرسوله ﷺ، وأنه معصوم فيما يخبر به عن اللَّه - تعالى- وعن شرعه.

(٥) ﴿عَلَّمَهُ﴾ نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره اللَّه بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ جبريل عليه السلام

(٧) ﴿وَهُوَ﴾ أي: جبريل، استوى في ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أفق السماء الذي هو أعلى من الأرض، فهو من الأرواح العلوية التي لا تنالها الشياطين، ولا يتمكنون من الوصول إليها.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ عليه من الأفق الأعلى.

(٩) ﴿فَكَانَ﴾ في قربه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قدر قوسين، والقوس معروف ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام .

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ اللَّه بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

(١١) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾؛ أي: اتفق فؤاد

(٣ و ٤) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسوله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال «اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق».

وفي «المسند» و«الأدب المفرد» وغيرهما بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا أقول إلا حقًّا» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقًّا».

(٩ و١٠) أخرج الشيخان عن الشيباني؛ قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قال: حدثنا عبد الله: أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح.

(١١) أخرج الترمذي والطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل، عليه حلتا رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض.

الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوعاه الله إليه، وتواطأ سمعه وبصره، ويحتمل أن المراد بذلك: ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات اللَّه العظيمة، وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته.

(١٢) ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أفتجحدونه ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ من آيات ربه الكبرى ليلة الإسراء.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ رأى محمد ﷺ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مرة أخرى نازلاً إليه.

(١٤) ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وهي شجرة عظيمة جدًّا، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من اللَّه من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق إليها.

(١٥) ﴿عِندَهَا﴾ عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه الأماني، وترغب فيه الإرادات.

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ يغشاها من أمر اللَّه، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا اللَّه عَزَّوَجَلَّ.

(١٧) ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات اللَّه وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه اللَّه فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

(١٩) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ لما ذكر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة اللَّه وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا ﴿ٱللَّٰتَ﴾ من الإله المستحق للعبادة، و﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾ من العزيز.

(٢٠) ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ من «المنان» إلحادًا في أسماء اللَّه، وتجرياً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

---

(١٣) أخرج مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول اللهﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أنَّي أراه!».

(١٦) أخرج مسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما أسري برسول اللهﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض؛ فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها؛ فيقبض منها ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول اللهﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات».

(١٩) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهﷺ: «من حلف؛ فقال في حلفه: واللات والعزى؛ فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك؛ فليتصدق».

الجزء السابع والعشرون — سورة النجم

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

٥٢٧

(٢١) ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أتجعلون للّه البنات بزعمكم، ولكم البنون؟.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ ظالمة جائرة.

(٢٣) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ من حجة وبرهان على صحة مذهبكم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهم في أنفسهم ليسوا بمتبعين لبرهان يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد، والجهل الكاسد ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد.

(٢٤) ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ ومع ذلك يتمنون الأماني، ويفترون بأنفسهم، فأنكر الله على من زعم أنه يجعل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

(٢٦) ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة المقربين وكرام الملائكة ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر: أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه اللّه، موافقاً فيه صاحبُه الشريعة، فالمشركون إذًا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ يعني أن المشركين باللّه المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، بسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرءوا على ما تجرءوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة للّه ولرسوله من قولهم: الملائكة بنات اللّه، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن اللّه ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن اللّه منزه عن الأولاد والصاحبة، وأن الملائكة كرام مقربون

إلى اللَّه، قائمون بخدمته ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ والمشركون إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

(٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أمر اللَّه رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، فأعرض عن العلوم النافعة ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصلوها، وبأيّ طريق سنحت ابتدروها.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ هذا منتهى علمهم وغايته، واللَّه تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق ذلك فيكله إلى نفسه ويخذله، فيضل عن سبيل اللَّه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

(٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يخبر -تعالى- أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك للَّه، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ العمل من الكفر فما دونه ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ من أعمال الشر بالعقوبة البليغة ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ في عبادة اللَّه تعالى، وأحسنوا إلى خلق اللَّه بأنواع المنافع ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ يفعلون ما أمرهم اللَّه به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار؛ كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ وهي الذنوب الصغار التي لا يُصِرُّ صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد

---

(٣٢) أخرجه الشيخان وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وأخرج مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء؛ قال: سميت ابنتي: برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برّة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها: زينب».

وأخرج الطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» بإسناد حسن: عن ثابت بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير: هو صديق، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «كذبت يهود؛ ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد»؛ فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾».

المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات تدخل تحت مغفرة اللّه التي وسعت كل شيء ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم اللّه به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض المحرمات وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشأكم اللّه من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان اللّه تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه - تعالى- بأحوالكم هذه ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن اللّه -تعالى- أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون اللّه له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فإن التقوى محلها القلب، واللّه هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى وأما الناس؛ فلا يغنون عنكم من اللّه شيئاً.

(٣٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدى ويمنع فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها اللّه بها.

(٣٥) ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ هل يعلم الغيب ويخبر به، أم هو متقول على اللّه، متجرئ على الجمع بين الإساءة والتزكية كما هو الواقع؛ لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك؛ فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

(٣٦) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ هذا المدعي ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ التوراة.

(٣٧) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ قام بجميع ما ابتلاه اللّه به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره اللّه بقوله:

(٣٨) ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء في الذنوب؛ فإنمَّا عليها وزرها لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

(٣٩) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء.

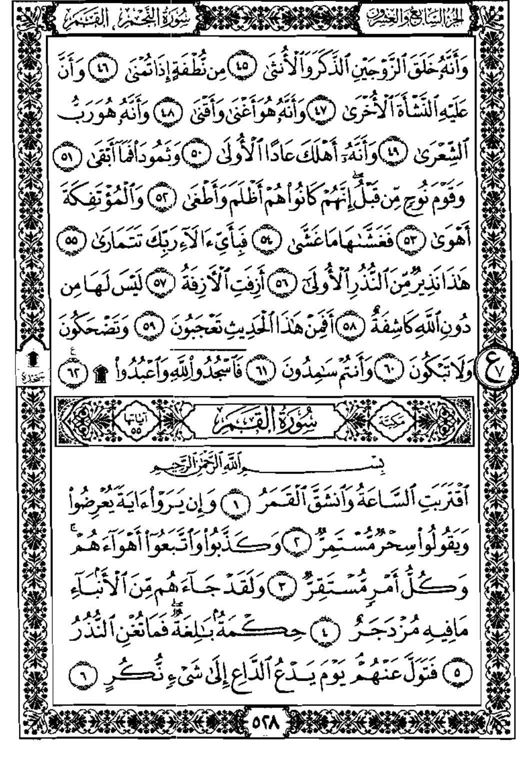
قال العلماء: هذه الآية الكريمة محكمة غير منسوخة، وقد استنبط منها الإمام الشافعي رحمه الله: أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يتقصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة؛ فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما.

(٤٠) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ في الآخرة فيميز حسنه من سيئه.

(٤١) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه.

(٤٢) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات.

(٤٣) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ هو الذي



أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو: الخير والشر، والفرح والسرور، والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

(٤٤) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

(٤٥) ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ فسر الزوجين بقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد

---

(٣٩) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به».

(٤٢) أخرج الطبراني في «الأوسط» واللالكائي والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن بمجموع طرقه وشواهده، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل».

بخلقها.
(٤٦) ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته، وانفراده بالعزة العظيمة؛ حيث أوجد تلك الحيوانات: صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.
(٤٧) ولهذا استدل بالبداءة على الإعادة، فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.
(٤٨) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه -تعالى-، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له.
(٤٩) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ وهي النجم المعروف بالشعرى العبور، المسماة: المِرْزَم، وخصها اللّه بالذكر، وإن كان ربّ كل شيء؛ لأن هذا النجم مما عُبِدَ في الجاهلية، فأخبر -تعالى- أن جنس ما يعبده المشركون مربوب مدبر مخلوق،فكيف تتخذ إلهًا مع اللّه؟!
(٥٠) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين كذبوا هوداً، فأهلكهم اللّه بريح صرصر عاتية.
(٥١) ﴿وَثَمُودَا﴾ قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرسله اللّه إلى ثمود، فكذبوه، فبعث اللّه إليهم الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم اللّه تعالى، ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم اللّه عن آخرهم.
(٥٢) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ من هؤلاء الأمم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ فأهلكهم اللّه وأغرقهم في اليَمِّ.
(٥٣) ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وهم قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَهْوَىٰ﴾ أصابهم اللّه بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل.
(٥٤) ولهذا قال: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى؛ أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.
(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ فبأي: نعم اللّه وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم اللّه ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.
(٥٦) ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد اللّه ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟
(٥٧) ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ قربت القريبة؛ وهي: القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها.
(٥٨) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به لا يدفعه

أحد دون الله، ولا يطلع عليه سواه سبحانه.

(٥٩) ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه.

(٦٠) ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة.

(٦١) ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ غافلون عنه.

(٦٢) ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ الأمر بالسجود للّه خصوصاً؛ ليدل ذلك على فضله، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع للّه والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد؛ فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام﴿وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة.

* * *

سورة القمر
مكية

(١) ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ يخبر -تعالى- أن الساعة، وهي القيامة اقتربت، وآن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع ذلك؛ فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريهم اللّه من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر.

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد اللّه ﷺ: أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن اللّه تعالى؛ فانشق فلقتين: فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل.

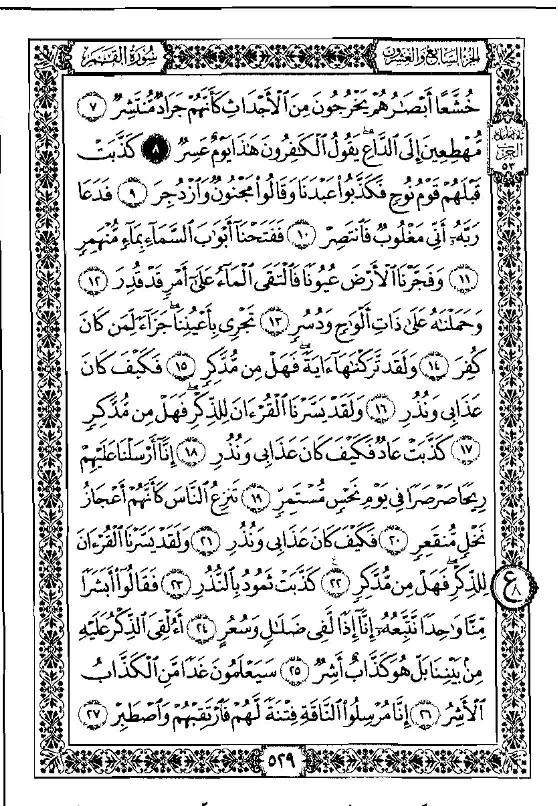
(٢) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوة محمد ﷺ، ودلالة تدلهم على صدقه فيما جاءهم على به عن ربهم ، يعرضوا عنها، فيولوا مكذبين بها منكرين أن يكون حقًا يقينًا ﴿وَيَقُولُوا۟﴾ تكذيباً

---

(٦٢) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

(١) في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت والساعة هكذا» وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى.

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما.



منه وإنكاراً لها أن تكون حقًّا: هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ سَحَرَنَا به محمد حين خيَّل إلينا أنَّا نرى القمر منفلقًا باثنين بسحره، وهو سحر ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب.

وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل والرد لها ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: وإن يروها؛ بل قال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾.

(٣) وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولذلك قال: ﴿وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لآمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ؛ لأنه أراهم اللَّه على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دلَّ على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة اللَّه ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط اللَّه وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

(٤) ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم.

(٥) وذلك ﴿حِكْمَةٌ﴾ منه تعالى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ لتقوم حجته على المخالفين ولا يبقى لأحد على اللَّه حجة بعد الرسل ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ عن قوم كذبوا واتبعوا أهواءهم.

(٦) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، وهو موقف الحساب وما فيه من بلاء، بل والزلازل والأهوال، فلم تر مَنْظراً أفظع ولا أوجع منه، وذلك بعد أن ينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

(٧) ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من كثرتهم وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ مبثوث في الأرض، متكاثر جداً.

(٨) ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين لإجابة النداء

الداعي ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ شديد الهول.

(٩) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً؛ أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم اللّه وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه اللّه إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد اللّه وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك.

ولم يزل نوح يدعوهم إلى اللّه ليلاً ونهاراً، وسرّا وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح -عليه الصلاة والسلام- جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى اللّه -تعالى-.

(١٠) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ فعند ذلك دعا نوح ربه؛ فقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ اللّهم لي منهم.

(١١) فأجاب اللّه سؤاله، وانتصر له من قومه: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ كثير جداً متتابع.

(١٢) ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء؛ لأنه موضع النار.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ماء السماء والأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ﴾ من اللّه له بذلك ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ قد كتبه اللّه في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

(١٣) ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ونجينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدسر؛ أي: المسامير التي قد سمرت، بها ألواحها، وشد بها أسرها.

(١٤) ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من اللّه، وحفظ منه لها عن الغرق ونظر ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام جزاء له؛ حيث كذبه قومه وكفروا به، فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر اللّه، فلم يرده عنه راد، ولا صده عنه صاد.

(١٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ ولقد تركنا قصة نوح مع قومه ﴿ءَايَةً﴾ يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه اللّه بعقاب عام شديد.

أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من اللّه لعبده نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أبقى اللّه -تعالى- صنعتها وجنسها بين الناس؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]؛ ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فهل من متذكر للآيات، ملق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟

(١٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب اللَّه الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحد عليه حجة.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، ولهذا يدعو اللَّه عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

(١٨) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هي القبيلة المعروفة باليمن؛ أرسل اللَّه إليهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلى توحيد اللَّه وعبادته؛ فكذبوه ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فكيف كان عذابي الذي أنزلته بهم وإنذاري لهم كان أشد ما يكون.

(١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ فأرسل اللَّه عليهم شديدة جدًا ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً.

(٢٠) ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته الريح فسقط على الأرض.

(٢١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كان واللَّه العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة.

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أعاد -تعالى- ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

(٢٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ كذبت ثمود القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر نبيهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين دعاهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه فكذبوه واستكبروا عليه.

(٢٤) ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ وقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ كيف نتبع بشراً لا -ملكاً-، منا، لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾أي: إنا لضالون أشقياء.

(٢٥) ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ كيف يخصه اللَّه من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأيّ مزية خصه من بيننا؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ كثير الكذب والشر.

(٢٦) ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين ينزل بهم العذاب في الدنيا أو يحل بهم عذاب الآخرة﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد، فهم المعذبون بكفرهم وتكذيبهم.

(٢٧) ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ فأرسل اللَّه الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم، آية من آيات اللَّه، ونعمة يحتلبون من ضرعها ما يكفيهم أجمعين ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ اختباراً منه لهم وامتحاناً ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ اصبر على دعوتك إياهم، وارتقب ما يحل بهم، أو ارتقب هل يؤمنون

أو يكفرون؟

(٢٨) ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْ﴾ وأخبرهم أن الماء؛ أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره من كان قسمته، ويحظر على من ليس بقسمة له.

(٢٩) ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ انقاد لما أمروه به من عقرها ﴿فَعَقَرَ﴾

(٣٠) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ كان أشد عذاب.

(٣١) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجرة والشوك دون السباع، فما سقط من ذلك فداسته الغنم؛ فهو الهشيم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ سهلنا هذا القرآن الكريم ﴿لِلذِّكْرِ﴾ للتلاوة والحفظ والتدبر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يدعو الله هذه الأمة إلى الاعتناء بكتابة؛ فإنه مصدر كمالهم وسعادتهم.

(٣٣) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ﴾ لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم.

(٣٤) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي الحجارة ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ خرجوا من آخر الليل؛ فنجوا مما أصاب قومهم.

(٣٥) ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم جزاء

الجزء السابع والعشرون — سورة القمر

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

٥٣٠

على شكرهم لربهم وعبادته وحده لا شريك له.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ شكوا في الإنذار، وكذبوا به ولم يصدقوا.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ طلبوا أن يسلّم إليهم أضيافه ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وذلك أنهم لما قصدوا دار لوط وعالجوا الباب ليدخلوا قالت الرسل للوط: خلّ بينهم وبين الدخول فإنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فدخلوا الدار فصفقهم جبريل بجناحه بإذن الله، فتركهم عميًا:

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود،

مسومة عند ربك للمسرفين.

(٣٩) ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قلنا لهم: فذوقوا عذابي ونذر، حيث كنتم تمارون وتستهزئون.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هذا القرآن يسرناه للحفظ، وسهلناه للفهم والاتعاظ به، فهل من معتبر ومتعظ؟!

(٤١) ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ فأرسل اللّٰه إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرات، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم.

(٤٢) ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فكذبوا بآيات اللّٰه كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده.

(٤٣) والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر اللّٰه هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرًا منهم، فليسوا بخير منهم ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أم أعطاكم اللّٰه عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار اللّٰه ووعده؟ وهذا غير واقع فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها.

(٤٤) ثم قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء.

(٤٥) فقال تعالى مبيناً لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم اللّٰه جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به، ونصر اللّٰه دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

(٤٦) ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال.

(٤٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره من المعاصي ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب ﴿وَسُعُرٍ﴾ ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم.

---

(٤٥) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: وهو في قُبَّة له يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده، وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يَثِبُ في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

(٤٨) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن اللَّه - تعالى- وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

(٥٠) وذلك على اللَّه يسير؛ فلهذا قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فإذا أراد شيئاً قال: له كن، فيكون كما أراد كلمح البصر من غير ممانعة ولا صعوبة.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة اللَّه في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ كل ما فعلوه

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ — مدنية — آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية.

(٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾؛ أي: مسطر مكتوب وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها اللَّه تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

(٤٨ و ٤٩) أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن بطة واللالكائي بإسناد حسن: عن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع في ماء زمزم قد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تكلم في القدر، فقال: أو قد فعلوها؟! فقلت: نعم، قال: فوالله ما أنزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أولئك شرار هذه الأمة، لا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن أريتني أحداً منهم، فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

(٥٣) أخرج النسائي في «الكبرى» وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن لها من الله طالباً».

(٥٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للَّه، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في دار كرامة اللَّه ورضوانه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون.

* * *

سورة الرحمن وهي مكية

(١) هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله.

(٢) فذكر أنه ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده؛ حيث أنزل عليهم قرآناً عربيًّا بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارئ تعالى البديع خلقه أيّ إتقان، وميزه على سائر الحيوانات.

(٤) بأن ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾؛ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز اللَّه به الآدمي على غيره من أجلّ نعمه، وأكبرها عليه.

(٥) ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ خلق اللَّه الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر، رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب.

(٦) ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ اختلف المفسرون في معنى النجم في هذه الآية:

فقالت طائفة: النجم ما انبسط على وجه الأرض من النبات فلا ساق له.

وقال آخرون: النجم هو الكوكب الذي في السماء.

قلت: وكلاهما معتبر صحيح؛ فعلى الأول يدل قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، وعلى الآخر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ ما له ساق فقام عليه ﴿يَسْجُدَانِ﴾

---

(٥٤) أخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

(١) أخرج الترمذي والحاكم والبيهقي في «دلائل النبوة» وغيرهم بإسناد حسن لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة «الرحمن» من أولها إلى آخرها فسكتوا؛ فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد».

تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخشع وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ سقفها للمخلوقات الأرضية ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ووضع اللَّه الميزان؛ أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال:

(٨) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أنزل اللَّه الميزان؛ لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم؛ لحصل من الخلل ما اللَّه به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان.

(١٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ اللَّه على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها للخلق؛ لكي يستقروا عليها.

(١١) ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح وغير ذلك ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئا فشيئا حتى تتم.

(١٢) ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون اللَّه قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان: الريحان المعروف، وأن اللَّه امتن على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشامّ الفاخرة، التي تسر الأرواح، وتنشرح لها النفوس.

(١٣) ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم -تعالى- بنعمه؛ فقال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ أي: فبأيّ نعم اللَّه الدينية والدنيوية تكذبان؟

(١٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أبا الإنس، وهو آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار .

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجن، وهو إبليس اللعين ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان.

---

(١٣) أخرج أحمد والطبراني بإسناد صحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(١٥) أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

(١٦) ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك وكان ذلك منة منه تعالى على عباده؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

(١٧) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ هو -تعالى- رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، وكل ما كانا فيه فهي تحت تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقي الشمس شتاء وصيفاً، ومغربها كذلك.

(١٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الجن والإنس إنها نَعِمٌ تفوق عدّ الإنسان والجان، فلا ينبغي أن يختلف في شكر الله اثنان.

(١٩) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ ولكن اللّه تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء، ويتولد الحوت والسمك. .

(٢١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنها نعم ربانية لفائدة الإنسان والجان؛ فشكرها واجب.

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ ويتولد من مجموع البحرين العذب والمالح ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ كباره وجيده ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ الخرز الأحمر.

(٢٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٢٤) ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ وسخر -تعالى- لعباده السفن الجواري: التي تمخر البحر وتشقه بإذن اللّه ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ التي ينشئها الآدميون ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ فتكون من كبرها وعظمها كالأعلام، وهي: الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض.

(٢٥) وهذه من نعم اللّه الجليلة؛ فلذلك قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ كل مَنْ على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبيد.

(٢٧) ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله الإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أولياؤه ويجلونه، ويعظمونه

ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه.

(٢٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبنعمة إيجادكما وامدادكما بالأرزاق والخيرات طوال الحياة، أم بنعمة إنهاء أتعابكما وتكاليفكما، أم بإهلاك أعدائكما، وإدنائكما من النعيم المقيم في جنات النعيم، قولوا خيراً لكم: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٢٩) ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين، التي أخبر أنه -تعالى- كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته.

(٣٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فملكوت كل شيء بيده، وأمره راجع إليه، فهو مسدي النعم وذو الجود والكرم.

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

(٣٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيجازي من شكر نعمه بالحسنى وزيادة، ويحاسب من كفر بنعمه؛ فيصليه دار البوار وبئس القرار.

(٣٣) إذا جمعهم اللَّه في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزًا لهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تجدون منفذاً مسلكاً تخرجون به عن ملك اللَّه وسلطانه ﴿فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًا، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟!.

(٣٤) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فلا نجاة لكما إلا برحمته، ولا فوز لكما بجنات النعيم إلا بفضله، فالملك يومئذ لله الحق.

(٣٥) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: يرسل عليكما لهب صاف من النار.

﴿وَنُحَاسٌ﴾ وهو اللَّهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنى: أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون اللَّه.

(٣٦) ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب امتن عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٧) ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها

---

(٢٩) أخرج ابن ماجه وابن حبان وابن أبي عاصم في «السنة» بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

الجزء السابع والعشرون — سورة الرحمن

يَعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

٥٣٣

﴿فَكَانَتْ﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه.

(٣٨) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فمن الذي ينجيكم من هذه الأهوال وكيف تأمنون من هذا الفزع الأكبر.

(٣٩) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ سؤال استعلام بما وقع؛ لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم.

(٤٠) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فنعمه سبحانه عمت جميع الخلق ووسعتهم؛ فلا يجحدها إلا مجرم، ولا يشقى بها إلا هالك.

(٤١) ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ علامات تظهر عليهم؛ وهي: سواد الوجوه وزرقة العيون؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار، ويسحبون فيها.

(٤٢) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبنعمة العدالة أم بنعمة إكرام المتقين الصالحين قولوا: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد من قبل ومن بعد.

(٤٣) يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم.

(٤٤) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ماء حار جدًا قد انتهى حره، وزمهرير قد اشتد برده وقرّه.

(٤٥) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وكل ما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ إلى هاهنا مواعظ وزواجر وتخويف، وكل ذلك نعمة من الله تعالى؛ لأنها تزجر عن المعاصي؛ ولذلك ختم كل آية بقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٤٦) ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وللذي خاف ربه وقيامه عليه؛ فترك ما نهى عنه، وفعل ما =

(٤٦) أخرج النسائي في «الكبرى» وأحمد والطبري بإسناد صحيح: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ» فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ» فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي الدرداء».

=

أمره به، له جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات.

(٤٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبهذا النعيم والإثابة للمتقين تكذبان.

(٤٨) ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه وفي كل نوع وصنف أفنان من الخيرات.

(٥٠) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون.

(٥١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا العطاء والإفضال تكذبان؟

(٥٢) ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زَوْجَانِ﴾ صنفان.

(٥٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا الإنعام والإكرام لأهل التقوى تكذبان؟

(٥٤) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ جلوس تمكن واستقرار وراحة ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة، والذي تحت الظهارة، ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو أحسن الحرير وأفخره، نبه سبحانه على شرف الظهارة بشرف البطانة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. قال العلماء: هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الظواهر؟ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى هو الثمر المستوي ﴿دَانٍ﴾ وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا النعيم الدائم تكذبان؟

(٥٦) ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهن لهم، وقصرن -أيضاً- طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصالهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لم ينلهن قبلهم أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحببات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال.

(٥٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا الفضل العميم في ظل ظليل ونعيم مقيم عند ملك كريم تكذبان؟

(٥٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صفاء الياقوت في بياض المرجان، وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن.

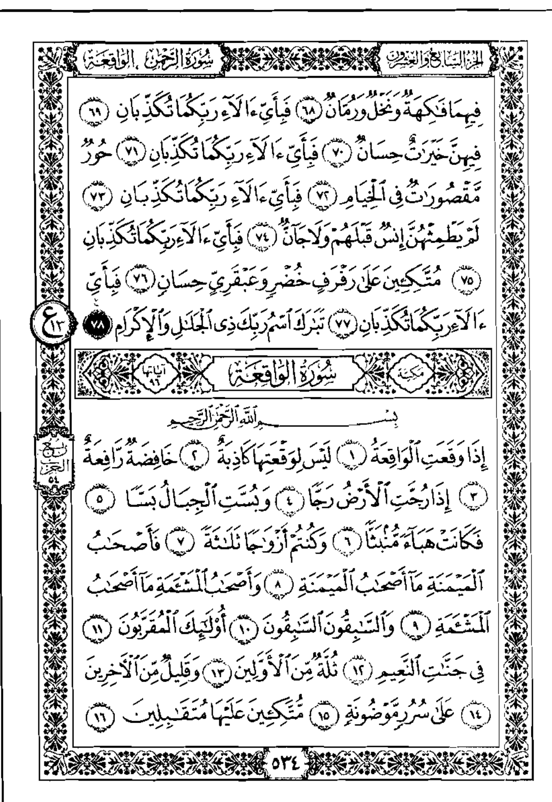
(٥٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا العطاء الذي لم تره عين ولم تسمع به أذن من قبل تكذبان؟!

(٦٠) ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين.

(٦١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا النعيم العظيم والفوز الكبير تكذبان يا معشر الجن والإنس، فقولا: لا بشيء من آلاء ربنا نكذب؛

= وفي «الصحيحين»، عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة: آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

(٥٦ و ٥٨) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «للرجال من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب».


الجزء السابع والعشرون — سورة الرحمن، الواقعة

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الوَاقِعَةِ — مكية — آياتها ٩٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

٥٣٤

فلك الحمد والمنة على الإسلام والسنة.

(٦٢) ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي من دون الجنتين الأوليين في الفضل والدرجات ﴿جَنَّتَانِ﴾ من فضة بنيانهما وآنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين.

(٦٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

اللهم ارزقنا ما شئت منهما؛ فإنا بعطائك راضون، ولآلائك شاكرون، ولك عابدون؛ فلا نكذب في إفضالك، ولا نمتري في إنعامك، فلك الحمد في الأولى والآخرة.

(٦٤) وتلك الجنتان ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

(٦٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بأي إنعام تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ فإنه إنعام على إثر إنعام.

(٦٦) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان.

(٦٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بأي إحسان وإكرام تكذبان؟

(٦٨) ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من جميع أصناف الفواكه وأخصها النخل والرمان اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

(٦٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٧٠) ﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنات كلها ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق.

(٧١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا الإحسان على عباد الرحمن تكذبان؟

(٧٢) ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ مستورات في الحجال، محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن المخدرات الخفرات.

(٧٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا الرضوان على أهل الإيمان تكذبان؟

(٧٤) ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ لم يجامعهن فيفضي بكارتهن ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قبل أزواجهن

(٧٢) أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون».

في الجنة.

(٧٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا الجود والكرم تكذبان؟

(٧٦) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أصحاب هاتين الجنتين متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي: الفرش التي فوق المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعومة الملمس.

(٧٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبنعم الدنيا أم بنعم البرزخ أم بنعم الآخرة تكذبان؟

(٧٨) ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ تعاظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

* * *

سورة الواقعة
وهي مكية

(١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي

(٢) ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ لا شك فيها؛ لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالى.

(٣) ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأناس في أسفل سافلين ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأناس في أعلى عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب، و رفعت؛ فأسمعت البعيد.

(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ حركت واضطربت وزلزلت زلزالاً شديداً.

(٥) ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ فتّتت.

(٦) ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

(٧) ﴿وَكُنتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة.

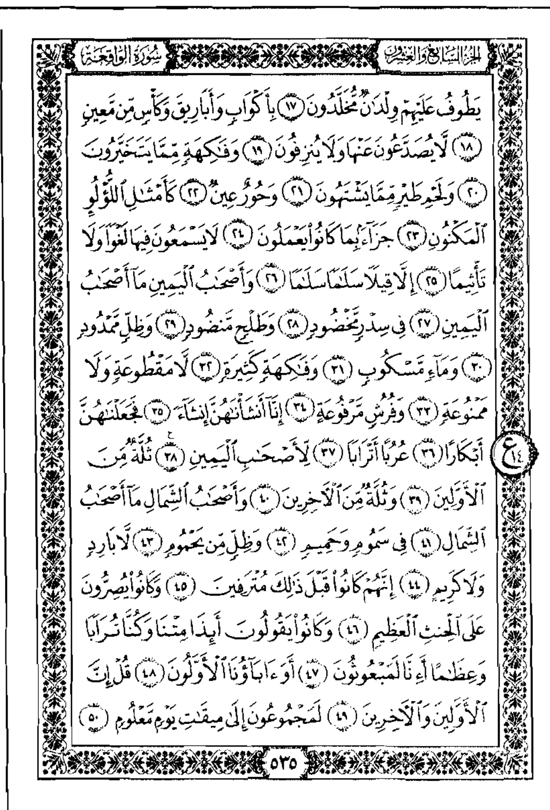
(٨) ثم فصّل أحوال الأزواج الثلاثة فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم.

---

(٧٨) أخرج النسائي وأحمد والحاكم بإسناد صحيح من حديث ربيعة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَلِظُّوا بذي الجلال والإكرام».

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا سلّم لا يقعد -يعني بعد الصلاة- إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركْتَ يا ذا الجلال والإكرام».

(١) أخرج أحمد والطبراني وعبد الرزاق والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر بن سمرة رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكن كان يخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة، ونحوها من السور».



(٩) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تهويل لحالهم.

(١٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

(١١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هذا وصفهم، ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله.

(١٢) ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها.

(١٣) وهؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها؛ لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين.

(١٥) والمقربون هم خواص الخلق ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من الحلي الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

(١٦) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على تلك السرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ﴾ يدور على أهل الجنة لخدمة وقضاء حوائجهم ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ مستور، لا يناله ما يغيره، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم.

(١٨) ويدورون عليهم بآنية شرابهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهي التي لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأواني التي لها عرى ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها.

(١٩) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ لا تصدعهم رءوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمر الدنيا.

(٢٠) ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه.

(٢١) ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أيّ جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشويًّا، أو طبيخاً، أو غير ذلك.

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعِين: حسان الأعين وضخامها، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

(٢٣) ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان.

(٢٤) ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن اللّٰه لهم الجزاء، ووفَّر لهم الفوز والنعيم.

(٢٥) ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ لا يسمعون في جنات النعيم كلامًا يلغي، ولا يكون فيه فائدة ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ ولا كلاماً يؤثم صاحبه.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ إلا كلاماً طيباً.

(٢٧) ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ الذين يأخذون كتابهم بإيمانهم ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾شأنهم عظيم، وحالهم جسيم.

(٢٨) ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص الظل الظليل، وراحة الجسم فيه.

(٢٩) ﴿وَطَلۡحٖ﴾ والطلح معروف، وهو شجر كبار يكون بالبادية، أو الموز ﴿مَّنضُودٖ﴾متراكم الثمر.

(٣٠) ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ دائم إذ الشمس لا تنسخه.

(٣١) ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة.

(٣٢) ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة الألوان.

---

(٢١) أخرج الترمذي وابن جرير وأحمد والمقدسي في «صفة الجنة» والحاكم بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة-، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر». قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ «أَكَلَتُها أنعم منها».

(٢٨) أخرج الحاكم والبيهقي في «البعث والنشور» وابن المبارك في «الزهد» بإسناد صحيح لغيره عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم؟ قال: أقبل أعرابي؛ يوماً فقال: يا رسول! ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله: «وما هي؟» قال: السدر؛ فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر».

(٣٠) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾».

(٣٢) أخرج الإمام أحمد وابن أبي عاصم في «السنة» والطبراني وابن حبان والبيهقي في «الشعب» بإسناد صحيح عن عامر بن زيد البكالي: أنه سمع عتبة بن عبد السلمي يقول: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: «نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى» فذكر شيئاً لا أدري ما هو، قال: أي شجر أرضنا تشبه؟ قال: «ليست تشبه شيئا من شجر أرضك» فقال النبي ﷺ: «أتيت الشام؟» قال: لا. قال: «تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، وينفرش أعلاها» قال ما عظم أصلها؟ قال: «لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً» =

(٣٣) ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات وتكون ممتنعة متعسرة على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أيّ حال يكون.

(٣٤) ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا اللَّه.

(٣٥) ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء.

(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ صغارهن وكبارهن وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف -وهو البكارة- ملازم لهن في جميع الأحوال.

(٣٧) كما أن كونهن ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحببة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبتها. والأتراب: اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب.

(٣٨) ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: معدات لهم مهيئات.

(٣٩) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين.

(٤٠) ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وعدد كثير من

= قال: فيها عنب؟ قال: «نعم» قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتر» قال: فما عظم الحبة! قال: «هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً؟» قال: نعم. قال: «فسلخ إهابه فأعطاه أمك، فقال: اتخذي لنا منه دلواً؟» قال: نعم قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي؟ قال: «نعم وعامة عشيرتك».

(٣٦) أخرج ابن حبان وأبو نعيم في «صفة الجنة»، والضياء المقدسي في «صفة الجنة» بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: أنه قيل له: أنَطأُ في الجنة؟ قال: «نعم -والذي نفسي بيده - دَحْماً دَحْماً، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً».

(٣٧) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» وابن أبي داود في «البعث والنشور» والطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن لغيره عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيﷺ، قال عن الحور في الجنة: « يتغنين يقلن: نحن الحور الحسان هدينا لأزواج كرام».

(٣٩ و٤٠) أخرج الإمام أحمد والطبري وابن أبي حاتم بإسناد صحيح لغيره عن عمران بن حصين عن عبد الله بن مسعود -قال: وكان بعضهم يأخذ عن بعض - قال: أكرينا ذات ليلة عند رسول اللهﷺ، ثم غدونا عليه، فقال: «عرضت علي الأنبياء وأتباعها بأممها، فيمر علي النبي، والنبي في العصابة، والنبي في الثلاثة، والنبي ليس معه أحد -وتلا قتادة هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]- قال: حتى مرّ علي موسى بن عمران في كبكبة من بني إسرائيل. قال: قلت: ربي من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بني إسرائيل. قال: قلت: رب فأين أمتي؟ قال: انظر عن يمينك في الظراب. قال: «فإذا وجوه الرجال. قال: قال: أرضيت؟ قلت: قد رضيت رب. قال: انظر إلى الأفق عن يسارك فإذا وجوه الرجال. قال: أرضيت؟ قلت: رضيت رب. قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب». قال: وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد - قال سعيد: وكان بدريًّا - قال: يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم. قال: فقال: «اللهم اجعله منهم» قال: أنشأ رجل آخر، قال: يا نبي الله: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة» قال: فقال رسول اللهﷺ: «فإن استطعتم أن تكونوا من أصحاب السبعين؛ فافعلوا وإلا فكونوا من =

الآخرين.

(٤١) ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ المراد بأصحاب الشمال هم: أصحاب النار، والأعمال المشئومة ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تحقيراً لشأنهم وبياناً لعقوبتهم.

(٤٢) فذكر الله لهم من العقاب ما هم حقيقون به؛ فأخبر أنهم ﴿فِي سَمُومٖ﴾ ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق ﴿وَحَمِيمٖ﴾ ماء حار يقطع أمعاءهم.

(٤٣) ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ لهب نار يختلط بدخان.

(٤٤) ﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ لا برد فيه ولا كرم، والمقصود: أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده.

(٤٥) ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم الله عليه.

(٤٦) ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: كانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم فقدموا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة.

(٤٧) ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ﴾ ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا فكنا تراباً وعظاماً؟ هذا من المحال.

(٤٨) ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أيضاً مبعوثون

سورة الواقعة — الجزء السابع والعشرون

ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

نصف الحزب ٥٤ — ٥٣٦

كذلك؟!

(٤٩) قال تعالى جوابًا لهم وردًا عليهم: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى ﴿ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ بالرسول ﷺ

= أصحاب الظراب، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق، فإني قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشبوا حوله». ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة». قال: فكبرنا. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفاً فقلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا. قال: فبلغه ذلك فقال: «بل هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

وما جاء به من الحق والوعد والوعيد.

(٥٢) ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظراً.

(٥٣) ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ والذي أوجب لهم أكلها -مع ما هي عليه من الشناعة- الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

(٥٤) ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ وأما شرابهم؛ فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون.

(٥٥) ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي: شرب الإبل العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو أن الهيم داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

(٥٦) ﴿هَٰذَا﴾ الطعام والشراب ﴿نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ضيافتهم وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها على ضيافة اللّه لأوليائه.

(٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

(٥٨) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: أفرأيتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون.

(٥٩) ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم اللّه تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وآلتها من الذكر والأنثى، وهدى كلا منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب للتناسل.

(٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ صرفناه بينكم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ وما نحن بعاجزين.

(٦١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ نغير خلقكم يوم القيامة ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في الصفات والأموال.

(٦٢) ولهذا أحالهم اللّه تعالى على الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم.

(٦٣) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلاً عن شكرها، وأداء حقها.

(٦٤) فقررهم بمنته؛ فقال: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أي: أأنتم أخرجتموه نباتا من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حبًا حصيداً

(٦٣ ـ ٦٤) أخرج الطبري والبزار والطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولن: زرعت، ولكن قل: حرثت» قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾.

وثمراً نضيجاً؟ أم اللَّه الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ اللَّه وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين.

(٦٥) فقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: لجعلنا الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿حُطَٰمًا﴾ فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطاما، بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تندمون وتحسّرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم.

(٦٦) فتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا.

(٦٧) ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأيِّ سبب دهيتم، فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ فاحمدوا اللَّه -تعالى- حيث زرعه اللَّه لكم، ثم أبقاه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

(٦٨)﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ لما ذكر -تعالى- نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن اللَّه يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه.

(٦٩) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله اللَّه تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة، ومن نعمته أن جعله عذبا فراتا تسيغه النفوس.

(٧٠) ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس، لا ينتفع به ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ اللَّه تعالى على ما أنعم به عليكم.

(٧١) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها؛ فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار .

(٧٢) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنما اللَّه تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفأوها وأخمدوها.

(٧٣) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها اللَّه للعاصين،

---

(٧١) أخرج الشيخان ومالك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقال: يا رسول الله! إن كانت لكافية. فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

(٧٣) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن رجل من المهاجرين من قرن أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء».



وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ المنتفعين أو المسافرين، وخص اللَّه المسافرين؛ لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك، وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى.

(٧٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها؛ أي: مساقطها في مغاربها، وما يحدث اللَّه في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده.

(٧٦) ثم عظم هذا المقسم به، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإنما كان القسم عظيماً؛ لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبرا لا يمكن حصرها.

(٧٧) ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ وأما المقسم عليه؛ فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب اللَّه ويستنبط منه.

(٧٨) ﴿فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون، هو: اللوح المحفوظ؛ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند اللَّه، وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

(٧٩) ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام: الذين طهرهم اللَّه -تعالى- من الآفات، والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتنبيهها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر؛ كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبر بمعنى النهي؛ أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

(٨٠) ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إن هذا القرآن

---

(٧٩) أخرج مالك بإسناد صحيح عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «لا يمس القرآن إلا طاهر».

الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربى بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم اللَّه به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً ومما يجب عليهم أن يقوموا به ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به، ولهذا قال:

(٨١) ومما يجب عليهم أن يقوموا به ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به، ولهذا قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون؛ أي: تختفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم؛ فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ولا يختفى، بل يصدع به ويعلن.

(٨٢) ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تجعلون مقابلة منة اللَّه عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة اللَّه.

(٨٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم.

(٨٤) ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة.

(٨٥) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون.

(٨٦) ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين.

(٨٧) ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

(٨٨) ولمَّا ذكر اللَّه -تعالى- أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار، ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ الميت ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات

---

(٨٢) أخرج الطبري بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقرأ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

وأخرج الشيخان عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب».

(٨٨ - ٩٣) أخرج أحمد بإسناد حسن لغيره عن رجل من الصحابة لم يسم قال: سمع رسول الله ﷺ يقول: «من =

وفضول المباحات.

(٨٩) ﴿فَرَوْحٌ﴾ فلهم راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

(٩٠) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم.

(٩١) ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ فيقال لأحدهم: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين. أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب؛ لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلموا من الذنوب الموبقات.

(٩٢) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى.

(٩٣) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم الحديد المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود.

(٩٤) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكره اللَّه تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد اللَّه عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له؛ فحمدوا اللَّه -تعالى- على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة، والمنحة الجسيمة.

(٩٦) ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

= أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» قال: فأكب القوم يبكون، فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: إنا نكره الموت. قال: «ليس ذلك، ولكنه إذا حضر ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ فإذا بشر بذلك، أحب لقاء الله، والله للقائه أحب، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ فإذا بشر بذلك، كره لقاء الله، والله للقائه أكره».

(٩٦) أخرج الترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن حبان بإسناد صحيح لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

سورة الحديد
وهي مدنية

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يخبر -تعالى- عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه: أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامتة وغيرها، تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

(٢) ثم أخبر عن عموم ملكه؛ فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.



(٣) ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

---

(٣) أخرج أبو داود بإسناد حسن عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به. قال لي: أشيء من شك؟ قال: - وضحك - قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤]. قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً؛ فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذ أحدنا مضجعه أن يقول: «اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر؛ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء، وأنت الباطن؛ فليس دونك شيء؛ اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر».

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: علا وارتفع ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات فوق جميع خلقه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من حب وحيوان ومطر وغير ذلك ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وهذه المعية، معية العلم والاطلاع ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم.

(٥) ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

(٦) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدءون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته.

(٧) ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها اللَّه في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ جمعوا بين الإيمان باللَّه ورسوله، والنفقة في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أعظمه وأجله رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعده اللَّه للمؤمنين والمجاهدين.

---

(٤) أخرج أبو داود والبخاري في «التاريخ الكبير» والبيهقي في «السنن» و«الشعب» وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» بإسناد صحيح عن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشرط اللئيمة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره، وزكى نفسه» وقال رجل: يا رسول الله، ما تزكيه المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيثما كان».

(٧) أخرج مسلم عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «ألهاكم التكاثر، يقو ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

وزاد من حديث أبي هريرة: «وما سوى ذلك؛ فذاهب وتاركه للناس».

(٨) ثم ذكر السبب الداعيَ لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى اللَّه يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين.

(٩) ومع ذلك من لطفه وعنايته بكم أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات، ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات؛ فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به، وأنه حق اليقين ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله اللَّه على يده من الكتاب والحكمة ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذا من رحمته بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

(١٠) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل اللَّه، وهي طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا ﴿وَ﴾ الحال أنه ليس لكم شيء؛ بل ﴿لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكه تبارك وتعالى، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح مكة - في قول أكثر المفسرين- حيث كان الحال شديداً؛ فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً.

(٨) أخرج البزار في «مسنده» بإسناد صحيح لغيره عن أنس رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالأنبياء. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها».

(١٠) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم».

وقيل: هو فتح الحديبية حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين اللَّه أفواجاً، واعتز الإسلام عزًّا عظيمًا، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل أعظم درجة وأجراً وثواباً ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة؛ ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده اللَّه الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم ﷺ حيث شهد اللَّه لهم بالإيمان ووعدهم الجنة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيجازي كلا منكم على ما يعلمه من عمله.

(١١) ثم حث على النفقة في سبيله؛ لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه اللَّه، موافقة لمرضاة اللَّه، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم اللَّه تعالى حيث سماه: قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن.

---

(١١) أخرج أحمد وابن حبان والطبراني والحاكم بإسناد صحيح، عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله! إن لفلان نخلة، وأنا أقيم نخلي بها، فمره أن يعطيني إياها حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: «أعطها إياه بنخلة في الجنة» فأبى، وأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلك بحائطي. قال: ففعل، قال: فأتى النبي ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! إني قد ابتعت النخلة بحائطين؛ فاجعلها له، فقال: النبي ﷺ: «كم عذق ردَّاح لأبي الدحداح في الجنة» - مراراً- فأتى امرأته؛ فقال: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط؛ فإني بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربحت البيع. أو كلمة نحوهما.

سُورَةُ الحَدِيدِ — الجُزْءُ السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

٥٣٩

(١٢) ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به، وهم قد طفئ نورهم، وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به؛ لننجو من العذاب، فـ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فَضُرِبَ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ حائط منيع، وحصن حصين ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحماً: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا نقول: لا إله إلا الله ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة؛ بل ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في خبر اللّه الذي لا يقبل شكًا، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الباطلة، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو: الشيطان الذي زين لكم الكفر

والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره.

(١٥) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فلو افتديتم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه لما تقبل منكم ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ مستقركم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

(١٦) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم وتخشع لذكر اللّه، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي جاء به محمد ﷺ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب للّه تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ ولا يكونوا كالذين أنزل اللّه عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فالقلوب تحتاج في كل

(١٦) أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين.

أخرج الطبراني في «الكبير» و«مسند الشاميين» بإسناد صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً».

وأخرج البزار بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ①﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فتلا عليهم رسول الله ﷺ زماناً، فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ كل ذلك يقرءون بالقرآن.

قال خلاد وزادني فيه آخر: قالوا: يا رسول الله! ذكرنا، فأنزل الله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، فقالوا: اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم عليه فاتركوهم، وإن خالفوكم فاقتلوهم. قال: لا، بل ابعثوا إلى فلان -رجل من علمائهم-؛ فإن تابعكم فلن يختلف عليكم بعده أحد، وإن خالفكم فاقتلوه؛ فلن يختلف عليكم بعده أحد. فأرسلوا إليه فدعوه، فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله، ثم أدخلها في قرن، ثم علقها في عنقه، ثم لبس عليها الثياب، ثم أتاهم، فعرضوا عليه الكتاب، فقالوا: تؤمن بهذا؟ فأشار إلى صدره -يعني الكتاب الذي في القرن- فقال: آمنت بهذا، وما لي لا أؤمن بهذا؟ فخلوا سبيله. قال: وكان له أصحاب يَغْشُونه فلما حضرته الوفاة أتوه، فلما نزعوا ثيابه وجدوا القرن في جوفه الكتاب، فقالوا: ألا ترون إلى قوله: آمنت بهذا، وما لي لا أؤمن بهذا، فإنما عني بهذا الكتاب الذي في القرن، قال: فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين فرقة، خير مللهم أصحاب أبي القرن».

وقت إلى أن تذكر بما أنزل له اللَّه، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك؛ فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين.

(١٧) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ بالتشديد؛ أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم عند ربهم ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده اللَّه لهم في الجنة مما لا تعلمه النفوس.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون؛ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ

الجزء السابع والعشرون — سورة الحديد

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

٥٤٠

عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله». وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم إلى اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لما ذكر السعدا ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

(٢٠) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يخبر -تعالى- عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب ﴿وَزِينَةٌ﴾

---

(٢٠) أخرج الطبري بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرءوا «وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ».

تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه وغير ذلك ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرا ولم يجعلها مستقرا، فنافس فيما يقربه إلى اللَّه، واتخذ الوسائل التي توصله إلى اللَّه، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار الذين قصروا همهم ونظرهم إلى الدنيا، جاءها من أمر اللَّه ما أتلفها فهاجت ويبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رؤي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي اللَّه، وكذب بآيات اللَّه، وكفر بأنعم اللَّه، وإما مغفرة من اللَّه للسيئات وإزالة للعقوبات، ورضوان من اللَّه يحل من أحله به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ إلا متاع يتمتع به وينتفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم باللَّه الغرور.

(٢١) ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أمر بالمسابقة إلى مغفرة اللَّه ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة؛ من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان اللَّه بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي اللَّه على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ والإيمان باللَّه ورسله يدخل فيه أصول الدين وفروعها ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ هذا الذي بيَّناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل اللَّه بالثواب الجزيل والأجر العظيم من أعظم منته على عباده وفضله ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

(٢٢) ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ

أَنفُسِكُمْ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على اللَّه يسير.

(٢٣) ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وأخبر اللَّه عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم اللَّه فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل اللَّه ومنّه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم اللَّه، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه.

(٢٤) ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ يجمعون بين الأمرين الذميمين، اللذين كل منهما كاف في الشر. والبخل: منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميم، بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة

الجزء السابع والعشرون — سورة الحديد

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٥٤١

اللَّه فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر اللَّه شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم.

(٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيته ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها اللَّه لهداية

---

(٢٥) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعْبَدُ الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

الخلق وإرشادهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدها ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب؛ السلاح والدروع وغير ذلك ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها؛ لأنه حينئذ يكون ضروريًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته: أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته: أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتلي أولياءه بأعدائه؛ ليعلم من ينصره بالغيب.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين ﴿فَمِنْهُم﴾ ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مُّهْتَدٍ﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله وطاعة الرسل والأنبياء.

(٢٧) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خص الله عيسى عليه السلام لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ

---

(٢٧) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» والطبراني بإسناد جيد عن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم؛ فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم؛ فشدد الله عليهم؛ فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات أرهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم».

وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني في «الصغير» بإسناد حسن من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك: «أوصيك بتقوى الله؛ فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض».

(٢٧ - ٢٩) أخرج النسائي في «المجتبى» و«التفسير» والطبري بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كانت ملوك بعد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، قيل لملوكهم: ما نجد شتماً أشد من شتم يشتُمناه هؤلاء، إنهم يقرءون: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهؤلاء الآيات مع ما يعيبونا فيه في أعمالنا في قراءتهم؛ فادعهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا؛ فدعاهم، فجمعهم، وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما =

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾.
ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوها من عند أنفسهم، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.
(٢٨) هذا خطاب لمؤمني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بترك معاصيه ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في محمد ﷺ، وأنكم إن فعلتم ذلك ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ نصيبين من الأجر: نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ. ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ السيئات ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.
(٢٩) ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بينا لكم فضلنا وإحساننا لأجل أن يعلم أهل الكتاب ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ بأنهم لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، ويتمنون على الأماني الفاسدة ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه في فصله ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي لا يقادر قدره.

* * *

= بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا؛ فلا نرد عليكم. وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم؛ فاقتلونا. وقالت طائفة منهم: ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمر بكم. وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم، قال: ففعلوا ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾، والآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، فلما بعث الله النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل، انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به وصدقوه؛ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾: أجرين؛ بإيمانهم بعيسى ابن مريم، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم، قال: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ قال: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يتشبهون بكم ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

سورة المجادلة — مدنية — آياتها ٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

سورة المجادلة
وهي مدنية

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾؛ وهي: خولة بنت ثعلبة ﴿فِى زَوْجِهَا﴾ أوس بن الصامت ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ اشتكت زوجها وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرّمها على نفسه بعد الصحبة الطويلة والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حاله وحالها إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ تخاطبكما فيما بينكما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تفنن الحاجات ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي. وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه اللّه: «ظهاراً»

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾؛ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم أنه لا حقيقة له؛ فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم اللّه أمره وقبحه فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قولاً شنيعاً ﴿وَزُورًا﴾ كذباً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عمن صدر منه بعض المخالفات فتداركها بالتوبة النصوح.

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع مَن ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن اللّه تعالى ذكر في الكفارة أنها تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم. وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن اللّه قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا

(١) أخرج البخاري تعليقاً، ووصله أحمد والنسائي في «الكبرى» وابن ماجه بإسناد صحيح عن عائشة ﵂ قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

(٣) أخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن عن ابن عباس ﵄: أن رجلًا قال: يا رسول الله! إني ظاهرت من امرأتي؛ فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله؟»، قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله».

﴿قَالُوا۟﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

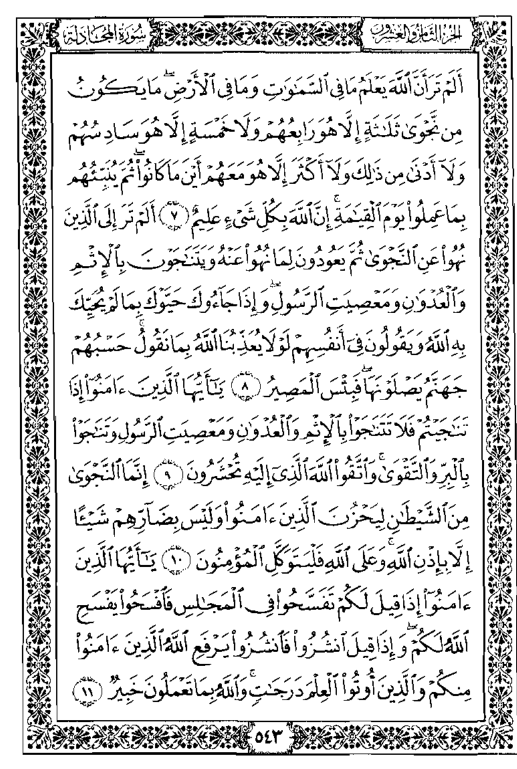
وعلى كل من القولين ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم تحرير رقبة مؤمنة كما قيدت في آية أخرى ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة بالعمل ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقبة. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ تزجرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

(٤) ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ رقبة يعتقها؛ بأن لم يجدها أو لم يجد ثمنها ﴿فَـ﴾ عليه ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ الصيام ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينًا﴾ إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، وإما بأن يطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي بيناه لكم ﴿لِتُؤۡمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام، والعمل به ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تُتعدى ولا يقصر عنها ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ محادة اللَّه ورسوله: مخالفتهما ومعصيتهما خصوصاً في الأمور الفظيعة؛ كمحادة اللَّه ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء اللَّه ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقاً ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وليس لهم حجة على اللَّه، فإن اللَّه قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها فهو من المهتدين الفائزين ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويذلهم، فكما تكبروا عن آيات اللَّه، أهانهم اللَّه وأذلهم.

(٦) ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيقومون من أجداثهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ من خير وشر ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾؛ لأنه علم ذلك،

(١ - ٤) أخرج أبو داود وأحمد وابن حبان بإسناد صحيح: عن خويلة بنت ثعلبة؛ قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله ﷻ صدر سورة المجادلة؛ قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه وضجر قالت: فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب؛ فقال: أنت علي كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي، فإذا هو يريدني على نفسي قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير؛ فاتقي الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل القرآن؛ فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يغشاه ثم سري عنه؛ فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله جل وعلا فيك وفي صاحبك» قالت: ثم قرأ علي: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «مريه؛ فليعتق رقبة» قالت: فقلت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين» قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام قال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر» قلت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذلك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر» قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر. قال: «أصبت، وأحسنت؛ فاذهبي فتصدقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً» قالت: ففعلت.



أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ
مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ
وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ
وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ
بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ
جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا
تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ
بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ
مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا
إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾
٥٤٣

وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا والعاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ على الظواهر والسرائر، والخبايا والخفايا.

(٧) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أخبر تعالى عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل، وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهم ويعلمهم بما عملوا يوم القيامة؛ ليجزيهم به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ علمه بهم محيط.

(٨) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ النجوى؛ هي: التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر فأمر الله تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق لله ولعباده والتقوى، وهي هنا: اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه من الله ويباعده من سخطه ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ

(٨) أخرج أحمد وابن ماجه بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ نبيت عنده يطرقه من الليل أمر، وتبدو له حاجة، فلما كانت ذات ليلة كثر أهل النوب والمحتسبون، حتى كنا أندية نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ؛ فقال: «ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى؟» قلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله! إنا كنا في ذكر المسيح فرقاً منه. فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟» قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يعمل لمكان الرجل».

أخرج مسلم في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: كان ناس يأتون رسول الله ﷺ من اليهود، فيقولون: السام عليك، فيقول: «وعليكم» ففطنت بهم عائشة فسبتهم (وفي رواية: قالت عائشة: بل عليكم السام والذام)؛ فقال رسول الله ﷺ: «مه يا عائشة! لا تكوني فاحشة؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» قالت: فقلت: يا رسول الله! إنهم يقولون كذا وكذا. فقال: «أليس قد رددت عليهم؟» فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يسيئون الأدب معك في تحيتهم لك ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يسرون في أنفسهم ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ومعنى ذلك: أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم: أن ما يقولون غير محذور ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب عليهم، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلّموا على النبي ﷺ قالوا: السام عليك يا محمد. يعنون بذلك الموت.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهذا تأديب للمؤمنين أن لا يتناجوا مثل الكفرة ولا المنافقين ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ إذا أردتم النجوى فتناجوا بالخير وطاعة الله ورسوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليسوءهم، هذا غاية هذا المكر ومقصوده ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فأعداء اللَّه ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره اللَّه وقضاه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده، فإن مَنْ توكل على اللَّه كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه.

(١١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾ هذا تأديب من اللَّه لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ والجزاء من جنس العمل، فإن مَن فسح فسح اللَّه له، ومن وسع لأخيه وسع اللَّه عليه؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ

---

(١٠) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة؛ فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه».

(١١) أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ في مقعده ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا».

وأخرج مسلم عن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال استخلفت عليهم ابن أبزى قال: وما ابن أبزي؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما أن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين».


الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم (١٢) ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون (١٣) ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون (١٤) أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون (١٥) اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين (١٦) لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (١٧) يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون (١٨) استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١٩) إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين (٢٠) كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٢١)

٥٤٤

أوتوا العلم درجات﴾ فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، واللَّه -تعالى- يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم اللَّه به من العلم والإيمان. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله؛ إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ يأمر -تعالى- المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ؛ تأديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأطهر؛ أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن اللَّه لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة، بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

(١٣) ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين، ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة؛ فنسخ وجوب ذلك عنهم ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾؛ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ عفا لكم عن ذلك ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة في أموالكم إلى مستحقيها ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر، ويدخل في ذلك طاعة اللَّه وطاعة رسوله؛ بامتثال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود اللَّه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيعلم -تعالى- أعمالهم، وعلى أيّ وجه صدرت؛ فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

(١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا

(١٢ و١٣) أخرج الطبري بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟ قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ؛ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك؛ امتنع كثير من الناس؛ وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. فوسع الله عليهم، ولم يضيق.

هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يخبر -تعالى- عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين: من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب اللَّه عليهم، ونالوا من لعنة اللَّه أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون وهم يعلمون أنهم ليسوا مؤمنين.

(١٥) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة: أن اللَّه -تعالى- أعد لهم عذاباً شديداً، لا يقدر قدره، ولا يعلم وصفه ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، حيث عملوا بما يسخط اللَّه ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.

(١٦) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ ترساً ووقاية يتقون بها من لوم اللَّه ورسوله والمؤمنين ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل اللَّه، وهي الصراط الذي من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ حيث استكبروا عن الإيمان باللَّه والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي، الذي لا يفتر عنهم ساعة، ولا هم ينظرون.

(١٧) ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلا تدفع عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الثواب ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

(١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم اللَّه جميعاً، حلفوا للَّه كما حلفوا للمؤمنين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾؛ لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ وهم كاذبون في ذلك.

(١٩) ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ استولى عليهم، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، وزين لهم أعمالهم، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ وأنساهم ذكر اللَّه، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهليهم.

(٢٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ هذا وعيد لمن حادَّ اللَّه ورسوله بالكفر والمعاصي: أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة.

(١٨) أخرج أحمد والطبري والطبراني وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان رسول اللهﷺ جالساً في ظل حجرة قد كاد يقلص عليها الظل، فقال رسول اللهﷺ: «إنكم سيأتيكم رجل ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم؛ فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل، فدعاه فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟». قال: ادعوهم، فدعاهم؛ فجعلوا يحلفون بالله ما قالوا وما فعلوا، حتى تجاوز عنهم؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾.

(١٩) أخرج أبو داود والنسائي بإسناد صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة؛ إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان؛ فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب القاصيَة».


الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة، الحشر

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الحَشْرِ — مدنية — آياتها ٢٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

٥٤٥

(٢١) ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا وعد لمن آمن به وبرسله واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب اللَّه المفلحين: أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير؛ فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

(٢٢) ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لا يجتمع هذا وهذا؛ فلا يكون العبد مؤمناً باللَّه واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ ولو كان أقرب الناس إليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ قواهم اللَّه بروح منه بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن اللَّه يحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ﴾ عباده وأهل كرامته ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

سورة الحشر
وهي مدنية

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي

سورة الحشر

(١) أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما عن سعيد بن جبير؛ قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ؛ فجلوا إلى خيبر ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم؛ لحصانتها، ومنعتها، وعزهم فيها ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله -تعالى- وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ من الأمر والباب الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه ﴿وَ﴾ هو أنه تعالى ﴿قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة، ولا قوة ولا شدة ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل، فنقضوا لذلك كثيرا من سقوفهم التي استحسنوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ البصائر النافذة، والعقول الكاملة؛ فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله -تعالى- في المعاندين للحق، المتبعين

الجزء الثامن والعشرون — سورة الحشر

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

٥٤٦

لأهوائهم.

(٣) ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أخبر -تعالى- أن هؤلاء اليهود لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم؛ فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾، ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار، الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله -تعالى-.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي لحقهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعادوهما وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

﴿ٱلْعِقَابِ﴾ وهذه عادته وسنته فيمن شاقه.

(٥) ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا: أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك إلى الطعن بالمسلمين، أخبر -تعالى- أن قطع النخيل إن قطعوه، أو إبقاءهم إياه إن أبقوه؛ أنه بإذنه تعالى وأمره ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ حيث سلطكم على قطع نخلهم وتحريقها؛ ليكون ذلك نكالاً لهم، وخزياً في الدنيا، وذلاً يعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا على استنقاذ نخلهم، الذي هو مادة قوتهم. واللينة: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الأقوال وأولاها.

(٦) ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ من أهل هذه القرية، وهم بنو النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ إنكم يا معشر المسلمين ما أجلبتم وأسرعتم وحشدتم ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ لم تتعبوا بتحصيلها؛ لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف اللّه في قلوبهم الرعب، فأتتكم صفواً عفواً، ولهذا قال﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه ممتنع، ولا يتعزز من دونه قوي. وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق، من غير قتال، كهذا المال الذي فروا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي: فيئاً؛ لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه.

(٧) وحكمه العام كما ذكره اللّه في قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ عموماً سواء أفاء اللّه في وقت رسوله أو بعده، لمن يتولى من

---

(٥) أخرج الترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قول الله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ قال: اللينة: النخلة، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: استنزلوهم من حصونهم، قال: وأمروا بقطع النخل؛ فحك في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

(٦) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن عمر رضي الله عنه؛ قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه من خيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ.

(٧) أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله ﷻ؛ فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها: أم يعقوب، فجاءت إليه؛ فقالت: بلغني أنك قلت: كيت وكيت. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: لئن كنتِ قرأته لقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى. قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه. قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي؛ فانظري، فذهبت فلم تر من حاجبها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كان كذا لم تجامعنا.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «إذا أمرتكم بأمر؛ فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه».

بعده أمته ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام:

خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين العامة، وخمس لذوي القربى، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسوى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وخمس لفقراء اليتامى، وهم: من لا أب له ولم يبلغ، وخمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم، وإنما قدّر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ مدوالة واختصاصاً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ فإنه لو لم يقدره لتداولته الأغنياء الأقوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله -تعالى-، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله. ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح والدنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من ترك التقوى، وآثر اتباع الهوى.

(٨) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله -تعالى- الأموال: أموال الفيء لمن قدرها له، وأنهم حقيقون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ قد هجروا المحبوبات والمألوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ رغبة في الله ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة.

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وبين أنصار، وهم: الأوس والخزرج الذين

---

(٩) أخرج أحمد والترمذي بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال المهاجرون: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم؛ ودعوتهم الله لهم».

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يضيفه الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله؛ فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ، لا تدخري عنه شيئاً. فقالت: والله ما عندي سوى قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء؛ فنوميهم، وتعالي؛ فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ؛ فقال: «لقد عجب الله -أو ضحك الله - من فلان وفلانة» وأنزل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».


الجزء الثامن والعشرون — سورة الحشر

وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)

٥٤٧

آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوأوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا لمحبتهم لله ولرسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّآ أُوتُوا﴾ لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم: الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للأخرين مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح، في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوبا للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المهاجرين والأنصار ﴿يَقُولُونَ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين السابقين: من الصحابة ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع

---

(١٠) أخرج مسلم عن عروة بن الزبير؛ قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: يا ابن أختي، أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبُّوهم.

قال النووي: في «شرح صحيح مسلم» (١٨/ ١٥٨): «قالت هذا عندما سمعت أهل مصر يقولون في عثمان ما قالوا، وأهل الشام في عليٍّ ما قالوا، والحرورية في الجميع ما قالوا، وأما الأمر بالاستغفار الذي أشارت إليه؛ فهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ وبهذا احتج مالك في أنه لا حق في الفيء لمن سب الصحابة».

بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ دليل على المشاركة فيه، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بغضاً وحسداً ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على كمال رحمة اللّه وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق اللّه وحقوق عباده.

قال العلماء: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له من مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ تعجب -تعالى- من حال المنافقين ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين طمعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوفنا ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم.

(١٢) ولا يستكثر هذا عليهم؛ فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم؛ ولهذا كذبهم اللّه بقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟﴾ من ديارهم جلاء ونفياً ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ليحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من اللّه.

(١٣) ﴿لَأَنتُمْ﴾ والسبب الذي أوجب لهم ذلك أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون اللّه، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرًّا على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

(١٤) ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ لا يثبتون لقتالكم ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين ﴿وَ﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متباغضة


الجزء الثامن والعشرون ‌ سورة الحشر

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سورة الممتحنة ‌ مدنية ‌ آياتها ١٣

٥٤٨

متفرقة متشتتة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لا عقل عندهم ولا لب.

(١٥) مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر اللّه لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ فنصر اللّه رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفرّ من فرّ، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب النار.

(١٦) ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه، و ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

(١٧) ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته.

(١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه: من لزوم تقواه، سرًّا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم اللّه به من أوامره وشرائعه وحدوده ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾؛ أي: وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم

---

(١٦) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» والطبري في «جامع البيان» بإسناد حسن عن عبد الله بن نهيك؛ قال: سمعت عليًا رضي الله عنه يقول: إن راهباً تعبد ستين سنة، وأن الشيطان أراده؛ فأعياه، فعمد إلى امرأة؛ فأجنها، ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس؛ فيداويها، فجاءوا بها. قال: فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها؛ إذ أعجبته، فأتاها، فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت بك هذا؛ فأطعني أنجك مما صنعت، لكن اسجد لي سجدة، فسجد له، فلما سجد له، قال: إني بريءٌ منك إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيد ثان على لزوم التقوى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ اعلموا: أنه عالم بجميع أعمالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير.

(١٩) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ والحرمان كل الحرمان: أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا اللَّه وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم اللَّه مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه.

(٢٠) ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ فهل يستوي من حافظ على تقوى اللَّه ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم والعيش السليم، ومن غفل عن ذكر اللَّه، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

(٢١) ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ﴾ لما بيّن تعالى لعباده ما بيّن، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية اللَّه؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛ فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

(٢٢) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أخبر تعالى أنه اللَّه المألوه المعبود بحق، الذي لا إله إلا هو؛ وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه، فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي.

(٢٣) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أعاد ذكر عموم إلهيته وانفراده بها ﴿هُوَ ٱلۡمَلِكُ﴾ وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليك للَّه، فقراء مدبرون ﴿ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد؛ لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم للَّه في أوصافه



الجزء الثامن والعشرون — سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

٥٤٩

وجلاله ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

(٢٤) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ للمبروءات ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ له الأسماء الكثيرة جدًا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله ومع ذلك، فكلها حسنى صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن كماله وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا: أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

سورة الممتحنة
[وهي] مدنية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى﴾ فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: تسارعون في مودتهم

---

(١) أخرج الشيخان عن علي رضي الله عنه؛ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها» فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب؛ فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» =

وفي السعي بأسبابها ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ومما يدعو المؤمن -أيضاً- إلى معاداة الكفار أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة؛ فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى. ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ إلا أنكم تؤمنون باللَّه ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته؛ لأنه رباهم، وأنعم عليهم، بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو اللَّه -تعالى- ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل اللَّه، لإعلاء كلمة اللَّه؛ وابتغاء مرضاة اللَّه؛ فاعملوا بمقتضى هذا، من موالاة أولياء اللَّه ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويبتغون به رضاه ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن اللَّه عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على اللَّه -تعالى- وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: ومن يوالي الكافرين بعد ما حذركم اللَّه منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

(٢) ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يجدوكم، وتسنح لهم الفرصة في أذاكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ظاهرين ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب ونحو ذلك ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

(٣) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار؛ لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من اللَّه شيئاً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فما الفائدة إذًا من المعصية من أجلهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة صالحة وائتمام ينفعكم ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين؛ لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون اللَّه، صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

= قال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، إني كنت امرءاً من قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني. فقال النبي ﷺ: «إنه قد صدقكم»، فقال عمر: دعني يا رسول الله؛ فأضرب عنقه، فقال: «إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله ﷻ اطلع على أهل بدر؛ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» قال عمرو: ونزلت فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآيات.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿وَالْبَغْضَاءُ﴾ البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده ﴿إِلَّا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ آزر المشرك الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا﴾ الحال أني لا ﴿أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك

(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنَّا على الباطل، فازدادوا كفرًا وطغيانًا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

(٦) ثم كرر الحث لهم على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطرًا إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة اللّه والتأسي برسل اللّه، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر اللّه شيئاً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فإنه محمود على ذلك كله.

(٧) ثم أخبر -تعالى- أن هذه العداوة التي أمر بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، فـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره.

(٨) ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ لا ينهاكم اللّه عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف، للمشركين من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا، بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ المنصفين العادلين في أحكامهم.

(٩) ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لأجل دينكم، عداوة لدين اللّه ولمن قام به ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ﴾ عاونوا غيرهم ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ نهاكم اللّه ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين، فلم ينهكم اللّه عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تامًّا، صار ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أمر اللّه المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلَّظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط من غير حصول مفسدة، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وإن امتحنوهن، فوجدن

(٨ و ٩) أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر ﵄؛ قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: أصلها؟ قال: «نعم».

قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

(١٠ و١١) أخرج البخاري عن المسور ومروان بن الحكم: أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.



صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان؛ فلا يرجعوهن إلى الكفار ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وراعى -أيضاً- الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها غير أهل الكتاب ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها؛ فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم إلى الكفار ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ ذلكم الحكم الذي ذكره اللّه وبينه لكم يحكم به بينكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة

(١١) ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإيمانكم باللّه، يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

(١٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» اللاتي كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات، وأما الرجال

(١٢) أخرج البخاري عن عروة: أن عائشة زوج النبيﷺ أخبرته: أن رسول اللهﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول اللهﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما بايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك».

فيفاوت ما يلزم بحسب أحوالهم، فكان النبي ﷺ يمتثل ما أمره اللّه به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن اللّه فيما يحصل منهن من التقصير، وأدخلهن في جملة المؤمنين﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ بأن يفردن اللّه وحده بالعبادة ﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان؛ ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ والبهتان: الافتراء على الغير؛ أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به؛ لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهن لك في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخمش الوجوه، والدعاء بدعاء الجاهلية ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ﴾ عن تقصيرهن، وتطييباً لخواطرهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين ﴿رَّحِيمٞ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

(١٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه، ومجانبين لسخطه ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار ﴿قَدۡ يَئِسُواْ﴾ هؤلاء الكفار يئسوا ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط اللّه وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ المنكرون للبعث في الدنيا ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ من رجوع أصحاب القبور إلى اللّه تعالى.

سورة الصف
[وهي] مدنية

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أن جميع من في السماوات والأرض يسبحون بحمد اللّه ويعبدونه ويسألونه حوائجهم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ لِمَ تقولون الخير وتحثون عليه،

سورة الصف

(١ - ٤) أخرج الترمذي والدارمي وابن حبان بإسناد صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول اللهﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؛ لعملناه، فانزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ إلى قوله ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ، قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام، قال يحيى بن أبي كثير: فقرأها علينا أبو سلمة، قال الأوزاعي: فقرأهما علينا ابن أبي كثير.

(٢ و ٣) أخرج أبو داود بإسناد حسن عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول اللهﷺ وأنا صبي في بيتنا قال: فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك، فقال لها رسول اللهﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: غراً؛ فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة».


الجزء الثامن والعشرون — سورة الصف

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴿٦﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٧﴾ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴿٨﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿٩﴾ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴿١٠﴾ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١١﴾ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴿١٢﴾ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴿١٣﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴿١٤﴾

٥٥٢

وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به؟!

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فإن أكبر المقت وأعظم البغض عند اللَّه أن يقول العبد ما لا يفعل؛ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه.

(٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ هذا حث من اللَّه لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليم لهم كيف يصنعون، وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفًا متراصًا متساوياً، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضاً.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيته، وهم يعلمون أنه رسول اللَّه ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وحق الرسول أن يعظم ويحترم ويكرم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم اللَّه للهدى؛ لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، ليس لهم قصد في الهدى.

= وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن مطرف؛ قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته، فقلت: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك، فقال: لله أبوك! فلقد لقيت، فهات. فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة» قال: أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ. قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ﷻ؟ قال: رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً؛ فلقي العدو فقتل، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل. ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ وذكر الحديث.

(٥) أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ قال ﷺ: حين قَسم قِسْمة، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فلما أخبر غضب ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا؛ فصبر».

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ يقول -تعالى- مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين: الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أرسلني اللَّه لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، وأيدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقي كوني ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوة لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يدي من التوارة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهو محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول اللَّه حقًّا ﴿قَالُوا۟﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

(٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على اللَّه ويجعل له أنداداً وشركاء ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان.

(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يردون بها الحق، وهي لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قد تكفل اللَّه بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة نوره على سائر الأقطار ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهتهم كل سبب يتوصلون به إلى إطفاء نور اللَّه؛ فإنهم مغلوبون.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالعلم النافع والعمل الصالح ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الدين الذي يدان به، ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه، ولا خلل يعتريه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لو كرهوا نصرته وظهوره على الأديان.

(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟

(١١) فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر اللَّه بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل اللَّه ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بأن

(٦) أخرج الشيخان عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا، الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب».

وأخرج أحمد بإسناد حسن لغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: يا نبي الله، ما كان بدء أمرك؟ قال ﷺ: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام».

تبذلوا نفوسكم ومهجكم؛ لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين اللّه وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب؛ فإن ذلك ولو كان كريهاً للنفوس شاقًا عليها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه.

(١٢) وفي الآخرة الفوز بثواب اللّه، والنجاة من عقابه؛ ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وهذا شامل للصغائر والكبائر؛ فإن الإيمان باللّه والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة.

وسميت الجنة جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولاً ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم الذي لا فوز مثله.

(١٣) ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل اللّه.

(١٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ بالأقوال والأفعال؛ وذلك بالقيام بدين اللّه، وجهاد من عانده ونابذه، بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق؛ بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين اللّه: تعلم كتاب اللّه وسنة رسوله، والحث على ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال

(١٤) أخرج النسائي في «تفسيره» والطبري والضياء في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء، خرج على أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلًا، ورأسه يقطر ماء، فقال: أيكم يُلقى شبهي عليه؛ فيقتل مكاني، فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال: أنا. فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا. فقال: نعم، أنت ذاك. قال: فألقي عليه شبه عيسى عليه السلام ثم رفع عيسى من رَوْزَنَة- فتحة في السقف- كانت في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود؛ فأخذوا الشاب للشبه فقتلوه ثم صلبوه، فتفرقوا ثلاث فرق؛ فقالت فرقة: كان فينا الله عز وجل ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه. فهؤلاء المسلمون؛ فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً، حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾. يعني: الطائفة التي كفرت في زمان عيسى عليه السلام والطائفة التي آمنت في زمان عيسى/ ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بإظهار محمد صلى الله عليه وسلم دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

لهم عارضاً ومنهضاً: من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين اللَّه، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على أمر اللَّه ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين؛ ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ قويناهم ونصرناهم عليهم ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم وقاهرين لهم، فأنتم يا أمة محمد، كونوا أنصار اللَّه ودعاة دينه، ينصركم اللَّه كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم.

سورة الجمعة
[وهي] مدنية

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ﴾ يسبح للَّه وينقاد لأمره ويتألهه ويعبده جميع ما في السماوات والأرض؛ لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه، وتحت تدبيره ﴿الْقُدُّوسِ﴾ المعظم المنزه عن كل آفة ونقص ﴿الْعَزِيزِ﴾ القاهر للأشياء كلها ﴿الْحَكِيمِ﴾ في خلقه

سورة الجمعة — مدنية — آياتها ١١

الجزء الثامن والعشرون — سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

٥٥٣

وأمره.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فبعث اللَّه فيهم ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ علم القرآن وعلم السنة المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين.

سورة الجمعة

(١) أخرج الإمام مسلم عن حديث ابن عباس وأبي هريرة والنعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين».

(٣) ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ وامتن على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم فيمن باشر دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من عزته وحكمته أنه سبحانه بعث فيهم رسوله وشاهدوه، وباشروا دعوته، وحصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، ولم يترك عباده هملاً ولا سدًى.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني ما أعطاه اللّٰه لرسول ﷺ من النبوة وما خص به أمته من بعثته إليهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

(٥) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ مثل الذين حملهم اللّٰه التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما فيها، وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، بل مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ من كتب العلم، فلا يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره، فهذا مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على صدق رسولنا محمد ﷺ وصدق ما جاء به ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لا يرشدهم إلى مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا. ومن ظلم اليهود وعنادهم أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق وأنهم أولياء اللّٰه من دون الناس.

(٦) ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أمر اللّٰه رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء اللّٰه ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله اللّٰه دليلاً على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده.

(٧) ولهذا قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أيّ: من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء.

(٨) ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ

---

(٣) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء».

وأخرج الطبراني في «الكبير» وابن أبي عاصم في «السنة» وابن أبي حاتم بإسناد صحيح: عن سهيل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالًا ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب»، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾.

﴿مُلَٰقِيكُمۡ﴾ وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم ويفرون منه غاية الفرار، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه اللَّه على العباد، وكتبه عليهم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر، قليل وكثير.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهي عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها؛ فإن ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من آكد الفروض ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن ما عند اللَّه خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث ظن أنه يربح.

(١٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات. ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر اللَّه، أمر اللَّه بالإكثار من ذكره فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فإن الإكثار من ذكر اللَّه أكبر أسباب الفلاح.

(١١) ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ خرجوا من المسجد حرصًا على ذلك اللهو وتلك التجارة، وتركوا الخير ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾

الجزء الثامن والعشرون — سورة الجمعة، المنافقون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١

سُورَةُ المُنَافِقُونَ — مدنية — آياتها ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤

٥٥٤

(٩) قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب في قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض عليهم؛ فاختلفوا فيه فهدانا؛ الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

(١١) أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله ﵄ قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ؛ إذ أقبلت عير تحمل طعاماً، فالتفتوا إليها، حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

تخطب الناس؛ وذلك في يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس ، إذ قدم المدينة عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب؛ استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة اللَّه ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾ التي وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وليس الصبر على طاعة اللَّه مفوتًا للرزق، فإن اللَّه خير الرازقين، فمن اتقى اللَّه رزقه من حيث لا يحتسب.

سورة المنافقين
[وهي مدنية]

(١) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ ترسًا يتترسون بها من نسبتهم إلى النفاق ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سبب أنهم لا يثبتون على الإيمان بل ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبدًا ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم.

(٤) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح شيء ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في

سورة المنافقين

(١ - ٨) أخرج الشيخان عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبيٍّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله؛ حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، أو لعمر فذكره للنبي ﷺ؛ فدعاني؛ فحدثته؛ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ فبعث إلي النبي ﷺ فقرأ، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد».

(٣) في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «وكل الله بالرحم ملكاً؛ فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه».

قلوبهم يخافون أن يطلع عليهم، فهؤلاء ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به وهو مخادع ماكر يزعم أنه ولي وهو العدو المبين ﴿فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبينت أدلته، واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء.

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ عما صدر منكم لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع و﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ امتناعًا من طلب الدعاء من الرسول ﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق بغضًا له ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه بغيًا وعنادًا، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف اللَّه وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم.

(٦) ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فإنه سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم؛ فلن يغفر اللَّه لهم، وذلك﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة اللَّه، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم.

(٧) ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد، لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين اللَّه،

الجزء الثامن والعشرون — سورة المنافقون

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سورة التغابن — مدنية — آياتها ١٨

٥٥٥

وهذا من أعجب العجب أن يدعى هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور؛ ولهذا قال اللَّه ردًّا لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم، وقال

الجزء الثامن والعشرون — سُورَةُ التَّغَابُنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

٥٥٦

كبيرهم بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول اللَّه ومن معه هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك؛ فلذلك زعموا أنهم الأعزاء اغترارًا بما هم عليه من الباطل.

(٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يأمر -تعالى- عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره؛ فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره؛ فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة اللَّه، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يلهه ماله وولده عن ذكر اللَّه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات ونفقة الزوجات والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة؛ كبذل المال في جميع المصالح. فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير؛ ولهذا قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾ متحسرًا على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ لأتدارك ما فرطت فيه ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه.

(١١) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتوم لها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم من النيات والأعمال.

سورة التغابن
[وهي مكية]

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكر كمال ألوهيته -تعالى- وسعة غناه، وافتقار

جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربها ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ وأن الملك كله للَّه، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ ذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء اللَّه وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال .

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أجرامهما وجميع ما فيهما، فأحسن خلقهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة، والغاية المقصودة له تعالى ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم الذي أولاكموه.

(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة.

(٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضين الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم اللَّه وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدار الآخرة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال والوبال الذي أحللناه بهم ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات الواضحات الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ فليس لهم فضل علينا، ولأي شيء خصهم اللَّه دوننا ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ باللَّه ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة اللَّه، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئًا ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه ﴿حَمِيدٌ﴾ في أقواله وأفعاله وأوصافه.

(٧) ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ يخبر -تعالى- عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ فأمر أشرف خلقه: أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ بعثكم ومجازاتكم.

(٨) ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

(٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع اللَّه فيه الأولين والآخرين، يوقفهم موقفًا هائلاً عظيمًا، وينبئهم


الجزء الثامن والعشرون — سورة التغابن

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ — مدنية — آياتها ١٢

٥٥٧

بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ أيمانًا تامًّا، شاملاً لجميع ما أمر اللّه بالإيمان به ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الفرائض والنوافل، ومن أداء حقوق اللّه وحقوق عباده ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم.

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كفروا بها من غير مستند شرعي ولا عقلي؛ بل جاءتهم الأدلة والبينات فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

(١١) ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هذا عامٌّ لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فبقضاء اللّه وقدره ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فإذا آمن أنها من عند اللّه، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى اللّه قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر اللّه له يوم الجزاء من الثواب ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء فلا يحدث حدث في الكون إلا بعلمه وإذنه.

(١٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة اللّه وطاعة رسوله مدار السعادة وعنوان الفلاح ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة اللّه وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغًا يبين لكم ويتضح، وتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء.

(١٣) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليعتمدوا عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به.

(١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ هذا تحذير من اللّه

للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغبهم في امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم ﴿فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا عفا اللَّه عنه، ومن صفح صفح اللَّه عنه، ومن غفر غفر اللَّه له.

(١٥) ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ إختبار وإبتلاء ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ﴾ يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

(١٦) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ اسمعوا ما يعظكم اللَّه به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ اللَّه ورسوله في جميع أموركم ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ﴾ يكن ذلك الفعل منكم خيرًا لكم في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ فمن وقاه اللَّه شر شح نفسه؛ بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب.

(١٧) ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه اللَّه تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ﴿وَ﴾ مع المضاعفة أيضًا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم؛ فإن الذنوب يكفرها اللَّه بالصدقات والحسنات ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في عصاه، بل يمهله ولا يهمله.

(١٨) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

(١٤) أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أجد حتى قطعت حديثي ورفعتهما».

(١٦) في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

الجزء الثامن والعشرون — سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

٥٥٨

الطلاق
[وهي مدنية]

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خاطب النبيَّ ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أردتم طلاقهن ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر اللَّه. ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لأجل عدتهن بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وأمر تعالى بإحصاء العدة؛ أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة، بل يلزمن بيوتهن الذي طلقها زوجها وهي فيها. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها؛ فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها؛ فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه. ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت، والإخراج إلى تمام العدة ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة؛ لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حددها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها، والوقوف معها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها؛ بل تجاوزها، أو قصر عنها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بخسها حظها، وأضاع نصيبه من

سورة الطلاق

(١) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر ﵄: أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ؛ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله ﷻ».

اتباع حدود اللّه التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أنه لعل اللّه يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها.

ومن الحكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة رحمها من زوجها.

(٢) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إذا قاربن انقضاء العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ على وجه المعاشرة الحسنة، والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها ﴿وَأَشْهِدُوا۟﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ رجلين مسلمين عدلين ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أيها الشهداء ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه اللّه وحده ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته، ولا صاحبًا لمحبته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإن من يؤمن باللّه واليوم الآخر يوجب له ذلك أن يتعظ بمواعظ اللّه، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكن منها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، وأن من اتقاه في الطلاق وغيره؛ فإن اللّه يجعل له فرجًا ومخرجًا.

(٣) ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يسوق اللّه الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على اللّه في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه الأمر الذي توكل عليه به، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له؛ فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ وقتًا ومقدارًا، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

(٤) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ بأن كن يحضن ثم ارتفع حيضهن؛ لكبر

---

(٢) أخرج أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد عن عمران بن حصين رضي الله عنه سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع، ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: طلقت لغير سنة ورجعت لغير سنة، وأشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد.

(٣) أخرج أحمد والطبراني في «الكبير» والبيهقي بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزل به حاجة؛ فأنزلها بالناس، كان قمناً ألا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله، أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل».

(٤) أخرج البخاري -واللفظ له- ومسلم عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني: أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها؛ فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى؛ فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت؛ فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها.

وأخرج البخاري والنسائي - واللفظ له - عن محمد بن سيرين قال: كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله. وكان أصحابه يعظمونه، فذكر آخر الأجلين، فحدثت بحديث سبيعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة. قال: فَضَمَّزَ لي بعض =


الجزء الثامن والعشرون — سورة الطلاق

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

٥٥٩

أو غيره، ولم يرج رجوعه ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر مقابلة حيضة ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ الصغار اللائي لم يأتهن الحيض بعد، و البالغات اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ وقوله: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ عدتهن ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ جميع ما في بطونهن، من واحد ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ من اتقى الله -تعالى-، يسر له الأمور، وسهّل عليه كل عسير.

(٥) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي بينه الله لكم ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ لتمشوا عليه، وتأتموا وتقوموا به وتعظموه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

(٦) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان بالمعررف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل؛ لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا: أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن على وجه لا يحصل به عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف ﴿وَإِن كُنَّ﴾ المطلقات ﴿أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن؛ فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا؛ ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المسماة لهن، إن كان مسمًّى، وإلا فأجر المثل ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾

= أصحابه. وقال محمد: ففطنت له، فقلت له: إني لجريء أن أكذب على عبد الله – وهو في ناحية الكوفة–، قال: فاستحيا وقال: لكن عمه لم يقل ذلك. فلقيت أبا عطية مالك بن عامر، فسألته فذهب يحدثني بحديث سبيعة فقلت: هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً، فقال: كنا عند عبد الله فقال: أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

وليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ بأن لم يتفقوا على إرضاعها لولدها﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ فلترضع له أخرى غيرها.

(٧) ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ ضيق عليه ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ من الرزق ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية، حيث جعل كلا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف اللّه نفسًا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وهذه بشارة للمعسرين أن اللّه تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة.

(٨) يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسل فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ تمردت وطغت واستكبرت عن إتباع أمر اللّه ومتابعة رسله ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ منكرًا فظيعا.

(٩) ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ غب مخالفتها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ وندموا حيث لا ينفعهم الندم.

(١٠) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أذاقهم اللّه من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا؛ فإن اللّه أعد لهم في الآخرة عذابا شديدًا ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يا ذوي العقول التي تفهم عن اللّه آياته وعبره، فإن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، قادر على أن يعذب من بعدهم مثلهم إن هم كذبوا، لا فرق بين الطائفتين ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ذكرَّ اللّه عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ.

(١١) ﴿رَّسُولًا﴾ الرسول ﷺ مبين للذكر، ومفسر له ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس: من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهن ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله، لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية

---

(٧) أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن لغيره عن أبي هريرة ﵁، قال: دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البريه، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور سجرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا. فنظرت؛ فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً، قال فرجع الزوج، فقال: أصبتم بعدي شيئاً؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا، فقام إلى الرحى. فذكر ذلك للنبيﷺ فقال النبيﷺ: «أما إنه لو لم يرفعها لم تزل تدور إلى اليوم القيامة».

(١٢) أخرج الشيخان من حديث عائشة ﵂ عن النبيﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين».


الجزء الثامن والعشرون — سورة التحريم

سورة التحريم — مدنية — آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم ﴿١﴾ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ﴿٢﴾ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير ﴿٣﴾ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴿٤﴾ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴿٥﴾ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿٦﴾ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿٧﴾

٥٦٠

التي يدبر بها الخلق، ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ وأحاط علمه بجميع الأشياء؛ فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، ثـ فهذه الغاية المقصودة في الأمر والنهي.

سورة التحريم
[وهي مدنية]

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ يا أيها الذي أنعم اللّه عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم اللّه بها عليك وعلى أمتك.

﴿تَبْتَغِى﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا تصريح بأن اللّه قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عامًّا في جميع الأيمان:

(٢) ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم؛ لتبرأ ذممكم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو

سورة التحريم

(١) أخرج الشيخان عن عائشة ﵂؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها؛ فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «لا ولكني كنت أشرب عسلًا عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً». وأخرج النسائي والحاكم بإسناد صحيح عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها على نفسه؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢) أخرج الهيثم بن كليب في «مسنده» ومن طريقه الضياء في «المختارة» بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب ﵁؛ قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام»؛ فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: «فوالله لا أقربها»، قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾».

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم.

(٣) ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين ﵂ أسر لها النبي ﷺ حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة ﵄، وأخبره اللَّه بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه ﷺ وحلمًا، فـ ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

(٤) ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة ﵄، كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض اللَّه عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ الجميع أعوان للرسول ﷺ مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول.

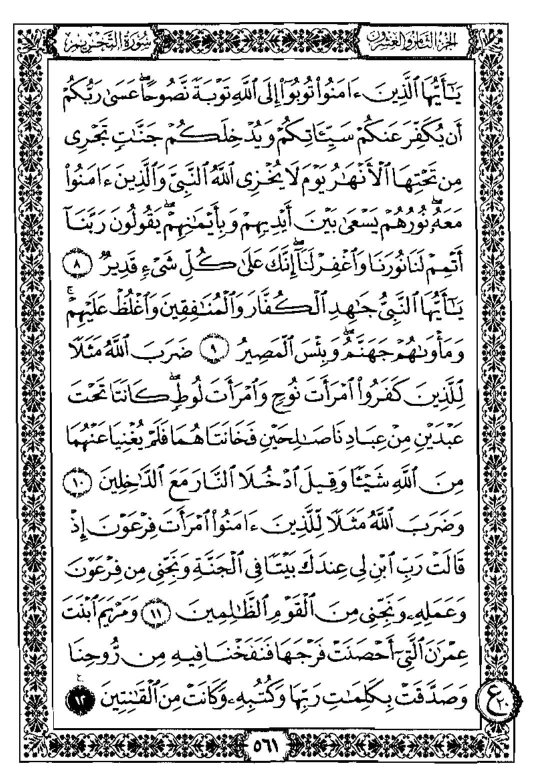
(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقى ويبدله اللَّه أزواجًا خيرًا منكن، دينا وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد؛ ولا يلزم وجوده؛ فإنه ما طلقهن ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ وهو القيام بالشرائع الظاهرة ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ وهو القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عما يكرهه اللَّه، فوصفهن بالقيام

---

(٤) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس ﵄ قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة؛ فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه؛ فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال عمر: وا عجباً لك يا ابن عباس- قال الزهري: كره والله ما سأله ولم يكتمه- قال: هي عائشة وحفصة.

(٥) أخرج الشيخان -واللفظ لمسلم- عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت: لأعلمن ذلك اليوم - فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما إلى أن قال-: فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت -وأحمد الله بكلام- إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، فنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فقلت: أطلقتهن؟ قال: «لا» فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.



بما يحبه اللَّه، والتوبة عما يكرهه اللَّه ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار؛ ليتنوع ﷺ فيما يحب، فلما سمعن -رضي اللَّه عنهن- هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول اللَّه ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يا مَنْ مَنَّ اللَّه عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه؛ فـ ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر اللَّه، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتنابًا، والتوبة عما يسخط اللَّه ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر اللَّه ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ حطبها الذي يلقى فيها ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غليظة أخلاقهم، عظيم انتهارهم، يفزعون بأصواتهم، ويخيفون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمتثلون فيهم أمر اللَّه الذي حتم عليهم العذاب، وأوجب عليهم شدة العقاب ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا فيه -أيضًا- مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر اللَّه، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر باللَّه، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه.

(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً

---

(٦) أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح لغيره، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول اللهﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين، فاضربوه عليها».

(٨) أخرج أحمد وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة».

وأخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح: عن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء رضي الله عنهما قالا: قال رسول اللهﷺ: «أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «غر محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم. كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتابهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم».

﴿نَّصُوحًا﴾ قد أمر اللَّه بالتوبة النصوح في هذه الآية، والمراد بها التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد للَّه، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾؛ أي: لا يخزيهم معه يوم القيامة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون اللَّه أن يتمم لهم نورهم، فيستجيب اللَّه دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ والإغلاظ عليهم في ذلك، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا؛ بتسليط اللَّه لرسوله وحزبه عليهم وعلى جهادهم وقتالهم، وفي الآخرة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاب النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

(١٠) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا﴾ المرأتان ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ نوح ولوط عليهما السلام ﴿عَنْهُمَا﴾ عن امرأتيهما ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ﴾ لهما ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

(١١) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ اختارت الجار قبل الدار ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ خلصني منه؛ فإني أبرأ إليك من عمله ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فوصفها اللَّه بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب؛ وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها اللَّه من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب اللَّه لها.

(١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ صانته وحفظته عن الفاحشة؛ لكمال ديانتها،

---

(١١) أخرج ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عن سلمان رضي الله عنه قال: «فكانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة».

(١٢) أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجه بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقل رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».



وعفتها، ونزاهتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ بأن نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة؛ فإن التصديق بكلمات اللَّه، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ المطيعين للَّه، المداومين على طاعته بخشية وخشوع.

سورة الملك
[وهي] مكية

(١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ تعاظم وتعالى وكثر خيره، وعم إحسانه ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: مِن عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء.

(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات ﴿الْغَفُورُ﴾ عن المسيئين والمقصِّرين والمذنبين.

(٣) ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ كل واحدة فوق الأخرى، وليس طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ خلل ونقص ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ أعده إليها، ناظرًا معتبرًا ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ نقص واختلال.

(٤) ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كثرة التكرار ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ عاجزًا عن أن يرى خللًا أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ ولقد جمَّلنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم ﴿بِمَصَابِيحَ﴾، وهي: النجوم

سورة الملك

(١) أخرج أحمد وأصحاب السنن الأربعة بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال: «إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ﴾».

﴿وَجَعَلۡنَـٰهَا﴾؛ أي: المصابيح ﴿رُجُومٗا لِّلشَّيَـٰطِينِۖ﴾ الشهب التي ترمى من النجوم، أعدها اللَّه في الدنيا للشياطين ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ قد أعد اللَّه لهم عذاب السعير.

(٦) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الذي يهان أهله غاية الهوان.

(٧) ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ صوتًا عاليًا فظيعًا ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي.

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم إذا حصلوا فيها؟ ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾؟ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها.

(٩) ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل اللَّه، ولم يكفهم ذلك حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيرًا؛ فأيّ عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟

(١٠) ﴿وَقَالُواْ﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ

سُورَةُ المُلْكِ — الجزء التاسع والعشرون

وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾

٥٦٣

ٱلسَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل اللَّه، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة.

(١١) ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا﴾ بعدًا لهم وخسارة وشقاء﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!

(١٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا اللَّه، فلا يقدمون على معاصيه، ولا

---

(١١) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن أبي البختري؛ قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم».

(١٢) أخرج البزار وأبو يعلى وأبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح لغيره عن أنس بن مالك ﷺ ؛ قال: قالوا: يا رسول الله! إنا نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنا على غيره. قال: «كيف أنتم وربكم؟» قالوا: الله ربنا في السر والعلانية. قال: «ليس ذلك النفاق».

يقصرون فيما أمر به، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿وَ﴾لهم ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو ما أعده لهم في الجنة من النعيم المقيم، والملك الكبير.

(١٣) ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما فيها من النيات والإرادات.

(١٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا والغيوب.

(١٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ هو الذي سخر لكم الأرض وذلَّلها؛ لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ لطلب الرزق والمكاسب؛ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحانًا وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله؛ ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

(١٦) ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله -تعالى- العالي على خلقه ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب، حتى تتلفكم وتهلككم.

(١٧) ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: عذابًا من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب.

(١٨) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم أي: كان عظيماً شديداً أليماً.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

(٢٠) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءًا، فيدفعه عنكم؟ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾؛ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فاستمرار الكافرين على كفرهم بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن غرور وسفه.

(٢١) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ ﴿بَل﴾لكن الكافرون

---

(١٥) أخرج الترمذي والنسائي وأحمد بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً».

﴿لَّجُّواْ﴾ استمروا ﴿فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ قسوة وعدم لين للحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ شرود عن الحق.

(٢٢) ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: أيُّ الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقًّا؟ ومن كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أوجدكم من العدم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة التي هي أنفع أعضاء البدن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بثكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة.

(٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تكذيبًا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جعلوا علامة صدقهم أن يخبروا بوقت مجيئه.

(٢٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ﷿ لكن أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محال فاحذروه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما علي البلاغ وقد أديته إليكم.

(٢٧) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾؛ أي: فإذا كان يوم الجزياء ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ

الجزء التاسع والعشرون — سورة الملك، القلم

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

سورة القلم — مكية — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

٥٦٤

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ساءهم ذلك وأفظعهم، وقلقل أفئدتهم؛ فتغيرت لذلك وجوههم ﴿وَقِيلَ﴾ لهم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ هذا الذي كنتم به تكذبون.

(٢٨) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الجاحدين لنعمه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خلصوا أنفسكم؛ فإنه لا منقذ لكم من اللَّه إلا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب؛ فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

---

(٢٢) أخرج الشيخان وأحمد -واللفظ له- عن أنس بن مالك ﵁ قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم».

(٢٩) ﴿قُلْ﴾ فأمر اللَّه نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في جميع أمورنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

(٣٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم وأشجاركم وزروعكم؟ وهذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدر أحد على ذلك غير اللَّه تعالى.

سورة ن
وهي مكية

(١) ﴿نٓ﴾ سبق الكلام عن الأحرف المقطعة في فواتح سورة البقرة ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم.

(٢) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ يقسم اللَّه بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه الجنون بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث من عليه بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل.

(٣) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ عظيمًا ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، بل هو دائم مستمر.

(٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ عاليًا به، مستعليًا بخُلقك الذي مَنَّ اللَّه عليك به

(٥) ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس، وشر الناس للناس.

(٦) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أنهم هم الذين فتنوا عباد اللَّه، وأضلوهم عن سبيله.

(٧) ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: هو تعالى يعلم أيّ الفرقين منكم ومنهم المهتدي، ويعلم الحزب الضال من الحق.

(٨) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا.

(٩) ﴿وَدُّوا﴾ المشركون ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ توافقهم على بعض ما هم عليه؛ إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ لو ترخص لهم فيرخصون.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف ﴿مَّهِينٍ﴾ خسيس النفس، ناقص الهمة.

سورة القلم

(١) أخرج الإمام أحمد والترمذي والطيالسي حديث عبادة بن الصامت الصحيح لغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد».

(٤) أخرج الإمام مسلم عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة، فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم. فقالت: كان خلقه القرآن.

وأخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته: وكان أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عوداً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ».

(١١) ﴿هَمَّازٍ﴾ كثير العيب للناس والطعن فيهم بالغيبة والاستهزاء، وغير ذلك ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ يمشي بين الناس بالنميمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض؛ لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء.

(١٢) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك ﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى.

(١٣) ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿زَنِيمٍ﴾ دعي، ليس له أصل، و لا مادة ينتج منها الخير.

(١٤) ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ لأجل كثرة ماله وولده.

(١٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها. وهذه الآية وإن نزلت في بعض المشركين إلا أنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف.

(١٦) ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ سيسمه على خرطومه

الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

٥٦٥

في العذاب؛ وليعذبه عذابًا ظاهرًا، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة ﴿إِذْ

---

(١١) أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبرين؛ فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما؛ فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر؛ فكان يمشي بالنميمة».
وفيهما عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات».

(١٣) أخرج الطبري بإسناد حسن لغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: نزل على النبي ﷺ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ قال: فلم نعرفه حتى نزل على النبي ﷺ: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة.
وأخرج البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر».

﴿أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ولهذا أقسموا وحلفوا ليَجُذُّنها وليقطعن - والصَّرْم القطع - ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يعلم المساكين.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فيما حلفوا به، أي: ولا يقولون:

(١٩) ولم يدروا أن اللّه بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها. (﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ فأبادها وأتلفها.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم؛ ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بما حصل.

(٢١) ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ تنادوا فيما بينهم، لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض.

(٢٢) ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يعني الثمار والزروع والأعناب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ قاطعين.

(٢٣) ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ قاصدين له ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق اللّه.

(٢٤) ويقولون: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ بكَّروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين.

(٢٥) ﴿وَغَدَوْاْ﴾ في هذه الحالة الشنيعة والقسوة، وعدم الرحمة ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ على إمساك ومنع لحق اللّه ﴿قَٰدِرِينَ﴾ جازمين بقدرتهم عليها.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ على الوصف الذي ذكر اللّه كالصريم ﴿قَالُوٓاْ﴾ من الحيرة والانزعاج ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ تائهون عنها، لعلها غيرها.

(٢٧) فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة.

(٢٨) فـ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم، وأحسنهم طريقة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ تنزهون اللّه عما لا يليق به.

(٢٩) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ﴾ ندموا ندامة عظيمة، ونزّهوا اللّه عن أن يكون ظالماً فيما فعل، وأقروا على أنفسهم بالظلم؛ فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بمنعنا المساكين.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ فيما أجروه وفعلوه.

(٣١) ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ متجاوزين للحد في حق اللّه، وحق عباده.

(٣٢) ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ رجوا اللّه أن يبدلهم خيرًا منها﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ ووعدوا أنهم سيرغبون إلى اللّه، ويلحون عليه في الدنيا.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب اللّه العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ فإن من علم ذلك أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب.

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يخبر تعالى بما أعده للمتقين من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين.

(٣٥) ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه؛ كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه.

(٣٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أن حكمه حكم

خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ع

سورة الحاقة

مكية — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

نصف الحزب ٥٧

٥٦٦

باطل، ورأيه فاسد.

(٣٧) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أن المجرمين ليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون أنهم من أهل الجنة.

(٣٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

(٣٩) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ وليس لهم عند اللَّه عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون.

(٤٠) ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة؛ فإنه لا يمكن التصدر بها، ولا الزعامة فيها.

(٤١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ إذا كان يوم القيامة، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ فحينئذ يدعون إلى السجود للَّه، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون للَّه طوعًا واختيارًا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، ولا يستطيعون الانحناء.

(٤٣) ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ وهذا الجزاء من جنس عملهم؛ فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود للَّه وتوحيده وعبادته ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ لا علة فيهم.

(٤٤) ولهذا قال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ دعني والمكذبين بالقرآن العظيم؛ فإن عليَّ جزاؤهم، ولا تستعجل لهم فـ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال؛ ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم.

(٤٥) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أخِّرهم وأنظرهم ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ وذلك من كيدي ومكري بهم ﴿مَتِينٌ﴾ قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ

---

(٤٢) أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه؛ فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً».

(٤٦) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب لهم ذلك؛ فإنك تعلمهم وتدعوهم إلى الله لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

(٤٧) ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند اللَّه؛ فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

(٤٨) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ لما حكم به شرعًا وقدرًا ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو: عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ وهو في بطنها قد كظمت عليه.

(٤٩) ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ولكن اللَّه تغمده برحمته؛ فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى.

(٥٠) ولهذا قال: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم.

(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ إنهم حرصوا على أن يصيبوه بأعينهم من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، واللَّه حافظه وناصره ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ وأما الأذى القولي؛ فيقولون تارة: مجنون، وتارة: ساحر، وتارة: شاعر.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وما هذا القرآن الكريم والذكر الحكيم إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

سورة الحاقة
وهي مكية

(١) ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبآت الصدور.

(٢) ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ فإن لها شأناً عظيماً وهولاً جسيماً.

(٣) ولهذا عظم الله تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ فإنه لا يعلم ذلك على الحقيقة إلا الله.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَعَادٌۢ﴾ قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ التي تقرع الخلق بأهوالها، وذلك حين بعث اللَّه إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده فكذبوه وكذبوا بما أخبر به من البعث، فأهلك اللَّه الطائفتين بالهلاك المعجل.

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وهي: الصيحة العظيمة الفظيعة التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم؛ فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

(٥٠) أخرج مسلم عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا إستغسلتم؛ فاغسلوا».

الجزء التاسع والعشرون — سورة الحاقة

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

٥٦٧

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عتت على خزانها، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ نحساً وشرًّا فظيعاً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ هلكى موتى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رءوسها ﴿خَاوِيَةٍ﴾ الساقط بعضها على بعض.

(٨) ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

(٩) ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ فرعون مصر الذي أرسل اللَّه إليه عبده ورسوله موسى ابن عمران عليه الصلاة والسلام وأراه من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قرى قوم لوط الجميع جاءوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالفعلة الطاغية وهي الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش والفسوق.

(١٠) ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ كل من هؤلاء كذب الرسول الذي أرسله اللَّه إليهم ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ فأخذ اللَّه الجميع ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ زائدة على الحد والمقدار الذي يحصل به هلاكهم.

(١١) ومن جملة أولئك قوم نوح أغرقهم اللَّه في اليم حين طغى الماء على وجه الأرض ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ علا على مواضعها الرفيعة ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم الذين نجاهم اللَّه.

(١٢) ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ الجارية ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ تذكركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى اللَّه عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها، ووجه الآية بها.

(١٣) ﴿فَإِذَا نُفِخَ﴾ يوم القيامة. فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها؛ فإذا الناس قيام لرب العالمين.

(١٤) ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ فتتت الجبال واضمحلت وخلطت بالأرض ونسفت على الأرض؛ فكان الجميع قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً هذا ما يصنع بالأرض وما عليها.

(١٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة.

(١٦) ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ انفطرت وتمزقت ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي أنها تهي بعد الصلابة والقوة

العظيمة.
(١٧) ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ الملائكة الكرام ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ على جوانب السماء وأركانها خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.
﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أملاك في غاية القوة إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله.
(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على اللَّه ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإن اللَّه -تعالى- عالم الغيب والشهادة.
(١٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم ﴿فَيَقُولُ﴾ من شدة فرحه يقول لكل من لقيه ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ دونكم كتابي فاقرءوه.
(٢٠) ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ أيقنت في الدنيا ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ يوم القيامة لا محالة.
(٢١) ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ جامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها.
(٢٢) ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازل والقصور عالية المحل.
(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قياماً وقعوداً ومتكئين.
(٢٤) ويقال لهم إكراماً: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ من كل طعام لذيذ، وشراب شهي ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ تامًّا كاملاً من غير مكدِّر ولا منغص، وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة.
(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحة ﴿فَيَقُولُ﴾ ندماً وأسفاً ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ يتمنى الموت.
(٢٦) ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ ليتني كنت نسياً منسيًّا ولم أبعث وأحاسب.
(٢٧) ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.
(٢٨) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ ما نفعني لا في الدنيا، فلم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.
(٢٩) ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ ذهب واضمحل؛ فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة، ولا الجاه العريض؛ بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح.
(٣٠) فعندها يقول الرب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ اجعلوا في عنقه غُلاًّ يخنقه.
(٣١) ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ قلبوه على جمرها ولهبها.
(٣٢) ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع.
(٣٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بأن كان كافرًا بربه معانداً لرسله رادًّا ما جاءوا به من الحق.
(٣٤) ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ليس في قلبه

(١٧) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام».

رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين؛ فلا يطعمهم من ماله ولا يحض غيره على إطعامهم لعدم الوازع في قلبه.

(٣٥) ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا﴾ يوم القيامة ﴿حَمِيمٌ﴾ قريب أو صديق يشفع له؛ لينجو من عذاب اللَّه، أو يفوز بثواب اللَّه.

(٣٦) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وليس له طعام إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، ونتن الريح، وقبح الطعم ومرارته.

(٣٧) ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ﴾ لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم؛ فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

(٣٨) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء.

(٣٩) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق.

(٤٠) ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أقسم بنفسه على صدق الرسول و بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن اللَّه تعالى.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ﴾ القرآن الكريم ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تدَّعون ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وأن الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم.

(٤٢) ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ولو تذكروا لآمنوا وعلموا ما ينفعهم ويضرهم.

ونزه اللَّه رسوله عما رماه به أعداؤه من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه؛ لرأوا أمرًا مثل الشمس يدلهم على أنه رسول اللَّه حقًّا.

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سورة المعارج
مكية — آياتها ٤٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

(٤٣) ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول البشر؛ بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده.

(٤٤) ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ فإنه لو تقول عليه وافترى ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ الكاذبة.

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لانتقمنا باليمين؛ لأنها أشد في البطش.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات منه الإنسان.

(٤٧) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: لو أهلكه ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب اللَّه.

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن الكريم ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها،

ويعملون عليها.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين؛ فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

(٥٠) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره؛ ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أعلى مراتب العلم؛ فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

سورة المعارج
وهي مكية

(١) ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ من الله على الكفار

(٢) ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ لا دافع له إذا أراد الله كونه.

(٣) ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين أحدٌ يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق.

(٤) ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، وذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن اللَّه تعالى يخففه على المؤمن.

(٥) ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تضجر فيه ولا ملل بل استمر على أمر اللَّه، وادع عباده إلى توحيده.

(٦) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾؛ أي: البعث، إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور.

(٧) ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ واللَّه يراه قريباً؛ لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون.

(٨) ﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

سورة المعارج

(١) أخرج النسائي والحاكم بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ هو النضر بن الحارث ابن كلدة.

(٤) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم؛ فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إلى الجنة أو النار».

(٩) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباءً منثوراً.

(١٠) ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ لا يسأل القريب قريبه عن حاله.

(١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾؛ أي: يشاهد الحميم حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يهمه إلا نفسه ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أولاده.

(١٢) ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ شقيقه.

(١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ قرابته ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضاً.

(١٤) ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بجميع ما في الأرض ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ لم ينفعه ذلك.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ لا حيلة ولا مناص لهم ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ يصف النار وشدة حرها.

(١٦) ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها.

(١٧) ﴿تَدْعُو﴾ إليها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن اتباع الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عنه، فليس له فيه غرض.

(١٨) ﴿وَجَمَعَ﴾ الأموال بعضها فوق بعض ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ فلم ينفق منها.

(١٩) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع.

(٢٠) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر

الجزء التاسع والعشرون — سورة المعارج

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

الحزب ٥٧

٥٦٩

أو مرض، أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل أو ولد.

(٢١) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه اللَّه، ولا يشكر اللَّه على نعمه وبره.

(٢٢) ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنهم إذا مسهم الخير شكروا اللَّه، وأنفقوا مما خولهم اللَّه، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

(٢٣) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

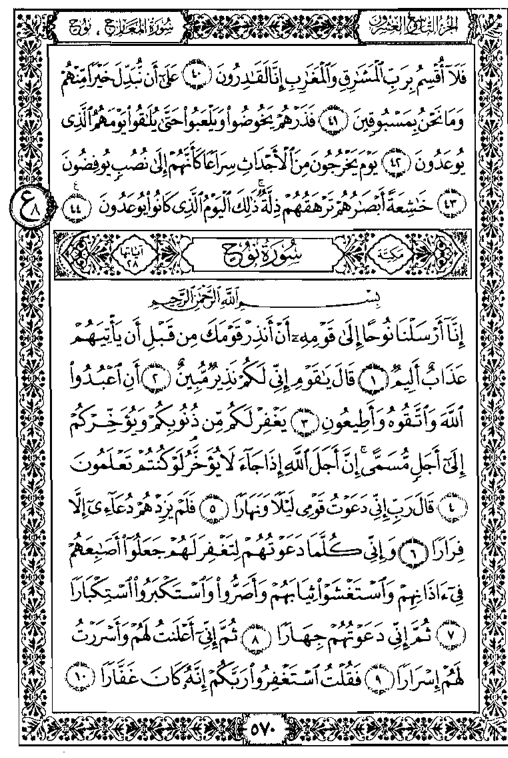
(٢٤) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ من زكاة مفروضة وصدقة واجبة.

(٢٥) ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ الذي يتعرض للسؤال

---

(١٨) أخرج الشيخان من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: «ولا توعي؛ فيوعي الله عليك».

(١٩) أخرج أبو داود وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «شر ما في رجل شح هالع، وجبن خالع».



﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يفطن له فيتصدق عليه.

(٢٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يؤمنون بما أخبر اللَّه به، وأخبرت به رسله من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون؛ فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب اللَّه.

(٢٨) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

(٢٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ فلا يطأون بها وطأ محرماً، من زنًا أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك.

(٣٠) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ سرياتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في وطئهن في المحل الذي هو محل الحرث.

(٣١) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ المتجاوزون ما أحل اللَّه إلى ما حرم اللَّه.

ودلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين، وعلى تحريم الاستمناء باليد.

(٣٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء به.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان.

(٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بمداومتها على أكمل وجوهها.

(٣٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ قد أوصل اللَّه لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

(٣٦) يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين.

(٣٧) ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قطعاً متفرقة، وجماعات متوزعة، كل منهم بما لديه فرح.

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بأي سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والجحود برب العالمين.

(٣٩) ﴿كَلَّآ﴾ ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما

---

(٣٧) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ خرج على أصحابه وهم حِلَق حِلَق فقال: «مالي أراكم عزين».

يشتهون بقوتهم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من ماء دافق، يخرج من بين الصُلب والترائب؛ فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

(٤٠) ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم.

(٤١) ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ إنا لقادرون على أن نهلكهم، ونأتي بأناس خير منهم.

(٤٢) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فإن اللَّه قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

(٤٣) ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ كأنهم إلى علم يؤمون ويسرعون، أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي.

(٤٤) ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم؛ فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات.

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد اللَّه.

سورة نوح عليه السلام
وهي مكية

(١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أخبر تعالى أنه أرسله إلى قومه، رحمة بهم ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإنذاراً لهم من عذاب اللَّه الأليم.

(٢) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح النذارة بينها، وذلك؛ لتوضيحه ما أنذر به، وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً.

(٣) ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله.

(٤) ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وإذا اتقوا اللَّه غفر ذنوبهم ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى مقدر البقاء في الدنيا بقضاء اللَّه وقدره إلى وقت محدود، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة؛ فإنه إذا أراد تعالى ذلك لا يرد ولا يمانع.

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه شكى إلى ربه عز وجل ما لقه من قومه، وما صبر عليهم، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

(٦) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة؛ لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه.

(٧) ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا غفرت لهم ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه الصلاة السلام، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبغضاً له ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على كفرهم وشرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ على الحق ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ بمسمع منهم كلهم.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ أي: فيما بيني وبينهم

(١٠) ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا اللّه منها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر.

(١١) ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ مطرًا متتابعًا، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

(١٢) ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ جعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخلّلها بالأنهار الجارية فيها.

(١٣) ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تخافون للّه عظمة، وليس للّه عندكم قدر.

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة.

(١٥) ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ كل سماء فوق الأخرى.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ لأهل الأرض، ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فاوت بينها وبين القمر في الاستنارة، وجعل كُلاً منهم نموذجاً على حدة.

(١٧) ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

(١٩) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطة مهيأة للانتفاع بها.

(٢٠) ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ليتمكنوا حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ شاكيًا لربه: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ اتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم وإلا أولادهم إلا هلاكا وتفويتًا للأرباح.

(٢٢) ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحق.

(٢٣) ﴿وَقَالُوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم؛ ففعلوا لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا رأوها؛ حتى إذا هلك ونسخ العلم عبدت، كذلك أوصى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة.

(٢٤) ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق؛ لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً.

(٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾، أي: بسبب خطيئاتهم اغرقوا في الطوفان الذي أحاط بهم ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾؛ أي: حل بهم النكال فذهبت أرواحهم للنار والحرق ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر. وهذه من الآيات التي استدل بها العلماء على إثبات عذاب القبر.

(٢٦) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ يدور على وجه الأرض.

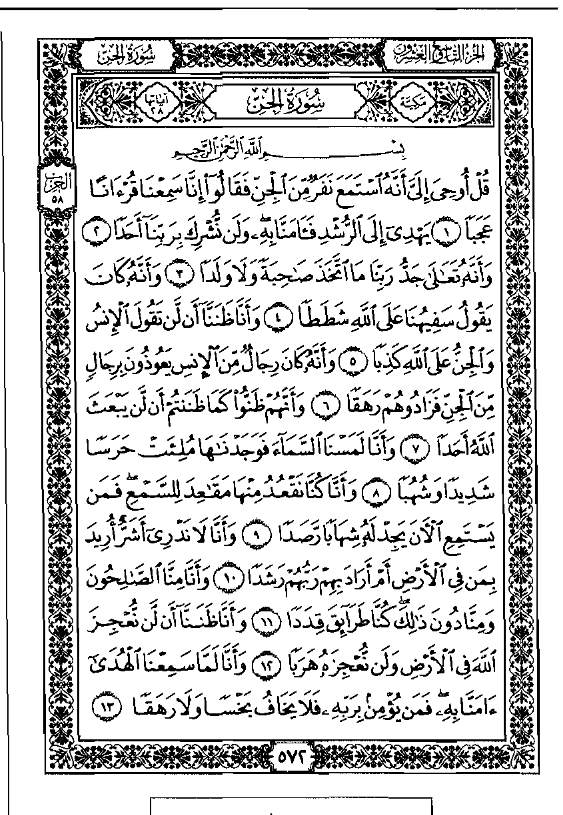
(٢٧) وذكر السبب في ذلك؛ فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم.

(٢٨) ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ خص المذكورين؛ لتأكد حقهم، وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء؛ فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ خساراً ودماراً وهلاكاً.

---

(٢٣) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما (ود) فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سواع) فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام؛ فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان على قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم. ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، وتنسخ العلم عبدت».

(٢٨) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».



سورة الجن
[وهي] مكية

(١) ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ صرفهم اللَّه إلى رسوله لسماع آياته ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

(٢) ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى المتضمنة لترك الشر، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة.

(٣) ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ تعالت عظمته وتقدست أسماؤه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً.

(٤) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليس لعنه الله ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قولاً جائرًا عن الصواب، متعديًا للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهه وضعف عقله.

(٥) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فأحسنا بهم الظن، وظنناهم لا يتجرءون على الكذب على اللَّه.

(٦) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾

سورة الجن

(١) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: انطلق رسول اللهﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء إلا ما حدث؛ فأضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا على تهامة إلى رسول اللهﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، تسمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وأنزل الله ﷻ على نبيه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن.

كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم؛ ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ فلما أنكروا البعث أقدموا على الشرك والطغيان.

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أتيناها واختبرناها ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ عن الوصول إلى أرجائها والدنو منها، ﴿وَشُهُبًا﴾ يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإنا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء.

(٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء اللَّه ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ مرصداً له، معدًا لإتلافه وإحراقه.

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ لا بد من هذا أو هذا؛ لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أن هذا الأمر يريده اللَّه، ويحدثه في الأرض.

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ منا المؤمن ومنا الكافر ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تبين لنا كمال قدرة اللَّه وكمال عجزنا، وأن

الجزء التاسع والعشرون — سورة الجن

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

٥٧٣

نواصينا بيد اللَّه؛ فلن نعجزه في الأرض ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ ولن نعجزه إن هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلا إليه.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أثر في قلوبنا ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ إيماناً صادقاً ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ لا نقصاً ولا طغياناً ولا أذى يلحقه، وإذا سلم من الشر حصل له الخير.

(١٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

(١٥) ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾؛

أي: وقوداً تسعر بهم.

(١٦) ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾؛ أي: لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ هنيئاً مريئاً.

(١٧) ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه، ونمتحنهم؛ ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ من أعرض عن ذكر اللَّه، الذي هو كتابه، فلم يتبعه وينقد له، بل غفل عنه ولهى، يسلكه عذابًا شديدًا بليغًا.

(١٨) ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص للَّه ، والخضوع لعظمته والاستكانة لعزته ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يسأله ويتعبد له، ويقرأ القرآن ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه ﴿لِبَدًا﴾ متلبدين متراكمين حرصاً على سماع ما جاء به من الهدى.

(٢٠) ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول مبيناً حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر، ولا من التصرف شيء.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب اللَّه ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ ومنتصرًا.

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ﴾ ليس لي مزية على الناس، إلا أن اللَّه خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى اللَّه ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ يوجب الخلود في النار.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ شاهدوه عياناً، وجزموا أنه واقع بهم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة وهو يوم القيامة ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ حين لا ينصرهم غيرهم ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة .

(٢٥) ﴿قُلْ﴾ لهم إن سألوك؛ فقالوا: متى هذا الوعد؟ ﴿إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: لا علم لي بوقت الساعة، ولا أدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ غاية طويلة.

(٢٦) ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب.

(٢٧) ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الرسل ليسوا كغيرهم؛ فإن اللَّه أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا يزيدوا فيه أو ينقصوا؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ يحفظونه بأمر اللَّه.

(٢٨) ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ بذلك ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بما جعله لهم من الأسباب ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندهم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾؛ أي: ما أسروه وأعلنوه.

سورة المزمل
[وهي] مكية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: المتغطي بثيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته.

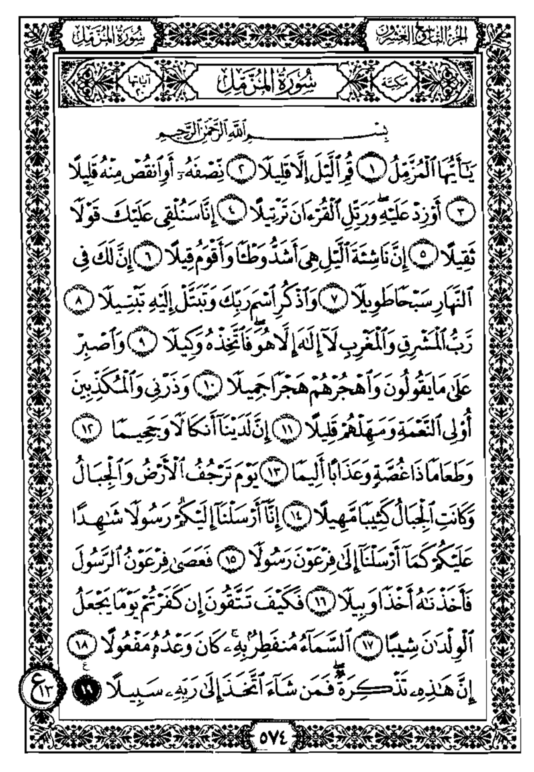
(٢) ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾؛ أي: للصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وكان قيام الليل فريضة في الابتداء، وبين قدره فقال:

(٣) ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه.

(٤) ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ على النصف؛ فيكون الثلثين ونحوها ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾؛ أي: اقرأ القرآن على تمهل؛ فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره.

(٥) ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه.

(٦) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أقرب إلى تحصيل



مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

(٨) ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر

---

(١) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة».

(٤) أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة، فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدًّا ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد(الرحيم).

(٥) أخرج البخاري أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عن» قال: »وأحياناً يتمثل لي الملك، فيكلمني فأعي ما أقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقاً.

كلها ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ انقطع إلى اللَّه تعالى؛ بالانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة اللَّه، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

(٩) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارب كلها، فهو تعالى رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ حافظاً ومدبراً لأمورك كلها.

(١٠) ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر اللَّه، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وأن يهجرهم هجراً جميلاً؛ وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه.

(١١) ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ اتركني وإياهم؛ فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أصحاب النعمة والغنى: الذين طغوا حين وسع اللَّه عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: رويداً.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ إن عندنا ﴿أَنكَالًا﴾ عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب ﴿وَجَحِيمًا﴾ ناراً حامية.

(١٣) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعاً مفظعاً.

(١٤) وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ تزلزل من الهول العظيم ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ بمنزلة الرمل المنهال المنتثر.

(١٥) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ فتكونوا كفرعون حين أرسل اللَّه إليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، فدعاه إلى اللَّه، وأمره بالتوحيد.

(١٦) ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ فلم يصدقه؛ بل عصاه﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا﴾ فأخذه اللَّه أخذاً﴿وَبِيلًا﴾ شديداً بليغاً.

(١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره، الذي يُشيب الولدان، تذوب له الجمادات العظام.

(١٨) ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ وتذوب له الجمادات العظام، فتتفطر به السماء، وتنتثر به نجومها ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه الموعظة التي نبأ اللَّه بها من أحوال يوم القيامة وأهواله، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها

المؤمنون ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ طريقاً موصلاً إليه، وذلك باتباع شرعه.

(٢٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ ذكر اللّه في أول هذه السورة: أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقى ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص؛ لكون ذلك يستدعي انتباها وعناء زائداً ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ﴾؛ أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ مما تعرفون ومما لا يشق عليكم ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰۙ﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه؛ فليصل المريض المتسهل عليه ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ﴾ وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عن الناس.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ من قتال أو جهاد، أو حج أو عمرة، ونحو ذلك ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾؛ فإنه أيضاً يراعي ما لا يكلفه، فللّه الحمد والثناء، الذي ما جعل على الأمة في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده، ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وشروطها ومكملاتها ﴿وَأَقْرِضُوا۟

الجزء التاسع والعشرون — سورة المزمل، المدثر

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ المُدَّثِّر — مكية — آياتها ٥٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾

٥٧٥

ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ خالصا لوجه اللّه، من نية صادقة، وتثبيت من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا: الصدقة الواجبة والمستحبة، ثم حث على عموم الخير وأفعاله فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ وفيه الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص؛ فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار.

---

(٢٠) أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟» قالوا: يا رسول الله! ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون» قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدم، ومال وارثه ما أخر».

سورة المدثر
وهي مكية

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ المتغطي بثيابه.

(٢) ﴿قُمۡ﴾ بجد ونشاط ﴿فَأَنذِرۡ﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه.

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه اللّٰه.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ﴾؛ أي: أعماله كلها ﴿فَطَهِّرۡ﴾ وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، وغير ذلك.

(٥) ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾ الرجز أعمال الشر كلها وأقواله ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾ فيكون أمراً له بترك الذنوب صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

(٦) ﴿وَلَا تَمۡنُن﴾ لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية ﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾ فتتكثر بتلك المنة، وترى لك الفضل عليهم بإحسانك المنة.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ احتسب بصبرك، واقصد به وجه اللّٰه تعالى.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق للبعث والنشور.

(٩) ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ لكثرة أهواله وشدائده.

(١٠) ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ بأن أيقنوا بالهلاك والبوار.

(١١) ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ خلقته منفرداً، بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أنميه وأربيه

(١٢) ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ كثيراً.

(١٣) ﴿وَ﴾ جعلت له ﴿بَنِينَ﴾ ذكوراً ﴿شُهُودٗا﴾ دائما حاضرين عنده، على الدوام يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ مكنته من الدنيا

سورة المدثر

(١) أخرج الشيخان من جابر بن عبد اللّٰه رضي الله عنه قال: أحدثكم ما حدثنا رسول اللّٰه ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري؛ نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحد، ثم نوديت، فنظرت فلم أر أحداً، ثم نوديت، فرفعت رأسي، فإذا هو على العرش في الهواء - يعني: جبريل عليه السلام- فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني فدثروني؛ فصبوا عليَّ ماء، فأنزل اللّٰه عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾.

(٨) أخرج أحمد بإسناد صحيح لغيره عن عبد اللّٰه بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟». فقال: قال أصحاب رسول اللّٰه ﷺ: فما تأمرنا يا رسول اللّٰه؟ قال: «قولوا: حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل، على اللّٰه توكلنا».

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على ما يشتهي ويريد.

(١٥) ﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ يطمع أن ينال نعيم الآخرة؛ كما نال نعيم الدنيا.

(١٦) ﴿كَلَّآ﴾ ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه؛ وذلك لأنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم ينقد لها.

(١٧) ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ عذاباً لا راحة فيه.

(١٨) ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ في نفسه ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه؛ ليقول قولا يبطل به القرآن.

(١٩) ﴿فَقُتِلَ﴾دعاء عليه؛ أي: لعن، وقيل: عُذِّب ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ.

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرره للتأكيد، وقيل: معناه لعن على أيّ حال قدَّر من الكلام.

(٢١) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ما يقول.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولى ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ نتيجة سعيه الفكري والعملي والقولي أن قال:

(٢٤) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم.

(٢٥) ولهذا قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ما هذا كلام اللَّه، بل كلام البشر، وليس -أيضاً- كلام البشر الأخيار؛ بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار.

(٢٦) ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ سأغمره فيها من جميع جهاته.

(٢٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم.

(٢٨) ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ لا

---

(١٦) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، وكان ما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، فكان ذلك يعرف منه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أخذه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: إن علينا أن نجمعه في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فإذا أنزلناه؛ فاستمع له ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ علينا أن نبينه بلسانك قال: فكان إذا أتاه جبريل؛ أطرق، فإذا ذهب؛ قرأه كما وعده الله تعالى.

(٢٣) في «الصحيحين» من حديث جرير رضي الله عنه؛ قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم؛ كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، ولا قبل غروبها؛ فافعلوا».

تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئاً إلا وبلغته.

(٢٩) ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ تلوحهم وتصليهم في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرها.

(٣٠) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون اللَّه ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

(٣١) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، ويحتمل أن المراد أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ فإن أهل الكتاب إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل اللَّه آية فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليزول عنهم الريب والشك ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ شك وشبهة ونفاق ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات اللَّه، وهذا وذاك من هداية اللَّه لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فمن هداه اللَّه، جعل ما أنزله اللَّه على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمة في حقه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ وما هذه الموعظة والتذكار مقصوداً به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

(٣٢) ﴿كَلَّا﴾ بمعنى: حقًّا ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ فأقسم تعالى بالقمر

(٣٣) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وبالليل وقت إدباره.

(٣٤) ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ والنهار وقت إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات اللَّه العظيمة، الدالة على كمال قدرة اللَّه وحكمته، وسعة سطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه.

(٣٥) والمقسَم عليه قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ النار ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ قيل معناها: أي وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة إنذارًا للبشر، وقيل: هو صفة لمحمد ﷺ، ومعناه: يا أيها المدثر قم نذيرًا للبشر..

(٣٧) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ فمن شاء منكم أن يتقدم؛ فيعمل بما يقربه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر عما خلق له و عما يحبه اللَّه ويرضاه؛ فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم.

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر ﴿رَهِينَةٌ﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عنقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب.

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ — مكية — آياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

(٣٩) ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنهم لم يرتهنوا، بل أطلقوا وفرحوا

(٤٠) ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة.

(٤١) ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أن سألوا عن المجرمين أيّ حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم اللَّه تعالى؟

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأيّ ذنب استحققتموها؟

(٤٣) فـ ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ فلا إخلاص للمعبود.

(٤٤) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ نخوض بالباطل، ونجادل به الحق.

(٤٦) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومِن أحق الحق: يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك اللَّه وحكمه العدل لسائر الخلق.

(٤٧) فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل.

(٤٨) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى اللَّه أعمالهم.

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ صادين غافلين عنها.

(٥٠) ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ كأنهم حمر وحش نفرت فنفر بعضها بعضا، فزاد عدوها.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ من صائد ورام يريدها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك.

---

(٤٠) أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يعمل فوق بيته؛ فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال: سبحانك فبلى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول اللهﷺ.

(٥٣) ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها لما جرى منهم ما جرى.

(٥٤) ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير في «إنه» إما أن يعود على السورة، أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة.

(٥٥) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنه قد بيّن له السبيل، ووضح له الدليل.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإن مشيئته نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ هو أهل أن يتقى ويعبد؛ لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه، واتبع رضاه.

سورة القيامة
[وهي] مكية

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليست «لا» هاهنا نافية، ولا زائدة، وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها من اليمين، فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

(٢) ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة؛ سميت: «لوامة»؛ لكثرة ترددها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها.

(٣) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد الموت؛ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة اللّه على خلق عظامه التي هي عماد البدن.

(٤) فرد عليه بقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن.

(٥) ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾؛ أي: أن قصده وإرادته يمضي قدمًا للعمل بالمعاصي، وتسويف التوبة. وقيل: يمضي للكفر بالحق بين يدي القيامة.

(٦) ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقول متى يوم القيامة؟ استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً لوجودها.

(٧) ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف.

(٨) ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب نوره وسلطانه

(٩) ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما اللّه تعالى؛ فيجمع اللّه بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار.

(١٠) ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ حين يرى تلك القلاقل المزعجات: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أين الخلاص والفكاك مما طرقنا وأصابنا؟

(١١) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ لأحد دون اللّه.

(١٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع؛ بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله.

(١٣) ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بجميع عمله الحسن والسيئ، في أول وقته وآخره،

وينبأ بخبر لا ينكره.

(١٤) ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ شاهد ومحاسب.

(١٥) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فإنها معاذير لا تقبل.

(١٦) ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه؛ فنهاه اللّه عن هذا.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه اللّه في صدره.

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى اللّه إليك، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه.

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ بيان معانيه؛ فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون.

(٢٠) ﴿كَلَّا﴾ حقًا أنكم ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أنكم همتكم الدار الدنيا العاجلة.

(٢١) ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أنتم لاهون متشاغلون عن الآخرة.

(٢٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح.

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تنظر إلى ربها على حسب مراتبهم.

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ معبسة ومكدرة، خاشعة ذليلة.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ عقوبة شديدة، وعذاب أليم.

(٢٦) ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ بلغت روحه التراقي؛ وهي: العظام المكتنفة لثغرة النحر.

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾؛ أي: من يرقى بروحه: ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

الجزء التاسع والعشرون — سورة القيامة، الإنسان

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سورة الإنسان — مدنية — آياتها ٣١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٥٧٨

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ للدنيا.

(٢٩) ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن ولم تزل معه.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ فتساق إلى اللّه تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ لا آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لم يقم الصلاة ولم يحافظ عليها.

(٣٢) ﴿وَلَـٰكِن كَذَّبَ﴾ بالحق في مقابلة التصديق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ﴾، بل يذهب ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ ليس على باله شيء.

(٣٤ و٣٥) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ وهذه كلمات وعيد كررها لتكرير وعيده.

(٣٦) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ معطلاً، لا يُؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب؟

(٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ كان الإنسان نطفة ضعيفة ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ من ماء مهين.

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ بعد المني ﴿عَلَقَةً﴾ دماً ﴿فَخَلَقَ﴾ اللَّه منها الحيوان ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أتقنه وأحكمه.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ ثم ميّز جنسه فجعله ذكراً أوأنثى بعلمه وتقديره.

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده؛ كما بدأه وتناول القدرة للإعادة؟ بلى؛ إنه على كل شيء قدير.

سورة الإنسان
وهي مكية

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فذكر أنه مرّ عليه دهر طويل وهو الذي قبل وجوده وهو معدوم؛ بل ليس مذكوراً.

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ماء مهين مستقذر ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بذلك لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها، أم ينساها وتغره نفسه؟

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فأنشأه اللَّه، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة؛ كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتمها له، وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهداه الطريق الموصلة إلى اللَّه، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى اللَّه.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكها: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وابتلاه بذلك؛ فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة اللَّه عليه، قائم بما حمله اللَّه من حقوقه، وإلى كفور لنعمة اللَّه عليه.

(٤) ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ إنا هيأنا وأرصدنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ لمن كفر باللَّه، وكذب رسله، وتجرأ على المعاصي ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ في نار جهنم ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها ﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً تستعر بها أجسامهم وتحرق بها أبدانهم.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة اللَّه ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم ، واستعملوها بأعمال البر ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ شراب لذيذ من خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ قد مزج بكافور؛ أي: خلط به؛ ليبرده، ويكسر حدته، وهذا الكافور في غاية اللذة قد سلم من كلِّ

سورة الإنسان

(٣) أخرج مسلم عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فموبقها، أو معتقها».

الجزء التاسع والعشرون — سورة الإنسان

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

٥٧٩

مكدر ومنغص.

(٦) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يفجرها عباد اللَّه تفجيراً، أنى شاءوا، وكيف أرادوا.

(٧) ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ بما ألزموا به أنفسهم للَّه من النذور والمعاهدات ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ منتشراً فاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة اللَّه على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم ﴿مِسْكِينًا﴾ الفقير ﴿وَيَتِيمًا﴾ من فقد أباه ولم يبلغ الحلم ﴿وَأَسِيرًا﴾ من أسارى الحرب والأرقاء.

(٩) ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ لا جزاء ماليًّا.

(١٠) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ شديد الجهمة والشر ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ ضنكاً ضيقاً.

(١١) ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أكرمهم وأعطاهم ﴿نَضْرَةً﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم.

(١٢) ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعة اللَّه، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي اللَّه، فتركوها، وعلى أقدار اللَّه المؤلمة، فلم يتسخطوها ﴿جَنَّةً﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، ﴿وَحَرِيرًا﴾: لباسهم فيها حرير.

(١٣) ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة والراحة، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس

---

(٧) أخرج البخاري عن عائشة ﵂: أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

(٩) أخرج أحمد في «الزهد» وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن الكبرى» و«شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن نافع قال: مرض ابن عمر، فاشتهى عنبًا - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفية - يعني امرأته - فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل فلما دخل به قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. ثم أرسلت بدرهم آخر، فاشترت عنقودًا؛ فأتبع الرسول السائل فلما دخل قال السائل: السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إياه. فأعطوه إياه. فأرسلت صفية إلى السائل؛ فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيرًا أبدًا، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به».

المزين ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿شَمْسًا﴾ يضرهم حرها ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ برداً شديداً.

(١٤) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قربت ثمراتها من مريدها تقريبا ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ ويطاف على أهل الجنة الخدم والولدان ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أكواب على صفاء الزجاج يرى ظاهرها من باطنها في بياض الفضة شفافة.

(١٦) ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ مادتها من فضة ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قدروا الأواني المذكورة على قدر ريهم، لا تزيد ولا تنقص.

(١٧) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ خلطها ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ليطيب طعمه وريحه.

(١٨) ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بذلك؛ لسلاستها ولذتها وحسنها.

(١٩) ﴿وَيَطُوفُ﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم وخدمتهم ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ منتشرين في خدمتهم ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ من حسنهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ في انتشارهم في قضاء حوائجهم، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسنهم في التشبه أحسن من هذا اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

(٢٠) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف.

(٢١) ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قد جللتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج، والإستبرق: ما رقَّ منه ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كلِّ أذى وقذى.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ على ما أسلفتموه من الأعمال في الأيام الخالية ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ القليل منه يجعل اللّه لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ اصبر لحكمه القدري؛ فلا تسخطه، ولحكمه الديني؛ فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿ءَاثِمًا﴾ فاعلاً إثماً ومعصية ﴿أَوْ﴾ ولا ﴿كَفُورًا﴾ فإن طاعة الكفار والفجار والفساق لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم.

(٢٥) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل والذكر، والتسبيح،

والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

(٢٦) ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ أكثر له من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ١، ٢].

(٢٧) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين لك أيها الرسول بعد ما بينت لهم الآيات ﴿يُحِبُّونَ﴾ بل لا يزالون يؤثرون ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ ويطمئنون إليها ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون العمل ويهملون ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ أمامهم ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون.

(٢٨) ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ أوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ طريقاً موصلاً إليه.

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فإن مشيئة الله نافذة.

(٣١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

الجزء التاسع والعشرون — سورة الإنسان المرسلات

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾

سُورَةُ المُرۡسَلَاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

٥٨٠

(٣١) ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ بظلمهم وعدوانهم.

سورة المرسلات
وهي مكية

(١) في صدر هذه السورة أقسم تعالى على البعث والجزاء بالأعمال فقال: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ وهي

(١) في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه «والمرسلات»؛ فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم كما وقيتم شرها».

و«فيهما» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أم الفضل سمعته يقرأ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ فقالت: يا بني، أذكرتني بقراءتك هذه السورة؛ إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب.

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

الملائكة التي يرسلها اللَّه تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم، وبشئونه الشرعية ووحيه إلى رسله ﴿عُرْفًا﴾ أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث، وقيل: هي الرياح.

(٢) ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ وهي أيضًا الملائكة التي يرسلها اللَّه -تعالى- وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، وقيل: هي الريح إذا هبت بتصويت.

(٣) ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ يحتمل أنها الملائكة، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي ينشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها.

(٤) ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ هي: الملائكة التي تنزل على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام.

(٥) ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ هي: الملائكه تلقي أشرف الأوامر، وهو: الذكر الذي يرحم اللَّه به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم.

(٦) ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ إعذاراً وإنذاراً للناس.

(٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

(٨) ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ فتنطمس النجوم وتتناثر، وتزول عن أماكنها.

(٩) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ انفطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ وتنسف الجبال؛ فتكون كالهباء المنثور.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها.

(١٢) ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل لأيِّ يوم أجل أمرها حتى تقوم الساعة.

(١٣) ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بين الخلائق بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفرداً.

(١٤) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ تعظيماً لشأنه، وتفخيماً لأمره.

(١٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يوم يقع الفصل ويل للمكذبين من العذاب الهائل الكبير يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم.

(١٦) ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أما أهلكنا المكذبين السابقين.

(١٧) ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين .

(١٨) ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذه سنته

السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه.

(١٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل لهم من عذاب اللَّه غداً.

(٢٠) ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب.

(٢١) ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو الرحم، به يستقر وينمو.

(٢٢) ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ووقت مقدر.

(٢٣) ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قدرنا ودبرنا ذلك الجنين في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله اللَّه جسداً، ثم نفخ فيه الروح ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ يعني بذلك نفسه المقدسة حيث كان قدراً تابعاً للحكمة، وموافقاً للحمد .

(٢٤) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل لمن تأمل هذه المخلقات الداله على عظمه، ثم بعد ذلك يستمر على التكذيب.

(٢٥) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ أما مننّا عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم؛ فجعلناها ﴿كِفَاتًا﴾ لكم: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم.

(٢٦) ولهذا قال: ﴿أَحْيَآءً﴾ في الدور ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ في القبور.

(٢٧) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ جبالا ترسي الأرض؛ لئلا تميد بأهلها، فثبتها اللَّه بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عذباً زلالاً.

(٢٨) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم اللَّه من النعم التي انفرد اللَّه بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب.

(٢٩) ومن الويل الذي أعد للمكذبين أن يقال لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ثم فسر ذلك بقوله:

(٣٠) ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ إلى ظل نار جهنم، ثلاث قطع من النار تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به.

(٣١) ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ ذلك الظل لا راحة فيه ولا طمأنينة ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ من مكث فيه ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ بل اللّهب قد أحاط به يمنة ويسرة ومن كل جانب.

(٣٢) ﴿إِنَّهَا﴾ نار جهنم ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ متطاير من لهبها﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ كأصول الشجر.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ أي الشرر ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ حبال السفن.

(٣٤) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل لهم من شدة الأهوال والزلازل يومئذ.

(٣٥) ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا.

(٣٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين كذبوا

(٣١، ٣٢) أخرج البخاري عن عبدالرحمن بن عابس قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء؛ فنسميه: القصر. ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾: حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال.

بالجزاء والحساب؛ فهاهم يرون جهنم وأهوالها رأي العين.

(٣٨) ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ تقدرون على الخروج من ملكي وتنجون به من عذابي ﴿فَكِيدُونِ﴾ ليس لكم قدرة ولا سلطان، ويستسلمون لعذاب اللّه، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم.

(٤٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في ذلك اليوم.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرمات ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من السلسبيل والرحيق وغيرهما.

(٤٢) ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من خيار الفواكه وطيبها.

(٤٣) ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة اللّه وأحسن إلى عباد اللّه.

(٤٤) ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

(٤٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم لكفى به حِرْماناً وخُسراناً.

(٤٦) ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ هذا تهديد ووعيد للمكذبين أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ فإنهم مجرمون.

(٤٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين أجرموا بحق الله وحق أنفسهم وكفروا باليوم الآخر.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ وأنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ مع المصلين مع الجماعة ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه؛ فأيّ إجرام فوق هذا؟ وأيّ تكذيب يزيد على هذا؟

(٤٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

(٥٠) ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ كقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

---

(٣٩) أخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه في الحديث الإلهي الطويل: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني».

سورة النبأ
وهي مكية

(١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أيّ شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟

(٢) ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ عن الخبر العظيم، وهو يوم القيامة.

(٣) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد.

(٤) ﴿كَلَّا﴾ نفي لقولهم وإنكارهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكذيبهم حين تنكشف الأمور.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم على أثر وعيد.

(٦) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ ممهدة مهيأة لكم ولمصالحكم من الحروث، والمساكن، والسبل.

(٧) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تمسك الأرض؛ لئلا تضطرب بكم وتميد.

(٨) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكوراً وإناثاً من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون المودة والرحمة.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ راحة لكم، وقطعا لأشغالكم التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم.

(١٠) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾: جعل الله الليل والنوم يغشي الناس؛ فتنقطع حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

(١١) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً؛ ليتمكن الناس من التصرف فيه، والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك.

الجزء الثلاثون — سورة النبأ

سُورَةُ النَّبَإِ — مكية — آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

٥٨٢

(١٢) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سبع سماوات طباقاً، في غاية القوة والصلابة والشدة.

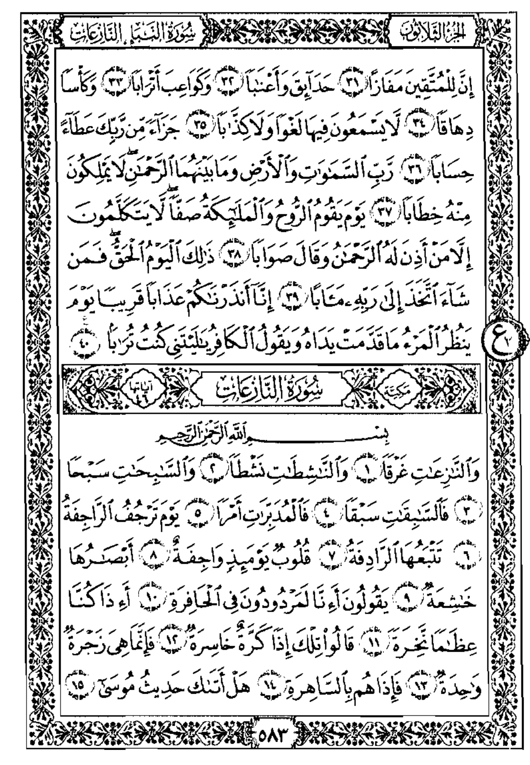
(١٣) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ الشمس؛ نبه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار ضرورة للخلق، وبالوهاج -وهي حرارتها- على ما فيها من الإنضاج والمنافع.

(١٤) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ كثيراً جدًّا.

(١٥) ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ من بر وشعير وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون ﴿وَنَبَاتًا﴾ يشمل سائر النبات.

(١٦) ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

(١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القيامة ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ للخلق.



(١٨) ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتنزعج له القلوب.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ تنشق السماء حتى تكون أبواباً.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث.

(٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾ طريقًا وممرًّا، فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار.

(٢٢) ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ وأعدها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآبا.

(٢٣) ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ وأنهم يلبثون فيها أحقابا كثيرة و الحقب ثمانون سنة.

(٢٤) ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾؛ أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

(٢٥) ﴿إِلَّا حَمِيمٗا﴾ ماء حاراً، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وَغَسَّاقٗا﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق.

(٢٦) ﴿جَزَآءٗ﴾ لهم و ﴿وِفَاقًا﴾ على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها.

(٢٧) ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر.

(٢٨) ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ كذبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً، وجاءتهم البينات فعاندوها.

(٢٩) ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ من قليل وكثير وخير وشر ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ كتبناه في اللوح المحفوظ.

(٣٠) ﴿فَذُوقُواْ﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم.

(٣١) ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه؛ فلهم مفاز ومنجي، وبعد عن النار.

(٣٢) وفي ذلك المفاز ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية ﴿وَأَعۡنَٰبٗا﴾ وخص الأعناب؛ لشرفها، وكثرتها في تلك الحدائق.

(٣٣) ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ وهي النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن، وقوتهن، ونضارتهن ﴿أَتۡرَابٗا﴾ اللاتي على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يَكُنّ متآلفات متعاشرات.

---

(١٨) أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: أربعون يوما؟ قال: «أبيت» قالوا: أربعون شهرا قال: «أبيت» قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت» قال: «ثم ينزل الله من السماء ماءً؛ فينبتون كما ينبت البقل، ليس في الإنسان شيء إلا سيبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين.

(٣٥) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ كلاماً لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ إثماً.

(٣٦) ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ لهم ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمنا لجنته ونعيمها.

(٣٧) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الذي خلقها ودبرها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ في ذلك اليوم ﴿ٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام، وقيل: بنو آدم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ هما صفان، يقوم صف من بني آدم وصف من الملائكة خاضعين لله ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ إلا بما أذن لهم الله به ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام، وأن يكون ما تكلم به صوابا.

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الكائن الواقع يعني يوم القيامة، الذي لا يروج فيه الباطل، ولا ينفع فيه الكذب. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: فمن شاء رجع إلى الله بطاعته.

(٤٠) ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أزف مقبلاً، وكل ما هو آت؛ فهو قريب.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: كل امرئ يرى في ذلك اليوم ما قدم من العمل مثبتًا في صحيفته.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابًا، ولم يكن خُلِقَ.

سورة النازعات
وهي مكية

(١) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ هم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة وتغرق في نزعها حتى تخرج الروح، فتجازى بعملها.

(٢) ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ وهم الملائكة تجتذب الأرواح بقوة ونشاط.

(٣) ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ المترددات في الهواء صعوداً ونزولاً.

(٤) ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ لغيرها ﴿سَبْقًا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله؛ حتى لا تسترقه.

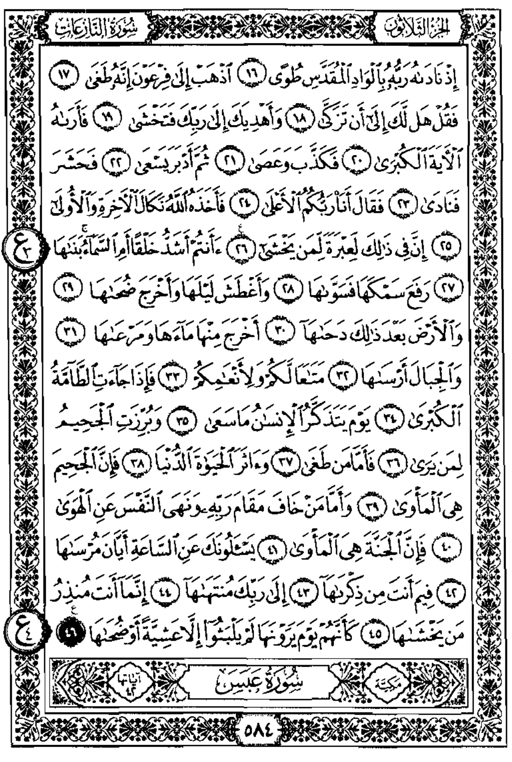
(٥) ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيرا من أمور العالم العلوي والسفلي.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وهي قيام الساعة.

(٧) ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ الرجفة الأخرى التي تردفها، وتأتي تلوها.

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ موجفة ومنزعجة من شدة ما ترى وتسمع.

(٦، ٧) أخرج أحمد والترمذي بإسناد حسن عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذ ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»، قال: أُبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت». قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن شئت فهو خير لك». قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذن تكفي همك، ويغفر لك ذنبك».



(٩) ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف، واستولت عليهم الحسرة.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾؛ أي: يقول الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب أنحن صائرين أحياء بعد الموت كما كنا..

(١١) ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ بالية فتاتاً.

(١٢) ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ استبعدوا أن يبعثهم اللّٰه ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً منهم بقدرة اللّٰه، وتجرؤا عليه.

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ينفخ فيها في الصور.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم﴾ فإذا الخلائق كلهم ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم اللّٰه، ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم.

(١٥) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: قد جاءك يا محمد حديث موسى.

(١٦) ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو: المحل الذي كلمه اللّٰه فيه، وامتن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء.

(١٧) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف؛ لعله ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

(١٨) ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب؛ وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح؟

(١٩) ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أدلك عليه، وأبيّن لك مواقع رضاه من مواقع سخطه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ اللّٰه إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

(٢٠) ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَعَصَىٰ﴾ الأمر.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع قومه وجنوده ﴿فَنَادَىٰ﴾ لما اجتمعوا.

(٢٤) ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فأذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ صارت عقوبته دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة وقيل المراد بالآخرة قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. والأولى بقوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [سورة القصص: ٣٨]

(٢٦) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ فإن من يخشى اللَّه هو الذي ينتفع بالآيات والعبر.

(٢٧) ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر؟ ﴿بَنَىٰهَا﴾ اللَّه.

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ جرمها وصورتها ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه؛ فعمت الظلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أظهر فيه النور العظيم.

(٣٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد خلق السماء ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أودع فيها منافعها.

(٣١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل.

(٣٢) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ ثبتها في الأرض.

(٣٣) ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدَّة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل.

(٣٤) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ في الدنيا من خير وشر؛ فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾: جاوز الحد؛ بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده اللَّه.

(٣٨) ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة؛ فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

(٣٩) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: المقر والمسكن لمن هذه حاله

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها عن طاعة اللَّه، وصار هواه تبعا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير.

(٤١) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ﴾ المشتملة على كل خير وسرور ونعيم ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ لمن هذا وصفه.

(٤٢) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى وقوعها، و ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى ظهورها وثبوتها.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ لست في شيء من علمها وذكرها؛ أي: لا تعلمها

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾: إليه ينتهي علمها.

(٤٥) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ إنما نذارتك

(٤٢ - ٤٦) في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنه بأعلم من السائل».

وأخرج النسائي في «تفسيره»، والطبراني في « الكبير» بإسناد صحيح عن طارق بن شهاب: أن النبي ﷺ كان لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

وأخرج الطبري والبزار والحاكم بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.



نفعها لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه.

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾؛ يرون القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في قبورهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: عشية يوم، أو ضحى تلك العشية.

سورة عبس وهي مكية

(١) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ قبض وأعرض وجهه تكرّهًا.

(٢) ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ لأجل مجيء الأعمى له وهو ابن أم مكتوم، واسمه: عبد الله.

(٣) ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ﴾؛ أي: الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾؛ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله وعن الإيمان بماله في المال.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له، وتقبل عليه، وتصغي إلى كلامه.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يمشي قاصداً إياك.

(٩) ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٠) ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل وتعرض عنه.

(١١) ﴿كَلَّآ﴾ ما الامر كما تفعل يا محمد من أن تعبس في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى لمن استغنى ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه العظة وهذه السورة عظة وعبرة .

(١٢) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عمل به.

(١٣) ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمتها ورفع قدرها فقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ اللوح المحفوظ.

سورة عبس

(١) أخرج الترمذي والطبري وأبو يعلى وابن حبان بإسناد صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتي رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني. وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما نقول باسًا؟» فيقول: لا. ففي هذا أنزل.

وأخرج عبد الرزاق في «تفسيره» وأبو يعلى في «المسند» بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ قال: فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه.

(١٤) ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر والرتبة ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها.

(١٥) بل هي ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة الذين هم السفراء بين اللَّه وبين عباده.

(١٦) ﴿كِرَامٍۭ﴾ كثيري الخير والبركة ﴿بَرَرَةٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم، وذلك كله من حفظ اللَّه لكتابه، مما يوجب الإيمان بهوتلقيه بالقبول ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورًا؛ ولهذا قال تعالى:

(١٧) ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ لنعمة اللَّه، وما أشد معاندته للحق.

(١٨) ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وهو من أضعف الأشياء.

(١٩) ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ خلقه اللَّه من ماء مهين ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ ثم قدر خلقه وسواه بشرًا سويًا.

(٢٠) ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾؛ أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وامتحنه بالأمر والنهي.

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ بعد خلقه له﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض.

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾: بعثه بعد موته للجزاء.

(٢٣) ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ وهو -مع هذا- لا يقوم بما أمره اللَّه، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

(٢٤) ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أرشده اللَّه تعالى إلى النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه، ويسره له.

(٢٥) ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾؛ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة.

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات.

(٢٧) ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أصنافا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة، والأقوات الشهية ﴿حَبًّا﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها.

(٢٨) ﴿وَعِنَبًا﴾ العنب معروف﴿وَقَضْبًا﴾: وهو القت، وقيل: الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة.

(٢٩) ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو معروف وهو أدم، وعصيره أدم ويستصبح به، ويدهن به ﴿وَنَخْلًا﴾ يؤكل بلحاً وبسرًا ورطبًا وتمرًا ونيئًا ومطبوخًا، ويعتصر منه رُبٌّ وخل، وخص هذه الأربعة؛ لكثرة فوائدها ومنافعها.

(٣٠) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾؛ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة.

(٣١) ﴿وَفَـٰكِهَةً﴾ ما يتفكه فيه الإنسان؛ من تين، وعنب، وخوخ، ورمان، وغير ذلك ﴿وَأَبًّا﴾ ما تأكله البهائم والأنعام.

(٣٢) ولهذا قال: ﴿مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ عيشة لكم ومنفعة يعني الفاكهة التي خلقها اللَّه وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم؛ أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ أي: إذا جاءت صيحة القيامة؛ التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ؛ مما يرى الناس من الأهوال وشدة

---

(١٦) أخرج الشيخان من حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو شاق عليه له أجران».



الجزء الثلاثون — سورة التكوير

سورة التكوير — مكية — آياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

سورة الانفطار — مكية — آياتها ١٩

٥٨٦

الحاجة لسالف الأعمال.

(٣٤) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ شقيقه.

(٣٥) ﴿وَأُمِّهِۦ﴾ التي ولدته ﴿وَأَبِيهِ﴾ الذي رباه.

(٣٦) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ أولاده.

(٣٧) وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها؛ فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء.

(٣٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: فوجوه السعداء يومئذ مسفرة قد ظهر فيها السرور والبهجة؛ مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ بالسرور ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ فرحة بما نالت من كرامة الله عز وجل.

(٤٠) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ سواد وكآبة الهم والحزن.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا﴾ تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

(٤٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الذين بهذا الوصف ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾؛ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله، وتجرءوا على محارمه.

سورة التكوير
وهي مكية

(١) ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ تكور الشمس؛ أي: تجمع وتلف، ويخسف القمر، ويلقيان في النار.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ تغيرت وتناثرت من أفلاكها.

---

(٣٧) أخرج الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غرلًا». فقالت امرأة: أيبصر بعضنا أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه».

سورة التكوير

(١) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة؛ كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾.

أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة».

وأخرج أبو يعلى والطيالسي والطحاوي في «المشكل» بإسناد صحيح لغيره عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشمس والقمر ثوران عقيران في النار».

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أزيلت وسيِّرت عن أماكنها.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ النوق الحوامل﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت مهملة بلا راع، والمراد عطَّل الناس حينئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها، ويراعونها في جميع الأوقات.

(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ دواب البر﴿حُشِرَتْ﴾ جمعت ليوم القيامة؛ ليقتص اللَّه من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني تراباً.

(٦) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أوقدت؛ فصارت على عظمها ناراً تتوقد.

(٧) ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار .

(٨) ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب؛ إلا خشية الفقر، فتسأل.

(٩) ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ففي هذا توبيخ وتقريع لقاتليها.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر ﴿نُشِرَتْ﴾؛ أي: فرقت على أهلها؛ فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أزيلت.

(١٢) ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك.

(١٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قربت للمتقين.

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ كل نفس؛ لإتيانها في سياق الشرط ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها.

---

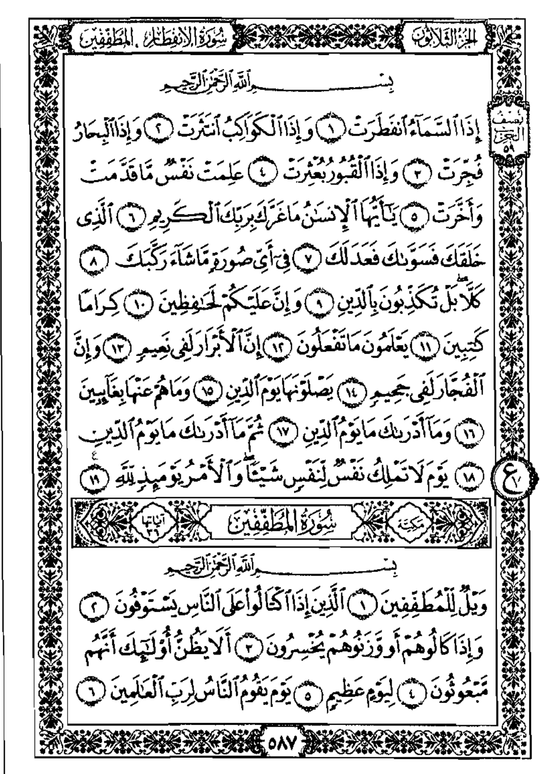
(٨) أخرج أحمد والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله! إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل وتفعل، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئًا؟ قال: «لا» قلنا: فإنها كانت وأدت أختا لنا في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والموؤدة في النار؛ إلا أن يدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها».

قال أبو أسامة الهلالي - عفا الله عنه-: لقد أشكل عليَّ هذا الحرف في هذا الحديث الصحيح؛ وهو: كيف تكون المؤودة في النار؟ والله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ فسألت شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عن ذلك؟ فقال: في الحديث حذف، تقديره: «الوائدة والموؤدة (له)»؛ فاظفر بذلك؛ فإنه من ضنائن العلم. والله أعلم.

وأخرج مسلم عن عائشة عن جذامة بنت وهب - أخت عكاشة - قالت حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس؛ فإذا هم يغيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئًا» ثم سألوه عن العزل فقال: «ذلك الوأد الخفي، وهو إذا الموءودة سئلت».

(٩) أخرج أبو داودد وأحمد بإسناد صحيح لغيره عن حسناء ابنة معاوية الصريمية عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة ، والموءودة في الجنة».

وأخرج عبد الرزاق في «التفسير» والبزار والطبراني في الكبير» والبيهقي في «السنن الكبرى» بإسناد جيد عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله : إني وأدت بنات لي في الجاهلية. قال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة» قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة».


الجزء الثلاثون — سورة الانفطار . المطففين

نصف الحزب ٥٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ — مكية — آياتها ٣٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

٥٨٧

(١٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أقسم تعالى ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق.

(١٦) ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ في فلكها ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ تأوي إلى مجاريها في حال غيبوبتها.

(١٧) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أدبر. وقيل: أقبل.

(١٨) ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ بدت علائم الصبح، وانشق النور شيئًا فشيئًا حتى يستكمل وتطلع الشمس.

(١٩) ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام نزل به من اللَّه تعالى، ووصفه اللَّه بالكريم؛ لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه.

(٢٠) ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ على ما أمره اللَّه به، ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ جبريل مقرب عند اللَّه، له منزلة رفيعة، وخصيصة من اللَّه اختصه بها ﴿مَكِينٍ﴾ له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

(٢١) ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ جبريل مطاع في الملأ الأعلى، لديه من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه ﴿أَمِينٍ﴾: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حد له.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وما هو على ما أوحاه اللَّه إليه بمتَّهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ في غاية البعد عن اللَّه وعن قربه.

(٢٦) ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ كيف يخطر هذا ببالكم؟

(٢٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه

(١٥) أخرج مسلم عن عمرو بن حريث رضي الله عنه؛ قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح؛ فسمعته يقرأ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

(١٧) أخرج ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: خرج علينا علي رضي الله عنه حيث ثوّب المثوّب لصلاة الصبح فقال: أين السائلون عن الوتر: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ هذا حين أدبر وأمسى.

من النقائص الرذائل والأمثال.

(٢٨) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فمشيئته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمانع.

سورة الانفطار
وهي مكية

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾؛ أي: انشقت.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾؛ أي: تناثرت نجومها، وزال جمالها.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ فصارت بحراً واحداً.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ بأن أخرجت ما فيها من الأموات.

(٥) ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

(٧) أليس هو ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ جعل أعضاءك سليمة، في أحسن تقويم؟ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قويماً معتدلاً في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات.

(٨) ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ إن شاء ركبك في صورة الكلب، أو حمار، أو خنزير.

(٩) ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ مع هذا الوعظ والتذكير، لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

(١٠) ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم.

(١١) ﴿كِرَامٗا﴾ على الله ﴿كَٰتِبِينَ﴾ يكتبون أقوالكم وأفعالكم، فدخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح.

(١٢) ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ من خير أو شر.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ المراد بالأبرار: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿لَفِي نَعِيمٖ﴾ فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا، وفي دار البرزخ، و في دار القرار.

سورة الإنفطار

(١) أخرج النسائي بإسناد صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة، فَطَوَّل؛ فقال النبي ﷺ: «أفتان يا معاذ؟ أفتان يا معاذ؟ أين كنت عن: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾.
وأصله في «الصحيحين» من حديث جابر في قصة طويلة.

(٦) أخرج الطبراني في «الكبير» وأحمد في «الزهد» وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» وأبو نعيم في « الحلية» بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا – وهو في حكم المرفوعِ-: «يقول الله يوم القيامة: ابن آدم ما غرك بي ، ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟».

(٧) أخرج ابن ماجه وأحمد بإسناد حسن عن بسر بن جحاش رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه، ووضع عليها إصبعه ثم قال: «يقول الله تعالى: يا بن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت نفسك – وأشار إلى حلقه – قلت: أتصدق، وأنّى أوان التصدق».

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

(١٤) ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الذين فجرت قلوبهم، ففجرت أعمالهم ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ عذاب أليم في دار الدنيا، و دار البرزخ، وفي دار القرار.

(١٥) ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويعذبون بها أشد العذاب ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء على الأعمال.

(١٦) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها.

(١٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيم وتهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

(١٨) ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أعاد ذلك تعجباً لشأنه، ثم فسره بقوله:

(١٩) ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ ولو كانت لها قريبة أو حبيبة مصافية، فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

(٢٠) ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾؛ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه.

سورة المطففين
وهي مدنية

(١) ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب ووعيد ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

(٢) فسر اللّه المطففين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾أي: أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يستوفونه كاملاً من غير نقص.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾؛ أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي للناس عليهم بكيل أو وزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصونهم ذلك.

(٤)، (٥) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: فالذي جرأهم على التطفيف، عدم إيمانهم باليوم الآخر.

(٦) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ من قبورهم ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي اللّه يحاسبهم على القليل والكثير لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

سورة المطففين

(١) أخرج النسائي في «التفسير» وابن ماجه والطبري والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة؛ فكانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

(٦) أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه».

(٧) ﴿كَلَّآ﴾؛ أي: ليس الأمر كما يظن هؤلاء الكفار أنهم غير مبعوثين ولا معذبين. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ إن كتابهم الذي كتب فيه أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾وهي الأرض السابعة السفلى، وهو فعيل من «السجن».

(٨) ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؛ أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

(٩) ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة.

(١٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين.

(١١) ثم بين المكذبين بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، يوم يدين اللّه الناس فيه بأعمالهم.

(١٢) ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ على محارم اللّه، متعد من الحلال إلى الحرام ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الإثم.

(١٣) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على الحق، وعلى صدق ما جاءت به رسله كذبها وعاندها، و ﴿قَالَ﴾: هذه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند اللّه؛ تكبراً وعناداً. وأما من أنصف وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين؛ لأن اللّه قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين. الساطعة ما يجعله حق اليقين.

(١٤) ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه فإنه محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على ذلك بأن حُجب عن الله.

(١٥) ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فإنه محجوب عن الحق؛ ولهذا جوزي على ذلك بأن حُجب عن اللّه، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات اللّه.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: في هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ لداخلون النار.

(١٧) ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾؛ أي: يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: هذا العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا؛ فواصلتم كفركم وإجرامكم.

(١٨) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ أعلى الأماكن وأوسعها وأفسحها.

(١٩) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ أي: معظماً أمره مفخماً شأنه.

(٢٠) ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ بيّن الكتابة.

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، وينوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى.

(٢٢) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ ذكر أنهم في نعيم، وهو: اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.

(٢٣) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: على السرر المزينة بالفرش الحسان.

---

(١٤) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾».


الجزء الثلاثون — سورة المطففين، الانشقاق

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ ٱلِانشِقَاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

٥٨٩

﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعد اللَّه لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: بهاء النعيم ونضارته ورونقه.

(٢٥) ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾: وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها ﴿مَّخْتُومٍ﴾ .

(٢٦) ذلك الشراب ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ يحتمل أن المراد: مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك ﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا اللَّه ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ يتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾؛ أي: مزاج هذا الرحيق من شراب يقال له: تسنيم وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه.

(٢٨) ولذلك قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشربها المقربون صرفًا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم.

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يتعامزون بهم عند مرورهم عليهم احتقارًا لهم.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ صباحًا أو مساء ﴿ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ مسرورين مغتبطين.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ وإذا رأى المجرمون المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ إن هؤلاء لضالون عن محجة الحق وسبيل المقصد.

(٣٣) ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال.

(٣٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة.

(٣٥) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: وهي السرر المزينة ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعد اللَّه لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

(٣٦) ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: هل جُوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورمَوْهم بالضلال؛ ضحك المؤمنون منهم في الآخرة حين رأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من اللَّه

وحكمة، واللَّه عليم حكيم.

سورة الانشقاق
وهي مكية

(١) يقول تعالى مبينًا لما يكون يوم القيامة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ انفطرت، وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

(٢) ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه ﴿وَحُقَّتۡ﴾ وحق لها ذلك.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، مدها اللَّه تعالى مدّ الأديم، حتى صارت واسعة جدًّا.

(٤) ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ منهم، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها.

(٥) ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأجابت ﴿وَحُقَّتۡ﴾ وحق لها أن تسمع وتجيب وتطيع.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾؛ أي: ساع إليه في عملك والكدح: عمل الإنسان وجهده في الأمر من الخير والشر حتى يكدح فيه، أي يؤثر ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾أي: ملاقي جزاء عملك خيرًا كان أو شرًّا.

(٧) ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم أهل السعادة.

(٨) ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ وهو العرض اليسير على اللَّه.

(٩) ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ في الجنة ﴿مَسۡرُورٗا﴾ لأنه نجا من العذاب، وفاز بالثواب.

(١٠) ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ بشماله من خلفه.

(١١) ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها.

(١٢) ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾؛ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ﴾ وذلك لأنه في الدنيا ﴿كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ لا يخطر البعث على باله، وقد أساء.

(١٤) ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ لم يظن أنه راجع إلى ربه، وموقوف بين يديه.

(١٥) ﴿بَلَىٰٓ﴾يعني: بلى، سيعيده الله كما بدأه. ويجازيه على أعماله خيرها وشرها﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ أي: عليمًا خبيرًا..

(١٦) ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ أقسم في هذا الموضع

سورة الإنشقاق

(١) أخرج الشيخان عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾. فسجد، فقلت له؟ قال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ؛ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه.

(٦) أخرج الطيالسي والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن بشواهده عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت؛ فإنك ميت، وأحبب من شئت؛ فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».

(٨) أخرج الشيخان عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ «من نوقش الحساب عذب» قالت: فقلت: أليس قال الله: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب».



الجزء الثلاثون — سورة البروج

سورة البروج — مكية — آياتها ٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

سورة الطارق — مكية — آياتها ١٧

٥٩٠

بآيات الليل؛ فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل.

(١٧) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾؛ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها.

(١٨) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ امتلأ نورًا بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع.

(١٩) والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها الناس ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أطوارا متعددة وأحوالا متباينة.

(٢٠) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ومع هذا فكثير من الناس لا يؤمنون.

(٢١) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون للقرآن، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه

(٢٢) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ يعاندون الحق بعدما تبين.

(٢٣) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يعملونه وينوونه سرًّا، فاللَّه يعلم سرهم وجهرهم، ولهذا قال:

(٢٤) ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشرة سرورًا أو غمًّا.

(٢٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومن الناس فريق هداهم اللَّه، فآمنوا باللَّه، وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فآمنوا وعملوا الصالحات؛ فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

سورة البروج
وهي مكية

(١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها.

(٢) ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف اللَّه الميعاد.

(٣) ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ الأكثرون على أن الشاهد

---

(١٩) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾: «حالًا بَعْدَ حالٍ»؛ قال هذا نبيكم.

سورة البروج

(٣) أخرج الترمذي بإسناد حسن لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة، ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة».

يوم الجمعة، والمشهود هو يوم عرفة.

(٤) ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك، ولعن لهم ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ الحفر التي تحفر في الأرض.

(٥) ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أججوا في الأخدود ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به.

(٦) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، أي: عند النار جلوس لتعذيب المؤمنين.

(٧) ﴿وَهُمْ﴾ يعني الملك وجنوده الذين خدوا الأخدود ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عرضهم

---

(٤) أخرج مسلم عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ؛ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت؛ فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه، فكان إذا أتي الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر؛ فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك؛ فقل: حبسني الراهب، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس؛ فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟، فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر؛ فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى؛ فإن ابتليت؛ فلا تدل عليّ، وكان الغلام يبرء الأكمه والأبرص ويداوي الناس سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي؛ فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك إن أنت شفيتني. قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله؛ فإن آمنت بالله دعوت الله؛ فشفاك. فآمن بالله؛ فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ سن سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل قال: فقال: إني لا أشفي أحداً وإنما يشفي الله، فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق راسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فيه له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقيل: له أرجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته؛ فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل؛ فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفينهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة؛ فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارم، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على الجذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فخدت، وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه؛ فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها؛ فتقاعست، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري؛ فإنك على الحق».

على النار وإرادتهم أن يرجعوا إلى دين الملك ﴿شُهُودٌ﴾ حضور.

(٨) ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ والحال: أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة يمدحون عليها، وبها سعادتهم؛ وهي: أنهم كانوا يؤمنون بالله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ في أقواله وأوصافه وأفعاله.

(٩) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا، أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله: أن يبطش بهم العزيز المقتدر.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ عذبوا وأحرقوا ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ من كفرهم وإجرامهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انظروا إلى هذا الكرم والجود! هم قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته.

(١٢) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته؛ فلا مشارك له في ذلك.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم، وأحبهم.

(١٥) ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ صاحب العرش العظيم، وخص الله العرش بالذكر؛ لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، فإن المجيد نعت لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

(١٦) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ مهما أراد شيئًا فعله، إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وليس أحد فعالاً لما يريد إلا الله.

(١٧) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ هل أتاك خبر الجموع الكثيرة وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين.

(١٨) ﴿فِرْعَوْنَ﴾ مصر الذي أرسل إليه موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فكذب وجحد؛ فأغرقه الله وجنوده في اليم ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(١٩) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك يا محمد ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ قد أحاط بهم علمًا وقدرة، ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره.

(٢١) ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

(٢٢) ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح

المحفوظ الذي قد أثبت اللّه فيه كل شيء.

سورة الطارق
وهي مكية

(١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ النجم الذي يظهر بالليل.

(٢) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ أراد طارقاً معيناً ولذلك فخّم من شأنه بالاستفهام عنه الدال على تهويله.

(٣) ثم فسر الطارق بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ المضيء الذي يثقب نوره فيخرق السماوات فينفذ حتى يرى في الأرض.

(٤) والمقسم عليه قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

(٥) ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق.

(٦) ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ وهو: المني الذي يخرج دفقاً من الرجل ومعه المرأة، فيتولد بينهما الولد بإذن الله.

(٧) ولهذا قال: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ صلب الرجل و﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ترائب المرأة..

(٨) ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ الذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور والجزاء.

(٩) ولهذا قال: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه.

(١٠) ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ﴾ يدفع بها عن نفسه

الجزء الثلاثون — سورة الطارق، الأعلى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧

ع ١١

سُورَةُ الأَعۡلَىٰ — مكية — آياتها ١٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحزب ٦٠

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥

٥٩١

﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ خارجي ينتصر به.

(١١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ ترجع السماء بالمطر كل عام.

(١٢) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ وتنصدع الأرض للنبات.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ﴾ القرآن ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ حق وصدق بين واضح.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ جدّ ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

(١٥) ﴿إِنَّهُمۡ﴾؛ أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ لإظهار الحق، وكيدُ الله استدراجه لهم من حيث لا يعلمون.

(١٧) ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ قليلاً؛ فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

سورة الأعلى
وهي مكية

(١) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ خلق المخلوقات ﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أي: أتقنها وأحسن خلقها.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَىٰ﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

(٤) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أنزل من السماء ماء؛ فأنبت به أنواع النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أسود؛ أي: جعله هشيمًا رميمًا.

(٦) ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعيه قلبك، فلا تنسى منه شيئًا.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده؛ أي: فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسراً.

(٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة.

(١٠) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ سينتفع بالذكر من يتقي الله تعالى.

سورة الأعلى

(١) أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سور مثلها.

وأخرج مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما».

وفي المسند بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين».

وأخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى».

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾؛ أي: يبتعد عن الذكرى ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الشقي في علم الله.

(١٢) ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهي نار الله الموقدة العظيمة الفظيعة؛ لأنها أعظم وأشد حرًّا من نار الدنيا.

(١٣) ﴿ثُمَّ﴾ يعذب فيها عذاباً أليماً ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة تنفعه.

(١٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ قد فاز وربح ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ اتصف بذكر اللّه، وانصبغ به قلبه ﴿فَصَلَّىٰ﴾ فأوجب له ذلك العمل بما يرضي اللّه خصوصًا الصلاة.

(١٦) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة.

(١٧) ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب.

(١٨) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الكتب الأولى التي نزلت قبل القرآن، ثم بينها فقال:

(١٩) ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللذين هما أشرف المرسلين سوى النبي محمد ﷺ.

الجزء الثلاثون — سورة الأعلى، الغاشية

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الغَاشِيَةِ — مكية — آياتها ٢٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

٥٩٢

سورة الغاشية
وهي مكية

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ يعني: قد أتاك حديث القيامة تغشى كل شيء بالأهوال.

---

(١١) أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها؛ فإنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون».

(١٦) أخرج أحمد والحاكم وابن حبان بإسناد صحيح لغيره عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، آثروا ما يبقى على ما يفنى».

(١٨) أخرج البزار بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ قال النبي ﷺ: «كان كل هذا - أو كان هذا - في صحف إبراهيم وموسى».

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة.

(٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تاعبة في العذاب، تجر على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ في الدنيا لكونهم أهل عبادات وعمل، ولكنه لم اعدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءًا منثورًا

(٤) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ شديدًا حرها، تحيط بهم من كل مكان.

(٥) ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾؛ أي: حارة شديدة الحرارة، فهذا شرابهم.

(٦) وأما طعامهم فـ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ قال مجاهد وعكرمة وقتادة: هو نبت ذو شوك تسميه العرب الشَّبرق هو أخبث طعام وأبشعه .

(٧) ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ وأما أهل الخير؛ فوجوههم يوم القيامة ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور.

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله ﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه.

(١٠) وذلك أنها ﴿فِي جَنَّةٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها ﴿عَالِيَةٍ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

(١١) ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿لَاغِيَةً﴾ كلمة لغو وباطل.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا، وأنى أرادوا.

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾؛ أي: أوان ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله.

(١٦) ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ وهي البسط الحسان، مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

سورة الغاشية

(٣) أخرج البخاري تعليقا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: النصارى. قلت: وصله ابن أبي حاتم.

(١٢) أخرج ابن أبي حاتم وابن حبان بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك».

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها اللَّه للعباد، وذلَّلها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

(١٨) ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ عن الأرض حتى لا ينالها شيء بغير عمد.

(١٩) ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض وثباتها عن الاضطراب.

(٢٠) ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ مدت مدًّا واسعًا، وسهلت غاية التسهيل؛ ليستقر الخلائق على ظهرها.

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ذكِّر الناس وعِظهم، وأنذرهم وبشرهم.

(٢٢) ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى اللَّه وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلًا بأعمالهم.

(٢٣) ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ لكن من تولى عن الطاعة وكفر باللَّه.

(٢٤) ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الشديد الدائم.

(٢٥) ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ رجوع الخليقة وجمعهم



(١٧-٢٠) أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء؛ فكان يعجبنا: أن يجيئ الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد! أنه أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: «صدق»، قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله» قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال: آلله أرسلك؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أنه علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك: أن علينا حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا قال: «صدق»، ثم ولَّى؛ فقال : والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن شيئًا، ولا أنقص منهن شيئًا، قال النبي ﷺ : «إن صدق؛ ليدخلن الجنة».

(٢١) أخرج مسلم وأحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله؛ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل ، ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

في يوم القيامة.

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

سورة الفجر
وهي مكية

(١) ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل؛ ومقدمة النهار؛ لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة اللّه -تعالى

(٢) ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهي الصحيح ليالي عشر رمضان، أوعشر ذي الحجة؛ فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

(٣) ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ لم يعين نوعاً من الشفع ولا من الوتر بخبر ولا عقل؛ فكل شفع ووتر داخل فيما أقسم الله به؛ لعموم قسمه بذلك.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد.

(٥) ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ لذي عقل؟.

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ كيف فعل بهذه الأمم الطاغية مثل عاد الأولى، وهي:

(٧) ﴿إِرَمَ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾؛ أي: القوة الشديدة والعتو والتجبر.

(٨) ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ مثل عاد ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ في جميع البلدان في القوة والشدة.

(٩) ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور؛ فاتخذوها مساكن.

(١٠) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ذي الجنود الذين ثبتوا ملكه؛ كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، وقيل: لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد.

(١١) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد اللّه، وآذوا عباد اللّه، في دينهم ودنياهم.

(١٢) ولهذا قال: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه.

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أرسل اللّه عليهم عذاباً من السماء لا يرد عن القوم المجرمين.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ لمن عصاه يمهله قليلًا، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان

سورة الفجر

(٢) أخرج البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني: عشر ذي الحجة – قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يظن أن إكرام اللّه في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه.

(١٦) ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾؛ أي: وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له.

(١٧) ﴿كَلَّاۖ﴾ ليس كل من نعمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من اللّه ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

(١٨) ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ لا يحض بعضكم بعضًا على إطعام المحاويج من المساكين والفقراء.

(١٩) ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ المال المخلف ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ ذريعًا، لا تبقون على شيء منه.

(٢٠) ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ كثيرًا شديدًا.

(٢١) ﴿كَلَّآۖ﴾ بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ تدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تجعل قاعًا صفصفًا لا عوج فيه ولا أمت.

(٢٢) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ويجيء اللّه تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾



وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ صفًا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفًا، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار.

(٢٣) ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل، فإذا وقعت هذه الأمور ف ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها

---

(١٧) أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام.

(٢٣) أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

(٢٤) ﴿يَقُولُ﴾ متحسرًا على ما فرط في جنب الله: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ الدائمة الباقية، عملًا صالحًا.

(٢٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ لمن أهمل ذلك اليوم، ونسي العمل له.

(٢٦) ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين.

(٢٧) وأما من اطمأن إلى الله وآمن به وصدّق رسله فيقال له: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة إلى حبه، التي قرت عينها بالله.

(٢٨) ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾؛ أي: راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

(٢٩)،(٣٠) ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا تخاطب به الروح حال الموت، وفي يوم القيامة.

سورة لا أقسم (البلد)
وهي مكية

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ يقسم تعالى ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ الأمين، الذي هو مكة المكرمة.

(٢) ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ﴾ حلال ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم.

---

(٢٤) أخرج أحمد والبخاري في « التاريخ الكبير» وأبو نعيم في « الحلية» وابن عبد البر في «الاستيعاب» بإسناد صحيح عن محمد ابن أبي عميرة – وكان من أصحاب رسول الله ﷺ – قال: «لو أن عبدًا خرَّ على وجهه من يوم ولد وإلى أن يموت هرمًا في طاعة الله؛ لحقره يوم القيامة، ولودَّ أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد في الأجر والثواب».

قال أبو أسامة الهلالي – عفا الله عنه، وبالخير ختم له–: هو موقوف، وقد روي مرفوعًا عند أحمد بإسناد حسن من حديث عتبة بن عبد عن رسول الله ﷺ.

(٢٧) أخرج ابن أبي حاتم والضياء المقدسي في «المختارة» بإسناد حسن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا، فقال: «أما إنه سيقال لك هذا».

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني بإسناد حسن عن سعيد بن جبير؛ قال: مات ابن عباس بالطائف؛ فجاء طير لم ير على خلقه، فدخل نعشه، ثم لم يرَ خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، ما يدري من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾.

سورة البلد

(٢) أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «إن هذه البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

وفي لفظ: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله؛ فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم».

(٣) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ آدم وذريته.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

(٥) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يظن أن لن يقدر عليه الله تعالى.

(٦) ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه. فـ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ كثيرًا، بعضه فوق بعض.

(٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أيحسب في فعله هذا، أن اللّه لا يراه، ويحاسبه على الصغير والكبير؟

(٨) ثم قرره بنعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما.

(٩) ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به، فيعبر عما في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالاً لوجهه وفمه.

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشر، بيّنا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

(١١) ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ لم يقتحمها ويعبر عليها؛ لأنه متبع لشهواته.

(١٢) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ هذا تفخيم لشأنها وتعظيم له.

(١٣) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكّها من الرِّقّ بعتقها، أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

(١٤) ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ مجاعة شديدة.

(١٥) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ جامعًا بين كونه يتيمًا فقيرًا ذا قرابة.

(١٦) ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم: من كل قول وفعل واجب أو مستحب ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة اللّه وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق.

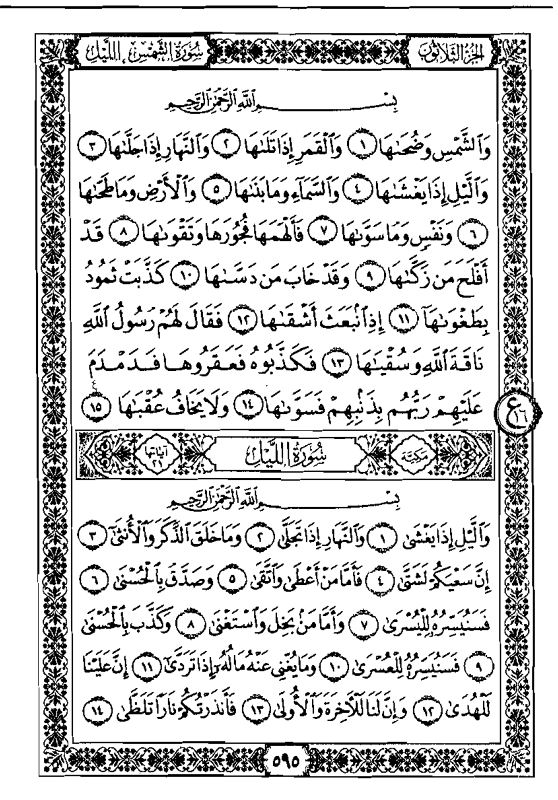
---

(١٣) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله لكل إرب منها إربًا منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج».

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأحمد والطيالسي وابن حبان والحاكم والدارقطني بإسناد صحيح: عن البراء بن عازب ﵁ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملًا يدخلني الجنة. فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة، وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أو ليستا بواحدة؟ قال: «لا، إن عتق النسمة: أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة: أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطق ذلك؛ فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك؛ فكف لسانك إلا في الخير».

(١٥) أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن سلمان بن عامر ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة».

(١٧) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو ﵄، عن رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».


الجزء الثلاثون — سورة الشمس . الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

سورة الليل — مكية — آياتها ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤)

٥٩٥

(١٨) ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ عنوان السعادة وعلامتها.

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، ولا آمنوا به، ولا عملوا صالحًا، ولا رحموا عباد الله، ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أصحاب الشمال، وهم الكفار الفجار.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة عليهم مغلقة، لا يدخل فيها روح، ولا يخرج منها غم.

سورة والشمس وضحاها وهي مكية

(١) ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ نورها، ونفعها الصادر منها

(٢) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تبعها في المنازل والنور.

(٣) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أجلى ما على وجه الأرض وأوضحه.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشى وجه الأرض؛ فيكون ما عليها مظلمًا.

(٥) ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن الإقسام بالسماء وبانيها وهو الله، أو: والسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان وكلاهما متلازم.

(٦) ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ مدها ووسعها.

(٧) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، وتسويتها على هذا الوجه آية من آيات الله العظيمة.

(٨) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بين لها الخير

سورة الشمس

(٧) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟».

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم».

(٨) أخرج مسلم وأحمد والطبراني -واللفظ له- عن أبي الأسود الديلي عن عمران بن حصين: أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت ما يعمل في الناس ويكدحون فيه؛ أشيء قضي عليهم؟ ومضى عليهم من قدر قد سبق؟ أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأتخذت عليهم الحجة؟ قال: بل شيء قضي عليهم. ، ومضى عليهم » قال: فلِمَ يعملون إذاً؟ فقال رسول الله ﷺ: =

والشر.

(٩) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ طهَّر نفسه من الذنوب، ونقَّاها من العيوب، ورقاها بطاعة اللَّه، وعلاَّها بالعلم النافع والعمل الصالح.

(١٠) ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب.

(١١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل اللَّه.

(١٢) ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أشقى القبيلة، وهو: أحيمر ثمود قدار بن سالف؛ لعقره الناقة حين اتفقوا على ذلك، وأمروه؛ فأتمر لهم.

(١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ محذرًا: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾؛ أي: احذروا عقر ناقة اللَّه، التي جعلها لكم آية عظيمة.

(١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي فيما أخبرهم به بشأن الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: الناقة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعيًا ولا مجيباً ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عليهم؛ أي: سوى بينهم بالعقوبة.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تبعتها.

سورة والليل
وهي مكية

(١) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؛ أي: يعم الخلق بظلامه؛ فيسكن كلّ إلى مأواه ومسكنه.

(٢) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

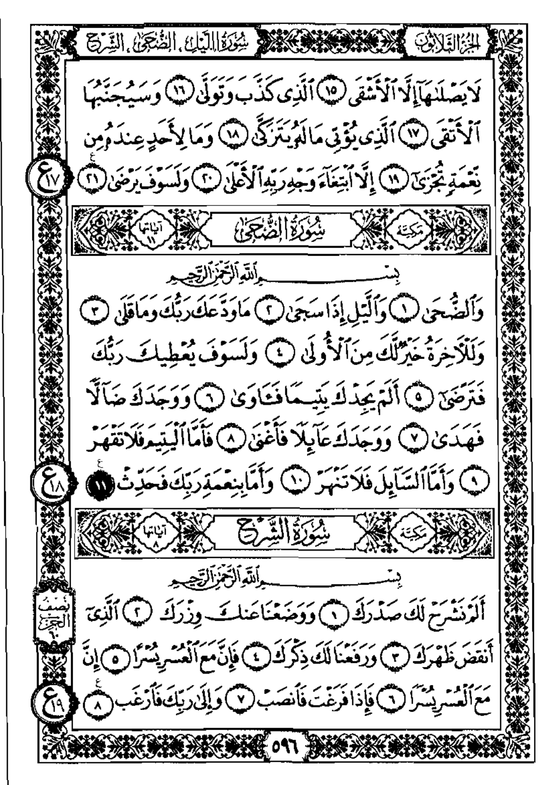
(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ قد يكون إقسامًا بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه خالق الذكور والإناث، أو قسماً بخلقه للذكر والأنثى.

(٤) ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو المقسَم عليه؛ أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتًا كثيرًا،

= «من خلقه الله لواحدة من المنزلتين وفقه لعملها» قال: وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾.

(١٢) أخرج الشيخان عن عبد الله بن زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله ﷺ، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة».

وأخرج الطحاوي في المشكل» والنسائي في «الخصائص» والحاكم - والسياق له - وأحمد بإسناد صحيح لغيره: عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت أنا وعليّ رفيقين في غزوة ذي العشيرة، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأقام بها، رأينا ناسًا من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل، فقال لي علي: يا أبا اليقظان، هل لك أن نأتي هؤلاء ننظر كيف يعملون؟ فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم، فانطلقت أنا وعلي فاضطجعنا في صور من النخل، في دقعاء من التراب فنمنا، فوالله ما أيقظنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله، وقد تتربنا من تلك الدقعاء، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا تراب». لما يرى عليه من التراب، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أحدثكما بأشقى الناس، رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذه - يعني قرن علي- حتى تبتل هذه من الدم - يعني لحيته».



وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال.

(٥) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما أمر به من العبادات المالية، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها.

(٦) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ صدق بـ(لا إله إلا اللَّه) وما دلت عليه.

(٧) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ نسهل عليه أمره، ونجعله ميسراً له كل خير، وميسرًا له ترك كل شر؛ لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر اللَّه له ذلك.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب للَّه، ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عن اللَّه، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه.

(٩) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: بما أوجب اللَّه على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

(١٠) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل اللَّه العافية.

(١١) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنى به، وبخل به، ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ إذا هلك ومات؛ فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح، وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب فإنه يكون وبالاً عليه؛ إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا.

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ إن الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى اللَّه، ويدني من رضاه، وأما الضلال فطرقه مسدودة عن اللَّه، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ملكًا وتصرفًا، ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في

سورة الليل

(٥-١٠) أخرج البخاري عن علي رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار» فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له» قال: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾.

الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

(١٤) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تستعر وتتوقد.

(١٥) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الشقي.

(١٦) ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالخبر والرسول ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر والإيمان.

(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ التقي.

(١٨) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ يعطي ماله ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، قاصدًا به وجه اللَّه تعالى فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب؛ كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء؛ لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأه بها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبدًا للَّه؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

(٢٠) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا يفعل ذلك مجازاة لأحد له بيد عنده، ولكنه يفعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب رضاه.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هذا الأتقى بما يعطيه اللَّه من أنواع الكرامات والمثوبات، والحمد للَّه رب العالمين.

سورة والضحى
وهي مكية

(١) أقسم اللَّه تعالى على اعتنائه برسوله ﷺ فقال: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ادلهمت ظلمته.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: ما أبغضك منذ أحبك، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة اللَّه له واستمرارها، وترقيته في درج الكمال، ودوام اعتناء اللَّه به.

---

(١٤) أخرج أحمد بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار». حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقة عند رجليه.

(١٧ - ٢٢) أخرج البزار والآجري في «الشريعة» والطبري والطبراني في « الكبير» بإسناد حسن: عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢١) في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله، هذا خير». فقال أبو بكر: يا رسول لله، ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم».

سورة الضحى.

(١-٣) أخرج الشيخان عن جندب البجلي رضي الله عنه قال: احتبس جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه. فنزلت: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

(٤) ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾؛ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة أو الدار الآخرة خير لك من هذه الدار.

(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وهذا هو حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الأنعام، وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾؛ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب﴿فَآوَى﴾؛ أي: فآواه اللَّه، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله اللَّه عمه أبا طالب، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿فَهَدَى﴾ فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيرًا ﴿فَأَغْنَى﴾ بما فتح اللَّه عليك من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها.

(٩) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾؛ أي: لا تسيء معاملة اليتيم.

(١٠) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية ﴿فَحَدِّثْ﴾ أثن على اللَّه بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق؛ فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى مَن أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

---

(٤) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبيه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبيه فقلت: يا رسول الله ألَا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة، ثم راح وتركها».

(٥) أخرج الطبري وابن أبي حاتم والطبراني في «الكبير» و« الأوسط» والحاكم والبيهقي في «الدلائل» بإسناد صحيح عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كَفْراً كَفْراً؛ فَسُرَّ بذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. فأعطاه الله في الجنة ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الولدان والخدم.

(٨) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».
وعند مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه».

(١٠) أخرج أحمد وابن سعد والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن عن عمرو بن معاذ الأنصاري قال: إن سائلًا وقف على بابهم، فقالت له جدته حواء: أطعموه تمرًا، قالوا: ليس عندنا، قالت: فاسقوه سويقًا، قالوا: العجب لك، نستطيع أن نطعمه ما ليس عندنا، قالت إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تردوا السائل ولو بظلف محرق».

(١١) أخرج أحمد وابنه في «زوائد المسند» وابن أبي عاصم في «السنة» والقضاعي في «مسند الشهاب» بإسناد حسن عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما؛ قال: قال النبي ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

سورة الشرح
وهي مكية

(١) يقول تعالى ممتنًا على رسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى اللّٰه، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات.

(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؛ أي: ذنبك

(٣) ﴿الَّذِي أَنقَضَ﴾ أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾.

(٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي.

(٥) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة؛ فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر، فأخرجه.

(٦) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وهذا تأكيد للخبر، وتعريف ﴿الْعُسْرِ﴾ في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير

الجزء الثلاثون — سورة التين، العلق

سُورَةُ التِّينِ — مكية — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ الْعَلَقِ — مكية — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

٥٩٧

اليسر يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

(٧) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، ﴿فَانصَبْ﴾ فاجتهد في العبادة والدعاء.

(٨) ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَب﴾ أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك.

سورة الشرح

(١-٤) أخرج ابن أبي حاتم والحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته، قلت: قد كان قبلي أنبياء ومنهم من سخرت له الريح، ومنهم من يحيي الموتى. قال: يا محمد ألم أجدك يتيما فآويتك؟ قلت: بلى يا رب قال: ألم أجدك ضالًّا فهديتك؟ قلت: بلى يا رب قال: ألم أجدك عائلًا فأغنيتك؟ قال: قلت: بلى يا رب. قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب».

(٥-٦) أخرج البزار وابن عدي في «الكامل» والقضاعي في «مسند الشهاب» بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت المعونة من السماء على قدر المؤونة، ونزل الصبر على قدر المصيبة».

سورة والتين والزيتون
وهي مكية

(١) ﴿وَٱلتِّينِ﴾ هو التين المعروف، ﴿و﴾ كذلك ﴿الزَّيتُونِ﴾ أقسم بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ طور سَيناء، محل نبوة موسى ﷺ.

(٣) ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات وأشرفها.

(٤) والمقسَم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا أو باطنًا شيئًا، ومع هذه النعم العظيمة.

(٥) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ فردَّهم الله في أسفل سافلين؛ أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم.

(٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلا من مَنَّ الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية ﴿فَلَهُمْ﴾ بذلك المنازل العالية، و ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، بل لذات متوافرة.

(٧) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال.

(٨) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟

لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون.

سورة العلق
وهي مكية

هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول اللَّه ﷺ.

(١) ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ عموم الخلق.

(٢) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لابد أن يدبره بالأمر والنهي.

(٣) ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود.

سورة التين

(١) في «الصحيحين» عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان النبي ﷺ يقرأ في سفرٍ إحدى الركعتين بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما سمعت أحدًا أحسن صوتا أو قراءة منه.

سورة اقرأ

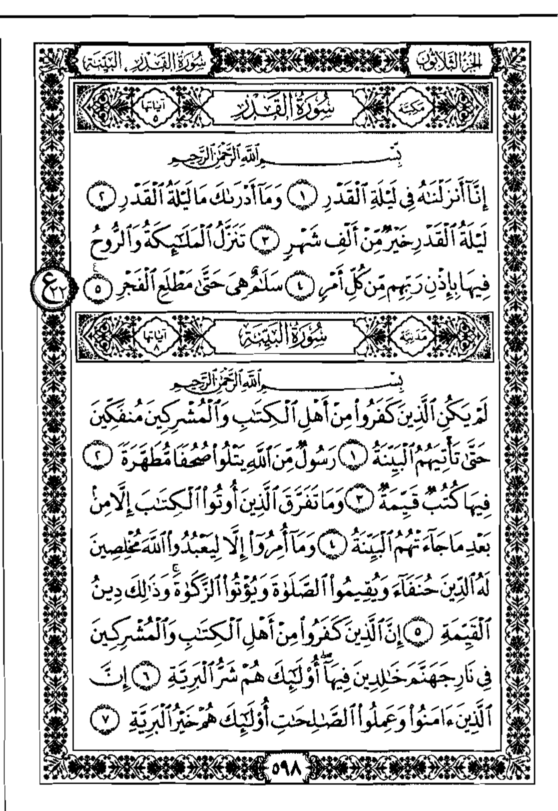
(١-٥) أخرج الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: «اقرأ». قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني ، فقال: إقرأ. قلت: ما أنا =

(٤) ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ الخط والكتابة.
(٥) ﴿ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.
(٦) ﴿كَلَّآ﴾ حقًا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ليتجاوز حده ويستكبر على ربه.
(٧) ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ إذا رأى نفسه غنيًا، طغى وبغى وتجبر عن الهدى.
(٨) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ ونسي أن إلى ربه الرجعى
(٩) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ أيها الناهي.
(١٠) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ للعبد إذا صلى.
(١١) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ العلم بالحق والعمل به.
(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ غيره ﴿بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ بالإخلاص والتوحيد.
(١٣) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ الناهي بالحق، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الأمر.
(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يعمل ويفعل؟.
(١٥) ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما يقول ويفعل ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بناصيته، أخذًا عنيفًا، وهي حقيقة بذلك.
(١٦) فإنها ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ في قولها ﴿خَاطِئَةٍ﴾ في فعلها.
(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ﴾ هذا الذي حق عليه العقاب ﴿نَادِيَهُۥ﴾ أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله؛

= بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ الآيات. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ؓ فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: «ما لي؟». وأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيت على نفسي». فقالت له خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ «أوَ مخرجي هم؟» قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي- وفي رواية: أوذي - وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.

(٦-١٨) أخرج مسلم عن أبي هريرة ؓ قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطئن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولًا، وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» قال: فأنزل الله ﷻ لا ندري في حديث أبي هريرة أم شيء بلغه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يعني: أبا جهل ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ يعني: قومه ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾

(١٧- ١٨) أخرج الترمذي والنسائي في «التفسير» وأحمد وابنه في «الزوائد» والطبري بإسناد صحيح: عن عبد الله بن عباس ؓ =



الجزء الثلاثون — سورة القدر، البينة

سُورَةُ القَدۡرِ — مكية — آياتها ٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥

سُورَةُ البَيِّنَةِ — مدنية — آياتها ٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧

٥٩٨

ليعينوه على ما نزله به.

(١٨) ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ خزنة جهنم؛ لأخذه وعقوبته.

(١٩) ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ﴾ فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ لربك ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ منه في السجود.

سورة القدر
وهي مكية

(١) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: القرآن الكريم ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ابتدأ بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم اللَّه بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا.

(٢) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم.

(٣) ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ تعادل من فضلها ألف شهر.

= قال: كان النبي ﷺ يصلي؛ فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره. فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. فقال ابن عباس: فوالله لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله.

(١٩) أخرج الطبري وعبد الرزاق في «تفسيريهما» بإسناد صحيح عن قتادة ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ ذكر لنا أنها نزلت على أبي جهل، قال: لئن رأيت محمدًا يصلي، لأطأن عنقه، فأنزل الله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ قال نبي الله ﷺ حين بلغه الذي قال أبو جهل، قال: «لو فعل؛ لاختطفته الزبانية»

قال أبو أسامة الهلالي -عفا الله عنه-: وهو مرسل، لكنه صحيح بشواهده.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء».

سورة القدر

(١) أخرج الطبري وابن الضريس في «فضائل القرآن» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ».

(٣) أخرج أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها؛ فقد حرم».

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً؛ غفر له ما تقدم من ذنبه».

(٤) ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام ﴿فِيهَا﴾ يكثر نزولهم فيها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ بكل أمر من الخير والبركة.

(٥) ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر.

سورة البينة
وهي مدنية

(١) ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفرًا ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة، والبرهان الساطع.

(٢) ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أرسله اللَّه، يدعو الناس إلى الحق ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون؛ لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

(٣) ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ في تلك الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أخبار صادقة، وأوامر عادلة: تهدي إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.

(٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزابًا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق.

(٥) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه اللَّه، وطلب الزلفى لديه ﴿حُنَفَآءَ﴾ معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وخص الصلاة والزكاة بالذكر؛ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ الدين المستقيم.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ

---

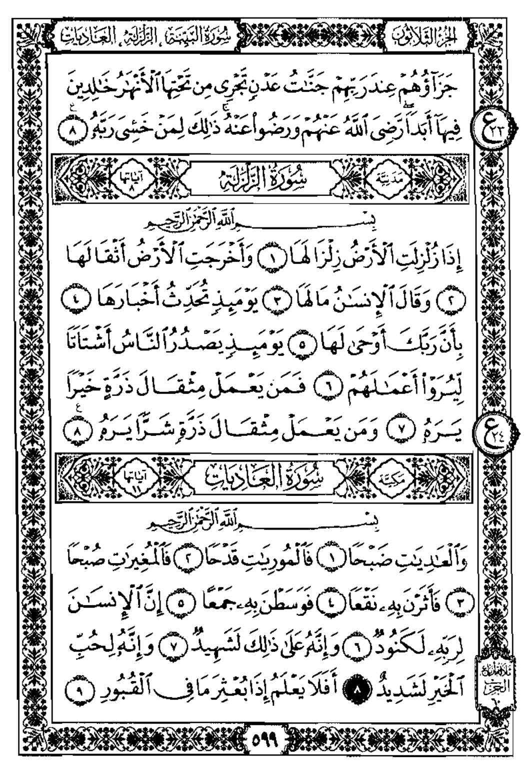
(٤) أخرج أحمد والطيالسي وابن خزيمة بإسناد حسن: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة القدر ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى».

(٥) أخرج الطيالسي وابن خزيمة والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء».

سورة البينة

(١) أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن اقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾». قال: وسماني لك؟ قال: «نعم». فبكى.

(٧) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما كانت هيعة استوى عليه. ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى =



خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا اللَّه وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

(٨) ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ لمن خاف اللَّه، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته.

سورة إذا زلزلت
وهي مدنية

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أن الأرض تتزلزل وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء ومَعْلَم.

(٢) ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما في بطنها، من الأموات والكنوز.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر

= يا رسول الله. قال: «رجل في ثلة من غنمه، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله، ولا يعطى به».

سورة الزلزلة

(١) أخرج الطبري والواحدي في «أسباب النزول» وابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنه قال: أنزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسوله الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون؛ فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون؛ فيغفر لهم».

(٢) أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة؛ فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قتلت. ويجيء القاطع؛ فيقول: في هذا قطعت رحمي. ويجيء السارق؛ فيقول: في هذا قطعت يدي. ثم يَدعونه؛ فلا يأخذون منه شيئاً».

(٣) أخرج الترمذي وأحمد بإسناد حسن لشواهده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها: أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا».

العظيم مستعظمًا لذلك: ﴿مَا لَهَا﴾ أي: أيّ شيء عرض لها؟.

(٤) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر؛

(٥) ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصى لأمره.

(٦) ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي اللَّه بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾ فرقًا متفاوتين ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ليريهم اللَّه ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويريهم جزاءه موفرًا.

(٧) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ثوابها وجزاءها عند الله.

(٨) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ عقوبتها.

وهذا شامل عام للخير والشر كله؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها؛ فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى. وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير، ولو قليلًا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا.

سورة العاديات
وهي مكية

(١) أقسم اللَّه تبارك وتعالى بالخيل؛ فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ العاديات عدوًا بليغًا قويًا﴿ضَبْحًا﴾ يصدر عنه الضبح؛ وهو: صوت نفسها في صدرها، عند اشتداد العدو .

(٢) ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾ تقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون.

(٣) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على الأعداء ﴿صُبْحًا﴾ وهذا أمر أغلبي: أن الغارة تكون صباحًا

(٤) ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ بعدوهن وغارتهن ﴿نَقْعًا﴾ غبارًا

(٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ براكبهن ﴿جَمْعًا﴾ توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.

(٦) والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لمنوع للخير الذي عليه لربه .

(٧) ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ فيه الوعيد والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن اللَّه عليه شهيد.

(٨) ﴿وَإِنَّهُ﴾ الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ كثير الحب للمال.

(٧، ٨) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول لله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله ، فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شرفًا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنيًا وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها؛ فهي له ستر، ورجل ربطها فخرًا ورئاء ونوَاء؛ فهي على ذلك وزر» فسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر؛ فقال: «ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾».



(٩) ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هلا يعلم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أخرج اللَّـه الأموات من قبورهم؛ لحشرهم ونشورهم.

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر؛ فصار السر علانية، والباطن ظاهرًا.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها.

سورة القارعة
وهي مكية

(١) ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة.

(٢)، (٣) ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ زيادة في تهويل أمرها وتعظيمه.

(٤) ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ من شدة الفزع والهول ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ كالجراد المنتشر، تهافتت إليها؛ لضعف إدراكها فهذه حال الناس أهل العقول ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ كالصوف المنفوش.

(٦) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ رجحت حسناته على سيئاته.

(٧) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ في جنات النعيم.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته.

(٩) ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ فأم دماغه هاوية في النار، يلقى في النار على رأسه.

(١٠) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ وهذا تعظيم لأمرها.

(١١) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ شديدة الحرارة.

سورة القارعة

(١) أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها؛ فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضًا. فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف؛ فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها».

سورة التكاثر
وهي مكية

(١) ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون؛ من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعد ما تعذر عليكم استئنافه. ودل قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية، ومنها استدل العلماء على عذاب القبر ونعيمه.

(٣) ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر بالتكاثر ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم.

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ كرره تأكيداً، والمعنى: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت.

(٥) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علمًا يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

(٦) ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ لتردن القيامة، فلترون الجحيم التي أعدها اللّه للكافرين.

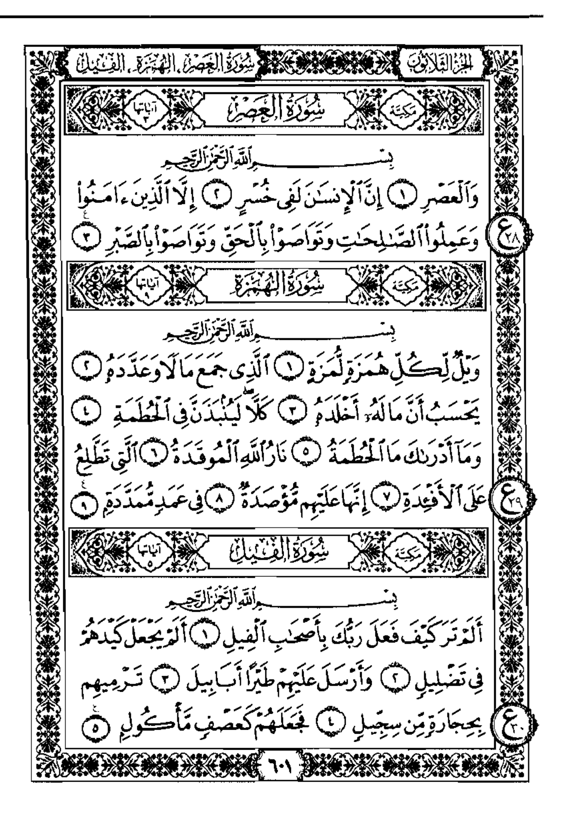
(٧) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ رؤية بصرية.

(٨) ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا.

سورة ألهاكم التكاثر

(١) في «صحيح البخاري» عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنا نرى هذا في القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله «قوله: «هذا» لم يبين ما أشار إليه بقوله: «هذا»، وقد بينه الإسماعيلي من طريق موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة، ولفظه: «كنا نرى هذا في القرآن (لو أن لابن آدم واديين لتمنى وادياً ثالثاً).
وأخرج مسلم وأحمد -واللفظ له- عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم: ما لي ما لي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؛ أو لبست فأبليت؛ أو تصدقت؛ فأمضيت»

(٨) أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي عسيب -يعني مولى رسول الله ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ فمر بي ، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى آتى حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا». فجاء بعذق فوضعه ، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، وقال: «لتسئلن عن هذا يوم القيامة». قال : فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض، حتى تناثر البسر قبل رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال : «نعم، إلا من ثلاثة: خرقة لف بها الرجل عورته، أو كسرة سد بها جوعته، أو جحر تدخل فيه من الحر والقر».
وأخرج أحمد بإسناد صحيح لغيره عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، أي نعيم نسأل؟ وإنما هما الأسودان: الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر؛ فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون».
وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا» فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار. فإذا هو ليس في بيته. فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» =



سورة العصر
وهي مكية

(١) ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو: الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾؛ أي: كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح، والخسار مراتب متعددة متفاوتة: فقد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وقد يكون خسارًا من بعض الوجوه دون بعض، إلا من اتصف بأربع صفات: ولهذا عمم اللَّه الخسار لكل إنسان.

(٣) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الإيمان بما أمر اللَّه بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق اللَّه وحق عباده،

= قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية. فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم؛ فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ: لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

وأخرج الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم: أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونروك من الماء البارد؟!».

وأخرج البخاري في « الأدب المفرد» وأحمد وابن ماجه بإسناد صحيح: عن يسار بن عبد الله الجهني قال: كنا في مجلس؛ فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله،نراك طيب النفس. قال: «أجل»، قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، و الصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم».

سورة العصر

(١) أخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» بإسناد صحيح: عن أبي مدينة رضي الله عنه قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر.

الواجبة والمستحبة، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح؛ أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ والتواصي بالصبر على طاعة اللَّه، وعن معصية اللَّه، وعلى أقدار اللَّه المؤلمة.

فبالأمرين الأوليين يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم؛ ولذلك قال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

سورة الهمزة
وهي مكية

(١) ﴿وَيْلٌ﴾ وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ الهماز: الذي يعيب الناس، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل ﴿لُّمَزَةٍ﴾ اللمز: الذي يعيبهم بقوله.

(٢) ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي: أنه لا هَمَّ له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام، ونحو ذلك.

(٣) ﴿يَحْسَبُ﴾ بجهله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا.

(٤) ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ﴾ ليطرحن ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ اسم من أسماء النار؛ لأنها تحطم من فيها.

(٥) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعظيم لها، وتهويل لشأنها.

(٦) ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة.

(٧) ﴿الَّتِي﴾ من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

(٨) ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ مغلقة .

(٩) ﴿فِي عَمَدٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ لئلا يخرجوا منها.

سورة الفيل
وهي مكية

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: أما رأيت من قدرة اللَّه وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ما فعله اللَّه ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ وهم الأحباش النصارى بقيادة أبرهة الأشرم الذين أرادوا هدم البيت الحرام وإخرابه، واستصحبوا من الفيلة لهدمه.

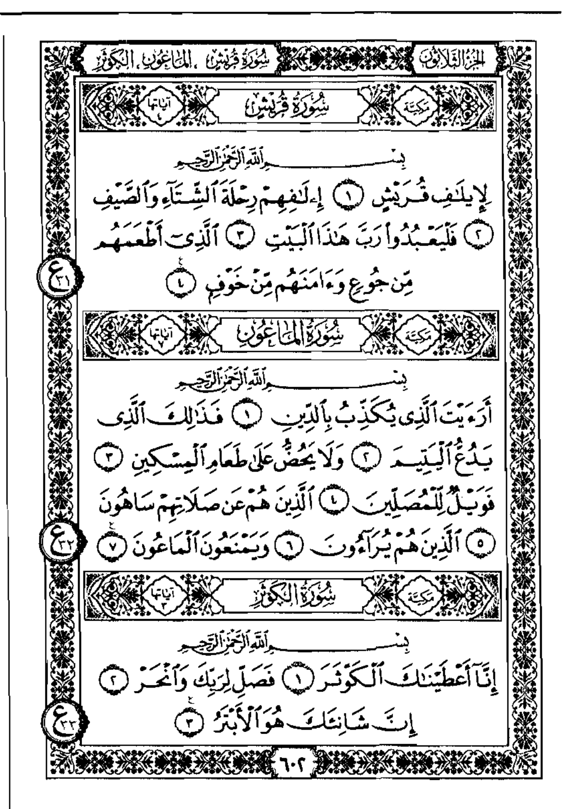
(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ عما أرادوا، وأضل كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾؛ أي: أرسل اللَّه عليهم طيرًا متفرقة؛ تحمل حجارة محماة من

سورة الفيل

(١) أخرج البزار والحاكم والبيهقي في «الدلائل» وابن حبان في «الثقات» وابن سعد في «الطبقات» وابن عساكر بإسناد صحيح لغيره: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ولد النبي ﷺ عام الفيل.

(٢) في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».



سجيل.

(٤) ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فخمدوا وهمدوا وصاروا كزرع وتبن أكلته الدواب وكفى اللَّه شرهم.

سورة قريش وهي مكية

(١) ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم.

(٢) ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ﴾ وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن ﴿وَالصَّيْفِ﴾ للشام؛ لأجل التجارة والمكاسب، فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب.

(٣) ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾؛ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة.

(٤) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف: من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر اللَّه تعالى.

سورة الماعون وهي مكية

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ بالبعث والجزاء؛ فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

(٢) ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾؛ أي: يدفعه بعنف وشدة ولا يرحمه؛ لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثوابًا، ولا يخشى عقابًا.

(٣) ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ غيره ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

سورة قريش

(١) أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» والآجري في «الشريعة» والطبراني وابن عدي والحاكم والبيهقي في «الخلافيات» بإسناد حسن لغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً لسبع خلالٍ: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة في القرآن» ثم تلا رسول الله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ السورة.

(٤) ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ الملتزمون لإقامة الصلاة.

(٥) ولكنهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها، والسهو عن الصلاة هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم، وأما السهو في الصلاة؛ فهذا يقع من كل أحد حتى من النبي ﷺ.

(٦) ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس.

(٧) ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة؛ كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به، فهؤلاء -لشدة حرصهم- يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

سورة الكوثر
وهي مكية

(١) ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير، والفضل الغزير الذي من جملته: ما يعطيه اللَّه لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له: الكوثر، ومن الحوض طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته كنجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا.

سورة الماعون

(٥) أخرج مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن: أنه دخل على أنس بن مالك رضي الله عنه في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، فلما دخلنا عليه قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا ساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا فصلينا، فلما انصرفنا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تلك صلاة المنافق؛ يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا».

(٦) أخرج أحمد بإسناد صحيح: عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوسًا عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال: رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سَمَّع الناس بعمله، سَمَّع الله به سامع خلقه، وحقَّره وصغَّره».

(٧) أخرج أبو داود والنسائي بإسناد حسن: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقِدْر.

سورة الكوثر

(١) أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت عليَّ آنفاً سورة». فقرأ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوضي، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم؛ فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك».

الجزء الثلاثون — سُورَةُ الكَافِرُونَ، النَّصْرِ، المَسَدِ

سُورَةُ الكَافِرُونَ — مكية — آياتها ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

سُورَةُ النَّصْرِ — مدنية — آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سُورَةُ المَسَدِ — مكية — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

٦٠٣

(٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ اجعل صلاتك كلها لربك خالصاً دون ما سواه من الأنوار ﴿وَانْحَرْ﴾ واجعل ذبح المناسك له دون الأوثان. خص هاتين العبادتين بالذكر؛ لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

سورة الكافرون

(١) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: قل للكافرين معلنًا ومصرحًا.

(٢) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: من الأصنام والأنداد.

(٣) ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهو الله وحده لا شريك له؛ فـ(ما) هاهنا بمعنى (مَنْ)

(٤) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾؛ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدى بها، وإنما

---

(٢) أخرج الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إن نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: «شاتك شاة لحم». قال: فإن عندي عناقًا هي أحب إليّ من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزئ أحدًا بعدك».

(٣) أخرج النسائي في «تفسيره» وابن حبان والبزار والطبري بإسناد صحيح: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا؟ ونحن؛ يعني: أهل الحجيج وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه. فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

سورة الكافرون

(١) في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قرأ بـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وبـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف.

وعنده أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر.

وأخرج أحمد وابن حبان بإسناد صحيح: عن فروة بن نوفل بن معاوية عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له: «هل لك في ربيبة تكفلها؟». قال: أُراها زينب - قال: ثم جاء فسأله النبي ﷺ قال: «ما فعلت الجارية؟» قال: تركتها عند أمها. قال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «اقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك».

عبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه؛ ولهذا قال:

(٥) ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾؛ أي: لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته؛ بل قد اخترعتم شيئًا من تلقاء أنفسكم.

(٦) ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الشرك ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام.

سورة النصر
وهي مدنية

(١) ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ في هذه السورة الكريمة بشارة، وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك: فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

(٢) ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره ودخول

سورة النصر

(١) في صحيح مسلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قال: صدقت.

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عباس؛ قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر؛ فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن علمتم، فدعاهم ذات يوم، فأدخله معهم، فما رؤيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول: فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامة أجل ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول.

وأخرج الطبراني بإسناد صحيح لغيره عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ حتى ختم السورة، قال: نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح وجاء نصر الله، وجاء أهل اليمن» فقال رجل يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة قلوبهم، الإيمان يمان، والفقه يمان».

وأخرج أحمد والطيالسي والحاكم بإسناد صحيح لغيره: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قرأها رسول الله حتى ختمها قال: «الناس حيز، وأنا وأصحابي حيز». وقال: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» فقال له مروان: كذبت. وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة. فهرع مروان عليه الدرة؛ ليضربه فلما رأيا ذلك قالا: صدق.

(٢) أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.

وأخرج مسلم عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر =

الناس في دين اللَّه أفواجًا.

(٣) وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فأمر رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره.

وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، وأن الإشارة الثانية فهي الإشارة إلى أن أجل رسول اللَّه ﷺ قد قرب ودنا، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك فأمر اللَّه لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات اللَّه وسلامه عليه.

سورة المسد
وهي مكية

(١) ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أبو لهب واسمه عبد العزى، وكان شديد العداوة والأذية له، فلا فيه دين ولا حمية للقرابة، قبحه الله، فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه يوم القيامة؛ فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾؛ أي: خسرت يداه، وشقي ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يربح.

(٢) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ الذي كان عنده وأطغاه ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئًا من عذاب اللَّه إذ نزل به.

(٣) ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ستحيط به النار من كل جانب.

= الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، وأنه كان توابًا، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وأخرج ابن جرير بإسناد صحيح عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب لا يجيء إلا قال: « سبحان الله وبحمده» فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من «سبحان الله وبحمده» لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد، إلا قلت: «سبحان الله وبحمده»؟ قال: «إني أمرت بها». فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة.

سورة المسد

(١) أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل، فنادى: «يا صباحاه!» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم وممسيكم أكنتم تصدقوني؟» قالو: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب عليه لعنة الله للنبي ﷺ: تبًا لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

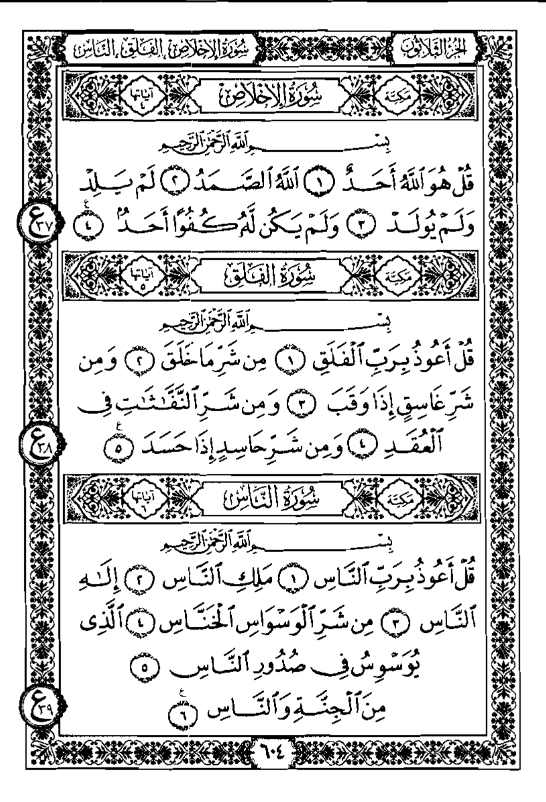
أخرج أحمد بإسناد جيد عن ربيعة بنت عباد من بني الديل، وكان جاهليًا؛ فأسلم، قال: رأيت النبي في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

(٤) هـو ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ وكـانـت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، وتتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان وتسعى غاية ما تقدر على أذية رسول الله ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطبًا

(٥) ﴿فِي جِيدِهَا﴾ قد أعدت لها في عنقها حبلاً ﴿مِّن مَّسَدِۭ﴾ من ليف، أو أنها تحمل في النار والحطب على زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد.

سورة الإخلاص
وهي مكية

(١) ﴿قُلۡ﴾ قولاً جازمًا به، معتقدًا له، عارفًا بمعناه ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال.



(٤) أخرج البزار وأبو يعلى وابن حبان بإسناد حسن لغيره عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس، ومعه أبو بكر فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء. فقال رسول الله ﷺ: «إنه سيحال بيني وبينها» فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر رضي الله عنه: ما رأتك؟ قال: «لا ما زال ملك يسترني حتى ولت».

سورة الإخلاص

(١) أخرج أحمد والترمذي بإسناد حسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فالصمد: الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا؛ فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبرًا من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ؛ فقال: «إني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن».

وأخرج مالك والترمذي والنسائي بإسناد صحيح عن عبيد بن حنين؛ قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة».

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم؛ فيختم بـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ =

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ المقصود في جميع | الحوائج، فأهل العالم العلوي والسفلي

= أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه؛ أن الله تعالى يحبه».

وأخرج البخاري عن أنس ﷺ؛ قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى؟ فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟» قال: إني أحبها. قال: «حبك إياها أدخلك الجنة».

وأخرج البخاري عن أبي سعيد: أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

أخرج أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد جيد عن معاذ بن عبد الله بن خبيب، عن أبيه؛ قال: أصابنا طش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي، فقال: «قل» قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثًا تكفك كل يوم مرتين».

أخرج أحمد بإسناد حسن لغيره عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ؛ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة» فقال عمر: إذا نستكثر يا رسول الله فقال ﷺ: «الله أكثر وأطيب».

أخرج النسائي في «الكبرى» وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكون له كفواً أحد. قال: « والذي نفسي بيده! لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب».

وأخرج الترمذي وأحمد بإسناد صحيح لغيره عن عقبة بن عامر ﷺ؛ قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده؛ فقلت: يا رسول الله، بم نجاة المؤمن؟ قال: «يا عقبة، أخرس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني، فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قال: قلت: بلى جعلني الله فداك. قال: فأقرأني: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال يا : عقبة لا تنسهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن قال: فما نسيتهن منذ قال: لا تنسهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن، قال: عقبة ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله! أخبرني بفواضل الأعمال. فقال: «يا عقبة صل من قطعك، واعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك».

وأخرج البخاري عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما: وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده؛ يبدأ بهما على رأسه ووجه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.
=

مفتقرون إليه غاية الافتقار.
(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه.
(٤) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لا في أسمائه، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

سورة الفلق
وهي مكية

(١) ﴿قُلْ﴾ متعوذًا ﴿أَعُوذُ﴾ ألجأ وألوذ وأعتصم ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح
(٢) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق اللّه من إنس، وجن، وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها.

= وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ قال: «قال الله ﷻ : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي؛ فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي؛ فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد».

المعوذتان

أخرج مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ؛ قال: قال رسول الله ﷺ : «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾». وفي رواية: «أنزل أو أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط المعوذتين».
وأخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندي، دعا رسول الله ﷺ ثم دعا ثم دعا، ثم قال: «يا عائشة! أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند راسي - ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان (وفي رواية: ذروان)؛ قالت: فأتاه رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه، فجاء فقال: «يا عائشة والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رءوس نخلها الشياطين»، قالت: فقلت: يا رسول الله! أفلا استخرجته؟ (وفي رواية : أفلا أحرقته) قال: لا ، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهت أن أثير على الناس فيه شرًا؛ فأمرت بها فدفنت».
أخرج أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب؛ إذ قال لي: «يا عقبة، ألا تركب؟» قال: فأجللت رسول الله ﷺ أن أركب مركبه، ثم قال: «يا عقيب، ألا تركب؟» قال: فأشفقت أن تكون معصية. قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيهة، ثم ركب، ثم قال: «يا عقيب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مرّ بي، فقال: :«كيف رأيت يا عقيب اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت».

(٣) ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

(٤) ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ ومن شر السواحر: اللاتي يستعان على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها على السحر.

(٥) ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود؛ فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة باللَّه من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عمومًا وخصوصًا.

سورة الناس
وهي مدنية

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ هذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس

(٢) ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ومالكهم.

(٣) ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ وإلههم.

(٤) ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، فإذا غفل العبد وسوس إليه ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي إذا ذكر اللـه خنس.

(٥) ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أنه يوسوس في صدور الناس؛ فيحسن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته.

(٦) والوسواس الخناس كما يكون من الجن يكون من الإنس؛ ولهذا قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ شياطين الجن﴿وَٱلنَّاسِ﴾ شياطين الإنس.

❊ ❊ ❊

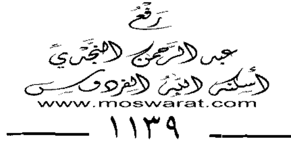
سورة الفلق

(٣) أخرج أحمد والترمذي والنسائي في «الكبرى» بإسناد صحيح عن عائشة ﵂؛ قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدي؛ فأراني القمر حين طلع، وقال: «تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب».

سورة الناس

(٤) أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ حماره فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم، وقال: بقوتي صرعته. وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب».

(٥) أخرج أبو داود والنسائي في «الكبرى» وأحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس ﵄؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إليَّ من أن أتكلم به. قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».



فهرس أسماء السور

تم الصف والإخراج بشركة غراس للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع – هاتف: ٢٤٨١٩٠٣٧
– فاكس: ٢٤٨٣٨٤٩٥ الكويت بدالة المطبوعات ٢٤٨١٠٠١٠– ٩٦٥٠٠


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com